الدكتور أحمد مختار البزرة

الأسر والسجن في شعر العرب

« تاريخ ودراسة »

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

كلمة

الحمد لله الفتاح العليم ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

أما التفكير في هذا البحث فمرجعه إلى خمس عشرة سنة خلت ، حين استقر بي الرأي على تسجيله رسالة للدكتوراه . فأقبلت عليه شغوفاً به لما كنت ألقى من التشجيع على المضيّ في بحث أنف لم ترع فيه أقلام القدماء والمحدثين من قبل .

ولما أوغلت في البحث تكشفت لي أبعاده عن محيط عباب ، مجهول الجهات ،ليس باليسير ولا القريب . وأبت لي العزيمة ودافع التحدي أن أتراجع دونه أو أن اقتصر منه على جوانب محدودة . فطال الأمد وسلخت من عمري ، في التنقيب عن مادته وتصنيفها والكتابة فيها ، زهاء عشر سنين .

وكان من المقرر أن يناقش هذا البحث في جامعة من جامعات لبنان ، ولكن أحداث هذا البلد دعت إلى نقله إلى جامعة البنجاب في لاهور ، فسجل فيها لعام ١٩٧٩ .

وعلى ما أنفقت فيه من الجهد والزمن لا أزعمني بلغت فيه ما تصبو

إليـه النفس من الاحتـواء والإحـاطـة ، ولكني أحسبني أسهمت إسهـامـاً متواضـعـاً في تقديم المفتاح والدليل لدراسة أدب الحبوس لما قبل العصر الحديث ، وجلوت عن هذا الجانب المستور من تاريخ أدبنا فاستخـرجته من ركام القرون ، ووضعته في إطاره ، وقـوّمته تقـويماً مـا هو بـالنزر ولا بالمسهب .

وحسب هذا الكتاب أن يتتبع إنتاج الإنسان المعذّب الـذي أغضتّ الأقلام عن مكانـه في أدبنا ، وأن يعـايش هذا الإنسان في ظلامـه وبلواه ومحنته ، وأن يحكم في قضيته منصفاً من خلال الدواعي والظروف ، وأن يرصد في شعره نبضات قلبه وومضات روحه ، وأن يصوّر واقعه تصويراً لا يعبأ بالتستر والمداراة .

وقد أوصى الأساتذة ، المشرف والمناقشون في جامعة البنجاب بنشر هذا البحث وتبادله . ولكني استأذنتهم بالنهوض عنهم بهذا العبء ، فأذنوا لي . فلهم مني صميم الشكر والامتنان لما كنت ألقى عندهم من المؤانسة والعون .

فـإلى الدكتـور « ذي الفقار علي مـالـك » الـذي أشـرف على هـذا البحث ، وإلى الدكتور « قاضي مجيب الرحمن » ، وإلى الدكتور « س . م . زمان » ، وإلى كل من عرفتهم من العلماء في لاهور وبشاور ، إلى أولئك القـائمين على إحياء ثقـافة العـرب والاسلام في صمت ، خالص التحية والودّ .

د/ أحمد مختار البزرة

المقدمة

عرض وتلخيص

شعر الأسر والسجن ظاهرة ضخمة في شعر العرب لم تتوافر عليها دراسة جامعة قديماً ولا حديثاً ، مسحنا في دراستها نتاج العصر الجاهلي وثمانية قرون من أدب الإسلام .

وكان الهدف هو الكشف عن هذه الظاهرة ، وجلاء معالمها البارزة ، وتحديد اتجاهاتها ، وتقويم خصائصها .

ولم يكن بين أيدينا دراسات فرعية مسبقة تعين على هذا الغرض . وكان علينا أن ننفذ عملية الجمع بالتنقيب عن الأخبار والأشعار في طوايا الدواوين وكتب الأدب واللغة والتاريخ الجامعة . وألزمنا التصنيف بوضع نتاج الحبوس من الشعر في الأطر التاريخية التي اكتنفت صدوره ، وتجلية عناصرها الثلاثة من الزمان والمكان والأشخاص ، وما كان لهم من الدوافع والأسباب ، وما دار بهم من الدوائر .

وجاءت دراسة الرجال في تلك الأطر أرضية أساسية لتمييز أغراض شعر الأسر والسجن ووصفها وتحليلها وتبيان سماتها شكلاً ومضموناً .

ومن ثم كان البحث قسمين متكاملين متساندين : القسم التاريخي ثم قسم الدراسة الأدبية .

ولم نُغْرق في الدراسة التاريخية إغراقاً ينسينا الهدف الأساسي وهو شعر الحبوس . فحددنا معالم الأطر تحديداً كافياً لفهم الأحداث والدوافع والسلوك . واجتنبنا التوسيع الذي لا حاجة للبحث به ، وآثرنا في الدراسة التاريخية الفصل ما بين ظاهرة الأسر وظاهرة السجن . ذلك أن الأسرى ـ على اختلاف الزمان والمكان ـ لهم ظرف تاريخي مشترك هو الحرب . وكثرتهم من عصر واحد هو العصر الجاهلي . فجعل منهم الزمان والمكان والعامل التاريخي جماعة مُتميّزة تستحق دراسة مفردة .

أما غير الأسرى فدواعي سجنهم متعددة معقدة ، وهم من عصور مختلفة وأمصار متباعدة ، فجمعتهم دراسة تاريخية شاملة .

غير اننا جمعنا بين الأسرى والسجناء في الدراسة الأدبية . ذلك أن الإنسان في السجن ـ على اختلاف زمانه وتنوع أسباب حبسه ـ هو الإنسان في أحاسيسه وآلامه ومصابه بحريته .

لذلك استقلت الدراسة التاريخية بفصلين : أحاط الأول بالأسراء ، والثاني بالسجناء .

واستقلت الدراسة الأدبية بالفصل الرابع آخر فصول هذا الكتاب . أما الفصل الثالث فهو الذي عرض لمصادر شعر الأسر والسجن وأنواعها ولحجم هذا الشعر ، وما دخله من منحول وموضوع .

الفصل الأول :

وجعلنا الفصل الأول مباحث أربعة استهدفت بيان الواقع الحقيقي لظاهرة الأسر وجماعة الأسرى والشعراء منهم خاصة . واعتمدنا في تحقيق هذا الغرض على معطيات اللغة والأدب وبعض الأخبار . فاستخرجنا صورة لحياة الأسير الخارجية والذاتية . وبحثنا في الأماكن التي كانوا يوضعون فيها والآلات التي كانت تعوق حركتهم وتمنعهم من التصرف . وكشفنا النقاب عن منزلة الأسرى الاجتماعية وقيمة الأسير المادية والسياسية وصلة ذلك بنظام الحياة والحرب في

الجاهلية والإسلام . وتتبعنا ضروب العذاب والهوان التي كانت تجرى عليهم ، والمصائر التي كانوا ينتهون إليها . وبينا طرق الأسر وأسبابه التي كانت واحدة في الجاهلية والإسلام وهي السياسة والغزو والحرب .

الفصل الثاني :

والفصل الثاني أضعاف الأول حجماً نظراً لغزارة أشعار الحبوس التي تغطي قرابة ثمانية قرون في رقعة جغرافية شاسعة ما بين الأندلس والهند ، جمة النشاط الإنساني المتنوع .

وكان علينا ـ كما في الفصل الأول ـ أن نعالج موضوعاً متشعباً وأن نحصر جوانبه وأطرافه في بناء منسق متكامل . وكانت جوانب البحث كلها جديدة فكان هذا الفصل ثلاثة مباحث . اختص المبحث الأول بجغرافية السجون . فتتبع ظهورها ومواقعها وانتشارها وتكاثرها وأنواعها . ووصف أوضاعها وأحوالها وبيَّن صلتها بأوضاع العصور الاجتماعية والسياسية . واختص المبحث الثاني بالبيئة الاجتماعية للحبوس . فوجد أنها تضم فئة من المجتمع ذات وضع متفرد بشكل تجمعه ومناخ معاشه وأنواع نشاطه وضروب مشاعره وأفكاره وتطلعاته .

فأفردها بالدراسة وميَّز فيها بين طبقتين : هما السجانون والسجناء . وأوضح ما بينهما من التبادل السلبي أو الإيجابي ، وما بين هذه الفئة المحصورة وراء الأسوار والمحيط الخارجي من صلات كانت ذات أثر فعال في واقع السجناء ومستقبلهم وانتاجهم الشعري .

وكان معظم الاعتماد والتعويل في هذا الاستقصاء على المعلومات التي قدمتها قصائد الشعراء ومقطوعاتهم : معلومات عارضة غير أنها بالغة الأهمية في تحديد المواقع ومعرفة حقائق الأوضاع ، ودقائق الامور العامة والخاصة ، ودخائل النفوس ، والأسباب الخفية والظاهرة المؤثرة في حياة السجناء وما صدر عنهم من قول أو فعل .

أما الأسباب التي أدت إلى السجن بالشعراء فاختص بها المبحث

الثالث . وهي لا تخرج عن الأسباب السياسية أو الجنح الفردية أو المخالفة عن القانون والأعراف والآداب والمعتقدات . وكان بحثاً جامعاً مفصلاً مركزاً معاً . وضع كل شاعر في مكانه من الأسباب والدواعي . فبحث عن الأسباب الظاهرة المدعاة وعن المستورة الخفية . ووصل ذلك بتيارات العصر العامة واتجاهاته الخلقية والسلوكية والفكرية والسياسية . ولم يمس من الأسباب العامة إلا ما وضّح ملابسات الحبس .

وكان بين يدى هذا المبحث قضايا مغفلة لم يتطرق لها تاريخ الأدب بتحقيق . فنهض المبحث بهذا العبء وحقق ضمن الشرائط الموضوعية في الدواعي الحقة التي سجن بها الشعراء . واستحضر أدلة الإثبات مما صرح به الشعراء أنفسهم في ضوء أحداث العصر والبيئة ومقاصد الرجال . وفصل في الأمور ، على ضوء تلك المعطيات ، بآراء جديدة بدت في كثير من الأحيان تعارض كل المعارضة التعليلات العابرة الشائعة المذكورة في حبس الشعراء .

وقد أفاد هذا المبحث فائدة كبيرة في تَدبُّر ما أنتجته الحبوس من شعر تَدبُّراً يتجاوز السطح إلى الأعماق كما كان الأساس في تحديد أغراض هذا الشعر ومقاصده .

الفصل الثالث :

والفصل الثالث اتجه إلى بيان وفرة الإنتاج الشعري في الحبوس بالكشف عن مصادره العديدة وحصرها ، والنص على ما بقي منها وما ذهب . ووصف تلك المصادر ، وبيَّن طريقة الاختيار فيها والغرض منه ، وقيمة المادة التي اختارتها . وعرض لبيان الأسباب العامة التي فقدنا من جرائها كثيراً من هذا الشعر ، وإلى الدواعي التي حملت على الوضع فيه أحياناً .

وانتهى إلى تقرير حقيقة : هي أن شعر السجن إن ذهب أكثره فقليله الباقي كثير موثوق .

الفصل الرابع والأخير :

ويكاد يكافىء الفصل الرابع الفصلين الأولين حجماً . وهو مبحثان : الأول في أغراض شعر الحبوس والثاني في خصائصه .

وصنفت أغراض الشعر تصنيفاً يوافق حياة الشعراء في حبوسهم . فكان منها ما يصف الحياة الذاتية ، ومنها ما يصف مناخ الحبس وظروف معاشه ، ومنها ما يصف التبادل والتعاطي ما بين السجناء ومن هم خارج السجون .

وألمَّ الوصف الذاتي بالجوانب النفسية والعاطفية والفكرية للسجناء . فسجَّل تجارب السجناء الشعورية ، وردود فعلهم من واقعة الحبس ، وما أحدثت فيهم من تشامخ وترفُّع أو تصاغر وانهيار ، ووصف آلامهم وأشواقهم وحسراتهم وما سنح لهم من التأمل والاعتبار .

أما الحديث عن و اقع السجن ومجتمعه فعرض لوصف المعتقلات وسجانيها وما فيها من البلاء وما يلقى أهلها من الشقاء وما يسامون من العذاب .

وأحاط حديث التبادل ما بين السجناء والمحيط الخارجي بنواح هامة : هي مواقف الشعراء من السلطان وما لبسوا له من التخضع والتذلل والعبودية أو ما كان منهم من الصون للكرامة والتحدي أحياناً . وكذلك مواقفهم من أصدقائهم وذوي قرباهم .

ولم تستبعد بعض الأغراض التقليدية في شعر الحبس كالغزل ووصف الناقة والطير إذ وجدنا تجربة الشعر قد تركت فيها ظلالاً خاصة .

ونحونا في بيان هذه الأغراض إلى التفصيل الوافي . فإن تجربة السجن تتجلّى فيها في أقوى أحوالها .

وأوردنا من شواهد الشعر ما يكفي تدليلاً . وأشرنا في الحواشي إلى نظائر ما استشهَدْنا به .

وميَّزنا في المبحث الثاني من هذا الفصل الأخير بين أنواع النَظْم ،

فاصطلحنا على تسمية القصائد التي تزيد على « ٢٢ بيتاً » بالحبسيّات ، وسمَّينا ما قلّت أبياتُه عن ذلك العدد ، ولم تنقص عن سبعة ، بالقصائد القصار ، وما كان أقلَّ من ذلك بالمقطوعات .

وفصَّلنا القول في الأنواع كلِّها . فكان لدينا من الحبسيّات أصنافٌ ثلاثةٌ : حبسيات المدح ، وحبسيات قبلية ، وحبسيات ذاتية . حللنا نماذج من كل صنف ، وأظهرنا عناصر تركيبه وسماته البارزة ، وبيَّنا مواضع الاتفاق أو الافتراق فيما بينها ، وأظهرنا أثر تجربة الحبس في إحداث عناصر جديدة أو في صياغة العناصر التقليدية .

واتّبعْنا أسلوبَ التحليل الذاتي في بيان خصائص القصائد القصار ، والمقطوعات وما تمتاز به عن الحبسيات المطولة . وكان همنا في العمل كله منصرفاً إلى إيضاح أثر تجربة السجن في عملية النظم وانعكاساتها في الانتاج الشعري .

أما خصائص شعر الأسر والسجن فكشفنا عن معظمها في العمل التحليلي السابق وركزنا في حديث موجز أشهر السمات الأساسية التي امتاز بها هذا الشعر . فقابلنا بين خاصتين بارزتين : العفوية والتصنع . وأظهرنا خضوع طرائق النظم في السجن للبيئات الجغرافية والمثل الأدبية ، وأثر تجربة السجن في هذه الأساليب والألفاظ والتراكيب ، وما طرأ من نواح تجديدية في مطالع القصائد أحياناً ، وما ظهر من أثر أسلوب الترسل البسيط والمعقد في قصائد الشعراء الكتّاب .

وكنا آثرنا في القسم التاريخي من هذا المبحث ان نجعل الأدلة من الأشعار والأخبار في الحواشي كيلا تنقطع سياقة الحقائق المقررة في المتن . ولم نرض بالإشارة وحدها إلى المرجع . فكنا نورد الخبر أو الشعر بنصه دعماً للمتن . فالحواشي في حد ذاتها كتاب منسق وُفْقَ الحقائق المقررة في أعلاها . أما في قسم الدراسة الأدبية فجعلنا في سياقة المتن من الأدلة والشواهد ما يفي

بالغرض . ولم نستغن عن ذكر بعضها في الحواشي أيضاً ، أو الإشارة إلى مصادرها دون ذكرها أحياناً .

وانتهى البحث إلى تقرير حقيقة هامة هو أن كل ما نظمه السجناء من الشعر ـ حتى ما يعد من شعر المناسبات ـ قد صبغه السجن بصباغه وأضفى عليه ظلاله .

وإذا كان الكمال في الإنجازات الكبيرة أمراً عسيراً والتقصير أو الزلل شيئاً متوقعاً فإن ما بذلنا من الجهد والصبر نضعه بين أيدينا عذراً .

والحمد لله رب العالمين

دمشق في ٢٢/رمضان/ ١٤٠٣

١٩٨٣/٧/٢

أحمد مختار البزرة

الفَصْل الأوَّل

الأَسْرُ وَالسِّجْن في الجَاهِليَّةِ وَالإِسْلام

الفَصْل الأوَّل

الأسر في الجاهلية والإسلام

ليس ثمة كتاب للأقدمين في الأدب والشعر ، مما انتهى إلينا خبره ، أفرد للحديث عن شعر الأسر ، على إحاطتهم به ودرايتهم الواسعة بوقائعه وظروفه . لكنهم فرّقوه في ثنايا عديد المؤلفات الموسَّعة والموجزة ، مُتّصلاً بالأخبار أو مضموماً إلى المختارات أو مرفقاً بذكر الأماكن والبلدان . ذلك أنهم لم يقصدوا إليه لذاته بل جعلوا منه شاهداً على الأحداث ، ووصفاً لها وللمواضع ودليلاً على جودة الاختيار . ولم يظفر هذا الموضوع بعناية من الذين ألّفوا في الموضوعات المستقلة [1] . كذلك الذين جمعوا الحماسات والمختارات أبواباً وُفْقَ أغراض الشعر لم يمنحوا الأسر باباً خاصّاً بهم . وأغلب الظن أنهم نظروا إلى مادّته الفنية فكانت عندهم في مجملها ، لا تخرج عن موضوعات الشعر المعروفة أو أنها لا تضارع ـ في تقديرهم ـ الأغراض الكبرى التي أقرّوا لها بالتقدِمة من المدح والنسيب والرثاء والهجاء [2] . غير أن جميع شذرات هذا

---

(١) اهتمام القدماء بالموضوعات المستقلة في الشعر كثير . وأسماء بعض الكتب دليل مثل : أشعار النساء للمرزباني (معجم الأدباء : ٧/ ٥٠) وأشعار أولاد الخلفاء للصولي (المقدمة من كتاب الأوراق للصولي) وطيف الخيال للشريف المرتضى ، ولصوص العرب (معجم الأدباء : ٧/ ١٦٩) .

(٢) انظر ابن رشيق : العمدة (١/ ١٠٠) .

الشعر وما التفّ عليه من الاخبار والقصص يُكوّن مادة مُمْتعة جديرةً بالدراسة والتقويم ، ويُخْرِجُ منها التَصْنِيفُ والتحليل بحثاً فيه الكثير من الحقائق التاريخية والانسانية والاجتماعية والأدبية ، يُطّلع فيها على فئةٍ غير قليلة من المجتمع - في الجاهلية والإسلام - ممن كانوا يعيشون في أيدي أعدائهم أسرى ، وتُعْرَف حياتهم في مظاهرها الخارجية وفي انفعالاتها المستترة في أعماقهم ، ويخلص من ذلك إلى صورة للأسرى في بيئاتهم واقعية دقيقة .

ومن المفيد ، في سبيل هذا القصد ، أن يُعَوَّل على لغة الأسر في ألفاظها وتراكيبها وصورها التي اتصلت بحياة الأسرى ونفوسهم ، وأن يُسْتَنْبط مضمونُها استنباطاً موضوعياً للتعرف على أحوالهم وهم في أيدي أعدائهم وما كان ينزل بهم من ضروب المعاملة والنكال ، وما كان يوضع عليهم من القيود وآلات التعذيب .

ومن النافع أيضاً أن يستفاد من أخبار الأسر وحوادثه . ولا شك أن الكثير منها له مسيس الصلة بواقعهم ، وأن بعضها فيه للمبالغة أو الوضع حظ عظيم . ولكنها على الحالين - نافعة في تكوين صورة للأسير كما هو في حقيقة حاله ، أو في تصور أهل زمانه . ولا يُسْتغنى عن هذه الأخبار في تقدير منزلة الأُسَراء ومكانتهم الاجتماعية .

ولما كان للأسر طُرُق وأسباب لها الأثر الأول فيما يصدر عن الأسير من الشعر ، فمن الخير ان يُطَّلع على الشعراء في إطار الأحداث التي ساقت بهم إلى المعتقل .

لذلك رأينا أن نجعل الفصل الأول من هذا الكتاب تقدمة بين يدى دراسة شعر الأسر [1] ، لنتعرف بالشعراء وظروفهم قبل تقويم الشعر والحكم عليه . فنختبر الرصيد الحقيقي لكلمتي الأسر والسجن في لغتنا وما تعكسان من

---

(١) ومكان هذه الدراسة الفصل الرابع من هذا الكتاب .

الظلال ، ونوضح القيمة المادية للأسرى وأثمانهم ، ونُبَيِّن المنزلـةَ التي كانت لهم والمصائر التي انتهوا إليها ، ونذكر وقائع أسر الشعراء من خلال الأحداث السياسية والاجتماعية التي أحدقت بتلك ـ الوقائع .

المبحث الأول

كلمتا الأسر والسجن
الصـــورة والمضمـــون

إذا آل أمر المَرْءِ إلى عدوه فتمكن منه التمكن كله ، وقدر على أن يتصرف بمصيره ـ كما يشاء ـ حياةً أو موتاً أو استرقاقاً فقد أصبح أسيره وحبيسَه . ونتبيّن ذلك في مواقف الأسرى وما يرين عليهم من الخوف واليأس ، وما يلبسون لخصومهم من الاستكانة والمهانة (1) . ونستشفه أيضاً من الأصل اللُّغوي لكلمة

---

(1) هجا الأعشى علقمة بن علاثة فلما أسره قال :

أعلقم قد صيرتني الأمور إليك وما كان لي منكص
فهب لي ذنوبي فدتك النفوس ولا زلت تنمي ولا تنقص

(ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ق ٨١ ص ٣٦٩ ، شرح الدكتور م. محمد حسين ، مصر ١٩٥٠ م) .

ويصور هذه الحالة النفسية بيتان في حماسة أبي تمام :

خليلي بين السلسلين لو أنني بنعف اللوى أنكرت ما قلتما ليا
ولكنني لم أنس ما قال صاحبي نصيبك من ذل إذا كنت خاليا

(شرح الحماسة للتبريزي : ٣/١٠٩ . بولاق) .

وقال أحد اللصوص السجناء أيام الأمويين وهو طهمان بن عمرو الدارمي :

وما كان غض الطرف منا سجية ولكننا في مذحج غربان

(معجم البلدان : دمخ : ٤/٧١) .

وانظر بيتين يصوران خوف الأسير في ديوان طرفة بن العبد : ١٤٤ الطبعة الأوروبية / ١٩٠٠ .

« أسير » ، فإنه ذلك المشدود بالإسار [1] . ويستتبع الشد بالقيد الخضوع المطلق لسلطان الآسر ، والعجز عن المقاومة والإعطاء باليد .

الصورة الخارجية :

وهذا المعنى يتصل بالصورة الخارجية وهي صورة عامة مجملة لا توضح ما يعانيه المأسور من أحوال العنف والتضييق والمهانة ، وما يكون عليه من أوضاع تتفاوت أذى وشدة . ولو استأنسنا ببعض النعوت التي يوصف بها الأسير أو ببعض المترادفات التي تنطلق عليه اتضحت لنا معالم الصورة الخارجية .

فالتقييد ملازم لعملية الأسر [2] ، تتعطل فيه حركة المأسور ويؤمن جانبه ويسلس قياده . ولكن أشكال التقييد عديدة متنوعة دلت عليها الصفات التي أطلقها العرب على الأسرى . فقد يكون قاصراً على غل اليدين والساعدين من جهة الصدر ، فتجمعان وتجعلان من أمامه [3] ، وقد تجعل اليدان من وراء

---

(١) الإسار والأسرة : القد (المخصص لابن سيده : ١٢/٩٧ . بولاق ١٣١٩ هـ) وجاء في المفضليات (ص : ٧٥٧ . بيروت ١٩٢٠) « والأسر الشد ومنه سمي « أسير » لأنه يشد بالقد .

(٢) ولهذا التلازم أسبابه التي سنبيّنها بعد قليل في الحديث عن القيد ، إذ اتصل التقييد بعملية الأسر حتى ما تعن صورة الأسير في خيال أو ذكر إلا مرفقة بقيد ، قال عنترة :

كأن الجدي في مثناة ربق ... أسير أو بمنزلة الأسير

(الحماسة البصرية : ١/٢٣) والجدي من النجوم الدائرة مع بنات نعش . وقال الأعشى في إطلاق بعض الأسرى :

ففك عن مئة منهم وثاقهم ... فأصبحوا كلهم من غله خلعا

(ديوانه : ص ١١١ قصيدة ١٣ البيت ٦٨) .

(٣) قال قرة بن قيس بن عاصم يوم ثيتل في الجاهلية :

وجثامة الذهلي قدناه عنوة ... إلى الحي مصفود اليدين مفكرا

(نهاية الأرب : ١٥/٣٨٣) .

الظهر مشدودتين بالحبال فيسمى التقييد تكتيفاً [١] .

ولعل هاتين الحالتين أهون ما يعانيه الأسير إذا قيستا بأحوال أخرى تتعطل فيها حركته كلها ، ويصبح عاجزاً عن المشي عجزاً مطلقاً : فمن ذلك أن يُؤْمر بالجثُومِ على الأرض مع انحناء الظهر حتى تصير يداه تحت رجليه ثم تشد أطرافه معاً فيصبح كومة واحدة وسميت هذه العملية بالقرفصة [٢] .

وثمة أوضاع لا تبلغ من الرهق هذا المبلغ ولكن لا تقل عنها في تعطيل الحركة وشد الأعضاء ، فتضيق الأغلال حتى تؤثر في الجسم تأثيراً أليماً وتلك هي الجرفسة [٣] أو أن يصرع ويطرح أرضاً لجنبه وتجمع يداه ورجلاه ، ويشد الوثاق فينضم ويدخل بعضه في بعض فلا يتحرك إلا بجهدٍ مضنٍ ، وكأن شأنه شأن البعير المقيد الذي ضيّق عليه صاحبه حتى ما يتحرك أبداً وهو عندئذٍ في حال كرفسه [٤] أو قد كردس كردسه [٥] .

المضمون :

وإذا كانت هذه الصوة تنطق بعنت الأسر وقسوته وعتوه وبألم المأسور

---

(١) الكتف والتكتيف : شد اليدين من خلف . وقد كتفته وكتّفته . الكتاف ما شددته به . (المخصص لابن سيده : ١٢/٩٧) .

(٢) القرفصة : شد اليدين تحت الرجلين . قرفصته قرفصة وقرفاصاً . ومنه قيل للصوص القرافصة لأنهم يقرفصون الناس . (المخصص : ١٢/٩٧) .

(٣) الجرفسة : شدة الوثاق (تاج العروس ٤/١٩٣) .

(٤) الكرفسة : مشية المقيد ، وأن تقيد البعير فتضيق عليه فلا يقدر على التحرك ، وتكرفس الرجل إذا انضم ودخل بعضه في بعض (تاج العروس) .

(٥) الكردسة كالكرفسة ، والكردسة : الوثاق (التاج) . وقال امرؤ القيس :

فبات على خد أحم ومنكب ... وضجعته مثل الأسير المكردس

(ديوان امرئ القيس : ١٠٢ ، محمد أبو الفضل إبراهيم) وبات : أي الثور : الأحم : الأسود . ضجعته : هيئة نومه .

وعجزه وشقائه فإن المعنى الداخلي لكلمة الأسر أبلغ مضموناً وأقوى إفصاحاً في بيان حقيقة الكلمة وما يدور حولها من مشاعر وأحاسيس ، وما يكمن فيها من ضنك وبؤس ومآسٍ يدل على ذلك هذه الأفكار والمخاوف التي كانت تحوم في نفس العربي إذا لاح له شبح الأسر حتى نرى بعضهم يفضل العار أو الموت عليه لما فيه من محنة معذبة وبلاء فادح (١) ، ولعلمه بما فيه من مهانة تمحق الكرامة وتجعل الأعز الأذل ، وتفقد المرء قدره الإنساني .

وهذه أشباه كلمة الأسر ونظائرها تلقي بين أيدينا مكنونها ، فإنه إذا أسر الأسير كان معفوساً أي محبوساً . وكلمة « العفس » (٢) تزخر بمعنى الاحتقار والاتضاع والذلة فإذا صار الرجل معفوساً أشبه الناقة المحبوسة الممنوعة من الرعي المحرومة من العلف وقد يسام ما تسام من الحرمان والتجويع (٣)

وإذا آل إلى هذه الحال صار من الامتهان بمكان وضيع كما تمتهن الحاجة ، وانحط شأناً إلى مستوى التراب (٤) .

وفي الأسر والسجن معنى الإسقاط باليد والتسليم للموت إذ يُسَمّون السجن « مُخَيّساً » ، ويلقي هذا الاسم ظلاً كثيفاً لأصل معروف للكلمة فإنهم

---

(١) روى الخالديان ولم يعزواهما (الأشباه والنظائر : ٢/٣٠٣) :

قالت إمامة لم تكن لك عادة ... أن تترك الأصحاب حتى تعذرا
لو كان قتل يا إمام فراحة ... لكن فررت مخافة أن أوسرا

(٢) العفس : الحبس : يقال عفس الدابة والماشية عفساً : حبسها على غير مرعى ولا علف .

والمعفوس : المحبوس (تاج العروس) .

(٣) قال أدهم بن حازم الضبي (الحماسة البصرية : ١/٦٠) وهو جاهلي :

فما نسلب القتلى كما قد فعلتم ... ولا نمنع الأسرى من الأكل والشرب

(٤) العفس : الابتذال للشيء والامتهان . يقال عفست ثوبي : ابتذلته . وانعفس في التراب : انعفر . (تاج العروس) .

إذا خيسوا [1] الإبل منعوها الرعي وحبسوها للنحر . إنّ شبح الموت كـامن في الأسر وظاهر فيه يترقبه المأسور ويحذره ويعتبر النجاة منه حياة جديدة [2] . ولا أحسبني بعيداً عن الصواب إذا اعتبرت تسميتهم للأسير « هَدِيّا » تقريـراً لهذه الحال حال إشرافه على الموت وتقديمه قرباناً . فـإنهم يسمون النّعَم المهـديَّ إلى الكعبة للنحر هَدْياً[3] .

ولم نكن مغـالين حين ذكـرنـا أن كلمـة الأسير تـزخـر بمعنى الامتهـان والعبودية ، فكان العربي يحس أن من فقد حريته وأمسى في حوذة العدو ضاع معنى وجوده ،ولم يكن خيراً من الحيوان الضعيف المسالم المقيد ، فإذا قالوا (ربق فلان في السجن)[4]أرادوا أنه آل إلى ذلة البهيمة المشدودة من عنقها بحبل .

---

(١) خاس به خـوساً : غـدر به . والخيس : الغم والضـلال . خيّسه تخييسـاً : ذلله . والمخيس : السجن وهو موضع التذليل (تاج العروس) .

(٢) قال الشاعر الجاهلي :

تـداركت لحمي بعـدمـا حلقت بـه ... مـع النسـر فتخـاء الجنـاح قبـوض
فقلت لهـا : ردي عليـه حيـاتـه ... فـردت كـمـا رد المنيـح مـفيض

وهو الشاعر بشر بن أبي خازم شاعر بني أسد في أواخر القرن السادس الميلادي وأحـد فرسانها . هجا أوس بن حارثة الطائي ثم أسره أوس ، فاعتذر إليه ، ولم يمدح غيره بقية حياته . قتل في إحدى غزواته . والبيتان من قصيده في مدح أوس بن حارثة وهو في أسره (الديوان ق ٢٢ ص ١٠٦ تحقيق الدكتور عزة حسن . ط دمشق ١٩٦٠) . والمنيح : سهم من سهام الميسر والمفيض : الضارب بقداح الميسر .

(٣) أطلق المتلمس على طرفة بن العبد حين قتله عمرو بن هند اسم الهدي :

كـطريفـة بن العبـد كـان هـديهم ... ضـربـوا صميم قـذالـه بمهنـد

(أي كان أسيرهم ولعل هذا البيت يسمح لنا أن نخصص كلمة « هدي » بالأسير المقدم للقتل) .

(شرح شواهد المغني للسيوطي : ٢٩٦/١) .

(٤) الربق بالكسر حبل فيه عدة عـرى يشد بـه البهم الصغار من أعنقهـا أو أيديهـا لئلا ترضع ، كل عروة منها ربقة . والربيقة : البهيمة المربوقة في الربقة (تاج العروس) .

وكانت كلمة الأسير تبعث في نفس العربي هذه المعاني كلها وتبعث غيرها من المعاني المفزعة الأليمة كالانقطاع عن العشيرة والأنصار وصيرورته عرضة للتمثيل به وقطع أنفه أو أذنه كما تفيدنا ذلك لفظة « جدع »(١) بمعنى حبس .

فكأنما الانسان اذا ما أسر قطع ما بينه وبين ما يسمى حياة حقيقية ووجوداً إنسانياً وأمسى ملكاً للعدو يتصرف به نفساً وجسداً أنّى شاء .

فإذا ألفنا بين الصورة الخارجية لهذه الكلمة ومضمونها الداخلي أدركنا مدلولها إدراكاً واضح المعالم بارز القسمات وابتعثت فينا من الأحاسيس مثلما كانت تبعث في نفس العربي قديماً ، وأمكننا أن نفهم على ضوء ذلك مواقف الآسرين والمأسورين فليست هذه الكلمة ذات مضمون واحد بل ذات مضامين عديدة تختلف اختلافاً كبيراً فيما توحيه من العذاب والألم والاستذلال ، ولكنها تنتهي جميعها إلى مضمون واسع هو حجز حرية الإنسان وتعطيل حركته وإلْزامه بالإقامة في مكان معين . ولذلك كان كل محبوس أسيراً (٢) .

وهكذا ننتهي إلى أن عماد كلمة الأسير أو السجين ثلاثة عناصر :

سلب الحرية ، وتعطيل الحركة ، والإقامة الإجبارية (٣) . ولكنها لا تتساوى قيمة ومقداراً . وأهم ما فيها العنصر الأول من غير شك ولا يزال المرء يشعر أنه لا يملك أمره ولا نفسه إذا حيل بينه وبين التصرف الحر الإرادي ولو كان مطلق اليدين مفسوحاً له في الأرض ، وعندئذ تكون الأرض كلها سجناً كبيراً ، إن المسألة أولاً وأخيراً مسألة سيادة الإنسان على ذاته من غير أن يكون

---

(١) الجدع كالمنع ، الحبس والسجن وقطع الأنف أو الأذن أو الشفة (القاموس المحيط) .

(٢) « كل محبوس أسير » (المخصص لابن سيده ١٢/٩٧) .

(٣) والفرق بين تعطيل الحركة والإقامة بالإجبار هو أن الأولى إذا حصلت اختياراً ليست من السجن في شيء فالإقامة الإجبارية تعطيل للحركة وليس كل تعطيل لها إقامة إجبارية .

لأحد مشاركة في هذه السيادة . ولو اختار أحدنا أن يغلق الباب على نفسه وألا يضرب في الأرض لما كان سجيناً أبداً إذ لا إكراه في الأمر ولا غلبة على الحرية الشخصية المقدسة . وخيرمن يشهد لنا بصحة رأينا العبيد المستملكون المسخرون في مصالح السيد المالك . فهؤلاء لم تفرض عليهم إقامة ولم يغلق عليهم باب ، وكانوا يسعون في الأرض لأنفسهم ولأسيادهم ومع ذلك كانت مشاعرهم مشاعر الأسرى السجناء [1] .

وترادف لفظة أسير في الجاهلية لفظة سجين ، ولا تزيد عليها بمضمون إضافي . ونلمح [2] الترادف ذاته في صدر الإسلام إذ سمى النبي ﷺ المحبوس « أسيراً » [3] انطلاقاً من فهم الإسلام لكلمة حبس وهو « تعويق الشخص

---

(١) وانطلق أحدهم من هذا الشعور عندما قال وقد ضربه مولاه :

ولولا عريق فيَّ من حبشيّة ... يرد إباقي بعد حول مجرم
وبعد السرى في كل طخياء حندس ... وبعد طلوعي مَخْرَماً بعد مخرم
علمْتَ بأني خير عبد لنفسه ... وأنّك عندي مغنم أي مغنم
أيضربني فرداً ولو كان مفرداً ... تبين أن الليث غير مقلم

الأبيات : معزوة في (الحماسة البصرية ١/٥٦) لفلحس الأسود .
حول مجرم : مرور سنة . طخياء : الليلة المظلمة . حندس : مظلم . مخرم السيل والجبل : أنفه والمخارم الطرق في الغلس وأوائل الليل .

(٢) من الأدلة على ذلك ان أحدهم قد يكون مجاوراً في قبيلة لا تمت إلى قبيلته بصلة ، فيقع منه ما يوجب عليه حقاً أو قصاصاً فيصبح فيهم أسيراً حتى يُؤَدي ما عليه ، ولم يؤخذ في حرب أو اختطاف ولعل في هذا الخبر الذي نسوقه من الأغاني (١١/١٢٧ . بولاق) مقنعاً : « كان أبو الطمحان القيني مجاوراً لبطن من طيء يقال لهم : بنو جديلة ، فنطح تيس له غلاماً منهم فقتله ، فتعلقوا أبا الطمحان الشاعر وأسروه حتى أدى ديته مائة من الإبل . وجاءهم نزيله وكان يدعى هشام ليدفع عنه فلم يقبلوا قوله » . وأورد له صاحب الأغاني شعراً في هذه المناسبة . انظر ترجمة أبي الطمحان في (ص ٢٨ ح ٢) من البحث .

(٣) التراتيب الإدارية : ص ٢٩٢ لعبد الحي بن محمد الكتاني . طبعة الرباط / ١٣٤٦ هـ نقلاً عن (الأحكام السلطانية للماوردي) .

ومنعه من التصرف بنفسه » [1] وكان هـذا الترادف لا يـزال ملحوظـاً في العصر الأمـوي [2] . وأما في العصـر العباسي فـإن لفظة أسيـر بدأت تختص بـالذين يؤخذون [3] حرباً ، والسجين أو الحبيس هو من تعتقله السلطة [4] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) نؤيد رأينا بما أورده ابن خلكان في (الوفيات : ٢/٨) ، ولما كان خالد (ابن عبد الله القسري) في سجن يوسف بن عمر (الثقفي في العراق) مدحه أبو الشعب العبسي بهذه الأبيات وهي في كتاب الحماسة :

ألا إن خيـر النـاس حيـاً وميتـاً ... أسير ثقيف عنـدهم في السـلاسـل
فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ... ولا تسجنـوا معـروفـه في القبـائـل

(٣) قال المعتمد بن عباد الأندلسي بعد الحرب التي كـانت بينه وبين المـرابطين والتي انتهت بتسييره إلى العدوة الإفريقية وسجنه في أغمات .

غـريب بـأرض المغـربين أسيـر ... سيبـكي عليـه منبـر مـريـر

(ديوان المعتمد بن عباد ص ٩٨ . جمع أحمد بدوي القاهرة / ١٩٥١ م) .

وقال أيضاً في (ص ٩٠) وقد دعا له أحدهم بطول البقاء :

دعـا لي بـالبقـاء وكيف يهـوى ... أسـيـر أن يـطول بـه بـقـاء

(٤) ليس لدينا قول ينص على ذلك نصاً ، غير أن قراءتنا الكثيرة في كتب التاريخ والأدب واستفاضة استعمال كل من الكلمتين في موضع غير الآخر انتهى بنا إلى هذا الترجيح ، وإن النظر في ما كتبه هلال الصابي في « تحفة الأمراء » وأبو الفرج الأصفهاني في « الأغـاني » وفي « مقاتل الطالبيين » وأبو علي الحسن بن أبي القاسم التنوخي والقرشي في « الفرج بعد الشدة »والطبري في تاريخه وما أورده المؤرخون عامة من أخبار ينتهي بنا إلى هذا الرأي .

المبحث الثاني

آلات الأسر وأمكنته

آلات الأسر

لا تزال الجامعة حتى هذا العصر توضع في يدي من يقاد إلى السجن وهي شكل مهذب للقيد القديم، ليأمن رجال الأمن من يديه ريثما يودع في محبسه . وأمّا في الفلوات فحاجةُ الآسر إلى القيد أمسّ للتمكن من الأسير فضلاً عن امتهانه وإذلاله ولتعوقَ القيودُ حركته فلا يقدر على الإفلات إذا مشى بين يدي الآسر ، أو تركه في خبائه ، وليكون صوتها منبهاً على أدنى انتقال أو تقلب وكانت أصواتها شديدة الإيذاء تغنيهم غناء مكروها(1) .

فالتقييد هو الصفة الملازمة للأسر ، ويستلزم هذا عُدداً خاصة ، وكان القد الجلدي أيسر أنواع القيود وأقربها مُتناولاً في حياة العرب إذ يؤخذ من جلود أنعامهم . وكان مع كل محارب لخفة وزنه وسهولة حمله فهو لا يعوق سرعة

---

(1) قال عتيبة بن الحارث في أسره بسطام بن قيس في الجاهلية :

قاظ الشربّة في قيد وسلسلة صوت الحديد يغنيه إذا قاما

والشربة : صحراء معروفة . (النقائص : ١/ ٣١٤) .

وفي القرن الخامس الهجري قال المعتمد بن عباد وهو مسجون :

يُعيد على سمعي الحديد نشيده ثقيلاً فتبكي العين بالجس والنقر

(ديوان المعتمد بن عباد ص ١٠٦ جمع أحمد أحمد بدوي . طبعة القاهرة/ ١٩٥١ م) .

المطية . وربما كان أول ما يوضع بيد الأسير من الأقياد[1] . ثم إذا ألقى الأسير في محبسه أثقل بالحديد . ويكون القد أحياناً على حاله الأول ، فيه الشعر من غير دباغةٍ فتنشأ فيه الديدان والقمل[2] .

غير أن الحرص على الأسير كان يحملهم على وضع الحديد في يديه ساعة القبض عليه ، فيشد بعض جسده بالسلاسل ويداه بالقيد[3] . والسلسلة حبلٌ ليِّن من الحديد ذو حلقات تدخل كل حلقة بما بعدها ، والقيد أمتن صنعاً وأثقل وزناً لا يجدي فيه المراس ، أسود اللون[4] . وللقيد صفة معلومة فهو على قدر كاف لأن يحيط باليدين أو الرجلين ، وينتهي طرفاه بحلقتين هما حجلا القيد[5] ويصل بين الحجلين عامود من حديد يسمى « الزمارة »[6] ، وهو

---

(١) قال زهير بن جناب الكلبي في قتاله بني تغلب في الجاهلية :

إذ أسرنا مهلهلاً وأخاه ... وابن عمرو في القد وابن شهاب

(الاغاني ١/ ٦٥ . ٧ ط بولاق) .

(٢) جاء في (المخصص لابن سيده ١٢/ ٩٤) « قولهم في المرأة غل قمل » أصله أنهم كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الشعر فيقمل » .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٦ .

(٤) قال قرة بن قيس بن عاصم :

وحمران أدته إلينا رماحنا ... فنازع غلا في ذراعيه أسمرا

(نهاية الأرب للنويري : ١٥/٣٨٣) .

(٥) جحلا القيد : حلقتاه (المخصص ١٢/ ٩٤) .

(٦) الزمارة : عامود بين حلقتي الغل . (المصدر نفسه) . وقال جحدر بن معاوية اللص :

الدهر أرسف في كبل أعالجه ... وحلقة قاربوا فيها بمسمار

(منتهى الطلب من أشعار العرب : ١/ ٢٦٣ البيت : ١٩ لمحمد المبارك بن ميمون البغدادي . مخطوطة مصورة عن معهد إحياء المخطوطات العربية) .

وقال العرجي الأموي وهو مسجون بمكة :

فكم من كاعب حسناء رود ... ألوف الستر واضحة التراقي

بكت جزعاً وقد سمرت كبولي ... وجامعة يشد بها خناقي

بمثابة القفل ، فإذا أُحْكم وضع الزمارة صار القيد مقفلاً . [1] وعندما تحيط القيود بالأذرع والأيدي تسمى الجوامع والسوارق [2] .

ويلف الجسد بالأقياد التفاف الحية الرقطاء حتى العنق انهاكاً لقوة الأسير . وكانوا يتركونها في العنق امداً طويلاً . فقد بقي قيسبة السكوني [3] . ثلاث سنين اسيراً وهو يلبس حبرته فوق اغلاله [4] . وكان عدي بن زيد [5] وهو

(ديوان العرجي : ص ١٣٥/ البيتان : ١ و ٢ تحقيق : خضر الطائي ورشيد العبيدي بغداد / ١٩٦٥ م) .

(١) قال سوار بن حيان المنقري في الجاهلية :

وحمران قسرا أنزلته رماحنا   فعالج غلا في ذراعيه مقفلاً

البيت في (الاغاني ١٢/ ١٢٢ . بولاق) .

(٢) ولم يدع داع مثلكم لعظيمة   اذا رزمت بالساعدين السوارق

قائل البيت ابو الطمحان القيني شاعر مخضرم معمر عاش في الجاهلية ردحاً طويلاً، وكان لصاً فاتكاً خبيث الدين والمذهب في الجاهلية والاسلام . جاور في طيء وأسرته قبيلة جديله في حرب الفساد بين قبائل طيء ، فمدح بجير بن أوس بن حارثة بن لام الطائي بابيات منها البيت المذكور فاشتراه واطلقه . (الاغاني ح ١١/ ١٢٧ ـ ١٢٨ . ط بولاق) .

(٣) هو قيسبة بن كلثوم من عرب اليمن كان ملكاً في قومه « السكون » خرج في الجاهلية يريد الحج فوثب عليه بنو عامر بن عقيل واسروه واخذوا ماله وما كان معه وألقوه في القد ثلاث سنين . وتعرف عليه أبو الطمحان القيني صدفة فاعلم قومه بمكانه فسارت جموع اليمن من الجون وكنده والسكون واستخلصته من بني عامر وقتلت منهم مقتلة عظيمة (الأغاني : ١/١٢٥) .

(٤) قال قيسبة بن كلثوم :

هزئت جارتي وقالت: عجيباً   إذْ رأتني في جيدي الأغلال

الأغاني ج ص ١٢٦ .

(٥) عدي بن زيد بن أيوب التميمي كان كاتباً ومترجماً في ديوان كسرى وصديقاً للنعمان ابن المنذر وقد أوصله عدي الى الملك بحنكته ثم كاد له خصومه بنو مذينة حتى أوقعوه في سجن النعمان ، فأطال حبسه ثم قتله لما بعث كسرى الى النعمان باطلاقه (الأغاني : ٢/ ٢٠) .

في سجن النعمان بن المنذر في مثل حاله عندما زارته ابنته الصغيرة وهمت بتقبيله فأحست بالقيود تحت ثوبه تطوق عنقه[(١)] . ولم يكن الغرض من القيد والغل التقييد وحده بل جمع الحديد على السجين ايضاً حتى ينوء به[(٢)] مبالغة في اذلاله واعناته فما يستطيع تلفتاً . اذاً كانت القيود في الجاهلية وبعدها ضرباً من النكال ، فيُزادُ في عددها وأوزانها على السجين[(٣)] .

---

(١) قال عدي بن زيد :

ولقد ساءني زيارة ذي قر ... بي حبيب لودّنا مشتاق
ساءها ما بنا تبيّن في الايد ... دي واشناقها إلى الأعناق

(ديوان عدي بن زيد العبادي التخريج ١٢ ص ١٥٠ تحقيق محمد جبار ـ المعبيد بغداد ١٩٦٥ م) .

(٢) في (المخصص ج ١٢ ص ٧)رجل مكفر : موثق في الحديد . وأصل (كفر) غطى .

(٣) كان عدي بن زيد في سجن النعمان بن المنذر ينتظر الحسنى فاثقل بقيود ذكر انها عشرون :

جاءني من لديه مروان اذ قفّيْـ ... ـتُ عنه بخير ما أحذاني
بإفال عشرين قحمها الصعـ ... ـب لحسن الإخاء والخُلان
لاصفايا دهم فأسمنها الرِسـ ... ـل ولا جلة قطيع هجان

(ديوان عدي بن زيد ص / ١٧٨ ، التخريج : ١٤٢ ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، بغداد / ١٩٦٥ م) . والإفال : القيود ، قحّمها : ادخل بعضها في بعض . الصعب : النعمان سمي بذلك لصعوبته في ملكه ، لحسن الاخاء : اي جعل ذلك مكافأة لحسن الاخاء ومكافأة للخلان . يهزأ به : أي كانت تلك مكافاته اياي على احساني (المعاني الكبير لابن قتيبه ص ١٠٢٧ . طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٩ م) . وفي العصر الأموي قال الفرزدق وهو في سجن خالد بن عبد الله القسري بالعراق (ديوانه : ١٣٣/١ طبعة صادر) .

يقول لي الحداد: هل أنت قائم ... وهل أنا الامثل آخر قاعد
كأني حروري له فوق كعبة ... ثلاثون قيداً من قروص ملاكد

ولا تعتبر هذه الارقام دقيقة فالشعر قد يغرق في المبالغة ولا شك ان الفرزدق جنح الى =

ولم تكن القيود من نوع واحد ، فمنها الخفيف ، ومنها الثقيل المُرنِّح ، ولا نعرف للقيد وزناً معلوماً . وأيسرها ما يمنع المأسور من نشاطه .

وغالى بعض الامراء بأثقالها حتى وضع بعض الثائرين على أحد اسراه أربعين رطلاً من الحديد .

واذا بلغ القيد غاية الثقل سمي الكبل[1] ولا يكاد ينهض به الاسير حتى يكب على وجهه[2] واعتبر القيد الشديد من التنكيل بدلالة الاشتقاق : « النكل هو القيد الشديد من اي شيء كان [3]» . واقترن القيد بالسجن حتى وقع

= التهويل ، ولكن نطالع اخباراً تقرب هذا الادعاء من الحقيقة ، فقد ذكر ابو الفرج الاصفهاني في (مقاتل الطالبيين ص ٤٩٥ تحقيق احمد صقر القاهرة / ١٩٤٩ م) .

الخبر التالي : « أخبرني عمر بن عثمان الزهري ان بكار بن عبد الله الزبيري وجه الى محمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن ، وقد ورد سويقة ليصوم شهر رمضان في منزله ، فجاءه الرسول فأخذه ، فمضى به الى الحبس وجعل يتبعه برسول بعد رسول يأمره بالتضييق عليه ، ثم أتبعه بآخر أمره بتصفيده ، ثم اتبعه بآخر يأمره باثقاله والزيادة في حديده » . سويقة في المدينة المنورة . وانظر ايضاً (الحاشية التالية) .

(١) جاء في وفيات الاعيان لابن خلكان : ٥/ ٤٤٤ ، ترجمة يعقوب بن ليث الصفار الخارجي) « عذب يعقوب علي بن الحسن بأنواع العذاب . . . وقيده باربعين رطلاً . . . »

والرطل اثنتا عشرة أقية . والاقية أربعون درهماً ، والدرهم ستة دوانق ، والدانق قيراطان والقيراط : طسّوجان ، والطسوج حبتان ، والحبة سدس ثمن الدرهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من الدرهم . (القاموس المحيط) .

(٢) الكبل : القيد وقيل هو اعظم ما يكون من الأقياد وجمعه كبول (المخصص : ١٢/ ٩٧)

(٣) قال قيس بن الحدادية :

دعوت عدياً والكبول تكبني ألا يا عدي يا عدي بن نوفل

وكانت خزاعة أسرته في غارة لها على اليمامة مع جماعة من قومه ولم يخفّ أحد لفدائهم فأخذتهم الى عكاظ وجعلتهم في حظيرة لتحرقهم فبادر عدي بن نوفل لشرائهم واطلاقهم (الاغاني ١٣/ ٥) .

(٤) المخصص : ١٢/ ٩٨ .

الانتقال اللفظي من الأول الى الثاني فالكبل وهو أثقل القيود من معانيه الحبس[1] .

ومهما اختلفت أشكال القيود وأنواعها يجمعها اسم الوثاق[2] . واستظهر الجاحظ[3] . ان العرب كانت تشد ايضاً لسان الأسير بنسعة اذا كان شاعراً خوفاً من هجائه مستشهداً بقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي[4] :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة ... أمعشر تيم أطلقوا من لساني[5]

وكانت الاغلال والقيود توحي بمعنى رهيب يطير له قلب المقاتل فيتحاماها ما استطاع . فهي بغيضة إلى العربي مفزعة له . ولذلك كانت في كتاب الله من صفات من حاق بهم الذل ونزل بهم الهوان ، فقال الله تعالى : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين بالاصفاد [6] » . وقال في صفة الكفرة : « إذ

---

(١) المخصص ١٢/ ٩٤ : والكبل ايضاً الحبس وقد كبلته واصله من الكبل .

(٢) قال مهلهل بن ربيعة في اسره الذي مات به :

فاذهبي ما اليك غير بعيد ... لا يؤاتي العناق من في الوثاق

(٣) (البيان والتبيين ٤/ ٤٥ تحقيق عبد السلام هارون) .

(٤) عبد يغوث بن وقاص الحارثي فارس اليمنيين يوم الكلاب الثاني ، وفيه هاجمت اليمن بني تميم فانهزمت واسر عبد يغوث اسرته التيم فقتلته (نهاية الارب للنويري ١٥/ ٤٢) .

(٥) البيت من قصيدته التي قالها في اسره (المفضليات ص ٣١٥) و (ذيل الامالي : ١٣٢) . وللأدباء في معنى هذا البيت قولان : الاول : ان هذا مثل ، وذهب اليه القالي وابن الانباري ، لان اللسان لا يشد بنسعة ، وانما أراد : افعلوا بي خيراً لينطلق لساني بشكركم وانكم ما لم تفعلوا فلساني مشدود لا اقدر على مدحكم . (ذيل الامالي ص ١٣٢) .

والثاني : ذهب اليه الجاحظ وصاحب الاغاني انهم شدوه بنسعة حقيقية مخافة ان يهجوهم والقول الاول أظهر .

(٦) سورة ابراهيم الآية ٤٩ .

الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون[1] ». ولا ينفر من القيد الا من يقرأ الرموز التي في حلقاته ، وكان العرب يعون هذه الرموز حق الوعي ويجتنبون الأسر ما استطاعوا . ومما سبق تبين لنا ان القيد يتخذ من الجلد او الحبال أو الحديد .

وتخبرنا معاجم اللغة ان العرب قديماً عرفوا آلات استخدموها في تعذيب الأسرى وإرهاقهم فكانوا يضعون في حَلْق الاسير حديدة تمنعه الطعام والكلام واطباق فكيه واسمها العذراء[2] أو يقفون الأسرى في قطار واحد ويجعلون ارجلهم في خشب مفلوق ، كل فلق على قدر سعة الساق فلا يقدرون على تزحزح ، وتسمى هذه الالة المقطرة[3] .

أمكنة الأسر :

ولم يكن للأسرى في البادية بناء خاص يحبسون به وانما يجعل الأسير في الخيمة مع الموكل به . وقد تحفر للأسير حفرة في الأرض كالبئر فتحوم الجوارح فوق رأسه ويمنعه بعد القعر والاغلال من ارتقاء جوانبها[4] . وقد

---

(١) سورة غافر الآية ٧١ .

(٢) (المخصص ١٢/ ٩٤) العذراء : جامعة توضع في حلق الانسان لم توضع في حلق غيره وقيل : هو شيء من حديد يعذب به الانسان لاستخراج مال او لاقرار بأمر .

(٣) القاموس المحيط مادة « فلق » : مقطرة السجان هي خشبة فيها فروق على قدر سعة الساق يحبس فيها الناس على أقطار . وقال جحدر بن معاوية في سجنه :

يغشون مقطرة كان عمودها ... عنق يعرق لحمها الجزار

(معجم البلدان : دوار ، ٤/ ٩٤) .

(٤) قال عوف بن عطية التيمي في الجاهلية :

هلا كررت على اخيك معبد ... والعامريُّ يقوده بصفاد

لكن تركته في عميق قعرها ... زجراً لخامعةٍ وطير عوادي

(الاغاني : ١٠/ ٢٣ بولاق) وفيهما يعير لقيط بن زرارة بتركه اخاه معبداً يموت في الاسر . وحبس عمر بن الخطاب الحطيئة في بئر : =

يجمع الاسرى معاً في حظيرة جمع الاغنام[1] . واما في بعض القرى والمدن فالاسير يحبس في حصن ، وقد حبس طرفة بن العبد في حصن في البحرين وفيه قتل[2] . واسر جمع كبير من فرسان بني تميم في حصن المشقر[3] وضربت رقاب أكثرهم[4] . وفي زمن النبيﷺ حبس الأسرى في البيوت[5] وفي المسجد[6] . ويوكل بالأسرى عادة آسروهم واصحاب التراث فيهم او الحراس في الحصون . وكان الرجال يقومون على حراسة الأسير ومراقبته اذا كان غالياً فداؤه وقد يكلون مراقبته الى عجائزهم[7] .

= ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فامنن عليك سلام الله يا عمر

(الاغاني : ٢/ ٥٤)

(١) قال قيس بن الحدادية :

تداركت اصحاب الحظيرة بعدما ... أصابهم منها حريق المحلل

(انظر الحاشية رقم ١ ص ٣١)

(٢) انظر ديوان طرفة (ص ١٠٠)

(٣) المشقرّ : حصن قديم في البحرين (النقائض : ١/ ١٤٩ .)

(٤) في تاريخ الطبري (١/ ٥٨٣) : « فلما أدخل المكعبر (وكان عاملاً لملك الحيرة) بني تميم المشقر قتل رجالهم واستبقى الغلمان ، وقتل يومئذ قعنب الرياحي وكان فارس بني يربوع . . وشد رجل من بني تميم يقال له عبيد بن وهب على سلسلة الباب فقطعها وخرج « فقال أبياتاً منها : »

ألا هل أتى قومي على النأي انني ... حميت ذماري يوم باب المشقرّ

(٥) وضع سهيل بن عمرو في حجرة من حجر النبي ﷺ انظر سيرة ابن هشام (المجلد الاول : / ٦٥٤/ تحقيق السقا ، / ١٩٥٥/) . و«حبس رسول الله ﷺ بني قريظة في دار بنت الحارث امرأة من الانصار» (التراتيب الادارية : ١/ ٢٩٤/) .

(٦) انظر خبر اسر ثُمامة بن أثال الحنفي : البحث ص ٥٧ حاشية ١ .

(٧) قال عبد يغوث بن وقاص الحارثي في اسره :

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً

(المفضليات ص ٣١٥ ، البيت ١٢) . وذكر ابو الفرج الاصفهاني ان قيسبة بن كلثوم السكوني عندما اسره بنو عامر بن عقيل والقوه في القد ثلاث سنين كان « في يوم شديد البرد =

وفي الحق كانت كل عين في القبيلة حارساً اذ لا يخفى فيها مكان الاسير الدخيل .

وذكرت الاخبار سجناً فريداً من نوعه في الطائف اتخذ مورداً للرزق . وكان يرسل اليه الأسرى الميؤوس من افتدائهم . فيتقاضى اصحابه أجراً عن احتباسهم وتعذيبهم وقتلهم[1] .

وكان دولة المناذرة في العراق تحكم بلاداً واسعة ، وتعتمد القوة في سياستها ، وتأخذ القبائل أحياناً بأسلوب القمع . فتوغل حملاتها في قلب الجزيرة العربية[2] . وكانت لها معارك عنيفة مع الغساسنة ، فلا غرو ان كان لها مسيس الحاجة الى محابس عديدة للاسرى والسجناء تتخذها في البنيان الحصين والقلاع . ولا تقدم الاخبار والاشعار الا اسم سجن واحد للنعمان بن المنذر اتخذه قريباً من الحيرة عاصمته . وكان بالسجن السياسي والحربي أشبه يستودع فيه غالباً من كان ينتظره القتل وعرف بالثويّة[3] . وفيه احتبس الملك عمرو بن هند المنخل اليشكري الشاعر وقضى عليه[4] . وفيه أقام عدي بن زيد

= في بيت عجوز منهم اذ قال لها : اتأذنين لي ان آتي الأكمة فأتشرق عليها فقد اضر بي القر . فقالت : نعم « الاغاني » : ١١/ ١٢٥ .

(١) جاء في الاغاني (١٠/ ١٩) : « واسر معبد وجرح لقيط (ابنا حاجب بن زرارة سيد بني تميم زمن النعمان) فبعثوا بمعبد الى رجل بالطائف كان يعذب الأسرى فقطعه إربا إربا حتى قتله » .

(٢) انظر اخبار بعض هذه الحملات في نهاية الارب (١٥/ ٣٣) وحماسة أبي تمام ـ التبريزي ـ (٤/ ١١ ـ ١٢) .

(٣) جاء في معجم البلدان (الثوية) : « الثوية » : موضع قرب الحيرة . . كانت سجناً للنعمان بن المنذر : كان يحبس فيه من أراد قتله . فكان يقال لمن حبس بها : ثوى اي اقام . فسميت الثوية بذلك » .

(٤) قال المنخل في حبسه :

طـل وسط العبـاد قتلي بـلا جـر م وقـومي ينـتجـون الـسـخـالا

حقبة نظم فيها حظاً حسناً من الشعر حتى قتله النعمان بن المنذر[1] .

وكانت للغساسنة كما للمناذرة ـ حاجة ماسة الى الحبوس . وما حصل الينا من شعر سجونهم لا يسمح بتعيين مواقعها . ويستنتج من بعض الأخبار ان ثمة سجناً في حاضرة الغسانيين [2] . ـ كما هو الشأن في عواصم الأمم قديماً وحديثاً ـ وسجوناً مفرقة في نواحي إمارتهم داخل حصونهم على الأغلب [3] .

= (الشعر والشعراء : ٧٦ و ٢٣٨) والعباد : بلدة العباد وهي الحيرة ، والعباد اهلها . والسخال جمع سخلة ولد الشاة .

(١) انظر ديوان عدي بن زيد (القصائد ١ ـ ٩ و ١١ و ١٦ ـ ١٧) تحقيق محمد جبار المعيبد . بغداد ١٩٦٥ . وفي هذا السجن شهد عدي بن زيد النيران تأخذ اطراف الحيرة عندما غزتها مسلحة غسانية ، على حين غرة ، في غيبة للنعمان عن عاصمته . قال عدي :

سما صقر فأشعل جانبيها ... وألهاك المروّح والعزيب
وثبّن لدى الثويّة ملجمات ... وصبّحن العباد وهن شيب

(ديوان عدي بن زيد : ١١٤) صقر هو قائد المسلحة الغسانية . والخطاب للنعمان .

(٢) انظر في الأغاني (١٥/ ١٤٠ ـ ١٤١) خبر الجذامي الذي حبسه الملك الغساني وشفع فيه يزيد بن عبد المدان . وانظر في أنساب الأشراف (٤/١٢٧) خبر حبس بعض وجوه من قريش في الشام وأبياتاً نظموها في ذلك (وانظر أيضاً الإصابة ترجمة سعيد بن العاص رقم ٣٧٦٤) . وانظر في الطبري (١/ ٤٩٩) خبر عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي وشعره حين حبسه ملك الغساسنة .

(٣) ذكر أبو أذينة ـ عم الملك اللخمي المنذر بن الأسود ـ سجناً لبني غسان في البلقاء ، في قصيدة له يحرض الملك على قتل أسرى الغسانيين . فقال :

واذكر لمنجاهم مثوى أبي كرب ... وحبس آل عدي عنده حقبا
أمست تضرب بالبلقاء هامته ... ونحن نستعمل اللذات والطربا

(الحماسة البصرية : ١/ ٨٧ ونهاية الأرب : ١٥/ ٣٢٠) والبلقاء هي معان . قال ابن عساكر : « فمعان مدينة البلقاء » ، وقال : البلقاء من عمل دمشق . (تاريخ مدينة دمشق : ١/ ١٩ ، السطر ٧ و ١٦) .

وكان الروم يحبسون فيما خضع لهم من بلاد الشام في الحصون التي كانوا ينزلون فيها . وبعض الشعر يؤيد هذه الحقيقة [1] .

---

(١) كان فروة بن عمرو الجذامي عاملاً للروم على معان ، ثم أسلم ، فقبضوا عليه مدة . وقال قبل ان يقتلوه :

طرقت سليمى موهناً أصحابي والروم بين الباب والقروان

(سيرة ابن هشام : ٢/٥٩١) .

المبحث الثالث

منـــزلة الأسيـــر

أثمـان الأسـرى ومصـائرهم :

كـان التغاور مـا بين القبائـل في بلاد العـرب قبل الإسـلام طابعـاً مميزاً لحياتهم إذ كان نهجاً من مناهـج العيش ، تفرضـه عليهم ظروف معـاشهم في أرض لا سيادة فيها لدولة منظمة تجمع الشتات المبعثر ، وتخطط على بصيـرة لحياة فيها الأمن والفلاح والانتاج . وكان العداء المتمـادي فيما بينهم كثيـراً ما يلقي بعضهم في أيدي بعض أسارى . واحتل هؤلاء الأسرى في حروب العرب وغزواتهم أهمية خاصة ، إذ كان الأسير جزءاً من الغنيمة بل كان مادتها الأساسية أحياناً ، يحرص عليه طمعاً في فدائه ، فهو يسـاوي حظاً من الثـروة من أجلها تشن الغارات ، وفي أعقابها يجلس المحاربون يقتسمون ما أحرزته رماحهم من نشب ونعم وأسرى وسبايا ، حتى أصبح ذلك أعظم ما يتوقون إليه ويتمنونه (١) .

---

(١) نرى الشعراء في الجاهلية يمتدحون الـرؤساء بكثـرة أسراهم وسبـاياهم وانتقـالهم بغزواتهم من الفقر الى الغنى :

رب رفـد هـرقـتـه ذلـك اليـو ... م واسـرى مـن مـعـشـر اقـتـال
وشيـوخ حـربى بشـطي أريـك ... ونـسـاء كـأنهـن الـسـعـالـي
وشـريكين في كـثيـر مـن المـا ... ل وكـانـا مـحـالـفـي إقـلال
قسمـا الـطارف التليـد من الغنـ ... م فـآبـا كـلاهـمـا ذو مـال
لـن تـزالـوا كـذلكـم ثـم لا زلـت لـهـم خـالـداً خـلود الـجـبـال =

ولما كان الأسير مورداً اقتصادياً كبيراً للمقاتلة صاروا يلتقطونه ويرصدونه رصد الصيد ويستبقونه حياً ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً تنظُّراً للفدية ، فإن قدروا على شد الوثاق رغبوا عن القتل ، ففي إحدى المعارك [1] استطاع قيس بن عاصم [2] فارس تميم ان يهزم أعداء قومه هزيمة منكرة هرب فيها الفرسان وأسقط في يد المشاة وصاروا في فم التميميين لقمة قريبة سائغة ، فصاح قيس في قومه [3] : « يا آل تميم لا تقتلوا إلا فارساً فإن الرجالة لكم » .

فالأسرى كالسلع تتفاوت أثمانهم تفاوتها في الجودة والثمن والندرة . فإن كان ملكاً أعطى في فديته ألف بعير [4] ، وإن كان فارساً مشهوراً لم تقل فديته عن مئتين من الإبل [5] وان كان ذا مكانة مرموقة في عشيرته دفع فيه مئة بعير [6] . وإن كان غير ذلك يقدر ثمنه بما فيه من قوة ونشاط وقدرة على الغزو ، وإن كان مغموراً لا خير فيه كان كخشاش الأرض . وكان أحدهم يسقط على

= وهذه الأبيات للأعشى ميمون بن قيس من قصيدة في مدح الأسود بن المنذر اللخمي .
والرفد : القدح الضخم يكنى بإراقة الرفد عن الموت ، اقتال : أصحاب تراث .
حربى : ج حريب وهو حرب ماله أي سلبه . السعالي : الغيلان. قسما الطارف .
التليد : يعني رجلين من جنده غنما هذا المال ، وكان تليدا أي قديماً موروفاً عند أصحابه ، فأصبح طارفاً أي جديداً مستحدثاً عندها . (ديوان الأعشى ق ١ ـ ص ١٣ الأبيات من ٧١ ـ ٧٥ شرح وتعليق الدكتور م . محمد حسين مصر ١٩٥٠) .

(١) يسمى يوم الموقعة يوم الكلاب الثاني أغارت فيه اليمن على تميم وكان النصر للتميميين . (النقائض : ١٤٩/١) .

(٢) وذلك في يوم الكلاب الثاني (المصدر نفسه : ١٥١/١) .

(٣) (النقائض : ١٥١/١) .

(٤) (نهاية الأرب : ٣٧٧/١٥) .

(٥) (النقائض : ٣١٣/١ ـ ٣١٤) .

(٦) (نهاية الأرب : ٣٨٣/١٥) .

(٧) لعل عبد الله بن عبد المطلب أبا رسول الله ﷺ أول من فودي بمئة من الإبل وفاء لنذر أبيه (أنظر السيرة لابن هشام ١٥٤/١ تحقيق السقا) .

الغنى فجاءه إذا أسر رئيساً أو فارساً أو رجلاً نابهاً وتشهد بذلك أخبار أيامهم(١) .

وتظهر لنا كثير من الأحداث ان الأسير كان مُلْكاً للآسر ان شاء استحياه ، وإن شاء قتله ، ولا سلطان لغير مالكه عليه . وغالباً ما كان العامل المادي يلعب دوراً كبيراً في مصير الأسير فيحرص عليه صاحبه حرصه على كنز ثمين ويحرزه في مأمن مخافة ان تمتد إليه يد منافس أو حاسد فتقضي عليه ، فيذهب بذلك ما يرجو به من نفع . وقد يوقع هذا الحرص خلافاً بينه وبين قبيلته ان كان المأسور قد وترهم من قبل ، فيرغبون في دمه ويرغب آسره في فدائه فيشذ به عن العشيرة ويسهر على سلامته حتى يصل فداؤه (٢) .

---

(١) كان يزيد بن الصعق العامري رقيق الحال حتى كان يوم السؤبان الذي « أغارت فيه بنو عامر على بني تميم ، فاقتتلوا ورئيس ضبة حسان بن وبرة وهو أخو النعمان بن المنذر لأمه فأسره يزيد بن الصعق . . وفادى حسان بن وبرة نفسه من يزيد بن الصعق بألف بعير فداء الملوك فكثر مال يزيد ونبه » . (نهاية الأرب : ١٥/٣٧٧) .

(٢) كان هذا صنيع عتيبةبن الحارثبن شهاب اليربوعي إذأسر بسطام بن قيس .« فقالت بنو ثعلبة : يا أبا حرزة ، ان أبا مرحب قد قتل ، وقد أسرت بسطاما وهو قاتل مليل وبجير ابني ابي مليل ، ومالك بن حطان يوم قشاوة فاقتله . قال : اني معيل وأنا أحب اللبن . قالوا : إنك لتفاديه وتخلي عنه فيعود فيحربنا ، فأبى » . ورأى بسطام بن قيس رغبة عتيبة بالمال فطمع فيه ووعده بمال كثير قائلاً : « انا معطيك من المال عائرة عينين ، يعني كثيراً تذهب فيه العين وتجيء » . وكان أوقع من قبل في بني عبيد رهط أبي مرحب المقتول وهم قوم أعزة فأبدى بسطام تخوفه ان يأخذوه من عتيبة وطلب إليه ان ينقله الى بيت آخر من بيوتات بني تميم فقال عتيبة : « لا جرم والله لأضعنك في أعز بيتين من مضر : في بني جعفر بن كلاب . . أو في بني عمرو بن تميم من بلعنبر . فاختار بسطام بني جعفر » . (النقائض ١/٣١٣ ـ ٣١٤) .

بسطام بن قيس : زعيم شيبان وفارسها وصاحب غاراتها ، ورث الرياسة عن أهل بيت أعزة ذوي شرف وغنى .قتل يوم مليحة عصمة بن النحار من بني يربوع ثم قتل به . عتيبة بن الحارث بن شهاب بن عبد قيس بن الكباس فارس بني تميم في الجاهلية ، كان مغواراً مرهباً أحجم عن منازلته عامر بن الطفيل ، وأسر بسطام بن قيس وغال في فدائه ، قتلته بنو أسد .

ان الأسير قيمة مادية بحتة يتنافس فيه المغيرون ويستأثر كل لنفسه بمن أسر ، فإن اشترك في إحرازه غير واحد اقتسموه اقتسام المال ، فيقوّم بثمن يوزع على المشتركين فيه [1] وكانوا أحياناً يخوضون في نوع من المزايدة لا تختلف عن المزايدات التجارية في شيء من شره للربح وتعنت في الاحتكار وتحكم بالأسعار [2] .

أما إذا كان الأسير ثميناً وقعد رهطه عن فدائه فإن الحقد يحمل المالك ان يضارّ أسيره حتى الموت [3] . وقد يبلغ بهم الأمر إذا يئسوا من الثواب ان يجمعوا الأسرى في حظيرة ويشعلون النار في جوانبها حتى تأتي عليهم [4] . فإن لم يكن موت فاستعباد وتسخير في مصالح الآسر وشؤونه . والأسير عندئذ

---

(١) حدث مثل هذا عندما (أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع وهم بزرود ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت بنو تغلب ، وأسر خزيمة بن طارق : أسره أنيف بن جبلة الضبي وهو فارس السليط ، وكان يومئذ نقيلاً في بني يربوع - وأسيد بن حناءة السليطي فتنازعا فيه ، فحكم بينهما الحارث بن قراد ، فحكم بناصية خزيمة للأنيف على أن لأسيد على أنيف مئة من الإبل ، قال : ففدا خزيمة نفسه بمئتي بعير وفرس) . (نهاية الأرب : ١٥/٣٨٣) .

(٢) ذكر أبو عبيدة أن لام بن سلمة أسر رجلاً من بني شيبان يقال له : ابن المقعاس ، قتل يوم حومل عصمة النحار ، فادعى بشر بن حنثمة الصليطي فيه ، فاشترى بنو ازنم نصيبه من الإبل ، بتسع ، وقالوا للام : بعنا نصيبك منه فإنه ثأرنا ، قال : ابيعكموه بمئة من الإبل قالوا : لا نبالي الا تبيعناه نقطع نصيبنا منه فنذهب به الى أهلنا ، وتذهب انت بنصيبك الى أهلك ، قال : كذبتم والله لا تقتلون أسيري ، فلما رأى الشر باعهم نصيبه بتسعة أبعرة كما باعهم صاحبه ، فقتلوه بعصمة بن النحار . (النقائض ١/٥٨٣ - ٥٨٤) .

(٣) كما صنع آسرو معبد بن حاجب بن زرارة يوم رحرحان وطلبوا في فدائه دية ملك فأبى أخوه لقيط الا مئتي بعير ، ولم يبال ما نزل بأخيه من العسف والذل والتنكيل حتى مات في قبضة الأعداء ضناً بالمال ، فاحتمل عاراً تغنت به الركبان . (نهاية الأرب ١٥/ ٣٥٠) .

(٤) انظر في (ص ٥٣) من هذا البحث خبر قيس بن الحدادية .

قن : ماله وأهله لسيده [1] .

ان فيما قدمناه ما يكفي للدلالة على القيمة المادية للأسير في المجتمع العربي قبل الإسلام .

ولم يفقد الأسير بظهور الإسلام قيمته المادية ، وما زال مرغوباً فيه ليبوء بدم قتيل [2] ، او لمبادلته بأسير [3] او لاستيفاء الفدية منه [4] . غير ان تبدلاً طرأ على تقويم الأسير : فمن الأسرى من لم يكن لتقبل فديتهم لما سببوه

(١) ويظهر ان هؤلاء الأقنان الذين صاروا في العبودية من طريق الأسر كانوا طبقة كبيرة في المجتمع الجاهلي ، فقد ذكر أبو عبيدة ان « سيفع بن ناكور الكلاعي الوافد على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، وله أربعة آلاف أهل بيت قن من العرب مماليك أسرهم في الجاهلية ، فسأله عمر ان يبيعهم إياه على ان يكتب له بثلث ما له الى الشام ، وثلثه الى العراق ، وثلثه الى اليمن ، فقال : أمهلني أرح إليك . فلما راح قال : ما صنعت . قال : قد اعتقتهم لله . وقتل بعد مع معاوية في صفين » . (النقائض : ١/٤٦) .

(٢) كانت ممن أسرتهم هذيل يوم الرجيع وذلك بعد موقعة بدر ـ خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، فابتاع خبيباً حجير بن أبي أهاب التميمي حليف بني نوفل لقتله بأبيه ، وابتاع زيد بن الدثنة صفوان بن أمية لقتله بأبيه أمية بن خلف ، انظر (سيرة ابن هشام : ٢/١٧١) .

(٣) أسر يوم بدر عمرو بن أبي سفيان بن حرب ، وأبى أبوه مفاداته بشيء من ماله ، فحبس في المدينة حتى ظفر أبوه برجل من المسلمين فأسره فدفعوا عمراً له به . أنظر (سيرة ابن هشام : ١/٦٥٠) .

(٤) كان ثمن الفداء متفاوتاً تفاوت المنزلة الاجتماعية والمادية للأسرى ، وأعظم ما فدى به قرشي بعد معركة بدر أربعة آلاف درهم (سيرة ابن هشام : ١/٦٦٠) وقد رد أبو بكر سبايا النجير بالفداء في أعقاب حروب الردة ، لكل رأس أربعمائة درهم . انظر (فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٥ تحقيق عبد الله بن عمر الطباع . دار النشر للجامعيين /١٩٥٧) .

لخصومهم من أذى [1] ، ومنهم من فدى بغير المال [2] .

ولا شك أن ظهور الدولة في جزيرة العرب غيّر في كثير من الاعتبارات المتعلقة بالأسرى ، وبدأت مصلحة الدولة تؤثر تأثيراً فعالاً في أوضاعهم . وكثيراً ما كان العقاب أمس بمصلحتها وأمنها من الفداء [3] .

وان ظهور الدولة يعني ضعف الوحدة السياسية الصغيرة ـ وهي القبيلة ـ التي كانت تتمتع بنفوذ واستقلال في الجاهلية ، وبالمسؤولية عنهم والرعاية واستنقاذهم والثأر لهم . وقد عادت القبائل تلعب دوراً هاماً في التكتلات والخصومات السياسية في العصر الأموي ، إلا ان الحكام على اختلاف مشاربهم كانوا شديدي الوطأة على القبائل وزعمائها . وكثيراً ما حجم بعض رجالات القبائل عن حماية من يستجيرون بهم خوفاً من الأمراء [4] حتى إذا كان العصر العباسي وذاب العرب والموالي في المدن الكبيرة انحلت الوحدة ، وغدا الأسرى في الفتن الداخلية كالمنبتين ليس لهم أولياء او عشائر ترهبهم الدولة او

(١) نذكر من ذلك قتل الرسول ﷺ الرجال الذين اشتهروا بالإساءة اليه بأشعارهم ومهازلهم كالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط . انظر (السيرة : ١/٣٠٠ و ٦٤٤) . وفي الجاهلية كان بعض الأسرى أحياناً يبذل المال الكثير ويؤبى الا قتله وذلك إذا كان أصاب فيهم دماء ، فبذلك يقتلونه ، كما قتل بنو تميم عبد يغوث بن صلاءة الحارثي اليمني ببعض فرسانهم . انظر (شعراء النصرانية : ١/٧٥) . ولا نعدم في الجاهلية أحوالاً قتل فيها بعض الأسرى باساءة غير القتل كالارهاب مثلاً . أنظر من هذا البحث (ص ٤٨) .

(٢) قبل فداء من الذين يعرفون الكتابة من أسرى بدر ان يعلموا عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة . انظر (طبقات ابن سعد : ٢/١ : ١٤) .

(٣) يذكر البلاذري على عهدته في فتوح البلدان ص ١٣٦ ، إن خالد بن الوليد « جعل يحرق المرتدين ، فقيل لأبي بكر في ذلك ، فقال : لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار » .

(٤) قدم الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري البصرة « هارباً من عباد بن زياد (أخي عبيد الله بن زياد) فاستجار الأحنف ، فقال : اني لا أجير على ابن سمية » . (أنساب الأشراف ٧١/٤ . ط القدس ١٩٣٦) .

يؤدون عنهم . ولهذا لم يبق لمثل هذا الأسير ثمن . ولا شك ان هم الحكام لم يكن في أثمانهم بمقدار ما كان متجهاً لقمع الفتن والضرب على أيدي العصاة ، فكان أسرى الثورات الداخلية والفتن اما أن يقتلوا او يسجنوا او يطلق سراحهم (١) . وقد استفاضت كتب التاريخ والأدب بأخبار من قتلهم الحجاج والخلفاء والأمراء من بعده من الخوارج وغيرهم (٢) . وكان لبعضهم من الخطر ما يجعل افتداءه بالمال او إطلاقه منّاً أمراً مستبعداً لخطره ، فيقضي حياته كلها في السجن (٣) .

وعندما كان يأسر العرب أعداؤهم من الروم والترك والديلم يفادى من لم يقتل منهم . ويؤدي بيت المال الفدية ويفرد لها حساباً خاصاً في الميزانية (٤) . وكانت الأطراف المعنية تتفق على مبلغ معين للأسير (٥) ، ويغالى في فدائه اذا

---

(١) وذلك ان ليس لهم ثمن يرتجى فأكثرهم من المتمردين والمنبتين ليس لهم أولياء ولا قبائل يؤدون عنهم او ترهب الدولة قوتهم . نذكر من ذلك ان يحيى بن عمر بن الحسين العلوي ثار أيام المستعين ثم قتل وادخل أصحابه الأسارى الى بغداد وكانوا كثرة كثيرة ، فورد كتاب المستعين بتخلية سبيلهم فخلوا . انظر لأبي الفرج الأصفهاني (مقاتل الطالبيين ص ٦٤٤) .

(٢) الأخبار في هذا الجانب كثيرة وسنذكر بعضاً منها في حديثنا عن معاملة الأسرى . أنظر من هذا البحث (ص ٥٩ حاشية ١) .

(٣) أسر المرابطون المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وقرطبة وسجنوه في العدوة الأفريقية بأغمات واستوفى أجله في سجنه ولم يطلقوه لما له من المنزلة في نفوس الأندلسيين . وكانوا رفعوا عنه القيود فلما ثار بعض ولده بالأندلس وقتل أعادوها عليه . انظر (ديوان المعتمد بن عباد . المقدمة ص ٦ وص ١١٦) .

(٤) انظر في (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥ /٢٧ لهلال بن محسن الصابي) . البيان المالي في خلافة المعتضد بالله العباسي لأحمد بن محمد الطائي فقد رسم فيه تخصيص مبلغ من المال يصرف في الفداء (ص ٢٧) .

(٥) ذكر ابن الوردي في تاريخه (طبعة مصر ١٣٢٥) في حوادث سنة (٣٥٥ هـ) ان سيف الدولة الحمداني أدى في ثمن الأسير اثنين وسبعين ديناراً ، وأما الصلاح الصفدي

كان من ذوي الشأن [١] ، ولعل الذي أخّر تحرير الشاعر أبي فراس الحمداني من الأسر عظم الفدية فيه [٢] .

معاملـة الأســـير :

كان ثمة قصد ظاهر لإذلال الأسير بدافع من التشفي في نفس المحارب ، فيجمع على أسيره أساليب من الإهانة ، فهو يحرم عليه ظهر المطية ، ويضطره ان يركب قدميه يقطع الفلوات وقد كتف تكتيفاً وشد الى جنب الإبل السريعة يعدو ما عدت مبهوراً مستغيثاً ، وربما استحث بسنان الرمح في عجيزته حتى لا يفتر عن عدو [٣] .

فقال : اشترى كل أسير من الضعفاء بثلاثة وثمانين ديناراً . تحفة ذوي الألباب مخطوطة بباريس ورقة ١٢٧ نقلاً عن يوان أبي فراس الحمداني : ٤٧٩/٣ تحقيق سامي الدهان ١٩٤٤) .

(١) قال البلاذري في (أنساب الاشراف ٧٧/٤ . ط القدس ١٩٣٦) . في حديثه عن أولاد زياد بن أبي سفيان : « واما ولده عبيدة فولاه أخوه مسلم بن زياد كابل وأسر ، ففداه بسبع مائة ألف درهم » .

(٢) ثمة آراء عدة في تأخر سيف الدولة عن افتداء ابن عمه ، ولكن الرأي الذي أوردناه يرجح لدينا من وجوه ، فمنها : إن إمارة حلب كانت تعاني ضائقة مالية كبيرة من جراء تكاليف الغزوات وإلحاح الروم عليها بالحروب في أواخر أيام سيف الدولة، ومنها ان سيف الدولة لم يقدم على الفداء الا بعدما جاءه مال من خارج الولاية : من تركة اخته في الجزيرة الفراتية وكان الروم يرومون فداءه بالدماسق الذين كانوا بيد سيف الدولة فافتداه بالمال .
أنظر ابن العديم في (زبدة الحلب من تاريخ حلب الورقة ٣٣ . مخطوط بباريس ـ نقلاً عن ديوان أبي فراس الحمداني : ٤٦٨/٣ ـ ٤٦٩ تحقيق الدهان) .
والقاضي التنوخي في (جامع التواريخ : ١١٠ ـ ١١٢ . طبعة مر غليوث . لندن ١٩٢١) .

(٣) وهذا عين ما فعله زيد الخيل بالحارث بن ظالم حين أسره .

وسقنا نساء الحي مرة بالقنا ... وبالخيل تردى قد حوينا ابن ظالم
جنيبا لاعضاد النواجي يقدنه ... على تعب بين النواجي الرواسم
يقول : اقبلوا مني الفداء وأنعموا ... عليّ وجزوني مكان القوادم =

ولم تكن مكانة او زعامة لتشفع للأسير او تخفف عنه شيئاً من العذاب ، ولا ضخامة الفدية وكثرتها . وقد رأينا من قبل ان عتيبة بن الحارث [1] بن شهاب أخذ في فداء بسطام بن قيس مالاً كثيراً وعده به بسطام زعيم شيبان ، ولكن هذا لم يمنعه من إثقاله بالحديد ، وتسييره في الفيافي [2] ، فالقيد حلية الأسير لا يفرق بين ذليل وعزيز .

= وقد مس حد الرمح قوارة أسته فصارت كشوق الإعلم المتضاجم

وزيد الخيل شاعر مخضرم من طيء فارس بني نبهان شجاع كريم وسيم ، أكثر الغارة على قبائل العرب المجاورة لطيء وبلغ موضع الزعامة في عشيرته ، وفد على الرسول ﷺ في السنة التاسعة للهجرة وأسلم ولقبه زيد الخير ومات مرتجعه من المدينة بمكان يسمى « فردة » .

والحارث بن ظالم من غطفان كان فاتكاً مثيراً للحرب ، قتل شرحبيل ولد الأسود بن المنذر فعرض رجالاً وأقواماً للخسران ولغضب الملك . واغتال خالد بن جعفر فأخذه أعداؤه بجرائره فقتلوه (الأغاني ١٦/٥٣ . بولاق) .

تردى من الردى وهو الهلال . النواجي الرواسم : النواجي : النوق . والرواسم التي تمشي فتترك أثراً من رسمت الناقة أي أثرت في الأرض . والرسيم : سير الإبل . قوارة : ما قوّر من الثوب وغيره أو يخص بالأديم وما قطعت من جوانب الشيء . الأعلم : البعير المشقوق الشفة العليا المتضاجم : المعوج الفم . مصرد : مقطع .

(١) انظر ص ٣٩ حاشية ٢ .

(٢) قال عتيبة :

أبلغ سراة بني شيبان مالكة أني أبأت بعبد الله بسطاما
ان تحرزوه بذي قار فذاقنة فقد هبطت به بيدا وأعلاما
قاظ الشربة في قيد وسلسلة صوت الحديد يغنيه اذا قاما

(النقائض ص ٣١٤) .

أبأته : أبأته بسهم : رميته به وأبأت بعبد الله رجعت به مأسورا . ذو قار وذا قنة : مواطن بني شيبان ومرابعهم . الاعلام : جمع العلم : الجبل الطويل . الشربة : الصحراء .

على ان بعض فرسان العرب كان يأنف من تقييد أسيره تمكناً وغلبة واقتداراً ، « فكان عيينة بن حصن لا يكتف أسيراً أبداً » [1] .

ويرجع السبب في امتهان الأسير الى وضعه الاجتماعي الذي نوهنا به آنفاً فإنه عبد مملوك بالقوة ، صاحبه حر التصرف به لا يبالي ما به صنع ، فيجري عليه ما شاء من السوء والنكال بدافع من شعور التملك والتحكم [2] . ولذا ينتهي الأسرى الى حال مبكية من الامتهان . يحشرون في ساحة من مضارب القبيلة وينادى عليهم فيتزايدون في شرائهم بالبعير والبعيرين بعد أن كانوا في أهلهم يفدون بالنفس والنفيس . وإذا أكل الناس كان طعامهم خسيساً ، وإذا شرب غيرهم وارتوى كان نصيبهم الجرعة تبل الحلق ولا تطفىء الظمأ .

وتبلغ المضارة أحياناً مدى أشد وأدهى حين يترك الأسير من غير طعام وشراب ، ليموت الموت البطيء وعيناه تلاحظان الآخرين يأكلون ويشربون وهو محني على الطوى والعطش .

---

(١) أنساب الخيل لابن الكلبي (ص ٨٠) ط . وزارة الثقافة ، مصر .

(٢) أطلق زيد الخيل على أسيره الحطيئة لقب العبد :

أقول لعبدي جرول اذ أسرته ... أثبني ولا يغررك أنك شاعر

جرول بن أوس الملقب بالحطيئة ، مخضرم ، هجاء ، خبيث اللسان والدين ، راوية زهير بن أبي سلمى ، طويل الباع في الشعر .

أثبني : من الثواب والمراد هنا الفدية . (الأغاني : ١٦/٥٤) .

(٣) رأى عبد الله بن عنمة الضبي وهو في أسر بني شيبان قومه وأهله في هذه الحال فبكى :

رأيت أناساً لم نكن لنبيعهم ... يباعون بالبعران مثنى وموحدا

طعامهم لحم حرام عليهم ... ويسقون بعد الري شربا مصردا

عبد الله بن عنمة الضبي من بكر كان في بني شيبان ، فأسر يوم ذي طلوع ، وافتكه مُتمّم بن نويرة (نهاية الأرب للنويري ١٥/٣٨٤) . والأبيات في (النقائض ٥٨ ـ ٥٩) .

يباعون بالبعران مثنى وموحداً : يباعون ويشرون بالبعير والبعيرين .

ولم يكن هذا المسلك مسلك عامتهم ولكن حوادثه مذكورة سُبَّ بها مرتكبوها وعُيِّروا (١) فكان موت الأسير جائعاً صادياً مبعثاً لكثير من الأسى في نفوس ذويه يكون عذابه وموته معاً (٢) .

وينصرف هم الآسرين حيناً الى تحقير الأسير والتشفي منه والحط من منزلته عند العرب فنحن نعرف أن رئيس القوم يفدى بمال جم ، فإن قصد الى استصغاره وتهوين شأنه طلب في فدائه دابة خسيسة ليست مما يفدى بها ، كأن الأسير لا يساوي أكثر منها (٣) .

---

(١) فما نسلب القتلى كما قد فعلتم ... ولا نمنع الأسرى من الأكل والشرب
ولبس ثياب الميت عار وذلة ... ومنع الأسير الزاد من أقبح السب

أنظر (الحماسة البصرية ١/٦٠) من أبيات لأدهم بن حازم الضبي .

(٢) ناحت أخت عمرو بن عاصية على أخيها نواحاً يفتت الأكباد عندما أسره بنو سهم من هذيل وكان قد عطش فاستسقاهم فمنعوه وقتلوه على عطشه :

يا لهف نفسي يوما ضلة جزعا ... على ابن عاصيةٍ المقتول بالوادي
إذ جاء ينفض عن أصحابه طفلا ... مشي السبنتىٰ أمام الأيكة العادي
هلا سقيتم بني سهم أسيركم ... نفسي فداؤك من ذي غلة صادي
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها ... مضرج بعدما جادت بإزباد

(الأغاني ١١/١٣ بولاق) .

جزعا : الجزع نقيض الصبر . ينفض طَفَلا : الطفل . الشمس قرب الغروب . السبنتىٰ : النمر . ذو غلة : ذو ظمأ شديد . صادي : عطشان . الطعنة النجلاء : الطعنة الواسعة التي لا يرجى لجرحها التئام . جادت بإزباد : الإزباد : توهج الدم المتدفق إثر الطعنة .

(٣) يروى أن مُزينة لقيت الأوس ببعاث فقتلتهم كل مقتل ، وأسروا ثابت بن المنذر . فآلى مقرن بن عائذ . وكان رئيس مزينة ، ألا يفديه الا بتيس أجم أسود . فغضب الخزرج لذلك وقالوا : لا نفعل ذاك أبداً . فقال ثابت أما إذا أبوا فخذوا أخاكم وأعطوهم أخاهم ، يعني : التيس . فلما رأوا أنه ليس لهم بد من ذلك جاؤ وا بتيس أسود أجمّ أخذه مقرن في سوق عكاظ في مجمع من الناس فذبحه وأطلق ثابتاً .

ثابت بن المنذر والد الشاعر الأنصاري حسان بن ثابت شاعر قومه الخزرج وزعيمهم في الجاهلية . كانت مزينة تسب بالتيوس . وتيس أجم كثير اللحم .

(الحماسة شرح التبريزي ٣/٢٠ ـ ٧٠ بولاق) .

ثم كثيراً ما يلقى الأسير عرضة للأذى المذل ، ويعمد اليه بالإرهاب ويقصد بالتخويف حتى يتمزق فؤاده مزقاً ويوقن بالموت . وكان هذا يترك أسوأ الأثر في نفس المأسور ، فينتقم لنفسه شر انتقام إذا سنحت له سانحة من عدوه بعد اطلاقه (١) .

وتحدثنا كتب الأدب أن أوس بن حارثة الطائي عندما ظفر ببشر بن أبي خازم الشاعر ، وكان هجاه أيما هجاء ، أدخله في جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه ، فصار فيه كأنه العصفور (٢) وإذا كان الأمر كما ذكر فلنتخيل حاله وقد نتن عليه الجلد واستحكم منه القردان ، ورتع فيه الدود ، وغزاه الذباب من كل جانب ، فلا نرى نكالاً أدهى ولا شقاء أهلك . صاحبه أليف حشرات ومزرعة طفيليات . ومن الأسرى من يقضي له حظه بنصيب مرير من التعذيب يتجرعه غصصاً ملؤها الكرب حتى يسعفه الموت بالانقاذ . وكان معذبوه يجدون لذتهم

---

(١) روى ابن حبيب أن « مالك بن بكر بن علفة بن جداعة أخو بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن كان غزا بني قيس بن حنظلة من البراجم ، فأسره الجعد بن الشماخ البرجمي وفض أصحابه ، فمكث عنده عاماً لا يفدى ، فلما طال ذلك عليه جعل يأتيه في كل رأس شهر بأفعى فيقول : والله لتفدين أو لأعضنها بك . فلما طال ذلك عليه قال : يا هذا ان قومي لا أراهم يفدونني فجز ناصيتي على الثواب ففعل وأطلقه . ثم ان الجعد أتاه يستثيبه فقدمه فضرب عنقه » . « ابن حبيب هو أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفي سنة ٢٤٥ هـ . جز الناصية : الناصية : مقدم شعر الرأس وكان من عادة العرب إذا أسروا الأسير شريفاً او وضيعاً جزوا ناصيته افتخاراً . ومعنى قوله على الثواب : انتظاراً للثواب في المستقبل . (أسماء المغتالين لابن حبيب : المجموعة السادسة في نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٩٥٤) .

(٢) أوس بن حارثة بن لأم الطائي . . سيد بني لأم وجديلة وطيء كلها ، ألبسه النعمان بن المنذر حلة الشرف رمزاً لتقديمه على رجالات العرب في الجاهلية ، فحسده من قومه رهط حاتم الطائي وبنو بدر من فزارة فأغروا به الشاعر الأسدي بشر بن أبي خازم فهجاه ، ولما وقع في قبضته من عليه وأنعم . خاض بعشيرته جديلة غمار حرب الفساد بينها وبين الغوث من طيء ، واضطر بعد معارك مبيدة ان يرحل بعشيرته ويدخل في قبيلة كلب . (الخزانة ٢/٢٦١ - ٢٦٤) .

في التنكيل به فلا ترق له رحمة ولا تنقذه شفقة . انه الانسان الذي لم يستطع أن يقهر في ذاته دواعي الشر والعدوان ولو تأخرت به الأزمان وورث الحضارات . وإنا لواجدون في العصر الجاهلي هذا الانسان ، يستهين بقدسية أخيه الإنسان ويستغل عجزه ليذيقه الثبور أشكالاً وألواناً(١) .

وذكر ابو الفرج الاصفهاني ان « معبد بن حاجب بن زرارة (٢) حين أسر وقعد أخوه عن فدائه بعثوا به الى رجل بالطائف كان يعذب الأسرى فقطعه إرباً إرباً حتى قتله (٣) » . ولا غرو ان الدافع الى هذا النكال هو الانتقام المتبادل بين القبائل المتعادية ، وكان الأسرى موضوع النكال ، وكم من شاعر قطعه التمثيل قبل أن يحظى بالموت (٤) . ولو ان التمثيل كان يصيب بعض الأفراد لما استحوذ

---

(١) ففي يوم من الأيام « خرج وائل بن صريم اليشكري من اليمامة فلقيه بنو أسيد بن عمرو بن تميم فأسروه وجعلوا يغمسونه بالماء في الركية ويقولون : « يا أيها المائح دلوى دونكا . حتى قتلوه » . (نهاية الأرب للنويري ١٥/٣٩٦) .

(٢) حاجب بن زرارة سيد بني تميم ، عظيم القدر في الجاهلية وكان مكيناً عند كسرى وملوك الحيرة . أسر ودفع في فدائه ما يزيد على ألف بعير . ولداه معبد ولقيط . (الأغاني ١٠/١٩ بولاق) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) نعرف من هؤلاء الشنفرى الذي أسره بنو سلامان ، وأدوه الى أهلهم وقالوا له أنشدنا فقال : انما النشيد على المسرة ، فذهبت مثلاً ثم ضربوا يده فتبعصرت أي اضطربت ، فقال الشنفرى في ذلك :

لا تبعدي اما ذهبت شامة   فربَّ وادٍ نفَّرت حمامه
ورب قرن فصلت عظامه

ثم قال السلامي : أأطرفك : ثم رماه في عينه ، فقال الشنفرى : كأن كنا نفعل ، أي كذلك كنا نفعل . وكان الشنفرى إذا رمى رجلاً منهم قال له : أأطرفك ثم يرمي عينيه . الشنفرى هو أحد بني ربيعة بن الحجر بن عمران بن عمرو بن عامر بن حارثة . . . بن الأزد ، سباه بنو سلامان وهو غلام ثم ابق منهم ، وجعل يقتلهم فطلبوه حتى قتلوه . كان صعلوكاً ، عداء ، صعب المراس ، قوي النفس . وتنسب اليه لامية العرب . (الأغاني ٢١/٩٢) .
=

على اهتمامنا، ولكن وجدناه يتناول الجماعات ويطغى حتى يغمر القبيلة كلها. وقد وصف عبيد بن الأبرص [1] ما أصاب قومه من بطش حجر بن الحارث من آل آكل المرار عندما غزاهم وضربهم بالعصا وحرقهم وأسر حشداً منهم .

وكان الأسود بن المنذر ملكاً جباراً حرق أقدام قوم من العرب على صخر محمي بالنار [2] .

ويحفظ لنا تاريخ العرب قبل الاسلام ذكرى حوادث عديدة أصاب الأسرى فيها القتل الجماعي [3] وفي تاريخ بني تميم يوم مشؤوم في الجاهلية

= أنشدنا : تهكماً به واستهزاء . شامة : أراد بها اليد . يبدو انه كان في يده شامة . سماها باسم شيء فيها كما نقل العرب في تسميته الكل بجزء منه .

أطرف الرجل : طابق بين جفنيه . وأطرف فلاناً : أعطاه ما لم يعط . (حماسة ابي تمام التبريزي ٢/٢٥ ـ ٢٦ . بولاق) .

(١) انظر (ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٤ تحقيق الدكتور حسين نصار مصر ١٩٥٧) .

(٢) كان له ولد اسمه شرحبيل في بني ذبيان يتعهدونه ، وكان الحارث بن ظالم مخالفاً للملك ، فتحين غرة ، وقتل شرحبيل على غفلة من راعيه ، فألقى الأسود الجريرة على ذبيان كلها ، وقاد الجيش اليها « فقتل وسبى وأخذ الأموال » (نهاية الأرب ١٥/٣٤٥) . ولم يخمد لغيظه نار ، فأرسل السرايا في طلب الفارين ، وفي أثناء المطاردة وجدت نعل شرحبيل عند أضاخ ، وهو من الشربة لبني محارب بن خصفة بن قيس عيلان ، فأحمى لهم الصفا التي بصحراء أضاخ ، وقال لهم : اني أحذيكم نعالاً فأمشاهم على الصفا المحمي فتساقط لحم أقدامهم (الأغاني ١٠/٢٣ بولاق) . •في الإسلام عيّر جوشن الكندي بني محارب بتحريق الأسود أقدامهم فقال :

على عهد كسرى نعلتكم ملوكنا   صفا من أضاخ حاميا يتلهب

(الأغاني ١٠/٢٣ بولاق) . وتلقفها الشعراء والرواة من أفواه الناس . ومثل هذه الأخبار لا تخلو من مبالغة ظاهرة وتضخيم مقصود ، فإن الخيال الشعبي يجعل من الحوادث المحدودة مآسي مروعة او بطولات نادرة .

(٣) منها حادثة الأخدود التي أشار إليها القرآن الكريم ، وحفظها التاريخ ، أشنع جريمة لليهودي ذي نواس ملك اليمن ، عندما دخل أهل نجران في دين المسيح عليه السلام ، فجاءهم الطاغية ليحملهم على ترك النصرانية ، فلما أبوا شق لهم في الأرض أخاديد ،=

هو يوم الصفقة ضربت فيه أعناق مئتي أسير من فرسانهم في يوم واحد ، وذلك في حصن المشقر في البحرين ، وكان عامل كسرى فيه رجل اسمه المكعبر ، وكانت تميم من قبل أضرت بالقوافل التجارية التي يحرسها المكعبر ، فأمهلهم زمناً ثم احتال لهم حتى أدخلهم المشقر ليمتاروا فلما صاروا في الحصن أصفق الباب عليهم وذلك يوم الصفقة ، وقدموا فضربت أعناق رجالهم واستبقى الغلمان وقتل يومئذٍ قعنب الرياحي وكان فارس بني يربوع ، وشد رجل من بني تميم يقال له عبيد بن وهب على سلسلة الباب فقطعها وخرج (١) .

وكان في العرب من يجدون غير قتل الأسير عاراً ، وكان لهم رأي في كثير من المواقف الحاسمة في أعقاب المعارك ، وتأثير مباشر في إزهاق العديد من الأرواح كانت في حلق الأسر (٢) .

ويجب الا تنسينا الأحداث القاتمة السابقة مآثرهم في إطلاق الأسرى

=وأضرم النار فيها وأمر الجنود ان يلقوا أسراهم فيها ، وان يقفوا على الناس حتى لا يخرج أحد منهم حياً . وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ . (سورة البروج الآية ٣ ـ ٩) . أخاديد : جمع أخدود وهو شق في الأرض . فقتل أصحاب الأخدود : لعنوا . قعود : قاعدون . شهود : جمع شاهد أي يعاينون عذابهم .

(١) انظر (الطبري : ٥٨٢/١) وابن الأثير (٣٧٨/١) وذكر الطبري شعراً نظمه عبيد في هذه الحادثة .

(٢) وخير من يمثلهم أبو أذينة عم الملك اللخمي المنذر بن الأسود ، فقد قتل أخ له في معركة بين اللخميين والغسانيين فظلت نفسه تتطلع الى الثأر لأخيه حتى كانت موقعة هزم فيها الغسانيون وأسر عدد منهم ، فقتل الأسود بعضاً وأراد أن يعفو عن بعض ، فقام أبو أذينة بين يدي الملك ، وأنشده قصيدة ضمنها رأيه في قتل الأسرى :

قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد ... رأيت رأياً يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها ... ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

(نهاية الأرب للنويري : ٣٢٠/١٥) .

وتسريح السجناء ، وكان فيهم من يحب ان يمتدح بفك الأعناق (١) لأنها مكرمة لا يستطيعها إلا رئيس لا يرد حكمه ، رأيه أمر وإشارته حكم . وكان الأسرى يغمرهم الامتنان وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء للمتفضل الفكاك ، وينطلقون وقد استعبدهم الإحسان يتغنون بما أسدى إليهم من فضل أجارهم من عواقب الأسر وبلاياه ، والعربي اذ يبتني لنفسه هذه الفضائل ينظر الى ما وراءها من الذكر وحسن الأحدوثة ، والدعاية الفعالة له ولقومه . فهو يسعى لقيم تكسبه رفعة المنزلة والمجد الساسي (٢) .

ويستنتج من خلال ما وصل الينا من قصص ـ ان استنفاذ الأسارى مكرمة من المكارم كان يحرص عليها ويمتدح بها ذوو الشأن والنباهة . ويصور بعضها عجز المأسورين عن دفع الفدية وبؤسهم وتشوفهم إلى المنقذ الذي يلهجون بإسمه وذكره ، فإذا هو يهبط عليهم فجأة ويقاتل عنهم او يشفع لهم عند الملك ، فيطلقون (٣) .

---

(١) وصلات الأرحام قد علم النا س وفك الأسرى من الأغلال
من قصيدة للأعشى في مدح الأسود بن المنذر اللخمي (الديوان ق ١ البيت ٤٠) .

(٢) في (البيان والتبيين : ٣١٨/٣ تحقيق هارون) قصة اطلاق صعصعة بن محمود لأحمر بن جندل مقابل أبيات مدحه بها .

(٣) وهي قصص كثيرة منها قصة الرجل الجذامي التي ذكرها ابو الفرج الأصفهاني (الأغاني : ١٠/ ١٤٠) وكان ابن جفنة في الشام أمسك به فسجنه فتوسل بشعر الى يزيد بن عبد المدان زعيم عرب اليمن قبيل الإسلام ـ وكان وافداً على بلاط الغسانيين ، فكلم فيه الملك فأطلقه له . ومنها ما ساقه ابن الشجري في حماسته : « ان عمرو بن معد يكرب خرج في خيل من زبيد يريد غطفان ، فبينا هو يسير وقد انفرد من أصحابه في ليلة باردة إذ سمع رجلاً نادى : يا عمراه ، فعلم عمرو انه اسير في بني مازن بن صعصعة ، فقال لأصحابه : مكانكم ، واقتحم على القوم وحده ، فلم يزل يقاتلهم حتى استعفوه ، وأعطوه الأسرى ثم قال للأسرى : هل علمتم موضعي حين نادى مناديكم ، قالوا : لا والله وما أمسينا منذ أسرنا أشد يأساً من الحياة وإيقانا بالهلاك منا الليلة . وفي ذلك يقول عمرو . .
(حماسة ابن الشجري : ١١ ـ ١٢ ، طبعة دائرة المعارف العثمانية في الهند سنة =

ومن العوامل الناجعة في اطلاق الأسير صنيع محمود قدمه الأسير في سابق أيامه فوجده في انتظاره يوم سجنه فجاءه فكاكه بما صنعت يداه (١) .

وكان الأسرى يجدون أحياناً قلوباً تفيض من الشفقة ترثي لبؤسهم وتعينهم على الخلاص من البلوى ، فنرى القيود ترفع عنهم بعامل إنساني خالص عندما تسكت في الإنسان ألسنة العصبية والغضب وتغفو الأحقاد ويتفجر في القلب الحب ، فيسمو الإنسان ويندفع مخلصاً ينقذ أخاه ابتغاء وجه الله .

نذكر من هذه المواقف النبيلة ما صنعه عدي بن نوفل ـ قبل الإسلام ـ عندما أخرج أهل اليمامة أسراهم من خزاعة أوان الحج الى مكة في الأشهر الحرم ليبتاعهم قومهم ، فغدوا جميعاً الى الحلفاء ، وفيهم قيس بن الحدادية فأخرجوهم وحملوهم وجعلوهم في حظيرة ليحرقوهم فمر بهم عدي بن نوفل فاستجاروا به فابتاعهم وأعتقهم (٢) .

= ١٣٤٥ هـ) . وانظر أيضاً ما مدح به أعشى قيس هوذة الحنفي في (ص ٣٧ الحاشية ١) .

وليس من المستبعد ان يفتكّ الزعماء في الجاهلية الأسرى العناة ، اذ كان بعضهم يستحيي الموؤدات ، ولكن الذي يحوم حوله الشك الكثير هو هذه القصص بطابعها الذي يكاد يكون اسطورياً . وأغلب الظن ان التنافس السياسي ما بين القبائل وما أثار من عصبيات ابدع أمثال هذه القصص وما فيها من شعر ، ليضفي كل على ماضيه هالة من المجد التليد ، ويجب ان تكون النظرة الى ما فيها من الوقائع قريبة من نظرتنا الى ما في شعر المدح والفخر من الادعاء والتزيد .

(١) (أمالي القالي : ٢/٢٧٣) من ذلك حديث دريد بن الصمة يوم أسره بنو كنانة ، وكان دريد قد أسعف فارسهم ربيعة بن مكدم يوم كان ربيعة يقود ظعينته وحيداً ، فلما وقع دريد في قبضتهم أطلقوه ولم يكفروا نعمته على صاحبهم .

(٢) فقال قيس يمدحه :

دعوت عديا والكبول تكبني ... ألا يا عدي يا عدي بن نوفل
دعوت عديا والمنايا شوارع ... ألا يا عدي للأسير المكبل
فما البحر يرمي بالسفين اذا غدا ... بأجود سيباً منه في كل محفل
تداركت أصحاب الحظيرة بعدما ... أصابهم منها حريق المحلل =

وقد تتغلب العاطفة الانسانية على قسوة المحاربين الأشداء وتجتذبهم جذباً إلى التسامي والرحمة والمحبة ، إذ وجد ما يثير فيهم هذه العواطف من منظر بائس او نشيج باك ، او نشيد حزين (١) .

ثم انهم ليتبادلون الأسرى على تقاليد معروفة أسيراً بأسير أو بغير بديل تقدمة لمعروف يجزى صاحبه بمثله في الغد القريب ، ومن الذين كانوا يرسلون في تبادل الأسرى . ممن عرفنا أخبارهم ـ قيس بن عاصم ويزيد بن عبد المدان (٢) ودريد بن الصمة : عرف كل منهم حق الآخر ومنزلته فاستجابوا لاطلاق المحبوسين (٣) .

وقد يحظى الأسير بالإكرام إذا خشي أعداؤه ان يساء الى أسراهم في قومه ، ومن مظاهر هذا الإكرام ان يسمح له بمراسلة قبيلته ، وقد يفلح في إخبارها بما يبيّت لها العدو (٤) .

= وأتبعت بين المشعرين سعاية لحجاج بيت الله اكرم منهل

(الأغاني : ١٣/٥) .

(١) انظر في (النقائض : ٦٨٥) أبيات أسير جاهلي نفذ الى قلب آسره بحديثه عن آلام أمه من أجله .

(٢) يزيد بن عبد المدان من سادة ومذجح في الجاهلية ومنحج من اليمن عرف بمكارمه وشجاعته وحسن تدبيره لأمور عشيرته وكان حسن الحظوة عند آل غسان في الشام .
(الأغاني : ٩ ص ١٧ ـ ١٨) .

(٣) أنظر قصة تسريح الأسرى بين هؤلاء الرجال في الأغاني : ٩ ص ١٧ ـ ١٨ . ولا تخلو هذه القصص من القصد الظاهر الى الدعاية السياسية لبعض رجال القبائل في الجاهلية .

(٤) في (أمالي القالي ١/ ٦) قصة أسير بلعنبر في بكر بن وائل الذي استطاع اخبار قومه بغزو بكر لهم ـ وهي لا تخلو من مبالغة وخيال ـ فلحن لهم بعبارات خاصة مع رسول القوم ، فعرفوا القصد ونجوا من الغارة .

وكان بقاؤه عند أعدائه مرتهناً ـ على الأغلب ـ بمسارعة قومه الى سوق الفدية ، وكانوا يستشارون للبدار الى تخلصه (١) . ويبدو ان التأخير فيه كان يسيء الى الآسر والمأسور معاً (٢) . وكان معرة ان يطرح في أسره عاماً (٣) ، وان قضى كثير منهم في ذلك غير عام (٤) . أما إذا لم يسأل بهم سائل فقد يقتلون (٥) او يستعبدون (٦) .

وتميزت معاملة الأسير ـ بظهور الإسلام ـ بلون مستحدث عندما وقع الصدام المسلح بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة ، وان لم يتجاوز به مصيره واحدة من ثلاث : القتل او الفداء ـ كما أشرنا الى ذلك ـ او التخلية عنه منّاً .

أما مشركو قريش فكانت موجدتهم على خصومهم شديدة ، فلم يتورعوا عن التنكيل الأليم بمن في أيديهم من الأسرى ، ولا يفارق الأسير عندهم أسير

---

(١) انظر شعر عتيبة بن الحارث وما وصفه من شقاء أسيره بسطام بن قيس ليغيظ قومه فيرسلوا فداءه (ص ٤٥ حاشية ٢) من هذا البحث .

(٢) انظر صورة لذلك وما قد ينتج عنه في أسر الجعد بن الشماخ البرجمي لمالك بن بكر في (ص ٤٨ حاشية ١) من هذا البحث ، فقد كانت هناك مضارة وحقد اعقبهما انتقام .

(٣) أسر ذو الرقيبة حاجب بن زرارة يوم جبلة ، في الجاهلية وبقي في أسره سنة ، فافتخر جرير بذلك في الإسلام :

وكبل حاجب بشمام حولا فحكم ذا الرقيبة وهو عاني

(نهاية الأرب للنويري : ٣٥٢/١٥) .

(٤) جاور رجل من ثمالة دريد بن الصمة وأغار قوم فأصابوا مال الثمالي ، فمكث أهله وذووه في الأسر اكثر من سنتين حتى وفد دريد على يزيد بن عبد المدان فسرح له الأسرى حباً وكرامة . انظر (الأغاني : ٩ : ١٦ ـ ١٨ بولاق) .

(٥) ذكرنا خبر مقتل معبد بن زرارة في (ص ١٩ حاشية ١) .

(٦) ذكرنا عدد الاقنان الذين كانوا لسيفع بن ناكور الكلاعي في الجاهلية وقد اعتقهم زمن عمر بن الخطاب في (ص ٤١ حاشية ١) .

الجاهلية في شيء إلا فيما يصب عليه من التعذيب وقسوة البطش اذ كان غرضاً لانتقام جماعي لما شحنت به النفوس من الغيظ والضغن . وعندما يكون الصراع دينياً لا يتورع الطغاة عن العنف والاضطهاد (١) . ولذلك لم يحظ الأسير المسلم من كفار قريش بشيء من الرأفة . ولعلهم كانوا يهدفون الى استئصال العقيدة من قلبه ورده الى الوثنية ، وبذلك يشهد ما لقي أوائل الأسرى المسلمين على يد القرشيين (٢) .

أما المؤمنون فقد بدأ الأسير يتمتع عندهم بمزايا جديدة ، إذ أوجب النبي ﷺ لأول مرة في تاريخ الأسر - في جزيرة العرب على الأقل - ان تقدر إنسانية الأسير ، وان تصان نفسه وكرامته عن الامتهان والازدراء ، فصار يحاط ويمنع ويبذل له من الطعام والمثوى مثل ما يجد المسلمون لأنفسهم ويأخذون (٣) . ولم يأذن الرسول ﷺ ان ينال الأسير شيء من العذاب اوالتمثيل ولو كان مخشي الخطر (٤) . وكان احترام قلبه وفكره أعظم من سلامة جسده وتوفير ضروراته ، فما يكره أسير على الإسلام بل يدعى إليه كما يدعى

---

(١) ذكرنا ما لقي أصحاب الأخدود من الموت تحريقاً في (ص ٥٠) من هذا البحث .

(٢) انظر الطريقة التي عاملت بها قريش سعد بن عبادة الأنصاري ، عندما أسرته عقب بيعة العقبة الثانية ، وما لقي من العنت والضر (السيرة لابن هشام المجلد الأول ص ٤٥) .

(٣) انظر وصاة الرسول ﷺ بالأسرى واستجابة المسلمين لذلك ،حتى آثروا أسيرهم بالخبز على أنفسهم (السيرة : م١ ص ٦٤٥) . وكان الإحسان الى الأسير وبذل الطعام له من مقاصد المتقين : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ ، (سورة الدهر : ٨ - ٩) .

(٤) كان سهيل بن عمرو - وقد أسره المسلمون يوم بدر - مفوّهاً صارم اللسان على المسلمين ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ ان يأذن له في نزع ثنيتي سهيل بن عمرو لينطلق لسانه ، فلا يقدر على مهاجمة المسلمين ، فمنعه قائلاً : « ان مثلت به مثّل الله بي » (السيرة م١ : ٤٤٩) .

الطلقاء ، فإن قبله كان رغبة منه لا رهبة [1] ، ذلك ان الإسلام مقت الفتنة [2] ، ولم يـر المعاملة بـالمثل في هـذا الجانب ، بـل سلم للأسيـر بحريـة العقيـدة والفكر [3] .

كمـا نجـد ان الاعتبـارات المعنـويـة كـانت تؤثـر أحيـانـاً في اطـلاق الأسرى [4] . ولم نعثر في كتب السيرة على ما يدل على ان الأسرى والسجناء كانوا يوضعون في الحديد ، فقد ذكر ابن هشام في الحديث عن أسرى بدر ان سهيل بن عمرو كان « مجموعـة يداه الى عنقـه بحبل » [5] . وسـاق الكتاني : « في الصحيح انه قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت بـرجل من بني حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد [6] » ، وإنمـا الربط بـالحبال ، ولم نجـد فيما استعـطف ومدح بـه الحطيئـة عمـر بن الخطاب ـ عندما حبسه في بئر ـ ذكراً للقيود . أما أبو محجن الثقفي في سجن سعد بن أبي وقاص أثناء فتح العراق فقد أشار الى قيده [7] .

---

(١) أسر ثمامة بن أثال الحنفي وخرج من الأسر وقد اعتنق الإسلام طوعاً وحباً ، ثم توجه الى مكة معتمراً ، فأسرته قريش ، وسامته الفتنة ، فلم يجب وثبت على دينه . أنظر أحواله في أسـره والطريقـة التي دعاه بهـا الرسـول ﷺ الى الإسـلام في (سيـرة ابن هشـام م٢ : ٦٣٨) .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ (البقرة : الآية ٢١٧) .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (البقرة : الآية ٢٥٧) .

(٤) أطلق عليه الصلاة والسلام ابنة حاتم الطائي لان أبـاها كـان يحب مكارم الأخـلاق (سيرة ابن هشام م٢ : ص ٥٧٩) .

(٥) السيرة م١ : ص ٦٤٥) .

(٦) (التراتيب الإدارية : ١/٢٩٤ . الرباط ١٣٤٦ هـ) .

(٧) قال البلاذري في (فتـوح البلدان : ٣٦٣) : « وقال أبـو محجن الثقفي حين رأى الحرب » :

كفى حـزنـاً ان تـدعس الخيل بـالقنا ... واتـرك مشـدوداً علـيَّ وثـاقـيـا
إذا قمت عنـاني الحـديـد وغلقت ... مصـاريـع من دوني تصم المنـاديـا

ولما رجع العرب بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان الى الانقسام والحروب الداخلية أسر المسلمون بعضهم بعضاً ، فكان لـلأسرى مصـائر وضـروب من المعـاملة تختلف باختـلاف الأحوال والرجـال ، وتتـأثر بمسببـات أسـرهـم ، وبمقدار الخطر الذي يواجهون به آسـريهم ، وما يتـرتب على قتلهم او التخلية عنهم من عواقب .

أما علي في حروبه مع معاوية فكان ينهي عن قتل أسير أهل القبلة [1] ، فكان « إذا أخذ أسيراً من أهل الشام خلى سبيله ، إلا ان يكون قد قتل أحداً من أصحابه فيقتله به » [2] .

ولكن الأسـرى لـم يظفـروا بمثل علي ـ كـرّم الله وجهه ـ ولـم تلبث الفتن والخلافات بين الزعماء والقبائل ان سلبتهم كثيراً من العوائد الحسنة والعواقب السليمة ، وجعلت من أسراها مصب غيظها واضطغانها ، حتى تقطعت وشائج الأرحام القريبة ، وآل ما بين الأخـوين ـ من آسر ومـأسور ـ أحيـاناً الى مثـل ما يكون بين الأسد والحمل ، ليس إلا العدوان وشهوة التشفي [3] .

وكـان موقف القـوة يغري الخلفـاء والعمال بتقتيـل الأسـرى في مـواطن كثيرة ، فيركبون القسوة طريقاً ، زجراً للثائـرين والمتمردين ، وتثبيتـاً للملك ، وكانت المئات من الأسرى تقدم للسيف فيأتي عليها لا يبقي منهـا إلا من نجّاه قدره [4] . وكانت الرؤ وس تتهاوى والدماء تسيل حتى يسأم القـائم على القتل

---

(١) انظر (وقعة صفين : ٥٣٣ ، لنصر بن مزاحم المنقري ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٣٦٥ هـ) و (شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٥٩) .

(٢) وقعة صفين : ٥٩٥ لابن مزاحم .

(٣) انـظر في أنساب الأشـراف (٢٥/٤) ما ذكـره البلاذري من أمـر عمرو بن الـزبيـر ـ صنيعة الأمويين ـ عندما وقع أسيراً في يد أخيه عبد الله بن الزبير .

(٤) أسر زفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس أيام الأمويين من تغلب وقتلهم صبراً ، انظر (أنساب الأشراب ٣٢٧/٥) . وقتل مصعب بن الزبير ثمانمائة أسير من جند الأمويين دفعة واحدة (المصدر نفسه ص ١٥٤) .

ويعاف رؤية المجزرة ويتوق للخروج من حمام الدم ، فيتعلق بكلمة من أسير ليصدر عفوه بعد السأم والاشمئزاز من رائحة الدماء الحارة [1] .

ولكن المواقف تختلف باختلاف الأحوال والرجال ، فإذا أُمعن أحياناً في قتل

---

(١) جاء في (كتاب الفرج بعد الشدة : ص ٢٨٦ ، للقاضي ابي علي الحسن بن أبي القاسم التنوخي ، مصر الطبعة الأولى لسنة ١٩٥٥ م) : « وذكر المدائني في كتاب يرفعه الى رجل من أسراء الحجاج من أصحاب ابن الحجاج قال : « جعل الحجاج يقتل عامة يومه الأسراء ، وبقيت منا جماعة قليلة ، وأتى برجل ليضرب عنقه ، فقال : يا حجاج والله لئن كنا اسأنا الفعل فما أحسنت في العقوبة ، ولئن كنا لزمنا الجناية فما كرمت في العفو ، فقال : رده يا حرسيّ ، كيف قلت ، فأعاده ، فقال الحجاج : صدقت والله ، أفٍ لهذه الجيف والجثث ، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهتنا ، اطلقوا عنه » . وقد يظن بمثل هذا الخبر المبالغة ولكن ما عرف عن الحجاج من الإسراف في الدماء لا ينفيه . فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في (تهذيب التهذيب : ٢/٢١١ ط الهند ١٣٢٥ هـ) : «أخرج الترمذي من طريق هشام بن حسان : أحصينا من قتله الحجاج صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا » (رجاله ثقات) .

ومما يروى في هذا الباب ما ذكره ياقوت في (معجم البلدان م° ص ٢٦٤ « نجد » طبعة صادر بيروت) : وأدخل على عبد الملك عشرة من الخوارج فأمر بضرب رقابهم ، وكان يوم غيم ومطر ورعد وبرق ، فضربت رقاب تسعة منهم ، وقدم العاشر ليضرب عنقه ، فبرقت برقة فأنشأ يقول :

تألق البرق نجديا فقلت له ... يا أيها البرق إني عنك مشغول
بذلة العقل حيران بمعتكف ... في كفه كحباب الماء مسلول

فقال عبد الملك : ما أحسبك الا وقد حننت الى وطنك وأهلك ، وقد كنت عاشقاً ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : لو سبق شعرك قبل أصحابك لوهبناهم لك ، خلوا سبيله ، فخلوه . (العقل : الأسر ، والحباب : الحية . والمعتكف : القائم على ضرب الأعناق) والبيتان في الحماسة البصرية ٢/٩٣) وورد الثاني منهما :

أليس يكفيك هذا ثائر حنق ... في كفه صارم كالملح مسلول

الأسرى فإن العفو كان يصدر أيضاً عن أريحية حية حاضرة [1] ، وكـانت تلعب هي والحلم دور المنقذ للأسرى بين القبائل المتحاربة في ظل الحكم الأموي، شأن بعض المواقف قبل الإسلام .

أما أسرى العرب عند الروم فإن طبيعة الحرب المستمرة بين الفريقين ، ومـا اتشحت به من صباغ ديني تميل بنـا الى النظر بعين الجـد الى ما يـورده الاخبـاريون والـرواة مما كـان يلقاه الأسـرى من المهانـة والعنت عند الـروم ، وبخاصة في أول الصدام [2] قبيل حروب الفتح وأثناءها ، فكان الروم يشتدون على الأسير من العرب . وليس هـذا بمستغرب فقـد أثبتت الأحداث قـديمها

---

(١) سال وفد هوزان رسول الله ﷺ أن يمن عليهم بإطلاق أسراهم أبنائهم ونسائهم بعد وقعة حنين فوهبهم لهم جميعاً (السيرة م ٢ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩) .

وعفا المعتصم عن الثائر الأسير تميم بن جميل السدوسي عندما هم بضرب عنقه (زهر الآداب : ٣/٨٠٣ـ٨٠٤) للحصري القيرواني . تحقيق زكي المبارك ومحمد محي الدين عبد الحميد . الطبعة الثالثة مصر ١٩٥٣) .

وذكر التنوخي في (الفرج بعد الشدة ص ٢٨٤) : « أتى معن بن زائدة بثلاثمائة أسير ، فأمر بضرب أعناقهم .. ثم قدم غلام كـان فيهم ، فقال : يـا معن ، لا تقتل أسـراك وهـم عـطاشّ ، فقال : أسقـوهم .. قال : ونحن جيـاع ، فأمـر لهم بطعـام ، فلما شبعـوا قال الغلام : كنا أسراك فصرنا ضيوفك . فقال : خلوا عنهم ،وأطلقوا جميعاً .

(٢) كان أول أسير وقتيل بيد الروم بعد غزوة مؤتة هو«فروة بن عمرو الجذامي بعث الى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه .. وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معـان ، وما حـولها من أرض الشـام ، فلما بلغ الـروم ذلك من إسـلامه طلبـوه حتى أخـذوه ، فحبسوه عنـدهـم وصلبوه على مـاء يقال لـه : عفراء بفلسـطين » (السيـرة : م ٢ ص ٥٩١) . ومن الإنصاف ان نذكر ان بعض حكام الروم أكبر استمساك الأسرى المسلمين بدينهم بعد اختبار وتجربة فأطلقهم ، كما صنع حاكم مصر من اطلاق الصحابي عبد الله بن حزافة وسائر أسـرى المسلمين زمن عمر بن الخـطاب ، انظر (حسن الصحـابة في أشعـار الصحابة ص ٣٠٦ طبعة تركيا سنة ١٣٥٤ هـ) .

وحديثها ان لا كرامة لأسير ولو اتفقت الملل . وكانوا يقرنون بالسلاسل ويلبسون ثياب الصوف [١] ، ويحشرون في الأمكنة المظلمة ويستفاد من بعض القصص ـ وهي لا تخلو من كثير من الخيال والقصد إلى الإغراب ـ ان بعض أباطرة الروم كان لا يلبث الأسرى في مكان مخصوص بل ينقلهم بين دماسقة مملكته [٢] ، لينزل فيهم كل منهم ما عنده من صنوف القهر والإذلال[٣] .

وقد يراعى الأسير اذا كان ذا منزلة ، فتترك عليه ثيابه ـ نظراً لما قد يتوقع من مبدأ المعاملة بالمثل ـ ويسمح له بمراسلة قومه [٤] ، فيجعلونه في ثغورهم اذا كان من المتوقع افتداؤه ، او ينقلونه الى أعماق بلادهم اذا أبطأ عنه قومه حتى لا يستخلص حرباً . فقد كان الحرص على التمسك بالأسير ظاهراً

---

(١) قال ابو فراس الحمداني :

يا ناعم الثوب كيف تبدله	ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا	نحمل أقيادنا وننقلها

(يتيمة الدهر ١/٧٥ تحقيق محي الدين عبد الحميد) . ومما يشير الى سوء معاملة الروم لأسرى العرب ما ذكره ابن خالويه من كلام ابي فراس الحمداني (ديوانه ٣/٣٢٣ تحقيق سامي الدهان بيروت ١٩٤٤) إذ قال : « من رسومهم ان لا يركب أسير في مدينة ملكهم دابة قبل لقاء الملك ، وان يمشي في ملعب لهم يعرف بـ « البطوم » مكشوف الرأس ، ويسجد ثلاث سجدات او نحوها ويدوس الملك على رقبته في مجمع لهم يعرف بـ « النوري » » .

(٢) جمع دمستق وهو اسم للقائد من الروم ولحاكم الولاية .

(٣) ذكر التنوخي في الفرج بعد الشدة (ص ١٤٤ ـ ١٥٣) قصة غير قصيرة ذات طابع خيالي تذكر فيما تذكر من الوقائع نقل الأسرى من دمستق الى آخر . وليس من المستبعد ان تكون أمثال هذه القصص من أدب الحروب بين العرب والروم ، ولكن الخيال على كل حال يستمد مادته التشكيلية من أحداث الواقع .

(٤) كان ابو فراس الحمداني يراسل ابن عمه سيف الدولة ويرسل إليه بقصائده المشهورة بالروميات وقد ذكر ترك ثيابه عليه في القصيدة (١٦٠ البيت ٤٦ في الديوان ٢/٢٠٩) .

لاحتياجهم اليه في عملية تبادل الأسرى ، او في أخذ الفدية [1] .

وكان للمسلمين أسرى عند غير الروم من الديلم والترك ، ويبدو ان حال الأسير عند قبائل الديلم تشبه حال الأسير في الجاهلية . فكان المحارب الديلمي يأسر لحسابه الخاص ، ويسجن أسيره في بيته ويقيده منتظراً استيفاء ثمنه ، ولذلك كانت تعن فرص الهرب لبعض الأسرى في ظروف نادرة [2] .

---

(١) كان مما رثى به أبان بن عبد الحميد اللاحقي قاضي البصرة الشهير سوار بن عبد الله افتكاكه للأسرى والأسيرات . انظر الأوراق للصولي (ص ٤٤ ، جمع هيوارث د. ن) .

(٢) وممن أسره الديلم أعشى همدان الشاعر الأموي ، وقد هرب بعون من ابنة الديلمي الذي كان في أسره ، وله في ذلك قصيدة طويلة . انظر (ديوانه ن ق ٢٠ ص ٣٢٦ طبعة أوربا وهو يلي ديوان أعشى قيس) . وانظر قصة فراره في (الفرج بعد الشدة للتنوخي ص ١٢٢) .

المبحث الرابع

الطـرق الى الأسـر

يحسن ان نطلع على أشهر الشعراء الأسرى في الظروف التي انتهت الى الأسر ، بعد الحديث عن أوضاع الأسرى ومصائرهم في الجاهلية والإسلام . فالاحاطة بدواعي أسرهم تفسير ما حاق بهم من ضروب المعاملة وتعين على استجلاء مضمون الشعر الذي نظموه في ذلك الموقف وعلى تقدير اتجاهاته وأسبابها .

الخصـام السـياسـي :

والغزو والحرب أوسع الطرق ، وكان التنافس السياسي في جزيرة العرب قبل الإسلام ، على السؤدد والزعامة مظهراً مألوفاً ، وهو صميمي في تركيب المجتمعات القبلية التي تقوم على العصبيات ، وتتناحر على مساقط المياه ومنابت الكلأ ومراكز القوة ومواردها (١) . وكانت القبائل تتمخض أحداثها عن رجال يسودون عن طريق الكفاءة والبلاء وبما لهم من بيت قوي كثير الأكفاء . وكانوا يستفيدون من الزعامة والتسويد فائدة ذات مردود اعتباري ومادي ، فيتصلون بالقوى الكبيرة على أطراف الجزيرة ويعقدون معها صلات متنزعة ،

(١) انظر حول العصبيات ـ ما كتبه الدكتور جواد علي في « تاريخ العرب قبل الإسلام » (٢٢٢/١ بغداد ١٩٥١) وكذلك ما ذكره الألوسي عن مفاخرات العرب في الجاهلية في « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » (٢٧٨/١ : ط ٣ . مصر) .

ويحظون بتأييدها وهباتها احياناً ، ويلون لها احيانـاً بعض الأعمال من حـراسة القوافل او رقابة القبائل غيـر المؤيدة وضبـطها [١] . ولعـل حيزاً غيـر قليل من تاريخ العرب قبل الإسـلام يحكي قصة التنـافس بين المناذرة والغسـاسنة على النفوذ في الجزيرة [٢] .

والحق ان التعادي السياسي هو اللون المميز للقبائل قبل الإسلام وبعده ، فإن نفوذ رجالات الحكم والساعين إليه كان يتقسمها دائماً [٣]، ولم تستجم من هذا العـداء الا حقبة صـدر الإسلام ، ثم استـأنفت سيـرتهـا بعـدهـا ، واستؤنفت الغارات والغزوات في فترات الفوضى زمن الأمويين وانتقال الحكم من بيت الى بيت ، وعندما كـان الحكام يؤرثـون النزاع كـانت القبائـل تتلاقى في حـروب مبيدة [٤] ، كل منها تدعم مرشحها للخلافة ، وهي تعلم ان السلطان ليس لها

---

(١) من مشهور شعر عامر بن الطفيل الجاهلي قوله :

واني وان كنت ابن سيـد عـامـر ... وفـارسها المشهـور في كـل مـوكب
فمـا سـودتني عـامـر عن وراثـة ... أبى الـله أن أسـمـو بـأم ولا أب

(بلوغ الأرب : ١٢٨/٣ : وهو وإن أدل بفروسيته وبمناقبه الشخصية ، فإن بيت الشرف الذي انحدر منه لعب الدور الأكبر في تسويده . تشهد بذلك المنافرة التي جـرت بينه وبين ابن عمه علقمة بن علاثة لسيادة بني عامر وسنأتي على ذكرها في (ص ٦٩) .

(٢) كان عمال البحرين مكلفين بحراسة القوافل الفارسية الذاهبة الى اليمن ، وممن كان يشـرف على أمن طـريقهـا هـوذة بن علي الحنفي . انـظر ديـوان الأعشى (ص ١٠٠ القصيدة ١٣) وتاريخ الطبري (٥٨٣/١) .

(٣) انظر في (شرح الحماسة للتبريزي : ١١/٤ بولاق) غزو عمرو بن المنذر بن مـاء السماء لبعض طيء ـ وكان لهم عليه عهد بالأمن ـ وتعريض أحد شعرائهم بطلب جوار ملك الغساسنة في الشام .

(٤) من ذلك معركة مرج راهط التي أوصلت مروان بن الحكم الى الخلافة ، والحروب القبلية في الجزيـرة الفراتيـة بين كلب وقيس ، أنظر أنسـاب الأشراف للبـلاذري (الجـزء الخامس ص ١٣٦ ـ ١٤٦ و ص ٣١٣) .

وإنما تريد الزلفى والنفوذ والتمكن في الدولة (١) .

ولقد نعلم ان الشعراء كانوا ـ في العصرين ـ الحناجر السياسية في هذا الصراع ، وكانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً في تأريثه ، ويسخرون مواهبهم الشعرية لدعم مرشحيهم من جهة ولتحطيم منافسيهم من جهة أخرى . وكان خطرهم كبيراً في هذه المعركة لما للشعر من أثر في رفع الرجال وخفضهم ، وأسهم عدد كبير من كبار الشعراء إسهاماً فعالاً في النزاع المسلح والمعركة الكلامية وتمكن خصومهم من أسرهم ، وصار في طوقهم الاقتصاص وشفاء النفس منهم . وان مواقفهم جميعاً متشابهة الملامح والنتائج ، ترى الشاعر يوعد ويغيظ ويوغر الصدور ويتحدى أعداءه يسلبهم المناقب ويجمع عليهم المثالب ، فيتحرقون عليه حتى إذا أسروه وأصبح من الموت على مقربة ، وقد خافوا هم أيضاً ان يبقى من بعده سبة الدهر ، آثروا اصطناع الحلم وأظهروا السماح ، ومنوا عليه بالحياة منا وهو يرى المنية بين الأمر والانفاذ ، وعندئذ يطأطىء هامته للمحنة الكبرى ويغمره فيض من الشعور بالجميل ، وينطلق في المدح بدافع من الخوف والأمل ، وقد أنساه الاحسان العداوة وحمله على التزام جديد هو تمجيد أولئك الذين كان ينال منهم بلسانه وسيفه تمجيداً ينسيه قومه (٢) .

بشر بن أبي خازم

ولا يعدو الأمر ما ذكرناه ، وقصص أسرهم رسمت هذا الخط العريض الذي نتبينه جلياً في أسر الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم ، يوم كانت طيء

---

(١) يروى ان رجلاً من العرب تمثل يوم مرج راهط يوم التقت الزبيرية بالمروانية ، وقيل هو مروان بن الحكم نفسه :

وما ضرهم غير حين النفو س أي رئيسيْ قريش غلب

(المصدر نفسه ص ١٣٧) .

(٢) انظر في (الأغاني : ١٦/٥٥) شعر الحطيئة في زيد الخيل الطائي عندما أسره في الجاهلية ، وقد رفع من شأن زيد ووضع من قومه ، وكذلك كان صنيع بشر بن أبي خازم مما سنشير الى بعضه بعد قليل .

آخذة في النمو والقوة ، وموقع مضاربها في الشمال [١] من نجد وعلى مقربة من الحجاز يسمح لها ان تلعب دوراً سياسياً وعسكرياً هاماً . وقد بدأت أنظار ملوك الحيرة تتطلع اليها وتقرب أشرافها [٢] . وارتفع فيها عدد من البيوت تنافسوا فيما بينهم على السؤدد [٣] ، ولما اعترف ملوك المناذرة بزعامة أوس بن حارثة بن لام الطائي [٤] - من قبيلة جديلة - حسدته البيوت الطائية الأخرى ، وبحثت عن أحلاف لها خارج طيء من القبائل النزارية ، وتعاقدت معها على تهديم مجد أوس بن حارثة [٥] ، واستطاع خصوم أوس أن يشتروا شاعراً كبيراً في

(١) كانت أراضيها حول الجبلين المعروفين بأجأ وسلمى في المنطقة التي تعرف اليوم بإسم « حائل » .

(٢) تذكر الروايات ان ملك الحيرة النعمان بن المنذر استقدم الى الحيرة أوس بن حارثة بن لام الطائي ووجوهاً من القبائل الأخرى وألبس أوساً حلة رمزاً لتسويده على العرب ، انظر (الأغاني : ١٦/٩٥/ - ٩٧) ولا تبرأ هذه القصص من الوضع او التزيد بسبب من العصبية القبلية التي حدت بالقبائل لاختلاق الحوادث إعلاء لماضيها السياسي ، وأمثال هذه القصص كثير ، انظر في (بلوغ الأرب : ٢٧٨/١ - ٣٠٧) حادثة مشابهة في تقديم النعمان لبسطام بن قيس الشيباني على غيره من وفود العرب .

(٣) منهم رهط حاتم الطائي ومنهم زيد الخيل الطائي الذي علا نجمه في الجاهلية حتى أدرك الإسلام ، أنظر (الأغاني : ١٦/٩٥ - ٩٧) و (ترجمة في الإصابة رقم ٢٩٤١) .

(٤) أنظر ترجمته في (ص ٤٨ حاشية ٢) من هذا الكتاب .

(٥) عندما قدم النعمان بن المنذر أوساً على رؤساء العرب ، نفس عليه الزعامة من قبيلته بنو عدي بن أخزم رهط حاتم الطائي ومن غيرها بنو بدر رؤساء فزارة ، فجمعت بين الفريقين الضغينة على أوس ، وحدث أن أسرت جديلة - وهي قبيلة أوس - أفراداً من بني بدر ، فشدت وثاقهم ، وجزت نواصيهم ، وكان بشر بن أبي خازم من أسد وبنو أسد وبنو بدر حلفاء ، فغضب بشر لما نزل بحلفائه من هوان ، ولم يمتنع من هجاء أوس عندما بعث إليه جماعة من طيء - حساد أوس - بثلاثمائة ناقة . انظر البغدادي في (الخزانة : ٢/ ٢٦١ - ٢٦٤) و(الموشح : ٥٩) .

ويستظهر الدكتور عزة حسن في مقدمته لديوان بشر (ص ١٨ - ٢٣ ، طبعة دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٦٠) ، ان هجاء بشر لأوس كان العامل السياسي فيه - وهو انه خصم لأعداء حلفائه - أقوى من العامل المادي . على اننا اذا نظرنا الى عدد النوق التي سيقت اليه ، وهو =

عصرهم [1] ، يتولى بهجائه المقذع تحطيم المنزلة الرفيعة التي يعرفها العرب لأوس ، وكان هذا الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي .

ويكشف الهجاء الذي سدده بشر الى خصمه عن اندفاع وحماسة للإجهاز على زعامته [2] ، تحدوه الى ذلك ـ فيما يحدوه ـ العصبية النزارية على طيء القحطانية ، والحق أن بشراً لم يكن شاعراً متكسباً فحسب بل فارساً وقائداً صاحب غزوات وغارات يعيش الأحداث السياسية الكبرى في الجزيرة بلحمه ودمه ، فانقض على أوس بن حارثة وعلى بيته يهدم مجده السياسي من القواعد ، ولم يدخر نقيصة أو رذيلة او سخرية إلا رمى بها أوساً ، لواذاً منه بقومه بني أسد واعتداداً بهم [3] .

وسقط بشر بن أبي خازم بيد الطائيين في حرب من حروبه معهم ، وحُمل الى أوس بن حارثة ، مُبْلساً متوقعاً الموت ، ولكنه شديد الحرص على

= ثمن لا يستهان به ، مال بنا الظن الى ترجيح الجانب المادي على السياسي ، فالمال ـ على الأغلب ـ أكثر إغراء من الروابط الأدبية .

(١) وضعه ابن سلام في الطبقة الثانية من الجاهليين (طبقات فحول الشعراء : ٨٠/ تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر دار المعارف **١٩٥٢**) .

(٢) ألبس النعمان حلة الزعامة والكرامة أوساً لقوته وليكون له عوناً على مصالحه وحامياً لقوافله فغمزه الشاعر في هذا الجانب (الديوان ص **٩٠** ق ١٧) .

الا بلحت خفارة آل لام ... فلا شاة ترد ولا بعيرا

وفي ديوانه خمس قصائد هجا بها أوساً على طريقة الجاهليين في سلب المكارم والفضائل للمهجو .

(٣) كان مما قاله فيه :

فيا عجباً أيوغدني ابن سعدى ... وقد أبدى مساوئه الهجاء
وحولي من بني أسد حلول ... كمثل الليل ضاق بها الفضاء

(الديوان ص ٢ . ق ١ . ب ١٦ ـ ١٧) .

الحياة [1] ، ولقيه أوس محنقاً فصب عليه من العقاب ما أرهبه إذ ألقاه في القد وأدخله في جلد كبش حتى جف عليه [2] . وهم بقتله لولا أن أوساً كان شفاؤه بغير دم الشاعر [3] ، كان يطمح الى إبطال أثر هجائه واستصدار تكذيب علني من الشاعر لنفسه [4] ، وقد ترك أوس أسيره أول الأمر في عذاب نفسي يعاني الخوف من الموت ، ويتوسل له تائباً أن يهبه الحياة ، ولما أمنه أوس واستبقاه خرج من خوفه ونظر الى الظفر بحريته ، فسأله آسره بعد اظهار الامتنان والشكر لحقن دمه [5] وقد منّ عليه أوس بها ولكن بعد أن قبض منه ثمناً باهظاً ، إنه لم يطلق سراحه إلا بعد أن رفع أوساً على قومه بني أسد ووضع من شأنهم وعرض بمثالبهم ، وكان بهم من قبل مستعلياً [6] .

---

(١) وهذا جلي في قوله :

واني لأرجو منك يا أوس نعمة   واني لاخرى منك يا أوس راهب
فهب لي حياتي فالحياة لقائم   بشكرك فيها خير ما أنت واهب

(الديوان ص ٤١ ـ ق ٩) .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٢/٢٦١ .

(٣) ان سعدى أم أوس نهته عن قتل الشاعر وقالت له : « انه لا يمحو ما قال غير لسانه » (الشعر والشعراء ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦٩ هـ) .

(٤) ان بشراً سارع الى الرضا بذلك فقال (الديوان ص ٤١ ق ٩) :

فإني سأمحو بالذي أنا قائل   به صادقاً ما قلت اذ انا كاذب

ومثل ذلك صنع الأعشى انظر (ص ٧٠) من هذا الكتاب .

(٥) قال له في القصيدة ٢٢ (الديوان ص ١٠٦) :

تداركت لحمي بعدما حلقت به   مع النسر فتخاء الجناح قبوض
فإن تجعل النعماء منك تمامة   ونعماك نعمى لا تزال تفيض
يكن لك في قومي يد يشكرونها   وأيدي الندى في الصالحين قروض

(٦) فمن ذلك قوله في القصيدة ٢٤ (الديوان ص ١١٤) :

تداركني أوس بن سعدى بنعمة   وعرد من تحنى عليه الأصابع
فأصبح قومي بعد بؤس بنعمة   لقومك والأيام عوج رواجع
عبيد العصا لم يمنعوك نفوسهم   سوى سبب سعدى ان سيبك نافع =

ودفع بشر نتيجة هذا السوم المهين ثمن حريته غالياً ، وسخا بـالكثير من حق نفسه وحق قومه حفاظاً على حياتـه ، وكابـد تجربـة مريـرة حطمت زهـوه وفخاره القومي في سبيل تخلصه من الأسر .

أعشـــى قيـــس

وشبيهٌ بموقف بشر بن أبي خازم موقف أعشى قيس ، فقد زج بنفسه في خصومةٌ بين رجلين من بيت واحد راحا يتنافسان على الزعامة ، وهما عـامر بن الطفيل (١) وعلقمـة بن علاثـة (٢) وكانـا أبناء عم من بني عـامر بن صعصعـة ، وكانت الرئاسة لعمهما أبي براء عامر بن مالك بن جعفر ، فلما أسن تنـازعاهـا فتنافرا (٣) . ووقف الأعشى الى جانب عامر بن الطفيل يدعمه مرشحـاً لزعـامة بني عامر بن صعصعة ، ويتطلب منه هذا الدعم ان يُحقِّر المرشّح الآخر ويصغّر

= عرد من تحنى عليه الأصابع : احجم وفر الذين يعدون من الأخوان على الأصابع ويرجى عونهم . الأيام عوج : تعوج وتعطف . وهو من أمثال العرب يقولون ذلـك عند الشمـاتة او الوعيد ، « والشـاعر هنـا يشمت بقومـه بني أسد ويـذكرهم بـالعاقبـة التي انتهوا اليهـا » . (الديوان ص ١١٤) . عبيد العصا : مثل يضرب للذليل ، وأول من قيل لهم ذلك بنو أسد قبيلة الشاعر .

(١) عامر بن الطفيل كـان من أشرف بيت في قيس ، يضـرب بشجاعتـه المثل ، طعنـه يزيد بن مسهر في وجهه فذهب بعينه ، ومنافرته مع علقمة بن علاثة أشهر منافرات العرب في الجاهلية . (الأغاني : ١٥/٥٥) .

(٢) علقمة بن علاثة من بني الأحوص ، نازع الشرف عـامر بن الـطفيل وهمـا من بيت واحد ، ولم يستطع احد من حكام العرب تفضيل أحـدهما على الآخـر (المصدر نفسـه) وانظر أيضاً التحقيق التاريخي الجيد الذي كتبه الدكتور محمد محمد حسين لمقدمة القصيدة (١٨) في (ديوان الأعشى الكبير : ١٣٨) .

(٣) المنافرة : من نافر اي حاكم في النسب ، وهي ان يتنازع الرجلان الشرف فيتنافـرا الى حكمائهم فيقدمون الأشرف ، وقيل : سميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : أنا أعز نفراً . ولكنهم في منافراتهم يفتخرون بمـزاياهم كلهـا من عز ومـال وجمال وشـرف ونفر ، وفي تاريخ العرب منافرات عديدة أشهرها منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، ومنافرة جرير البجلي وخالد بن ارطأة الكلبي ومنافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس انظر ما أورده الألوسي في (بلوغ الأرب : ١/٢٧٨) .

شأنه ، ويقلل خطره ، ويسلبه فضائل زمانه ، وان يشيد بمرشحه هو مطنباً بعلو قدره وعظمة سجاياه ، كما نشهد الأمر في الدعايات والمنافسات السياسية المعاصرة (١) .

وتلهف علقمة على الإمساك بالأعشى فلما ظفر به وقف بين يدي آسره مستسلماً مخذولاً يخلع عليه حلة السؤدد والمجد التي جرده منها في هجائه ، ويطأطىء رأسه مستميحاً عفوه ، فأطلقه علقمة وهو عليه قادر وقد أخذ منه تكذيباً صريحاً لما نظم فيه آنفا (٢) .

والسبب في إيثار الحلم والعفو على الغضب والقتل ـ فيما يظن ـ الطمع بالمدح من الشاعر الأسير ، فقد كان بهم حرص عليه بمقدار ما بهم من خشية الهجاء ، فالمدح لهم قوة بما فيه من دعاية سياسية (٣) ، حتى ليشتري الزعيم

---

(١) وقد شن الأعشى هجومه على علقمة في أبيات (الديوان ص ١٤٢ ـ ق ١٨) هدر علقمة من أجلها دمه ، منها :

علقم لا لست الى عامر ... الناقض الأوتار والواتر
سدت بني الأحوص لم تعدهم ... وعامر ساد بني عامر
يا عجب الدهر متى سودا ... كم ضاحك من ذا وكم ساخر
يقسم بالله لئن جاءه ... عني أذى من سامع خابر
ليجعلني سبة بعدها ... جدعت يا علقم من ناذر

(٢) ولما مثل الأعشى بين يدي علقمة قال : (الديوان ص ٣٦٨ ، ق ٨١) :

اعلقم قد صيرتني الأمور ... اليك وما كان لي منكص
كساكم علاثة أثوابه ... وورثكم مجده الأحوص
فهل تنكر الشمس في ضوئها ... او القمر الباهر المبرص
فهب لي ذنوبي فدتك النفوس ... ولا زلت تنمى ولا تنقص

(٣) الحوادث الدالة على ذلك اكثر من ان تحصى وتكفي الاشارة الى واحدة منها : كان مروان بن الحكم والياً على المدينة لمعاوية ، فدخل عليه زياد الأعجم فقال له : يا أبا أمامة أنشدني ، فقال له : بألف دينار ، فأنشده :

رأيتك أمس خير بني لؤي ... وانت اليوم خير منك أمس =

أحياناً الأسير ممن وقع في أيديهم بماله ـ وليس بينه وبين الشاعر موجدة ـ ليظفر بمدحه (١) .

القطـامي

وهذا الموقف مألوف في الإسلام كما هو في الجاهليـة . ومن امثلته مـا كان بين الشاعر القطامي (٢) وزفر بن الحارث القيسي (٣) حين أسره هذا الأخير ولعل القطامي وهو في يدي زفر كان أقرب الى القتل منه الى المن والاطلاق لما كان بين القبيلتين من عداء ودماء ، إذ كانت تغلب ـ والقـطامي منها ـ أمـوية ، وقيس ـ وزفر سيدها ـ زبيرية (٤) ، وكان بينها في الجزيرة الشامية أيام مشهـودة ـ كأيام الجاهلية ـ كثر فيها القتل وضربت الداوة وتشابكت الأوتار . ومع ذلك آثر زفر بن الحارث أن يسرح أسيره على كثرة الراغبين (٥) في قتله ، وأن يزيد في

= وأنت غـداً تـزيـد الضعف خيـراً كـذاك تكـون سادة عبـد شمس

فأعطاه ألفي دينار (أنساب الأشراف : ٥ : ١٣١) .

(١) كان أبو الطمحان القيني مجاوراً ـ في جديلة من طيء ، فلمـا تحاربت طيء حـرب الفساد وتحزبت حزبين : جديلة والفوث ، اسر ابو الطمحان في هذه الحرب ، أسره رجلان من طيء واشتركا فيه ، فاشتراه بجير بن أوس بن حارثة زعيم جديلة من الطائيين بحكمهما ، فمدحه ابو الطمحان بشعر شهد له النقاد انه أشرف مدح وأعذبه ، انظر الشعر وحديث الأسر في (الأغاني : ١١/١٢٧) .

(٢) هـو عميـر بن شييم التغلبي من فحـول الشعـراء الإسـلاميين ، مـدح الـوليـد بن عبد الملك ، وأسره زفر بن الحارث ، فمنَّ عليه وأطلقه ، وقد ذكره ابن سـلام في الطبقـة الثانية من شعراء الإسلام (الطبقات / ٤٥٢) .

(٣) زفر بن الحارث الكلابي من بني عمر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعـة من قيس عيـلان ، زعيم قيس أيام بني أمية بعد مقتـل الضحاك بن قيس في مـرج راهط سنـة ٦٤ هـ . أنظر المرزباني في (الموشح : ٥٨) .

(٤) لهـذه الحـرب أخبـار طـويلة في (أنســاب الأشـراف : ٥/٣١٣ ـ ٣٣١) وفي (الأغاني : ٢٠/١٢٠ ـ ١٣١) .

(٥) وأشار القطامي الى ذلك في مدحه له :

إذ يعتـريـك رجـال يسألـون دمي ولـو تـطيعهـم ابكـيت عـوادي
وإذ يقـولـون : أرضيت العـداة بنـا لا ، بـل قدحت بـزنـد غيـر اصلاد =

الإحسان فيرد عليه ماله ، ويرفع اعتباره [1] . ولا شك أن زفر بهذا الصنيع نجح في استنباط المديح من أحد الشعراء الكبار في أعدائه ، ومن الواجب ان نشير الى موقف الأسير بين يدي خصمه ، فإنه لم يتهالك على الحياة تهالكاً ولم يستخذ ولم يبخس قومه كما صنع بشر بن أبي خازم في مثل موقفه . ولكنه أظهر وعياً سياسياً حسناً ، وتنبهاً لتفاهة جدوى المعارك التي تخوضها قبيلتان يجمعها أصل واحد ، وأبدى ـ في الحق ـ نبلاً قومياً من النادر العثور على مثله في وقت استشرت فيه العصبيات . فقد كان في شعره وهو أسير ، رنة حزن غير متكلفة لما أصاب القبيلتين من الشتات والفرقة ، ولما آل اليه حالهما من التدابر والقطيعة [2] ، ولمّح إلى ان حربهما إضعاف للعصبية النزارية لصالح العصبية اليمانية [3] ، وخرج من أسره وهو يحمل الامتنان ويتمنى لو قدر على رد

= (الديوان : ١٠) و (الأغاني : ٢٠/١٢٦) و (طبقات ابن سلام : ٤٥٣) .

(١) رد عليه زفر مئة ناقة فأثابه بمدح كثير ، أنظر (الديوان ص ٧ و ٣٧ و ٥٣ تحقيق بارت ، ليدن ١٩٠٢) . والى ذلك أشار القطامي :

أكفرا بعد رد الموت عني ... وبعد عطائك المئة الرتاعا

(الديوان ص ٣٧) .

(٢) ويوضح هذا الموقف مطلع القصيدة التي نظمها في الأسر :

قفي قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا
قفي فادي أسيرك ان قومي ... وقومك لا أرى لهم اجتماعا
وكيف تجامع مع ما استحلا ... من الحرم العظام وما أضاعا
ألم يحزنك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا

(الديوان ص ٣٧ الأبيات ١ ـ ٤ بتحقيق بارت) وبتحقيق السامرائي (ص ٣١ . ط .) دار الثقافة بيروت ١٩٦٠ . وضباعة : ابنة زفر .

(٣) والى ذلك أشار في القصيدة السابقة (الأبيات ١٠ و١٣ و١٤) :

ويوم تلاقت الفئتان ضربا ... وطعنا يبطح البطل الشجاعا
فلا تبعد دماء بني نزار ... ولا تقرر عيونك باقضاعا
أمور لو تدبرها حليم ... اذن لنهى وهيب ما استطاعا

الجميل [1] .

على اننا لا نتوقع ان ينتصر الحلم دائماً في الخصام السياسي والتنافس على الحكم ، فإن شهوة السلطان والتمسك به والخوف من ذهابه الى أيدي المعارضين تغري بالقتل . فأصاب السيف رقاب كثير من الأسرى في اشتداد العصبية ، وانقسام القبائل وتحزبها حول الطامحين الى الخلافة ، والاطلاع على ما كان يجري في الشام والعراق ـ بخاصة ـ يظهر ما أزهق العداء السياسي والقبلي من أرواح الأسراء [2] .

الحرب والغزو [3] :

ان التاريخ السياسي للقبائل العربية في جزيرتها وخارجها من بلاد الشام والعراق حافل بالحروب والغزوات قبل الإسلام وبعده .

وقد ساعد التركيب القبلي للمجتمع العربي في الجاهلية وطبيعة الأرض وفقدان الدولة الموحدة في الجزيرة ، وتوضّع الدول ذات النفوذ والمقاصد [4] على أطرافها ساعد ذلك على توفير دواعي العداء والشقاق وما يستتبع ذلك من حرب وغزو ، والحروب هي أكبر الموارد للأسر ، والشعراء الذين وضعتهم الحرب في المعتقلات أصابهم الكثير من أثرها ، كما تروي أشعارهم ـ فيما هي

---

(١) قال في القصيدة الدالية التي بعث بها اليه بعد إطلاقه :

فإن قدرت على يوم جزيت به　　　والله يجعل أقواماً بمرصاد

(الديوان : ١٠ البيت الأخير ، ط بارت) .

(٢) أشرنا الى بعض هذا في (ص ٥٠) من هذا الكتاب .

(٣) الحرب نتيجة العداء السياسي ، ولكن الشاعر في الحرب قد يؤسر من غير ملاحاة ومهاجاة سابقة ولذلك جعلنا لهذا النوع عنواناً مستقلاً .

(٤) كانت هذه الدول المناذرة في العراق ومن ورائهم الفرس ، والغساسنة ، في الشام ومن ورائهم الروم ، وامارات اليمن في الجنوب عند احتلال الأحباش لها . انظر (تاريخ العرب قبل الاسلام : ١/٢٢٣ للدكتور جواد علي) .

عليه من العنف والأخذ بالقسوة او إيثار اللين والإحسان .

وتشير حروب العرب في الجاهلية الى أن أسراً من أصل يمني كانت مرهوبة الشوكة في الجزيرة (١) ، ويخضع لسلطانها عدد غير قليل من القبائل الكبيرة المعدية الشمالية في رقعة واسعة من الأرض . وكان تمرد القبائل على هذه الأسر وانتصارها عليها او استخزاؤها لها أمراً مألوفاً . وكانت السلطة الحاكمة تأسر أحياناً أعداداً منهم، ومن وجهائهم حتى تأخذ عليهم الطاعة ، وتردهم الى الموالاة لها .

عبيد بن الأبرص

ومن هذه الأسر بيت كان له السيطرة على نجد ، وكانت تخضع له القبائل وتدفع إليه الأتاوة (٢) ، وهو بيت ينتمي الى أصول يمنية ومن أشهر رجالاته حجر بن الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار (٣) . ويبدو أنه كان في صراع دائم مع القبائل النجدية التي كانت تدين له طوراً وتتنمر له وتثور عليه طوراً آخر (٤) . وقد شقت عليه قبيلة أسد مرة عصا الطاعة ، فأنزل بها عقاباً قاسياً إذ طردها من نجد وألجأها الى تهامة ، وأسر جمعاً من فرسانها وكبارها ، وألحق بهم الهوان (٥) ، وكان فيهم شاعرها عبيد بن الأبرص ، فألجأه الأسر

---

(١) انظر المصدر السابق ١ / ٣٢٩ .

(٢) انظر الأغاني : ٨/٦٣ بولاق .

(٣) انظر طبقات ابن سلام : ٤٣ .

(٤) وقد وضعت إحدى الثورات نهاية لحياته اذ تمكن بنو أسد من قتله والثأر لأنفسهم بما اضطهدهم ، انظر (ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٦) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، مصر ١٩٥٧ .

(٥) أنشد عبيدُ الملك وهو أسير عنده ما نزل بقومه :

في كل واد بين يثـ ـرب فالقصور الى اليمامة
تطريب عان او صيا ح محرق او صوت هامة
ومنعتهم نجدا فقد حلوا على وجل تهامة

(ديوانه / ٩٨ الأبيات ٥ ـ ٧) .

والذل والتهجير من الأرض الى التضرع الى الملك واستماحته العفو عن قومه ليعودوا الى وطنهم تائبين خاضعين ، وان للكلمات التي خاطب بها الملك معنى خاصاً في شعر الأسر إذ هي دليل ماثل على ما كانت تتمتع به هذه الأسر الحاكمة من القوة والقدرة على البطش وما كان ينزل اليه الأسير من الضراعة والتعفر في سبيل الحفاظ على البقاء [1] . ومن الجميل أن نذكر ان هذا الشاعر الأسير لم يسأل الملك شيئاً لنفسه إذ لم يكن يعاني مأساة ذاتية تهمه وحده ، بل كان يعاني مأساة قومية لأن الخطر كان يتهدد قبيلته كلها والذل قد نال منهم جميعاً ، وكانت نجاته التامة في نجاة قومه ، فانطلق في شعره عن إحساس جماعي وألم شائع فيما بينهم جميعاً ، وقد أرضى الملك هذا الخضوع الذي أعلنه لسان شاعرهم فردهم الى مسارحهم .

عبد يغوث بن صلاءة

وقد تحررت القبائل في نجد من التبعية لليمنيين ولكن عداوات تقليدية بقيت بينهم تتمثل في الغزوات التي كانوا يتبادلونها ، وكان الأسرى بين الفريقين يتأثرون بطبيعة هذا العداء من جهة وبمقدار ما بين الفريقين من دماء وثأر [2] ،

(١) وفي ذلك الموقف قال عبيد للملك :

إما تركت ، تركت عفـ ـوا او قتلت فلا ملامة
انت المليك عليهم وهم العبيد الى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة

(المصدر السابق ، الأبيات ١٠ - ١٢) .

والأشيقر : تصغير أشقر ، وهو الأحمر من الدواب ، والخزامة : حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام .

(٢) يمكننا ان نستظهر من بعض الشعر ان النظرة العصبية الى الأسرى يمكن ان تؤخذ بإعتبار ما ، وان الأسير من أحد الفريقين عند الآخر كان يتمتع منهم بالازدراء والشماتة ولقد أحس عبد يغوث بن صلاءة الحارثي بهذا حين قال :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا

(البيت : ١١) من قصيدته التي نظمها في الأسر ، انظر المصادر في الحاشية التالية .

وان يوم الكلاب الثاني مشهور في أيام الجاهليين [1] ، وفيه أسر الزعيم اليمني الشاعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي ، وكان في قومه مسوداً ، وعرض على أعدائه الفدية فأبوا إلا دمه لما كان قد وترهم به من رجال . وكان أبيّ النفس قوي العارضة ناظر التميميين في دمه ، وادعى ان ليس لهم ان يقتلوه فإن من قتل منهم ليسوا مثله مكانة [2] ولما لم يلق منهم إلا الإصرار على إزهاق نفسه ودّع أصحابه وقومه وبلاده وداع الأبطال ، ولم يتخاذل لساعة الموت [3] وزعم انه آثر الأسر والموت على الفرار حفاظاً على أمجاد قومه [4] .

---

(١) انظر خبر هذا اليوم عند النويري في نهاية الأرب : ١٥/ ٤١٠ و (شعراء النصرانية ١/٧٥) و (الأغاني : ١٥/٧٢) و (النقائض : ١/ ١٣٩ ـ ١٥٤) .

(٢) قال لهم :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة — أمعشر تيم اطلقوا لي لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فاسجحوا — فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا — وان تطلقوني تحربوني بماليا

(الأبيات ٧ ـ ٩) من قصيدته في أسره (المصادر نفسها) .

(٣) قال :

فيا راكبا إما عرضت فبلغن — نداماي من نجران ان لا تلاقيا
أحقاً عباد الله ان لست سامعا — نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

(المصادر نفسها ، البيتان : ٢ و ١١) .

ومعنى عرضت : أتيت العروض ، أي مكة والمدينة ، والرعاء جمع راع . والمعزب : المتنحي بابله ، والمتالي : النوق التي نتج بعضها وبقي بعض لم ينتج .

(٤) وفي ذلك قال :

ولو شئت نجتني من الخيل نهدة — ترى خلفها الحو الجياد تواليا
ولكنني أحمي زمار أبيكم — وكان الرماح يختطفن المحاميا

(البيتان : ٥/٦) والنهدة : المرتفعة من الخيل .

ولم يكن الطابع العصبي اليمني والعدناني هو المميز الوحيد لغزوات العرب وأيامها ، فإن الغزو ـ كما هو معروف ـ كان وسيلة من وسائل العيش في البادية ، وكان ثمة غير سبب للخلاف والصراع ما بين القبائل وان كانت تنتمي لعصيبة واحدة (١) . ولا شك ان التنازع في الحصول على الغذاء في سبيل البقاء كان يسوّل غزو بعضهم بعضاً على ما قد يكون بين القبائل من قرابة ظاهرة (٢) ، فإذا أسر بعضهم بعضاً لم تنفع الصلة القريبة في التخفيف عن

---

(١) التدخل الأجنبي في الجزيرة من هذه الأسباب ، على عادة الدول الكبرى في تفتيت القوى التي يخشى خطرها بجعل بأسها بينها شديداً ، ويبدو ان للفرس ـ عن طريق المناذرة ـ يدا طولىٰ في تأليب القبائل بعضها على بعض . فنجد في أخبار العرب في الجاهلية انهم كادوا مرة يتحدون في مملكة قوية اذ جمع كليب وائل قبائل العرب في نجد تحت سلطته وبسط سلطانه القوي على معظم الجزيرة ، وحرر أواساطها من حكم اليمنيين ونفوذهم ، وكاد يؤسس الملك ويجعل من العرب دولة ذات خطر ظاهر تفل أثر الدول المجاورة وما كانت تحدثه من الفتن في أرض العرب ، ولكن جساس البكري ـ وربما كان من ورائه زعماء القبائل المنفذون للسياسة الفارسية ـ اغتال زعيم الاتحاد وأثار حرب البسوس المشهورة ، لعل هذا التعليل ـ على ضوء الواقع السياسي للمنطقة آنذاك ، وعلى ما نعرف من كثرة المنازعات بين القبائل العربية وملوك الحيرة والفرس وقتل هؤلاء لبعض الفرسان والشعراء ـ أجدر من الذهاب الى أن الحرب نشبت سنين طويلة من أجل ناقة البسوس . انظر أخبار هذه الحرب في الأغاني (٤/١٤٠ ساسي) و (شعراء النصرانية : ١٥١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠) وللاطلاع على حالات التدخل انظر (ابن الأثير : ١/٣٧٨) وأخبار مقتل طرفة بن العبد (ديوان طرفة : ٩٦/١٠٠ شرح الشنتمري) وغزوات المناذرة أحياناً لأعمال نجد (نهاية الأرب : ١٥/٣٥٤) والبحرين (الطبري : ٢/١٩٨) و (الأغاني ٢/١١٨) وفي قتل الشاعر عمرو بن كلثوم لملك الحيرة عمرو بن هند (النقائض : ٢/٨٨٤ ـ٨٨٦) ما يلقي أضواء على التعليل الذي ذهبنا اليه .

(٢) وللقطامي ـ أيام بني أمية ـ تعبير صريح عن هذا الرأي :

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة انه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد الا أخانا =

الأسيـــر[1] .

مهلهل بن ربيعة

والخلاف ما بين تغلب وبكـر مشهور في الغـزوات الطويلة التي عـرفت بحرب البسوس في حقبة غير قصيرة ، وقد أحاطت بها أساطير كثيرة حتى أمسى من العسير أن نميز الحقيقة فيها من الخيال ، وقد بدأت ـ كما تذكر الأقاصيص ـ عندما قتل الفتى الشيباني البكـري جساس بن مـرة [2] زعيم تغلب كليب وائل الذي دانت له بالطاعة قبائل نجد بعـد انتصاراتـه على ملوك اليمن . وقد وقـع عبء الدم على أخيه مهلهل بن ربيعة [3] ـ وكان في حياة أخيه رجل خمر وعبث ونساء ـ واضطر الواجب القبلي المقدس مهلهلاً أن يهجر اللهو والعيش الرخيص وان يهب حياته كلها للانتقام لأخيه المقتول . وكان كليب عند مهلهل ملكـاً لا تفي حقه دماء سروات البكريين [4] ، واضطرت بكر الى ان تخوض معارك حياة

= والضباب : مجموعة قبائل ـ والحلول : الذين هم في مكان واحد ، وقـوله : من حـان حانا : من هلك بغزوتنا فقد هلك (الحماسة : ١/١٨١ شرح التبريزي . بولاق) .

(١) ذكرنا في (ص ٨٨) أبياتاً للأعشى حول أسر الأقارب واستذلال بعضهم بعضاً .

(٢) هـو جساس بن مرة بن ذهل بن شيبـان من بكـر وائـل ، وكـانت اختـه جليلة تحت كليب بن ربيعة ، وقد أبى ان يسلمه ذووه لقتله كليباً ، فنشبت حرب البسوس وواراه أبوه في القبائل ، ونسجت حوله أساطير كثيرة ، ولم تعرف لـه نهايـة على وجه الـدقة . (الأغـاني ٤/١٤٠ ساسي) .

(٣) واسمه عدي وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب (طبقـات ابن سلام : ٣٣) . و(شرح شواهد المغني : ٦٥٦ ط . لجنة التراث العربي بدمشق) .

(٤) وذلك من وجهة نظر مهلهل اذ قتـل هو بجيـر بن الحارث بن عبـاد حين أرسله أبوه الحارث ـ زعيم بكر في زمانه ـ في عرض الصلح والكف عن القتال . وكان الحارث معتزلاً للقتال بين تغلب وشيبان ، ولما جاء الحـارث نبأ قتـل المهلهل لـولده بجيـر ظن انه كفـء لكليب ، وقال : « نعم القتيل أصلح بين ابني وائل » فقيل له : ان المهلهل قـال حين قتل ابنك : « بـؤ بشسع نعل كليب » (أي اذهب بما يساوي سير نعل كليب) ، فحمي الحارث وأعلنها حرباً بكرية حتى هزم تغلب وأسر المهلهل ، ثم أطلقه . (الأغاني ٤/١٤٠) .

أو موت شنها مهلهل عليها في سنين عديدة وحروب متطاولة ، وكانت آثارها في القبيلتين الأختيين : تغلب وبكر عميقة الجراح إذ نزفت فيهما دماء غزيرة وقضت على شخصيات مرجوة [1] حتى ضاق بها الناس وصار دم كليب أنشودة ملعونة تتشاءم القبائل بصاحبها مهلهل . ولم يكن الرجل ميمون الطالع موفقاً ، فقصر به حظه عن بلوغ مدى أمله ، ورفض دعوات السلام والمساعي المبذولة للإصلاح ، فازداد على الأيام والعناد ضعفاً ، غير أنه ظل يتحرق الى الثأر من غير وهن ، وأسره أعداؤه ، فلم تفزعه القيود إذ كان في شغل وعناء نفسي بقضيته وواجبه [2] ، ولما غنى بين يدي أعدائه همومه وتعاسته والتزامه بالثأر أحفظهم ، فمنعوه الماء حتى مات . وإذا كان لنا ان نركن أكثر ما نركن اليه ـ في تحرينا عن هذا الأسير البعيد العهد ـ الى الشعر الذي روى لنا عنه وهو في القيد ، فإنه ـ والحق يقال ـ كان مثقلاً بالآلام ، وينطوي على شعور بالخيبة والاخفاق غمر أحزان الأسر [3] فكان الموت منقذاً له من العذاب النفسي .

---

(١) ذكر مهلهل أسماء بعضهم في شعره عندما أسر (المصدر السابق الأبيات ٤ ـ ٦) .

ما أرجي في العيش بعد نداما ي أراهم سُقوا بكأس حلاق
بعد عمرو وعامر وحيي وربيع الصدوف وابني عناق
وامرىء القيس ميت يوم أودى ثم خلى عليّ ذات العراقي

حلاق : المنية ، معدولة عن الحالقة ، اي التي تقشر . والصدوف : اسم فرس الربيع المذكور ، وذات العراقي : الداهية .

(٢) قال (المصدر السابق الأبيات ١ ـ ٢) :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ء لعوب لذيذة في العناق
فاذهبي ما اليك غير بعيد لا يوءاتى العناق من في الوثاق

(٣) انظر شعوره بالعبء في قوله :

وامرىء القيس ميت يوم أودى ثم خلى عليّ ذات العراقي

الأسـرى المغمـورون :

ولكن يجب ألا تنسينا هذه الصور المظلمة من حياة الأسرى أحوالاً أخرى استطاع الحلم والكرم فيها أن ينقذ كثيراً منهم ويرد إليهم اعتبارهم .

والحق ان هذه الحوادث كثيراً ما تطلعنا على أحوال الرجال العاديين من الأسرى غير عِلية القوم وكبارهم ، أولئك الذين لا يتهدد حيـاتهم خطر كبيـر ، ويفدون ـ عادة ـ باليسير ولكن لا يجـدون ما يفتكـون به رقابهـم ، انهـم يسقطون أسارى يحملون معهم قلة ذات أيديهم وهمومهم وقلقهم للوالد والولد والأهل ، فينيـطون جانبـاً كبيراً من آمـالهم بكرم الآسـر وسماحتـه، ويتـوسلون بخـالص العواطف الإنسانية الى قلبه ويخرجون بها شيئاً غير ممجوج من الثناء المشجع ، ينبهـون به أريحيتـه ويجتذبـونه الى سنن الخيـر والمعروف ، ولعـل الانـطلاق العفوي الحر في الإفصاح عما في نفوسهم أكسب كلماتهم نبلاً وصدقاً فكان لها وقع في النفوس واستجابة .

ـ وممن أطلقته كلماته النبيلة من الأسر فتى من بني يـربوع ـ أسـره فيمن أسر من قومه ـ بسطام بن قيس [1] ، فقام الفتى ينشده مـا باتت أمـه تعاني من جراء غيابه ، وما ألم بها من المرض في صور عاطفية مؤثرة وصلها وصلاً موفقاً بخلال بسطام الكـريمة [2] ، فمـا كان الا ان اقتحم عليـه قلبه بشعـره ، وقال

---

(١) انظر ترجمة بسطام في (ص ٣٩) .

(٢) والأبيات هي :

فـدى بـوالـدة عـليّ شـفـيـقـة ... فكـأنهـا حـرض عـلى الأسقـام
لـو أنهـا علمت فيسكن جـأشهـا ... أني سقـطت على الفتى المنعـام
إن الـذي تـرجـين ثـم إيـابـه ... سـقط العشـاء بـه على بسـطام
سـقط العشـاء بـه على متـنعـم ... سـمـح اليـديـن معـاود الإقـدام

(النقائض : ٦٨٠) و (ابن الأثير : ١ / ٣٦٦) و (شعراء النصرانية : ٢٩٨) .

بسطام له : « وأبيك لا يخبر أمك عنك غيرك ، وأطلقه »(١) .

شبيه به صنيع حنظلة بن عمار الدارمي عندما أسره بنو عجل ، فلم يزل في الوثاق حتى رآهم ذات يوم قد قعدوا شرباً ، فأنشأ يتغنى رافعاً عقيرته فلما سمعوها أطلقوه (٢) .

المعتمد بن عباد :

ويندرج في أسر الغزوات غزو الملوك وأسر بعضهم بعضاً ، كما أسر أمير المرابطين يوسف بن تاشقين المعتمد بن عباد ، بعد استيلائه على مملكته اشبيلية (٣) ، وحمله الى العدوة الأفريقية وسجنه في أغمات (٤) فلبث في

---

(١) المصادر السابقة .

(٢) انظر الشعر في (النقائض : ٣٠٨ ـ ٣٠٩) .

(٣) كانت ولادة المعتمد بن عباد (سنة ٤٣١ ووفاته سنة ٤٨٨ هـ) من أسرة عربية بنسبها الى ملوك الحيرة اللخميين ، واستوطن بعض أجداده الأندلس حتى نبغ منهم القاضي الظافر محمد بن إسماعيل في أشبيلية ثم آل اليه أمرها ، وخلفه ابنه ابو عمرو عباد الملقب بالمعتضد ، ودخل في ملكه بلاد كثيرة وضبطها بالأيد ، والبطش والدهاء ، وأسلم الى ابنه المعتمد مملكته موطدة الأركان ، غنية . انظر (ابن خلكان : ١١٣/٤ ـ ١٣١ تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٤٨) .

(٤) حكم المعتمد اشبيلية وقرطبة ومدناً أخرى في تلك الحقبة المعروفة بعهد ملوك الطوائف ، وكانت ثمار الحضارة الأندلسية آخذة بالإيناع ، واستهتر الناس وعلى رأسهم حكامهم ، بالترف والمجون ، وابتنى ملوكهم قصوراً تأنقوا في تزيينها بالذهب وأنفس الحجارة الكريمة ، واستكثروا من الغلمان والجواري واستمالهم الشعر فنظموا وجمعوا حولهم الشعراء ، وكان بلاط المعتمد في أشبيلية أزهى ما في الأندلس ، وغمره اللهو والنعيم فلم يستفق إلا وفيالق الفرنجة تزحف الى حصونه ، ولم يكن فيه وفي ملوك الطوائف الآخرين مسكة فأرغمه القضاة على الاستنجاد بيوسف بن تاشقين أمير العدوة الأفريقية في مراكش ، وحملوه على السعي اليه ، حفاظاً على سلامة البلاد واستنقاذها .

ولما جاءت الجيوش من مراكش والتقى العرب بالفرنجة في موقعة الزلاقة أبلى المعتمد بلاء حسناً وشهد له الناس بالإقدام والقيادة ، وكانت الأندلس قد راقت للمرابطين فعاد إليها يوسف بن تاشقين يستولي على مدنها وممالكها ، وفوجىء المعتمد بتنكر صديقه ابن تاشقين =

السجن بقية عمره ، وقصة المعتمد مأساة كثيرة الفواجع ، وهي في خطوطها العريضة مأساة عاشها ويعيشها كثير من الذين ينخفضون بعد رفعة ، وتصطلح عليهم منغصات الشقاء بعد حياة ملأى بالنعيم الرغد . وكان لمواقفه عند أسره وقبله ما أثار فيه الآلام الثرة وفي الذين عرفوه من قصاده وشعبه . فقد انتزع منه ابن تاشقين ملكه في عملية استيلاء بحتة ، لم يكن فيها لرعيته ومعاصريه من الشعراء مقنع باستحقاقه للعزل والقيد [1] ، وخرج المعتمد من قصوره [2] وغناه يحمل الفقر والعجز والهوان ، وفاجأه السقوط من العرش بمفارقات ودواءٍ ارتاع لها أيما ارتياع [3] ، وكان يزيد في فداحتها وتعميق إحساسه بالتعاسة مواقف الإحراج التي تعرض لها أثناء أسره [4] .

= له وطمعه فيه ، فلم يلق إليه بملكه بل دافع هو وأولاده حتى النبلة الأخيرة والرمق الأخير ، وقتل ولداه في الدفاع عن قرطبة ورندة ، وأسر المعتمد وسيفه في يده لم يلقه حتى دخلت عليه اشبيلية من أقطارها في موقف بطولي مشهود . وكان له في نفوس الرعية محبة وإكبار لما عاينوا من شجاعته ولما عرفوا له ولأسرته من إحسانٍ ، فأسرع اعداؤه في تغريبه الى مراكش ، وخرج الناس الى شاطىء الوادي الكبير في وداعه لا يملكون أنفسهم من البكاء أسىً لبطل مقهور ـ لم يلق السلاح حتى استنفد قواه كلها ، وكان أسره وتغريبه سنة ٤٨٤ هـ . (المصدر السابق) .

(١) أغمات : بليدة قرب مراكش (المصدر السابق : ١٣٠) .

(٢) انظر في (المصدر السابق) أخبار الشعراء الذين بكوا عهده او زاروه في سجنه وما قالوا في ذلك .

(٣) ذكر بعضها فيما نظمه في الأسر مثل الزاهر والزاهي والمبارك والثريا . انظر (الديوان : ٩٥ و٩٩ جمع وتحقيق أحمد أحمد بدوي ، طبعة وزارة المعارف العمومية القاهرة ١٩٥١ م) .

(٤) طلب المعتمد من أخت ليوسف بن تاشقين عند رحيله عن الأندلس خباء عارية ، فلم تعره ، فاستعر حزناً وقال من أبيات (الديوان : ٩٧) .

هم أوقدوا بين جنبيك نارا ... أطالوا بها في حشاك استعارا
أما يخجل المجد أن يرحلوك ... ولم يصحبوك خباء معارا
فقد قنعوا المجد إن كان ذاك ... ـ وحاشاهم ـ منك خزيا وعارا

(٥) عندما وصل الى طنجة من العدوة الافريقية هرع اليه الشعراء المتكسبون وأعطى =

وليس عجيباً ان يقيم في سجنه على الأسى الممض يتذكر سالف أمجاده وما حوى ماضيه من فخار وروعة وزهو (١) ، وكان هذا البون الشاسع بين ما كان فيه وما صار اليه مبعث شقائه ، وانتهى الى حال من السوء والعوز تفتت لها كبده (٢) ، ومع ذلك فلو فتشنا قلب هذا الأسير لوجدنا كبرياء الملك لم تبرحه أبداً ، إذ ظل في حبسه ملكاً متصل الحنين الى استعادة ما فقده من السلطان ،

= أحدهم كل ما كان يملك ، ولكنه فوجىء بإلحاحهم في الطلب فقال :(خريدة القصر : ١٥١/١١) .

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الأغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحيا ، وعزة لخمية طيّ الحشا لحكاهم في المطلب
قد كان إن سئل الندى يجزل وإن نادى الصريخ ببابه اركب يركب

(١) كتب المعتمد من سجنه الى ابن حمديس الصقلي الشاعر (قلائد العقيان : ٢٤) من أبيات :

غريب بأرض المغربين أسير سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمع بينهن غزير
سيبكيه في زاهية والزاهر الندى وطلابه والعرف ثم نكير

الزاهي والزاهر : قصران . واسترجاع صور الماضي فيما نظمه من شعر الأسر كثير . انظر (الديوان : ٩٣ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٧) .

(٢) قال المراكشي في (المعجب ص ١١٩) : وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات ان ابنة آثر محظياته وأكرم بناته ألجئت ان تستدعي غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح ما ظهر من اختلالها ، فادخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه ، ولم يكن يراه الا ذلك اليوم ، نقلاً عن (الديوان : ٩٠) وفي ذلك قال المعتمد (من أبيات) :

أأرغب أن اعيش أرى بناتي عواري قد أضرّ بها الحفاء
حوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه - اذا أبدو - النداء
وطرد الناس بين يدي ممري وكفهم اذا غص الفناء

وفي طواياه تتمرد نوازع البطولة [1] . وقد حاول بعض أولاده في الأندلس الانقضاض على المرابطين فثار عليهم وقضي على ثورته وقتل . ولعل أباه فقد بمقتله آخر آماله ، وقد ساءت ظنون آسريه به فاعادوا عليه القيود بعد ان كانوا رفعوها عنه تخفيفاً [2] ، فأظلمت الحياة لعينيه إظلاماً شديداً ، وبات يستروح بذكر الموت ، ولاحت له بين جدران السجن الخاتمة الحزينة في نهاية رجل يموت بائساً وحيداً غريباً فبكى نفسه ورثاها [3] وهو ينتظر أجله الذي وافاه وقد سلخ في السجن خمس سنين .

أسرى العرب عند الروم :

أما الشعراء الذين أسرهم غير العرب فإن قلة أخبارهم تضارع قلة عددهم وأشعارهم ، ولولا روميات أبي فراس الحمداني لكانت حصيلتنا من هذا المصدر على غاية من النضوب [4] .

ولم ينج بعض السياسيين العرب في الجاهلية من سجون الفرس والبيزنطيين نظراً للعلائق المعقدة بينهم وبين العرب ، او من سجون المناذرة التابعين بالولاء والنفوذ للفرس او من سجون الغساسنة التابعين للروم [1] ، ولكن

---

(١) ثار ابنه عبد الجبار في الأندلس وقتل ، فقال المعتمد إثر ذلك (الديوان : ١١٦) من أبيات :

كذا يهلك السيف في جفنه ... الى هز كفي طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقله ... ولم تروه من نجيع يميني
ألا كرم ينعش السمهري ... ويشفيه من كل داء دفين

(٢) وله في قيوده شعر كثير (انظر الديوان : ٩٤ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ .

(٣) انظر قصيدته المشهورة في (الديوان : ٩٦) ومطلعها :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

(٤) سنعرض للبحث في أسباب ذلك في الفصل الثالث (مصادر شعر الأسر والسجن) .

(١) ومن الذين نظموا شعراً في سجون كسرى حجر بن خالد من قيس بن ثعلبة . (انظر=

من وصلنا شعرهم من رجالات العرب كانوا يؤخذون في حالة تشبه حالة السجناء السياسيين ، ولم يعرف عنهم انهم أخذوا بعد قتال .

ويبدأ الأسر العسكري للذين عرفنا شيئاً من شعرهم بعد تمركز الإسلام في المدينة وامتداده الى الأطراف (٢) .

فروة بن عمرو :

وكان اللقاء بين المسلمين والروم عنيفاً إذ كانت بلاد الشام خاضعة لسلطتهم ، وقد جعلوا في انحائها الجنوبية على تخوم الجزيرة حكاماً عرباً تابعين لسيطرتهم وإدارتهم ، ولما أسلم بعض العمال العرب الخاضعين لهم لم يتسامح الروم بالأمر ، ورأوا في اعتناق احد عمالهم للإسلام عملاً عدائياً للدولة ، وخروجاً على سلطانهم ، فسارعوا الى اعتقاله وإنزال عقوبة الموت به ، وهو فروة بن عمرو الجذامي ، بعث الى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله

= ترجمته في بلوغ الأرب : ١/٥٨ . وشعره في حماسة أبي تمام : ١/١٨٣ - ١٨٤ . شرح التبريزي بولاق) . وقيس بن مسعود (انظر خبره في نهاية الأرب للنويري ١٥/٤٣٢ - وكذلك في تاريخ الطبري : ١/٦٠٩ والأغاني : ٢٠/١٣٢ ، خبره وشعره) والبراء بن قيس (معجم البلدان : ٧/٣٨٧ « مجدل ») ومن غير الشعراء النعمان بن المنذر (الطبري : ١/٦٠٩) وممن كانوا في سجون المناذرة طرفة بن العبد (ديوانه : ٩٩ ، ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٥٧ ، الطبعة الأوربية) . والمنخل اليشكري (الشعر والشعراء : ٧٦ ، ٧٧ و٢٣٨ - ٢٣٩) وعدي بن زيد (الأغاني : ٢/٢٠) . وممن كان في سجون الغساسنة من عرب الجزيرة عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي (الطبري : ١/٤٩٩) وبعض الوجوه من القرشيين منهم أبو أحيحة سعيد بن العاص وهشام بن سعيد العامري وغيرهما (الاصابة ترجمة ٣٧٦٤) و (أنساب الأشراف : ٤/١٢٧) وبعض العرب ممن ذكر خبره وشعره ولم يذكر اسمه (الأغاني : ١٠/١٤٠) .

(٢) كانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة أول الاحتكاك (سيرة ابن هشام : م ٢/٣٧٢) .

معان وما حولها من أرض الشام ، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه ، فحبسوه عندهم ، وصلبوه على ماء يقال له : عفراء بفلسطين (١) ، وكانت محنة الأسر لدى فروة تجربة رجولة ومذهب ، رغب في الحفاظ على كلمة الشرف والعهد حفاظ الأبطال المؤمنين . ولقد عاين الموت واضطرب له اضطراباً نفسياً دفعه الى البكاء ، لكنه غالبه بتظاهرة نفسية من التماسك والفخار الذاتي لا يصعب تبينها في أثناء كلماته (٢) .

ولما ضربت المعارك بين الفريقين جرى بينهم أسر كثير ، ولكن ما جاءنا من مقطوعات من شعر الأسر في العصر الجاهلي لا نجد له ضريباً في حروب العرب والأعاجم ، وما نسب لضرار بن الأزور من شعر أثناء فتوح الشام ، وما نسج حوله من أقاصيص أشبه بالأساطير منه بالوقائع (٣) .

أبو فراس الحمداني

ولعل روميات أبي فراس الحمداني وحدها هي الشعر الثبت ، وقصة أسره من الشهرة والذيوع والعناية بمكان ، ولا حاجة ماسة لسردها ، وعلى كل كان أبو فراس في أسره مثال الشاب الفخور بأسرته ، المزدهي بقدرته وشجاعته

---

(١) المصدر السابق (مجلد ٢/٥٩١ ، تحقيق السقا ، مصر ١٩٥٥) .

(٢) قال فروة : (المصدر السابق : البيتان : ١ ـ ٢) :

طرقت سليمى موهناً أصحابي ... والروم بين الباب والقروان
صد الخيال وساءه ما قد رأى ... وهممت أن أغفي وقد أبكاني

ثم قال (البيتان : ٥ ـ ٦) :

فلئن هلكت لتفقدن أخاكم ... ولئن بقيت لتعرفن مكاني
ولقد جمعت أجلّ ما جمع الفتى ... من جودة وشجاعة وبيان

وهذا الشعر صورة رجل نخشى العار وسوء الأحدوثة من بعده ، فهو يرتبط بالمبادىء التي كان يحافظ عليها الرجال في الجاهلية ، وان هذا الشعر أشبه بما قاله حجر بن خالد وقيس بن مسعود (انظر ص ١٥٥) وكانا في أسر كسرى . ولا نجد فيه ما نجده في الشعر المنسوب لخبيب بن عدي الصحابي من رغبة في الموت في سبيل قيم جديدة هي ارضاء الله لا ارضاء الذات التي تخشى سبة الناس (سيرة ابن هشام : م ٢ /١٧٦) .

(٣) لنا في هذا حديث مفصل في الفصل الثالث (مصادر شعر الأسر والسجن وقيمته) .

وممارسته لأعمال البطولة المتطلع الى المستقبل [1] ، دافع عن نفسه لاستئساره [2] ، وألح على ابن عمه سيف الدولة في فدائه ، فحالت بعض الصعوبات السياسية[3] والمالية[4] والشخصية[5] دون الإسراع في إجابة مطلبه فأمضه الألم ، وكان منه عتاب كثير[6] ، واعتداد وإدلال بنفسه وفخر كبير[7] .

---

(١) انظر في (ديوان ابي فراس الحمداني : ٢/٧٨ تحقيق سامي الدهان . بيروت ١٩٤٤ م) قصيدته (٨٧) التي مطلعها :

دعوتك للجفن القريح المسهد　　لدي ، وللنوم القليل المشرد

(٢) انظر في (الديوان: ٢/٢٠٩ القصيدة ١٦٠ الأبيات ٣٨ ـ ٤٤) : احتجاجه للأسر وأنه خير من الموت والفرار .

(٣) كانت ولاية حلب تلقى من الروم ضغطاً عسكرياً في أواخر أيام سيف الدولة وكان لدى سيف الدولة بعض رجالات الروم من الأسرى يحتفظ بهم لساعات العسرة . انظر ابن العديم في (تاريخ حلب ورقة ٣٣ ظ . مخطوط بباريس ـ نقلاً عن الديوان : ٣/٤٦٨ ـ ٤٦٩) ، وما ذكره ابن خالوية (الديوان : ٢/٧٥ ـ ٧٦ و ٢/٢٧٨ و ٣/٤٠٦) وما كتبه الدكتور سامي الدهان في التوطئة للديوان. (الديوان : ٢/ت ٩ و ٢/ت ١٤) .

(٤) كان انفاق سيف الدولة على التسلح والجهاد يكلف ولاية حلب الصغيرة أعباءً مالية كبرى فلم يكن في سعة حتى يبادر الى الفداء ، وقد افتداه بعد ان ورثته اخته أموالاً كثيرة . انظر الصفدي صلاح الدين في (تحفة ذوي الألباب في من حكم دمشق ورقة ١٢٧ ظ . مخطوط بباريس نقلاً عن الديوان : ٣/٤٧٩) .

(٥) يبدو ان كان ثمة من يعارضون استرجاعه من الأسر في بلاط سيف الدولة . انظر (الديوان : ٢/٨٥ . ق ٨٩ . البيت الأول) وهو :

تمنيتم ان تفقدوني وانما　　تمنيتم أن تفقدوا العز أصيدا

(٦) عتابه في اكثر رومياته انظر على سبيل المثال (الديوان ٢/٢٤٥ . ق ١٩٧) الأبيات ١٧ ـ ٣٥) ومطلعها :

أبى غرب هذا الدمع الا تسرعا　　ومكنون هذا الحب الا تضوعا

وقصيدته التي مطلعها (الديوان : ٣/٣٣٠ ق/٢٦٥) :

يا حسرة ما أكاد أحملها　　آخرها مزعج وأولها

(٧) انظر القصيدة التي اشرنا اليها في (حاشية : ١) ص : نفسها .

كذلك أسر الديلم - كما أسر الروم - بعض شعراء العرب ، وقد ألمحنا من قبل الى أسر أعشى همدان وقصة هربه [1] .

السبي والاختطاف :

ومن متممات البحث أن نذكر أحوال المأسورات اذ كان شقاؤ هن أشد من شقاء الرجال لما هن عليه من الضعف ولما قد يلحق بهن من الشين والمعرة ، يؤخذن رقيقات وان كن في أهلهن مكرمات أو بنات رؤساء فيسلبن حليهن وزينتهن ويمتهن أي امتهان [2] ويقذف بهن مع الرقيق يقمن بالخدمة ولو كانت المسبيات أولات قربى من عشيرة أخت لهن [3] ، وكانت السبايا زبدة الغنيمة

---

(١) أعشى همدان هو عبد الرحمن بن الحارث بن نظام الهمذاني ، شاعر أموي ، دارت به عواصف الأحداث السياسية في العراق ، وأسهم فيها بشعره ونشاطه ، وقد ناصر عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج ، فأسره وقتله (الأغاني : ٥/١٤٤ - ١٥٢) . وكان الحجاج أغزاه مكرهاً ارض الديلم ،وحمله على مفارقة العراق يدل على ذلك قوله : (ديوان أعشى همدان : ق / ٢٠ ص ٣٢٦ . طبعة اوربا وهو يلي ديوان أعشى قيس) :

ولم تك كرمان من حاجتي ولا الغزو فيها ولا المتجر
ولكن بعثت لها كارهاً وقيل انطلق للذي تؤمر

فأسر هنالك ونظم قصيدة طويلة التزم فيها عمود الشعر (الديوان : ٣٣٤ - ٣٣٦) ثم هرب من الأسر . ويروي التنوخي في (الفرج بعد الشدة : ١٢٢) عن أبي الفرج الأصبهاني قصة أسره وهي لا تخلو من نادرة فكهة إذ اعجبت به ابنة الديلمي الذي أسر أعشى همدان فصارت تختلف إليه سراً ، وقد رأت من شبقه ما راق لها إذ واقعها في ليلة ثماني مرات فخلصته من الأسر على ان يصطفيها لنفسه وفرّا معاً . وكان لبعض الشعراء على هذه الحادثة تعليق طريف . وعلى كل فنحن ننظر الى هذه الحادثة على انها نادرة ، عهدتها على أبي الفرج الذي انفرد بروايتها .

(٢)تباً لتغلب أن تساق نساؤهم سوق الأماء الى المواسم عطلا
البيت لزهير بن جناب الكلبي . (الأغاني ٢١/٦٤) .

(٣)وتلفى حصان تخدم ابنة عمها كما كان يلفى الناصفات الخوادم
اذا اتصلت قالت: أبكر بن وائل وبكر سبتها والأنوف رواغم =

يستهم عليهن بين الغزاة كما يستهم على الجزور [1] ، وهذا أقسى ما تحتمله نفس ، يرى الرجل حليلته في يد غيره وهو أعجز من حجر لا يقدر على شيء في استخلاصها . وتنطلق هي تبكي شرفاً معفراً وعفة منتهكة [2] ، وقد يتناولهن نوع من التشهير المخزي والفضيحة السافلة فيجرَّدْن من الثياب ويركضن ركضاً سريعاً مشدودات الى النوق مبهورات الأنفاس معولات يتقطعن حقداً وغيظاً ، راجيات أن يحل بنساء العدو ما حل بهن [3] ، ولنا أن نتصور الحسرات في

= البيتان من قصيدة للأعشى (الديوان ق ٩ ص ٧٦) يهجو بها يزيد بن مسهر من شيبان بن ثعلبة وهم أبناء عمومة لقيس بن ثعلبة الذين ينتمي اليهم الأعشى . حصان : سيدة كريمة . الناصفات : الخادمات . اتصلت : انتمت وانتسبت . تنتسب الى بكر بن وائل جد الحيين المتخاصمين تقرباً الى الذين سبوها في الحرب .

(١)وسائل بناجار بن عوف وقد رأى   حليلته جالت عليها مقاسمي
تلاعب وحدان العضاريط بعدما   جلاها بسهميه لقيط بن حازم

الشعر لزيد الخيل (الأغاني ١٦/٥٣) . العضاريط : جمع عضرط وعضارط وعضروط : الخادم على طعام بطنه .

(٢)وكنا اذا قيسية ذهبت بنا   جرى دمعها من عينها فتحدرا
مخافة ما لاقت حليلة عامر   من الشر اذ سربالها قد تعفرا

قائل البيتين مسهر بن يزيد الحارثي وقد زعم انه أخذ حليلة عامر بن الطفيل (نهاية الأرب للنويري ١٥/٣٩٦) .

(٣) ونجد هذا الشعور في نفس امرأة من هذيل سباها عرعرة بن عاصية في غزاة له في قومها انتقاماً لأخيه وكانوا قد أسروه وقتلوه وهو ظمآن ، فجردها ثم ساقها معه عارية الى بلاد بني سليم فقالت عند ذلك :

ألامت سليم في السياق وافحشت   وأفرط في السوق العنيف إسارها
لعل فتاة منهم أن يسوقها   فوارس منا وهي باد شوارها
فان سبقت علينا سليم بذحلها   هذيلاً فقد باءت فكيف اعتذارها
ألا ليت شعري هل أرى الخيل شذباً   تثيرُ عجاجاً مستطيراً غبارها
فترقا عيون بعد طول بكائها   ويغسل ما قد كان بالأمس عارها =

نفوس الرجال وقد بانت عنهم الأخوات او الامهات او الحلائل ، وغيبهم نهار المعركة ثم أطبق الليل على نفوس شقية بائسة ؛ فلربما أعادت الأيام المفقودات أو كان فقدهن أبدا (١) . فلا غرابة اذا رأينا العربي أحياناً حرجاً بالمرأة يرى فيها هوانه وعاره يسب بما نالها ويلطخ الدهر بما لحق بها ، ولعل هذا ما وضع من منزلتها عنده ، وربما كانت مطيته أكرم عنده منها (٢) .

= (الأغاني ١١/١٤ ، بولاق) .

شوارها : الشوار بالضم : متاع البيت وذكر الرجل وخصياه وأسته وشوربه . ترقا : تنقطع عن البكاء .

(١) أسرت سليم ريحانة اخت عمرو بن معدي كرب ولم ترتجع فكان إذا نام أيقظه هاتف يتردد في ضميره هو صوت ريحانة تستغيث :

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي خشوع

فاذا زالت غمامة الحلم استيقظ على الحقيقة واليأس القاطع :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه الى ما تستطيع

وعمرو بن معدي كرب بن عبد الله بن عاصم بن زبيد الأصفر الزبيدي المذحجي يكنى أبا ثور . قدم على رسول الله ﷺ في وفد زبيد فأسلم سنة تسع او عشر ، وأقام بالمدينة برهة ثم شهد عامة الفتوح بالعراق . وكان شاعراً محسناً مشهوراً بالشجاعة ، قتل يوم القادسية . (شرح شواهد المغني ١ ص ٤١٩) والقصيدة في المفضليات .

(٢) وقد صارح عنترة امرأته بذلك عندما سألته ان يؤثرها بالغبوق قبل الفرس :

لا تذكري مهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
ان الرجال لهم اليك وسيلة ... ان يأخذوك تكحلي وتخضبي
ويكون مركبك القعود ورحله ... وابن النعامة يوم ذلك مركبي
وأنا امرؤ ان يأخذوني عنوة ... أقرن الى شر الركاب وأجنب

(ديوان عنترة ص ٢٠ تحقيق ابراهيم الأبياري) .

في البيت الأول ينذرها بالبعد عنها وهجران فراشها ان هي ذكرت هذا المهر وما يطعمه . القعود : ما اتخذه الراعي من الابل للركوب . ابن النعامة : ما تحت القدم .

ولا ينكر أن بعض النساء كانت تلقى صيانة وإحساناً وترد الى ذويها رجاء الثواب او حذار العقاب فيصبح لمطلقها يد عند أهلها يحفظونها له ليوم يقدرون فيه على رد الجميل (١) .

وكان السبي أيضاً يتناول الذرية فينزع الأطفال من ذويهم وينشؤ ون في القبائل الغريبة على الخدمة والتسخير والعبودية ، ومن أمثال هؤلاء زيد بن حارثة (٢) الذي بيع في مكة وهو صغير ثم تعرف على أهله شاباً ، ومنهم الشنفرى الأزدي(٣) الذي اكتشف عبوديته بعد اهانة أصابته ،فتنكب قوسه وانطلق على وجهه يغير على بني سلامان ويترصدهم ويفعل بهم الأفاعيل .

وقد يحصل الرجل في الأسر اختطافاً ولو ملكاً اذا خفي خبره كما خفي أثر أحد ملوك اليمن سنوات حتى عرف قومه مخفاه من راكب أرسله اليهم بشعر (٤) .

والجريمة مدعاة للأسر يجترح الشاعر الآثام ويستكثر من الجرائم ، فينبذه

---

(١) أسرت غمامة بنت الطود بن زرارة واشترك في أسرها الخطيم بن هلال وظربان بن زياد ، وقيس بن خليد ، فردوها الى أهلها (نهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣٨٠) .

وكذلك صنع الحصين بن الحمام يوم أغار على بني عقيل وبني كعب فأثخن فيهم واستاق نعماً كثيراً ونساء ، فأصاب أسماء بنت عمرو سيد بني كعب فأطلقها ومنّ عليها :

فأبنا بالنهاب وبالسبايا ... وبالبيض الخرائد واللقاح
واعتقنا ابنة العمري عمرو ... وقد خضنا عليها بالقداح

(الأغاني ١٢ ص ١٢٢ بولاق) .

(٢) الصحابي المعروف نشأ في حجر الرسول ﷺ انظر سيرة ابن هشام : ٢٤٧/١ .

(٣) انظر ترجمة الشنفرى في ص ٤٩ حاشية ٤ .

(٤) هو قيسبة بن كلثوم السكوني خرج في الأشهر الحرم آمناً من غير عشير او نصير يريد الحج فلما مر بديار بني عامر بن عقيل طمعوا فيه واستضعفوه فوثبوا عليه واستلبوا ماله وألقوه في القد ، ولم يتركوا عليه غير حبرة ، وفقده أهله فلم يعرفوا له مقراً ، ولبث في أسرهم ثلاث سنين حتى مر به عرضاً راكب فإذا هو أبو الطمحان القيني ، فعرفه خبره وأرسله الى قومه بشعر يذكر أسره ويستنهضهم لغزو بني عامر بن عقيل . (انظر الأغاني ١١ ص ١٢٦ . ط. بولاق) .

قومه ويرصده أعداؤه حتى اذا ضبطوه قتلوه ، وهذا المصير انتهى اليه الشنفرى الذي اكثر الغارة والقتل في بني سلامان جزاء استعبادهم إياه فندبوا له أشداءهم حتى أسروه ، فقطعوا من أوصاله وألقوها أمام ناظريه ، وقدموه وضربوا عنقه (١) .

الخاتمــة :

ويمكننا بعد ان فصلنا القول في أحوال الأسر وشعرائه ان نخلص الى عدة نتائج : أولها أن الأسير قد كان عرضة لهوان ظاهر بما ينتابه من الانتقام الجماعي او الفردي ، وبما يسترخص من قدره وبما يعرض من تحقيره او استعباده او إردائه ، وبما ينزل من الآلام الجسدية في تكتيفه وشده بالأغلال وإثقاله بها ، وفي حبسه وتجويعه وأخذه بالإرهاب والتخويف .

وثانيها ، ان التقييد حال تكاد تلازم المأسور وأن القيد كان ضرباً من النكال ، وكانت له أنواع عدة تختلف في كثافتها ووزنها الى جانب بعض وسائل التعذيب وآلاته .

وثالثها ، ان الأسر سبب من أسباب الرزق ، وللأسير ثمن مادي يقوم به بالنظر الى مكانه في قومه وأن التعويل على قيمته المادية أشد في الجاهلية مما هو في الإسلام ، إذ صار يتدخل في مصيره اعتبارات أخرى ، كما يتطلب أمن الدولة حيناً واغراض الحكام حيناً آخر .

ورابعها ان النجاة من الأسر كان مطلباً عزيزاً وبمثابة حياة جديدة للمسرحين ، وإطلاقهم مكرمة عظمى يرغب فيها ذوو الرئاسات طمعاً بحسن الذكر وعلو الوجاهة السياسية .

وخامسها أن أسرى الحرب من العرب كان مسرح أسرهم جزيرتهم في جاهليتهم على الأكثر ، ولكنها امتدت في الإسلام الى منابع الفرات وآسيا

---

(١) انظر ص ٤٩ .

الصغرى وبلاد الترك والديلم والهند .

وسادسها، ان الأسر كان نتيجة لازمة للأجواء والأحداث التي عاشها العرب قبل الإسلام وبعده ، فالعداء السياسي والعسكري والسبي والاختطاف طرق تنتهي بسالكيها الى الأسر .

وسابعها ، ان الشعراء الذين استحوذ عليهم أعداؤهم كلهم أحبوا الحياة وتطلعوا الى الفكاك ، ولكن مواقفهم في محنهم تفاوتت تفاوتاً بيّناً من الصلابة والتحدي الى التخاذل والاستخذاء والتخشع للأعداء ، او الاعتدال ما بين الموقفين . وان منهم من كان أسره فاجعة كبرى زاخرة بالآلام ومصدراً للعبر والتحفظ من ريب الزمان كأسر المعتمد بن عباد .

وثامنها ان شرور الحروب والغزوات كانت تصيب النساء والأطفال فينالهن كثير من الضيم والامتهان .

ان هذه النتائج مما يعيننا على وضع شعر الأسر والسجن في اطاره الحقيقي من العلل والأحداث لنستطيع تبيان أغراض هذا الشعر وخصائصه في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

السجن في الجاهلية والإسلام

الفصل الثاني

السجن في الجاهلية

تزخر كتب الأوائل بمنظوم كثير فاض عن القرائح في السجون ، لو أفردت قصائده ومقطوعاته وأخبار قائليه في كتاب لملأت غير سفر ضخم . وما ينشر من قديم مخطوطات الأدب والتراجم والتاريخ يزيد في هذه المادة يوماً عن يوم . ذلك ان السجن مسّ كثيراً من كبار الشعراء مساً رفيقاً ، وأوغل في حياة بعضهم إيغالاً ، وتعداهم الى جمهور من أهل العلم والأدب والفكر وذوي الرئاسات والفضل ممن كانت لهم قدرة على النظم ودراية ومشاركة . فكان لهم من المحنة باعث لتحريك الوجدان ، وسبب للإبانة عما فيه بجلي البيان .

وعلى ضخامة هذه المادة لم تظفر هي وشعر الأسر من الأقدمين بتأليف أو تبويب مستقل ، ولا يظن ان مثل هذا التصنيف ـ لو أرادوه ـ كان بعيداً عن متناولهم وهم الذين ضمنوا تضاعيف مجلداتهم هذا الانتاج الثري للسجناء ، والمرجح أنهم كانوا يحيدون عن هذا الغرض حيداً خوفاً من نقمة السلطان إذ كانوا يضعون مصنفاتهم لرعاة الأدب من الملوك والخاصة ، فلا يعرجون من هذا الجانب على ما يسخطهم . فإذا ألمّوا بحبس الرجال تناولوه برفق ، وأظهروا منه جانب الذلة والاستعطاف ، ولا يطلقون لأنفسهم عنان السرد إلا مع الشعراء الذين انقضت مدة الدولة التي حبسوا في عهدها .

وما أخرجته المطابع من تأليف الأقدمين كافٍ لتقدير هذا النوع من الأدب

ولإظهار خصائصه ، ولا يلبث الباحث بعد جمع مادته وتصنيفها ، أن يلمح أهميتها في أبعادها الحقيقية ، فهو أمام شعر يواجهه في غير ظروف المناسبات المكرورة التي اكتنفت العديد من فنون الشعر عند العرب وتميزت بطابع من التكلف ، ولا مناص من التحري عن الدوافع الحقة من وراء القول حتى ذاك الذي يبرز في إطار المناسبات من السجن ، فلا يمكن اغفال عملية التمويه النفسي في ثناياه واستنباط المشاعر العارية من وراء اللبوس الكاذب .

والحق أن جلاء التجربة الذاتية عند الشاعر السجين وسبر أغوارها هي هدف الباحث ، والشاعر غير معزول عن الناس والأحداث ، وليست نكبته ، عندما تخلو من الجريرة او الجنحة الفردية ، إلا أثراً من آثار الحياة العامة التي تحيط به . ولا سبيل الى إدراك المرامي الصحيحة للشعر إلا إذا أعير هذا الجانب اهتماماً كافياً واعتباراً ملائماً . فإذا التزم هذا المنهج قاد الأدب الباحث الى ميادين السياسة والخلافات ظاهرها وباطنها ، والى المجتمع في مختلف طبقاته غنيها وفقيرها ، وخاصتها وسوقتها ، والى تخلل مستوياته الأخلاقية والفكرية ، وإلى رصد التحركات الشعبية والثورات ، وما يضطرم فيها من النقمة والاستياء ، وما يثقلها من الظلم والتفاوت ، وما تؤول إليه من الانحراف والفساد . وأدخلنا الى حياة الخاصة ، وتخطى بنا المظاهر الخلابة الى الانسان المتسلط ونظرته الى المبادىء والأهداف وتعامله معها ، والى تهتكه وجبروته ، وما يعتوره من نعيم وبؤس وعزة وذلة ، والى أثره في مجرى الحياة ، وقريب الأحداث وبعيدها .

إن أدب السجن في قرارة أمره يفتح نافذة على دراسة حياة العرب في القرون الوسطى دراسة أمينة دقيقة . ويحمل على تقري العوامل الكبرى المؤثرة في تاريخهم الذي لا نكاد نعرفه إلا من خلال كبار الأشخاص والحوادث الجسام، وإن هذه الدراسة لتقدم المفتاح للكشف عن التيارات التي لا تزال مستورة ، وكانت فعالة في توجيه تاريخهم وما دار فيه من الدوائر العظام .

وإذا كان لهذا الأدب مثل هذه الأهمية فإن تقويمه ينبع من تقدير ظروف

البيئة في زمان ومكان وأشخاص واحداث تقديراً دقيقاً . فلا مندوحة من التعرف على الوسط المكاني الذي نشأ فيه هذا الشعر على مر العصور ، وعلى الوسط الاجتماعي الذي نما فيه ، ثم الإلمام بالظروف العامة او الخاصة التي أوطنت قائليه في الحبوس . فإن الأدب متأثر بهذه العوامل جملة .

وأما الوسط الاجتماعي فهو أهل السجن من سجانين وسجناء ، وأما ظروف السجن فهي الأحداث التي حملت الشعراء الى الحبس ومن ورائها شتى العوامل والمؤثرات السياسية والاجتماعية والفكرية والذاتية .

ومن ثم ينظم هذا الفصل جوانب ثلاثة : السجون ، ومجتمع السجن وطرق الشعراء الى السجن .

ويعتمد في تجلية هذه الجوانب على شتات الأشعار والأخبار . فتستخلص ـ ما ساعف البحث ـ صورة متلائمة الأقسام تصدق الواقع التاريخي ، فإن كتب الأولين لم تتناول هذا الوصف بإيجاز او تفصيل في بحث جامع الا يسيراً نادراً [1] .

وتمهد خطة هذا الفصل لاستنباط أحكام تقويمية لهذا الضرب من الشعر في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

---

(١) كتب المقريزي في « الخطط » (٢/١٨٧ ـ ١٩٠) فصلاً في سجون مصر : ذكر أماكنها وعددها ومنشأها وزوالها وصفاتها . وليس في المراجع الأخرى ما يماثله .

المبحث الأول

السجون : أماكنها وأنواعها

انبثق في سجون العرب قبل الإسلام وبعده طائفة حسنة من الشعر ، وهي سجون مفرقة في القدم كانت تنتشر في ثنايا ممالكهم ، ميزتها عصور تاريخية بطوابع كانت سيماء السياسة والحكم ، وما اضطرب في المجتمع من اتجاهات وأحداث .

وتقدم في الفصل الأول إشارات الى الأمكنة التي كان الأسرى والمحبوسون في الجاهلية يحتجزون فيها (١) .

بدء اتخاذ السجن في الإسلام :

وبدأت جزيرة العرب بمعرفة السجن الخاضع للسلطة التنفيذية منذ ظهور الدولة في الحجاز ، بعد هجرة الرسول ﷺ الى المدينة (٢) ، وكان اتخاذه تدريجياً موافقاً للتطور الذي يتخطى فيه المجتمع النظام القبلي والأعراف الى أحكام الشرع ، فنشأ نشوءاً طبيعياً يوافق مرحلة الانتقال ، فكان الحبس أول الأمر ـ كما كان في القبيلة ـ يعرض السجن فيه عرضاً ، وتزول عنه صفة السجن

---

(١) انظر الفصل الأول ص٣٢.

(٢) إذا استثنينا ما كان في اليمن قبل الإسلام من سجون لا نعرف عنها شيئاً ، وكانت اليمن ذات حضارة وشهدت عدة دول ، والسجن من مستلزمات الدولة .

بخروج السجين منه أو بتنفيذ الحكم فيه [١] . ومن السهل التمييز بين نوعين من السجن في عهد النبي ﷺ وخليفته الأول : الأول يقوم عليه الافراد ـ كما كـان الأمر في الجاهلية ـ والآخر ينشأ ويلغى بأمر من الدولة ، فإن أخذ المتهم بحق خاص طلب الى خصمه ملازمته [٢] ، وإن كان الحق عاماً لله والجماعـة تولت السلطة نفسها أمر اتخاذ المحبس وتعهدته [٣] .

ولم يكن للسجناء محبس جامع قبل الخليفـة الثاني ، ولا شـك أن كثرة المخالفات دعت الى تأسيسه لأول مرة في تاريخ الإسلام إذ كان على الدولة ان تـواجه رعـونة البـداوة بحزم وإصـرار على الأمن وهي تطبق الأحكـام ، وتقيم الحدود على الخارجين على القانون [٤] . واشترى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) داراً للمحبوسين في مكة [٥] ، ولم يذكر المؤرخون والفقهاء عن عمر انـه اتخذ حبساً في المدينة . وأثر عنه أنه كان يحبس في الآبار ، وغير بعيد أن بعض

---

(١) « لم يكن محبس معـداً لحبس الخصوم على عهد النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه « التراتيب الادارية : ١/٢٩٥ .

(٢) قال المقريـزي في الحبس زمن الرسـول : « كان يتـولى نفس الخصم ووكيله عليه ملازمته كما روى أبو داوود وابن ماجة عن الهرماس بن حبيب عن أبيه (رضي الله عنهما) قال : أتيت النبي ﷺ بغريم لي ، فقال لي : الزمه . ثم قال لي : يا أخا بني تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك . . « الخطط ٢/١٨٧ مصر ١٢٧٠ هـ » .

(٣) لما تقرر قتل بني قريظة بعد غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة اتخذ لهم محبس في دار ابنـة الحارث امـرأة من الأنصار . انـظر « التـراتيب الاداريـة : ١/٢٩٤ » ، السيـرة : ٢/٢٤٠ .

(٤) انظر بعض أخبار العصاة في فتوح البلدان : ١٣٦ ، البلاذري .

(٥) جاء في « التراتيب الادارية : ١/٢٩٨ » عن البيهقي وابن القيم من حديث لم يرفعه البخاري أنه لمـا اشتدت الـرعية زمن عمـر بن الخطاب ، اشتـرى من صفوان بن أميـة دار السجن بأربعة آلاف درهم . . وانظر أيضاً المقريزي الخطط : ٢/١٨٧ .

(٦) وجاء في المصدر نفسه : التراتيب : ولعل عمر كان يحبس في الآبار قبل شراء الدار التي أعدها للسجن ، قلت : ومن المشهور ان الحطيئة حبسه عمر في بئر : =

الدور استخدمت لهــذا الغرض ، إذ بـات الحبس من المؤسسات الـلازمة في سياسة الرعية [1] ، قد تستودع فيه النساء [2] ، ويرافق الحملات [3] .

وحملت كثرة الشغب والعصيان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على العناية بالسجن ، فكان أول من بنى حبساً في الإسلام : بناه في الكوفة وسماه نـافعاً [4] ، وفي التسميـة ظل من المفهـوم الاصـلاحي للسجن عنـد الخليفـة الرابع ، مستفاد من الآية الكريمة ﴿ ولكم في القصـاص حياة يـا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ [5] . ولم يكن « نافع » الهرب منـه غير عسيـر [6] . فلم يلبث علي أن هدمه وابتنى سجناً محكماً أعيى نزلاءه التفلت منه ، ونزع عن التسمية الأول فأسماه « مخيّسا » [7] ، ولعل في التسمية الجديدة دلالة على تفـاقم حدة

= ألقيت كـأسبهم في قصـر مـظلمـة فأمنن ، عليك سـلام الله ، يا عمـر

البيت الثاني من أربعة استعطف بها عمر . « طبقات ابن سلام : ٩٨ » .

(١) دخـل ضابىء بن الحـارث البرجمي الشـاعر سجن عثمـان بن عفان ومـات فيـه : (أنساب الأشراف : ٥/٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) سجن عمر بن الخطاب الذلفاء امرأة من المدينة لتغزلها بأحد الرجال ثم أطلقها بعد أن تأولت غزلها . (فتوح البلدان لبلاد العرب وخراسان : ص ٨٠ مصر ١٠٣٩ هـ ١٨٩ م) للواقدي .

(٣) سجن سعد بن ابي وقاص أبا محجن الثقفي في قصره يوم القادسيـة لشربـه الخمر فقال :

اذا قمت عنـاني الحـديـد وغلقت مصـاريـع من دوني تصم المنـاديـا

البلاذري : فتوح البلدان : ٣٦٣ .

(٤) « نافع ، سجن في الكوفة بناه أمير المؤمنين علي » (التاج : خاس) .

(٥) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

(٦) « نافع » سجن كان بالكوفة غير مستوثق البناء ، فكان المحبوسون يهربون منه فهدمه علي وبنى « المخيس » ابن سيدة : « المخصص : ١٢/٩٣ » .

(٧) الأصمعي : يقـال للسجن الذي يحبس فيـه الناس : المخيس ولا يفتـح لأنـه هـو الفاعل يخيس المحبوسين أي يذللهم ، وقيل هو سجن معروف بالكوفة بناه علي ، وقال : =

الرعية التي ألفت التمرد دهراً قبل الإسلام ، ولم يكن يرهبها غير البطش [1] ، فلما بنى علي (رضي الله عنه) المخيس تخوف كثير من قطاع الطرق ، واللصوص ان يحشروا فيه ، وتحاموا إما بالإخلاد الى السكينة او الفرار [2] .

تكاثر السجون :

بدىء باتخاذ السجن شراءً ثم صار بناء ، والخطة الأولى هي تصيير المباني القديمة حبوساً ، وكانت متبعة في أنحاء البلاد لسهولتها ، فحولت كثير من دور الحكام الذين انقضت مدتهم ، ومن الدوائر الحكومية الميتة ، ومن القلاع ودور الصناعة الى سجون [3] .

وغير خفي ان المسلمين استفادوا في البلاد التي فتحوها من منشآت حكامها السابقين فشغلوا قصورهم وحصونهم وسخروها لأغراضهم ، وكذلك سجونهم ، وبعض الاخبار تذكر ان سجناً للأكاسرة ، حدّثنا عنه الشعر الجاهلي ، كان لا يزال قائماً لعهد معاوية بن أبي سفيان [4] .

= ألا تراني كيساً مكيساً بنيت بعد نافع مخيساً
« المخصص : ١٢/٩٣ » .

(١) قال عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : « من يزع الله بالسلطان أكثر ممن يزع بالقران » « أنظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث : ٥/١٨٠ » و« اللسان : وزع » .

(٢) انظر شعر شبيب بن كريب الطائي ـ وكان يصيب الطريق أيام علي ـ وخوفه من ان يساق الى « مخيس » في البيان والتبيين : ٣/٨٥ ، عبد السلام محمد هرون » .

(٣) يستفاد من التنقيب في بعض المصادر التاريخية ان دار مروان بن الحكم في المدينة حوّلها العباسيون الى سجن ، وكذلك فعلوا بقصر عمر بن هبيرة في الكوفة . انظر « مقاتل الطالبيين : ٢١٥ » و« انساب الأشراف : ٤/٣٣ ، السطر ١٤٠ و٥/١٢٧ . السطر ١١ » و« الطبري : ٩/١٩٧ » و« ابن الأثير : ٥/٢١٢ » . وللاستزادة من حديث تحويل المباني القديمة الى سجون انظر المقريزي « الخطط ٢/١٨٧ ـ ١٨٨ » .

(٤) وهو سجن ساباط ، جاء في (أنساب الأشراف : ٥/٢١٤ السطر ١٦) « وكان المختار الثقفي مع عمه بالمدائن حين جرح الحسن بن علي في مظلم ساباط » وهو الحبس =

وتوسع الأمويون في تشييد الحبوس لما نجم في زمنهم من الخلاف والأحزاب ، ويشهد عدد المحبوسين في عهد بعض الولاة بحاجتهم الى العديد من الحبوس ، حتى كان بعضها أيام الحجاج أشبه بالمعسكرات المكشوفة تضم عشرات الآلاف لحافهم العراء [1] ، فبنى الحجاج عدد منها ، وأطلق عليها أسماء مختلفة ، بعضها منقول من اسم المكان الذي رفع فيه [2] ، وبعضها مشتق من صفة السجن [3] واستفاد ـ على ما يظن ـ من بعض الأمكنة القديمة فاستصلحها ، وزحم فيها المحبوسين وكانت بعض حبوسه عراء مكشوفة [4] .

= الذي توهم أعشى قيس ان كسرى سجن النعمان بن المنذر وقتله فيه . انظر ديوان الأعشى (ص ٢١٩ ، ق ٣٣ ، البيت ١٨) .

(١) قال ياقوت : « قيل انه أحصى في محبس الحجاج ثلاثة وثلاثون ألف إنسان لم يحبسوا في دم ولا تبعة ولا دين ، وأحصي من قتله صبرا فبلغوا مائة وعشرين ألفا » . (معجم البلدان : واسط) وقال المسعودي : « توفي الحجاج وفي محبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ، وكان حبسه حائراً لا شيء فيه يكنهم من حر ولا برد ويسقون الماء مشوباً بالرماد » (التنبيه والأشراف ٢٧٥) .

(٢) بنى الحجاج سجناً سماه لعلعا في مكان بالعراق يطلق عليه هذا الاسم ، وقال أبو الفرج الأصفهاني : « لعلع من آخر السواد الى البر فيما بين البصرة والكوفة ، ولعلع سجن الحجاج بن يوسف » (الأغاني : ١٣٦/٢١) .

(٣) من سجون الحجاج الديماس وذكره جحدر اللص عندما نجا منه :

ان الليالي نجت بي فهي محسنة   لا شك فيه من الديماس والأسد

(معجم البلدان : ديماس) وكان الحجاج شرط لتخلصه من السجن ان يقتل أسداً مجوعاً ، ففعل ، وفي المخصص « ٩٣/١٢ » : المدمس والديماس والمدمس : السجن ، ودمسه في الأرض دفنه حياً ، والديماس سجن للحجاج لظلمته . ويستظهر من بعض الأخبار ان الحجاج بناه في مدينة واسط . أنظر « معجم البلدان : حجر » .

(٤) يبدو ان الحجاج صير بعض الحصون القديمة سجناً ، منها حصن أبزر الذي ذكره جحدر أيضا في قصيدة جيمية (الحماسة البصرية : ٣٣٧/٢) :

لما نزلت بحصن أبزر مهصر   للقرن أرواح العدى مجاج

واتسعت في العصر العباسي مشروعات تعمير السجون ، ولا شك انها رافقت بناء المدن التي ابتناها الخلفاء مقراً لهم في الهاشمية [(١)] ، وبغداد [(٢)] وسامراء [(٣)] ، وأحوجت فوضى الحكم بعد المتوكل والمؤامرات والثورات ، الى استحداث حبوس جديدة حيناً بعد حين [(٤)] .

وسارت الولايات على غرار العراق لم يتوقف فيها تأسيس السجون ، ولا في العهود التي أكلت فيها حروب التتر والوباء والمجاعات الناس . وكان سلاطين المماليك في مصر جادين في إعدادها في تلك الأثناء [(٥)] .

وكانت الحبوس تستزير الشعراء العرب حيثما أسست : في المدن البعيدة عن جزيرتهم ، وعن عاصمة ملكهم [(٦)] لانتشارها طولاً وعرضاً . ومن الشعراء

وغير بعيد ان يكون هذا الحصن هو الديماس نفسه ، لان جحدر ذكر فيه صراعه الأسد وقتله له ، الا أن يكون حبس في الديماس ونازل الأسد في حصن أبزر . انظر المسعودي : التنبيه والأشراف (ص ٢٧٥) .

(١) الهاشمية مدينة بناها السفاح بالكوفة (معجم البلدان : الهاشمية) .

(٢) مدينة السلام بناها المنصور وابنه المهدي ، على ضفتي دجلة (معجم البلدان : الرصافة) ودخل سجونها كثرة من الشعراء .

(٣) بناها المعتصم على دجلة الى الشمال من بغداد (معجم البلدان : سامراء) وحبس فيها المتوكل محمد بن صالح بن عبد الله العلوي الشاعر ثلاث سنين . أنظر : مقاتل الطالبيين : ٦٠١ « ٨ » .

(٤) يذكر الطبري في تاريخه ١١ / ٨٩ سجناً للمتوكل باسم السجن الجديد .

(٥) ذكر المقريزي في « الخطط : ٢/١٨٨ »سجناً في مصر بقلعة الجبل اسمه الجب « ابتدىء في عمله سنة احدى وثمانين وستمائة والسلطان حينئذ الملك المنصور قلاوون » .

(٦) حبس عاصم بن يزيد الهلالي في مرو الشاهجان من فارس : حبسه عاملها لخالد بن عبد الله القسري أمير العراق لبني أمية فاستغاث الشاعر بخالد :

فأنقذ ـ يا فداك ابي وأمي ـ أسيراً طالما انتظر الفكاكا
بمرو الشاهجان اذا تروت حديدة ساقه بدم دعاكا =

من حمل الى سجن في أقصى المشرق [١] او في أقصى المغرب [٢] ، ومنهم من نفي من بلاد الإسلام واتخذ له حبس في منفاه [٣] .

مواقع السجون :

والغالب في مواقع السجون أن تكون قريبة من قصور الحكام ومقر أعمالهم لارتباطها إدراياً بإشرافهم [٤] ، ولحياطتها من مهاجمة خارجية [٥] ، ولمنع من فيها من الهرب ، ولحاجة الحاكم أحياناً الى التكتم في عمليات الحبس والقتل عن أعين العامة . وإذا لم يكن ثمة دليل جازم على ان السجون كانت كلها في هذه المواقع فإن أكثرها قد كان ولا سيما السجون المتصلة بالبلاط [٦] ، أو كانت داراً للأمير ثم اتخذ غيرها الى جانبها [٧] او اختطت وسط

= بيتان من أربعة في « الوحشيات لأبي تمام : ١٠٣ » تحقيق محمود محمد شاكر .

(١) حمل يزيد بن مفرغ الحميري من البصرة الى منطقة « كابل » وهي من ثغور خارستان بين الهند وغزنة (معجم البلدان : كابل) وقال في ذلك :

من الطف مجلوباً الى أرض كابل ... فملوا وما مل الأسير المعذب

(ديوان يزيد بن مفرغ الحميري : ص ١١٤ ق ١ ، البيت ١ . رسالة مقدمة لجامعة القاهرة للماجستير ، تحقيق عبد القدوس ابو صالح . القاهرة ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤) .

(٢) سجن المعتمد بن عباد في أغمات وهي ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش ، بينهما ثلاثة فراسخ (معجم البلدان : ١/٢٩٥) . وتردد هذا الاسم في شعر المعتمد مراراً ، من ذلك قوله يهنيء بعض الخارجين من ذاك الحبس :

تخلصتم من سجن أغمات والتوت ... عليّ قيود لم يحن فكها بعد

(ديوان المعتمد : ٩٤ ، تحقيق أحمد أحمد بدوي القاهرة ١٩٥١) .

(٣) نفى عمر بن عبد العزيز الشاعر الأحوص ـ لتهتكه في الغزل ـ من المدينة الى دهلك وقد وصفها ابو الفرج انها من بلاد الشرك (الأغاني : ٨/٥٤) .

(٤) لادارة السجون حديث مقبل في (ص ١٣١) .

(٥) انظر في بعض الحوادث في هذا الصدد في (ص ١٤٤) .

(٦) انظر ما أوردناه للمقريزي من حديث عن دار البنود (ص ١١٥) .

(٧) ذكرنا في (ص ١٠٣) ان دار مروان بن الحكم في المدينة حولت الى سجن في أول =

البيـــوت[1] .

أنواع السجون :

يقـود استقراء الأخبـار والأشعار الى التعـرف على أنواع من السجـون ، كانت أول أمرها بسيطة الاعداد ، لم يجنح بها الى التعقيد فيهـا والى التضييق على نزلائها وإيذائهم ، فكانت دوراً معـدة للسكنى ، اشتراهـا او بناهـا خلفاء عرفوا بالتقوى والتجانف عن الظلم [2] . ولكن ما ان تقدم العصر الأموي حتى أخذت تدنو من الإعنات والإرهـاق والإذلال ، متأثـرة بعوامـل عديـدة ، أهمها الاستبداد والبطش ، وهما عنوان سياسة الولاة في العراق خاصة ، فاستخدم في البلاد المفتوحة السجون التي كانت قبل الإسلام او اقتبس تصميمها [3] وكانت أغلب حبـوس الفرس تحت الأرض ، ولـذلك يميـز نوعـان للسجون في بـلاد العرب : أحدهما مشيد على الأرض ، والآخر في جوفها .

السجون السطحية :

ويحسن أن يطلق على هذا النوع الأول اسم السجون السطحية ، وكـان

= عهد العباسيين . وكانت دار الامارة الجديدة مجاورة لها يفضى اليها من باب خلفي . قال ابو الفرج في « مقـاتل الـطالبيين : ٢١٨ » في ذكر حبس أبي جعفـر المنصور لعبـد الله بن الحسن وأسرته : فدخلوا من باب المقصورة وخرجوا من دار مروان » . وذكر المسعودي ان « دار معـاوية المعـروفة بـدمشق بالخضـراء فيها الشـرط والحبوس » (التنبيـه والاشراف : ٢٦١) .

(١) كان سجن الكوفة وسط بيوتها : يدل على ذلك ان عمر بن هبيرة لما حبسه خالد بن عبد الله القسري ـ خلفه على ولاية العراق ـ اكترى أنصار عمر « داراً الى جانب الحبس ثم نقبوا سرداباً الى الحبس » . (انظر التنـوخي : الفرج بعـد الشدة : ١٣٥) . ومكنـوه من الهرب . وانظر أيضاً هذه القصة وشعر الفرزدق فيها (الأغاني : ١٩/١٥) .

(٢) ذكـرنا ان علي بن أبي طـالب (رضي الله عنه) بنـا «نافعـاً» ثم «المخيس» انظر ص١٠٣

(٣) لعل الحجاج بنـا « الديمـاس » على نمط فارسي ، وعمـل له مهنـدسون وفعلة من الموالي ، وكانت سجون الأكاسرة تحت أبصارهم مثل « مظلم ساباط » انظر ص ١٠٣ .

لبعضها ذكر ذائع في الشعر ، وهو المصدر المعتمد في معرفة أسمائها ومواقعها وأحوالها ، وما لم يذكره الشعر لا نعرف الكثير عنه (١) ، وتصنيفها وفق التوزيع الجغرافي أعون على الإحاطة بها .

نجـــد :

ففي نجد ـ مضرب القبائل التي ظلت محتفظة بخشونة البداوة وعنفوانها ـ تشددت السلطة في إقرار الأمن ، وكان الحبس إحدى الوسائل المرهبة للخارجين عليها . وكان سجن اليمامة أشهر سجونها ـ بشهادة ما لدينا من شعر ـ ففي اليمامة مقر الإمارة(٢) ، وهي أكثر بقاع نجد مدناً وقرى ، وخصباً ، ومطمعاً للصوص وقطاع الطرق . وكان الأمير في حجر(٣) أكبر مدنها . وكان له فيها حبس حاشد (٤) يرد إليه السجناء من نجدٍ كلها . وعرف ـ في الشعر ـ بأسماء عدة ـ فمن الشعراء من ذكره باسم المنطقة كلها ، ومنهم من ذكره باسم

---

(١) ذكر المقريزي في « الخطط » (١/٤٢٥ و٢/١٨٧ ـ ١٩١ و٢١٣) عدداً من السجون ذكر الشعر منها بعضاً وأغفل بعضاً .

(٢) قال ياقوت : « بين اليمامة والبحرين عشرة أيام ، وهي معدودة من نجد ، وقاعدتها حجر ، وتسمى اليمامة جواً والعروض» . انظر عنها حديثاً مفصلاً في « معجم البلدان اليمامة » .

(٣) حجر مدينة باليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالي ، وهي شركة إلا أنها لحنيفة وهي بمنزلة البصرة والكوفة ، لكل قوم منها خطة ، إلا أن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة . . . وكانت تسمى اليمامة (معجم البلدان : حجر) .

(٤) قال بعض الأعراف :

فلا تحسبا سجن اليمامة دائماً ... كما لم يدم عيش لنا بأبان

(معجم البلدان : ابان)

وقال المرار الفقعسي ـ من اللصوص ـ :

فيا صاحبي سجن اليمامة أطلقا ... أسيركما ينظر إلى البرق ما يجري

(الأغاني : ٩/١٥٣) .

المدينة التي هو فيها[1] . ومنهم من صرح باسمه « دوار »[2] . وقد ذاق الضيق فيه عدد من الشعراء الذين انتهجوا الصعلكة معاشاً[3] ، وخرجوا على المتبع من العرف والنظام[4] . فكان هذا الحبس يجمعهم من أطراف وقبائل شتى على غير ميعاد[5] . ولا يصح الزعم أنه كان الوحيد في اليمامة أو نجد ، ولكن شهرته علت لكثرة الوافدين عليه من الشعراء وهو في مركز الإمارة . ولعل سجن دوران الذي ورد في شعر جعفر بن علبة الحارثي كان في هذا الإقليم[6] .

---

(١) قال اعرابي حبس بحجر اليمامة :

هل الباب مفروج فأنظر نظرة   بعين قلت حجراً وطال احتمالها

الأول من ثلاثة في « معجم البلدان : ٢/٢٢٣ و ٤٩٣)

(٢) قال عطارد اللص :

ليست كليلة دوار يؤرقني   فيها تأوه عان من بني السيد

« معجم البلدان : دوار »

(٣) يبدو أن المتشطرين والصعاليك أكثر النزلاء في دوار . قال ياقوت : « وحدث أبو العباس المبرد ، وقال : كان بعض الاعراب يقطع الطريق فأخذه والي اليمامة ، فحبسه ، فحن إلى وطنه ، فقال . . « وذكر أبياتاً خمسة (معجم البلدان : ابان) .

وفي أبيات الحواشي السابقة دليل . وكانوا يلقون فيه إعناتاً . قال جحدر اللص :

يا رب دوار انقذ أهله عجلا   وانقض مرائره من بعد إبرام

« معجم البلدان : ٢/٤٧٨ »

(٤) حبس فيه يزيد بن الطثرية لمساعدته صديقاً له في اختطاف فتاة يهواها ، فقال يزيد :

ألا لا أبالي أن نجا لي ابن بوزل   ثوائي وتقييدي بحجر لياليا

(الأغاني : ٧/١١٣) .

(٥) قال جحدر اللص :

كانت منازلنا التي كنا بها   شتى وألّف بيننا دوّار

معجم البلدان : ٢/٤٧٨ .

(٦) جاء في «الاغاني: ١١/١٤١» : شرب جعفر بن علبة الحارثي حتى سكر، فأخذه السلطان ، فحبسه ، فأنشأ يقول في حبسه :

إذا باب دوران ترنم في الدجى   وشد بإغلاق علينا وإقفال

اليمـــن :

واليمن ولايـة كبيرة ومـدنها كثيـرة ، ولا تخلوا واحدة منهـا من حبس . وذكرت الأخبار سجن تبالة[1] . وكان غير ذي منعة أو حماية ، فكان سهلاً على ذوي الشـوكـة اقتحـامـة واستخـراج رجـالهم . وتخلص بعض الشعـراء بهـذه الـطريقـة[2] . وذكـر في الشعـر سجن نجـران ، ونجـران قـريبـة من الجبـال والبادية[3] ، فاقتيد إلى حبسها عدد من الشعراء اللصوص[4] . وفي اليمن سجن نصيب الأصغر الشاعـر مولى الخليفـة المهدي . ولا يعين شعـره وأخباره على

(الأول من أربعة) . وذكر ياقوت عـدة مواضـع في نجد والحجـاز والعراق : كـل منها يسمى بهذا الاسم . ومما قال في « معجم البلدان : ٢/ ٤٨٠»: ذو دوران بأرض ملهم من أرض اليمامة» .

(١) « تبالة بالفتح . . . موضع ببلاد اليمن . . وهي مما يضرب المثل بخصبهـا . . . بينها وبين مكة مسيرة ثمانية أيام . « معجم البلدان : ٢/ ٩ » .

(٢) قتل مصعب بن عمرو من بني عقيل الشاعر ابن الدمينة ثأراً لدم أخيه ،فوضع في سجن تبالة . فنظم أبياتاً ، استصرخ بها قومه ، فجاؤ وا واقتحموا عليه السجن وتخلصـوه . انظر « الأغاني : ١٥/ ١٤٧ » والخالديين : الأشباه والنظائر ٢/ ٩٠ .

(٣) « نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة . . .وكان بهـا بنو عبـد المدان بن الـديان « معجم البلدان : ٥/ ٢٢٦ .

(٤) وقد أكثر الشعراء من ذكر نجران في أشعارهم ، قال عطارد بن قران اللص وكان قد أخذ وحبس بنجران :

تـذكـرت هـل لي من حميم يهمـه   بـنجـران كـبـلاي اللذان أمـارس

خـامس من سبعـة في « معجم البلدان : ٥/ ٢٢٦ » . وانـظر الحمـاسـة البصـريـة : ١/ ١٠٦ » بيتـاً شبيهـاً بـه لعـطارد . وفي « منتهى الـطلب : ١/ ٢٥٣ » : « قـال الخـطيم المحرزي وهو من اللصوص يستعطف قومه ، وهو مسجون في نجران :

أتيـح لـذي بث طـريـد تـعـوده   همـوم إذا ما بـات طـارقهـا يسـري

بنجـران يقـرى الهم كـل غـريبـة   بعيـدة شـأو الكلم بـاقيـة الأثـر

البيتان : ١٥ ـ ١٦ من قصيدة عدتها : ٦٤ بيتاً .

معرفة موضع حبسه[1] .

الحجاز المدينة :

وعرف الحجاز الأشكال البدائية للحبس بعد تأسيس الدولة الإسلامية ، وكان الحطيئة أول من عوقب بالسجن من الشعراء ولا يعرف في المدينة موضع الحبس زمن الخليفة الثالث . ويستظهر أن له مكاناً مخصصاً إذ دخاله بعض الشعراء ، لعدوانه على أعراض الناس ، وقضى فيه نحبه[2] .

ونجم لولاة بني أمية في المدينة ـ بعد نقل مركز الخلافة إلى دمشق ـ صعوبات أمنية زادت ضروراتهم إلى السجن ، فتكاثر نزلاؤه ـ وكان اللصوص في البوادي مصدر خوف على أرواح الناس وأموالهم ، فسيق عدد منهم إلى سجن المدينة الذي سمع من أشعارهم وآلامهم الكثير[3] . وحملت الجرائر القبلية إليه ثلة من الشعراء[4] . واتخذ الولاة السجن مرهّباً لأولي الشطط ،

---

(١) والراجح أن يكون حبسه في صنعاء ، فالخليفة المهدي أرسله إلى عامله على اليمن في مهمة . انظر خبر سجن النصيب ، وتقييده ، والعفو عنه في « الأغاني : ٢٠/ ٢٦ ـ ٢٨ » .

(٢) هو ضابىء بن الحارث البرجمي « وكان عثمان حبسه لهجائه بني جرول من نهشل ، ورمي أمهم بالكلب . ويقال : بل حبسه وخلاه ، فأراد الفتك به ففطن له ، وأخذ وحبس حتى مات في السجن » (أنساب الاشراف : ٥/ ٨٤) وانظر أيضاً (الطبري : ٥/ ١٣٧) وله في حبسه أشعار منها قوله :

ومن يك أمس بالمدينة رحلة ... فإني ، وقيار ، بها لغريب

(الشعر والشعراء : ١/ ٢٦٧ . بيروت) .

(٣) من هؤلاء «السمهري بن جحدر العكلي ، وكان لصاً في سجن المدينة » (الخالديان : الأشباه والنظائر : ٢/ ١٣٢) وذكرا له سبعة أبيات . ومنهم القتال الكلابي ، وكان في ضيق من سجنها ، قال :

ألا حبذا تلك البلاد وأهلها ... لو أن عذابي بالمدينة ينجلي

(ديوان القتال الكلابي ص ٣١ ، البيت ٦ ، ت . احسان عباس . بيروت ١٩٦١) .

(٤) سيق الشاعر هدبة بن خشرم من البادية إلى المدينة في جريمة قتل ، ليسجن فيها=

فأمسى حبس المدينة في حقبة وجيزة مرهوب السمعة يفر منه الأشداء . وبذلك صرح أحد لفتاك أيام مروان بن الحكم ، وهو وال لمعاوية على المدينة . وفي هذا الحبس قذف بنو العباس خصومهم من آل علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وأنصارهم ، بعد أن جعلوا مقره دار مروان بن الحكم . وكان لا يفرج عن قوم فيه حتى يفد إليه آخرون[٢] .

مكـــة :

وكانت المصاعب التي تعترض عامل الخليفة في مكة لا تقل عما هي في المدينة بل تزيد . وكان لأميرها سلطان على بلاد كثيرة قريبة وبعيدة منها ، وأحياناً على نجد[٣] . فورد على الحبس في مكة شعراء كانوا يقطعون الطريق أمثال مالك بن الريب ، [٤] ويعلىٰ الأحول ، [٥] وشعراء اجترحوا جرائم في

= أعواماً طوالاً ثم ليقتل قوداً . وقالت أم هدبة فيه لما شخص إلى المدينة فحبس بها :

أيا أخوتي أهل المدينة أكرموا   أسيركم ، أن الأسير كريم

(الأغاني : ٢١/١٧٤) .

(١) هو القتال الكلابي ، هرب ، فأرسل إليه مروان يؤمنه ، فلم يأته ، وقال :

وأرسل مروان إليّ رسالة   لآتيه ، أني إذا لمضلّل

وما بي عصيان ولابعد مزحل   ولكنني من سجن مروان أوجل

أنظر : (معجم البلدان : عنقاء) و (الأغاني : ٢٠/١٥٩) و (ديوان القتال : ص ٣٢) .

(٢) قال أبو الفرج في « مقاتل الطالبيين : « كان لرياح بن عثمان (والي المدينة من قبل أبي جعفر المنصور) صاحب يقال له ابو البختري ، فحدثني ان رياحاً لما دخلها أميراً قال : يا أبا البختري هذه دار مروان : انها لمحلال مظعان .

(٣) يقرر ذلك حوادث ترد في سياقه بعض الأخبار . أنظر أخبار يعلىٰ الأحول في (الأغاني : ١٩/١١١) .

(٤) وكان ذلك قبل أن يستتاب ويغزو في طخارستان . وكان حبس في مكة في سرقة ، فقال في الحبس :

أتلحق بالريب الرفاق ومالك   يعنيه في سجن بمكة راقبه

(الشعر والشعراء : ١/٢٧٠) .

(٥) شاعر لص من شعراء الدولة الأموية ، أخذه عامل مكة للخليفة مروان بن الحكم ،=

النزاع القبلي مثل جعفر بن علبة الحارثي[1] . ونبه ذكر هذا السجن إبان خلافة عبد الله بن الزبير إذ زج فيه كثيراً من خصومه السياسيين . ويبدو أن حبس مكة في عهده قد حفل ببعض الفظائع ، واتخذ اسماً جديداً ، فصار يعرف بسجن عارم[2] . ولما استعاد بنو أمية الحجاز بعد مقتل ابن الزبير ، وولوا عليه عمالهم ، بقيت لسجن مكة شهرة في الأدب حققتها أخبار العرجي وأشعاره ، وكان قد حبس ومات فيه[3] .

العــراق :

وشهد « مخيس » في الكوفة ـ من بعد بانيه علي بن أبي طالب ـ مستقبلاً حفل بالمآسي والمهلكات لما وجدّ في العراق من الأحداث الداهية كان فيها الولاة أشد منها على الناس . فصار « مخيس » مثار الرعب في إمارة الحجاج

= وذكر مقامه وهو سجين :

أرقت لبرق دونه شدوان ... يمان وأهوى البرق كل يمان
فبت لدى البيت الحرام أخيله ... وجنباي من شوقٍ له أرقان

(الأغاني : ١٩/١١١) .

(١) شاعر مخضرم من شعراء الدولتين ، وكان سجنه في خلافة أبي جعفر المنصور ، وقد أشار إلى تقييده بمكة وهويتشوق إلى أهله :

فأما الهوى والود مني فطافح ... إليك ، وجثماني بمكة موثق

انظر (الأغاني : ١١/١٤٣) .

(٢) ذكر البلاذري « أنساب الاشراف : ٢٧/٤» سبب هذه التسمية ، فقال : « قال أبو الحسن المدائني : أسر زيد عارم غلام مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، وبني له بناء ذراعين في ذراعين ، وأقيم فيه ، وكان ذلك البناء في السجن ، فقيل : سجن عارم . وصير عارم وعدة معه في بناء بني لهم ضيق ، وأطبق عليهم حتى ماتوا . وقال كثير يهجو عبد الله ويذكر ابن الحنفية :

تخبر من لاقيت أنك عائذ ... وللعائذ المحبوس في سجن عارم

(٣) انظر (الأغاني : ١/١٥٥ ـ ١٥٧) و (ديوان العرجي ، ت الطائي والعبيدي بغداد ١٩٦٥)

ومن ولي من بعده . ودخله كبار الشعراء كالفرزدق[١] ، وقاسى فيه الأهوال ، وعد خروجه منه حياة جديدة[٢] .

وكان بعض الخلفاء في دمشق إن مس أحداً غضبهم وأرادوا إهلاكه تعذيباً أرسلوا به إلى سجن الكوفة[٣] .

واتخذ المنصور معه حبساً آخر كان أيام بني أمية قصراً لوالي العراق عمر بن هبيرة ، وذلك في الموضع المعروف بالهاشمية[٤] .

في بلاد الشام :

وفي دمشق سخر معاوية السجن لأغراضه برفق وبصيرة وحزم ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى الظن أنه كان أول من أسسه[٥] . وكان في حبسه أشخاص من مستويات مختلفة ، ومن أقطار شتى[٦] . ولم تعرف سجون الشام الغزارة التي عرفها سجون العراق . فقد ظلت بلاد الشام في طواعية للأمويين ، وفي هدوء موادع للعباسيين الذين كانت لهم عناية بسجن الرقة[٧] . ولم تتمتع

---

(١) حبسه خالد بن عبد الله القسري فاستغاث بمالك بن المنذر بن الجارود ، فقال :
فهل يخرجني منذر من مخيس ... وعذر به لي صوته يتكلم
(ديوان الفرزدق : ٢٤٨/٢ ، البيت ٨ . دار صادر. بيروت ١٩٦٠) .

(٢) انظر القصيدة السابقة ، وقصيدة أخرى مدح بها أسد بن عبد الله القسري أخا الأمير في « الديوان : ٥٢/٢ » .

(٣) قبض الوليد بن يزيد بن عبد الملك على محمد بن هشام ، وكان والياً على مكة ، قبل الوليد ، وأرسله إلى عامله في الكوفة يوسف بن عمر ، وأمره بتعذيبه حتى التلف . انظر الأغاني : ١٥٩/١ .

(٤) « الهاشمية . . مدينة بناها السفاح بالكوفة » معجم البلدان : ٣٨٩/٥ .

(٥) « وقد قيل : إن أول من وضع السجن والحرس معاوية » المقريزي : الخطط ١٨٧/٢ .

(٦) انظر « انساب الأشراف : ٤٣/٥ » .

(٧) كان بعده عن بغداد يجعله منفى السجناء ، وإليه أبعد هارون الرشيد البرامكة حين=

سجون الشام بشهرة أدبية ، وما نظم فيها من الشعر يرجع معظمه إلى العهد الذي غدت فيه مدنها ولايات مستقلة عن بغداد ولا يعدو الأمر عدة قصائد نظم بعضها المتنبي في حداثته ، وهو سجين في حمص[1] .

مصر والمغرب :

وسجون مصر متعددة مشهورة في كتب المؤرخين ، ولم يذكر منها غير السجون المتأخرة المنشأ في عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك . وللمقريزي ، الذي فصل الحديث عنها ، قول مجمل فيها : « كان في مدينة مصر[2] . والقاهرة عدة سجون ، وهي : حبس المعونة بمصر ، وحبس الصيار بمصر ، وخزانة البنود بالقاهرة وحبس المعونة بالقاهرة ، وخزانة شمائل ، وحبس الديلم ، وحبس الرحبة والجب بقلعة الجبل»[3] . وكانت هذه السجون يعقب بعضها بعضاً : يتهدم أحدها فيبتني الآخر .

ودخل هذه السجون الأخيرة شعراء مقتدرون ، فحبس الشاعر أبو الحسن علي التهامي في خزانة البنود ، وفيها اغتيل في مطلع القرن الخامس الهجري[4] . وآخرون من رجال الدولة ، وكانوا كتاباً وشعراء ، أرسلوا بأشعارهم إلى الملوك يسألونهم التفريج والإطلاق[5] .

= نكبهم ، وفيه قضوا نحبهم . انظر : وفيات الأعيان : ٢٧٢/٥ ومعجم الأدباء : ٢٧٥/٧ » .

(١) انظر : ديوان المتنبي : ٣٤١/١ و ٢٨٠/٢ . شرح العكبري . القاهرة ١٩٣٦ ويتيمة الدهر : ١١٢/١ .

(٢) مصر هي الفسطاط .

(٣) الخطط : ٢ / ١٨٧ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان (٣/ ٦٠ ـ ٦٢) وقال التهامي وهو حبيس بها :

مستوطناً دار البنود وقلبه ... للرعب يخفق مثل خفق بنودها

معجم البلدان : دار البنود .

(٥) مثل القاضي المهذب الحسن بن علي الكاتب الشاعر (توفي ٥٦١هـ) وقال فيها : =

ولا تختلف أحوال السجون في البلاد المشرقية والمغربية والأندلس عما ذكر ، لتشابه الظروف والدواعي ، ولكثرة الممالك والملوك والمؤامرات والحروب . وكانت سجون قرطبة وإشبيليه وغيرها لا تقل عن سجون بغداد استزارة للشعراء الذين أسهموا في الحياة السياسية أو عاشوا في أبهاء القصور[1] .

السجون الجوفية :

وأبسط نماذج السجون الجوفية وأقدمها الحُفَر في الأرض المسماة بالآبار . وليس لها من التسمية إلا الشبه في الشكل . ولكن التسمية تشير إلى أصول الأشياء إذ من الاحتمال بمكان أن مجتمعات البادية والقرى البسيطة استخدمت آبار المياه لمقاصصة المخالفين عن أعرافها والجناة فيها[2] . ولعلها أفردت لهذا الغرض حفراً خاصة سميت بالاسم نفسه . وكانت هذه الحبوس أحفظ للسجين من الهرب ، وأشد في الردع لما فيها من أذى الحر والبرد والظلام والعزلة . واستفاد الملوك الأقدمون في الحضارات الأولى من هذا التصميم وطوروه تطويراً يوازي ما هم فيه من القوة والبطش وحب الارهاب ، وما هم عليه من القدرة العمرانية . فكانت حبوسهم تحت الأرض تفوق في ضخامتها وسعتها ما تستحدثه الأمم المتأخرة[3] .

= أيا صاحبي سجن الخزانة خليا   نسيم الصبا ترسل إلى كبدي نفحا

معجم الأدباء : ٣ / ١٦١

(١) وما أكثر هؤلاء الشعراء ، ولنا لكثير منهم ذكر ، ومن مشاهيرهم ابن زيدون وأبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد والمعتمد نفسه . انظر نفح الطيب : (١٠٨/٧) .

(٢) عندما أراد أبناء يعقوب ـ عليه السلام التخلص من أخيهم يوسف ـ عليه السلام ـ ألقوه في جب فيه ماء . أنظر سورة يوسف : ١٩ .

(٣) قال عبد الحي الادريسي الكتاني : « أما استشكال السجن في الآبار . فإن المراد بها السرائب والمطامير المتخذة تحت الأرض . وقد تكون من الاتساع بحيث تحمل المئين من الناس ولا سيما مصانع ملوك الأمم السالفة . فإنها كانت على قدر قواهم التي لا نسبة =

وحبس العرب في الآبار قبل الإسلام وفي صدره[1]. ولم يهملوا شأنها بعد بناء السجون ، وسموها بالمطامير[2] . ويستفاد من بعض الأشعار أنها كانت تتخذ داخل الحبوس السطحية . فالفرزدق عندما سجن في مخيس الكوفة وضع في مطمورة[3] . وعول عليها بعض الخلفاء لسهولة اتخاذها في الحل والترحال[4] ، ووشك أثرها في التأديب والنكال[5] ورفع على بعضها قبة تشبيها بالقبور[6] . وذكر أن المعتصم بنى على غرارها في القصر سجناً رهيباً لا يقوى

= بينها وبين من جاء بعدهم . وتسمية ذلك بالآبار للشبه الصوري بالكوى تحت الأرض مع ضيق أبوابها ومداخلها وقد تكون مع هذا متعددة متكثرة على قدر الحاجة » . التراتيب الإدارية : ١/٢٩٩ .

(١) انظر الفصل الأول (ص ٣٢) .

(٢) واحدتها مطمورة وهي حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هيء ، يطمر فيها الطعام والمال أي يخبأ . وقد طمرتها أي ملأتها . والمطامير : حفرة تحفر في الأرض توسع أسافلها ، تخبأ فيها الحبوب . اللسان : طمر .

(٣) حبسه أمير العراق خالد بن عبد الله القسري ، فالتجأ إلى أخيه أسد ، فمدحه ، وقال :

تداركني من هوة كان قعرها ... ثمانين باعاً للطويل العشنق
إذا ما ترامت بامرىء مشرفاتها ... إلى قعرها لم يدر من أين يرتقي

(الديوان : ٢/٥٢) وثمانون باعاً قرابة أربعين متراً . وأرقام الشعراء ينظر إليها بتحفظ .

(٤) قال أبو الفرج في حبس أبي العتاهية وإبراهيم الموصلي : « فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفيرة واسعة ، وقطع بينهما بحائط » الأغاني : ٣/١٥٧ .

(٥) ذكر التنوخي أنه « لما حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون ـ وكان شاعراً طلب الخلافة ـ لم يشك هو وغيره أنه مقتول ، فأطال حبسه في مطمورة بأسوأ حال وأقبحها الفرج بعد الشدة : ٢٥٤ .

(٦) قال ابن خلكان : « قال عبد الله بن يعقوب بن داود : أخبرني أبي (أي يعقوب وزير المهدي) أن المهدي حبسه في بئر وبنى عليه قبة ، فمكث فيه خمس عشرة سنة » . الوفيات : ٦/٢٤ .

على المكوث فيه ذو روح ، فهبط به إلى غور بعيد ، وبنى عليه منارة ترتفع للرائين ويصار إلى جوفة بمدرج حلزوني[1] . وشاعت المطامير في الممالك . وأحدث المماليك في مصر حبساً ضخماً على نمطها كان يدعى بالجب قد شحن بالضر والأهوال شحناً[2] .

وأهول السجون الجوفية ما عرف باسم « المطبق » . ويرجع تاريخه إلى بناء بغداد واشتق اسمه من مطامير الفرس . ويوحي اسمه بصفته ، فكان يطبق على من فيه أطباق القبور على الأحياء[3] . فلا يرى من فيه ضوء النهار إلا إذا خرجوا إلى مستراحات[4] . وليس هذا النوع بأول سجن مظلم . وديماس الحجاج الذي بناه في واسط كان مشهوراً بظلمته . ولكن لا دليل على أنه كان منقوباً في الأرض[5] .

---

(١) قال التنوخي : « حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس في بستان موسى (موسى الهادي ابن المهدي) كان القيّم به مسروراً مولى الرشيد ، قال : وكنت أرى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها ، فخبرني من دخله أنه كان كالبئر العظيم ، قد حفرت إلى الماء أو قريب منه ثم فيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج ، قد جعل في مواضع من التدريج مستراحات وفي كل مستراح شبيه بالبيت يجلس فيه رجل واحد كأنه الى مقداره يكون مكبوباً على وجهه ليس يمكنه أن يجلس ولا يمد رجله. « الفرج بعد الشدة : ١٣٧ » .

(٢) كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما ، كثير الوطاويط كريه الرائحة ، يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه » « خطط المقريزي : ٢١٣/٢ » .

(٣) قال محمد بن صالح الحسني في حبس المتوكل :

ألم يحزنك يا زلفاء أني سكنت مساكن الأموات حياً

(مقاتل الطالبيين : ٦٠٩) .

(٤) حكى أبو الفرج عن أبي العتاهية دخول الحرس والجند الحبس نهاراً ومعهم الشموع .

انظر « الأغاني : ١٦٦/٣ » .

(٥) تحصل الظلمة في البناء ولو كان سطحياً ، وتدل بعض الأخبار أن تمييز الأوقات كان ممكناً في ديماس الحجاج جاء في«الفرج بعد الشدة : ١٧ » : « عن عبد الرحمن الطاسي :=

وكان في بغداد غير مطبق واحد ـ على الأرجح [1] ـ إذ كان اسما لكل سجن تحت الأرض في بغداد أو غيرها[2] . وسمي بالمطبق كثير من السجون في عواصم العالم الإسلامي . واستعار اسمه الأندلسيون لسجونهم كما استعاروا لمدنهم أسماء مدن المشرق[3] .

ودخل المطبق كبار الشعراء في القرن الثاني وكان له في أشعارهم ذكر[4] .

مراتب السجون :

وكانت السجون قبل العباسيين تجمع الناس على اختلاف منازلهم

= أنبأنا أبا سعيد البقال ، قال : كنت محبوساً في ديماس الحجاج ، ومعنا إبراهيم التيمي قال : والله أنا لنتحدث عند مغيب الشمس . . . » .

(١) بنا المهدي الرصافة على جانب الفرات الشرقي تكملة لبغداد ، فبنى فيها سجناً . روى أبو الفرج أن الشعراء زمن المهدي كانوا « يجلسون بالليل من سجن الرصافة ينشدون ويتحدثون» . « الأغاني : ٣٨/٣ » .

(٢) اتفق المؤرخون على أن المنصور حبس عبد الله بن الحسن بن الحسن في الهاشمية وهي بالكوفة وسمي محبسهم مطبقاً . روى أبو الفرج في «مقاتل الطالبيين» : ١٩٢ » عن عبد الله بن الحسن قوله : حبسنا في المطبق ، فما كنا نعرف أوقات الصلاة إلا بأجزاء يقرؤ ها علي بن الحسن » .

(٣) كان ثمة مطبق بمدينة الزهراء سجن فيه المنصور بن أبي عامر كثيراً من الشعراء . قال المقري : « سجن المنصور بن أبي عامر المصحفي في المطبق بالزهراء » . نفح الطيب : ١٣١/٢ .

(٤) قال أبو العتاهية يخاطب سلم الخاسر في صديقهما إبراهيم الموصلي الذي حبسه الرشيد

سلم يا سلم ليس دونك ستر   حبس الموصلي فالعيش مر
ما استطاب اللذات مذ سكن المطبـ   ـق رأس اللذات في الناس حر

الأغاني : ٩/٥ .

الاجتماعية[1] وفي العصر العباسي عظم التوافد على المدن الكبرى ، وعظم خطر الغوغاء[2] . ورافق ذلك بعض مظاهر الانحلال الخلقي ، وكثرت الجرائم . فخصت الدولة المجرمين بمحبس لهم عرف بسجن الجرائم . كانوا يفردونه للذين امتهنوا جريمة قتل أو سلب . فإذا أرادوا ترويع أحد من غير طبقة المجرمين أو إهانته ساقوه إليه[3] . وكان للذين جاهروا بالمعاصي والمحرمات ، والمارقين من الدين سجن خاص عرف بسجن الزنادقة . وفصل بينهم وبين المحبوسين من غيرهم خوفاً من أثرهم أو تشهيراً بهم . وقد يلقى فيه السياسيون ، لإثارة الشكوك في عقيدتهم[4] . وليس في الأخبار ما يشير إلى حبس خاص بالولاة والأمراء .

ولعل المعتصم نقب في عمق الأرض سجناً ورفع فوقه منارة ، وحبس فيه الثوار على الحكم[5] .

---

(١) قال السمهري اللص يصف موضعه في سجن المدينة :

بمنزلة أما اللئيم فشامت بها ، وكرام الناس باد شحوبها

(الأشباه والنظائر : ٢/١٣٢) الرابع من سبعة .

(٢) انتهزت العامة بعض فترات الاضطراب والفوضى فباشرت كثيراً من التخريب .

انظر على سبيل المثال (الفرج بعد الشدة : ٢٣٠) واستغلت طبقة الزنج في ثورتهم المشهورة بالبصرةوعاثوا فيها فساداً . انظر (التنبيه والاشراف للمسعودي : ٣١٩) .

(٣) روى أبو الفرج عن أبي العتاهية : « لما امتنعت عن قول الشعر وتركته أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم ، فأخرجت من بين يديه إلى الحبس ، فلما أُدْخلته دهشت وذهل عقلي ورأيت منظراً هالني (مقاتل الطالبيين : ٤٢٥) . وفي هذا الخبر دلالة على أن سجن الجرائم كان في الرصافة من بغداد .

(٤) قال الرشيد لمسرور خادمه عندما قتل جعفراً البرمكي ، وعزم على نكب أسرته : « فأمض إلى دار يحيى بن خالد : حتى تقبض عليه ، وتوقره حديداً ، وتحمله الى الحبس في مدينة المنصور المعروف بحبس الزنادقة ، وبالمصير إلى ابنه الفضل ، وأن تحمله إلى حبس الزنادقة » . أنظر إبن خلكان : الوفيات : ١/٣٠١ . وفي هذا الخبر ما يدل على أن سجن الزنادقة كان في الجانب الغربي من بغداد .

(٥) أشير إلى هذا من قبل انظر ص ١١٨ .

وكان مثل هذا التخصيص في غير بغداد وعلى تعاقب القرون . فذكر المقريزي أن الحبس المسمى بخزانة البنود في مصر كان معداً لحبس الأمراء والولاة[١] . أو لمن وجب عليه القتل منهم[٢] . وذلك في القرن الخامس الهجري وكان الأمراء يحبسون في حبس الصيار في القرن السادس[٣] . وفي الجب بقلعة الجبل في القرن السابع[٤] . وكان أرباب الجرائم يسجنون في حبس المعونة ما بين القرن الرابع والسادس[٥] ، ويوضعون في خزانة شمائل إن كان محكوماً عليهم بالموت[٦] . وكانوا يعتقلون في سجن المقشرة في القرن العاشر[٧] .

سجون القلاع :

كانت بعض القلاع أشبه بمدن صغيرة ، تقطنها الرعية ، وفيها جهاز سياسي وإداري كامل . وكان منها في الجاهلية حصن المشقر في البحرين[٨] .

---

(١) الخطط : ٢/١٨٨ .

(٢) ذكر ياقوت (معجم البلدان : دار البنود) أنه « كان يحبس فيها من يراد قتله » وحبس فيها علي بن محمد التهامي الشاعر » . وفي شعر التهامي مصداق ذلك :

مستوطناً دار البنود ، وقلبه ... للرعب يخفق مثل خفق بنودها

دار تخط به المنون سنانها ... فتروح والمهجات جل صيودها

(المصدر نفسه) .

(٣) هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة . « الخطط : ٢ / ١٨٨ .

(٤) « كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء » الخطط : ٢/٢١٣ .

(٥) الخطط : ٢/١٨٨ .

(٦) « خزانة شمائل . . يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطرق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة » . الخطط : ٢/١٨٨ .

(٧) لما هدمت خزانة شمائل عين البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم » الخطط : ٢/١٨٨ .

(٨) انظر : معجم البلدان : المشقر .

ولا نعرف من سجون القلاع في العصور الإسلامية إلا التي ذكرتها أشعار الشعراء الذين حبسوا فيها[1] .

سجون الدور والقصور :

وتوزعت الدولة في بغداد قوى نفوذ عدة في القرن الرابع . فكان لكل من الخليفة ، وأمير الأمراء ، والحجاب ، وقواد الجند سلطانهم وثقلهم ليحترز من خصومه . وكثرت بين هذه القوى المؤامرات والانقلابات . فكان لكل فئة حبوس في حوزتها جعلوها في قصورهم ودورهم[2] . لأن الحبوس العامة لا تتلقى أوامرها ،ومواردها إلا من رئيس الدولة أو وزيره . وكانت سراديب وسجوناً محصنة بالأبواب ، الكثيرة[3] . وكان الحبس فيها يعد أحياناً تخفيفاً وإكراماً[4] ، ولكنه كان الموت المحقق في بعض الأحيان[5] .

---

(١) حبس الشاعر حسام الدين عيسى بن سنجر الأربلي في قلعة « حفيد كان » ثم في قلعة اربل (الوفيات : ٣/٦٩) وقابوس بن وشمكير الديلمي في قلعة بجرجان ، وبهامات (معجم الأدباء : ٦/١٤٤) . ومن هذه القلاع قلعة تكريت (ابن خلكان : ١/١٦٩) .

(٢) جاء في « تحفة الأمراء : ١٣٩ » : « حدث كاتب سفيع اللؤلؤي ، قال : لما قبض على أبي الحسن بن الفرات في الدفعة الثالثة من وزارته ، امتنع القواد من اعتقاله في دار الخلافة ، إشفاقاً أن يراسل المقتدر بالله ويستعطفه ، واستقر الأمر على تسليمه إلى شفيع اللؤلؤي ، فلما حمل إلى داره أفرده شفيع بحبس له » .

(٣) انظر في « الفرج بعد الشدة: ١٣٢» ر خبر حبس الخليفة محمد الأمين لإبراهيم ابن المهدي في سرداب . وفي (ص : ٥١) خبر حبس سليمان بن وهب لما عزل عن الوزارة وراء خمسة أبواب .

(٤) شفع الوزير الفتح بن خاقان عند المتوكل للشاعر محمد بن صالح العلوي ـ وكان في الحبس ـ وقبل الخليفة الشفاعة ، فأمر الفتح بالشاعر « أن يؤخذ إليه ، وأن يكون عنده حتى يقيم الكفلاء على نفسه » . (مقاتل الطالبيين : ٦٠٨) و(الأغاني ١٥/٩٣) .

(٥) قال ياقوت : « حبس أحمد بن طولون يوسف بن إبراهيم في بعض داره وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فكاد ستره أن ينهتك لخوف شمله عليه « معجم الأدباء : ٢/١٥٧ .

وكان ثمة بعض الأديرة القديمة في الصحارى والأماكن البعيدة عن المدن . فلما خلت من أهلها استفادت منها السلطة لتكون مركز قوة من الجند تحفظ الأمن . وكانت تتلقف العصاة متحجزهم فيها ومن الأديرة التي ذكرها السجناء دير بن عامر[1] ودير حزقيال[2] .

أحوال السجون :

كانت الحبوس الكبيرة ولا سيما المتأخرة على حال متناهية في السوء ، والإيذاء ، يلقى فيها كثير من المحبوسين هلاكاً ، لما فيها من الظلام والقذارة والوضع الصحي المتدهور[3] . وكانت الروائح الخبيثة مناخاً ملازماً لها[4] . وترتع فيها الحشرات وهوام الطير[5] . وتورث المرض العضال والموت[6] .

---

(١) حبس عياش الضبي اللص في دير ابن عامر فقال :

ألم ترني بالدير دير ابن عامر ... زللت ، وزلات الرجال كثير
كفى حزناً في الصدر أن عوائدي ... حجبن وأني في الحديد أسير

معجم البلدان : دير ابن عامر .

(٢) روى ياقوت خبر فتى نحت قصة حبه شعراً على أحد أعمدة دير حزقيال وكان فيه حبيساً « معجم البلدان : دير حزقيال » .

(٣) سجن الحجاج الزاهد إبراهيم التيمي ، فأدخل من السجن مكاناً « فيه يأكلون ، وفيه يتغوطون ، وفيه يصلون » . (الفرج بعد الشدة : ١٧) .

(٤) قال المقريزي في حبس المعونة : « وكان حبساً ضيقاً حرجاً يشم من قربه رائحة كريهة » (الخطط : ٢/١٨٨) . وقال في خزانة شمائل : « وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظراً » . وقال في سجن المقشرة : « وهو من أشنع السجون وأضيقها يقاسي فيها المسجونون من الغم والكرب ما لا يوصف ، عافانا الله من جميع بلائه » (المصدر نفسه) .

(٥) ونقل المقريزي ما رآه أحد المعماريين إذ أرسل إلى حبس الجب لاصلاح عمارته ، فقال : « نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمراً مهولاً من الظلام وكثرة الوطاويط ، والروائح الكريهة » الخطط : ٢/١٨٩ .

(٦) أصيب الفضل بن يحيى في حبسه بالرماتيزم وبه مات فيه . قال الجهشياري : توفي من علة نالته من رطوبة في شقه ولسانه ، ثم تزايدت عليه إلى أن مات . الوزراء والكتاب : ٢٦١ . ق السقا . مصر ١٩٣٨ .

قدم الشعر الذي نظم في الحبوس وما حوله من الأخبار الحقائق السابقة عن انتشار السجون وأنواعها وأوضـاعها . وقـد تأثـرت بالعـوامل السيـاسية من الثورات والمؤامرات والحركات الاستقلالية وبالدوافع الاجتماعية وما جـد من اتجاهات في الفكر والأخلاق .

المبحث الثانـي

مجتمــع السجــن

نزلاء السجن طائفة من الناس ، أطبقت عليهم ظروف واحدة في مكـان محـدد ، جعلت تجمعهم ظاهـرة صالحـة لعـزلهـا عمـا حـولهـا ، ولافـرادهـا بالدراسة .

وتمتاز هذه الطائفة بخضوع أفرادهـا جميعاً ـ وإن تفـاوتت مدد سجنهم ـ لمناخ واحد في المعاش والمشاعر والرغبات .

وهذه الجماعـة فئتان : آمرة ومأمـورة . وليس لأحدهمـا أثر في الحيـاة الطليقة ، وراء أسوار الحبوس .

والفئـة الآمرة هم السجـانـون ، يتلقـون الأوامـر من القصـر ، ويتصـرفـون بمقدرات الذين تحت أيديهم : إن شاؤ وا خففوا ، وإن شاؤ وا أثقلوا .

والفئة المأمورة هم ، على الغالب ، عـاجزون عن دفـع الأذى والعذاب عن أنفسهم ، وصلتهم بما حولهم أشبـه بالمنقـطعة ، غيـر أنهم قد يتـاح لهم صلات خارجية ذات نفع أحياناً .

فإذا ذكر مجتمع السجن ، باعتباره ظاهرة اجتماعية انتجت أدباً ، فالمنهج القويم يقضي بتناولها من جوانب ثلاثة :

السجانون ، والسجناء ،والتبادل بينهم وبين المحيط الخارجي .

السجانون :

والأدب - الذي هو موضوع هذا الكتاب - نجم في سجون عاش أهلوها في حكم مسرف في الفردية والارتكاز إلى القوة . فأصابهم في غالب الأحقاب ، إجحاف باهظ .

ومن النافع إبراز خطر الجماعة الموكول إليها أمر السجن ، لما لها من تماس بالسجناء ، وتأثير فيما يقاسون من العدوان والاضطهاد ، إذ كان السجناء عاجزين عن التظلم إلا في ظروف نادرة .

تسمياتهم :

وكان لهؤلاء السجانين تسميات ، فكان يقال لهم : الفيج في الجاهلية . قال عدي بن زيد :

ذاك خير من فيوج على البا ب وقيدين وغل قروص[1]

واللفظ معرب ، جاء إلى العربية من الأمم القوية المجاورة ذات النفوذ على بعض الإمارات والقبائل العربية ، وذكرته قصائد شعراء الحيرة وكان ملوكها عمالاً للأكاسرة[2] . ولا شك أن العرب اقتبسوا اللفظ مع العمل الدال عليه وأصحاب العمل . وتفسير لفظ « الفيج » في المعاجم وكتب اللغة بمعنى « الحرس » هو تفسير عام . والنظر في الشعر يفيد معنى أدق : إنهم الذين يناط بهم أمن السجن في داخله ، والاتصال بالسجناء ، وأما الذين خارج صحن

---

(١) من حبسيات عدي بن زيد : ديوانه : ص ٦٧ . ق ١١ البيت ١٩ .

قال صاحب المحيط : الفيوج الذين يدخلون السجن ويخرجون ويحرسون (فوج) وقال ابن قتيبة : « الفيج : الحرس ، يقال لهم : هم فيج ، وهو فيج : الواحد والجمع سواء » المعاني الكبير : ٨٦٦ .

(٢) « الفيج : معرب بيك » (المحيط فوج) .

الحبس فهم الحرس . قال عدي بن زيد[1] :

أم كيف جزت فيوجاً حولهم حرس ومترصا بابه بالشك صراراً

ولا نجد للفظ « الفيج » بعد عدي ذكراً . وناب عنها في مطلع العصر الأموي ألفاظ دلالتها أعم[2] . فأطلق بعض الشعراء على عمال السجن لفظ أساوير وسبابيج [3] . والكلمتان تدلان على جنسية الحراس الذين اختيروا للحبوس . فكان جلهم من الفرس والسند والأعاجم في البلاد المفتتحة أو في جزيرة العرب[4] . ثم نسخت هذه التسميات وبقي للقائم بأمر السجناء اسم جلواز [5] .

---

(١) من قصيدة له في حبسه يخاطب الطيف : الديوان ص ٥٠ ، ق ٦ ، البيت ٢ ولعل قوله في بيته السابق « فيوج على الباب » ـ باب غرفته ـ يدعم هذا القصد .

(٢) قال يزيد بن مفرغ الحميري ، وكان عبيد الله بن زياد بن أبيه سجنه في البصرة، ثم أرسله مغلولاً إلى أخيه عباد في سجستان ، فزاد في حبسه حتى أمر معاوية باطلاقه :

حي ذا الزور وأنهه أن يعودا إن بالباب حارسين قعودا
من أساوير لا ينون قياماً وخلا خيل تسهر المولودا
وطماطيم من سبابيج غتم يلبسوني مع الصباح القيودا

(ديوان يزيد بن مفرغ الحميري : ص ١٣٧ ق ١٥ الأبيات ١ ـ ٣) والزور : الخيال ، والطماطيم : الأعاجم ، في لسانهم طمطمه أي عجمة لا يفهمون .

(٣) واحد الأساوير : أسوار « بالضم والكسر ، قائد الفرس ، والجيد الرمي بالسهام ، والثابت على ظهر الفرس» (المحيط سور) وفي (اللسان والصحاح) : السبابيج قوم من السند ، كانوا في البصرة جلاوزة وحراس سجن » .

(٤) قال القتال الكلابي وهو مسجون في المدينة :

إذا شئت غنتني القيود وساقني إلى السجن أعلاج الأمير الطماطم

انظر : الأغاني ١٥٩/٢٠ .

(٥) في المحيط : « الجلواز : الشرطي جمع جلاوزة » . وتدل الأخبار أن الجلاوزة اسم يختص بالشرط المكلفين بحراسة السجون ، كما تشهد جملة من الأخبار أن لفظ « جلواز » درج قروناً كثيرة . انظر في «معجم الأدباء : ٢١٥/٦ » خبراً عن كيسان بن المعرف النحوي =

أصلـــهم :

وكان للأعـاجم طوائف كبيـرة في الجزيـرة قبل الإسـلام ، تتجمع على السواحل القريبة من فارس والهند[1] . وانتقلت جموع منهم إلى المدن الجديدة التي اختـطت في الإسلام كـالبصرة ، فـوظف العرب في حبـوسهم منهم ومن الأعاجم الجدد .

وكثيراً ما كان يقع الاختيار عليهم من العبيد ، ومن أهل الدعارة ، وممن كان في أخلاقهم كثير من الوحشية ، قد احترفوا الجـريمة ، ولـم يكن للمنكـر عندهم معنى[2] حتى صار منهم أفـراد متخصصون بفنون العذاب في الحبوس أو في أي مكان ، يستدعون إليه لإجراء التعذيب[3] وكـان الإغراق في الـظلم والبطش ، على مدى السنين ، يزيد في تحولهم إلى الو حشية المنكرة ، حتى إن أحد الوزراء في القرن الرابع طلب « معذباً » فاشترط أن يكون خلوا من كل وازع خلقي وروحي[4] .

= في القرن الثاني الهجري . وخبراً عن التشهير بأحمد بن علي بن إبراهيم الغساني النحوي . (معجم الأدباء : ٤١٩/١ . مرجليوث) .

(١) ذكر صاحب الأغاني (٤٥/١٤) خبر المرتد عبد الله بن حذف : لم يزل كافراً حتى نزل القطيف وهجر ، واستغوى من كان بهما من الزط والسبابجة .

(٢) يكشف الخبر التالي في تاريخ الطبري (٨٩/١١) نوعية عمال السجن ، قال « ورد رأس يحيـى بن عمر دار محمد بن عبد الله بن طاهـر ، وقد تغيـر ، فطلبـوا من يقور ذلـك اللحم . . . وهرب الجزارون ، وطلب من في السجن من الخرمية الـذباحين ، من يفعـل ذلـك ، فلم يقدم عليـه إلا رجل من عمـال السجن الجديـد ،يقال لـه: سهل بن صفدي » . والخرمية أتباع بابك الخرمي حاربه المأمون والمعتصم اثنتين وعشرين سنة ، وربمـا كانـوا أسرى من فلول بابك ثم عملوا في السجن . انظر (التنبيه والاشراف ٣٠٥) للمسعودي .

(٣) عهد المحسن بن أبي الحسن بن الفرات بابن الحواري إلى « المستخرج الحبشي » وإلى غلمان سود. . خنقوه . أنظر الخبر في « تحفة الأمراء في أخبار الوزراء : ٤٧ » لهلال الصابي .

(٤) وفي المصدر نفسه (ص ١٣٧) غريبة من غـرائب أبي الحسن بن الفرات : كـان =

ومثل هؤلاء طبقة موطوئة حاقدة ، معقدة ، مبتورة اجتماعياً ، لا تربطها بالعصبيات والنزعات المحلية رابطة . وإذا وضعت في مركز قوة غلبت عليها مركبات النقص والأحقاد المكبوتة ، فكانت شراً كبيراً . واعتمد عليها السلطان لانصياعها التام له ـ إذ لا تعرف لها سيداً غيره ـ ولضمان إنفاذ أغراضه ، من غير تلكؤ ، وفق هواه .

وصار السجان ـ في أغلب الأحيان ـ حاكماً بأمره داخل الحبس ، إن شاء أن يتجافى عن عذاب من فيه فعل ، وإن شاء الإرهاق أو القتل قدر ، وأمره خاف مستور عليه[1] . فكان بلاء السجناء به عظيماً وربما بلغ الحقد ببعضهم أن قتل سجانه[2] .

ولا شك أن طبيعة الحبس كانت أيضاً تفرض عليهم هذا الخلق ، وتلك السيرة ، فلا مكان فيه لشعور كريم أو إحسان ، فالسلطان من فوقهم ، وما عليهم إلا تنفيذ الأوامر وتجاهل الرحمة[3] .

= في وزارته الأولى ـ « وهو جالس يعمل ، إذ رفع رأسه ، وترك العمل من يده ، وقال : أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، يطيعني حق الطاعة ، فأنفذه في مهم لي ، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحسنت إليه إحساناً يظهر عليه ، واغنيته . فأمسك من حضر ، ووثب رجل . . . فقال : أنا لها أيها الوزير. قال وتفعل ، قال : افعل وازيد » .

(١) ساق ابن خلكان في ترجمة يوسف بن عمر الثقفي ـ والي العراق ـ خبراً عن قتل السجان رجلاً وجيهاً ، فقال : « قال يونس النحوي : ما قتل بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري إلا دهاؤه : سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى ، فقال يوسف : اعرض الميت علي ، فغمه حتى مات ، وعرضه عليه ميتاً » . (الوفيات : ٦/ ١٤٤) .

(٢) كان سجان المدينة يعنف بالشاعر القتال الكلابي ، ويثير حفيظته ، فتربص به وقتله وهرب من السجن . أنظر الخالديين : الأشباه والنظائر : ٢/ ١٣٤ .

(٣) كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحين إلى أبي مسلم الخراساني وكان حبسه عنده في خراسان : « . . . فإن علينا من سهك الحديد . . . أذى شديداً مع معالجة الأغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة ، وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ، وزيارتهم الحراسة ، وبشارتهم =

واسترذل العرب هذه المهنة في القرون الأولى ، فكانت عندهم أجدر بالعبيد ، وكانو أحياناً ينظرون هذه النظرة المتضعة إلى صاحب الشرطة وهو يتتبع الناس ويمسك بهم في الحبس [1] .

أعمالهم :

وأكثر ما يعمله السجانون هو الحراسة ، ووضع الحديد على السجناء ورفعه عنهم ، والتعذيب ، وخدمة المرافق العامة في الحبس .

وكانت الحراسة داخلية وخارجية ، وفي الداخل كان بعض الحرس يراقبون المحبوسين ليل نهار، ولا سيما إذا كانوا من أولي الأخطار . وربما قاموا بالحراسة مثنى مثنى أو ثلاث ثلاث .

وكانت الحدادة مصلحة دائمة في السجن إذ كان السجناء في الأقياد دائماً ، يثقل عليهم نهاراً ، ويخفف ليلاً . ويقرن أحياناً بعضهم إلى بعض . وقد يصيبهم النحول ، فتحتاج أقيادهم إلى تضييق ، فكان الحدادون من جملة العمال والحراس [3] .

= الإياسة » . البيان والتبيين : ٢/٥٨ .

(١) كان الفرزدق يهجو كل رئيس شرطة حبسه أو أراد حبسه ، ويصفه بالعبد . فلما حبسه أيوب بن عيسى الضبّي قال :

فلو كنت قيسياً إذاً ما حبستني ولكنّ زنجياً غليظاً مشافره
فسوف يرى النوبي ما اجترحت له يداه إذا ما الشعر غنت نوافره

(الأغاني : ١٩/٢٣) .

(٢) ذكر يزيد بن مفرغ الحميري : أن حارسين على بابه (الشعر في ص ١٢٧ حاشية ٢) . وقال جعفر بن علبة الحارثي .

وقل لأبي عون إذا ما لقيته ومن دونه عرض الفلاة يحول
تعلم ، وعد الشك أني يشفني ثلاثة أحراس معاً وكبول

(٣) جاء بنو الحسن في المدينة إلى دار الإمارة ، وكان السجن ـ دار مروان ـ بجوارها ، فقيل : « من كان ههنا من بني الحسن فليدخل ، فدخلوا من باب المقصورة ، ودخل الحدادون من باب مروان ، فدعي بالقيود » (مقاتل الطالبين : ٢١٨) .

ولا بد أن يخصص بعض عمال السجن لجلب الأرزاق ، وذبح الأنعام ، وإعداد الطعام لمن فيه(١) .

إدارة السجن :

وكان يقيم أمر السجن رجل لا يبارحه يدعى صاحب السجن أو راعيه(٢) . وهو المرجع لمن فيه من سجانين وسجناء ، وكان يخضع للخليفة أو الوالي ، ولا يأتمر بأمر غيرهما . وقد يخضع ـ بالإضافة إلى ذلك ـ إلى صاحب الشرطة كما تفيد بعض الأخبار(٣) .

ولعل هذا الترتيب الثلاثي في التسلسل الإداري ، من الوالي ، فالمسؤول عن الأمن ، فصاحب الحبس هو النظام الأعم(٤) .

ونجد بالإضافة إلى هذا التنظيم ، وظيفة أخرى تقابل نظام التفتيش في الإدارة العصرية ، إذ يعهد الخليفة إلى رجل من خاصته المقربين ، فيدخل السجون ، ويستفسر نزلاءها عن أحوالهم ، ويستمع إلى شكاياتهم ، وينقل مشاهداته إلى الخليفة(٥) .

---

(١) تقدمت إشارة إلى ذلك في (ص ١٢٦ ح ١) .

(٢) قال ابن الدمينة :

فقلت لراعي السجن والسجن جامع   قبائل من شتى ، وشتى ذنوبها

ديوان ابن الدمينة ص ١٧ ، ت راتب النفاخ . دمشق ١٩٥٩ .

(٣) انظر معجم الأدباء ٤/١٩٠ . مرجليوث

(٤) أشار إلى ذلك جعفر بن علبة الحارثي وكان حبيساً في سجن دوران :

ويصبر فيه ذو الشجاعة والندى   على الذل للمأمور والعلج والوالي

والمأمور هو المكلف بالأمن في تلك الناحية ، والعطف بالواو لا يقتضي الترتيب . (الأغاني : ١١/١٤١) .

(٥) قال الجهشياري : « كان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعهدهم » (الوزراء والكتاب : ٢٩٦) . وقال التنوخي : « حدثني أبو علي ، الوكيل على أبواب القضاة ببغداد ، قال : « كنت أقيم خبر المحبوسين في المطبق بمدينة السلام في أيام المقتدر بالله » . (الفرج بعد الشدة : ١٣٠) .

وكانت السجون لا تفتح أبوابها ـ لذي نفوذ ـ إلا بأمر الخليفة في العاصمة ، أو بأمر الوالي في الولايات . وقد يرسل الخليفة رسولاً بعهد خاص لأي ولاية ، فيدخل سجنها . ويخرج من شاء اخراجه دون مراجعة الوالي (١) .

موارد الحبس :

كانت الدولة تنفق على الحبس : عماله ونزلائه ، باعتباره مؤسسة من مؤسساتها . نقل الكتاني عن أبي يوسف في كتاب الخراج : « لم تزل الخلفاء تجري على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وإدامهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب بالعراق ، ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده (٢) » ، ثم صار للنفقة على السجون مادة خاصة في بيان الوزارة المالي (٣) .

وكانت موارد السجن المادية في قوة الخلافة ، واعتدال الأسعار لا تخل بأقوات المحبوسين ، ولا تجعل مرتب السجان دون معدل المعاش ، ثم اضطربت الأمور في بغداد وغيرها ، وارتفعت الأسعار ، وانتشر الاختلاس فصار المبلغ المرصود لا يفي بالغذاء الأساسي . وضعف مرتبات عمال الحبس (٤) دفعهم الى السطو على أرزاق السجناء وابتزاز من هم تحت أيديهم من مال او

---

(١) « وجه معاوية رجلاً من بني أسد ، يقال له خمخام ، بريداً الى عباد ، وكتب له عهداً ، وأمره بأن يبدأ بالحبس ، فيخرج يزيد بن المفرغ منه ، ويطلقه قبل ان يعلم عباد فيم قدم ، فيغتاله ، ففعل الرجل ذلك « الأغاني : ١٧/٦٠ » .

(٢) التراتيب الادارية : ١/٣٠٠ . وانظر ترجمة عمر بن عبد العزيز في (طبقات ابن سعد) .

(٣) في موازنة الوزير ابن الفرات أيام المعتضد الفقرة التالية : « نفقات السجون وثمن أقوات المحبسين ومائهم وسائر مؤنهم في جملة ألف دينار وخمسمائة دينار في الشهر ، خمسين ديناراً » ـ أي في اليوم ـ (تحفة الأمراء : ٢٦) .

(٤) انظر موازنة الدولة المالية في بغداد في بيان الوزير ابن الفرات ، وقارن دخل أصحاب السجن بغيرهم من الفهادين والكلابين والصقارين ، في « تحفة الأمراء : ٢٤) .

بلغة مدخرة . وكان السجانون لا يدعون سبباً للفوائد المادية يفوتهم ، فيأخذون الرشوى من المحبوسين او من ذويهم ومعارفهم . فلا يمتنع السجان عندئذ من تيسير كل ما منع السلطان منه ، في دراية وتستر ، فيأذن بالزيارة ، وبإدخال الطعام والهدايا ، وربما فسح له بالتعرض للهواء والشمس (١) ، او بالاختلاف الى داره سراً (٢) .

وعاش نزلاء الحبوس البؤس والإدقاع قروناً طويلة ، وتسلط عليهم الحراس زبانية يجردونهم من كل ما في أيديهم ، وبلغ بهم السوء في مصر زمن المماليك مبلغاً لا يدخل في ظن : إذ صار السجن ضماناً يدفع صاحب السجن مالاً للوالي ليوليه أمر الحبس (٣) فجعل منه السجان مزرعة لا يترك وسيلة للابتزاز الا اتخذها . ومن الخير ترك الحديث لأحد المؤرخين الذي هاله ما رأى من هدر إنسانية الإنسان ، ولم يفسح له الظرف السياسي بالوصف الصريح المفصل ، فأورد الحديث مقتضباً على جانب من الاحتراس والمداراة قال : « أما سجون الولاة فلا يوصف ما يحل بأهلها من البلاء . واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان في الحديد حتى يشحذوا ، وهم يصرخون في الطرقات : الجوع ، فما تصدق به عليهم لا ينالهم منه الا ما يدخل بطونهم ، وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالي ، ومن لم يرضهم بالغوا في عقوبته . وهم مع ذلك يستعملون في الحفر والعمائر ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، والأعوان تستحثهم فإذا انقضى عملهم ردوا الى السجن في

---

(١) انظر خبر الشاعر محمد بن صالح العلوي مع المرأة التي كانت تبره بطريق السجان (مقاتل الطالبيين : ٦٠١) وانظر حادثة مماثلة في « معجم الأدباء : ٢٤٦/٦ مرجيليوت) .

(٢) في « الأغاني : ١١/٧ » ان الشاعر يزيد بن الطشرية ، وكان حبيساً في نجد ، « جعل للحداد على أن يرسله ليلة الى ابنة عمه ، جعلا فشكا اليه وجده بها ، فأرسله » .

(٣) قال المقريزي في وصفه للحبس المعروف بخزانة شمائل : « وكان السجان بها يوظف عليه والي القاهرة شيئاً يحمله من المال له كل يوم ، وبلغ ذلك في أيام الناصر فرج مبلغاً كبيراً » . الخطط : ١٨٨/٢ .

حديدهم من غير ان يطمعوا شيئاً ، الى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا . . »[1] .

ان ما مضى من حديث يشهد ان السجان لم يكن شيئاً غير مذكور في حياة السجناء .

السجناء :

لم يكد ينتصف القرن الأول الهجري حتى كانت السجون تستقبل أعداداً ضخمة ، ولو كان هؤلاء من الجناة وحدهم أو السفلة والرعاع لكانت العناية بهم غير ذات جدارة بدراسة أدبية مستفيضة . ولكن الحبوس فتحت أبوابها لرجال كثيرين كانوا ذوي أخطار ، وفي ميادين شتى من الحياة السياسية والأدبية والدينية والفكرية ، وليس من الغلو أن يقال : إن خصائص عصر أو عصور وسماتها يمكّن تقرّيها بعرض الشخصيات الوافدة على السجن . فيكشف العرض عن بنية المجتمع وتركيبه ، وعن التنافس على السلطان ، وعن أشكال التسلط ، وعن النكبات ، وعن أخلاق الناس : ملوكهم وخاصتهم وعامتهم ، وعن تيارات الفكر وألوان العقائد ، وما كان بينها من صور الصراع ، وما نجم من مرير العواقب .

الخلفاء والملوك :

فذاق السجن كثير من الطامحين الى الخلافة كالشاعرين ابراهيم بن المهدي وعبد الله بن المعتز[2] . وحط عن عروشهم ملوك قضوا حياتهم في السجون كالمعتمد بن عباد[3] .

---

(١) المقريزي : الخطط : ٢/١٨٧ .

(٢) انظر الحديث المفصل عن الشاعرين وسجنهما في الفصل الخاص بذلك : دواعي السجن .

(٣) كانت وفاة المعتمد بأغمات ـ في المغرب ـ سنة ٤٨٨ هـ . وانظر ترجمته وحديثه في ص ٥٦ .

المعارضون :

وملئت الحبوس بالمعارضين السياسيين [١] ، وبالذين يتمتعون بتأييد شعبي ، ولو كانوا قرابة رسول الله ﷺ ، وأخذ أنصارهم كل مأخذ حتى تحامى الناس موالاتهم او التعاطف العلني معهم [٢] . وماتوا في المعتقلات في ظروف يكتنفها الغموض [٣] .

الأشراف والقادة :

وكذلك الأشراف ولو كانوا أمسّ الناس صلة بالخلفاء ، وأحفاد الصحابة الأولين ممن كان لهم قدم صدق في الفتوحات ، ورؤساء قبائل كانوا مساعر حروب وفي قومهم مطاعين . فكان من الحكام من لا يقيم للاعتبارات المعنوية شأناً ، ولا يسوس إلا بوحي مصلحته ، فلم يحفظ علية القوم وجاهتهم ، ولا

---

(١) بدأت الشكوى مبكرة في زمن عثمان رضي الله عنه ، واستنكر الظلم منذ خلافة معاوية ، وتتبع ولاته المتذمرين والمعارضين ، وأخرجوهم عن أمصارهم ، ونفوهم الى عاصمة الملك دمشق ، إبعاداً لهم عن مواطن نفوذهم . فسجن معاوية منهم وقتل . انظر خبر المسيرين من قراء الكوفة ورؤساء قبائلها الى معاوية في « أنساب الأشراف : ٤٣/٥ » ، وخبر اعتقال زياد بن ابيه للجريء الورع حجر بن عدي ، وحمله الى معاوية ، وقتله له، في « الروض الآنف : ١٧١/٢ » .

(٢) وخير ما يصور الحال التي صار اليها المعارضون ، من السادة الأشراف ، قصيدة لابراهيم بن عبد الملك بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، قالها لما حمل أبوه وأهله ، وحبسوا في سجن أبي جعفر المنصور ، منها :

نفسي فدت شيبة هناك وظنبو ... باً به من قيودهم ندب
والسادة الغر من ذويه ، فما ... روقب فيهم آل ولا حسب
أصبح آل الرسول أحمد في الـ ... ـناس كذي عرة به جرب

مقاتل الطالبين : ٢٨٨ .

(٣) روى أبو الفرج الأصفهاني أن :« يعقوب واسحاق ومحمداً وإبراهيم بني الحسن قتلوا في الحبس بضروب من القتل ، وإن ابراهيم بن الحسن دفن حياً ، وطرح على عبد الله بن الحسن بيت ، رضوان الله عليهم » ، مقاتل الطالبيين : ٢٢٨ .

الأبطال مآثرهم ، ونالهم في الحبوس من الهوان ما لا ينال غيرهم من السوقة . فحبس والي مكة ، في خلافة هشام بن عبد الملك ، الشاعر العرجي ، وهو أموي يمت للأسرة الحاكمة بقرابة ماسة [1] .

وسجن في دمشق حفيد للقائد المظفر خالد بن الوليد [2] . وحمل محمد بن القاسم فاتح المشرق من الهند الى حبس واسط بالعراق [3] . ولم تستطع قوة القبائل وصلاتها بالحكام ان تنقذ أحياناً ـ ساداتها من السجن والقتل [4] .

الأمراء والولاة :

وكذلك الأمراء والوزراء سقطوا عن مناصبهم بالسعايات والمكائد ، وملئت كتب التاريخ والأدب على مدى القرون بأخبار نكباتهم وسجنهم ، حتى صار أمراً مألوفاً أن ينزل أحدهم القصر يوماً والحبس يوماً [5] . وفي أشعار

(١) العرجي هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ولقب بالعرجي نسبة الى العرج ، موضع قبل الطائف ، كان ينزل فيه فتى أموي شاعر غزل كريم ، حمي الأنف ، خاصم والي مكة محمد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك ، وهجاه فتطلب عليه العلل حتى حبسه تسع سنين ، ومات في حبسه ، انظر : « الأغاني : ١٥٥/١ » و « الشعر والشعراء : ٤٧٨/٢ » .

(٢) هو خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد . انظر حبس عبد الله بن الزبير له بمكة وضربه إياه ، وشعر خالد في ذلك ، وغضب بني مخزوم ، في أنساب الأشراف : ٢٠٢/٥ .

(٣) عزله سليمان بن عبد الملك عن السند ، وولى يزيد بن ابي كبشة السكسكي مكانة ، فحمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن الملهب ، الى والي العراق صالح بن عبد الرحمن ، فحبسه وعذبه في رجال من أسرته حتى قتلهم . انظر الخبر وشعر محمد بن القاسم في « فتوح البلدان : ٦١٨ » للبلاذري .

(٤) انظر في أسرى زعماء العشائر ص ١٦٢ .

(٥) « قيل ليزيد بن الملهب : لم لا تتخذ لك داراً ، فقال وما أصنع بها ، ولي دار حاصلة مجهزة على الدوام ، فقيل له : وأين هي فقال : إن كنت الوالي فدار الامارة ، وان =

هؤلاء معان موجزة مؤثرة تصف فرق ما بين الحالين من الرئاسة والذلة [1] .

الفقهاء والعلماء :

وسيق الفقهاء والقضاة والمحدثون الى السجون على ما كان لهم من منزلة عند الناس ، وعلى مالهم من المؤيدين والأنصار . ولم يمض على الخلافة كبير وقت حتى قتل معاوية حجر بن عدي ، وقتل الحجاج سعيد بن جبير [2] ، وكان كلاهما مناهضاً للظلم ، ولم ينج كبار الأئمة من محن الحبس ، فاجترأ عليهم الولاة قبل الخلفاء : فضرب إمام المدينة مالك بن أنس [3] . وفي بغداد

= كنت معزولا فالسجن » (ابن خلكان : ٥/٣٣٧) وللبحتري إشارة طريفة لهذا المعنى في شعر واسى به ممدوحاً سجيناً)

أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك

أقام جميل الصبر في السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل الى الملك

(ديوان البحتري : ٢/٧٣٥ ، بيروت ١٩١١) .

(١) وترجم المعتمد بن عباد عن هذا الشعور في بيتين حكى فيهما شكوى زوجه الرميكية في الحبس :

قالت : لقد هُنّا هنا ... مولاي أين جاهنا

قلت لها : الى هنا ... صيرنا الهنا

(ديوان المعتمد : ص ١٤٤) .

(٢) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي ، كان فقيهاً عابداً ورعاً ، قرظه ابن عباس (رضي الله عنه) انضم الى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث مع القراء لما رأى مظالم الحجاج ، وقبض عليه بعد هزيمة ابن الأشعث وقتله صبرا سنة ٩٥ هـ ، وكان لقتله أسوأ الأثر في نفوس العلماء والعامة ثم مات بعده بأيام . انظر (المعارف : ١٩٧) قال الجاحظ : « أتى به الحجاج وفي عنقه زماره » البيان والتبيين : ٣/٦٣ .

(٣) ابو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي « سعي به الى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، رضي الله عنهما ، وهو عم أبي جعفر المنصور ، وقالوا له : انه لا يرى ايمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ، ودعا به وجرده ، وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى خلعت كتفه ، وارتكب منه أمراً عظيماً . فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك السياط حلياً حلي به » ابن خلكان : ٣/٢٨٤ .

أحمد بن حنبل [١] ، ومات أبو حنيفة ، إمام أهل الرأي ، في سجن الخليفة المنصور [٢] ، وقضى المحدث القاضي بكار بن قتيبة ، في سجن ابن طولون بمصر ، سنين طوالا ، قبل أن يختم حياته فيه [٣] . وسيق ابن تيمية الى الحبس مراراً ، ثم استوفى فيه أجله [٤] . وفي كتب الطبقات والتراجم من أخبار الفقهاء والزهاد والمتصوفة ، كذي النون المصري [٥] ، أخذوا بمذاهبهم ، ولم يشفع لهم زهدهم ولبوس التقوى . وقد أفتي بقتل بعضهم كالحلاج [٦] .

---

(١) « الإمام أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل من بني شيبان ، ولد في بغداد سنة أربع وستين ومائة . . دعي الى القول بخلق القرآن فلم يجب ، فضرب وحبس ، وهو مصر على الامتناع . . وتوفي سنة احدى وأربعين ومائتين « ابن خلكان : ١/ ٤٧ » .

(٢) « كان عالماً ورعاً تقياً نقله أبو جعفر المنصور الى بغداد ، فأراده على أن يوليه القضاء فأبى . . فأمر به الى الحبس في الوقت . . وكانت وفاته ببغداد في السجن . . » ابن خلكان : ٥/ ٤٠ - ٤٦ .

(٣) كان حنفي المذهب تولى قضاء مصر ، ودعاه ابن طولون الى خلع الموفق بن المتوكل من ولاية العهد فامتنع ، فاعتقله وبقي مسجوناً مدة سنتين حتى توفي سنة ٢٧٠ هـ . انظر ابن خلكان : ١/ ٢٧٠ .

(٤) ابن تيمية أكبر علماء السنة منذ القرن السابع الهجري ، ولد في حران ، وتلقى علومه بدمشق . كان فقيهاً محدثاً حنبلياً ، قاد حركة الاصلاح الديني في زمانه بالعودة الى التوحيد الصافي بمعناه زمن الرسول ﷺ والصحابة . لقي معارضة واذى كثيراً ولكنه بقي عظيم المكانة والأثر على مدى العصور . انظر أعلام الزركلي : ابن تيمية . وأشاد المستشرق نيكلسون باثر ابن تيمية في كتابه :
Literary History of the Arabs: 462-464.

(٥) قال ابن خلكان : «كان أوحد علمه ورعاً وحالاً وأدبا . . وقال إسحاق بن إبراهيم السرخسي بمكة : سمعت ذا النون ، وفي يده الغل ، وفي رجليه القيد ، وهو يساق إلى المطبق ، والناس حوله يبكون ، وهو يقول : -ذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه ، وكل فعاله عذب حسن طيب ثم أنشد . . » .
(الوفيات ١/ ٢٨٠) وكانت وفاته سنة ٢٤٨ -ـ .

(٦) هو الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وللناس فيه اختلاف كثير ، حبس وأفتى علماء عصره بقتله ، وأمضى الخليفة الفتيا في بغداد. انظر الوفيات: ١/ ٤٠٥ .

الفلاسفة والعلماء :

وكثير ما كان أصحاب الفلسفة عرضة للاعتقال ، وقد يفتي بقتلهم فيستجيب السلطان[1] . وكفى بالفيلسوف ابن سينا ان يموت في السجن[2] . وبالعالم ابن خلدون ان يمكث في السجن بضع سنين[3] .

الكتاب :

وحبس كتاب الدواوين ، وأخذوا بالشدة والتضييق ، ولا ذنب لهم سوى أنهم كانوا يؤخذون بجريرة رئيسهم المنكوب ، فيصيبهم رشاش من العذاب[4] ، وكذلك الأدباء أصحاب التآليف يعاقبون ضحية التبعية او لاستياء شخصي من الحاكم .

الشعراء

أما من دخل السجن من الشعراء أو مات فيه فكثير . وتعدادهم يطول . والتذكرة ببعض المشاهير دلالة على وفرتهم على مدى عصور الادب .

ففي الجاهلية مات طرفه بن العبد والمنخل اليشكري وعدي بن زيد في حبس المنازرة . وفي زمن بني أمية سجن الفرزدق والعرجي والأحوص .

---

(١) انظر في (الوفيات : ٣١٢/٥) مقتل شهاب الدين السهرودي الحكيم على يد الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين استجابة لرأي العلماء .

(٢) قال بن خلكان في ترجمة ابن سينا : «ان مخدومه سخط عليه ، واعتقله ، ومات في السجن «الوفيات : ٤٢٤/١» .

(٣) حبس في المغرب بشبهة سياسية سنوات. أنظر تاريخ ابن خلدون: ٤٠٣/٧ بولاق .

(٤) انظر صوراً من هذا العذاب في : «وفيات الأعيان : ٩٠/٤ و١٨٧» .

(٥) انظر في « الوفيات : ٤/ ١٥ » ترجمة كافي الكفاة ، بهاء الدين البغدادي الاديب الذي قتله الامام المستنجد بكتاب التذكرة الذي صنفه وضمنه اخبارا ظن الامام ان فيها تعريضاً بدولته .

وحبس في عصر بني العباس دعبل الخزاعي وأبو العتاهية وابو نواس وعلي بن الجهم والمتنبي والطغرائي وفي الاندلس اعتقل ابن زيدون والمعتمد بن عباد ولسان الدين بن الخطيب ، وأضرابهم كثير(١) .

هذه اشارة لامحة الى السجناء الذين يؤرخ هذا الكتاب لطائفة منهم . أما أحوالهم واوضاعهم وما ينوبهم في الحبس من العذاب والآلام ، فالحديث عنه ـ مفصلاً ـ في أغراض شعر السجن حيث يتكلم الشعر وحده عنها .

السجن والمحيط الخارجي

ليست عزلة السجن محكمة الإغلاق وإن استقل بكيان خاص . واختلاف الناس فيه ـ فيما كان لهم من المكانة ـ تقتضي أن يحدث نوع من التبادل والصلات بين الحبس وما حوله : بعضها عاطفية ، وبعضها إخوانية ومنها الرسمية ، ومنها الشعبية . ومعظمها ذو طابع إيجابي يستهدف التأثير لمصلحة السجناء من التخفيف عنهم أو إطلاقهم .

الزيارات

وأسرة الحبيس أكثر اشتغالاً وهماً بأمره ، وهي تجهد في استنقاذه ، وتعوده في سجنه ، وتشير الاخبار الى أن زيارة الأهل والأقارب سجينهم كانت ميسورة منذ العصر الجاهلي(٢) . ولا يعلم نظام للزيارة ولمواعيدها ، وان كان لا يشك بوجود نظام ، فزيارة السياسيين والكبار كانت تستأذن لها السلطة العليا في

---

(١) ثمة حديث متسع عن الشعراء في الطرق الى السجن « في باقي فصول الكتاب » .

(٢) زارت عدي بن زيد ابنته وهو في سجن النعمان بن المنذر (شرح نهج البلاغة : ١/ ٤٩) وفي العصر العباسي دخلت على الشاعر نصيب الاصغر ابنته حجناء ، وهو في حبس المهدي (الاغاني : ٢٠/ ٢٧) وكانت بنات المعتمد بن عباد يعاودن زيارته وهوسجين باغمات . (ديوان المعتمد : ١٠٠) .

الدولة[1] على أن هناك زيارات مستورة كانت تتم برشوة السجان[2] .

ولا يدرى أكانت هذه الزيارات مراقبة أم غير ذات رقابة . وقد يغضي عن زيارة النساء لازواجهن ، وربما نقلت بعض نساء السياسيين لرجالهن أخباراً ورجعن منهم بمشورات من الأهمية بمكان[3] . وثمة أخبار تفيد أن الاتصال الجنسي بين السجين وزوجه كان مأذوناً به ، وأغلب الظن ان مثل هذا إجراء نادر في بعض السجون[4] . فثمة حبوس كانت تغلق أبوابها في وجه الزوار[5] .

ومن المستفاد أيضاً من الأخبار أن من الأصدقاء من كان يسعى الى إخوانه مواسياً لهم في حبوسهم[6] . وأن بعض الشعراء كان يقصد الولاة المعزولين وأولي السؤدد في محابسهم ، فيمدحهم في أحرج أيامهم ، فيعطون والغرامات عليهم ثقيلة كأنهم ما زالوا في مناصبهم[7] . أما أسرى العرب في سجون الروم

---

(١) في « مقاتل الطالبيين : ٢٢٥ » : « حدثني اسحاق بن عيسى عن ابيه قال : أرسل اليَّ عبد الله بن الحسن ، وهو محبوس ، فاستأذنت ابا جعفر في ذلك ، فاذن لي » .

(٢) ألمحنا الى ذلك في الحديث عن موارد الحبس .

(٣) انظر في (مقاتل الطالبيين : ٢١٥) الرسالة الشفوية التي حملتها زوج عبد الله بن الحسن بن الحسن اليه ، وهو في السجن ، من ابنه محمد ، وهو متوار وانتظاره أوامر أبيه .

(٤) انظر في (الاغاني : ٢١/ ١٧٤) استمتاع الشاعر هدبه بن خشرم بزوجته في الليلة التي قتل في صباحها ، وكان في سجن المدينة .

(٥) قال جحدر في سجن دوار :

سجن يلاقي أهله من خوفه ... أزلاً ، ويمنع منهم الزوار

(معجم البلدان : دوار)

(٦) انظر في (الوفيات : ٥/ ٣٢٤) دخول سعيد بن عمرو بن العاص على صديقه يزيد ابن المهلب وهو يعذب في سجن الحجاج .

(٧) انظر مدح يزيد بن الحكم ليزيد بن المهلب وهو حبيس في (الاغاني : ١١/ ٩٨) ومديح الفرزدق لسلم بن زياد في حبس مكة (الاغاني : ٨/ ١٨٣) .

فقد كان يسمح لهم بالتزاور في يوم السبت من كل أسبوع كما يذكر أبو فراس في شعره[1] .

التراسل

وتعد الرسائل أجدى الوسائل لإيصال صوت المحتبسين إلى العالم الخارجي ، ولتذكير معارفهم بأمرهم ، وتعريفهم أحوالهم وحاجاتهم . وكانت المعبر الذي نفذ منه كثير منهم الى الحرية . ويبدو أن التراسل حق مارسه السجناء منذ القديم بعلم السلطة أو خفية عنها . ولا شك أن المراسلة الشفوية والكتابية هي التي حفظت لنا شعر من مات في معتقله من الجاهليين .

وفي العصور الإسلامية استكثر الشعراء من التراسل ، كأنّ أدوات الكتابة كانت مع كل سجين . فكاتبوا في شؤونهم الهامة ، وجاملوا إخوانهم ، ونقلوا اليهم خواطرهم .

ومن هذه الرسائل ما بعث به الشعراء الى عشائرهم وذوي عصبيتهم ليجدّوا في استخراجهم . وكانت رسائل السجناء في العصر الأموي تُحمل من اقصى المشرق الى مقر الخلافة لهذا الغرض ، ويتكبد الشعراء نفقات لإيصالها ـ كما فعل يزيد ابن مفرغ الحميري[2] ومن ثم انطلقت رسائل الشعر من سجون المدن الكبرى إلى القرى والبوادي النائية تستنجد[3] .

وكانت بعض الرسائل توجه إلى أفراد من خاصة السلطان ، وهؤلاء قد تصلهم بالمحبوس مودة أو عطف أو صداقة[4] ومنهم من يتقاضى لسعيه أجراً ،

---

(١) انظر ديوان أبي فراس : ١/ ٩٥ .

(٢) انظر الاغاني : ١٧/ ٥٩ .

(٣) انظر رسالة شعر من جعفر بن علبة الحارثي ، وهو في سجن مكة ، الى اخيه ، في الاغاني : ١١/ ١٤٣ .

(٤) الامثلة كثيرة . انظر تبادل الرسائل بين ابراهيم بن المدبر ، وهو في سجن المتوكل ، وعريب جارية الخليفة (الاغاني : ١٩/ ١١٦) وبينه وبين بعض اصدقائه في القصر =

وهم المغنون والمغنيات إذ كثيراً ما دفع لهم الشاعر السجين شعراً ، وطلب اليهم أن يصنعوا له لحناً ، وأن يغنوه الخليفة في ساعة أنس . وبمثل هذه المساعي والمواقف تخلص كثير من الشعراء[1] .

الوساطة والشفاعة

وكانت القبائل تشفع لشعرائها وبخاصة أيام الأمويين ، وفي فترات الفوضى والاضطراب كان حشد العشيرة يجتمع ويخرج اتباعه من السجن عنوة او بالتوسط والوجاهة[2] .

وكان السجين أحياناً يلوذ ببعض كبار الناس : زعماء قبائل او ذوي وجاهة علمية او دينية مرموقة ، فيسألهم الشفاعة لدى السلطة ، وكانت شفاعة بعضهم لا ترد[3] .

السجناء والحكام :

من المتوقع أن يحدث ، استكثار السلطة من المعتقلين استياء شعبياً ينصت الحكام الى حسيسه . فكان الخلفاء ـ ولا سيما الناقمون على سلفهم ـ يفتتحون عهدهم بتحرير السجناء ، وتفريغ الحبوس من أهلها في إجراء يشبه العفو العام[4] . وكان منهم من يتقرب الى الله في ساعات الشدة والخوف

= (الاغاني : ١٩/ ١١٩) ، وانظر رسالة ابي العتاهية الى زبيدة ، زوج الرشيد ، لما حبسه ابنه القاسم بن الرشيد (الاغاني : ٣/ ١٥٤) .

(١) انظر كيف تخلص الأحوص من النفي والسجن في (الاغاني : ٤/ ٥٠) ، وانظر أمثال ذلك في (الفرج بعد الشدة : ١٢٣) و (الوفيات : ١/ ١٦٦) .

(٢) انظر بعض الحوادث الدالة في (انساب الاشراف : ٥/ ١٣٣) .

(٣) انظر تشفع عبد الله بن عمر للمختار بن عبيد الله الثقفي عند عبيد الله بن زياد ، وكان قد حبسه . (انساب الاشراف : ٥/ ٢١٥) ، وانظر مثلاً آخر في (ص ٢١٩) .

(٤) « أمر عمر بن عبد العزيز باخراج من في السجن (سجن العراق) فأخرجهم إلا يزيد ابن أسلم » (الفرج بعد الشدة : ٦٥) وانظر خبراً شبيهاً في (حل العقال : ٦٨) .

بالتفريج عن المظلومين واطلاقهم[1] .

وكان الخلفاء أحياناً ينهجون منهجاً إيجابياً في الانتفاع بالمحبوسين واستصلاحهم ، ورد اعتبارهم ، فيجندونهم ، ويرسلونهم في الآفاق محاربين[2] . ولعل هذا النهج كان مألوفاً في القرون الوسطى عند غير العرب أيضاً[3] .

ويهجم ـ احياناً ـ الحظ بالسجناء على أمير عصبي المزاج فيورد بعضهم موارد التهلكة[4] .

السجن والرعية :

وكان السجن رمز الظلم والاستبداد ، فكان الشعب او لفيف من افراده ، يبادرون إلى إظهار سخطهم عليه اذا أمكنتهم الظروف ، فيهاجمونه ، وكان لا يتاح مثل هذا في غير فترات الثورات وتقلقل الحكم ، فيستخرج الثوار من فيه من ذويهم بالقوة[5] ، ويحررون السجناء جميعاً ليتقووا بهم في الثورة على الحكم[6] . أما العامة ، إن ثارت ، فكانت تفتتح أبواب الحبس لإخراج

---

(١) انظر خبر إطلاق الواثق الخليفة ، وهو على فراش الموت ، للمحبوسين (الفرج بعد الشدة : ١٥٢) .

(٢) جند زياد بن ابيه ـ بأمر من معاوية ـ « أهل السجون والشطار ، وكل من يلوذ به من أهل المصر ، من داعر ، وما أشبهه » وجعلهم في جيش سعيد بن عثمان بن عفان . انظر « نوادر المخطوطات : ٦/ ١٦٦» .

(٣) انظر « التنبيه والإشراف : ١٤٥ » .

(٤) انظر خبر عصيان السجناء في الحبس ، وقتلهم بأمر من ناصر الدولة بن حمدان . (الطبري : ٨/ ٦٠٤) . تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم .

(٥) انظر مهاجمة الشاعر عبيد الله بن الحر ، برجاله ، سجن الكوفة واستخراج زوجته منه . في (منتهى الطلب : ١/ ٢٧١) .

(٦) انظر خبر ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بالبصرة ، واعتزام اصحابه اخراج اهل السجن لضمهم اليهم . (الطبري : ٩/ ٣٤٧ و مقاتل الطالبيين : ٣١٨) .

المحبسين جميعاً[1] .

رأي الفقه في السجون :

صارت السجون رمزاً للظلم عند الناس جميعاً ، وارتاع الفقهاء من المآسي النازلة بالسجناء ، فشجبوا الحبس على هذه الصورة شجباً قاطعاً ، وأظهروا منافاته للشريعة ، على إجازتهم الحبس لإقامة الحدود فيما لا يجور على انسانية المعتقل وكرامته . وطلبوا له توفير حقوقه الجسدية والنفسية والوجدانية . روى الكتاني عن الماوردي في الاحكام السلطانية : « الحبس الشرعي ليس هو السجن في مكان ضيق ، وإنما في تعويق الشخص ، ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء كان في بيت او مسجد . . . وأما الحبس الذي هو الآن فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك لانه يجمع الكثير في موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة . وقد يرى بعضهم عورة بعض ، ويؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء »[2] .

قد تُوخي الإيجاز في وصف التبادل ما بين السجن والمحيط الخارجي . والحديث المقبل عن الأسباب التي انتهت بالشعراء الى الحبس تزيد هذا الجانب ، وغيره من الجوانب ، تفصيلاً وتعليلاً[3] .

---

(١) انظر اخباراً عن ثورات العامة وتحطيم ابواب السجون وتخليص من فيها ، في (الفرج بعد الشدة : ١٣٠ و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ١/ ١ : ٣٨) .

(٢) التراتيب الادارية : ١/ ٢٩٥ .

(٣) انظر ص ـ ١٤٦ ـ وما بعدها .

المبحث الثالث

الطرق الى السجن

يلم هذا البحث الاخير من الفصل بأسباب السجن ودواعيه . وهو من شعر السجن العمود التاريخي الذي يصار منه الى استجلاء أغراض الشعر وتقويمها في الفصل الرابع .

ولذلك يضع هذا المبحث الشعراء في الظروف العامة والخاصة التي واكبت حبسهم ، ويجلو هذه الظروف وما كان وراءها من الدوافع وما صدر عنها من النتائج . ويؤيد ذلك بالوقائع والأدلة من الأخبار والأشعار .

فكان على البحث ان يذلل مهمات صعبة هي التحقيق الموضوعي في حبس الكثير من الشعراء ، وفي الأسباب الموجبة الحقة ، على ضوء أحوال عصورهم وأوضاعهم فيها ، والتدليل عليها بمواقفهم وأشعارهم . فان كثيراً من الشعراء الذين شغل الحبس حيزاً من عمرهم وإنتاجهم لم يُذكر لسجنهم من قبل إلا أسباب سطحية وتعليلات عابرة لاتمت الى الواقع التاريخي بسبب جوهري .

ووضع كل شاعر في إطار الظروف والأسباب ، فكانت أربعة أطر تناولت على الترتيب الذين حبسوا من الشعراء في الأحداث السياسية أو بما أتوا من خيانة وخروج عن القانون أو بما خالفوا به الآداب والأعراف أو بما جنحوا إليه من العقائد والأفكار .

واستقل كل اطار بمقالة . فكان المبحث أربع مقالاتٍ مسّت حياة الشعراء بمقدار مالها من صلة بحبسهم .

المقالة الأولى

السجن في السياسة

تعرض هذه المقالة للشعراء الذين سجنوا بوقائع العصبية القبلية ، وبمعارضة الحكم والثورة عليه وبالمؤامرات والمكائد .

ـ آ ـ

أثر العصبية القبلية في حبس الشعراء :

ظلت العصبية القبلية الصباغ المميّز للعرب في جاهليتهم ، وفي حيّز كبير من تاريخهم بعدها [١] ، باستثناء حقبة وجيزة هي حقبة صدر الإسلام ، ومرد أثرها العظيم في حياة العرب السياسية الى بنية المجتمع العربي ، وقوامها انضواء الفرد واندماجه في القبيلة كياناً وسلوكاً ، وكان العربيّ في أحسن أحواله يشق عليه الانسلاخ من روحها [٢] .

وكان أن مرت العصبية القبلية بأطوار من الضيق الى الاتساع ـ فهي في الجاهلية لا تخرج عن نطاق العشيرة او القبلية ، ثم اتسعت في الإسلام الى

---

(١) من الممكن اعتبار مقتل الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٤٧ هـ بيد القواد من الترك حداً زمنياً لم يبق للعصبية القبلية بعده أثر فعال في الحياة السياسية .

(٢) الأدلة من الشعر كثيرة متداولة ، وبعض حوادث التاريخ أعمق دلالة ، من ذلك ما حدث في أعقاب موقعة حنين سنة ثمان للهجرة إذ أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من قريش وزعماء العرب من فيء المعركة ، ووكل الأنصار الى إسلامهم ، فوجدوا في أنفسهم ولما نقل زعيمهم سعد بن عبادة مشاعرهم الى الرسول سأله :

فأين أنت من ذاك يا سعد ، فأجابه : « ما أنا إلا من قومي » (انظر : السيرة ٢/٤٩٨) .

عصبية الجذم الجامع لعدد من القبائل التي تزعم انحدارها من أصل واحد ، من قحطانية وعدنانية او يمانية ومضرية وربعية وقيسية ـ ومن الشدة والعنف في العصر الأموي الى التراخي والضعف في حكم العباسيين .

وكان لهذه العصبية أثرها في الشعراء : شردت وسجنت وقتلت منهم الكثير .

العصبية القبلية في الجاهلية :

تتبع حركة العصبية القبلية في العصر الجاهلي يوقف بجلاء على السياسة الداخلية والخارجية للقبائل في صلاتها فيما بينها من التحالف والولاء او التقاطع والخلاف [١] ، ولا يأذن نطاق البحث في تناول هذا الجانب تفصيلاً ، ولا بد من الاقتصار على ايضاح التيارات العصبية التي تسببت في سجن طائفة من كبار الشعراء ورجالات القبائل الذين بقيت لنا بقية من أشعار محنهم .

ومن المعروف ان الجزيرة العربية كان يتقاسمها نفوذان : غساسنة الشام ـ ومن ورائهم الروم ـ ومناذرة العراق ـ ومن ورائهم الفرس ـ وكان كل نفوذ يقوى ويضعف بما لمواطن القبائل من قرب او بعد عن عاصمة أيّ من الإمارتين . وكان للغساسنة نفوذ ضارب في شمال الجزيرة يوغل إلى الحجاز . وكان للمناذرة نفوذ راسخ في شرق الجزيرة وقلبها يوغل الى الجنوب . وكان على الدولتين تأمين طرق التجارة عبر الجزيرة بالحملات التأديبية حيناً ، وباصطناع القبائل حيناً آخر [٢] . وكانت هذه القبائل في ظل أي من النفوذين مشتتة متنابذة ، يجتهد كل منها في الزلفى الى الشام او الحيرة وإقصاء الأخرى بالدسّ

---

(١) انظر على سبيل المثال في « النقائض ٢/١٠٨١ ـ ١٠٨٣ » شعر عارق الطائي الذي تهدد ملك الحيرة بنقل ولاء قبيلته الى الغساسنة في الشام .

(٢) أخبار هذه الحملات كثيرة (انظر مثلاً ، غزوة الأسود بن المنذر في بني محارب ، من قيس عيلان في الأغاني : ١٠/٢٣) .

والكيد [1] ، ولا شك ان هذا التخطيط للمنطقة كان بتدبير من الدول المتنفذة [2] . ومن ثم يمكن الاستنتاج ان شكلاً سياسياً واحداً كان يغطي معظم الجزيرة ، تظهر فيه عشائر القبيلة الواحدة أحياناً متعادية ، بعضها لإحدى الدولتين حليف وبعضها منقبض عنها [3] . وفي مثل هذا الوسط تنشط المؤامرات ويسهل على الحكام التخلص من الخصوم والمعارضين ، والبطش بهم .

طرفة بن العبد :

ففي مثل هذه الأجواء اقتيد طرفة بن العبد الى السجن ليلقى حتفه فيه ، وكان من بطن غير مغمور[4]،من قبيلة كبيرة متشعبة العشائر والبطون، تضرب في

---

(١) من ذلك ما أغرى به حاجبُ بن زرارة بن عدس عمرو بن هند صاحب الحيرة من الإيقاع بطيء . (أنظر النقائض : ٢/١٠٨١) .

(٢) انظر الفصل الأول ص ٦٣ .

(٣) في كتب الأدب والتاريخ ما يبرز هذه الحقيقة ، وعلى سبيل المثال : كان رهط حاتم الطائي ينافسون الشرف رهط أوس بن حارثة على زعامة طيء ، ومن تنافسهم نشبت حرب الفساد المعروفة « الخزانة : ٢/٢٦١ ـ ٢٦٤ » ومن ذلك ما تشير اليه بعض الأقاصيص من أن ملك الحيرة كان يدعو بعض رجالات العرب لزيارته في عاصمته ـ وبعضهم من قبيلة واحدة ـ ليلبس أشرفهم حلته (المصدر نفسه) .

(٤) ينتهي نسب طرفة بن العبد الى بني مالك من بكر بن وائل ، أبوهم مالك بن ضبيعة جد طرفة الثالث ، وكان ذا منعة ، وقد ألمح طرفة الى ذلك في الضاديّة الطويلة التي نظمها في سجنه مخاطباً عمرو بن هند :

ولو خفت هذا الفتك في الدين دافعت ... بنو مالك حتى يرد الذي تقضي
وكنا على ذي حوزة في بلادنا ... ضبيعة قدماً نضرب الناس عن عرض

(ديوان طرفة ص ١٤١ ، البيتان : ٤٢ و ٤٤ ، الطبعة الأوروبية ١٩٠٠ م) والدين : الطاعة .

ونضرب الناس عن عرض : أي من غير مبالاة بمن ضربنا .

الأرض ما بين أقاصي البحرين وأداني العراق ، هي قبيلة بكر بن وائل [1] ، وكانت أيام البسوس قد مزقتها تمزيقاً وهشمت الأخوة بينها وبين تغلب ، مما يسّر على حكام الحيرة السيطرة على هاتين القبيلتين . وترعرع طرفة في هذا الوسط الممزق ، وكان ذا شخصية نامية ، سريعة ردود الفعل على ما تواجه من الأحداث ، فتأذى من ظلم عشيرته الادنين [2] ، وكوّن لنفسه نظرة وجودية خاصة [3] ، وتعمق إحساسه الاتجاه السياسي العام للمنطقة ، وحدا به غلواء الفتوة والاندفاع الجريء الى أن يكون في صف المعارضين للساسة من المناذرة . وقد بدا انه مارس نوعاً من النشاط السياسي المحدود المعادي لهم ، تجلّى في مهاجمته لأقوى ملوكهم [4] ، غضباً لقبيلته التي كان ملوك الحيرة يتتبعون رجالاتها بالقتل [5] . ولا شك انه سُعي به الى الملك الذي كان يراقب

---

(١) كان اسم البحرين يطلق قديماً على البلاد التي تضم الكويت ودولة قطر وإمارات الخليج العربي الى أطراف عمان ، ونجد في قصيدته الضادية ما يفيد انتشار بعض قبائل بكر بن وائل في العراق اذ قال كالمستصرخ :

ألا أبلغا بكر العراق بن وائل ... بكأسٍ سقى النصريُّ شاربها رمض

(ديوان طرفة : ١٤١ ، البيت : ٣٧) ، والنصري هو الملك نسبة الى بني نصر ملوك الحيرة .

(٢) تحدث طرفة عما لقيه من أقاربه من سوء المعاملة في معلقته (الديوان : ص ٣٢ ، الأبيات : ٦٨ ـ ٨٠) .

(٣) وأعلن عن هذه النِظرة في معلقته (الديوان ص ٢٧ ، الأبيات : ٥٤ ـ ٥٨) .

(٤) وكان هجومه تنديداً بسياسة عمرو بن هند لاستبداد أسرته بحكم بكر بن وائل ، وبما في هذه الأسرة من الغطرسة والحمق ، ويتجلى هذا في إحدى قصائده التي هجاه بها :

فليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثا حول قبتنا تدور
لعمرك ان قابوس بن عمرو ... ليخلط ملكه نوك كثير

(الديوان : ص ٩٦ . البيتان : ١ و ٤) . والرغوث : النعجة المرضع . وقابوس : أخو عمرو بن هند ، ولعله كان مكلفاً من قبل أخيه بالاشراف على البحرين .

(٥) وشكا طرفة وهو في السجن من أسلوب القتل الذي كان يمارسه عمرو بن هند فيهم : =

المنطقة مراقبة الحذر [1] ، وأن طرفة قد داخله خوف كثير من الفتك به ، فما زال يتبرأ الى الملك من هجائه حتى ظن ان قد أغمض عنه وتناسىٰ قوله فيه . ولكنّ عمرو بن هند كان ملكاً اذا غضب لم يرض ، على انه آثر التلطف والمداراة في أخذه ، تجنباً لأية إثارة قبلية ، فلما استمكن منه احتبسه قليلاً ثم أوقع به الموت [2] .

ويستحسن الاضراب عن الروايات الساذجة التي تذكر في أسباب سجنه ، فهي باختلاق القصاص لتقريبها لقناعة العامة أمثل . ولا بد من التعويل على شعره في حبسه لاستجلاء الحقائق ، فهو وحده مادة البحث التي يمكن الخروج منها بنافع ، وهذا الشعر جلي لا يتخفى على شيء ولا يتحفظ ولا يجامل ، فإن صاحبه منفعل ثائر غضوب ، ندد فيه بسياسة المناذرة ذات البطش والارهاب

= أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض
(الديوان : ص ١٤٢ . البيت : ٤٥) ، وأبو منذر هو عمرو بن هند .

(١) يحدثنا شعر طرفة ان ابن عمه عمرو بن بشر بن مرثد وشى به الى عمرو بن هند ، وأنشده هجاءه فيه ، فعنفه طرفة في شعره ، وأظهر له ان وشايته هدمت بيتهم ، وأذلتهم وفرقت كلمتهم ، ونصرت الغريب عليهم ، ومن هذا الشعر قوله :

ألا أبلغا عبد الضلال رسالة وقد يبلغ الأنباء عنك رسول
دببت بسري بعد ما قد علمته وأنت بأسرار الكرام نسول
وفرّق عن بيتيك سعد بن مالك وعوفاً وعمراً ما تشي وتقول

(الديوان : ص ٧٧ . الأبيات : ٦ ـ ٧ و ٩) .

(٢) قال الشنتمري شارح ديوان طرفة : « فسكت عمرو بن هند ، عند سماعه هجاء طرفة له ، ووقر في نفسه ، وكره ان يعجل عليه لمكان قومه ، فأضرب عنه ثم لم يزل يطلب غرته والاستمكان منه حتى أمن طرفة ولم يخفه على نفسه وظن أنه قد رضي عنه » . (الديوان : ٩٩) . وفي الديوان أبيات ثلاثة يعتذر بها الشاعر الى عمرو بن هند ويزعم انه لم يهجه (ص ١٠١) وكان مقتله في حصن في البحرين . (انظر من البحث ص ٣٣) .

(٣) تعزو بعض الأخبار مقتل طرفة الى تغزله يوماً بأخت عمرو بن هند ، وقد برزت له وهو ينادمه على شراب . (انظر الديوان : ص ١٣) من المقدمة الفرنسية للناشر .

لايقاع الخوف في نفوس القبائل ، وقد أفاد طرفة أن موته المرتقب إن هو إلا تنفيذ لخطة تتلوها خطوات في القضاء على الأحرار الذين يتخطفهم الملك اختلاساً من غير مواجهة حربية لأقوامهم (١) ، وكان عليه ان يهيب بقومه لينهضوا في وجه المتنفذ وأعوانه ، وأن يقابلوا العنف بالعنف حتى يتخلصوا من الملك ونوابه (٢) . والشعر في حقيقته صورة للتفسخ القبلي في البحرين اذ تصبح

---

(١) جاء في الضادية التي نظمها في محبسه :

فإن يقتل النعمان قومي فإنما هي الميتة الأولى وتقدمة القبض

وقوله :

أبا منذر، إن كنت قد رمت حربنا فمنزلنا رحب مسافته مفض

(الديوان : ص ١٤١ - البيتان : ٣٨ و ٤٦) ومعنى الثاني : إنك اخذتني على حين غرة ، ولم تجرؤ على التعرض لقومي . والنعمان - في الأول - يرد اسمه غير مرة في القصيدة فهل هو النعمان بن المنذر ، والنعمان بن المنذر تملك بعد عمرو بن هند قاتل طرفة . وان مؤرخ الأدب يحار عند التعليل ، وهذا ما حدا الشريف المرتضى الى الظن ان خبر مقتل طرفة يجب ان يقرن بالنعمان بن المنذر لا بعمرو بن هند (أمالي المرتضى : ١٨٥/١ . ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٤) ، محتجاً بأن طرفة قد مدح النعمان . وقد نقبت عن هذا المديح في الديوان فلم أقع عليه ، وإن وجدت شعراً في هجاء عمرو بن هند وفي الاعتذار اليه (ص ١٠١) . ان شعر طرفة يرجح الخبر المشهور ان قاتله عمرو بن هند ، أما ما ورد من ذكر النعمان في شعره فتعليله ممكن : ذلك ان عمرو بن هند وقد دام حكمه طويلاً ، كان كثير الاستعانة في ملكه بإخوته ، وكانوا على الأغلب قادة حملاته على العرب ، فأخوه الأسود بن المنذر كان صاحب يوم الصفا (النويري : ٣٥٤/١٥) فغير بعيد أن يكون النعمان قائداً للملك او نائباً عنه باشر قتل قوم الشاعر . والعرب ينظرون الى المناذرة جميعاً باعتبارهم ملوكاً لأن الملك كان فيهم وحدهم ، وقد بلغ من قوة إخوة عمرو بن هند ان اختار كسرى منهم خلفاً لأخيهم ، ولم يختر من عقب عمرو ، وإنه اذ تعوزنا الوثائق التاريخية المدونة للبت في هذا الأمر لا نجد هذا التعليل بعيداً عن الاحتمال .

(٢) وفي القصيدة السابقة يقول :

فميلوا على النعمان في الحرب ميلة وكعب بن زيد فاشغلوه عن المحض

هما أورداني الموت عمداً وجردا على الغدر خيلاً ما تمل من الركض

(البيتان : ٣٩ - ٤٠) . والمحض : اللبن ، أي لا تتركوه يهنأ بما لديه من النعمة .

بعض العشائر عوناً للسلطة على أخواتها [1] ، وقد أحس طرفة بضرورة التعاون والتعاضد بين بكر وتغلب للظفر بالأمن والحرية ، ويعتبر هذا منه شعوراً مصيرياً محصوراً في إطار القبلية التي تجمع بكراً وتغلب معاً [2] ، غير ان هذا المطلب لا يوجبه سجن شاعر او مقتله ، ولا يتأتى إلا في أحداث كبرى ذات خطر صميمي [3] ، فذهبت صيحات طرفة مع الرياح ، ولم يتحرك لنصرته أحد من الرجال الذين كانوا على رأيه السياسي . ولما رأى الصمت والعجز سحقته المرارة ، ولاحت له رجالات قومه شخصيات مريضة دون الهمم ودون مستوى الأحداث [4] ، وتناول زعماء بأعيانهم بشتم فاحش وهجاء فاضح ، إمّا إزراء

---

(١) قال طرفة لمن تولى قتله وحبسه :

خذوا حذركم أهل المشقرو الصفا   بني عمنا ، والقرض تجزون بالقرض

(البيت : ٣٦) والمشقر : حصن في البحرين والصفا : نهر فيها الناح .

(٢) وكان مما توعد به طرفة الحبيس عمرو بن هند ، انتقاض تغلب عليه وهي أخت بكر قبيلة الشاعر :

وتصحبك الغلباء تغلب غارة   هنالك لا ينجيك عرض من العرض

(البيت : ٥٤) . وفي القصيدة نفسها (البيت : ٣٧) ينبه بطون قبيلته الضاربة في بوادي العراق الى حقد الملك على البكريين :

ألا أبلغا بكر العراق بن وائل   بكأس سقى النصري شاربها رمض

(٣) استطاعت وقعة ذي قار في السنة الثانية من الهجرة - مثلاً - توحيد كلمة القبائل من بكر حول شيبان (الطبري : ٦٠٨/١) .

(٤) وفي ديوانه ثلاثة أبيات تصف خيبة أمله في أصحابه :

أسلمني قومي ولم يغضبوا   لسوءة حلت بهم فادحة

كل خليل كنت خاللته   لا ترك الله له واضحة

كلهم أروغ من ثعلب   ما أشبه الليلة بالبارحة

(ديوانه : ١١٤) . وهي الأبيات في ديوانه (ص ١٧) بتحقيق كرم البستاني ، ط ، صادر بيروت ١٩٥٣ . غير انها أربعة في ديوان طرفة ، بشرح أحمد بن أمين الشنقيطي (ص ٤٣ مصر ١٩٠٩) ، أولها مخاطباً عمرو بن هند :

يا جفنة السوء ، بنا اسحجن   قد كنت عن هضبتنا نازحة

والجفنة : القصعة ، كنى عن شره بالجفنة وأضافها الى السوء ، ومعنى الهضبة في =

بهم او تحريضاً لهم على نفي الاتهام بالعمل (١) ، على أنه كان يبدو ـ على صرخاته المدوية الحانقة ـ فاقد الرجاء في النصرة ، مستسلماً لقدره ، ولم يكن اعتقاله ومقتله إلا لما جبل عليه من حب لقبيلته وتعصب لها ، وغيرة على عزتها ، ورغبة في تحريرها من سلطان الأقوياء العالين عليها .

عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي :

وممن تمردت بهم العزة القبلية على السجن والوعيد ، عبد العزى بن امروء القيس أحد زعماء قبيلة كلب (٢) . وكانت قبيلته على علائق حسنة بالغسانيين ، لكن شاءت الظروف ان تسوء فجأة إذ أراد الملك الزعيم الكلبي على ان يكون له عوناً على قومه ، ولما أبى اعتقله ، فلم يرهب وأعلن من

= الشعر : العز . قال الشنتمري في شرحه للأبيات : « لا ترك الله له واضحة : أي لا ترك له سناً ، وقوله : ما أشبه الليلة بالبارحة : ضرب هذا مثلاً لشبه بعضهم ببعض في روغانهم وخذلانهم إياه » .

(١) وهذا الهجاء الذي قذف به قومه من السجن أبيات خمسة أوردها أحمد الشنقيطي في (ديوان طرفة : ٤٦) :

أبلغ سراة بني بكر مغلغلة ... فجدّع الله من آذانها اليمنا
عنيت ثعلبة العجلي مألكة ... عند الحوادث إذ ألى وإذ غبنا
والمرء قيساً يرى نواحة بعثت ... تبكي لميت ولا تبكي به شجناً
وهانئاً هانئاً في الحي مومسة ... ناطت سخابا وناطت فوقه ثكنا
ما دافعوا فيرى فيهم مكانهم ... ولا سمعنا لها من ذكرها حسنا

والمغلغلة : الرسالة ، وألى : قصر وأبطا ، والمومسة : الفاجرة ، السخاب : القلادة .

(٢) كلب قبيلة جمة العشائر كبيرة ، لعبت في العصر الأموي دوراً فعالاً في استبقاء الخلافة دون الزبيريين في الأمويين ، أنظر كتب التاريخ ـ مثلاً ـ (انساب الأشراف ١٣٦/٥) .

(٣) ذكر الطبري ان عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي « كان أهدى أفراساً الى الحارثة بن مارية الغساني ، ووفد اليه فأعجبته ، واعجب بعبد العزى وحديثه ، وكان للملك ابن مسترضع في بني الحميم بن عوف من بني عبدول من كلب ، فنهشته حية ، فظن الملك =

معتقله ان قبيلته أمنع من ان تنالها يد معتد مظلوم ، وكان إعلانه هذا دعوة لقومه بالتماسك والصمود جميعاً ، ولم يجزع من احتباسه ولم يدعهم الى استخلاصه إذ كان همه ان تبقى قبيلته بمنجاة من الخنوع [١] .

قيس بن مسعود الشيباني :

وقد تضع العصبية القبلية أهلها في موقف حرج كثير التعقيد عندما تصادم منافعهم الذاتية ، وتتركهم حيارى بين واجبهم القبلي والحرص على المكتسبات الفردية التي بلغوها بممالأة الملوك او العمالة لهم . ولا يزالون في نزاع مع أنفسهم بين الأمرين حتى ينتهي بهم الأمر الى كارثة محققة بالسجن او القتل . وتعتبر المأساة التي عاشها قيس بن مسعود مثالاً وافياً في هذا الصدد[٢] . فقد كان الرجل زعيم شيبان غير مدافع ورث الشرف كابراً عن كابر . وكانت القبيلة الأمّ بكر بن وائل كلها تقر لبيته بالعزة والاذعان ، وهي أكبر القبائل وأعظمها خطراً . وكانت تتهدد العراق وبلاد كسرى من الجنوب فاصطنع كسرى قيساً وولاه إقليماً خصباً مدراً قرب مصبّ الرافدين[٣] ، واستكفاه به قومه . ولم يضق به الأمر الاحين استحكم النزاع بين كسرى وهانيء بن مسعود الشيباني بسبب

= انهم اغتالوه ، فقال لعبد العزى : جئني بهؤلاء القوم ، فقال : هم قوم أحرار وليس لي عليهم فضل في نسب ولا فعال . فقال : لتأتينني بهم او لأفعلن وأفعلن ، فقال : رجونا من حبائك أمراً حال دونه عقابك » الطبري : ١/٤٩٩ .

(١) كتب الى قومه من السجن عشرة ابيات ذكر فيها ان الملك جزاه جزاء سنمار ، فقال :

جزاني ـ جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

وبعد ان عرض قصة سنمار كاملة تحدى الملك غير عابيء بالحبس (المصدر نفسه) .

(٢) هو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين . (النويري : ١٥ / ٤٣٢) .

(٣) هو طف سفوان وحاضرته الابلة . (المصدر نفسه) و (الاغاني : ٢٠ / ١٣٣) .

دروع النعمان بن المنذر وسلاحه المستودع لدى هانيء[1] . ولما أزمع كسرى تأديب هانيء أمر قيساً ان ينضم بمن معه الى الفرقة العربية في الجيش الفارسي المتقدم نحو ذي قـار . وكانت معضلة لم يخرج منها قيس الا محطم المجد حبيساً في قبضة كسرى . وكانت الجموع التي نسلت الى هانيء تعاضده تتطلع الى قيس وتنتظر معاضدته ، فراغ روغاناً بين الطمع والشرف : لا يريد ان يفرط بالولاية والثراء ولا ان يخسر زعامة القبيلة التي أنالته منصبه عنـد كسرى ، فلم يترك صفوف العـدو . وانسل ليلة المـوقعة الى قـادة قومـه . وبث فيهم جملة نصـائح كـان لها اثـرها في سيـر المعركـة[2] . ولعله انهزم بجنـده لمـا حمي وطيسهـا ، فكانت لـه اليد الـطولى في اندحـار الفرس. ولم يخف امـره على كسـرى فأمسـك به في السجن حتى مـات ، ويدل شعـره في الحبس على أن المعركة انتهت بقيس بن مسعود الى خسارة محققـة على الصعيد القبلي وعلى صعيد الإمارة : اما عامة الناس من العشائر والبطون . فاتهموه اذ لم يرضهم منه موقف الرياء والمخادعة[3] ، فسقطت زعامته . وظهر على المسرح وجوه جديدة

---

(١) ذكر الطبري أن النعمان نزل بذي قار في بني شيبان ، فلقي هانيء بن مسعود فدفع اليه أهله ، وعلم أن هانئاًمانعـه . مما يمنـع نفسه ، وتـوجه النعمـان الى كسرى فقيـده في خانقين . (١/ ٦٠٨) .

(٢) انظر : الطبري : ١/ ٦٠٩ ، والنويري : ١٥/ ٤٣٢ . ومما اورده الأول : « فلما دنت جيوش الفرس بمن معهم انسل قيس بن مسعود ليلاً ، فأتى هـانئاً، ، ففـال له : أعط قومك سلاح النعمان فيقووا ، فإن هلكوا كان تبعاً لأنفسهم ، وكنت اخذت بـالحزم ، وان ظفروا ردوه عليك . . » .

(٣) قال الاعشى لقيس بن مسعود :

أقيسَ بن مسعود بن قيس بن خالـد ... وأنت امرؤ تـرجـو شبـابـك وائـل
أتـجمـع فـي عـام غـزاة ورحـلة ... ألا ليت قيسـاً غـرقتـه القـوابـل

(الطبري : ١/ ٦١٣) وفي (ص ٦١٢) قوله الآخر :

وأفـلتنـا قـيس، وقـلت: لـعـله ... هنـالك ، لـو كانت بـه النعـل زلت

هم الرجال الذين كسبوا النصر ، وهذا ما أقلق قيساً اقلاقاً مزعجاً(١) . وأما الأمارة فسدت من دونها السبل ، وصفي رصيده عند ملك الفرس تصفية تامة(٢) ، وتيقظت في السجن عواطفه القبلية على صفاء بعد ان بارحته الأطماع ، وخيم عليه التفكير بمستقبل بكر ابن وائل كلها ونجاتها مما يبيت لها كسرى من حملة انتقامية ، فدعاهم من وراء القضبان مخلصاً ـ وهو على يقين من الموت ـ إلى الاتحاد والتناصر ، والى الاعتصام بالصحراء ليستدرجوا عدوهم إليها بعيداً عن موارد المياه والأمداد(٣) .

---

(١) تشهد بذلك ابيات أرسلها لقومه من الحبس :

ألا أبلغ بني ذهل رسولاً ... فمن هذا يكون لكم مكاني
أيأكلها ابن وعلة في ظليف ... ويأمن هيثم وابنا سنان
ويأمن فيكم الذهلي بعدي ... وقد وسموكم سمة البيان
ألا من مبلغ قومي ومن ذا ... يبلغ عن أسير في الأوان
تطاول ليلة وأصاب حزناً ... ولا يرجو الفكاك مع المنان

(الاغاني : ٢٠/ ١٣٣) .

(٢) قال الأعشى في قيس :

وعريت من أهل ومال جمعته ... كما عُرّيت مما تمر المغازل

(النويري : ١٥/ ٤٣٤) .

(٣) قال ابو الفرج : ارسل كسرى الى قيس بن مسعود : غررتني من قومك ، وأمر به فحبس ، واخذ بتعبئة الجيوش اليهم ، فقال قيس ، وهو محبوس ينذر تومه :

ألا ليتني أرشو سلاحي وبغلتي ... فيخبر قومي اليوم ما أنا قائل
فأوصيهمو الله والصلح بينهم ... لينطاء معروف ويزجر جاهل
وصاة امرىء لو كان فيكم أعانكم ... على الدهر والأيام فيها الغوائل
فإنّا ثوينا في شعوب، وإنهم ... غزتهم جنود جمة وقبائل
وإن جنود العجم بيني وبينكم ... فما فلجي، يا قوم ، ان لم تقاتلوا
فإياكم والطف لا تقربنه ... ولا البحر ان الماء للقود واصل
ولا أحبسنكم عن بغا الخير انني ... سقطت على ضرغامة وهو آكل

(الاغاني : ٢٠/ ١٣٤) والشعوب : المنية . والبحر : أراد به الماء المجتمع من دجلة.=

العصبية القبلية في صدر الاسلام :

ويمكن وصف العصبية القبلية ـ بناء على ما تقدم ـ بأنها مشاعر قومية أو وطنية بالمعنى الضيق لهذين المفهومين ، إذ كانت القبيلة أوسع كيان وطني يومذاك ، وكان الشعور القبلي العام لا يقضي على ذاتية الشاعر ورغباته وتطلعاته الخاصة بل كانت تترعرع في حماه . ولكنّ الإسلام سعى لاخراج الفرد من اطار القبلية الى اللقاء والتعايش على أساس الفكرة والعقيدة ، والى إخراج القبيلة من الانطواء والاستقلال الذاتي الى بناء متكامل متعاضد لأمة كبيرة . فألغى العصبية القبلية أن تكون مبدأ للتجمع والمشاركة في العيش والمصير . وضرب امثلة تطبيقية بالهجرة الى المدينة لإمكانية التعايش على شرط العقيدة مع اختلاف القبائل والأصول . بل جعل هذا الاشتراك فرضاً واجباً على اتباع الدين قبل فتح مكة . ومن يتتبع احداث السنوات التي عاشها الرسول ﷺ في المدينة يدرك ما بذل من جهد لوأد التعصب القبلي واستبداله بمبدأ الأخوة في الدين . وكان مبدأ مفروضاً مسؤولاً به من دخل فيه . ونزلت الأوامر بالنزوع عن الخلافات القبلية والنهي عن حزازاتها . ونصت العقوبات على من يبعثها او يستمسك بها(١) .

ولكن رغم هذا التغيير الجذري في التفكير والروابط الذي ألف بين أمة من شتات القبائل تحت قيادة واحدة ، فان الأساس التكويني للمجتمع الجديد ظل تكويناً قبلياً في حياة الناس وتنظيم شؤونهم العامة والخاصة ، فوضع ديوان العطاء على قاعدة قبلية بحتة(٢) . وعندما اختطت المدن الجديدة في البلاد

= والفرات عند التقائهما ، والطف : طف سفوان ، والقود : الخيل ، وبغا الخير : طلبه .

(١) الآيات في ذلك والأحاديث صريحة بينة : (انظر الفتح : ٢٦ . والحجرات : ١٣ وصحيح البخاري : ٤/ ١٨٣ . وخطبة الوداع : سيرة ابن هشام : ٢/ ٤١٢ . وانظر في تاريخ الطبري : ٣/ ٣٨٧ : عهد الرسول ﷺ الى بني الحارث بن كعب . وفيه نص صريح على وجوب قتل من يدعو الى العشائر والقبائل) .

(٢) وضع في خلافة عمر بن الخطاب (انظر : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ص ١٨٩ ، للدكتور احسان النص . بيروت ١٩٦٣) .

المفتتحة روعي في تخطيطها التوزيع على اساس القبائل[1] ، اذ ليس من المتوقع ان يذوب النظام القبلي الذي رعته القرون المتطاولة قبل ان تتغير شروط الحياة الاولى التي دعت إلى وجوده . وأكبر تغيير في الأمر ان الإسلام أتاح إمكانية التلاقي والاتجاه إلى تكوين مجتمع مدني من لفيف القبائل عبر أجيال[2] . ومن ثم كان للعصبية القبلية دورها الفعال في إثارة الفتن والحروب في مختلف الأقطار عندما بعثت من مرقدها .

الحطيئة وضابىء البرجمي[3] :

ومن الثابت أن الخلفاء الراشدين وعمالهم وقفوا موقف القامع لكل ما يثير النعرات بين العشائر ويحرك حزازات الجاهلية . ولم يأذنوا بأي نشاط يبعث على التفاخر القبلي ، ومن ورائه التحاقد والتنابذ . وراحت الدولة تراقب ألسنة الشعراء وتنزل بهم الحدود الشرعية . وصارت بدورها مفزعاً لمن ينالهم من

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان : ٢/ ٣٣٨ .

(٢) وتوضيح ذلك أن القبائل كانت تلتقي في الجيوش والأمصار ، فتتمايز قبليا وتشترك في الارض والهدف ، فينشأ عن ذلك مضاعفات سلبية وإيجابية ، فمن الجوانب السلبية الخلاف القبلي يثيره حب السلطان والزلفى الى أصحابه والسعي الى الثراء ، ومن الإيجابية تقارب القبائل على مدى الايام والتمازج المستمر وإضعاف النعرة القبلية لتحل محلها عصبية أخرى للبلد والاتجاه السياسي (انظر حديثنا بعد قليل : ص ١٧١ و ١٨٩) .

(٣) فخر سويد بن ابي كاهل على بني شيبان فاستعدت عليه عامر بن مسعود الجمحي وكان والي الكوفة ، فدعاه وتوعده وأمره بالكف عنهم بعد أن كان قد أمر بحبسه ، فتعصبت له قيس وقامت بأمره حتى تخلصته ، فقال في ذلك :

يكف لساني عامر وكأنما ... يكف لسانا فيه صاب وعلقم
أتترك أولاد البغايا وغيبتي ... وتحبسني عنهم ولا أتكلم

(الاغاني : ١١/ ١٦٦) وانظر في المصدر نفسه مهاجاته للأعرج وحبس عامل الصدقة للشاعرين معاً .

شاعر حيف او عدوان . ولما حرك الحطيئة التنافس بين بيتين من قبيلة واحدة أوقع به عمر بن الخطاب عقوبة السجن . ولم يأذن بإطلاقه حتى توثق منه أن يمسك لسانه عن هذا السبيل[1] . وثمة شاعر آخر أفحش هجاؤه فامسك به عثمان بن عفان في الحبس حتى توفاه الموت[2] .

ولا نكران أن كثيراً من البداة قد استبد بهم الحنق من مراقبة السلطان والأخذ على أيديهم بالعقاب . وبرموا من كفكفة حرياتهم أو كبتها كلما تهددت المجتمع بشقاق وأحقاد . فشكوا شكاة المهضوم المقهور بعد أن تعودوا الدفاع عنها والمحاماة عن أحسابها[3] .

---

(١) شكاة الزبرقان بن بدر الحطيئة الى عمر بن الخطاب لهجائه اياه وسجن الشاعر بذلك خبر مشهور في كتب الأدب (انظر : طبقات ابن سلام : ٩٦ ـ ٩٨ ، والأغاني : ٢ / ١٧٩ .

(٢) هو ضابيء بن الحارث البرجمي ، وكان استعار كلباً من بعض بني جرول بن نهشل واستعادوه منه بعد أمد ، فغضب وهجاهم ورمى أمهم بالكلب ، فاستعدوا عليه عثمان بن عفان ، فاستاء من فحشه استياء بالغاً وأمر بحبسه ، فاغتاظ ضابيء وهم باغتيال الخليفة ، ففطن اليه وخلد في السجن . وله في سجنه شعر حانق مغيظ . (انظر : الشعر والشعراء : ١/ ٢٦٧ . وقصة حبسه في الطبري ٥/ ١٣٧ . وفي انساب الاشراف ٥/ ٨٤) .

(٣) نسمع هذه الشكاة من النابغة الجعدي في خلافة عثمان بن عفان عندما « رعت بنو عامر بالبصرة في الزرع ، فبعث أبو موسى الأشعري في طلبهم ، فتصارخوا : يا آل عامر ، يا آل عامر ، فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له ، فأتي به الى ابي موسى الاشعري . فقال له : ما أخرجك ؟ قال : سمعت داعية قومي ، قال : فضربه أسواطاً ، فقال النابغة :

رأيت البكر بكر بني ثمود ... وأنت أراك بكر الأشعرينا
فان يك ابن عفان أمينا ... فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبي وصاحبيه ... ألا ياغوثنا لو تسمعونا
ألا صلى إلهكم عليكم ... ولا صلى على الامراء فينا

(الاغاني : ٤/ ١٣٧) . وبيّن ما في هذا الشعر من ضيق من الامراء ومن دخولهم في الشؤون الفردية والقبلية .

وكان بعض أولي الأمر يأخذ المتهاجيين الظالم والمظلوم معاً[1] .

العصبية في العصر الأموي

ومن الممكن الجزم بأن الحزم والجد في ملاحقة مثيري العصبية ميزا صدر الاسلام بنوع من الوئام ، ولكن النفس العربية ظلت تحتفظ بكوامن العصبية التي ما لبث عصر بني أمية أن فجرها تفجيراً . وكان مبدأ مواجهة العدوان بالعدوان والظلم بالظلم يحكم العرب بداة وحضراً . وكان ذاك عند كثير منهم فوق الاعتبارات جميعها[2] ، لا يطامن منها الا خوف السلطان . فإذا أُمن العقاب تمردت فيهم حمية الجاهلية ، وأعادت العصبية سيرتها الاولى ، واستؤنف الصدام والقتال . وكانت فترات فوضى الحكم والنزاع على الخلافة

---

(١) كان سعيد بن عثمان بن عفان في خلافة معاوية يأخذ المتهاجيين معاً ، فقال له سويد بن كراع ، وكان سعيد طلبه ليحبسه لهجائه قوماً :

تقول ابنة العوفي ليلى ألا ترى ... الى ابن كراع لا يزال مفزّعاً
مخافة هذين الأميرين سهدت ... رقادي وغشتني بياضاً تفرعاً
على غير جرم غير أن جار ظالم ... عليّ فجهزت القصيد المفرّعا
أحقاً ـ هداك الله ـ أن جار ظالم ... فأنكر مظلوم بأن يؤخذا معاً . . .

(الاغاني : ١١/ ١٢٣) من ابيات .

(٢) ومصداق ذلك ان بعض الشعراء كان عاجزاً عن الإغضاء على الإساءة اليه او امتهان كرامة قبيلته ، فقد روى أبو الفرج ان « عدت بنو جعفر على جار لعقيل بن علفّه . فأطردت إبله وضربوه ، فعدا عقيل على جار لهم ، فضربه وأخذ إبله ، فأطردها فلم يردّها حتى ردوا إبل جاره ، وقال في ذلك :

بني جعفر إن ترجع الحرب بيننا ... نذقكم كما كنا نذيقكم قبل
فلا تحسبوا الإسلام غيّر بعدكم ... رماح مواليكم فذاك بكم جهل
بدأتم بجاري ، فانثنيت بجاركم ... وما منهما إلا له عندنا حبل

(الاغاني : ١١/ ٨٨) . وواضح من الشعر ان هذا البدوي يقدم العصبية على المبدأ .

تؤرث العصبية القبلية بين القبائل ثم لا يزعها إلا والٍ أو خليفة شديد البطش مخوف الإرهاب(١) .

وفي حياة العرب، زمن بني أمية ، فواجع قبلية لا تقل ضراوة عما كان يجري قبل الاسلام ان لم تكن اضرى واوجع ، اذ التقت القبائل القحطانية والعدنانية في الجزيرة وبلاد الشام في حروب طاحنة خلفت وراءها أعداداً من القتلى لا يستهان بها(٢) واضطرت السلطة إلى القبض على بعض فرسان العشائر وشعرائها والاقتصاص منهم سجناً وقتلاً إرضاء للجانب الآخر من خصومهم ، وتسكيناً للقبائل بالترهيب .

سعيد بن عيينة وحلحلة بن قيس :

وممن تناولتهم يد العقاب زعماء فزارة وهي قبيلة نزارية كبيرة ، دارت بينها وبين قبائل كلب اليمانية وقائع كثرت فيها الضحايا . وتزعم فزارة فيها فارسان شاعران ثأرا لها من كلب حتى أثخنا فيها ، وهما سعيد بن عيينة بن حصن وحلحلة بن قيس(٣) ، والتفت حولهما البطون والعشائر من قومهما وصارا

---

(١) كان زياد بن أبيه والخليفة عبد الملك والحجاج أكثر الحكام مكافحة للعصبية القبلية بعد عمر بن الخطاب (انظر خطبة زياد البتراء (في البيان والتبيين : ٢/ ١٢) . وإخافته الفرزدق لهجائه بني فقيم حتى اضطر للهرب من العراق (في الاغاني : ١٩/ ٣٠) وسجنه مرة بن محكان السعدي لاثارته المنافسة القبلية بإنهاب اموالـه الناس (في الاغاني : ٢/ ٩) وصنيع الحجاج بالضبابيين والجعفريين لاقتتالهما (في النقائض : ٢/ ٩٢٧) وموقف عبد الملك الصارم من الصدام القبلي بين فزارة وكلب (في انساب الاشراف : ٥/ ٣١٠) .

(٢) منها موقعة مرج راهط والمعارك بين قيس وتغلب في الجزيرة الشامية . (انظر : انساب الاشراف : ٥/ ١٣٦ و٣١٣) .

(٣) هو حلحلة بن قيس بن الأشيم بن سيار من بني العشراء من فزارة . (المصدر نفسه : ٥/ ٣١٠) .

مناط الآمال في الثأر والنصر . وعظمت شوكتهما في الجزيرة العربية . ولم تكونا مناهضتين للخلافة في دمشق ، ولكنّ الكلبيين جنحوا الى عبد الملك بن مروان وهددوا باستئناف الغارات القبلية . وكان على الخليفة ، وقد تغلب على سائر خصومه في الحجاز والعراق ، ان يحسم النزاع أصلا ، وان يفرض هيبة الدولة ، فأمر عامله على الحجاز الحجاج بن يوسف أن يقبض على الزعيمين الفزاريين وان يرسل بهما الى دمشق ، ففعل . وباتا في سجن عبد الملك ، وكان راغباً في استخلاصهما من الموت ، فجنح لارضاء كلب بالديات ، فتعنتت كلب . وكانت العصبية القبلية قد نفذت الى البيت المالك نفسه ، فمن كان من أم قيسية أيّد مطلب الديات ، ومن كان من ام يمانية رفض الا القتل[1] ، واستمسك كل بعناده ، وكادت المشادة تشعل بين الفرقاء شراً وهم بين يدي عبد الملك . فسارع الخليفة الى إرضاء القبيلة الموتورة ، ودفع الزعيمين الشاعرين لها ، فقتلا ، فضمن لحكمه ولاء القحطانية بذلك ، بيد أنه - على كل حال - صب على التعصب القبلي والنزاع سوط عقاب مرهوب . ولكنّ العصبية وأحقادها كانت تتمرد على أعنف أشكال العذاب ، ولا تلقي إلى الموت بالاً ، وإنما الهم والشغل إدراك الثأر وشفاء النفس بالايقاع بالعدو ، وغسل العار بالانتقام . وقد أخرج حلحلة بن قيس للقتل كما أخرج سعيد بن عيينه فما وهنا . وزعم كل منهما من غير مكابرة أنه يموت قريرا اذ يأتيه الموت بعد أن وفىّ أعداءه حسابهم وأربى[2] ، ولم يجزع الفزاريون لمقتل الزعيمين

---

(١) قال البلاذري : « وقدم على عبد الملك وفد كلب ، فعرض عليهم الديات فأبوها . . . وقال ابناء القيسيات ، وهم الوليد وسليمان ابنا عبد الملك وابان بن مروان ، لعبد الملك : لا تجبهم إلا الى الديات ، وقال خالد بن يزيد بن معاوية وابناء الكلبيات : لا ، إلا القتل ، واختصموا ، وتكلم الناس في ذلك في المقصورة حتى علت أصواتهم ، وكاد يكون بينهم شر » .

(المصدر نفسه : ٥/ ٣١١) .

(٢) كان مما أنشده حلحلة بن قيس وهو يساق الى الموت :

إن يقتلوني يقتلوني وقد شفى غليل فؤادي ما أتيت إلى كلب =

ولم تنكسر نفوسهم . ولكن تميزوا من الغيظ ، وجثموا يتربصون بأعدائهم الدوائر متحينين ساعة الانتقام(1) .

درّاج بن زُرْعة :

والفتن بين هذين الجذمين من قحطان ونزار في العصر الأموي كثيرة مريرة . غير أن الفساد تجاوزهما الى القبائل الأشقاء الشركاء في الأصل والديار . وربما هاج الفتنة شجار أو خلاف عابر . ثم تنشط رعونة البداوة في تعميقه وتضخيمه حتى تهيج عداوة لاهبة وصداماً متلاحقاً ينفرج دائماً عن قتلى من الفريقين . ومن أمثلة ذلك ماضري بين الضبابيين والجعفريين في الجزيرة العربية من قتال وهم من منبت واحد . وكان أولُّ الشر مشاجرةٌ فردية عند ماءٍ لهم ، وجراحةٌ طفيفة دب فيها التعصب حتى صارت جروحاً بليغة . ومد لهم في النزاع انهماك السلطة في الحروب الداخلية ، فلما استقام الأمر لدمشق ، واستعادت من ابن الزبير الحجاز ، جهزت للعشيرتين حملة خفيفة اخذتهم

= فقرت به عيني وأفنيت جمعهم   وأثلج لما أن قتلتهم قلبي
شفى النفس ما لاقت رفيدة كلها   وأشياخ ودٍّ من طعانٍ ومن ضرب

ومما قاله عيينه بن حصن حين حبس :

وإن أقتل فقد اقررت عيني   وقد أدركت قبل الموت ثأري
وما قتل على حر كريم   اباد عدوه يوماً بعار
فإن أقتل فقد أهلكت كلباً   ولست على بني بدر بزار

(انساب الاشراف : ٥/ ٣١١ - ٣١٢) . وبنو بدر : رهط الشاعر

(1) قال علي بن غدير الغنوي - الفزاري - في قتل سعيد وحلحلة :

وحلحلة القتيل مع ابن بدر   واهل دمشق أنجية عزين
فبعد اليوم أيام طوال   وبعد خمود فتنتكم فتون
خليفة أمة قسرت عليه   تخمط فاستخف بمن يدين

(المصدر نفسه : ٥/ ٣١٢) . وأنجية عزين : جماعات تتناجى .

بالقسوة والعنف حتى أعادتهم إلى الطاعة والمصالحة واستتابتهم والنكال أدنى لهم[1] .

وفي مثل هذه الفتن يتاح لبعض المغمورين ان يتقدموا الصفوف بما يظهر منه من بلاء وغناء وفتك في العدو . فاذا استعادت الدولة كلمتها النافذة أمسكت بهؤلاء الأفراد في السجون ، وأخذتهم بعقاب بئيس إمعاناً في مكافحة الفتنة ومحاسبة للمسرفين . وانتهى من الضابيين الى هذا المصير دراج بن زرعة[2] ، اذ وتر الجعفريين في أنفسهم حتى صار غير محتمل بقاؤه . وكان قتله أقل ما يفعله الخليفة لإطفاء ثائرة أعدائه . ولذلك قيده الحجاج وأرسله الى دمشق . وفي سجنها بكى نفسه بقصيدة لمّا أحس أنه مقتول[3] .

دولة بني أمية دولة عصبية

ولكن مكافحة الدولة العصبية القبلية في نطاق الفتن والمنازعات يجب ألا تحجب حقيقة تاريخية من الأهمية بمكان عظيم : وهي أن الدولة الأموية كانت العصبية القبلية هي التي رفعت دعائم حكمها وبقيت الموجهة لسياستها ومنشأ للأحداث الخطيرة التي هزتها ثم أنهت مدتها . ويرجع أول نشاطها إلى عهد معاوية بن سفيان والياً ، على بلاد الشام ، لعمر ثم لعثمان . فقد امتاز هذا الرجل ببعد النظر والتخطيط المحكم ، لكأنه كان يترقب ان يطلع عليه المستقبل بانتقال الخلافة اليه . فكان من همه أن يكسب ولاءَ القبائل الضاربة في إمارته . وكان معظمها يعتزي إلى اليمن ، وتنتشر ما بين دمشق وطبريا والأردن .

---

(١) أمر قائد الحملة بجمع الحطب حولهم وإيقاد النار حتى كادت تحرقهم ثم أمر باطفائها وهمّ بتحطيم أدرعهم وسلاحهم ، فتوسلوا اليه بالصفح ، فأخذ عليهم العهد ألا يعودوا لأمر الجاهلية أبداً . (النقائض : ٢/ ٩٣٠) .

(٢) هو درّاج بن زرعة بن الأعرف الضبابي . (المصدر نفسه) .

(٣) انظر قصيدته في النقائض (٢/ ٩٣١) ومطلعها :

ألا يا غراب البين أسمعت فاربع　　وطرْ بالذي قد حُمّ ، ويحك ، أو قعِ

وأعظمها بأساً وعدداً قبيلة كلب وزعماؤ ها من بني بحدل[1] . فاتخذ منهم أعواناً وأنصاراً ، ووثّق من صلته بهم بالإصهار إليهم ، ووجدوا هم بذلك قوة ونفعاً . فكانوا وفق هواه إخلاصاً ودعماً وتنفيذاً لأغراضه . فاختارهم ـ لذلك ولغيره ـ لسياسته ، على كثرة القبائل من قيسٍ وربيعة التي تملأ الجزيرة الفراتية[2] . وقد صدقته فراسته وساعفه جده . فهم الذين كسبوا له الخلافة من علي ، وهم الذين ردّوها الى بني امية بعد وفاته في أحرج اللحظات وقد بويع لابن الزبير في دمشق نفسها[3] . وكان نجاحهم في تنصيب مروان بن الحكم خليفة انتصاراً للقحطانية . وكان شعورهم يومذاك أن الخليفة إن هو الا صنيعتهم ، وانهم القوة الفعالة في أرض الخلافة[4] . والحق أن القحطانية فرضت الخليفة على

---

(١) كان حسان بن مالك بن بحدل زعيم كلب عند وفاة يزيد بن معاوية ، وكان عامله على فلسطين . (انساب الاشراف : ٥/ ١٣٢) .

(٢) من أسباب ذلك قرب منازلهم من عاصمته ، وبعدهم عن العراق موئل الفتن واعتزاؤ هم الى قبيلة واحدة تأتمر بإمرة زعيم واحد ، على حين كان القيسيون ـ من نزار ـ في قرقيسياء على ثغور الروم ، وعلى مقربة من العراق ، ولم يكونوا يملؤ ون الجزيرة وحدهم ، فإلى جوارهم قبائل من تغلب وهي ربعية . انظر في توزيع القبائل في بلاد الشام اخبار ايام قيس وكلب وتغلب كتب التاريخ ـ مثلاً ـ (انساب الاشراف : ٥/ ٢٩٨ ـ ٣٣١) .

(٣) كان الضحاك بن قيس بن خالد الفهري من صنائع معاوية ، وبعد موت يزيد استماله عبد الله بن الزبير وكتب اليه بولاية الشام ، فبايع له في دمشق سراً ثم جهراً . ثم تألّب على الضحاك ـ وهو قيسي ـ القبائل من كلب بقيادة حسان بن مالك بن بحدل ، وقتلوا الضحاك في موقعة مرج راهط قرب دمشق ، واستخلصوا الخلافة لمروان بن الحكم .
(انظر المصدر نفسه : ٥/ ١٣٦) .

(٤) مما يعزى الى حسان بن مالك بن بحدل الكلبي قوله بعد ايصال مروان بن الحكم مرشحه الى الخلافة :

فإلا يكن منا الخليفة نفسه ... فما نالها الاّ ونحن شهود

وقال بعض الكلبيين :

نزلنا لكم عن منبر الملك بعدما ... ظللتم وما أن تستطيعون منبراً

(انساب الاشراف : ٥/ ١٣٠) .

المسلمين فرضاً[1] . وفي هذا دليل على أن العصبية القبلية بلغت ذروة النفوذ والاقتدار اذ بسطت سلطانها على المركز الأول في الحكم ثم سرى أثرها الى مرافق الدولة وأوضاع الافراد . فاستأنفت نشاطاً حياً ـ فوق ما كان لها في الجاهلية ـ في قصور الخلفاء والامراء وفي البوادي ، وفي الاحداث الكبرى[2] . وكان بعض الخلفاء ، قد أفلح في تحقيق توازن قبلي بين العصبيتين اليمانية والنزارية[3] ، أما المرشحون للخلافة فاستندوا الى إحداهما ومالوا معها . فكان ولاة العهود إما قيسيين إما يمنيين في نزعاتهم . ويستتبع هذا عند تسلم أحد الفريقين الحكم إزاحة الخصوم جميعاً من مراكز الدولة والبطش بهم من غير رحمة[4] . وبلغ من سورة العصبية القبلية أن عادت القبائل تتلمس أحلافها القديمة التي تعاقدت عليها قبل الاسلام ، فيتقوّى بعضها ببعض ، وتستعين كل بنفوذ الأخرى في الخروج من الملمات والمحن . فالأيام كانت دولاً بين العصبيات ، وفي الحلف منعة احياناً وبقيا[5] .

---

(١) ألمع بعض الفزاريين أعداء كلب الى هذه الحقيقة في تنديده بعبد الملك بن مروان :

خليفة أمة قسرت عليه ... تخمط فاستخف بمن يدين

(المصدر نفسه : ٥/ ١٣٢) .

(٢) كان أولاد الخلفاء من القيسيات قيسيين ومن الكلبيات كلبيين ، وشهدت البوادي معارك دموية بين العصبيتين . (انظر من البحث : ص ١٦٠ وص ١٦٣ حـ ١ الحاشية ٢ .

(٣) هم معاوية وابنه يزيد وعبد الملك وابنه الوليد .

(٤) ساند هشام بن عبد الملك اليمانية ، وأيد الوليد بن يزيد من بعده القيسية ، وانتقم منهم يزيد الناقص على أيدي اليمانية ، واعتمد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين على القيسية ، فانضمت اليمن الى عدوه أبي مسلم الخرساني . (انظر في تتبع هذه الأخبار : الطبري : ٥/ ٣٩٢ و ٥٣٩ ـ ٥٧٢ والأخبار الطوال : ١/ ٣٤٨) .

(٥) كان الفرزدق من تميم وهي من ربيعة ، ولما ولي العراق خالد بن عبد الله القسرى وهو يمني متعصب هجاه الفرزدق تعصباً لنزاريته فسجنه واطال تقييده . ثم اطلقه بعد مدح كثيرٍ له ، وكان مما تعلق به الفرزدق حلف عقد في الجاهلية بين تميم وكلب :

الغــزو السياســي :

ويسمـح تقصي الحقائق التـاريخية بـالقول أن العصبيـة القبلية بمعنـاهـا الجـاهلي بسطت على النـاس سلطانها . فـأوغرت الصـدور وشحنتهـا عـداوة وحقداً ، ورجعت القبائل الى حال الغزو والتغاور واستيـلاء بعضها على تـراث بعض غنيمة . ولم يكن الغزو الحربي شر الأمور . فقد استحدث غزو جديد ، هو غزو سياسي ، ولكن لا يختلف عن الغزو الحربي في نتائجه ان لم يكن اثقل وطأة واشد نكالاً . وكان كتـاب الخليفة بـالولايـة او العزل قـرار النصر لفـريق والهزيمة لآخر ، والإذن بأن يأخذ الخصم خصمه بما شاء من العذاب . وكانت هذه الحقيقة ـ وهي أن استيلاء الولاة بعضهم على بعض ليس الا غزواً ـ شعور النـاس يومـذاك[1] . وراحت العصبية في تشفيهـا وانتقـالهـا لا تلقي بالاً إلى

أشـد حـبـال بيـن حيَّيْـن مــدرةً حبـال أمـرّت من تميم ومن كـلب
وليس قضــاعي لــدينـا بـخــائف ولو اصبحت تغلي القدور من الحرب

ومما اعتد به ايضاً حلف قديم بين تميم وقيس :

ألم تـر قيسـاً قيس عيـلان شمّـرت لنصـري وحـاطتني هنـاك قـرومهـا
فقد خالفت قيس على النـاس كلهم لأسـري ، لقـومي قيسهـا وتميمهـا
وعـادت عـدوي إنَّ قيسـاً لأسـرتي وقـومي اذا ما النـاس عـد صميمهـا

(الاغاني : ١٩/ ٢٥) .

(١) يدل على ذلك ان الناس كانوا يرون ان المسجونين من الولاة هم في حقيقـة الأمر أسرى في أيدي اعدائهم كالمحارب الأسير ، ويشهد بذلك شعر لابي الشغب العبسي مدح به خالد بن عبد الله القسري اليمني عندما أمر الوليد بن يزيد عامله يوسف بن عمـر الثقفي بالقبض على خالد وتعذيبه حتى الموت ، فقال :

ألا إن خيـر النــاس حيــاً وميتـاً أسيـر ثقيف عنـدهم في السلاسـل
فان تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ولا تسجنـوا معـروفـه في القبـائــل

(وفيات الاعيان : ٢/ ٨) .

المصلحة العامة وحفظ الحقوق وصيانة الأكفاء . فكان بطشها يصيب أحياناً كبار القادة ورجال الفتح . وكان هؤلاء لا يسوؤ هم العزل ، إنما الكارثة عندهم ان تسند الإمارة الى أعدائهم من القبائل ، وأن يتركوا في أيديهم أسرى . وهذا الاحساس المر نستشفه في شعر محمد بن القاسم أمير المشرق والهند للحجاج بن يوسف ، وكان من رهطه . ولما تولى سليمان الخلافة كان في نفسه الكثير على الحجاج وكان قد مات ، فصب انتقامه على بيته وأعوانه . فولى الهند بعض اليمنيين من خصوم الحجاج ، فقيد محمد بن القاسم وأرسله الى واسط ليموت في سجنها معذباً . وكان أكثر ما اشتد على محمد أن ألقى بيده الى بعض القبائل من اليمن أعداء ثقيف ، على حين كان قادراً على العصيان والامتناع بإمارته ، لولا ما كان يكرهه من الخروج عن الطاعة والجماعة[1] .

ابراهيم بن العربي

وقصة تولية كثير من الولاة وعزلهم لا تخرج عن دوافع العصبية القبلية في

---

(١) قال البلاذري : « مات الوليد بن عبد الملك ، وولي سليمان بن عبد الملك ، فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، وولي يزيد بن ابي كبشة السكسكي السند ، فحمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فقال متمثلاً :

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسَداد ثغر

فبكى أهل الهند على محمد ، وصوّروه بالكيرج ، فحبسه صالح بواسط ، فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً
فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وقال :

لو كنت أجمعت القرار لوطئت إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عكٍ عليّ أمير
ولا كنت للعبد المزوني تابعاً فيا لك دهراً بالكرام عثور

فقيده صالح في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم ، وكان الحجاج قتل آدم اخا صالح « فتوح البلدان : ٦١٨ » . والسكاسك وعك من اليمن .

الدولة الأموية ، إذ كان على الولاة الالتزام بسياسة الخليفة القبلية ، فيضطهدون الفريق الآخر الذي يأخذ في التجمع حول ولي العهد ينتظر انتقال الدولة اليه ليثأروا لأنفسهم . فلقد نرى والياً شديد الضبط لولايته هو إبراهيم بن العربي ، كان على اليمامة ، وهي مخوفة بعيدة عن عاصمة الملك ، فكافح فيها اللصوص ، ونشر الأمن ، وأقر النظام حتى خشيه العصاة . وكان أميراً مدة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد[1] ، فلما استخلف سليمان وثب عليه اعداؤه واثقلوه بالحديد ، وسيروه إلى سجن المدينة . فأمكن اعداءه من نفسه ـ صنيع محمد بن القاسم ـ تورعاً عن عصيان الخليفة . ولكن ما لبث ان تبين أن آسريه الحقيقيين هم خصومه الشاغبون عليه ، وليس للخليفة من أرب في حبسه الا تنصيب أنصاره على الأقاليم . فتمنى لو توارى عن الانظار في مجاهل الارض ، وهو الخبير بفجاجها ودروبها ، ولم يستسلم لأعدائه[2] .

---

(١) اخبار ابراهيم بن العربي قليلة ، وتتبعها في كتب التاريخ يفيد أن اباه كناني وأمه أنصارية ـ فاطمة بنت شريك ـ ربت مروان بن الحكم ، وانقذت حياته يوم الدار ـ يوم مقتل عثمان بن عفان ـ وكان ابنها ابراهيم مع آل مروان ، واشترك في حروبهم ، وكان بصيراً بالادارة ، ذا دراية بالطرق والنواحي ، انقذ حياة الوليد بن عبد الملك في عهد أبيه يوم كاد أنصار عمرو بن سعيد الأشدق يقضون عليه ، ولما استتب الأمر لعبد الملك ولاه اليمامة . قبض على الشاعر اللص جحدر الفقعسي فمدحه فلم يخل سبيله بل أرسله الى الحجاج ، ويبدو أنه كان تابعاً لإشراف الحجاج ـ ومن هذا الجانب جاءته من سليمان بن عبد الملك النكبة مع انه ربيب البيت المرواني (انظر : انساب الاشراف : ٥/ ٧٩ و ٣٣٩ و ٣٤٧ و ٤/ ١٤٣ « تعليقات » ومنتهى الطلب ٢/ ٢٦٢)

(٢) وشعره يحدث بذلك :

لعمرك إني يوم سلع للائم	لنفسي ، ولكن ما يرد التلوم
أأمكنت من نفسي عدوّي ضلة	ألهفي على ما فات لو كنت أعلم
لو أن صدور الامر يبدون للفتى	كأعقابه لم تُلفه يتندّم
لعمري لقد كانت فجاج عريضة	وليل سخامي الجناحين أدهم
إذ الأرض لم تجهل علي فروجها	وإذ لي عن دار الهوان مراغم
فلو شئت اذ بالأمر يسر لقلصت	برحلي فتلاء الذراعين عيهم =

عاصم بن يزيد الهلالي

وكان الانتقام أعمى غشوماً لا يتورع عن نكال وقتل ، قد أبطل في حسبانه الاعتبارات الإنسانية والأخوية ، فكم من إخوان جمعت بينهم دروب الجهاد والغزو ، وألفت بين قلوبهم على المحبة ثم فرقتهم العصبية أعداء ، فأمسك بعضهم ببعض في الحبوس حتى عفا العداء على سابقة المودة[1] .

العصبية القبيلية والنسب :

ذلك أن العصبية القبلية على ما كان وراءها من المآرب والمكاسب آحنت محض حمية . واعتزت القبائل بأصولها تفاخر بملء الثقة والاعتزاز ، وتجادل عن نفسها ، وتناضل في ميدان السياسة لتتبوأ أفضل ما يستطيع عددها وبلاؤها تسويغها إياه من النفوذ والسلطة والعوائد المادية الضخمة ـ. فكان الحرص على النسب والاعتزاز وجه العصبية القبلية وعنوانها . لكأنه الحبل يشد العربي الى شجرة الماضي التي استثمر منها ما شاء له الادعاء من المفاخر والمآثر . وكان أعظم سبة يمنى بها أن يُغْمز في نسبه او يدحض عنه . فانه يهي عند الناس وهيا يزلزله عن مكانته ويجرده من قوته التي يناضل بها في مجتمع دعائمه

= عليها دليل بالفلاة نهاره ... وبالليل لا يخطي لها القصد منسم

(حماسة ابي تمام : ٢/ ١٣٥ . بولاق ومعجم البلدان : سلع) .

(١) كان عاصم بن يزيد الهلالي صديقاً لأسد بن عبد الله القسري ـ والي خراسان من قبل اخيه خالد ـ وكان أسد شديد العصبية لليمنية على المضرية ، وقد رمى بالصداقة للعصبية ، فسجن عاصماً ، فكتب له :

حباك خليلك القسري قيداً ... لبئس على الصداقة ما حباكا

فأنقذ ، يا فداك أبي وأمي ... أسيراً طال ما انتظر انفكاكا

بمرو الشاهجان اذا تروّت ... حديدة ساقه بدم دعاكا

أأخلعكم وأضرب خالعيكم ... بنصل السيف كيف يكون ذاكا

(الوحشيات : ١٠٣ . محمود محمد شاكر) .

العصبيات[1]. فكان المغموز نسباً ـ على وجه الشك الراجح لاعلى الافتراء والبهتان ـ يكتنفه الحرج من غير جانب . فان دفعته ظروفه الى منصب هو مطمع الطامعين اعتورته ألسنة الاتهام والطعن تهدم مجده المستحدث فتسخر منه ، وتعجب من الأقدار التي رقيت به سلم الجاه وهو غير مؤهل قبلياً له . ولا شك ان هذا الهجوم يحنقه أيما احناق وليس لديه ما يتدرأ به من الحجة والدفاع الا أن يثأر لنفسه التي فدحها الاتهام ، فيستذل الأشراف ، ويخفر من ذممهم ويتزوج من بناتهم وهم كارهون ، فان تعرض له شاعر وشهر بنسبه المدعي اخذه باطول حبس وافظع عذاب [2] .

يزيد بن مفرغ الحميري

وتقدم قصة الصراع بين الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري وآل زياد بن ابي سفيان [3] خير مثل لموقف العصبية القبلية من النسب . فقد روت كتب التاريخ

---

(١) غضب مصعب بن الزبير على بعض أشراف البصرة فشتمهم واتهم كلاً منهم بنسبه وأصله ، فكانوا عنده إما من عبيد أو من أعاجم ، وتهدد كلاً منهم برده الى حقيقة نسبه . انظر خبر يوم الجفرة بالبصرة في (انساب الاشراف : ٤/ ١٦٢) .

(٢) يعتبر عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والي البصرة لمعاوية أوفى مثل ، فلم يرع في ولايته لشريف كرامة ، أخفر ذمة المنذر بن الجارود ، فأخذ من جواره الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري اذ لجأ اليه ، وكانت ابنة المنذر ـ شريف عبد قيس في البصرة ـ عند عبيد الله . ومن قبل سأل يزيد بن مفرغ الأحنف بن قيس جواره فاعتذر قائلاً : « انا لا أجير على ابن سمية » . وسمية ام زياد ابن ابيه ، وكانت متهمة في الجاهلية . وكان عبيد الله يراغم اشراف القبائل في البصرة بالزواج من بناتهم ، فيزوج منهن نفسه وإخوته ، ليوازي نسبه المتهم بأنسابهم حتى هم بعضهم بقتل العروس هرباً من العار . وكان هو اول من طلب وضع كتاب في المثالب ليرد على الطاعنين عليه . (انظر انساب الاشراف : ٥/ ٧٩ ـ ٨٣) .

(٣) اشهرهم بعد ابيهم عبيد الله ثم اخوه عباد . واستعمل معاوية عبيد الله على البصرة ، وكان له تدبير واسع في إيصال مروان بن الحكم الى الخلافة بعد يزيد ، وقتل وهو يسعى لاسترداد العراق والياً لعبد الملك . (انظر : انساب الاشراف : ٤/ ٨٣ و ٥/ ٢٥٠) .

والادب معا ما لقي يزيد بن مفرغ على يد هذه الاسرة من التشهير والتنكيل[1] . وجماع ما روى أن الشاعر هجا عباد بن زياد بن أبي سفيان والي سجستان وغمزه في نسبه ، فأحنقه وأخاه عبيد الله والي البصرة ، كما أغضب بذاك الخليفة معاوية ، فأذن لهما بتأديبه . فأخذاه بعذاب داءٍ حتى كاد يتلف . ثم حمي له قومه من اليمانية ، فكلموا فيه معاوية حتى أرسل في الإفراج عنه وتسريحه[2] .

اما اذا احتكمنا الى شعره إبّان محنته فإنا واجدون فيه تفاصيل جمة تشهد أن العصبية القبلية كانت من وراء بلية الشاعر وإهانته والسياط المصبوبة على ظهره ، وأن قد كان بحق ضحية التنافس السياسي بين بعض وجهاء قريش وآل زياد .

ومنشأ المنافسة هو الخطوة الجريئة المثيرة التي أقدم عليها معاوية بن ابي سفيان اذ استحلق زياد بن أبيه بنسبه ، فأدخل على بني أمية رجلاً ليس منهم . وكان معاوية في تدبيره يهتدي بما تقضي مصلحة أسرته في تدعيم الحكم . ويضع المصلحة فوق الاعتبارات كلها[3] . ولم يأبه بما أثاره هذا الإجراء من

---

(١) عرضنا صورة لذلك في الحديث عن التعذيب في (ص ٥١٦) .

(٢) انظر حديثه في (الاغاني : ١٧ / ٥٧)و (انساب الاشراف : ٥/ ٧٧ ـ ٨٠) .

(٣) كان معاوية بن ابي سفيان صاحب حكم ورجل سياسة قبل كل شيء ، وعندما انتهت إليه الخلافة بعد مقتل علي لم يكن ضبط العراق عليه سهلاً ، ولا شك أنه نظر في البيت الأموي فلم يجد رجلاً قادراً على السيطرة على العراق ، ولعله لم يجده في انصاره من قريش . وكانت العراق بحاجة الى خبير جريء عادل بطاش . وقد وجد ضالته في زياد بن أبيه ، وكان من قبل والياً مجرباً لعلي بن أبي طالب على البصرة ، فغامر معاوية مغامرة موفقة هداه اليها ذكاء محنك ، اذ أعلن على الملأ أن زياداً أخوه من أبي سفيان ، فمنّ على زياد بنسب رفيع ، فضمن بذلك ولاءه وولاء أولاده من بعده ، ورمى العراق بصاحبها المدبر . والملاحظ أن خلافاء بني امية قل أن جعلوا قريشاً على العراق ، وكانوا يتخيرون له الولاة من العتاة الاشداء .

السخرية في الأوساط القرشية والعربية ، ولا بغضب الأمويين انفسهم[1] . ثم جنى هو وابنه يزيد من جهود بيت زياد ثمارا قريبة نافعة ، فضبطوا لهم اشد البلاد شغباً عليهم ، وقتلوا من خصومهم رجالاً يخشى قتلهم أكثر الناس بعداً من ورع[2] . وكان معاوية لا يتوجس منهم نشوزاً او خيانة لأنه ملاذهم الوحيد من سائر العرب . ومن ثم سخرهم هو وابنه يزيد من بعده في البسط على الناس .

وبعد موت زياد صار أبناؤه امراء مرموقين ذوي ثراء وسلطان ، ومنتجعاً لشعراء زمانهم . وصحب يزيد بن مفرغ عباد بن زياد ، وسار معه في حاشيته إلى اقصى المشرق طمعاً بما يؤمله الاتباع من الوفر والغنائم من جراء الصحبة والغزو . ولكن لا يلبث الجفاء ان يباعد بين الامير والشاعر . واذا الشاعر يهدي الى عباد الهجاء اللاذع ، والأمير يضيق عليه ويجرده من ماله ويثير عليه الغرماء ويصادره لهم حتى أدقع وحمله على بيع غلامه وجاريته ، ثم اضطره الى الهرب من حاضرة سجستان الى البصرة .

وبواعث الخلاف والهجاء هي ما يعني البحث ، والروايات تردها الى أسباب سطحية لا تفسر هذا الهجاء الصامد العنيف على السجن المرهق الطويل[3] ، على أن الهجاء في ذاته يكشف عن الدوافع الحقة . فنرى الشاعر

---

(١) ذكر المؤرخون ان الشاعر ابن قتة نظم في ذلك شعراً نسبه الى ابن مفرغ الحميري درءاً لغضب معاوية عنه :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال: أبوك عف ... وترضى أن يقال: أبوك زان
فأقسم أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان

(انساب الاشراف : ٤/ ٧٩) .

(٢) عبيد الله بن زياد هو الذي أقدم بإصرار وعمد على قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما .

(٣) ذكر ابن قتيبة أن عباد بن زياد كان طويل اللحية عريضها ، فبلغة هجاء يزيد للحيته :

يوازن فيه بين عباد بن زياد وأمير قرشي عريق النسب موازنة المفاضل ، وهو سعيد بن عثمان بن عفان ، ولّاه معاوية خراسان ليستتم فتح أقاصيها ، فيخسّ عباد عند الموازنة نسباً وكفاءة ، فإمارته عجب على الايام[1] .

وتفيض الصورة الهجائية بالكثير من الأسباب الموضحة ، فقد كان الشاعر حليفاً لقريش وولاؤه فيهم منذ أبيه[2] ، نشأ بين ظهرانيهم وأحبهم ، فهو ـ على ما كان عليه من أصل يمني ـ يشعر أنهم قومه حقاً[3] ، ويقتضيه الواجب أن ينافح عنهم وأن يحفظ غيبهم ، وأن يتجرد لخصومهم . وكان سعيد بن عثمان صديقاً للشاعر منعماً . وما كان القرشيون ـ والأمويون منهم خاصة ـ ليرتاحوا لآل زياد ، فهم عندهم أدعياء غير اكفاء نسباً لهذه المناصب ، وكانوا ـ بلا شك ـ يرون أنفسهم أحق بها وأجدر . وكان آل زياد يبادلونهم النفور .

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً ... فنعلفها دواب المسلمينا

فجفاه وحقد عليه . (الشعر والشعراء : ١/ ٢٧٦ . دار الثقافة)

(١) وفي ذاك يقول لعباد :

أيها الشاتم جهلاً سعيداً ... وسعيد في الحوادث ناب

ما أبوكم مشبه لأبيه ... فاسألوا الناس بذاكم تجابوا

ان عاماً صرت فيه أميراً ... تملك الناس لعام عجاب

(الاغاني : ١٧/ ٥٩) .

(٢) انظر الشعر والشعراء : ١/ ٢٧٦ .

(٣) كان ابن مفرغ يلح على هذا الترابط وهو سجين ، فقال مرة :

كنت منهم ما حرموا فحرام ... لم يراموا ، وحلهم من حلالي

(الاغاني : ١٧/ ٢٨) وقال :

قل لقومي لدى الأباطح من ... آل لؤي بن غالب ذي الجود

سامني بعدكم دعي زياد ... خطة الغادر اللئيم الزهيد

(المصدر نفسه : ١٧/ ٦١) .

(٤) نوادر المخطوطات : ٦ ص ١٦٦ .

وكان عبيد الله بن زياد على البصرة مسؤولاً عما وراءها شرقاً ، فولى أخاه عباداً سجستان غير أن معاوية ولى على خراسان سعيد بن عثمان ، وأمر عبيد الله ان يُعينه بالرجال والأموال ، وبذلك غدا شرقي الخلافة مجالاً للمنافسة بين عبادوسعيد ، ويدل الهجاء المشار اليه أن عباداً امتعض لولاية سعيد على خراسان او تنقصه ، فوجب على الشاعر ان ينهض بحق الحلف والصداقة ، فإن أغضى ألام ، وان وفى خسر القرب من عباد وتعرض لنقماته ، وإذ آثر الشاعر الثانية على الأولى نشبت بينه وبين الأمير حرب ، يقف فيها اللسان لجبروت السلطان .

وكان أشراف قريش ـ من وراء الشاعر ـ يشدون على يده ، ويباركون هجاءه عباداً ، وعباد لا يغيظه شيء مثل مقارنته بسعيد[1] .

ولعل حلف الشاعر في قريش حال بين الامير وحبسه بادىء الأمر . ولكن مقامه عند عباد أصبح غير مأمون ، فرحل يزيد بن مفرغ الى البصرة ، ولم يستطع عبيد الله الإقدام عليه حتى استأذن معاوية ، فأذن له بتأديبه بعد أن أحفظه عليه[2] ، وإذ ذاك طلبه حتى عثر عليه ، ولم يحمه منه في البصرة جوار قبلي .

---

(١) كان يزيد يعمد في المقارنة الى إظهار المفارقة بين الرجلين إمعاناً في هجاء عباد وهو يعذبه :

ان تركي ندى سعيد بن عثما	ن بن عفان ناصري وعتيدي
واتباعي أخا الضراعة واللؤ	م لنقص وفوت شأو بعيد
قلت والليل مطبق بعراه	ليتني مت قبل ترك سعيد
ليتني مت قبل تركي أخا النجد	ة والحزم والفعال الشديد
عبشمي أبوه عبد مناف	فاز منها بتاجها المعقود
ثم جود لو قيل: فيه مزيد	قلت للسائلين: مامن مزيد

(الاغاني : ١٧ / ٦١) و (الديوان ١٤٢ ق ١٩) من اثني عشر بيتاً .

(٢) مما اورده البلاذري أن عباد بن زياد « كتب الى اخيه عبيد الله بشعر لابن مفرغ يقول فيه :

واخذه بتشهير مفظع على مرأى ومسمع من أشراف قريش ، وسيّره وهو مقيد معذب الى اخيه عباد بسجستان ليتشفى منه[1] .

وابدى الشاعر تجلداً وصبراً ، ولم يزدد الا استهانة بآل زياد على ما هو فيه من الابتلاء ، موقنا ان القرشيين حلفاءه مستنقذوه مراغمة لعبيد الله بما لهم من وجاهة عند الخليفة[2] .

إذا أؤدى معاوية بن حرب ... فبشر شعب قعبك بانصداع
شهدت بأن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس ... على وجل شديد وارتياع

فأنشده عبيد الله معاوية ، وكان وافداً إليه ، واستأذنه في قتل ابن مفرغ ، فقال : اما القتل فلا ، ولكن أدبه . « انساب الاشراف : ٤/ ٧٩ » .

(١) استجار ابن مفرغ بالمنذر بن الجارود من ربيعة ـ وكانت ابنته عند ابن زياد ـ فأجاره ، فدس عبيد الله من أتاه به ، فسقاه دواءً سلحه في ثيابه ، وهو على حمار يطاف به في البصرة ، وذكر ابن المفرغ عجز المنذر عن حمايته :

تركت قريشاً أن أجاور فيهم ... وجاورت عبد القيس أهل المشقر
أناس أجارونا فكان جوارهم ... أعاصير من فسو العراق المبذر
فأصبح جاري نائماً متبسطاً ... ولا يمنع الجيران غير المشمر

(الديوان : ١٥٨ ، ق ٢٨) من سبعة ابيات .

(٢) وفي ذلك يقول ابن مفرغ :

قرنت بخنزير وهر وكلبة ... زماناً وشان الجلد ضرب مشذب
وجرعتها صهباء من غير لذة ... تصعد في الجثمان ثم تصوب
من الطف مجلوباً إلى أرض كابل ... فملوا وما ملَّ الأسير المعذب
فلو أن لحمي اذ وهى لعبت به ... كرام مُلوك أو أسود وأذؤب
لهونّ من وجدي وسلى مصيبتي ... ولكنما أودي بلحمي أكلب
أعباد ما للؤم عنك محول ... ولا لك أم في قريش ولا أب
سينصرني من ليس تنفع عنده ... رقاك ، وقرم من أمية مصعب
وقل لعبيد الله مالك والد ... بحق ، ولا يدري امرؤ كيف تنسب

(الديوان : ١١٤ ق ١) من خمسة عشر بيتاً .

واكبر الظن ان ترقبه لمسعاة حلفائه لافتكاكه لم يكن حدساً محضاً . بل هي وعود حقة بأنهم ناصروه . ويؤيد هذه الدعوى توالي الأحداث ثم الظروف النفسية التي تقلب فيها الشاعر في سجنه كما يشهد بها شعره . وكان يزيد قد جمجم أول الأمر بهذه الوعود جمجمةً ثم ألمح إليها إلماحاً خفيفاً ثم صرح بها أيّما تصريح حين أفظعه العذاب ونفذ منه الصبر .

ويعين شعره الباحث على تتبع مواقف الشاعر الحبيس وتطوره النفسي ، وعلى تبين اثر العصبية القبلية في محنته واستغلال السياسة لها استغلالاً نفعياً خالصاً . فقد كان بادىء بدء كثير الاعتداد بأشراف قريش يترقب انفلاته بين ليلة وأخرى بمساعيهم ، ولكنه اضطره إبطاء الافراج عنه الى تذكيرهم بمحنته وشقائه ، فأهاب بهم بصوت يشوبه الأسى والثقة معاً ان يسرعوا الى ولي عهد الخليفة في دمشق ليكلموه فيه . وكان الشاعر يطمع بأبعد من الخروج من الحبس : وذلك بأن يدال له من ابن زياد بم اصابه به من حيف(١) .

ولكن الايام تتوالى وما من جديد . ويتلفت إلى حلفاء الأمس فاذا هم غارون في نعيمهم قد تركوه للسجن والعذاب كأنهم ليسوا من أمره في شيء . فيرسل في عتابهم عتاباً رفيقاً ، ملمحاً أنه من أجلهم نزل منزلة الضنك مدافعة

---

(١) قال :

قــل لقـومي لــدى الأبـاطــح من آ	ل لـؤي بـن غــالـب ذي الـجـود
ســامـنـي بـعــدكـم دعــي زيــاد	خـطة الـغـادر اللئـيم الـزهـيـد
كــان مـا كــان في الأراكــة واجـتـ	ـب ببـرد سنـام عـيشـي وجيـدي
أوغــل العبـد في العقــوبــة والـشـ	ـتـم وأودى بـطارفـي وتـليـدي
فــارحلوا في حـليفـكم وأخـيـكـم	نحـو غـوث المستصـرخين يـزيـد
فــاطلبــوا النصف مـن دعيّ زيــاد	وسـلوني بـمــا ادعـيـت شـهــودي

(الاغاني : ١٧/ ٦١) و(الديوان : ١٤٢ . ق : ١٩) من اثني عشر بيتاً . الاراكة : جاريته وبرد غلامه ، وكانا منه بمنزلة الولد .

عن احسابهم وتهديماً لخصمهم . اذ يعد نفسه فيهم ، على ان له في قومه من اليمن ـ لو شاء ـ ناصراً اي ناصر[١] .

وابطاء حلفائه عليه مدعاة للتساؤل : أكانوا عاجزين عن استخلاصه أم متوانيين ، أما العجز فظن غير قريب . وأما التقصير فقد يكون على نية وعمد او إهمالاً وفتوراً . والشعر يثبت أن قد تركوه في عذابه الأليم عمداً وهم يوصونه بالصبر صبر الأبطال ويزعمون ان ابن زياد عليهم هين . فلم هذا الصنيع ؟ ان هؤلاء القرشيين الذين كانوا ينفسون على ابناء زياد مناصبهم وسلطانهم كانوا يتمنون ان تزداد المعركة ضراوة بينهم وبين الشاعر ليحطم هجاؤه او ليشوه مجد آل زياد السياسي ، وليس ببعيد ان تكون المعركة بين الشاعر وابني زياد من تخطيطهم ، وإلا فقد أمدوها بالوقود الكافي[٢] .

---

(١) وأول الابيات :

لعمري لو كان الأسير ابن معمر — وصاحبه أو شكله ابن اسيد
ولو انهم نالوا أمية أرقلت — براكبها الوجناء نمو يزيد
فأبلغت عذراً في لؤي بن غالب — وأتلفت فيهم طارفي وتليدي
ودافعت حتى أبلغ الجهد فيهم — دفاع امرىء في الخير غير زهيد
فكم من مقام في قريش كفيته — ويوم يشيب الكاعبات شديد
وخصم تحاماه لؤي بن غالب — شببت له ناري فهاب وقودي
وخير كثير قد أفأت عليكم — وأنتم رقود أو شبيه رقود
فان لم يغيرها الإمام بحقها — عدلت الى شم شوامخ صيد
فناديت فيهم دعوة يمنية — كما كان آبائي دعوا وجدودي

(الديوان : ١٤٥ . ق : ٢٠) . وابن معمر : هو عمر بن عبيد الله بن معمر سيد بني تيم في قريش ، كان قائداً لمصعب بن الزبير لعبد الملك ، وابن أسيد : هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من بني أمية ، وكان حلف الشاعر في آل أسيد . وأمية أخو خالد المذكور . ويزيد هو ابن معاوية وولي عهد الخليفة .

(٢) والشعر الذي يلمح بذلك :

أي بلوى معيشة قد بلونا — فنعمنا ، وما رجونا خلوداً =

ويؤيد هذا الرأي أن أشراف قريش لما أحسوا بعتابه سلكنا مسلك من يريد أن يدافع عن نفسه اللوم او يبلغ العذر من غير جد صادق في انقاذ شاعرهم وحليفهم ، اذ كانوا يطمعون بمزيد من هجائه آل زياد شفاء لما في انفسهم ، فارسل بعضهم رسالة الى معاوية في شأن ابن مفرغ لم تصنع شيئاً . ولم يقنع الشاعر هذا المسعى وعلم ما فيه من الضعف وقلة الجدوى ، على حين يهدده الموت ويقطعه النكال ، وهم مبطئون . فعرض بتلكئهم تعريضاً صريحاً ، وهمّ أن يكشف عما كان بينه وبينهم من اتفاق آمروه عليه سراً وجهراً ، وصرخ بهم أن السعي الصادق ان يذهبوا بأنفسهم الى الخليفة ، فيستصدروا أمره بإطلاقه ، وأن يغضبوا له كما تغضب البطون القوية لحلفائها وجيرانها من غير تهيب لسطوة وال ، وظل يزعم أنه لولا حلفه فيهم وثقته بقدرتهم وحرصه على هذا الحلف لأخرجه قومه اليمنيون وهم ما هم عند معاوية [1] .

= ودهور لقيننا موجعات وزمان يكسر الجلمودا
فصبرنا على مواطن ضيق وخطوب تصير البيض سودا
ظل منها النصيح يرسل سراً لا تهالنّ ان سمعت الوعيدا
أفإنس ما هكذا صبر إنس أم من الجن أم خلقت حديدا
لاذعرت السوام في وضح الصبح مغيرا ولا دعيت : يزيدا
يوم أعطي مخافة الموت ضيما والمنايا يرصدنني أن أحيدا
طالعات أخذن كل سبيل لاشقيا ، ولا يدعن سعيدا

(الديوان : ١٣٧ . ق : ١٥) . وقبلها ثلاثة ابيات .

(١) قال بعد أربعة ابيات فيها الخوف من الموت والقتل :

اصبحت لا من بني قيس فتنصرني قيس العراق ولم تغضب لنا مضر
ولم تكلم قريش في حليفهم اذ غاب ناصره بالشام واحتضروا
والله يعلم ما تخفي النفوس وما سرى أمية أو ما قال لي عمر
وقال لي خالد قولاً قنعت به لو كنت أعلم أني يطلع القمر
قولاً لطلحة ما أغنت صحيفتكم وهل لجارك اذ أوردته صدر
لو أنني شهدتني حمير غضبت دوني ، فكان لنا فيما جرى غير
رهط الاعز شراحيل بن ذي كلع ورهط ذي فائش ما فوقهم بشر =

ولم ينتفع بذاك العتاب القاسي اذ لم يكن من حلفائه الا السكوت المطبق عن قصيدته فتركوه لمصيره بعد أن استخرجوا منه الهجاء لآل زياد . وتكشف للشاعر مراوغتهم له وان قد قدموه طعماً رخيصاً ، وجعلوا من سجنه وعذابه سبباً لمرضاة انفسهم بما نال الهجاء من خصومهم . فأسف على حلفه فيهم ، وأعلن بجلاء انهم آمروه على التعرض لآل زياد ، ووعدوه النصرة ، ولكنهم خذلوه خذلانا مبيناً[1] . واذ ذاك أوى الى قومه مَن اليمن ، وكانت قوتهم في دمشق . فما أن أرسل اليهم بشعر يستصرخهم حتى حميت أنوفهم فدخلوا على معاوية ، ولم يخرجوا الا بالعفو والتخلية عنه[2] . وكانت فرحته باسترداد حريته غامرة ،

= او كنت جار بني هند تداركني — عوف بن نعمان أو عمران أو مطر
فمن لنا بشفيق أو بأسرته — ومن لنا ببني ذهل اذا خطروا

(الديوان : ١٥١ . ق : ٢٣) . واحتضروا ـ بالبناء للمفعول ـ منعهم من السفر مانع وأمية وعمر وخالد هم المذكورون في القصيدة قبل السابقة . وسرى : أسر الحديث اليه . ومطلع القمر : مجيء الفرج . وطلحة الطلحات : كان اجود اهل البصرة استصرخه الشاعر فكتب مع من كتب من قريش في نصرته . وشراحيل وذو فائش : من اليمن من انصار معاوية . وبنو هند وبنو ذهل من بكر وائل . وشفيق بن ثور من بني سدوس من اشراف البصرة زمان الشاعر : اثنى عليهم ليستثير هممم حلفائه من قريش .

(١) وصرح بذلك من قصيدة طويلة جاء فيها :

لو بغيري من معشر لعب الدهـ — ـر لما ذم نصريّ واحتيالي
كم بكاني من صاحب وخليل — حافظ الغيب حامد للخصال
ليت اني كنت الحليف للخم — وجذام أو طيء الاجبال
بدلاً من عصابة من قريش — اسلموني للخصم عند النضال
كنت منهم ما حرموا فحرام — لم يراموا وحلهم من حلالي
خذلوني وهم لذاك دعوني — ليس حامي الذمار بالخذال
لا تدعني فداك أهلي ومالي — إن حبليك من متين الحبال
حسرتا اذ أطعت أمر غواتي — وعصيت النصيح ضل ضلالي

(الاغاني : ١٧/ ٥٨) .

(٢) ورد الخبر في هذا الفصل (ص ١٣٢ ـ ١) .

بعد حبس طويل وعذاب ثقيل ، فأحس بنعمة الخليفة عليه ، فشكر لـه شكراً مخلصاً ، وخرج لا يميل الى حلفائه ولا على اعدائـه . وكان راضيـاً أن يظفـر بالعافية بعد معركة لم تكن في صميمها معركته هو[1] ، ولعل عبيد الله بن زياد أدرك ان الشـاعر ضحيـة اكثر منـه خصمـاً ، فـأغضى عنـه وأحسن اليـه بعض الاحسان[2] .

والحق أن يزيد بن مفرغ الحميري عاش مأساة نفخت فيها العصبية القبلية ريحاً دوياً . فيها دخل السجن وبقوتها خرج . ومأسـاته مثـل حي للصراع بين العصبية والسلطة ، وفيها الدليل على أن الحكام الأشداء كانوا أنفذ اثراً وأعلى يداً من عصبية القبائل .

---

(١) ويتجلى فرحه في شعر خاطب به بغلة البريد التي قدمت له ليرتحل من محبسه الى الشام :

عـدس ، مـا لعبـاد عليـك إمـارة	نجـوت ، وهـذا ـ تحملين ـ طليق
طليق الذي نجي من الكرب بعدما	تـلاحـم في درب عـليـك مضـيق
قضىٰ لك حمحام بأرضك فـالحقي	بـأهلك لا يؤخـذ عليـك طـريق
لعمري لقـد أنجـاك من هـٰوة الـر	دى إمـام وحبـلٌ لـلأنـام وثيـق
سـأشكر مـا أوليت من حسن نعمـة	ومثلي بـشكـر الـمنعمين حقيـق
ذري وتنـاسي مـا لـقيت فـإنـه	لـكـل أنـاس خبـطـة وحـريـق
فيـا بـغـلة شمـاء لـو كنت مـادحـاً	مـدحـتـك ، إنـي للكرام صديق

(الاغـاني : ١٧/ ٦٠) و(الـديـوان : ١٧٧ . ق : ٤٠) . وعـدس : زجـر البغلة وحمحام اسم صاحب البريد الذي أرسله معاوية لاخراجه من السجن . وحريق : اذى وضر كبير .

(٢) ذكر البلاذري دخول ابن مفرغ على عبيد الله بن زياد فآمنه ، وقال له ابن مفرغ :
« اني احب ان انزل كرمان لئلا تبلغ عني شيئاً،فكتب له إلى عامله على كرمان بصلة، وأمره أن يقطعه بها قطيعة ففعل ، ولم يزل بكرمان حتى هرب ابن زياد الى الشام من البصـرة ، فقدم البصرة » .
انساب الاشراف : ٤/ ٧٩ .

العرجي

ويعتبر استعلاء السلطة تصدعاً موهناً في سور العصبية القبلية ، أدى اليه تعقد الحياة في العصر الأموي ، وتوافق المصالح السياسية ـ فيما بين القبائل وفيما بينها وبين السلطة ـ أو تنافرها ، وصلات القربىٰ المستحدثة بالمصاهرة وما تركت الأمهات من اثر فعال في أهواء الابناء من الخلفاء واتجاهاتهم التعصبية ، وأسلوب العسف والقسوة . فنشأ عن ذلك مضاعفات جديدة : كأن تغدو عصبية كبيرة كالعصبية المضرية مثلاً ذات صراع داخلي بفعل العوامل المشار اليها ، فتعلو العشائر بعضها على بعض ويضطهد بعضها بعضاً ، وإن كانت تنتمي الى جذم واحد وتؤلف بينها عصبية قبلية واحدة وجبهة سياسية عامة .

وفي حديث العرجي مثل واف لوهي عصبية العشيرة وعلو الخؤولة على العمومة أحياناً داخل البيت المالك نفسه . فقد كان الرجل من ولد عثمان بن عفان (١)، والخلفاء الأمويون ابناء عمومته، والمعروف ان قميص عثمان كان ذريعة معاوية الى الحكم . ولكن ما أن صارت اليه الخلافة حتى جد في إبعاد أبناء عثمان عن المطالبة بها(٢) .

ونهج مروان بن الحكم نهجه لما بويع بالخلافة(٣) . ولكن آل عثمان لم يحرموا من الصلات السنية والوفر الكثير . وكانوا في الحجاز أشرافاً مقصودين . وهم ـ وإن لم تبد منهم بادرة نقمة او عداء ـ كانوا يشعرون أن أبناء عمومتهم هضموهم حقاً ، ولم يُرْضوا ـ على الاقل ـ بإمارة في الولايات . ولعل طموحهم كان ضعيفاً اذ لم يذكر أن أحداً منهم اشرأبت نفسه إلى الحكم أو إلى عمل رفيع

---

(١) « هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . وكان ينزل عرج الطائف فكان يعرف بالعرجي ، وكان شاعراً له يسار وحال » . انساب الاشراف : ٥/ ١١٢ .

(٢) ولى معاوية بن ابي سفيان سعيد بن عثمان خراسان ثم عزله لما خاف من طلبه الخلافة . (انساب الاشراف : ٥/ ١١٧) .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٥/ ١٠٦ .

فيه ، بعد الابن الاكبر لعثمان[١] . ولكنَّ العرجي على ما كان من سيرته العابثة كانت نفسه تنطوي على رغبات جادة في الشرف والسيادة تبوئه زعامة قوية ، وتلفت اليه أنظار بني عمه من الخلفاء ليستعملوه في عمل مرموق ، كأن يولوه على الحجاز او مكة[٢] .

ويشير إلى ذلك ما اختطه من أسلوب البذل وما زاوله من أعمال الفروسية حتى غدا فتى قريش غير مدافع . ومن حصل هذه المنزلة في قومه يترقب ان تسند اليه الإمارة بعد ان صار اجتماعياً أهلاً لها . وليس هذا القول في العرجي ضرباً من الحدس بل هو أدنى الى التقرير بدلالة الهجوم المنكر الذي استقبل به محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي عندما ولاه هشام بن عبد الملك مكة ، وولى أخاه إبراهيم بن هشام المدينة[٣] .

وكان محمد وابراهيم ابنا هشام خالي هشام بن عبد الملك ، فأطلق يدهما في الحجاز مدة خلافته لا يرد لهما حكماً ولا يوهن لهما أمراً ، فلم يعزلا إلا من بعد موته ، وفي هذا دليل على أن الخليفة كان جم الارتياح الى خؤولته ، ممكناً لأقاربه - من أمه - المخزوميين في الحكم ، حتى مدحهما فحول الشعراء في عصرهما . وما كان الخليفة ليجد في إسناد المناصب الى ذويه من أمه ما يجرح البيت المالك اذ هم مخزوميون قرشيون ، وقد أمر

---

(١) انظر حاشية ٢ ص ١٨٣ .

(٢) « كان العرجي من فتيان قريش ، وكان فتيان قريش وغيرها يفدون اليه ، فيفضل عليهم ويعطيهم ، وغزا مع مسلمة بن عبد الملك في آخر خلافة سليمان ابن عبد الملك ، فقال : يا معشر التجار ، من أراد من الغزاة المعدمين شيئاً فأعطوه إياه ، فأعطوهم عليه عشرين ألف دينار ، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز قال : بيت المال أولى بمال هؤلاء التجار من مال العرجي ، فقضى ذلك من بيت المال » . انساب الاشراف : ٥/ ١١٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٥/ ١١٢-١١٣ .

(٤) مدح الفرزدق ابراهيم بن هشام بن اسماعيل . (انظر الكامل : ١/١٨ ، البابي الحلبي مصر ١٣٦٥ هـ) .

الامويون من ليس قرشياً .

ولكن الشاعر العرجي يستقبل هذا الحدث باستياء بالغ ينطق به هجاؤه لمحمد وابراهيم ابني هشام . فقد ذهب الى السخرية بقدرهما ، وتهزأ بجدارتهما للإمارة[1] . وفي هذا الهجوم حط من المكانة وإسقاط عند الناس ، وهذا ما لا يغتفره أولو الأمر أبداً اذ يوغر صدورهم حنقاً وغيظاً ويحفزهم على الانتقام المجحف .

وقد بدأ العرجي كمن يريد أن يهتك ستر هذين الرجلين ، فهجم على عرضهما يفضح منه ويفتري عليه ، وكان شعره كفيلاً بأن يجعل الناس يلوكون هذا العرض بألسنتهم في لهوهم ونقدهم متى شاؤوا[2] .

وجرّأ العرجي على ذلك ، من غير مبالاة بالعواقب ، مكانه من قريش ، وامتناعه برهطه ، وقرابته من الخليفة ، وكون الهجاء أمراً خاصاً بين الشاعر ومهجويه . وأغضى الأمير محمد بن هشام على أن يأخذ العرجي بالهجاء وحده ، فيذهب الناس الى تصديقه . فأمهله حتى أتاحت ظروف الشاعر الخاصة سبباً موجباً للقبض عليه ، فتذرع به ، واشتد عليه بالتشهير والتنكيل

(١) كان هشام بن عبد الملك يسند إمارة الحج لأحد خاليه ، فيتلقاهما العرجي بهجاء مقذع ، وفي هذه المناسبة يقول لمحمد بن هشام :

ألا قل لمن أمسى بمكة قاطنا ... ومن جاءه من عمق نقب المشلل
دعوا الحج لا تستهلكوا نفقاتكم ... فما حج هذا العام بالمتقبّل
وكيف يرجى حج من لم يكن له ... إمام لدى تجميره غير دلدل
يظل يرائي بالصيام نهاره ... ويلبس في الظلماء سمطي قرنفل

(الاغاني : ١/ ١٥٥) . والتجمير : رمي الجمرات في منى عند العقبات الثلاث ، ودلدل : علم لبغل ، جعله اسماً لمهجوه .

(٢) انظر ما أورده البلاذري من غزل العرجي بزوجة محمد بن هشام : « أنساب الأشراف ٥/ ١١٣ » .

والحبس المديد حتى أجهز عليه(١) .

ولكن لمَ لم تستطع العصبية الأموية ان تنتصر له وتستنقذ حياته طوال تسع سنوات قبل أن يموت ؟ .

لعل مرجع ذلك ، أولاً ، إلى ما سبقت الإشارة اليه من الحظوة التي تمتع بها كل من محمد بن هشام وأخيه إبراهيم عند الخليفة للقرابة الماسة ، ولعطف الخليفة على خؤولته ومحاباتها على حساب عمومته ، حتى امتعض أقرب الأقرباء الأمويين من الخليفة وساءهم ما حظي به هذا البيت المخزومي من الرعاية والنفوذ ، فتحزبوا في وجهه وإن لم يقدروا على الإطاحة به أو تقليص سلطانه في حياة هشام بن عبد الملك ، ولكنهم قوّضوه من بعده تقويضاً ، وأخذوا الأميرين ثأراً للعرجي بأضعاف العذاب حتى ماتا(٢) .

---

(١) ذكرت كتب الأدب والتاريخ السبب الذي اتخذ ذريعة للقبض على الشاعر أن « العرجي وكلّ مولى له بحرمه ، فكان يخالف إليهم ، فصح ذلك عند العرجي ، فقتل مولاه ، فاستعدت عليه إمرأة مولاه محمد بن هشام به اسماعيل ، وكان حنقاً عليه بهجائه اياه ، فحبسه وضربه وشهره . . . فلم يزل محبوساً حتى مات . وكان ابن هشام متحاملاً عليه » . المصدر نفسه .

(٢) كان ولي العهد الوليد بن يزيد أول المناهضين لابني هشام المخزوميين ، ثم صار إفضاء الخلافة إليه السبيل لانتصاره منهما بتعذيبهما كما صرح الوليد بذلك في شعر له ، رواه صاحب الاغاني :

فقل لدعجاء إن مررت بها — لن يعجز الله هارب طلبه
قد جعل الله بعد غلبتكم — لنا عليكم يا دلدل الغلبة
لست إلى هاشم ولا أسد — ولا إلى نوفل ولا الحجبة

(الاغاني : ١/ ١٥٩) . وقد ساق ابو الفرج الخبر التالي :

وكان الوليد بن يزيد مضطغنا على محمد بن هشام لأشياء كانت تبلغه عنه في حياة هشام ، فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام ، وأشخصا إليه إلى الشام ، ثم دعا بالسياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة : قال : وأي قرابة بيني وبينك ،=

ومن الاسباب أيضاً أن الشاعر لم يطامن من تعاليه ، ولم يكفكف من احتقاره واستصغاره شأنهما ، ولم يصطنع من المداراة والمهادنة وهو في قبضتهما بل ولع بعرضهما يمزقه متغزلاً بنسائهما من أم وأخت وزوج ، يوهم أنه بسببهن سجن ، وكان هذا الهجاء والغزل يسيء الى الخليفة نفسه فإن أم الواليين هي جدة الخليفة ايضاً ، فلذاك مكث العرجي في الحبس وأذن الخليفة عنه صماء .

ولا شك أنّ محمد بن هشام كان عارم الحقد على العرجي إذ أخذه أخذاً قاسياً ، وعمد إلى تحطيمه اجتماعياً وإذلاله على مرأى من قريش . فكان يخرجه على ناقة ليطاف به في أسواق مكة وأحيائها مغلولاً بالي الثياب كما يشهر بكبار المجرمين ، ويقفه للناس في الهواجر ويصب على رأسه الزيت[1] ، والشاعر مفطور الفؤاد ، جريح الكبرياء ، لم يتخشع ولم تفت من عزمه الإهانة . كان يبكي فيما بينه وبين نفسه ، ثم يرفع من عزيمته على بكائه ، ويشد على قلبه ، وكان أول المحنة شديد الاعتزاز بأرومته حسن الظن بابن عمه الخليفة وبرهطه من ابناء قصي ، ولا يظن أنه مخذول ، بل يتوقع الغضب له ، ويترقب الإفراج عنه والإدالة له من عدوه[2] . والشاعر أعزل لا سلاح له الا ان

= وهل انت إلا من أشجع ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك قال : لم تحفظه . فقال : يا أمير المؤمنين قد نهى رسول اللهﷺ ان يضرب قرشي بالسياط إلا في حد ، قال : ففي حد أضربك وقود ، أنت أول من سن ذلك على العرجي ، وهو ابن عمي وابن لأمير المؤمنين عثمان ، فما رعيت حق جده ولا نسبه بهشام ، ولاذكرت حينئذ هذا الخبر ، وأنا ولي ثأره . اضرب يا غلام) . المصدر نفسه . وانظر من البحث ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١) الاغاني : ١/ ١٥٨ .

(٢) قال من عشرة ابيات :

فكم من كاعب حوراء رود ... ألوف الستر واضحة التراقي
بكت جزعاً وقد سمرت كبولي ... وجامعة يشد بها خناقي
على سوداء مشرفة بسوق ... بناها القمح مزلقة المراقي
عليّ عباءة برقاء ليست ... من البلوى تغطي نصف ساقي =

يطعن في عرض الأمير متغزلاً بزوجته . فكان ينظم القصيدة الطويلة ، لتتردد على أفواه المغنين في مكة ، وما فيها الا التشوق لواحدة من نساء الأمير ، والتلهف للخروج من الحبس للقائها ، والتعداد لمفاتنها الجسدية بدقة وتفصيل[1] .

وهذا الموقف من الشاعر ضرب من المقاومة الصامدة والهجوم الجريء والمتوقع نتائجه من الامعان في التعذيب والتخليد في الحبس . وهو موقف من مواقف البطولة والصبر حتى الرمق الأخير .

وكان العرجي ـ ما تمادى العذاب ـ يحس أنه يعاني نوعاً من الاستشهاد الصابر وقد تقاعست عن نصرته القوى المرجوة ، وكلت عصبية قومه عن حمايته وتخليصه ، فاعتراه ، وهو بين الظلم القاهر والخذلان الحسير شعور بالضياع[2] .

= فقلت تجلداً وحلفت صبراً   أبالي اليوم لو دمعت مآقي
سينصرني الخليفة بعد ربي   ويغضب حين يخبر عن مساقي
فتغضب لي بأجمعها قصي   قطين البيت والدمث الرقاق

(ديوان العرجي : ص ١٣٥ . تحقيق الطائي والعبيدي) .

(١) في الديوان قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتاً تنحو هذا المنحى ومطلعها :

أسائل عن وجناء في السجن جارها   لعمر أبيها ، إنني لمكلف
وأنى لك الوجناء والسجن دونها   ويغلق دوني ذو أواس مشرف
يمانية هاجت فؤادي ، ووكلت   بها النفس حتى دمع عيني يذرف

(ديوان العرجي / : ١٦٥) . وجناء : زوج محمد بن هشام .

(٢) كان من آخر ما قاله العرجي في السجن :

أضاعوني وأيّ فتى اضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر
وخلوني لمعترك المنايا   وقد شرعت أسنتها لنحري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً   ولا لي نسبة في (آل عمرو)
أجرّر في الجوامع كل يوم   ألا لله مظلمتي وصبري
عسى الملك المجيب لمن دعاه   يُنجّيني فيعلم كيف شكري =

لقد كان في قصص العرجي دليل آخر على الانحسار الذي كانت ترتد اليه العصبية القبلية أحياناً ، وبخاصة عند اصطدامها بالسلطان أو معارضة عصبية أخرى لها . كما ، عارضت الخؤولة العمومة ـ فتنشأ مضاعفات جديدة تفل حد العصبية الى حال يتراءى لأهلها كأنها منسوخة أو مفقودة[1] .

الاقليمية والحزبية في العصبية القبلية :

يدل ما تقدم أن العصبية القبلية لا تقدر أبعادها الحقيقية الا في ضوء الاتجاهات السياسية التي كانت تبعثها ثم تنبعث معها[2] ، فعلت المصالح الحيوية للقبائل على روابط القرابة والنسب ، بما جدّ في حياة العرب من

= فأجزي بالكرامة أهل ودي   وأورث بالضغائن أهل وتري

(ديوان العرجي : ص ٣٤) .

(١) وكانت هذه الحقيقة في أعماق العرجي حين قال :

يا ليت شعري وليت الطير يخبرني   هل أدخل القبة الحمراء من أدم
أسلمني أسرتي طراً وحاشيتي   حتى كأني من عادٍ ومن إرم

(أنساب الاشراف : ٥/ ١١٣) والقبة الحمراء تضرب للملوك .

(٢) يبدو أحياناً أن الخليفة زعيم لنزار أو لليمن ، فالوليد بن يزيد بن عبد الملك أخذ خالد القسري زعيم اليمانية بالعذاب حتى قتله ، وقال يوبخ اليمن ، ويقرعها ، ويذكر خالداً ، ويفتخر بنزار في قصيدة طويلة اولها :

ألم تهتج فتذّكر الوصالا   وحبلاً كان متصلاً فزالا

وقال :

شددنا ملكنا ببني نزار   وقومنا بهم من كان مالاً
وهذا خالد فينا أسيراً   ألا منعوه إن كانوا رجالاً
عميدهُم وسيدُهم قديماً   جعلنا المخزيات له ظلالاً

وتتابعت من الوليد فعال أنكرها الناس عليه ، فدب يزيد بن الوليد في الدعاء الى خلعه ، فأجابته اليمن بأسرها ، وقتلوه ، وافتخر شاعرهم بأنهم قتلوا الوليد بخالد . « المسعودي : التنبيه والاشراف : ٢٨٠ .

تجمعات جديدة أحدثت تغييراً جذرياً في الصلات ما بين القبائل وكانت المساكنة والجوار من أهم هذه العوامل ، ويتبدى للناظر أن عصبية البلد أو الاقليم بدأت تعايش العصبية القبلية ، وأصبحت الأرض من مقوماتها بعد ان كان الاعتزاء الى الجذم الواحد هو وحده عمادها ، فاقترنت أسماء القبائل بمحالّها ، وتلونت عصبيتها بالاقليمية (١) ، ولم تمنع العصبية القبلية من تعايش الأقطاب المتنافرة والتقائها في أمسّ الصلات وأصفاها إذ كانت تتدانى شيئاً فشيئاً إلى أن تغدو مبدأ ورأياً يحدد الرجل فيه موقفه النظري من السياسة والقبائل من غير ما يمنع من الالتقاء في حياة مشتركة (٢) . وما زالت الاتجاهات السياسية والمذهبية تفرق القبائل أشتاتاً على توالي السنين ، ولكن الأرض اكتنفتهم على المعايشة رغم الخلاف في الرأي والمذهب (٣) ، وظهر انحلال العصبية القبلية

---

(١) كان الناس اذا ذكروا القبائل أضافوها الى المدينة او القطر ، فقالوا مثلاً : تميم البصرة وتميم الكوفة ومضر العراق . وأظهرت الأحداث ان وحدة الأرض بدأت تزاحم الوحدة القبلية ، فالأحنف بن قيس زعيم تميم في البصرة يقول لأهل مصرهم من الأزد في إحدى الفتن المحلية : لأنتم أحبُّ الينا من تميم الكوفة (أنساب الأشراف : ٩٩/٤ ، سطر ١٧) وعزا ابن قيس الرقيات سقوط مصعب بن الزبير إلى غدر القبائل المضرية العراقية :

غدرت به مضر العراق وأمكنت منه ربيعة

فإضافتها الى العراق لتمييزها عن القبائل المضرية الأخرى (أنساب الأشراف : ٣٤٢/٥) .

(٢) ذكر أن الطرماح الخارجي اليمني العصبية كان صديقاً حميماً للكميت بن زيد الشيعي النزاري ، وأن السيد الحميري كان متشيعاً متعصباً وقد تزوج بفرحة الخارجية ، وما بين الخوارج والشيعة ذحول تاريخية . انظر (ثمار القلوب : ٣١١ ـ ٣١٣) . ولم يمنع خالد القسري من استعمال رجال من ربيعة وقيس على شرطته وعلى ادارة المدن ، عصبيته اليمنية لأن من استعملهم رضوا سياسته وحالفوا عصبيته ، فكان عامله على البصرة مالك بن المنذر بن الجارود ، وهو ربعي من عبد قيس (انظر : الأغاني : ٢٣/٩ أخبار الفرزدق) .

(٣) والشأن في ذلك شأن المجتمعات الحديثة ذات الأحزاب المتعددة ، وفي الخبر التالي صورة للانفصام بين الأعضاء لا في القبيلة الكبيرة فحسب ، بل في الأسرة الصغيرة : « كان للحسن بن قيس بن حصين ابن شيعي وابنة حرورية ، وامرأة معتزلية ، وأخت مرجئة ، =

في المجتمع الجديد جلياً في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وما زال يتسع حتى لم تبق منها الأيام إلا رمزاً للدعوى والفخار .

ومن غير الممكن الفصل بين الإقليمية ودواعيها السياسية في العصبية القبلية ، وقد نشأت عن مشايعة القبائل لهذا أو لذاك من طالبي الخلافة ، وكان لها دورها في تحويل الارتباطات القبلية منذ وقت مبكر أيام الصدام السياسي والعسكري بين علي ومعاوية (١) ، ونتج عن ذلك أشكال جديدة من التجمع ، فقد تلتقي قبائل من عصبيات مختلفة ـ مضرية ويمنية مثلاً ـ على زعيم واحد ، وتفترق قبائل من أصل واحد وعصبية واحدة على اتجاهات مختلفة ، فتتعادى وتتقاتل كأن لم تكن بينها رابطة أبدا (٢) . فقوى التحزب على حساب القبلية وأصبح أعظم أثراً منها ، وراحت السلطة والأحزاب تُقوّم الناس على أساس حزبي سياسي لا قبلي ـ عنصري ، فتكرم أو تهين على الولاء أو العداء ولو كانوا

= وهو سني جماعي ، فقال لهم ذات يوم : أراني وإياكم طرائق قددا » . ثمار القلوب : ٣١٣ .

(١) بدأ معاوية بن أبي سفيان أول تجمع إقليمي في الشام ، فناوأته القبائل العراقية بتجمع مقابل ، فكان الصراع التاريخي طوال العصر الأموي بين التجمعين : قال كعب بن جميل شاعر معاوية :

أرى الشام تكره أهل العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا: عليٌّ إمام لنا ... فقلنا: رضينا بابن هند رضينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يفض الشؤونا

الأبيات في (الكامل : ١/٣٢١) .

(٢) كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج ثورة أشعلتها القبائل اليمانية والمضرية معاً بالعراق على سلطان أهل الشام ، ومع أنها ثورة ذات طابع قحطاني واضح وزعيمها يمني فالذين أسهموا في إخمادها هم يمانية الشام . انظر ـ مثلاً ـ أخبار أعشى همدان في الطبري (٥/١٨٠) .

ذوي قربى ورحم [١] . والفرق بين العصبية القبلية والحزبية أن كانت القبائل تغيّر بطاقاتها الحزبية بين حين وحين أو عهد وعهد ، ولكنها لا تغير مضريتها أو قيسيتها أو قحطانيتها ، ولقد لعب هذا الانتقال بين الأحزاب دوراً ضخماً في الثورات والحروب والنصرة والخذلان [٢] ، وهذه الازدواجية ملحوظة بقوة في قبائل العصر الأموي ورجالاتها . وكان الرجحان غالباً للحزبية على القبلية ، فإذا شفعت الحزبية بعقيدة واتجاهٍ ديني كانت في رسوخ الجبال [٣] .

ومن المنتظر أن يتفرق الشعراء بين مختلف الأحزاب السياسية ، وان يدعم كل منهم زعيم الحزب الذي انضوى إليه ، وبذلك يتعين موقفه من الفئات المتضامنة وموقفها منه. وكان العداء السياسي كالحربي عنيفاً ضعيف التسامح ، فقد ينفى الشاعر [٤] او يسجن إذا كان في أرض خصمه ، وفي الأزمات العصبية ، وعند الخوف ، يلاحق المعارضون جميعاً وتغلق عليهم أبواب الحبوس ، والخصوم السياسيون غالباً من ذوي النباهة والمنزلة الرفيعة ، فيجردون من رفاههم ويؤخذون بالفظاظة والتضييق ، وليس أمامهم إلا أن يتبدلوا بموقفهم موقفاً إيجابياً او البقاء في السجن ، ومن الشعراء من كان

---

(١) كان عمرو بن الزبير أخو عبد الله بن الزبير مع بني أمية مكايدة لأخيه ، فلما ظفر به عبد الله قتله (أنساب الأشراف: ٤/ ٢٣)ولما وضع بنو العباس السيف في بني أمية وطاردوهم في البلاد وصادروهم عفا أبو العباس السفاح عن شاعر من أصل أموي هو العبلي وأطلقه ، وأمر برد ماله وعياله عليه ، لأنه كان يجاهر بحبه لبني هاشم أيام حكم الأمويين . (الأغاني : ١٠/ ١٠٠) .

(٢) استطاع عبد الملك بن مروان قبل ملاقاة مصعب في معركة دير الجاثليق أن يشتري معظم قبائل العراق بالوعود والصلات ، فصارت إلى الأموية بعد الزبيرية ، فلم يجد المصعب معه الا بضعة أفراد ساعة المعركة . (أنظر أنساب الأشراف : ٥/ ٣٣٧) .

(٣) كذلك كان الخوارج .

(٤) نفى ابن الزبير عن المدينة فيمن نفى الشاعر الأموي أبا قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط . (أنظر الأغاني : ١/ ١٤) .

يستمسك بموقف المعارض لا يريم عنه ، ومنهم من يجد من الدواعي ما يبدل صباغه السياسي بصباغ مستجد فينقلب موالياً بعد المعاداة .

خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد :

ومما يجري هذا المجرى ما صنعه عبد الله بن الزبير بخصومه في الحجاز ، سواء كانوا نصراء لبني أمية أو لبني هاشم فقد نفى عن الحجاز من شاء وسجن زعماء كانوا يتمتعون باحترام وتأييد من كثيرين ، وأخذ بعض من لم يكن حميماً للأمويين إذ كان غير موال له ، وهو خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد ، فاحتبسه في سجن عارم مع محمد بن الحنفية ، وكان خالد مخزومياً عزيزاً ، ولم يكن حكام دمشق راضين عنه او مستريحين إلى مودته[1] ومع ذلك لم يصانع ابن الزبير فيخرج من حبسه بل كان ابن الزبير شديداً عليه ، حدّه على أنه شارب خمر وحبسه ، وإذا كان الحد للخمرة فالحبس بغيرها ، على أن الاتهام أحياناً ، قد يكون فيه شيء كثير من التغطية على الهدف الصحيح ، وحبسه مع محمد بن الحنفية في مكان واحد يلقي بعض الضوء على السبب : فلعله كان يميل الى ابن الحنفية ويعضده ، ولعل هواه مع ابن الحنفية باعد عنه بني أمية فلم يظفر منهم بإدرام بعد غلبتهم على الحجاز ، وكان خالد بن المهاجر ، وهو سجين ، تعيساً حقاً على رفعة بيته وعزة في رهطه ، فكان متصل الحزن ، لم يخف شعره ،على قلته وإيجازه ، ما في طواياه من الألم والسأم [2] .

---

(١) أنظر رأي عبد الملك بن مروان في المهاجر في أنساب الأشراف : ٥/٢٠٣ .

(٢) قال المهاجرّ بن خالد :

إمـا خـطاي تـقـاربـت　　مشي المقيد في الحصار
فـبـمـا أمـشـي فـي الأبـا　　طـح يـقـتـفـي أثـري إزاري
دع ذا ولـكـن هـل تـرى　　نـاراً تـشـب بـذي مـزار
مـا إن تُـشـب لـقـرة　　بـالـمـصـطلين ولا قـتـار
مـا بـال لـيـلك لـيس يـنـقص طـولـه طـول الـنـهار　=

سلم بن زياد :

أما سلم بن زياد الذي أمسك به ابن الزبير أيضاً في حبسه ، لأنه من رهط الأمويين وشيعته ، فقد كان رجلاً آخر متماسك النفس لا يبرم من خطب ، واتخذ لنفسه موقف رجولة عزيزة اذ لبث على سجنه ينهج منهج كرام الأشراف ، يعطي من سأله ، ويُعلي من بيته سمعته ، كأنه كان بصنيعه يجتذب لبني أمية المؤيدين ، وكان على ضعف موقفه ، يقظ الكرامة بعشيرته فخوراً ، وعلى خصمه زارياً ومتجرئاً ، وبعصبيته مستمسكاً[1] .

عبد الله بن الزبير الأسدي :

فالخلاف الحزبي ـ إذن ـ كان سبباً كافياً للسجن ، وكان على الشعراء المتحزبين أن يحذروا خصومهم وأن يتناءوا عن مواطن قوتهم كيلا يقعوا في قبضتهم ، ولقد مر مرة شاعر معديٌّ أموي بقبيلة معدية أخرى ، ولكنها كانت زبيرية ، فأخذته سجيناً سياسياً ، ولم تطلقه إلا بمساع قبيلته ، وهو الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدي ، كان نصيراً للأمويين ، وسار إلى الكوفة في سَفْر بينهم رجال من بني أمية ، فمروا بقرقيسيا ، في أعلى الجزيرة الفراتية ، وبها

= أتقاصر الأيام ام غرض الأسير من الإسار

(الأغاني : ١٥/١٣) .

(١) دخل عليه الفرزدق سجنه ومدحه وسأله معونة فأعطاه عشرين ألفاً درهماً ، فأنكرت عليه امرأته البذل وهو محبوس ، فقال من تسعة أبيات :

ألا بكرت عرسي تلوم سفاهة ... على ما مضى مني وتأمر بالبخل
فقلت لها والجود مني سجية ... وهل يمنع المعروف سؤاله مثلي
أبيع بني حرب بآل خويلد ... وما ذاك عند الله في البيع بالعدل
وأشرى ابن مروان الخليفة طائعاً ... بنجل بني العوام قبح من نجل
فإن تظهروا لي البخل آل خويلد ... فما دلكم دلي ولا شكلكم شكلي
وإن تقهروني حيث غابت عشيرتي ... فمن عجب الأيام ان تقهروا مثلي

(الأغاني : ١٨٣/٨) .

زعيم قيس زفر بن الحارث الكلابي ، وهو مشايع لابن الزبير ، يدعو له ، فقبض عليه مع من في السفر من الأمويين ثم أطلقهم واستبقاه حتى شفعت فيه جماعة من مضر ، ولم يعرف عبد الله لنفسه ذنباً ، ولم يأسف لالتزامه بالأموية ، ولم يند منه اعتذار او اعتزام على التراجع وتغيير الولاء . ولكنه كان في حبسه في حيرة قلقة هي حيرة الرجل الذي فاجأه ما لم يكن بحسبان ، وتنبه فجأة على الكبول في قدميه بعيداً عن أسرته وعشيرته ، قد تركه الصحاب للقيد والحبس كما يترك الغريق لقدره لا ينقذه أحد وهو في كل ذلك لا يعرف تفسيراً لما جرى له ، فساءه ذلك وعبّر عن استيائه بقصيدة قصيرة [1] .

ولما انطلق الشاعر من سجنه الى الكوفة كان لا يزال على أمويته فأتى به مصعب بن الزبير أسيراً ، فأحسن اليه فتحول الى الزبيرية ، ولزم المصعب فلم يفارقه حتى قتل .

العصبية القبلية في العصر العباسي :

ومن يتتبع الأحداث في العصر الأموي وفي القرن الأول من العصر العباسي يدرك أن المضمون السياسي للعصبية القبلية قد انتصر انتصاراً مطلقاً على ما كانت تحمله من معنى النسب والقرابة ، ومع أن شعار العدنانية والقحطانية كان متميزاً كل التميز منذ مطلع حكم الأمويين فقد كانت العصبيات الفرعية بالغة النشاط أيضاً داخل العصبية الكبيرة في الجذم الواحد [2] ، ولكنها

---

(١) انظر القصيدة في الأغاني (١٣/ ٣٩) ومطلعها :

أغاد أبو حدرا أم متروّح   كذاك النوى مما تجد وتمزح

(٢) كانت قيس وتغلب على صفاء ووفاق في الشمال الشرقي من بلاد الشام ثم وقعت بينهم حروب وأيام منكرات فقال الأخطل في أول الشر :

أتاني ، ودوني الزابيان كلاهما   ودجلة ، أنباء أمر من الصبر
أتاني بأن ابني نزار تضاغنا   وتغلب أولى بالوفاء وبالعذر =

بدأت تذوب مع السنين في الجذم الكبير ـ العدناني او القحطاني ـ حتى كان الناس في القرن الثاني إما نزاريين أو يمانيين ولكل من الحزبين مضمونه السياسي الخاص يتجاوز المفهوم القبلي الضعيف ، أما الحزب النزاري فمنه البيت المالك أموياً كان أو عباسياً ، فهو بحق الحزب الحاكم ـ وبخاصة زمن العباسيين ـ وقد تميز بصبغة عربية خالصة يوم قويت شوكة الموالي . وكان الخليفة وأمراؤه وولاته هم في الواقع زعماء هذا الحزب يشترون الشعراء المؤيدين له المعددين لأمجاد النزارية ومفاخرها وأيامها ، إثباتاً لجدارتها بالخلافة ، وتأييداً لحقها فيها ، وكسباً للأنصار ، ورداً على المعارضين ، وأما القحطانيون فهم بحق الحزب المعارض ، ويمكن ان يحمل هذا الوصف المعنى الحديث للمعارضة السياسية ، فقد أصبح حزباً بعيداً كل البعد عن قرابة الدم ـ وان كانت التسمية توهم بها ، فإن ذلك أثر من آثار العصر الذي أعطى الطابع القبلي فيه صيغته للتجمعات ـ وأوى الى هذا الحزب فانتسب الى اليمن ، كلٌ ناقم على الحكم من الموالي وغيرهم ، فقد وجد فيه الموالي متنفساً رحباً لإفراغ ما في صدورهم على العرب بالهجوم على النزارية ، فكانوا يتخذون مواقعهم وراء القحطانية للتشنيع على العرب .

أبو نواس :

وقد خطا القحطانيون خطوة أوسع ذات مدلول سياسي كبير إذ ادعوا ان

= (أنساب الأشراف : ٣١٥/٥) وكان بعض كبار الزعماء غير راض عن تفرق النزارية في وجه اليمن ، قال زفر بن الحارث الكلابي يلوم عمير بن الحباب ـ وكلاهما من قيس ـ على الإيقاع بتغلب النزارية :

ألا من مبلغ عني عميرا ... رسالة ناصح وعليه زار
أتترك حي ذي يمن وكلبا ... وتجعل حدّ نابك في نزار
كمعتمد على إحدى يديه ... فخانته بوهن وانكسار

(المصدر نفسه : ٣٢٠/٥) .

أحد كبار ملوك الفرس القدماء منهم [1] ومعنى هذه الدعوى دخول الموالي في صميم القحطانية [2] ، ولذلك انتسب كثير من الشعوبيين اليها ، ونظموا في مهاجمة النزارية قصائد أشبه بكتب المثالب ، وغاظ الخلفاء هذا الشعر ، واعتبروا أصحابه مدانين فلاحقوهم وسجنوهم ، ولو كانوا من ندمائهم وخاصة شعرائهم ، كما صنع الرشيد بشاعره أبي نواس إذ أطال حبسه لهجائه النزارية [3] .

---

(١) يذكر النسابون ان اسمه الضحاك ـ والأرجح انه شخصية اسطورية ـ واليمانية تدّعيه « وتزعم أنه من الأزد ، وقد ذكرته الشعراء في الإسلام ، فافتخر به أبو نواس بن هانيء مولى بني الحكم بن سعد العشيرة بن مالك . . بن قحطان » . التنبيه والاشراف : ٧٦ .

(٢) ولعل هذا ما حدا بالعدنانيين ان يدعوا أن الفرس منهم حتى لا يفقدوا الموالي الذين بين ظهرانيهم ، قال شاعر قرشي :

ويجمعنا والغر أبناء فارس ... أب لا يبالي بعده من تفردا

وقال بعض النزارية :

فوارس فارس وبنو نزار ... كلا الفرعين قد كبرا وطابا

(التنبيه والاشراف : ٩٥) .

(٣) ذكر المسعودي أن أبا نواس « هجا قبائل نزار بأسرها وافتخر بقحطان وقبائلها ، وهي قصيدته المشهورة التي أطال الرشيد حبسه بسببها ، وقيل انه حده لأجلها ، وأوّلها :

لست لدار عفت وغيّرها ... ضربان من قطرها وصاحبها

فقال فيها مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك :

فنحن أرباب ناعطٍ ولنا ... صنعاء والمسك في محاربها

وكان منا الضحاك يعبده الخا ... بل والطير في مساربها

وفيما يقول يهجو نزارا :

واهج نزارا وأفر جلدتها ... وكشّف الستر عن مثالبها

وقد رد عليه قصيدته هذه جماعة من النزارية ، منهم رجل من بني ربيعة ابن نزار، فقال يذكر نزاراً ومناقبها ، واليمن ومثالبها ، في قصيدة له أولها :

دع مدح دار خبا وانتهى ... عهد معد بزعم عائبها =

دعبل بن علي الخزاعي :

وكان الحزب القحطاني أيضاً ملاذاً لغير الموالي من العرب الكارهين لبني العباس المؤيدين لآل علي رضي الله عنه. ومع أن أبناء علي نزاريون إلا أن هجاء النزارية كان السبيل الوحيد للنيل من العباسيين - من وراء حجاب - ومهاجمتهم سياسياً. ولم يكن هذا القصد ليخفى على الخلفاء والولاة، فأخافوا وقتلوا من المتجرئين على النزارية، المستخفين تحت ستار القحطانية، وفي نفوسهم مآرب أخرى، وأصاب الحبس والقتل بعض كبار

= فقال :

فامدح معداً وافخر بمنصبها ... العالي على الناس في مناصبها
وهتك الستر عن ذوي يمن ... أولاد قحطان غير هائبها

(التنبيه والاشراف : ٧٦ - ٧٧) .

(١) روى أبو الفرج حديث مقتل دعبل ، فذكر أن إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس والي البصرة « بلغه هجاء دعبل وابن أبي عيينة نزاراً ، فأما ابن ابي عيينة فإنه هرب منه ، فلم يظهر بالبصرة طول أيامه ، وأما دعبل فإنه حين دخل البصرة بعث فقبض عليه ، ودعا بالسيف والنطع ليضرب عنقه ، فحلف بالطلاق على جحدها ، وبكل يمين تبرىء من الدم انه لم يقلها ، وأن عدواً له قد قالها : إما أبو سعد أو غيره ونسبها اليه ليغري بدمه ، وجعل يتضرع اليه ويقبل الأرض بين يديه ، فرقّ له ، فقال : اما إذ أعفيتك من القتل فلا بد من أن أشهّرك ، ثم دعا بالعصا فضربه حتى سلح . . ثم خلاه فهرب الى الأهواز ، وبعث مالك بن طوق (وكان دعبل هجاه) رجلاً حصيفاً مقداماً ، وأعطاه وأمره ان يغتاله كيف شاء ، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس ، فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العتمة ، فضرب ظهر قدمه بعكاز لها زج مسموم ، فمات من غد ودفن بتلك القرية ، وأمر إسحاق بن العباس شاعراً يقال له : الحسن بن زيد ، ويكنى أبا الدلفاء ، فنقض قصيدتي دعبل وابن ابي عيينة بقصيدة أولها :

أما تنفك متبولا حزينا ... تحب البيض تعصى العاذلينا

يهجو بها قبائل اليمن ، ويذكر مثالبهم ، وأمره بتفسير ما نظمه ، وذكر الأيام والأحوال ، ففعل ذلك وسماها الدامغة وهي الى اليوم موجودة . (الأغاني : ١٨/ ٦٠) .

الشعراء أمثال دعبل بن علي الخزاعي ، وكان شيعياً شديد المقت للعباسيين .

وعندما تسلطت على الخلافة القوى العسكرية الغازية ، من أتراك وديلم وسلاجقة ، أصبحت القوة كلها للدولة والعساكر ، وعفا مجتمع المدينة على التنظيم القبلي ، ولم يبق في الانتساب الى قحطان أو عدنان إلا رمز فخار تاريخي ليس له في الحياة العملية والسياسية رصيد محسوب .

تذييـــل :

وقد تبين مما سبق ان العصبية القبلية لم تخمد حتى أضرمت أحداثها قرابة قرنين من تاريخ الإسلام ، فوق ما ملأت به العصر الجاهلي من صراع وضحايا ، إذ كانت فيه شعوراً وعملاً معاً ، فالتزم الناس وبخاصة الشعراء ، مواقف معينة داخل الأرض العربية وخارجها .

وأما صدر الإسلام فقد سعى لإبطال أثرها في صنع الأحداث وفي التعاطي والتبادل بين الجماعات . وعلى الرغم من السعي الصادق والجد والحزم فإن الكيان القبلي كان متمايزاً والترابط بين أفراده وثيقاً .

وبذلك تمكن الأمويون من تفجير القبليَّة تفجيراً في كل صقعٍ نزلته القبائل ، وكان وجود الدولة القوية المنتفعة بالانقسام القبلي الفارق الواضح بين العصر الأموي وعصر ما قبل الإسلام ، ومن الممكن القول بأن السلطان سخر العصبية لمصالحه ، ولم يسمح لها أن تغلب أغراضه ، بل كانت هي خادمة لهذه الأغراض وإن بلغت من النفوذ مكاناً عظيماً ، فقد تزيح خليفة وتنصب آخر ، ولكن التطاحن والصراع بين العصبيات كان يترك السلطان دائماً في الموقف الأعلى ، وبذلك باتت العصبية القبلية في قبضة السياسة ، وراحت الحزبية والمذهبية تثغر فيها فتحات تنذر بالنقض حتى إذا كان العصر العباسي انحلت العصبية القبلية في المجتمعات الكبيرة ، وبقيت الدولة والفرق الدينية والكلامية .

ولم تمر العصبية بسلام في حياة الشعراء إذ كان لها الأثر الأعظم في

سلوكهم ومواقفهم ومصائرهم ، فخضعوا لسلطانها غير مختارين وكانت منطلقهم في النزال هجوماً ودفاعاً ، وتقاذفتهم مآربها السياسية فجرت عليهم ما جرّت من محن وحبس وموت .

- ب -

المعارضة والثورة

يحفل تاريخ العرب السياسي بعديد من الرجال الذين سجنوا لمعارضتهم الحكم او لثورتهم عليه أو لتدبيرهم الخطط للإطاحة به . وكثير منهم كانوا يقرضون الشعر او شعراء كبارا . ذلك أن السجين السياسي يمتاز غالباً بنسبة حسنة من الألمعية والقوة النفسية ، وبحظٍ من الثقافة يسمح له بالتعبير والتأثير .

والمعارضة ترتكز الى الجماهير ، وهؤلاء يحكمهم التأثر والاندفاع عن غير روية وتبصر نافذ ، والكلام البليغ المثير ينشر عدوى الانفعال في قلوبهم ، فهو وسيلة المعارضين الثائرين ، ومصدر خوف للسلطة ، وموضع حذرها ، وأصحابه مصب سخطها .

وكانت سياسة كم الأفواه مشهورة معتمدة في تاريخ البشر السياسي قديمه وحديثه ، ومن ثم باتت السلطة والمعارضة والجماهير أقطابا ثلاثة بارزة في كل نشاط سياسي مكشوف او مستور ، وفي كل تحرك شعبي عارم او هادىء .

وبين هذه الأقطاب الثلاثة أثر متبادل ، يُضاغِطْ بعضها بعضا بما فيه من طاقة وفاعلية ، فلا تتارك ، إذا اشتبكت ، إلا بعد صراع صارمٍ ، في أعقابه نصر لفريق وهزيمة لآخر ، ومكاسب وخسائر ، وقتلة وضحايا أحياناً كثيرة .

واتسمت السلطة عموماً بعد خلافة الراشدين بالاستبداد ، فكانت تحوطها سواعد الجند مذ جعلها معاوية بن أبي سفيان ملكاً عضوداً ، وكانت وطأة الاستبداد تزداد على الأيام ثقلاً ، وقد تخف حيناً بما كان لبعض الحكام الأوائل

من مكارم أخلاقية فردية (١) .

وقد وعى الناس ان للملك منطقاً خاصاً ، بينه وبين مبادىء الدين انفصام ، وأن المطالب الوحيد بالالتزام بها وبالاستقامة هو الشعب وحده ، والملوك والأمراء يتصرفون وفق هواهم ، وفق ضرورات الاحتفاظ بالحكم ، ولذلك كان عزل الحكام وسقوط الأسر الحاكمة لا يحدث تغييراً جوهرياً في موقف السلطة وخلقيتها ، وكانت الرعية تؤوب دائماً بخيبة الأمل (٢) ، وتخشى غوائل السلطان ، فالقوة غشوم والنزوات لا يعرف لها حدود (٣) .

وكان المبدأ السياسي الشهير بأن الغاية تبرر الوسيلة معتمداً اعتماداً بعيداً ، من ذلك لم يتخذ السلطان أعوانه من الأكفاء المؤهلين ثقافياً وشعبياً ،

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصبهاني في أخبار العبلي الشاعر الأموي النسب أن عبد الله بن الحسن بن الحسن بكى حين سمع رثاء العبلي قومه الذين قتلهم وطردهم بنو العباس ،فلما سئل عن بكائه بني أمية وقد فعلوا بآل علي ما فعلوا أجاب أن كان للقوم أخلاق ومكارم ليس مثلها لأبي جعفر . (الأغاني : ١٠/١٠٠) .

(٢) قال بعض الشعراء في ولاتهم الأمويين :

فررت من الوليد الى سعيد   كأهل الحجر اذ جزعوا فباروا
يلينا من قريش كلّ عام   أمير محدث او مستشار
لنا نار تحرقنا فنخشى   وليس لهم ، فلا يخشون ، نار

(الأغاني : ٤/١٨٢) وكان أنصار آل البيت مضطهدين ، ولما صارت الخلافة الى بني العباس لاقوا من الاضطهاد مزيداً ، فقال لهم المستهل بن الكميت الأسدي :

إذا نحن خفنا في زمان عدوكم   وخفناكم ان البلاء لراكد

« الورقة : ٧٨ ، لعبد الله بن داود بن الجراح » .

(٣) كان الناس يتخوفون الأمراء على أنفسهم لما للسلطان من طبيعة خاصة ، وقد سئل أحدهم ان يستعين بأمير العراق مصعب بن الزبير في ضائقة مادية فقال : « انه من فتيان قريش ، مترف قد أسكره السلطان ، فأخاف منه ما يخاف من مثله » . (أنساب الأشراف : ٥/٢٨٤) .

واتخذ من كان مضمون الولاء (١) . ولم يتسامح مع المعارضة ، ولم يحجم عن ولوج مختلف السبل للخلاص منها مهما كانت داهية رهيبة (٢) . ولم تكن العهود موضع حفاظ إلا نادراً ولو كان الأمان للأدنين (٣).

المعـارضـة :

والمعارضة في الحكومة المستبدة تتلطف عند المواجهة العلنية ، ولا تستغني عن المداراة والتستر ، وتدبر أمورها في الخفاء ، ولا غنى لها عن الأنصار المسلحين ، ولا عن الشعراء والخطباء الذين هم وسائل جذب الجماهير . ولذلك تغدو غالباً عرضة للمطاردة او الاقامة الجبرية او السجن او القتل . وهذه الحال التعسة ترفعها عند الجماهير وتظفرها بعطفهم وان كانت لا تكسبها قوة مجدية في الميدان (٤) .

---

(١) عدد الحسن البصري أربعة مآخذ على معاوية بن أبي سفيان أحدها : « انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء ، وفيها بقية الصحابة وذوو الفضل » . ابن عساكر : ٢ / ٣٨١ .

(٢) « كان أبو جعفر (المنصور) اذا اتهم أحداً من أهل الكوفة بالميل الى إبراهيم (ابن عبد الله بن الحسن اخي محمد) أمر سلماً بطلبه ، فكان يمهل حتى إذا غسق الليل وهدأ الناس نصب سلماً على منزل الرجل ، فطرقه في بيته ، فيقتله ويأخذ خاتمه » مقاتل الطالبيين : ٣٠٠ وتاريخ الطبري : ٩/٣٤٩ .

(٣) كان عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس عم أبي جعفر المنصور قائداً مجداً في استئصال بني أمية ، ثم ثار على ابن أخيه المنصور ، ولما أخفق استأمن له إخوته وكتب في ذلك عهد موثوق . ولم يمنع ذاك العهد أبا جعفر من سجنه والفتك به ، وقد ندد في حبسه بغدر المنصور به ، فقال :

نقض العهد خائس بالأمان ... مستحل محارم الرحمن
سلبتنا الوفاء والحلم طوعا ... فاعتلينا به بنو مروان
ليتني كنت فيهم حسب العيش طليقا أجر حبل الأماني

(أشعار أولاد الخلفاء للصولي : ص ٣٠٧) .

(٤) ظفر الطالبيون ـ الثائرون منهم ـ بعطف الجماهير زمن الأمويين والعباسيين وتأييدهم ولكن ذلك لم يكفل لهم النصر .

ونشأت المعارضة في أحوال نادرة عن غيرة صادقة لحقوق الأمة ومبادئها (١) ، او نشأت عن إيمان فرد او أسرة بحقها المشروع في الحكم (٢) ، أو عن طموح بعض الأقوياء وذوي المواهب لاحتلال مركز ممتاز (٣) .

وعلى كل كانت المعارضة دائماً تدعي عدالة قضيتها ، وظهرت أول أمرها تشجب الاستئثار في حدود النقد الرفيق ، ولكنها لقيت خشونة وغلظة ، ونفي زعماؤ ها عن مراكز الولايات التي فيها قوتهم ، وأمروا ان يلتزموا جانب الصمت ، ورهب بعضهم بالسجن ، وكانت خالصة من الشوائب والمآرب عند الرجال المشهود لهم بالنزاهة والتجرد (٤) ، وكان لأمثال هؤلاء موقف صلب من انحراف السلطة لم يزحزحوا عنه أبداً ، ولزموا الدفاع عن حقوق الرعية فاعترض لهم السلطان بأفدح العقاب وإن كانوا من أنبل الناس وأكرمهم (٥) ،

---

(١) وتتمثل في تاريخنا بمعارضة بعض الصحابة لسياسه الاستئثار التي بدأها بنو أمية عمال عثمان بن عفان ، ومن هؤلاء الصحابة عبد الله بن مسعود وأبو ذر الغفاري وحجر بن عدي . أنظر أنساب الأشراف : ٥/٣٦ و ٥٢ » و« الروض الآنف : ٢/١٧١ » .

(٢) كان هذا اعتقاد الهاشميين جميعاً في العصر الأموي والطالبيين فيه وفي العصر العباسي .

(٣) يعتبر المختار بن عبيد الله الثقفي مثلاً وافياً لمن ينشد الزعامة بالمكر والحرب . وأخباره في كتب التاريخ مشهورة ، أنظر حوادث سنة ٦٥ هـ .

(٤) كان كل من عبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري اذا أراد التعريض بتولية عثمان رضي الله عنه أقرباءه واستكثارهم من الثروات تكلم بما يشبه الحكمة أو تلا آيات من كتاب الله ، سيرة الولاة مخالفة لمضمونها (أنساب الأشراف : ٥/٣٦ و٥٢) ، وقد رحل ابن مسعود عن الكوفة وفرضت عليه الإقامة في المدينة ، كما أقام أبو ذر في الربذة ـ نفيا أو اختيارا في أحد القولين ـ ولما زعم أمير الكوفة سعيد بن العاص أن سواد العراق بستان قريش هب في وجهه زعماء الكوفة ، فكتب فيهم الى عثمان وسماهم السفهاء ، وهم عدول غير وأهل ورع ، فكتب بتسييرهم الى الشام ، وحبس معاوية بعضهم ثم أطلقهم ، انظر (أنساب الأشراف : ٥/٤٣) .

(٥) كان حجر بن عدي من العباد الثقات المعروفين ، وفد على النبي ﷺ ، وشهد القادسية وفتح مرج عذراء الى الشرق من دمشق (شذرات الذهب : ١/٥٧) . =

ولم يعمر هذا النوع من المعارضة طويلاً ، فإن الذين لا يرهبون الاستشهاد من أجل حقوق الشعب وحدها قلة نادرة في أزمان نادرة ، تفسح للمبادىء والمثل موضعاً فيها ، وتمنحها تقديراً ، ومن ثم فالمعارضة الحادة والثورات العارمة في العصر الأموي لم يكن الباعث لها الغيرة على حقوق الجماعة بمقدار ما هو طموح الثائرين وطلبهم للإمارة والملك (١) ، وتجلت هذه الخلقية في كثير من الزعماء ورجالات القبائل ، وكان سعيهم لمنافع مرجوة من نصرتهم لفريق وانحرافهم عن آخر ، وما دامت المصلحة هي الحافز فإن كثيراً من الأنصار والمعارضين قد يتبادلون المواقف بين عشية وضحاها ، ولا اطمئنان ولا ولاء (٢) .

= وكان مع علي في صفين ، وناهض استبداد زياد بن أبيه فقبض عليه ، وقال السهيلي : « كان حجر بن عدي شديد الإنكار للظلم غليظاً على الأمراء ، وأنكر على زياد أمور الظلم ، فخرج عليه ولم يكن قصده الخروج على معاوية ، فلما حمل حجر الى معاوية في خمسة من أصحابه قال :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : أو أنا للمؤمنين أمير ، ثم أمر بقتله » (الروض الآنف : ٢/١٧١) واستعظم الناس مقتل هذا الصحابي ورأوا فيه تجبراً وإسكاتاً لصوت الحق بين الرعية ، ومما قاله أحدهم في رثائه :

كنت المدافع عن ظلامتنا　　　عند الظلوم ومانع الثغر

انظر هذا الشعر وغيره في « أخبار الشعراء الشيعة : ٤٢ ، لأبي عبيد الله المرزباني ، النجف ١٩٦٨ م » .

(١) دعا مروان بن الحكم في النزاع بينه وبين ابن الزبير الشاعر أيمن بن خزيم بن فاتك الأسدي للقتال معه ، فأبى ، وقال :

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي　　　على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي　　　معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً في غير ذنب　　　فليس بنافعي ما عشت عيشي

« أنساب الأشراف : ٥/١٣٥ » .

(٢) كان عبيد الله بن زياد بن ظبيان مع المختار الثقفي علي عبد الملك ، فلما قتل مصعب بن الزبير المختار وأخاً لعبيد الله صار ابن ظبيان الى عبد الملك يقاتل معه مصعباً =

وفي مثل هذه الأحوال قد ينصرف بعض الثوار للعمل لحسابهم الخاص دون ارتباط بزعيم جامع[1] . ونتج من هذا أمران متلازمان : فالأشراف والزعماء بما لديهم من قدرة على التحرك والاقلاق يبثون الفوضى ويربكون الأمير ويحولون دون استقرار الأمر بيده[2] ،والأمير يمارس أعنف البطش في الكبيرة والصغيرة ، رغبة في استئصال الاضطراب وإحقاقاً للأمن .

وكان خطر الشعراء المحرضين على الثورة لا يقل عند الحكام عن خطر زعمائها ، فكانوا إذا لم ينجحوا في شرائهم يحقدون عليهم أيما حقد ويحاسبونهم إن وقعوا في قبضتهم على أشعارهم المحرضة ، ويتشفون منهم

= لقتله أخاه لا حباً بعبد الملك ، واستطاع ابن ظبيان قتل المصعب بنفسه «فاحتز رأسه وحمله الى عبد الملك ، فوضعه بين يديه وهو ينشد :

نعاطي الملوك الحق ما قسطوا لنا ... وليس علينا قتلهم بمحرم

فسجد عبد الملك ، فكان ابن ظبيان يقول : لقد هممت أن أضرب رأس عبد الملك وهو ساجد فأكون قد قتلت ملكي العرب وأرحت الناس منهما ، وقال عبد الملك : لقد هممت أن اقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفتك الناس بأشجع الناس » . (أنساب الأشراف : ٥/٣٤٠) .

(١) مثل الشاعر الثائر عبيد الله بن حر ، أنظر حديثه بعد ص ٢٠٩ .

(٢) مما لا شك فيه ان الاشراف والنبلاء سبب الى انتصار الامير او انهزامه ، فان اعتصبوا حوله ظفر ، وان تهاونوا فيه خذل . ولا يضمن النصر الا بصدق ولائهم او بالقضاء عليهم . وتلك نصيحة قدمت لمصعب بن الزبير ان يتخلص من الاشراف ولو اخذ بها لكان في موقف قوي ، ويرى أعشى همدان اهمال المصعب هذه النصيحة علة في انهزامه ، فقال من قصيدة في رثائه حكى فيها سياسته واحواله في العراق ومواقف رجالاته ، وذكر نصيحة بعض العرب له :

وشد على الاشراف شدة ماجد ... واعناقهم قبل الصباح فضرب
والا فبكت في السجون سراتهم ... الى ان تفيق الناس تصمت وترقب

« كتاب الصبح المنير في شعر ابي بصير والاعشيين الاخيرين : ٣١٤ » .

بالقتل والنكال[١] . وكثيراً ما تعرض الشعراء لأزمات عصيبة إن قتل خليفتهم أو الثائر بهم ممن كانوا يؤيدون . فبعد أن كانوا يملؤون الدنيا تشنيعاً على الطرف الآخر يلفون أن لا بد لهم من ان يتخفوا في فجاج الأرض ، او يُلقوا بأيديهم مستسلمين او يزحفوا الى المنتصر نادمين تائبين يتضرعون للإبقاء على حياتهم ، مستشفعين اليه بذوي الوجاهة والزلفى عنده[٢] . أما إذا كان الشاعر هو الثائر ،

---

(١) كان اعشى همدان في ثورة عبد الرحمن بن الاشعث اللسان المحرض يضرم القبائل على الحجاج ، ولما وقع الأعشى الى الحجاج اسيراً بعد قمع الثورة ذكره باشعاره التي اشعلت الحرب ، ورفض له مدحه فيه وشفاعة الجالسين به وامر بقتله (انظر حديثه في الاغاني : ٥/١٥١ ـ ١٥٢) . وكان عبد الله بن همام السلولي من شعراء الكوفة شديد الحملة على بني امية لا يألو في نظم القصائد تحريضاً عليهم ، كان يقول :

حشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني امية ما روينا

فأمر يزيد بن معاوية بالقبض عليه (انساب الاشراف : ٤/ ٧) وكان لسديف بن ميمون ايما اثر في اغراء العباسيين بتقتيل الامويين (العمدة: ٤٧) وكان هواه الطالبيين ، فلما ثار محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة واخوه بالبصرة وبويع محمد في الحجاز وقف سديف يتهدد المنصور ، ومما يعزي اليه قوله ، وهو في مسجد المدينة ومحمد بن عبد الله بن الحسن على المنبر :

انا لنأمل أن ترتد الفتنا ... بعد التباعد والشحناء والاض
وتنقضي دولة أحكام قادتها ... فيها كأحكام قوم عابدي وثن
فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... ان الخلافة فيكم يا بني الحسن

وقوله مشيراً الى ابي جعفر :

اسرفت في قتل البرية جاهداً ... فاكفف يديك اظلها مهيديها
فلتأتينك راية حسنية ... جرارة يقتادها حسنيها

فلما اسمع ابو جعفر الشعر استطير به ، فكتب الى عبد الصمد بن علي ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ، ففعل . انظر : العقد الفريد : ٥/ ٨٧ .

(٢) هذه حال أكثر الشعراء الذين هزم خلفاؤهم وامراؤهم ، منهم عبد الله بن الحجاج ، وكان « خرج مع نجدة بن عامر الحنفي الشاري ، فلما انقضى أمره هرب وضاقت عليه الارض من شدة الطلب ، فقال في ذلك :

فكان يجهد في سجنه في مكاتمة غيظه ، ويأخذ نفسه بأن تنسىٰ نقمتها والإساءة اليها لتعتقد أنها هي المسيئة والمذنبة حقاً . وقد تزعم أن سجنها ان هو الاكرم من السلطان الذي لو أخذها لعظم ذنبها لكان القتل أدنى مستحقها[1] .

والحق ان المعارض السياسي في ظل الحكم الاستبدادي كان يقامر بمستقبله مقامرة خطيرة النتائج باهظة التكاليف ، فهو إما للسجن المديد والموت ، او للتنكر لنفسه ولأهدافه ومغالطة ذاته[2] .

رأيت بلاد الله وهي عريضة ... على الخائف المطرود كفة حابل
تؤدي إليه أنّ كلَّ ثنيةٍ ... تيمّمها ترمي اليه بقاتل

الاغاني : ١٢/ ٢٦ . وانظر حديثه بعد

(١) كان كثير من خلفاء بني العباس يخلد خصمه في السجن إن لم يقتله ، وكان هذا ديدنهم مع آل علي ، وكان تمادي الحبس بهم يحمل بعضهم على بذل ماء الوجه والتوبة الى مضطهديهم وقاتليهم . ونستشف هذه الحال البائسة من شعر للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وكان « خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن ، ولما قتل سجنه جعفر بن سليمان والي المنصور على المدينة ، وضربه أربعمائة سوط ، وظل في السجن حتى أطلقه المهدي بعد موت المنصور .

وقال لأبي جعفر وهو في السجن ، وقد أتاه نعي أخيه يزيد بن معاوية ، يستعطفه على ولده :

ارحم صغار بني يزيد إنهم ... يتموا لفقدي لا لفقد يزيد
وارحم كبيراً سنه متهدّماً ... في السجن بين سلاسل وقيود
ولئن أخذت بجرمنا وجزيتنا ... لنقتّلنّ به بكل صعيد

انظر ابن الاثير : ٥/ ٢٢٢ ومقاتل الطالبيين : ٣٠٣ .

(٢) قال عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من قصيدة في سجن الهاشميين أيام هشام بن عبد الملك :

كلما حدثوا بأرض نقيقاً ... ضمّنونا السجون أو سيرونا
أشخصونا الى المدينة أسرى ... لاكفاهم ربي الذي يحذرونا

نهج البلاغة : ٢/ ٦٩٣ .

الجمــاهير :

أما الجماهير فكانوا قوة مخوفة ، وكانت الدولة تحترس منهم بالسلاح ، ولا تنزع عن استئمانهم وتملق جانبهم . وربما دفعتهم شدة الحكم عليـهم لأن يمنحوا ولاءهم لأي ثائر من غير تقدير واف لدوافعه الحقيقية[1] . وبذلك كانت الجماهير لا تسلم من استغلال ذوي المآرب تحت شعار القضايا العامة لاجتناء مكاسب خاصة[2] .

إن هذه المؤثرات من السلطة والمعارضة والجماهير مفاتيح لتفهم واقـع الشعراء الذين ضمتهم السياسة الى الحبوس .

الثائــرون :

وخير ميدان للمعارضة والجمـاهير هـو البلد المتطرف عن مـركز السلطة يقطنه ألفاف من القبائل المتنابذة المتباينة انتساباً وولاءً . فاذا خفضت عنه وطأة السلطان أو آنس هو اختلالاً في أوضاع الحكم نجم فيه الخلاف من كل منجم ، ومشى في طريق الثورة بل الثورات .

وكـان وضع العـراق الجغرافي والقبلي يعـده لأن يكون قـطر الانتقـاض والحروب . ولم تكن لتنام فيه الفتن إلا إذا تسلط عليه أمير مرهب بطّاش يجزي

---

(١) فتن العامة في بغداد وقرطبة والعواصم الاخرى كثيرة ، انظر على سبيل المثـال ابن بسام في « الذخيرة : ١/ ١ / ٣٨) .

(٢) كـان المختار بن عبيـد الله الثقفي أول من خطر لـه أن يستغل العبيـد في الإسـلام لحـركته (انســاب الاشـراف : ٥/ ٢٦٧) ثم استـطاع علي بن محمـد المنتسب لآل ابي طالب ـ وهو أبيض ـ ان يقودهم الى ثورة مخربة في القرن الثالث الهجري .

(انظر « التنبيه والاشراف : ٣١٩ » .

عن الجريرة الصغيرة بالعقوبة الكبيرة[1] . وتتيح هذه الظروف لمختلف الشخصيات التي تحمل الاستعدادات الثائرة أن تعلن عن نفسها في مجال حيوي غني بالعناصر المساعدة . فمنهم من يكون في حد ذاته رأس ثورة لا يقبل الانطواء تحت جناح أعلى ومنهم من يعاضد طامحاً للحكم قوي العارضة ، جم النصير ، فيأخذ مكانه بين الثوار ويدخل في مصيرهم .

عبيد الله بن الحر

ومن النوع الأول رجال متمردون طبعاً وجبلة ينفرون من أية سلطة ، وينفلتون من أي نظام ولو كان رفيقاً مرضياً عند الناس ، لمنافاته لطباعهم المتعشقة للحرية والانفلات في الأرض ولكراهتهم التبعية . وهي فئة تصدق عليها الصعلكة إلى حد ما[2] . ولكن الأحداث السياسية اشتملت عليها فطوتها في أحداثها فصدقت عليها الثورة السياسية أيضاً . ويقدم عبيد الله بن الحر من

---

(١) بدأ هذه السياسة زياد بن أبيه ، وأوغل فيها من بعده الحجاج . ولدينا شعر لأعشى همدان يقص ارتياع العرب من أسلوب زياد في القتل بما لا يجب فيه القتل :

تعوذ إذا ما بت من بعد هجعة	من المرء في سلطانه المتفحش
ومن رجل لا تعطف الرحم قلبه	جريء على أحواله متحمش
لجوج شديد بطشه وعقابه	متى يأته ساع بعمياء يبطش
أفي خدشة بالعود لم يدم كلمها	ضربت بمصقول علاوة مندش
وأزهقت في يوم العروبة نفسه	بغير قتيل صاحياً غير منتش

كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير والأعشيين : ٣٣٢ .

(٢) قال صاحب منتهى الطلب عندما ذكر عبيد الله بن الحر : « جعله السكري من اللصوص ، ولم يكن لصا ، إنما كان لا يعطي الأمراء طاعة ، وكان يضم جماعة ويغير بهم » .٢/ ٢٧٠ .

نفسه لهذا الطراز نموذجاً فذاً[1] . وكان رجلاً « لا يعطي الأمراء طاعة »[2] حريصاً على أن يستقل بأمره ، متجافياً عن أن يدين لأحد أو أن يعمل لحساب أحد معرضاً عن الفوائد والمغريات من هذا السبيل . ولا يقع على رزقه إلا وقوع الجارح على فريسته . فكان يغير على القرى والدساكر ويجبيها أو يصادر أموال الخراج المحمولة ، ولا يفعل ذلك من قلة أو شجع إذ كان حسن المنزلة ، ومن « أهل الديوان والعطاء »[3] . ولكنها النفس المفطورة على التفرد والتشرد والاستقلال . وهي نفس بطولية نادرة النظير لو وضعتها الأقدار على رأس جيش نظامي لكان لصاحبها شأن آخر لما شهر به من البأس والإقدام والنفس الطويل في القتال . وكان الأمراء يخطبون وده ويتمنون حلفه[4] . ولكنه كان ثائراً قريب الأمل محدود المطمع لا يسعى لحكم أو ولاية[5] . قصاراه أن يقود رجاله من بلد إل بلد ، وأن يعسكر بهم بعيداً عن الأمصار في الفيافي وعلى ضفاف

---

(١) هو عبيد الله بن الحر بن خالد بن المجمع بن سعد العشيرة ، من الكوفة ، شهد القادسية يافعاً ، وكان شجاعاً فاتكاً ، صار مع معاوية بن أبي سفيان فلم يرض فرديته وعنجهيته ، فانحاز الى العراق ولم يدخل في الصراع بينه وبين علي ، سأله الحسين مناصرته قبيل كربلاء فأبى أن يعينه ونصحه بالعودة ثم ندم على تقصيره في القتال معه . وكان لا يقاتل لديانة وإنما كان همه الفتك والتصعلك والغارات ، رفض مبايعة المختار الثقفي وحاربه . وساند مصعب بن الزبير ، فلما سجنه المصعب حقد عليه ، وأزعجه أيما إزعاج بعد خروجه من الحبس . وذهب إلى عبد الملك واستمده على مقاتلة المصعب فسر به ووعده بإمداد جيش وأعطاه المال . ولكن أعداء ابن الحر ـ وكانوا كثرا ـ استطاعوا القضاء عليه وليس معه من أصحابه إلا نفر ضئيل . انظر : « انساب الأشراف : ٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٨ » .

(٢) انساب الأشراف : ٥/ ٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٥/ ٢٩٢ .

(٤) انظر الحاشية : ١ .

(٥) كان هو والمختار الثقفي من مستوى نفسي واحد في علو الهمة والشجاعة وإسعار الحروب ، ولكن المختار كان بعيد الأمل ينظر إلى الخلافة .

الأنهار ، يرقب الأحداث ، وينتهز الفرص ، ويأوي إليه من الفتيان كل من ضاق بالسلطان ذرعاً ، ونزع إلى الانعتاق من الطاعة والمسؤولية . وكان عبيد الله محبباً إليهم لبطولته وكرمه الجم إذ كان غانما متلافاً يوزع فيهم كل ما تصل إليه يده . ولقد كان هو راضياً بهذا القدر من المجد وبهذا الضرب من العيش لو تركه الحكام فلم يهيجوه . ولكن الأوضاع السياسية المضطربة في العراق استنزلته إلى ميدان الصراع على جهده في الفرار منه . وكان المختار الثقفي قد هابه فتعرض له فقاتله ابن الحر . ولما جاء مصعب بن الزبير إلى العراق أسرع للانضمام إليه مكايدة للمختار وعاضده في القضاء عليه وكتب ذلك على ابن الحر أن ينغمس في منافسات السياسة ومتاعبها ، وأن يحبس بسببها فعلى الرغم من المنزلة التي أصابها عند المصعب لم يستطع الاحتفاظ بالصفاء والوئام بينه وبين الأمير . وكان هو من الرجال الذين لا يحسنون الانتفاع من القصر بالإغضاء عما لا يروقهم من تصرفات الأمير أحياناً . ولذلك استاء ابن الحر أن رأى بعض رجالات البصرة يقدمون عليه في الإذن على المصعب(1) . ولم يرد الأمير مساءة ابن الحر فهو يريد أن يتقوى بالناس جميعاً . ولكن ابن الحر كان من أهل الكوفة ، والمنافسة بينها وبين البصرة على أشدها ، وحمله هذا الشعور بالاستياء على التباعد برجاله والانزواء بعيداً عن المصر من غير أن يحدث ما يريب . غير أن رحيله أراب المصعب وترك الساحة خالية لأعدائه ليشككوا المصعب في ولائه وليخوفوه فتكاته . وكان المصعب أميراً قوياً لا يرضى بميوعة الطاعة ، ويخشى أي معركة جانبية ، وهو يستعد لمحاربة عبد الملك ابن مروان ، فاحتال على ابن الحر يرسل إليه ويستقدمه ويستدنيه ، فلما ركب إلى زيارته أمر به الى السجن .

---

(1) كان عبيد الله يغشى مصعب بالكوفة فيراه يقدم أهل البصرة ، فقال :

لقد ساءني من مصعب أن مصعبا ... أرى كل ذي غش له هو صاحبه
إذا ما أتيت الباب يدخل مسلم ... ويمنعني أن أدخل الباب حاجبه

(أنساب الأشراف : ٥/٢٨٦) .

ويشهد شعره ان حبسه كان مفاجأة له غير متوقعة من أمير كان ابن الحر يداً له على أعدائه ، وسبب المفاجأة ان ابن الحر كان يقيس الأمور بمنطق الفتوة وأخلاقها ، وأما المصعب فيرى بعين الحاكم ويزن بمنطق الحكم الذي لا تدخل الاعتبارات المثالية في حسابه عادة . فكان ابن الحر كمن وقع في فخ مرصد ، ولم يحبس هذا الإحساس في نفسه بل انطلق به صريحاً ، وأعلن أن ذلك نهاية الأمر بينه وبين الأمير ولن يجتمعا مرة أخرى إذا أفرج عنه إلا عدوين [1] ، وكان الشاعر يعلم ان بعض أشراف البصرة نزغوا بينه وبين المصعب ، فتناولهم بهجاء مر من فارس محنق أسره المكر والدس [2] . والحق

---

(١) قال عبيد الله بن الحر من (٢١) بيتاً :

لنعم ابن أخت القوم يسجن مصعب	لطارق ليل خائف ولنازل
ونعم الفتى يا بن الزبير سجنتم	إذا قلقلت يوماً ضفور الرحائل
فلو مت في قومي ولم آت عجزة	يضعضعني فيها امرؤ غير عادل
لأكرم بها من ميتة إن لقيتها	أطاعن فيها كل خرق منازل
وما كنت أخشى أن أراني مقيداً	على غير جرم وسط بكر بن وائل
وألفيتني يا بن الزبير كأنما	رميت بسهم من سهامك ناصل
فإن أنفلت لا تجمع الشمس بيننا	ولا الليل إلا في القنا والقنابل
متى أدع فتيان الصعاليك يركبوا	ظماء الفصول نائمات الأباجل
فلو شئت لم تسجن صديقا ولم تهب	إليك بصقعاء المناكب بازل

منتهى الطلب ٢/ ٢٧٣ .

(٢) وقال في القصيدة نفسها لأعدائه من أهل البصرة :

أنا ابن أبي قيس فإن كنت سائلاً	بقيس تجدهم ذروة في القبائل
ألم تر قيساً قيس عيلان برقعت	لحاها وباعت نبلها بالمغازل
وما زلت أرجو الأزد حتى رأيتها	تقصر عن بنيانها المتطاول
ومقتل مسعود ولم يثأروا به	وصارت سيوف الأزد مثل المناجل
وما خير عقل أورث الأزد ذلة	تسب به أحياؤهم في المحافل
على أنهم شمط كأن لحاهم	لحاء تيوس حلّئت عن مناهل

(المصدر نفسه) ومسعود هو مسعود بن عمرو زعيم الأزد في البصرة ، كانت له الإمرة=

أن شعره في السجن طافح كله بالمرارة ، ولكنه لم يستطع ان يتجاوز العتاب في خطاب الأمير لما في الإفراط من وخيم العواقب . والعتاب مبطن بتلوم لولا التحوط لكان أشبه بالهجاء ، فإن من يقول لأميره : استزرتني فحبستني ، وقاتلت أعداءك فنسيت معروفي ، يحمل قوله معنى أبعد من اللوم . وظهر الشاعر في السجن بطلاً على الحقيقة ، فلا توسل ، ولا جزع ولا انهيار، وإنما هو دفاع العزيز وانتصار الكريم لنفسه [1] .

وخرج ابن الحر من السجن بشفاعة الأحنف بن قيس سيد بني تميم في البصرة [2] فانطلق في الأرض وله عدوان لا يهادنهما أبداً : المصعب وأزد

= فيها بعد هرب عبيد الله بن زياد منها ، وقتل واتهم بنو تميم بقتله ، فكان بين تميم والأزد حوادث حتى ودوا مسعودا ، انظر « أنساب الأشراف : ٤/ ٩٨ » .

(١) ومن شعره الذي يصور ذلك قوله :

من مبلغ الفتيان أن أخاهم ... أتى دونه باب منيع وحاجبه
على الساق فوق الكعب أسود صامت ... شديد يداني خطوه ويقاربه
بمنزلة ما كان يرضى بمثلها ... إذا قام غنته كبول تجاوبه
وما ذاك من جرم أكون اجترمته ... ولكن سعى الساعي بما هو كاذبه
وقد كان في الأرض العريضة مسلك ... وأي امرىء أعيت عليه مذاهبه
دعاني إليه مصعب فأجبته ... نهاري وليلي كله أنا دائبه
فكان حبائي إذ أنخت ببابه ... حجول وأحراس وصعب مراتبه
فإني لم أنكث لكم عهد بيعة ... ولم آت أمراً محدثاً أنا راهبه
فأنّى لكم مثلي يذبب عنكم ... إذا الصف وارت للقراع كتائبه
لعمرك إني بعد عهدي وبيعتي ... لكالسيف فلت بعد حد مضاربه
وقد علم المختار أني له شجاً ... إذا صد عنه كل قرن يكالبه
فكم من صريع قد تركت بمعرك ... عكوفا عليه طيره وثعالبه

« منتهى الطلب : ٢/ ٢٧٢ » من ثمانية عشر بيتاً .

(٢) أرسل ابن الحر إلى الأحنف في كلام المصعب له في الإفراج عن ففعل (أنساب الأشراف : ٥/ ٢٨٨) ولعل استجابة الأحنف لابن الحر مرجعها الى هجائه الأزد خصوم بني تميم في البصرة .

البصرة ، وأخطأ المصعب فيه مرتين ، فلم يقبض عليه لجريرة ، ولم يفرج عنه ضامناً لهدوئه ، فلم يصب في كلتيهما ، وذهب يعيث في نواحي العراق فساداً فتظاهر عليه مع المصعب والمهلب ابن أبي صفرة ، فلم يظفرا به ، واضطر الى مبايعة عبد الملك والاستظهار به مكايدة لابن الزبير . وكاد عبد الملك يوليه قوة من الجند لولا أن سوء الطالع حجم بابن الحر على الموت إذ بيّته عدوه الكثير وهو في نفر قليل ، فلما لم يجد من الموت بدا ألقى بنفسه في الماء غير مستسلم وجراحه تشخب دماً (١) .

محمد بن صالح الحسني :

ويعثر الباحث على نماذج من هؤلاء الرجال في كل عصر تقريباً ، فإن النفوس تحمل استعداداتها في تكوينها الفطري ، وتنطلق على سجيتها في الظروف والبيئات المؤاتية ، وتكون أقوى تعبيراً عن جوهرها إذا لم يضرب على حريتها بالتقييد ، ولم تبهت وتهزم في برودة اليأس . وإذا كان عبيد الله بن الحر قد مضى في فتوته وانطلاقته الحرة الى أقصاها حتى مات وسيفه بيده ونبال أعدائه في جسده في عهد كانت النفوس لا تزال صحيحة مشبعة بروح الصحراء فإن نظراءه الذين خرجوا في مجتمع أنضجته الحضارة لم يستطيعوا ان يجولوا فيه جولات مشهودة ، وهؤلاء الثوار يهزمهم مجتمعهم قبل أعدائهم .

لقد كان محمد بن صالح الحسني (٢) ، من القرن الثالث الهجري يحمل إرث الثورة في دمه من آباء لم يخل جيل منهم من ثائر شهر السيف وطالب بالخلافة ثم استشهد دون مطلبه ، ولم يكن محمد بن صالح صاحب خلافة

---

(١) بطولته التي أظهر في النزال الذي مات فيه غريبة غرابة الخيال . انظر في المصدر نفسه : ٥/٢٩٧ .

(٢) « هو محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام ، وكان من فتيان آل أبي طالب وفتاكهم وشجعانهم وظرفائهم وشعرائهم . « مقاتل الطالبيين : ٦٠٠ » .

يطلبها ، وما كان غير فتى جريء القلب مقدام المغامرة يسبق غلواؤه وزنه للقوى التي معه وتقديره للعواقب ، فكان لا يبالي أن يخرج بثلة ضئيلة في دولة كبيرة تقبض جيوشها على النواحي والأصقاع ، فلما ثار في ناحية من ظاهر المدينة كان ذووه أول المرتاعين من صنيعه ، وسارع عمه الى إسلامه إلى قائد جيش كان أميراً للحج ، بعد أن استأمنه على حياته [١] ، وقد يكون في موقف عمه ما يثير الدهشة ولكن ما قاسى آل أبي طالب من عسف السلطة خلال قرون طويلة يشهد لهم بالعذر ، ثم حمل محمد بن صالح الى سر من رأى ، فمكث في حبس المتوكل ثلاث سنين[٢] . وكان خروجه على السلطان التجربة الأولى والأخيرة في حياته ، إذ هبّ في أسرة وجماعة ليس فيهم مسكة على الثورة والدعم[٣] ، وفي مثل هذا الخذلان يعاني السجين أشد أزماته لما بين آماله العراض وتصاغره من التفاوت ، وشعر محمد لا يخفي هذا الألم ، وكان يرى في أعدائه مخلوقات متضائلة أسلمه حظه العاثر اليها ، فكان يتقطع

---

(١) « كان محمد بن صالح خرج بسويقة ـ بجنوب شرق المدينة المنورة ـ وجمع الناس للخروج ، وحج بالناس في تلك السنة أبو الساج ، فخافه عمه على نفسه وولده وأهله فسلمه إليه ، وهو لذلك من عمه آمن على أمان استوثق لمحمد بن صالح ، فحمله الى سر من رأى فحبس بها مدة ثم أطلق » المصدر نفسه : ٦٠٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين : ٦٠١ .

(٣) أورد أبو الفرج عن عمر بن عثمان الزهري « أن بكار بن عبد الله الزبيري وجه إلى محمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن ، وقد ورد سويقة ليصوم شهر رمضان في منزله ، فجاءه الرسول فأخذه ومضى به إلى الحبس ، فلم يزل محبوساً ثم أخرجه ، فقال له : من يكفل بك ، قال : جماعة أبي طالب ، فقال بعضهم : لسنا نكفل لمن عصى أمير المؤمنين فوثب وأنشأ يقول :

وما العود إلا نابت في أرومة ... أبي صالح العيدان أن يتقطرا
بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباء صدق تلقهم حيث سيرا

مقاتل الطالبيين : ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .

أسى ويعلم أن كل شيء فيما يتصل بمجده قد انتهى [١] .

وأصبح الشاغل له بعد القبض عليه نجاته من الموت ، وكان يخشى أن ينجح شانئوه في حمل الخليفة على قتله [٢] ، ولعل ذلك لم يكن من عزم المتوكل بعد ان غيّبه في حبس سامراء وأبعده عن مسارح فتوته ، فلا خطر في استحيائه .

وكانت له في سجنه حياة تغاير الأولى منهجاً وغاية ، فهو يريد الحياة أولاً ثم العودة الى الحرية ، فعمد الى البلاط يراسل كبار الأمراء ويستحدث فيما بينه وبينهم علائق وصداقات يستثمرها في الوساطة له عند الخليفة ، وكان يسلك هذا المسلك كل من استطاع من المحبوسين سبيلاً إلى المتنفذين .

وكانت مؤهلات الشاعر وميول رجال القصر تسعف هذا القصد وتشجعه ، فالرجل كان طويل الباع في الشعر مقتدراً على معجبه ، وكان من يراسلهم على حظ عال من الثقافة والأدب والتجربة في الشعر ، فتعاطفوا له عطف الأديب على الأديب ، وكانت بينهم وبينه محاورات شعرية ومعارضات

---

(١) نستشف هذا الألم في هجاء الشاعر لأبي الساج الذي حمله الى حبس سامراء .

ألم يحزنك يا ذلفاء أني ... سكنت مساكن الأموات حيا
وأن حمائلي ونجاد سيفي ... علون مجدعا أشرا شنيا
فقصرهن لما طلن حتى استوين عليه ، لا أمس سويا
أما والراقصات بذات عرق ... تؤم البيت تحسبها قسيا
لو أمكنني غداتئذ جلاد ... لألفوني بها سمحا سخيا

الأغاني : ١٥/٩٠ ومقاتل الطالبيين : ٦٠٩ .

(٢) كان يخشى على حياته من تحريض عبيد الله بن يحيى بن خاقان : (وكان لشدة انحرافه عن آل أبي طالب يغري المتوكل به ويحذره من إطلاقه، فهجاه محمد هجاءً كثيراً » مقاتل الطالبيين : ٦٠٠ والأغاني : ١٥/٩٢ ، وأبدى الشاعر خشيته منه في قصيدة بعث بها الى المتوكل يمدحه ، فقال :

وأنا أعوذ بفضل عفوك أن أرى ... غرضا ببابك للملم الفاقر

الأغاني : ١٥/٩٤ .

ومدائح (١) ، يضاف الى ذلك ما في نفوس بعضهم من تعاطف مع الطالبيين ومسعاتهم في التخفيف عنهم من غير أن تحوطهم شبهة أو لائمة (٢) ، وقد تأنق في القصائد التي سفرت بينه وبينهم حتى استطاع أن يصل ببعض شعره إلى إعجاب المتوكل به والصفح عنه (٣) . ونسي ثورته وتشطره وخرج ليعيش تحت المراقبة حياة هادئة حتى مات (٤) .

المتنبي :

وإذا رضي أولو الطباع الثائرة بالعافية فليأسهم من الظفر في جماعة أفسدها الترف والاستبداد ـ كما تقدم ـ وما كان مقدراً لحركة ثائرة أن تنجح معتمدة على مجتمع مدني ، حتى الذين تمكنوا من الإقلاق بثورات كبيرة من ذوي المآرب والفساد لم ينهضوا إلا بعد تجميع قطاعات كبيرة من ألفاف الناس

---

(١) قال أبو الفرج : كان محمد بن صالح صديقاً لسعيد بن حميد ، وكان يقارضه الشعر ، وله في هذا الحبس أشعار كثيرة يطول ذكرها . وقال : « وله أيضاً في إبراهيم بن المدبر وأخيه مدائح كثيرة » ، الأغاني : ١٥/٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل أرفد الناس له عند الخليفة وأعونهم له على الإفراج عنه ، انظر مقاتل الطالبيين : ٦٠٨ .

(٣) أورد أبو الفرج عن المبرد : « لم يزل محمد بن صالح محبوساً حتى صنع بنان لحنا في قوله :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعاته

فاستحسن المتوكل اللحن والشعر ، وسأل عن قائله ، فأخبر عنه ، وكلم في أمره ، وأحسن الجماعة رفده بالذكر الجميل ، وأنشد الفتح قصيدة يمدح بها المتوكل التي أولها :

ألف التقى ووفى بنذر الناذر ... وأبى الوقوف على المحل الداثر

وتكفل الفتح بأمره ، فأمر بإطلاقه ، وأمر الفتح بأخذه إليه ، وأن يكون عنده حتى يقيم الكفلاء على نفسه ، وأن يكون مقامه بسر من رأى ، ولا يخرج إلى الحجاز ، فأطلقه الفتح وتكفل بأمره ، وخفف عنه في أمر الكفالة » . الأغاني : ١٥/٩٣ ، والمقاتل : ٦٠٨ .

(٤) « حبس بسر من رأى ثلاث سنين ثم أطلق ، وأقام بها الى أن مات ، وكان سبب منيته أنه جدر ، فمات في الجدري » . مقاتل الطالبيين : ٦٠١ .

أو في النواحي المتطرفة[1] . أما بذور الثورة ـ كما سلف ـ فهي في كثير من النفوس شيء من الفطرة ولكن قد يحكم عليها عصرها بالخذلان .

وكانت نفس المتنبي من هذا الطراز الثائر . وظلت تحتضن المرارة طوال حياتها ، ولم ترض بواقعها رضاً ذاتياً أبداً ، وكان فيها دائماً شعور من السخط على هذا الواقع والرفض له . ولا ينفي هذه الحقيقة ضربه في أنحاء الأرض متنقلاً بين الملوك كسباً للمعاش وفراراً من الفقر . فقد كان يأخذ باليد ويزخرف باللسان ولكن القلب منه ثائر حنق والنفس مشبعة بالاشمئزاز . وظلت آماله الكبار مشبوبة بين جنبيه ، يرى حقيقته بين الملوك إن لم يجدها فوق الكثيرين منهم[2] . ولقد قيل ما قيل في ثورته في حداثته وخروجه في بادية الشام ودعوته بين الأعراب إلى نفسه إما متنبئاً أو منتسباً إلى العلوية [3] .

وإذا لم يكن لهذه البادرة من ظفر تحويلي كبير في مستقبله فإن المنطلق النفسي الذي منه انبثقت لم يردم ، وظل هدير الطموح والنقمة يتردد في شعر ثائر ألزمه عصره أن ينتظم في صفوف المداهنين المتكسبين .

ويشير ظهوره بين الأعراب إلى ذكائه ودهائه وإلى هوى المغامرة عنده ، كما تدل تجربة السجن في أعقاب ذلك على ارعوائه واعتداله وتكيفه مع

---

(١) مثل ثورات القرامطة الخاربة .

(٢) قصائده المفصحة عن هذه المشاعر كثيرة (انظر على سبيل المثال في ديوانه بشرح العكبري : ١/ ٣١٣ و٢/ ٣٤١ و٤/٤٤ و١٠٢) ولعل أميراً واحداً حمل له المتنبي مشاعر الاحترام هو سيف الدولة الحمداني وكانت وقعاته وبطولاته تفرض احترامه على الأبطال وأعطياته الغامرة أصابت المتنبي بخير عظيم . أما الآخرون فشفعهم باحتقار عظيم :

وإنما الناس بالملوك ، وما	تفلح عرب ملوكها عجم
في كل أرض وطئتها أمم	ترعى بعبد كأنهم غنم

ديوان المتنبي : ٤/ ٥٩ .

(٣) انظر بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية : ٣٠٨ . بيروت ١٩٤٠ .

الأوساط الاجتماعية والسياسية التي وجد فيها . فاختار لمغامرته قوماً سذجاً بسطاء يعين جهلهم على خداعهم ، وأرضاً مترامية تمتد للهارب وتخفي المتواري ، ولبس مسوح الدين ليكون نافذ الكلمة . ولعله استكشف وهو في السجن أن تهوره جاوز تصوراته وأمانيه ، فما كان منه وقد حشر مع المجرمين يواجه خطر الموت أو الاعتقال الطويل إلا أن ارتاع وتشوف للخلاص ، فكسر سيف الثائر وحرك لسان الشاعر ، واستجدى من الأمير الصفح والعفو عائذاً به لينقذه من ذاك الوسط الموبوء [1]. لكنه لم يفقد رجولته ، ولم يتهالك على الذل ، ووصف بلواه مستعطفاً ، حتى تناسى أن يشهد على نفسه بالتوبة أو الاعتذار . وانطلق يدافع عن نفسه في مرافعة حسنة ، فادعى أنه لا يزال صغيراً دون شرط العقاب ـ ولم يكن كذلك ـ وكذب دعوى خروجه ونفى أن يكون ثمة دليل حسي عليها[2] فهو يبريء ساحته من تهمة دون أن يكلف كرامته شيئاً

(١) خاطب لؤلؤاً أمير حمص من سجنه بثمانية وعشرين بيتاً منها :

أمالك رقي ، ومن شأنه	هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك لما براني البلى	وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال	وقد صار مشيهما في القيود
وكنت في الناس في محفل	وها أنا في محفل من قرود

ديوان المتنبي : ١/ ٣٤٦ .

(٢) ثم يقول فيها :

تعجل في وجوب الحدود	وحدي قبل وجوب السجود
وقيل : عدوت على العالمين	بين ولادي وبين القعود
فمالك تقبل زور الكلام	وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين	ولا تعبأنّ بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى: أردت	ودعوى : فعلت بشأو بعيد
وفي جود كفيك ما جدت لي	بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

وقد ادعى في هذا الشعر أنه صبي لا تجب عليه الحدود ، وفي ذلك يقول ابن جني : « وليس يريد أنه صبي غير بالغ ، وإنما يصغر أمر نفسه عند الأمير ألا ترى أن من كان صبياً لا =

مذكوراً . ولو نقب في سريرته عن حقيقة ما فيها لعثر على آلام مقهور محترق يعلن غير ما يبطن ، راضخ لقوة يعجز عن مصاولتها وهو عارف دناءتها وخستها ، ولكن الظروف القاهرة تملي عليه أن يطأطيء هامته لها . وأن يتناول من يدها وعلى وجهه الابتسامة الشاحبة ، وفي قلبه الحقد العاصف[1] .

الثوار الأتباع في البوادي والمدن

ويمكن اعتبار أولئك الرجال زعماء ورؤساء في نطاق الثورة ، سواء كان تحركهم ضئيلاً أو غارات حادة مزعجة . ولكن حجم التحرك لا يحول دون الشهادة لهم بالاستقلال في التزعم والتفرد وبحب السلطان والظهور . والفرق بين هؤلاء وغيرهم من الثوار غير القادة أن هؤلاء لا يتحركون إلا إذا كانت لهم القيادة ، على حين أن ثمة ثائرين من الفاعلية بمكان عظيم لا ينشدون الزعامة بل يعملون لحساب أنفسهم ، أو لغيرهم ، تحت جناح زعامات كبرى ، سعياً لمكاسب ومطامع مادية ، في الأغلب ، أو استجابة لحاجات سياسية فرضتها عليهم الظروف الإقليمية أو القبلية .

وهؤلاء لا يكون الارتباط بينهم وبين الثورة وزعمائها وجدانياً حاراً إلا بمقدار تشابك المصالح وتلاقي المنافع . ويقع عادة الانفصام العملي والنفسي بين الطرفين عندما تخفق الثورة أو تمحل فلا تنبت لهم ما يرجون منها . ولذلك لا يأنفون من المكر والندم الكذوب يلقون بأنفسهم على أقدام أعدائهم طلباً

= يظن به اجتماع الناس إليه للشقاق والخلاف ، » شرح العكبري ١/ ٣٤٦ .

(١) تستخلص هذه الحقيقة النفسية من أبيات قالها في المسؤول عن سجنه وقد تهدده بطول الحبس :

أهون بطول البقاء والتلف ... والسجن والقيد يا أبا دلف
كن أيها السجن كيف شئت فقد ... وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة ... لم يكن الدر ساكن الصدف

شرح العكبرى : ٢/ ٢٨٠ .

للصفح وخوفاً من الموت . ولا يعثر عند هؤلاء على نبل أو سمو يثير الإعجاب . وقد يمن عليهم بالحياة لما آلوا إليه من صفار ذاتي لا يتيح لأشعارهم بعد أن تثير الجماهير ، إذ ذهب خنوعهم بفاعليتها الدافعة ، لما يتبدى للناس من تناقض بين القول والتنفيذ .

أعشى همدان

ومن الإنصاف ألا ينحى على أمثال هؤلاء بكبير لائمة ، فقد كانت ظروفهم غلابة عنيدة ، وليس كل من كانت له أمنيات . وأهداف مستعداً أن يموت من أجلها مختاراً . ومن الأفضل أن ينظر إلى بلائهم قبل أن ينهاروا ويعطوا بأيديهم ، ففيهم من كان ثورياً موارا محرقاً يستكن في حومات الشغب .

ولعل في حياة أعشى همدان مثلاً وافياً لهذا الضرب من الثائرين. فقد كان الرجل كوفياً همدانياً،وهمدان من اليمن قبيلة ثقيلة في ميزان الأحداث، وكان الأعشى منها روحاً ويداً ، لا يرى لنفسه غير مسالكها مسلكاً ، وشاءت السياسة أن تفرض على همدان سلسلة من الحروب والثورات مزقتها تمزيقاً ، وحصدت رجالها وفرسانها ومنهم شاعرنا . وكان أول الشر عدوان المختار بن عبيد الله الثقفي عليها حين رفضت أن تبايعه في الكوفة ، فنازلهم وصاولوه(١) ، ولم يجدوا بداً من الانضمام إلى خصمه مصعب بن الزبير الذي زحف إليه من البصرة . فأدالوا لأنفسهم من المختار والأعشى معهم ، في كل موقف من مواقفهم ، وأشعاره ترصد الأحداث وتسجلها(٢) .

وأخلصت همدان والأعشى للمصعب ، وشهد الشاعر تآمر شيوخ القبائل في العراق على ابن الزبير وتواطأهم عليه مع عبد الملك حين انهزموا عنه في المعركة التي قتل فيها .

---

(١) انظر انساب الاشراف : ٥/ ٢٣٤ .

(٢) في المصدر نفسه طائفة منها : ٥/ ٢٤٢ - ٢٥٤ .

فحزت في نفسه النكثة وأوجعته الخيانة ، وحزن لما أصاب المصعب وندد بالناكثين يشهر أسماءهم واحداً واحداً ويلعن غدرهم[1] .

ولما خضع العراق للأمويين لم يكن الأعشى ممن تطمئن إليهم السلطة أو ترضى عنهم أو تأمن بوادر لسانه . ويبدو أن الإرهاب الذي بسطه ولاة بني أمية في أعقاب هذه الحرب على العراق أخاف الأعشى وأذهله[2] ، فكفكف من غرب لسانه ومن غلوائه. ولما قدم الحجاج إلى العراق منعه من الإقامة فيها وسيره للغزو في أرض الديلم ، فأصيب أسيراً[3] .

ولما عاد من الأسر إلى العراق كان في نفسه على الأمويين وعمالهم حقد مؤرق ، ولكن عسف الحجاج بالناس تركهم يخشون على انفسهم من خواطرها .

فوجد الأعشى لنفسه مكاناً بين المقاتلة يغزو مع الجيوش . فلما أعلن أحد القادة وهو عبد الرحمن بن الأشعث الكندي اليمني عصيانه ثم ثورته على الحجاج كان الأعشى أول الهاتفين والمبايعين له بالإمرة ثم بالخلافة[4] . وامتصت ثورة ابن الأشعث العناصر الناقمة في العراق ، وما أكثرها ، من مختلف الفئات والطبقات والقبائل فصار في خلق كثيف .

وفجر الأعشى مكبوت غضبه وهتف للثورة ، فكان أكبر شعرائها . وكان هتافه يصل إلى الحجاج فيغيظه ويخيفه من القدرة على التأثير والإثارة ، فإن الكلمة النارية تشعل في كل يوم مئات القلوب وتستدعي الثائرين . وقد حفظه له

---

(١) المصدر نفسه : ٥/ ٢٤٨ .
(٢) انظر بعض صور الارهاب في شعره ص ٢٠٩ ح ١ .
(٣) انظر الفصل الاول : ص ٨٨ ح١ .
(٤) للمسعودي حديث مركز عن حركة ابن الاشعث في التنبيه والاشراف : ٢٧١ .

الحجاج حتى إذا جاءت الشاعر ساعة العسرة أخذه به ولم يرحمه[1] .

وأخفقت هذه الثورة أسوة بإخفاق الحركات المسلحة جميعاً التي قامت على الحكم الأموي في ذاك البلد على ضخامة حروب ابن الاشعث وهولها . والسبب في كل هذا واحد هو تفكك الكلمة واختلافها بين زعماء العشائر وتحاسدهم وصيانة بعضهم بعضا . وقد نكث أهل البصرة بيعتهم لابن الأشعث ، وجاءت الجيوش الأموية من الشام ، فهزمته وردته إلى المشرق ، وشتت أصحابه وأخذوا ، وجد الحجاج وراءه حتى قتل نفسه .

وأسر الأعشى ، وأدخل حبس الحجاج ، وقبيلته مشردة مشتتة في أطراف الأرض . وكان في نفس الحجاج ما فيها من التغيظ والتحرق عليه ، فأمر به إلى مجلسه في وجود قادة الجيوش من أهل الشام ليتشفى بالشماتة بذله وبرؤ ية رأسه يطيح به السيف بين يديه . وكان الأعشى لا يجهل ما ينتظر مثله من الحجاج ، ولم يكن له كبير رجاء في البقاء . ولكن المرء لا يسخو بحياته ولا يخلد إلى اليأس ويكفيه الأمل الضئيل لاتخاذ الأسباب للنجاة وسلوك سبلها . ولم يكن للشاعر من الأسباب إلا شعره ، فأعد لهذا الموقف قصيدة ليصل بها إلى موطن

---

(١) حدث أبو الفرج عن المبرد ، قال : « لما أتى الحجاج بن يوسف الثقفي بأعشى همدان أسيراً قال : الحمد لله الذي أمكن منك . . . أو لست القائل :

يا ابن الأشج قريع كنـ ـدة لا أبالي فيك عتباً
أنت الرئيس ابن الرئيـ ـس وأنت أعلى الناس كعباً
نبئت حجاج بن يو سف خر من زلق فتبا
فانهض ، فديت ، لعله يجلو بك الرحمن كربا
وابعث عطية في الخيو ل يكبهن عليه كبا

كلا يا عدو الله بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذي خر من زلق فتبا ، وطار نكب ، وما لقي ما أحب . ورفع بها صوته ، وأربد وجهه ، واهتز منكباه ، فلم يبق أحد في المجلس إلا أهمته نفسه ». الأغاني : ٥/ ١٥١ .

الصفح ظاهرها تمجيد الحجاج وباطنها الحقد الأسود والغضب المخنوق . ولقد جهد في أن يكذب نفسه فلم يغلبها ، وكان التمويه طلاء رقيقاً ينم عما تحته عند أدنى نظر. وتدل القصيدة على أن ما كان يشغل الأعشى مرارة الهزيمة التي قضت على الثورة ورفعت كعب الحجاج ، والأسى لما نزل بقبيلته من الأسر والتشرد والقتل ، ومضانعة الحجاج للتخلص من الموت . فطأطأ رأسه مقراً بالهزيمة متظاهراً بإعلاء شأن الحجاج وصبره وتوفيقه[١] . وذهب يتلوم أهل العراق لخروجهم عليه وخيانتهم ، وكان في نفسه شيء آخر غير اللوم السطحي ، كان ثمة السخط الغاضب على الرؤساء الذين مكروا بابن الأشعث وبمن قبله من الأمراء ، وظاهروا على هزيمتهم فأردوهم ، فلم تقم للعراق قائمة من التحرر من سلطان الظالمين بسببهم وبما تعودوه من النكوث والنكول بعد البيعة . وليس عسيراً على ابن العراق أن يعرف دواعي الهزائم المتتابعة ، ولذلك وقف بين يدي الحجاج يغالب هذه المشاعر الناجمة ويوجهها في غير مجراها الحق[٢] . ولم ينتفع الشاعر بشيء من هذا عند الأمير إذ مدحه ومدح

---

(١) وفي ذلك يقول :

وما لبث الحجاج أن سل سيفه ... علينا فولّى جمعنا وتبدّداً
وما زاحف الحجاج إلا رأيته ... حساماً ملقى للحروب معودا
بجند أمير المؤمنين وخيله ... وسلطانه أمسى معانا مؤيداً

الاغاني : ٥/ ١٥١ .

(٢) يستشف هذا من أبيات في القصيدة السابقة :

أبى الله إلا يتمم نوره ... ويطفيء نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
فكيف رأيت الله فرق جمعهم ... ومزقهم عرض البلاد وشردا
بما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
كذاك يضل الله من كان قلبه ... ضعيفاً ومن والى النفاق وألحدا

خليفته[1] ، ورققه على قبيلته[2] ، فمثل الحجاج لا يخدع بظاهر القول ، فأمر به فقتل[3] .

والحق أن أعشى همدان عانى شيئاً من المداراة ، وإن كانت مفضوحة ، ومن النفاق أيضاً[4] ، غير أنه احتفظ بكثير من ثباته ولم يتعفر بالمذلة ، وقتل ثائراً يرغب بالسلامة من غير ما تضييع للكرامة .

عبد الله بن الحجاج :

ولا يجد الأعراب حرجاً في هذه المواقف ، فهي من طبيعة حياتهم ، وألف البدوي البحث عن المنافع الذاتية ، وأن يذعن للسيف متى هابه ، وأن

---

(١) تعرض إلى مدح الخليفة ، فقال :

وجدنا بني مروان خير أئمة ... وأعظم هذا الخلق حلماً وسؤددا
وخير قريش في قريش أرومة ... وأرحمهم إلا النبي محمدا
إذا ما تدبرنا عواقب أمرنا ... وجدنا أمير المؤمنين المسودا

(٢) قال فيهم :

فقد تركوا الأموال والأهل خلفهم ... وبيضا عليهن الجلابيب خرّدا
يناديهم مستعبرات إليهم ... ويذرين دمعاً في الخدود وإثمدا
وإلا تناولهنّ منه برحمة ... يكن سبايا والبعولة أعبدا
لعلهو أن يحدثوا العام توبة ... وتعرف نصحاً منهم وتوددا

(٣) عندما أنشد الأعشى قصيدته الحجاج « قال من حضر من أهل الشام : قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله ، فقال : أتظنون أنه اراد المدح ، لا والله ، ولكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه ، وأراد به أن يحرض أصحابه ، ثم أقبل عليه فقال له : أظننت يا عدو الله أنك تخدعني بهذا الشعر ، وتنفلت من يدي حتى تنجو . . يا حرسي اضرب عنقه ، فضرب عنقه » . الأغاني : ١٥٢/٥ .

(٤) اضطر الشاعر إلى أن يغمز ابن الأشعث بل إلى ان يهجوه تقية حيث قال في آخر القصيدة :

لقد شمت يا ابن الأشعث العام مصرنا ... فظلوا وما لاقوا من الطير أسعدا
كما شاءم الله النجير وأهله ... بجدك من قد كان أشقى وأنكدا

يتملقه بكثير من الرياء ، وأن ينقلب عليه متى تفلت من سطوته ، وإذا كان أعشى همدان قد خاض غمار الثورة مع قبيلته وأهل بلده ، منافحة عن قضية غير فردية ، فإن من الأعراب من كان ينطلق من مأرب نفعي محض ، يلتحق بالثوارت طمعاً لا غضباً ولا أنفة .

كان عبد الله بن الحجاج ، وهو من غطفان ، وقد اجتهد في حظ نفسه فاختار لها أن يبايع عبد الله بن الزبير في الحجاز وأن يسخّر شعره لدعوته ، ولما زالت دولته ولم يبق لأنصاره مفر ولا وزر من الأمويين هام الشاعر على وجهه مذعوراً ، لا هم له إلا النجاة بحياته ، ولم يستطع أن يستسلم لجند الشام إذ كان يتوقع القتل لما كان له من بلاء في محاربتهم ، فسعى الى دمشق مستخفياً حتى وقف بين يدي عبد الملك يتضرع ويعتذر عن ضلالته ، ويعد بالسمع والطاعة حتى يصير لخليفته أذل من بعير ، فآمنه وأصبح في العاصمة كمن فرضت عليه إقامة جبرية ، وكان الحجاج بن يوسف يؤثر الخلاص منه ، فكتب الى الخليفة ليرسله إليه فيتولى قتله ، ولكن الشاعر دخل على عبد الملك وارتمى على قدميه ، فكتب له الحجاج كتاباً بالأمان يأمره بالكف عنه (٢) ، وانطلق عبد الله الى ثغر الري يغزو مع الغازين بعيداً عن أعين السلطة ويدها يرضي في نفسه نوازع الثورة والمغامرة ، ويسعى للغنائم والغنى ، وظفر يوماً بأسير دسم ضخم

---

(١) قال عبد الله بين يدي عبد الملك وقد دخل عليه متنكراً :

ابلغ أمير المؤمنين فإنني ... مما لقيت من الحوادث موجع
منع القرار فجئت نحوك هاربا ... جيش يجر ومقنب يتلمع
كنا تنحلنا البصائر مرة ... وإليك إذ عمي البصائر نرجع
إن الذي يعصيك منا بعدها ... من دينه وحياته متودع
آتي رضاك ولا أعود لمثلها ... وأطيع أمرك ما أمرت وأسمع
أعطي نصيحتي الخليفة ناجعا ... وخزامة الأنف المقود أتبع

الأغاني : ١٢/٢٥ .

(٢) الأغاني : ١٢/٣١ .

الفدية فحسده عليه قائد الحملة فانتزعه من يده ، وألقى بالشاعر في السجن . وكانت تعاسته فيه كبيرة إذ وقع فيما فر منه ، وضاعف فيها بعده عن الأهل وحرمانه من الثراء والغنيمة (١) ، ولما خلي عنه انكفأ ناقماً مغتاظاً من الغزو الخارجي الى الغزو الداخلي واتجه الى نجد فالتحق بثورة نجدة بن عامر الخارجي الشاري ، وكان نجدة بسط على نجد سلطانه وعظم أمره .

وأسقط بيد عبد الله بن الحجاج مرة أخرى حين قمعت حركة الشاري ، وعادت الجيوش الأموية الى اليمامة تلاحق الثوار ، ولم يجد مناصاً وقد جد الطلب وراءه إلا ان يعاود سيرته الأولى فركب متنكراً إلى دمشق ، ويلجأ الى أحد أشراف بني أمية ، فوشى هذا به الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأرسل الشرط فتناولته إلى الحبس (٢) . ولم يساعفه الحظ هذه المرة كما ساعفه في الأولى إذ جرب عليه بنو أمية نفاقاً كثيراً ولا يرى الحاكم الإغضاء عن مثله حزماً ، لكنه لم يظهر هلعاً وأبدى نقمة وغضباً ، ولم يشأ ان يقف بين يدي الوليد كما وقف بين يدي أبيه من قبل ، فائتزر بكثير من الصلابة وهو ابن بادية ، خواض حروب ذو شرة وعنجهية ، يأخذ قيم الرجولة والفروسية باعتبار ، فلما أسلمه الشريف الأموي من غير أن يرعى للجوار حقاً نقم منه هذه الغدرة المخزية ، ولم يعف بني أمية من عارها وساماهم ، وهو في السجن ، برجولته

---

(١) « كان عبد الله بن الحجاج مع كثير بن الحصين ، فأغار الناس على الديلم ، فأصاب عبد الله بن الحجاج رجلاً منهم فأخذ سلبه فانتزعه منه كثير ، وأمر بضربه ، فضربه مائة سوط وحبس ، فقال عبد الله في ذلك وهو محبوس :

تساءل سلمى عن أبيها صحابه ... وقد علقته من كثير حبائل
فلا تسألي عنه الرفاق فإنه ... بأبهر لا غاز ولا هو قافل
ألست ضربت الديلمي إمامهم ... فجندلته فيه سنان وعامل

الأغاني : ١٢/٢٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢/٢٦ .

سمواً كبيراً ، وهجا الأموي وكأنما كان يهجوهم جميعاً [1] .

إن ثورة البداة قادة أو أتباعاً إن هي إلا استجابة لأصالة الروح الغازية فيهم ، تلك الروح التي كانت تغير بهم في الجاهلية على القريب والبعيد ، ثم اتجهت بعد الإسلام إلى الآفاق او انتقضت على السلطان بمزيج من الدوافع والمآرب الذاتية والعامة .

ثوار المدن : ابراهيم بن المهدي :

وليست البادية وحدها مسرح الثورات ومنبت الثائرين فإن المدن كانت تخرج بعضاً منهم أحياناً ، وتميل بهم السجون وإلى الموت أيضاً . والمدن عادة راضخة مستنيمة ما عرفت السلطان قوياً ، ولكنها تتكتم على عناصر الثورة وفوراتها المخوفة لما فيها من أصناف الناس عِلية وسفلة ، ومن مغامرين ومنتهزين وقوى متعادية سياسية وعسكرية .

---

(١) لجأ الشاعر إلى أحيح بن خالد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما أخذ من داره وحبس قال بعد مقدمة غزلية حزينة :

فإن يعرض أبو العباس عني ... ويركب بي عروضا عن عروض
ويجعل عرفه يوماً لغيري ... ويبغضني فإني من بغيض
فإني ذو غنى وكريم قوم ... وفي الأكفاء ذوو وجه عريض
غلبت بني أبي العاصي سماحا ... وفي الحرب المذكرة العضوض
خرجت عليهم في كل يوم ... خروج القدح من كف المفيض
فدى لك من إذا ما جئت يوما ... تلقاني بجامعة ربوض
على جنب الخوان وذاك لؤم ... دسست بخفة الشيخ المريض
كأني إذ فزعت إلى أحيح ... فزعت إلى مقوقية بيوض
أوزة غيضة لقحت كشافا ... للقحتها إذا درجت تفيض

(الأغاني : ١٢/٢٧) وأبو العباس هو الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وفي البيت الأخير إقواء ، ويدل بعض شعر عبد الله بن الحجاج الذي ذكره البلاذري في أنساب الأشراف (٥/١٩٨) أنه كان لا يتحرج عن إقواء كثير ، وتفيض (كذا) ولعلها تحيض .

ولا تثور مدينة عظمى مثل بغداد في أول القرن الثالث الهجري إلا إذا تهيأت لها الأسباب التي لا بد منها في ثورة أية مدينة ، وأولها تقلقل الحكم واضطراب أمره ، ثم تعرض مصالح كبار المتنفزين للخطر ، وظهور طوائف من الطامعين الهادفين الى السيطرة على الحكم ولو من وراء حجاب .

وقدمت الحرب بين الأمين والمأمون لبغداد مثل هذا الظرف ، وأذنت لجماهيرها الضخمة بتحركات ذات عنف ، وشهدت حاضرة العالم الإسلامي حرباً تخريبية مذهلة فقدت على أثرها خليفتها (١) ، وأنكرت على المأمون من بعده خطواته السياسية واجتهاده النظري (٢) ، فرفضتها ورفضته واشتدت الثورة عليه ، وباتت بغداد وما حولها من أواسط العراق إلى جنوبه تعج في فوضى سياسية وشعبية ساخنة ، وكان بإمكانها لما فيها من أسباب القوة أن تنظم أمرها وأن تعلي كلمتها لولا ما منيت به من التفرق وتشتت الأهواء وتناحر الزعماء .

ورفع بعض الطامحين الأقوياء إبراهيم بن المهدي الى سدة الخلافة (٣) ،

(١) انظر أخبار هذه الحرب وحديث مقتل الأمين في « الطبري : ٥٥٧/٨ ـ ٦٠٦ دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ » .

(٢) « بايع المأمون للرضا علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي إبن أبي طالب بالعهد من بعده ، وأزال لبس السواد شعار العباسيين ولبس بدله الخضرة فأخذ الناس بذلك واضطرب عليه من بمدينة السلام من الهاشميين ، وعظم ذلك على أهل بغداد عامة وعلى الهاشميين خاصة لزوال الملك عنهم ومصيره إلى ولد أبي طالب » . « المسعودي : التنبيه والاشراف : ٣٠٢ » ، وانظر في « العقد الفريد : ٩٢/٥ » مناظرة المأمون لطائفة من كبار الفقهاء ، وكان يرى أن آل ابي طالب أحق من بني العباس بالخلافة .

(٣) هو إبراهيم بن الخليفة المهدي بن المنصور ، قال فيه الثعالبي : « كان من ادب الناس وأشعرهم وأبلغهم ، وغلب عليه الغناء فبرز وأعجز . . حتى ضرب به المثل ، وكان عجيب الشأن بديع الوصف والحال ، وكان أسود شديد السواد ، براق اللون وأبوه المهدي أبيض ، وأمه أميل الى السواد ، وتنقلت به أحوال وأدوار ، وتقلد الخلافة سنين إلى أن دخل المأمون بغداد وهو مستتر ثم ظهر وعفا عنه ، ورد عليه أمواله وأكرمه ونادمه ، ورتّبه في مشايخ بني هاشم » .
ثمار القلوب : ١٥٤ ت : أبو الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٥ م .

مناوءة للمأمون ، فكان إبراهيم خليفة ثائراً في وجه الخليفة الشرعي ، يشد أزره ثلة من الأشداء ذوي المآرب ، وشاءت الأحوال العامة والخاصة أن تتألب على إبراهيم فكان يحارب على غير جبهة في وسط محموم بالفتن والمؤامرات ، والمراقب لما كان يجري لا يشك أن أمره آيل الى خسار (١) . واستطاع المأمون بتدابيره استعادة كثير من شعبيته في بغداد نفسها ، وأن يجد له أنصاراً فيها يحاربون عمه إبراهيم (٢) ، ودخل المأمون بغداد ، واضطر إبراهيم الى الاختفاء فيها بعد سنتين من الحكم ، وجدّ المأمون بالبحث عنه ست سنوات حتى ظفر به ، فسجنه وكلٌ على يقين أنه قاتله ، ولكن بدا له بعد انتظاره ان يعفو عنه ، فأطلقه ورد اعتباره (٣) .

---

(١) كانت ظروف العراق سيئة وبخاصة بغداد ، فأهلها منهم من بايع المنصور بن المهدي ومنهم من بايع لإبراهيم ، ومنهم من كان يعمل لعملاء المأمون ، وكان الجند آلة البلاء والخراب والنهب والعدوان على الناس (انظر الطبري : ٨/٥٥٧ ـ ٦٠٦) وكان إبراهيم أسود اللون خليعاً مغنياً شاعراً أبعد أولاد الخلفاء عن المركز الأول في الدولة ولم يجعله أبوه المهدي من ولاية العهد في شيء ، ولا دار في خلد أحد من بني العباس ما يؤول إليه من طلب الملك ، ولم تتجه إليه أنظاره إلا مكايدة للمأمون ، فلما رجع عن الطالبيين رجعوا إليه ، وتركوا إبراهيم بن المهدي في مكانه الذي وضعه فيه لونه وتبذله ، وكان جد ساخط عليهم حين قال فيهم عند نكبته .

فلا جزيت بنو العباس خيراً ... على رغمي ولا اغتبطت بريّ
أتوني مهطعين وقد أتاهم ... بوار الدهر بالخبر الجلي
وقد ذهل الحواضن عن بنيها ... وصد الثدي عن ثغر الصبي
وحل عصائب الأملاك منها ... فشدت في رقاب بني علي
فضجت أن تشد على رؤوس ... تطالبها بميراث النبي

التنبيه والإشراف : ٣٠٣ .

(٢) « جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد وتنكروا عليه وأبغضوه ، وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد ، وتفاقم الحال . . واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأمونية عليهم » . ابن كثير : البداية والنهاية : ٩/٢٤٩ .

(٣) ذكر بعضهم أن حبسه قرابة شهر (الطبري : ٨/٦٠٤) وذكر آخرون انه أطال حبسه =

وسواء كان الشاعر متخفياً يتنقل على خوف وتنكر بين المحال تحت جنح الظلام أو سجيناً فهو في حال واحدة نفسياً وواقعياً ، والفار من السلطان في بقعة محصورة حبيس وإن لم تحصره أقطار السجن ، ولذلك فالشعر الذي قاله في اختفائه مشاكل لما نظمه في سجنه ما دامت الدواعي والأحاسيس واحدة ، وموضع الاهتمام هو موقفه من نفسه وقضيته ، ومن المأمون بعد أن وقع في قبضته ، وموقف الأخير منه .

أما هو عند نفسه فكان خليفة بحق على ما قوبل به من الازدراء والسخرية [1] ، فاستمسك بمنصبه ونافح عنه باليد واللسان ، ولم ينزل عنه إلا مقهوراً ، وكان لا يرى نفسه مهزوماً إنما الأقدار هي التي ضربت عليه الهزيمة ، وأعانت عليه الأعداء ، وانه ضحية دهر ماكر قلب [2] ، فوقر في نفسه على ما أبدى من الاستكانة والتعفر للمأمون أنه خليفة غير منازع [3] .

= في مطمورة بأسوأ حال . (الفرج بعد الشدة : ٢٥٤ للتنوخي) .

(١) كان دعبل بن علي الخزاعي كثير السخرية به : ومما قال في توليته الخلافة :

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحن من بعده للمارق

(ابن الجراح : الورقة : ٢١ ، مصر ١٩٥٣) ومخارق وزلزل من أصحاب الغناء .

(٢) قال في محنته من سبعة أبيات :

فلله نفسي إن في لعبرة ... وفي الدهر نقض للعرى بعد إبرام

غدوت على الدنيا مليكاً مسلطا ... ورحت وما أحوي بها قيس إبهام

وهل ليله في الدهر إلا أرى بها ... تثبت أقدام وزلة أقدام

كذاك رأيت الدهر يقدم صرفه ... على كل نفس بين بؤس وإنعام

حل العقال : ١٣٥ .

(٣) واكتشف المأمون نفسه ان عزة الحكم لا تزال تتردد بين جنبيه كما توضح الحادثة التي نقلها ابن كثير عن ابن عساكر وهي « ان المأمون لما عفا عن إبراهيم أمره أن يغنيه شيئا ، فقال : إني تركته ، فأمره فأخذ العود في حجره ، وقال :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني ... لوى الدهر بي عنها وولى بها عني =

وهـذا الاحساس الـداخلي العارم مناقض لما أرى المـأمون من التـذلل والاستعطاف ، والسبب بيّن وهو أن إبراهيم بن المهدي كان رجلاً محباً للحياة وملاذها حريصاً على متعهـا ومباهجهـا ، ومن كان هـذا ميله رغب عن الموت والتمس أسباب النجاة بأي ثمن ولو قنع وجهه بغير ما في قرارة وجدانه ، ولعل سنوات ستاً من التخفي بما فيها من وجل وعـذاب ، وما تم فيهـا لخصمه من استتباب الأمر آيسه من كل وطر إلا أن يبقى حياً ، فكان منه الاعتراف بالـذنب منكسراً والتماس الصفح وهز أريحية الغالب [1] .

أما المأمون فلم يجد غضاضة في استحياء الخليفة المخلوع ، وإن قـل

= فـإن أبـك نفسي أبـك نفسـا عـزيـزة ... وإن أحتقـرهـا أحتقـرهـا على ضغن
وإنـي وإن كـنـت الـمـسـيء بـعـيـنـه ... فـإنـي بـربي مـوقـن حـسـن الـظن
عـدوت عـلى نفسي فـعـاد بـعـفـوه ... عـليّ فعـاد الـعـفـو منـا عـلى من

فقال المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً ، فرمى العود من حجره ، ووثب قائماً فزعاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون اجلس واسكن مرحباً بـك وأهلاً ، لم يكن ذلـك لشيء تتوهمه ، ووالله لا رأيت طول أيامي شيئاً تكرهه » . « البداية والنهاية : ٩/٢٦٤ .

(١) قـال الصـولي : « حـدثني الحسن بن يحيي الكـاتب قـال : سمعت هبـة الله بن إبراهيم بن المهدي يقول : حين أخذ أبي إبراهيم كتب إلى المأمون رقعة قبل أن يراه ، وهو أول شعر قرأه :

أيـا منعـمـا لـم تـزل مـفـضـلا ... أدام الـضـنـى سـخـطـك الـدائـم
ظلمت فـإن قـلت: لا بـل ظلمت ... فـإنـي أنـا الـكـاذب الآثـم
واسـتـغـفـر الـلـه مـن زلـتـي ... فـإنـي مـن جـرمـهـا واجـم
يـفـز الحـليم ويـكبـو الـجـواد ... وينبـو لـدى الـضـربـة الصـارم
فـهـأنـذا العـائـذ المستجيـر ... فـاحـكم بـمـا شئت يـا حـاكـم
عـصيت وتبت كمـا قـد عـصى ... وتـاب الـى ربـه آدم
فـقـل قـول يـوسـف لا تـثـربـن ... فـقـد يغـفـر الـغـافـر الـراحـم
فـلـسـت الـى زلـة عـائـدا ... يـد الـدهـر مـا قـعـد القـائـم

قال : فحل ذلك أكثر ما في نفسه « أشعار أولاد الخلفاء : ٢١ » .

العفو في مثل هذا النوع من الجرائم ، فقد ثبت له الملك فآثر صلة الرحم ودفع السيئة بالحسنة ، والحق أن استمتاع الشاعر بالحياة بعد القبض عليه يحسن البحث عنه في الصفات النادرة التي مازت المأمون (١) ، وعلى كل لم يخسر الأخير شيئاً وإن كان العفو لربحاً كبيراً ، فقد كان إبراهيم أفحش في هجائه أيام ثورته (٢) ، فاستدعاه من سجنه في محضر حافل برجال الدولة وعلماء العصر وأدبائه ، وسأله عن جريمته فأقر واعتذر بشعر مجّد فيه المأمون حتى أعلاه قمة الكمال ، ولعل ما حظي به المأمون من التمجيد في هذا الشعر لم يحظ بمثله من شعراء بذل لهم وافر الصلات ، وقد حشد الشاعر فيها كل ما أوتي من قدرة فنية وصدق في الاستعطاف وإخلاص في التوبة ولهج بالشكر (٣) .

وراق الشعر للمأمون ومنّ عليه بالحياة ، ولكن الخوف لم يزايل قلب الشاعر يوماً من حياته ، وظل يتوقع من الخليفة فتكه لعلمه بأن الملوك لا تنسى إساءة من أساء إليها ، حتى اضطرب عليه مزاجه وآل إلى حال من السلوك العصبي المتوتر ، بينما كان المأمون لا يني في التخفيض عنه وبث الطمأنينة في

---

(١) قال المسعودي في المأمون : « كان كاملاً عالماً جواداً عظيم العفو ، كريم المقدرة ميمون النقيبة . . وربما حرّك منه الغضب فعجل بالعقوبة » ، التنبيه والإشراف : ٣٠٤ .

(٢) انظر ابن الجراح كتاب الورقة : ٢٠ .

(١) حازت هذه القصيدة اهتمام المؤرخين والأدباء إليها وهي سبعة وعشرون بيتاً أودها الطبري في تاريخه منها :

لم أدر أن لمثل جرمي غافرا ... فوقفت أنظر أي حتف صارعي
رد الحياة عليّ بعد ذهابها ... ورع الإمام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة ... ورمى عدوك في الوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثني بها ... نفسي إذا آلت إلي مطامعي
أسديتها عفواً إليّ هنيئة ... فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلا يسيرا عندما أوليتني ... وهو الكثير لدى غير ضائع
إن أنت جدت بها عليّ تكن لها ... أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع

الطبري : ٨/٦٠٤ .

نفسه كلما جاءه ابراهيم مادحاً معتذراً ، وبر الخليفة بوعده ومات الشاعر وهو منه آمن (١) .

- ح -

المؤامرات والمكائد

كان للمؤامرات السياسية يد طولى في القضاء على عديد من الشعراء بالسجن وبالموت عبر تاريخ العرب الطويل ، وليست الدسائس والمكائد مما تتميز به أمة دون أمة وزمان دون زمان ، بل هي تنشأ في كل هيئة سياسية صغيرة أو كبيرة ، فهي نوع من النشاط الإنساني داخل الحكم يتجلى بسعي أفراده لأن يدفع بعضهم بعضاً ، وللاستئثار بالسلطة ومنافعها ، ويتأثر هذا النشاط بطبيعة الرجال والعصر والأهداف ، فتتخذ إما شكلاً رياضياً يكتفي بإزاحة الخصم بالمكر والتخطيط الى حين أو الى الأبد ، وإما شكلاً عنيفاً فيه البطش وسفك الدماء .

وأكثر المؤامرات التي قضت على السياسيين العرب والشعراء قبل الإسلام وبعده دموية الأسلوب وأوجبتها جملة من الأسباب السياسية والاجتماعية والأخلاقية وطبائع الأفراد المشتغلين في الحكم .

الأسباب السياسية :

وسبق القول أن الصفة المميزة للدول التي عرفتها إمارات الجاهلية وممالك الإسلام ـ باستثناء خلافة الراشدين ـ هي الاعتماد على القوة العسكرية وحدها في إقامة الملك . وكانت الركائز الشعبية متوفرة لخلفاء من الأمويين

---

(١) « لم يكن إبراهيم بن المهدي يصدق أن عفو المأمون عنه يدوم ويرى انه سيلحق به جملة فكان يتعهر ويتهتك ، ويغني لكل أحد ، ولا يخلي المأمون في كل وقت من مدح » . أشعار أولاد الخلفاء : ٢٠ .

ولأوائل العباسيين على نطاق محدود من القبائل والأحزاب السياسية او الجماهير من العرب أو الموالي ، ضؤل شأنها ضآلة ملحوظة منذ أيام المتوكل الذي كان أول خليفة عربي قتلته القوى العسكرية المستوردة .

ويشتهر السلطان المتفرد المستند الى جماعات الجند في حماية عرشه ، بمميزات معروفة أشهرها الريبة فيما حوله ، والسطوة بخصومه إن خافهم على حكمه ولو كانوا ذوي رحم أو فلذة كبد (١) ، والتحوط لنفسه والاستكثار من المال ليصرفه في الغلمان والجند الموالين له دون الاحتفال بالمصادر المشروعة لهذا المال (٢) .

وعندما كانت الطبقة العسكرية مذعنة للخليفة وحده لم يحفل بسواها ، وليس للوزراء والأمراء شأن مذكور ، أما عندما صار الخليفة نفسه يحمله الجند الى الحكم ليقضوا بإسمه ما شاؤوا ، وصارت القوى العسكرية موزعة النفوذ بين الخليفة والقواد والحجاب وأمير الأمراء والوزراء ورجال العشائر فقد تعين على الخليفة أن يلعب دوراً خطيراً في تصادم هذه القوى وتطاحنها على موارد الحكم وشغل بعضها ببعض عن نفسه وإن قضت عليه خاتمة الصراع مع من كانت تقضي عليه من القوى المتنازلة (٣) .

وهذا الوسط السياسي أمرع البيئات للمؤامرات والخيانات ، ويغدو أهل

---

(١) تآمر على الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، رجل الأندلس الكبير ، ولده عبد الله فلم يتورع المنصور عن قتله ، انظر « البيان المغرب في أخبار المغرب : ٢/٤٢٢ - ٤٢٥ » .

(٢) كانت من الأساليب التي تطلب بها الوزارة ان يتقدم ثري مليء يأخذ على عهدته عند الخليفة استخراج مبالغ ضخمة من الأموال من الوزراء والمتنفذين ، وتعجيل قسم منها من ماله الخاص مقابل استوزاره . أنظر أمثلة لذلك في « تحفة الأمراء : ٢٨ - ١٤٣ و ١٢٧ » .

(٣) سارت حياة كثير من خلفاء بني العباس على هذا النمط وتعتبر سيرة المقتدر (خلافته ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) أوضح الأدلة . أنظر « التنبيه والإشراف : ٣٢٦ - ٣٣٦ » و « تحفة الأمراء » في كثير من صفحاته .

البلاط ورواده على دين ملوكهم إن لم يفوقوهم ، في حبك الدسائس ونقض العهود واغتيال بعضهم بعضاً ، وفي مثل هذا الوسط تشوه الحقائق وتروج الأباطيل والشائعات إذ يصعب مع الاستبداد والتآمر والإرهاب تقرير الحقيقة او الانتصار لها ، وقد فضح أحد الوزراء الشعراء الذين قضوا حياتهم في قصور الحكم بين المكائد والمخادعات ما كان عليه البلاط في القرن الرابع من جو بغيض يؤامر فيه الخليفة الوزراء على القواد ، والقواد يؤامرهم على الوزراء، كل لينال ما شاء من المال والمنصب ، ثم يرمي الخليفة للمنتصرين بالمخذول وإن كان مع الخليفة على خطة ، ومنه على ميثاق (١) .

الأسباب الاجتماعية والأخلاقية :

وأعان الترف على نمو هذا الطراز السياسي إذ صارت الملذات مطلباً أساسياً في حياة الخاصة وكثير من طبقات العامة ، والترف عماده المال ويتأتى وافره للخاصة من طرق سهلة ، فكان الابتزاز والسرقات ميسورة أسبابها ، وكان يقفز الى الثراء الفاحش المعدمون من أصحاب الجند والحكم بين عشية وضحاها ، وكان ما ينصب في أيديهم من الثروات يطمع فيهم فيتآمر عليهم بليل ، حتى بات مألوفاً ألا يتماثل الوزير الفقير إلى الثراء الضخم حتى يطيح به منافسوه ويستولوا على ما جمع (٢) .

---

(١) وزر الكاتب الشاعر محمد بن علي بن مقلة ثلاث دفعات متوالية لثلاثة من الخلفاء هم المقتدر والقاهر والراضي ، وكان يسجن بين المرة والمرة ، وكان يتعهد عن كل وزارة للخلفاء باستخراج الأموال من سابقيه ، ثم كثر خصومه وأسلمه الراضي لهم وقطعت يده ولسانه ، وقال في السجن :

ما سئمت الحياة لكن توثقت بأيمانهم فبانت يميني
بعت ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهم بعد ديني
ولقد حطت ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش ... يا حياتي بانت يميني فبيني

البداية والنهاية : ١١/١٩٥ وابن خلكان : ٤/١٩٨ .

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية : ١١/١٩٥ .

وأخضع الترف الحكم أيضاً لسلطان النساء ، من الجواري والمحظيات اللواتي أسهمن في التدبير والتآمر ، وكان لبعضهن يد في إزهاق الأرواح [1] .

وتساند الترف والاستبداد في القضاء على القيم المرموقة من النجدة والوفاء والعفو عن المقدرة ، وهون اقتراف الجريمة وسفك الدماء [2] ، فصمت الآذان عن التوسلات والاسترحام ، وأنكر الإخوان بعضهم بعضاً في الملمات فكان مع التآمر غدر وهتك وطغيان [3] .

ولا غرو أن الإنسان هو المحرك الأول لهذه البواعث كلها ، فكان طموح الرجال إلى المال والجاه أحفز الدواعي للمؤامرات والنكبات [4] .

والشعراء الذين سحقتهم المؤامرات جلهم من الوزراء ، وقل من الوزراء من كان لا يقرض شعراً ، ومنهم من يحتل منه مكاناً منيفاً ، وكانوا كثراً ما بين المشرق والمغرب كثرة الملوك ومؤامراتهم ونكباتهم وضحاياهم .

صور التآمر :

وذهب ضحايا التآمر في صور عديدة غير أنها في جوهرها واحدة ، فمنهم من دبر للوثوب إلى الخلافة أو الإمارة ، ومنهم من قفز الى سدة المجد فما زال

---

(١) انظر حديث المسعودي عن سلطان النساء في خلافة المقتدر في التنبيه والإشراف : ٣٢٨ ، وانظر دور اعتماد الرميكية في إغراء المعتمد واستفزازه لقتل سجينه وصديقه الشاعر أبي بكر بن عمار في « نفح الطيب : ٤/٢١٢ » تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ » .

(٢) انظر تعليل المسعودي لسقوط المهتدي ، وكان خليفة صالحاً مستقيماً ، في التنبيه والإشراف : ٣١٨ .

(٣) كان الأديب الشاعر إبراهيم بن العباس الصولي على عمل الأهواز ، وكان صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق ، فلما نكب إبراهيم تنكر له محمد واشتد عليه ، فهجاه إبراهيم في الحبس وبعده هجاء مراً انظر معجم الأدباء : ١/٢٦٠ .

(٤) حرك المال طموح ابن مقلة الى معالي الأمور عندما خصه رئيسه الوزير ابن الفرات بفضل حسن منه . انظر تحفة الأمراء : ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

خصومه ومنافسوه يبيتون له حتى أسقطوه وأزالوا نعمته ، ومنهم من كان ضحية دس واتهام ، ومنهم من أخذته النكبة لما نكب مولاه وليس له من جريرة سوى المشايعة والتبعية .

المدبرون للاستيلاء على الملك :

عبد الله بن المعتز :

فمن الشعراء الذين خططوا للوصول الى الملك فأعقبهم تخطيطهم السجن والموت إما لسوء طالعهم أو لتهورهم . عبد الله بن المعتز ، ظفر بلقب أمير المؤمنين يوماً وبعض يوم إثر مؤامرة جادة لخلع المقتدر ، فباءت بالإخفاق وبحبسه وبمقتله (١) .

وكان ابن خليفة مقتول (٢) فلم يفارقه أبداً مرارة الحرمان من الملك ، وعاش في عصر أفسد فيه الأتراك الحكم وأحوال الناس ، وابتزوا ، وانتهكوا ، ونشروا الخوف والخراب (٣) ، وقامت فيه ثورات الزنج والقرامطة الجائحة المزلزلة . وكان الشاعر معجباً بالمعتضدلما حققه من انتصارات ، ولما أبدى من الجد في صيانة الخلافة (٤) ، ولكن لم ير بعده أجدر من نفسه بالخلافة ، ولعله سعى اليها في حكم المكتفي (٥) ، إذ اعتقل مرة أثناء غياب هذا الخليفة عن

---

(١) ولادته ٢٤٧ هـ ومقتله ٢٩٦ هـ .

(٢) أبوه المعتز الزبير بن جعفر المتوكل ، بويع بالخلافة سنة ٢٥٢ هـ ، ناصب القواد الأتراك العداء ، وقتل بعضهم ، ثم قتلوه سنة ٢٥٥ هـ ، التنبيه والاشراف : ٣١٦ .

(٣) عرض لهذه المساوىء في الأرجوزة التاريخية التي نظم فيها مآثر المعتضد (ديوانه ص ١٢٦ - ١٤٥) .

(٤) المعتضد أحمد بن طلحة الموفق ولي الخلافة عشر سنين (٢٧٩ - ٢٨٩) . قال فيه المسعودي : « سريع النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ويمضي تدبيره بغير توقف ، ولي الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكف من كان يتوثب ويتشغب من الموالي » . التنبيه والإشراف : ٣٢٠ .

(٥) المكتفي علي بن أحمد المعتضد ولي الخلافة قرابة سبع سنين (٢٨٩ - ٢٩٥) . وقال فيه المسعودي : « بلي بكثرة الفتوق عليه واضطراب الأطراف ، فقام بتلك الأمور مقتفياً فعال أبيه . . . ولم يكن يوصف بشجاعةٍ ولا جبنٍ » المصدر نفسه : ٣٢١ .

بغداد ثم أطلقه بعد عودته اليها [1] .

وعلى الرغم من أن ابن المعتز كان مترفاً آخذاً بما تغرق فيه الطبقة الحاكمة من الملاذ فإنه كان يعرف مساوىء هذه الطبقة وأسباب انحلالها ، وتسلط الجواري والغلمان وأصحاب الجند على شؤون حلها وعقدها ، كما كان ذا دراية واسعة بمظالم المجتمع ، وما يقع عليه من الجور ، وما يسرق الوزراء وعمالهم من لقم الناس ، وإذا كانت هذه الصفقة الممتازة ترشحه للحكم عند المنصفين فهي نفسها كانت توحش منه الانتهازيين خوفاً من سد أبواب السرقة في وجوههم وقطع مواردهم الضخمة [2] ، فتجافى عنه الخلفاء لما

---

(١) خرج المكتفي لمحاربة القرامطة في الشام (التنبيه والإشراف : ٣٢٣) والراجح ان ابن المعتز سجن أول مرة أثناء ذلك ، روى التنوخي حديثاً عن ابن المعتز قال : سهرت ليلة قدم في صبيحتها المكتفي الى بغداد ، فلم أنم خوفاً على نفسي وقلقاً بوروده . . فلما أصبحت أفرج عني ووصلني بأشياء لم تكن في حسابي » ، الفرج بعد الشدة : ٩٣ .

(٢) مات المكتفي والوزير هو العباس بن الحسن ، وكان رأيه مبايعة ابن المعتز بالخلافة فاستطلع رأي كتّابه به فحبذوه رأياً ، فانفرد أحدهم بالوزير ، وهو أبو الحسن بن الفرات ، (وصار بعد العباس وزيراً) ولفته عن رأيه بحجج وجد فيها العباس اقتناعاً ، وكان مما قاله له : « قررت رأيك على ابن المعتز ، قال العباس : هو أكبر من وجد . قال : وأي شيء تعمل برجل فاضل متأدب ، وقد تحنك وتدرب ، وعرف الأعمال ومعاملات السواد ، وموقع الرعية في الأموال ، وخبر المكاييل والأوزان واسعار المأكولات ، والمستعملات ، ومجاري الأمور والمتصرفات ، وحاسب وكلاءه على ما تولوه ، وعرف من خياناتهم واقتطاعهم أسباب الخيانة والاقتطاع التي يدخل فيها غيرهم ، فكيف يتم لنا معه أمر إن حمل كبيراً على صغير ، وقابل جليلاً على دقيق ، هذا ولو كان ما بيننا وبينه عامراً وكان صدره علينا من الغيظ خالياً . . أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك في حوائجه فلا تقضيها ، وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر ، ويتوسل في الوصول اليك ليلاً فلا تأذن . وهل كان له شغل عند مقامه في منزله وخلوته بنفسه الا معرفة أحوالنا والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا وحسدنا على نعمتنا ، هذا ، وهو يعتقد ان الأمر كله له ولأبيه وجده ، وأنه مظلوم منذ قتل أبوه ، مهضوم مقصود مضغوط ، فكيف يجوز أن نسلم إليه نفوسنا فنحترس فضلاً عن أموالنا » ، تحفة الأمراء : ١٣١ .

توسموا فيه من الهمة والمقدرة ، وجفاه أتباعهم من الوزراء [1] .

وأكثر ما يبرز تاريخ الأدب من هذا الرجل خياله المترف ، وتفننه في الأوصاف واختراع الصور، على أن ديوانه يشهد له أنه قد كان سياسياً واسع الخبرة ، محكّكاً ، محذوراً ، وكان متطلعاً الى عظائم الأمور ، وقد شغفته السلطة حباً ، وعندما حبس لم يخف آماله الكبار التي كانت هي مصدر آلامه [2] .

وآلام العظماء كبيرة لما يحسون من إجحاف الأقدار لهم بين ما يستحقون وبين حصائل مساعيهم ، ولما كان ابن المعتز عند نفسه كبيراً ، جامعاً لأسباب الفتوة والمروءة والبطولة والسيادة ، فقد اتهم عصره وهو حبيس بأنه حطم فيه

---

(١) كان ابن المعتز إن ترفق به أحدهم وحسنه عند الخليفة فاض قلبه امتناناً وأغدق عليه مدحه ، وبذلك مدح الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب حين رفده بالذكر الحسن عند الخليفة الساخط عليه ، فخاطبه بأبيات منها :

أيا موصل النعمى على كل حالة	إلي قريباً كنت أو نازح الدار
ويا مقبلا والدهر عني معرض	يقسم لحمي بين ناب وأظفار
وذكّرت بي سمع الإمام وعينه	ورفعت ناري كي يرى ضوءها الساري
وكم نعمة لله في صرف نقمة	ترجى ومكروه حلا بعد إمرار

زهر الآداب : ٣/ ٧٩٤ . تِ : زكي المبارك . مصر ١٩٥٣ .

(٢) ترجم عن أحزانه في قصيدة من ٤٤ بيتاً يرجح أنه نظمها في خلافة المكتفي يوم سجن أول مرة :

من يذود الهموم عن مكروب	مستكين لحادثات الخطوب
حولته الدنيا إلى طول حزن	من سرور وطيب عيش خصيب
فهو في جفوة المقادير لا يأ	خذ يوما من دولة بنصيب
خادم للمنى قد استعبدته	بمطال وخلف وعد كذوب

الديوان : ٢/ ٧٠ ، مصر ١٨٩١ م .

هذه الخصال وسود الضعاف والقاصرين (١) .

فلا غرابة ان يستجيب لرغبة بعض رجال الدولة من الوزراء والقضاة والحجاب فيؤامرهم على خلع الخليفة المقتدر ، وكان في الخلافة صبياً ، وعندما بويع ابن المعتز بالخلافة لم يستوثق من حاجب المقتدر الذي كانت له القوة العسكرية استيثاقاً محكماً ، فنكث به ذلك الحاجب وشتت شمل جماعته وقتلهم (٢) . وسجن الشاعر بضعة أسابيع كان يعلم أنها أيامه الأخيرة ، ولم يخنه إحساسه ، فأجهز عليه خصومه خشية منه (٣) .

والمؤامرات السياسية في تاريخ العرب يطول إحصاؤها ، ويتناول البحث

---

(١) قال في القصيدة نفسها :

قد لدنياي قد تمكنت مني ... فافعلي ما أردت أن تفعلي بي
واخرقي كيف شئت خرق جهول ... إن عندي لك اصطبار لبيب
رب أعجوبة من الدهر بكر ... وعوان قد راضها تجريبي
ولقد اغتدي على طائر العد ... وجواد مسوم يعبوب
ذاك من لذتي وزيافة المشي خنوف نجيبة لنجيب
إن تريني يا شر ملقى على الفر ... ش وقد مل عائدي وطبيبي
كنت ريحانة المجالس في السلم وحلف الأبطال يوم الحروب
ولقد صرت ما ترين فإن كا ... ن حماما يا شر هذا الذي بي
فإذا ما ابتلاك شيء فميلي ... أو فدومي على البكى والنحيب

الديوان : ٢/ ٧٠ .

(٢) هو مؤنس الخادم واطأ ابن المعتز « على أن ينفذ إليه أمر المقتدر على أن يكون صاحبه . . فبلغه ان يمنا غلام المكتفي يذهب ويجيء قدام ابن المعتز كالحاجب له ، وكان عدواً له ، فرجع عن رأيه وعزمه في أمر ابن المعتز وحرّك الغلمان : وأثار العامة ، فأخفق ابن المعتز وتشتت أمره » . ثمار القلوب : ١٩١ .

(٣) قال من ستة أبيات في آخر يوم في حياته :

أظنه آخر الأيام من عمري ... وأوشك اليوم أن يبكي لي الباكي

ابن كثير : البداية والنهاية : ١١/ ١٠٩ ، حوادث سنة ٢٩٦ .

ما دخل فيه الشعراء من هذا الباب ، وتعزى كثرتها الى عزل الشعب عن السلطة وانحصار الحكم في أيد قليلة في نطاق محدود ، يسهل فيه تبييت الخطط والانقضاض على الخصوم .

وكان ابن المعتز شاعراً من أولاد الخلفاء ، والمؤامرات بين رجالات هذه الطبقة لا تكاد تتوقف ، وليست قاصرة عليهم ، وعلى الذين هم في مراكز القوة إذ قد يطمع فيها من لا أشياع له ولا أنصار ، فيجد إليها بتدبيره تحدوه الهمة وبعد الهدف .

أبو الحسن التهامي :

ويعتبر الشاعر أبو الحسن التهامي نموذجاً حسناً لهذه الفئة [1] ، ومجمل ما عرف التاريخ من خبرة انه « وصل مستخفياً إلى الديار المصرية ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه الى بني قرة ، فظفروا به ، فقال : أنا من بني تميم ، فلما انكشف حاله عرف أنه التهامي الشاعر ، فاعتقل في خزانة البنود ، وهو سجن بالقاهرة ، وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وأربعمائة ، ثم قتل سراً في سجنه في تاسع جمادي الأولى من السنة المذكورة . . وكان أصفر اللون » [2] .

وهذا الخبر لا يلقي أضواء كافية على المؤامرة التي وجدته السلطات المصرية متلبساً بها : وما أهدافها وما مداها ، ولا يعرف خبر أدق منه ، والنظر

---

(١) هو علي بن محمد التهامي من تهامة الحجاز ، ونشأ في مكة ، وعندما تخوف القتل في الحبس قال :

على أهل مكة مني السلام ومن يصفني الود أو أصفه
حياتي وبعد مماتي إذا هويت من اللحد في لحفه

(ديوانه : ط ١١٩ ، الاسكندرية ١٨٩٣ م) كان كثير التجوال في دمشق والجزيرة الفراتية والعراق والمشرق (ابن ملكان : ٣/٦٠) وشهر بمرثيته الشهيرة لولده .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٦٠ ـ ٦٢ .

في ديوانه ، على خلوه من الإشارات والتوضيحات التاريخية ، يقدم معلومات أوفى وأجدر اعتباراً حول ما اتهم به الشاعر ، ومن الممكن تقرير أمره في ضوئها على اجتهاد مقبول .

وكان يحكم مصر الفاطميون و« يزعمون أنهم خلفاء علويون » (١) ، واتهموه بمؤامرة لقلب نظام الحكم ، وأشاعوا التهمة واستجازوا لأنفسهم حبسه ثم قتله ، وعرضت إحدى قصائد الشاعر المؤثرة هذا الاتهام الموجه عرضاً جلياً ، وما كان يستشعر فيه من الخوف والخطر ، وما تضمنه من الوعيد (٢) ، غير أنه تنصل منه واجتهد في تبرئة ساحته خشية من عواقبه الخطيرة ، واحتج في إبطاله أنه لم يكن جديراً بالملك حتى يصير من طلابه ، وان الشعراء أنأى الناس عن هذا الأمر (٣) .

---

(١) معجم البلدان : دار البنود .

(٢) هي أصفى ما نظمه في سجنه ، قال فيها :

وضاعف وجدي لما سجنت ... مقالة من غاب من طرفه
يقول وبعض الكلام السفيه ... يقتل إن هو لم يخفه
أهذا التهامي من مكة ... برجليه يسعى إلى حتفه
ألم يكفه أن ثوب الحياة ... ضاق عليه ألم يكفه
أراد يطير مطار الملوك ... وظن الأسنة من زفه
وكان كقائد جيش الضلال ... عاين جبريل في صفه
أصفر يرعف من نحره ... إذا رعف المرء من أنفه
وأحسب سيف ابن بنت النبي ... يخضب خديه من عرفه
أرى ملك الموت يدنو إليه ... وهو يعض على كفه
أبا لشعر ويحك تبغي العلا ... وأنت تقصر عن رصفه
ولم تك أهلاً بأن تستقر ... على منبر الملك أو طرفه

(ديوانه : ص ١١٨ .) أراد بقائد جيش الضلال المختار بن عبيد الله الثقفي ، وكان يزعم ان الملائكة تقاتل معه . وابن بنت النبي : الحاكم في مصر .

(٣) وفيها يقول :

إلى الله أشكو أموراً جرت ... على غير قصد وأستعفه =

ولا شك أن الأدلة المادية ، من الكتب التي ضبطت معه فأرابت الحكام ، لم تحمل دليلاً قاطعاً على الاتهام ، ولعلها كانت على شيء من التعمية والإلغاز او الإشارة الخفية . ومن ثم طفق يلح في كل قصيدة على براءته واهتضامه (١) ، وعزا سجنه إلى أمرين ، أولهما سوء الطالع ، فهو شاعر قد أدركته حرفة الأدب فحبس (٢) ، وثانيهما تعالي الحكام الذين تصامموا عن توسلاته (٣) .

وكان الشاعر في مصر منقطعاً من الأهل والعشير ، فتوسل للخلاص بأعلى صوت بما نظم من القصائد المطولة في الوزراء والمقربين من السلطان ، وتخضع لهم مستجدياً معونتهم لإطلاقه ، ولم ينتفع بما حبر فيهم من مدح وثناء جم ، فلم ينهض في أمره أحد ، فضاق نزقاً ، وأيّس من الخلاص ومن نجدة

= وكم قائل سجنوه على ... تطلبه الملك من كهفه

(١) قال في قصيدة لأحد أصدقائه :

أسير لدى قوم بغير جناية ... ألا في سبيل الله ما صنع الدهر

ديوانه : ص ١٤٣ .

(٢) وفيها يقول :

وما لي من ذنب سوى الشعر إنني ... لأعلم أن الذنب في نكبتي الشعر

(٣) وقال أيضاً فيها :

فلو كنت في أسر الزمان أقالني ... ولكنني في أسر قوم بهم كبر

عليل وما دائي سوى الضيم منهم ... فهل من دواء إذ مدى الغاية القبر

جنيت على نفسي بسعيي إليهم ... وحظي من أوفى مواثيقهم غدر

(٤) مدح أبو الحسن التهامي الأشراف أقرباء الخليفة الفاطمي والوزراء بقصائد مسهبة . ففي (ص ٥٣ ـ ٥٥) قصيدة يمدح بها الشريف معتمد الدين ، قال منها :

يا ابن الأئمة من قريش دعوة ... نظمت دواعيها بسلك شهودها

ان كان أولاد الوصي كواكبا ... فاعلم بأنك أنت سعد سعودها

أتضيع نفساً أنت من تامورها ... وصميمها كالجزء من توحيدها

وفي (ص ٨٠) وجه قصيدة من الحبس إلى وزير ذكر ان اسمه أحمد ، قال : =

رجل حر (١) . ولعل خوف التلوث من التهمة الخطرة التي لحقته أقعد عنه المنجدين ، فإن الشك من الحاكم والحذر من الرعية صفتان ملازمتان لتلك الظروف .

ولكن كيف يصح أن يتورط الشاعر التهامي في مؤامرة شاقة مخوفة العواقب وهو الغريب الواغل الدخيل ، وأنى له إنجاز أمر له من الخطر هذا القدر ، الحق ان التهامي لم يكن دخوله مصر أول مرة لما قبض عليه ، فقد كان من قبل فيها كاتباً في ديوان الأموال ، فهو يعرف أحوال مصر السياسية والمالية وكبار رجالها ، ومن كانت له هذه المعرفة قدر على التخطيط والتدبير إن حفزته نفسه لذلك ، ولكن ما يحتاج إليه للتنفيذ هو القوة العسكرية ، ومن المعروف ان السلاطين في سائر دول العالم الإسلامي كانوا يعتمدون على المرتزقة من الجند ، ومن المماليك من الفتيان والخدم ، وعلى القبائل والأعراب في حماية ملكهم من الشعوب ومن الطامعين معاً ، ومن يظفر بولاء فريق قوي من هؤلاء يسهل عليه قلب الحكم وحياز السلطة لنفسه .

وتكشف الكتب التي عثر عليها مع أبي الحسن النقاب عن القوة التي طمع في الاستناد إليها لإنفاذ أغراضه ، فقد كانت الكتب من رجال بعض

= وما الوقف إلا في الوزارة انها ... عقيلته محفوفة باعتقاله
أتستغرب العلياء أحمد ناشئا ... وقد بان منه الفضل قبل خصاله

ومنها يقول :

ويا سيدي عبد دعاك معولا ... عليك ولم يخطر سواك بباله
وهل يستعين المرء من قعر هوّة ... لإخراجه إلا بأقوى حباله
وإذ صار سعد وابنه معقلا له ... فما العذر من إطلاقه من عقاله

(١) قال من قصيدة أرسلها إلى صديق له وكناه بأبي عبد الله :

أكل غريب هكذا هو هالك ... بمصر ولم يشفع له شافع حر
فلو أنني في بلدة غير هذه ... إذا لفداني المال والأسل السمر

ديوانه : ص ١٤٣ .

القبائل البدوية في بلاد الشام الى بعض القبائل في مصر ، ولعل الشاعر تودد الى القبائل الشامية ليحظى بتزكيتها له عند أخواتها بمصر لتدعمه في مشروعه إذ نجد في ديوانه مدحاً لشيوخ من قبائل الشام ، ولا ينتظر من مدح هؤلاء الجوائز السنية ، فهم إليها أحوج وبها أطمع ، وأرجح الظن ان الشاعر كان يأمل بعون حربي (١) .

ولا يزال الاتهام في نطاق هذه الوقائع أدنى الى الظن الراجح من اليقين المقرر . ومثل هذه التهمة لا تثبت إلا بالاعتراف الشخصي ، وأنكر الشاعر التهمة عند الاعتقال ، وثبت على إنكارها حتى القتل .

على ان الرجوع الى اعترافات الشاعر قبل الاعتقال ، والاطلاع على ماضيه ، والتعرف على آماله وأهدافه يؤيد رفض الإنكار وتصديق الاتهام ، فإن التأمل في ديوانه يطلع منه رجلاً عظيم الهمة ، جواب آفاق ينتقل بين الممالك ، يجرب حظه عند الأمراء والسلاطين (٢) ، وسيرته في الرحلة والانتجاع تذكر

---

(١) في ديوانه عدة قصائد مدح بها المفرج بن دغفل البدوي (ص ٦٠ و ٦٧ و ١١٠) ويذكر ابن خلكان أنه حسان بن مفرج بن دغفل ، ومنه كانت الكتب إلى بني قرة بمصر (الوفيات : ٣/٦٠) .

(٢) يوضح هذه الحقيقة تتبع قصائد المدح ، ففي ديوانه مثلاً : « وقال يمدح نصر الدولة أبا نصر بن حرمان بميا فارقين » (ص ١) و « قال يمدح أبا عمر محمد بن الحسين البابلي بدمشق » (ص ٢٤) ، و « قال يمدح أبا طاهر عبد الله بن القماح بآمد » (ص ٣٦) وقال « يمدح أبا محمد الحسن بن الجواد في الكوفة » (ص ٦٥) و « قال يمدح الوزير ابن الفرات ببغداد » (ص ١٢٤) ونجده يمدح قوماً من أصل فارسي (ص ١٤) وذكر وهو محبوس تطوافه في البلاد :

لقد لفظتني كل أرض وبلدة ... وما لفظتني عن مواطنها مصر
لعمري لقد طوفت في طلب العلا ... وحالفني بر وخالفني بحر
فشرقت حتى لم أجد لي مشرقا ... وغربت حتى قيل : هذا هو الخضر

ديوانه ص ١٤٣ .

بسيرة شاعر غير بعيد عن عصره هو المتنبي ، فقد تشابها في الأسفار كما أشبهه التهامي بتعاليه ، وسمو همته ، وإحساسه أنه وجد في غير عصره [1] ، وكان مثله يثقله شعور بالاضطهاد الذي يضغط على العظماء المخفقين ، ويختزن نقمة عارمة على أرباب الدول المعاصرة له لما جرب عليهم من الصغار عند الهزات والنكبات ، ولما اكتشف من ضآلتهم الذاتية وأساليبهم في الوصول الى الحكم وفي الاحتفاظ به ، فكان يجوب البلاد ، وقلبه متقد بنيران الثورة ، يتمنى لو يتيح له القدر كتيبة صادقة الإيمان ، نقية الدين ، لا هدف لها إلا إعلاء كلمة الله لتكنس الفساد من الأرض ، وقد انتابته هذه الخواطر في غير قصيدة . والسؤال الذي يمكن أن يضعه الباحث : هل كان أبو الحسن التهامي على شيء من رأي الخوارج ، إن لم يكن هناك جواب قاطع فإن روح هذا الرجل كانت خارجية لا تقبل إلا رأيها وكلمتها في عصر عصيب ضاغط كما تنطق الصور البطولية التي عنّت في خياله [2] .

---

(١) مدح المظفر بن عبد الجبار بن علي بقصيدة طويلة جاء في آخرها :

فأفرج أبا الفرج الخطوب فقد عتت ... وصروفها سور علي يدار
يخفي الزمان فضائلي فكأنني ... وكأنها في قلبه إضمار
لم أخف إلا للعلو ، وإنما ... تخطي السها لعلوه الأبصار

ديوانه : ص ٢٥ .

(٢) جاء في الديوان : « وقال أيضاً يذكر بعض ما في نفسه ويشبر إلى معان فيها » ، وأورد قصيدة منها :

تجرد مني الأيام نصلا ... له في كل نائبة غرار
تظن أناتي الجهلاء وقرا ... وهذا الوقر أكثره وقار
فذرني والطغاة فبين رمحي ... وبين قلوب أكثرهم سرار
حلفت لأنهضن لهم بأسد ... لهم بشعار دين الله زار
إذا عمدوا ظلام الشرك يوما ... أزالوه كأنهم نهار
يؤدون النفوس إلى المنايا ... كأن النفس علق مستعار
اذا بلغ الفتى عشرين يوما ... وأعجزه الفخار فلا اعتذار =

وهـذا النهج في وصم الشـاعر بـالتآمـر بالاستنـاد الى سيرتـه واعترافـاته وشطحات آماله لا يعد في التحقيق القضائي حجة قاطعة ولا دليل إدانة ، أما إذا أنصت إلى البوح النفسي الذي أفضى به من سجنه لبعض أصدقائه فإن الاتهام يقوى بمؤيد آخر (١) ، ويكشف سراره أنه كان وراء طلب الملك إذ كان رجلاً لا يقنعه من غايات الحياة حظ يسير (٢) .

وعاش التهامي طوال سجنه نهب القلق راغباً في البقاء ، ويستظهر من شعره انه حبس شهوراً طوالاً خلافاً لما قرره ابن خلكان في خبره أن المدة ما بين اعتقاله واغتياله كانت قرابة شهر (٣) .

= (ديوانه : ص ٣٦) وفي « ص ١٣٨ » : وقال التهامي :

سـأطلب العـلاء بكـل ليـث ... لـه زار بـذكـر الله وحـده
لـه ممـا تصـوغ الهنـد نـاب ... ومـمـا حـاكـه داود لـبـده
يـرد الـرمـح أزرق في احمـرار ... كـمقـلة أزرق كُحـلت بـرقـده

(١) قال من القصيدة التي بعث بها الى صديق له من الحبس :

فكن سـائـلا عـني فـإنـي هـالـك ... ومـا لهم عـنـدي على حـالـة وتـر
وفي النفس حـاجـات ودون مـرامهـا ... قيـود وحـراس لهـم حـولنـا زجـر
فإن عشت أبديت الـذي في ضمائري ... وإن مـت إن المـلتقى لهـو الـحشـر

ديوانه : ص ١٤٣ .

(٢) قال في القصيدة السابقة :

أروم جـسـيـمـات الأمـور وإنـمـا ... قصـاراي أن أبقـى إذا بقـي الـدهـر

(٣) ودليلنا على طول مدة حبسه أنه نظم فيها كمية حسنة من الشعر منوعة الأغراض قد لا يتم إنجازها في بضعة وعشرين يوما ، وأن بعض قصائده تقيد مجيء العيد عليه وهو سجين ، يقول في مطلعها :

طـرقت خيالا بعـد طـول صـدودهـا ... وفـرت إليك السجن ليلة عيـدهـا

(ديوانه : ص ٥٣) والعيد عند المسلمين أحد يومين : الأول من شوال أو العاشر من ذي الحجة ، على حين يجعل ابن خلكان اعتقاله لأربع بقين من ربيع الآخر سنة ست عشرة واربعمائة وقتله سراً في تاسع جمادي الأولى من السنة المذكورة ، (انظر ص ٣٩) وصرح =

ولا يقدح في خلق ابن المعتز وأبي الحسن التهامي ومروءتهما ما بيّنا من الخطط ، فمن كانوا في دست الحكم لم يصلوا إليه بغير التآمر ، وقد يكون من فضيلة الحر إذا غمه الفساد وآنس من نفسه الخير أن يدبر على الأشرار ، على أنهما لم يتح لهما بلوغ الأوطار ليحكم لهما أو عليهما ، فشأنهما شأن كثير من رجال السياسة والأدب كانت تخرجهم القرون حيناً بعد حين (١) .

النكبات :

ومثل هذه المؤامرات تتجه من الأدنى الى الأعلى ، ممن هم خارج الحكم ليلجوه على من هم فيه ، ومنها ما ينصب من الأعلى على الأدنى ، فينهال من الخلفاء والملوك على الوزراء والقواد والكتاب .

وعرف التاريخ هذا النوع باسم النكبات ، وهي لا تعدو أن تكون تدبيراً مشبهاً لما سبق ، يحاك خفية ، وينزل بغتة ، ويعقب فاجعة وسجناً وقتلاً ، وهي مستفيضة في أخبار دول الإسلام ، ولكن البحث مقصور على من قرضوا في نكباتهم شعراً ، وكانت لهم فيه صناعة معروفة .

= التهامي في مكان آخر أنه خلد في حبوس مصر :

ظللت بمصر في السجون مخلدا ... وإني لسيف جفنه فوقه ستر

ديوانه : ص ١٤٣ .

(١) نسوق مثلا لهؤلاء السياسيين الأدباء الشاعر الرشيد الغساني ، ولد بأسوان في صعيد مصر ، وكان أديباً متفقهاً عارفاً بالهندسة والطب ، طموحاً للسيادة ، وكان أسود اللون غليظ الشفة قصيراً . قدم القاهرة بعد مقتل الظافر الفاطمي ، فتقدم عند أمرائها ووزرائها ، وعين في اليمن قاضي قضاتها ، فطلب الخلافة وأجابه قوم فسلموا عليه بها ، ثم قبض عليه وحمل مكبلاً الى مصر ، ثم ورد الأمر بإطلاقه فعاش آمناً ، ولما جاء صلاح الدين الى الاسكندرية ليخرج من مصر الفاطميين آزره الرشيد وقاتل بين يديه ، ولما اضطر صلاح الدين الأيوبي لإخلاء الاسكندرية والخروج من مصر قبض عليه ، وفعلت به الأفاعليل ، وقتل شنقاً . انظر خريدة القصر : قسم شعراء مصر : ١/٢٠٠ وكتاب الروضتين : ١/١٤٧ وابن خلكان : ١/٥١ ، ووفاته على الأرجح ٥٦٢ هـ .

أسبابها :

وتتخذ هذه النكبات طابعاً في دواعيها وأساليبها ونتائجها يكاد يكون ثابتاً على مدى القرون .

غيرة السلطان :

وأول الأسباب أثرة السلطان ونفاسته الرجال الذين فوّض إليهم تدبير مملكته ، وظهر لهم نبوغ وذكر، وتحلق حولهم المنتفعون بنفوذهم . وربما صار لهم حظوة عند الجند والقواد بمشاركتهم في الحروب ، فجمعوا بين حسن الإدارة وولاء العسكر . فبذلك تنشأ في نفس السلطان غيرة تؤول برضاه عنهم إلى سخط عليهم ، ويخشى زوال سلطانه إليهم فلا يكون له من الملك إلا اسمه ، فيجدّ في تخلص أسباب القوة من أيديهم إليه ، وأيسر السبل وأحسمها الفتك المباغت (١) .

الطمع في أموال الوزراء :

ومن أعظم أسباب الضيق بهم والطمع فيهم ما ارتفع لهم من الأموال المنقولة وغير المنقولة ارتفاعاً يقعد عنه الحصر كثيراً ويفوق ما للخلفاء والملوك من الضياع والذهب والرياش . فتمتليء عليهم الصدور حسداً ، ويرى السلطان في أموالهم الضخمة مستعاناً في الأزمات لنفقات الحروب أو اصطناع الجند أو إصلاح الدولة .

أساليبها :

وتشابهت النكبات أساليب كما تشابهت أسباباً ، فكان التدبير غالباً ينهج منهج الحيلة والوقيعة بين الأنصار والأعوان ، حتى إذا خذل بعضهم بعضاً انقض

---

(١) جاء النذير إلى يحيى بن خالد بن برمك بقتل الرشيد جعفر بن يحيى فما زاد على أن رمى بالقلم من يده ، وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة . « العقد الفريد : ٥/ ٥٩ .

الملك على خصمه مباغتاً فواراه في الحبس ، وأذاقه العذاب ألواناً ، وقل من عفا فلم يقتل عدوه[1] .

نتائجها :

وكذلك تشابهت المؤمرات والنكبات في النتائج : فكانت إن نجحت غير مخشية العواقب . فالمنتصر مرتكز إلى القوة ، والمداهنون ـ على ما كان في هذه الأحداث من العبر الرادعة ـ يحدقون به آخذين بنفاق كبير ، متنكرين للمنكوبين وكانوا أولياءهم من قبل . ويستكين المنكوبون مستسلمين للقدر كما تدل قصائدهم[2] .

فلو تقريت مآسي الوزراء من البرامكة[3] وابن العميد[4] وهاشم بن عبد العزيز[5] الأندلسي ، ومآسي كبار الشعراء والكتاب والعلماء من عدي بن زيد

---

(١) كانت تلك مصائر أكثر الشعراء من عدي بن زيدإلىابن العميد إلى الطغرائي والوزير الأندلسي المصحفي وغيرهم .

(٢) انظر أشعار البرامكة في وصف نكبتهم وأشعار المتوجعين لهم والمحرضين عليهم في « العقد الفريد : ٥/٥٨ ـ ٧٣ » .

(٣) البرامكة هم يحيى بن خالد وابناه جعفر والفضل ، ونكب الرشيد أسرتهم كلها ، ومات في سجنه يحيى والفضل ، ولكل منهما في سجنه أشعار . انظر حوادث سنة ١٨٧ هـ وانظر الجهشياري : الوزراء : ص ٢٤٥ و ٢٦٠ .

(٤) هو علي بن محمد بن الحسين ، أبوه أبو الفضل بن العميد الوزير المشهور في الري لركن الدولة بن بويه ، ظهر نبوغه في حياة أبيه ، وحذره أبوه مغبة التباهي والتعالي ، وخلفه في الوزارة سنة ٣٦٠هـ وله اثنتان وعشرون سنة . وكان كامل العقل والمرؤة ، وافر الأدب ، شديد الثقة بنفسه ، تآمر عليه ثلاثة من ملوك بني بويه فأطاحوا به ، وعذبوه وقتلوه سنة ٣٦١هـ . وله في تعذيبه وغدر الناكبين به أشعار . انظر «معجم الأدباء : ٥/٣٤٧ ـ ٣٧٥ »

(٥) هو « أبو خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم ، أصله من موالي عثمان بن عفان وعظم قدره في قرطبة عند سلطان الأندلس محمد بن عبد الرحمن حتى صيره أخص وزرائه ، وأسند إليه أمور بلاده وعساكره . وكان تياهاً معجباً كثير الاعتماد على ما يحقد به قلوب العباد . . وكان قد ملأ صدر المنذر بن محمد غيظاً عليه ، فلما مات محمد وولي =

وابن زيدون ولسان الدين ابن الخطيب[1] وابن خلدون[2] ، ولو تقريت لكانت في أسبابها وأساليبها ونتائجها مصداق ما تقدم ، وكان كثير منهم يذوق مما جرع الآخرين[3] .

المنكوبون :

البرامكة :

وتعتبر نكبة البرامكة نموذجاً متكامل العناصر لمثيلاتها ، وكلها في الحق برمكية الأسباب والعواقب .

وأوحش البرامكة الرشيد من أنفسهم بما حازوا من الأموال والضياع المنشورة في أرجاء المملكة ، وبما اصطنعوا من الصنائع وأثروا من المآثر حتى صار جعفر بن يحيى يقضي في الأمور الخاصة بأسرة الرشيد ، ويعقد الألوية على الولايات بغير علمه ثم يوافقه الرشيد عل ما أمضى مظهراً الاستصواب

= المنذر قتله المنذر شر قتلة بعد السجن والعذاب » المغرب في حلى المغرب : ٢/٩٤ . وأنظر أشعاره في حبسه في « الحلة السيراء : ٧٣ ـ ٧٥ » .

(١) لسان الدين بن الخطيب من أشهر وزراء الأندلس وعلمائها وأدبائها وذوي الرئاسات فيها ، نشأ في غرناطة ووزر لملوك بني الأحمر ، ثم تعرض لما تعرض له غالب الرؤساء من النعمة والسلطان ثم النكبة والهوان . وكان مولده عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، اعتقل في الأندلس ثم تخلص وتمكن من الهرب إلى المغرب ووزر لملكها واتخذ الضياع والرياش ، ثم آمر ملوك بني الأحمر ملوك المغرب على نكبة ابن الخطيب ، وقبض عليه ثم قتل ، وله في سجنه قطعة من نفائس شعر السجن . انظر « تاريخ ابن خلدون : ٧/٣٣٤ ـ ٣٤٢ » .

(٢) حدث ابن خلدون عن نفسه ، فوصف نشأته بتونس ورحلته إلى سلطان المغرب أبي عنان ، قال : « فقربني وأدناني واستعملني في كتابته ، واختصني بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فكثر المنافسون ، وارتفعت السعايات حتى قويت عنده بعد أن كان لا يغير عن صفاته . . . فقبض علي وامتحنني وحبسني . . وما زلت في اعتقاله إلى أن هلك . وخاطبته بين يدي مهلكه بقصيدة طويلة نحو مائتي بيت . . » تاريخ ابن خلدون : ٧/٣٩٨ ـ ٤٠٣ .

(٣) وهم أكثر الوزراء والكتاب والشعراء مثل محمد بن عبد الملك الزيات وابن المدبر وابن الفرات وابن مقلة . وأخبارهم في كتب التاريخ ، أنظر مثلاً البداية والنهاية ، وأشرنا إلى كثير منها في مواضعها .

والبركة ، وهو يصطنع المداراة حتى أخذهم أخذة ملوءها الحقد الناقم ، فلم يرض عن البرامكة ولم يحدث نفسه برضا ، ولم يقبل فيهم شفاعة[1] .

ابن العميد :

وأثرى أبو الفتح بن العميد أيضاً ما شاء له الإثراء حتى صارت أمواله مطمع نفس الملك . ولكن نكبته كانت فيما اتخذ من أبهة الملك وفخامة الموكب وفيما كسب من محبة الجند وموالاة القواد ، وبما كان له من الألمعية والكفاءة والاندفاع والطموح حتى خشي ملوك بني بويه كلهم زوال الأمر إليه ، فتعاضدوا على الخلاص منه ، وحلوا القوى المتعاقدة على موالاته حيلةً ومكراً ، وتآمروا للقبض عليه في مشهد مأساوي رهيب [2] .

عدي بن زيد :

وتعتبر مأساة عدي بن زيد التي ختمت باغتياله من أوضح الصور . وترجع في أصولها البعيدة إلى التركيب أو التجمع السياسي في مدينة الحيرة يومذاك . فعلى الرغم من اعتماد المناذرة على الجيش في بقائهم لكثرة حروبهم ولتأمين سلامة القوافل الفارسية التجارية المتجهة إلى جنوب الجزيرة ، فإن أهل الحيرة كان لهم دور هام في اطمئنان هذه الأسرة أو قلقها في الحكم .

---

(١) ذكر سهل بن هارون كاتب البرامكة ثم الرشيد من بعدهم أنه ما رؤي مثل موجدة الرشيد على البرامكة فيما يعلم من ملك قبله على أحد ملكه (العقد الفريد : ٥/٦٢) وأنظر في المصدر نفسه (٥٨ ـ ٧٣) طائفة من الحوادث المؤيدة لما ذهبنا إليه من الأسباب . يضاف الى هذا مناهضة الحزب العربي الذي يمثله الفضل بن الربيع للموالي والبرامكة رأسهم . والتاريخ لا يقر إلا مثل هذه الأسباب ، وأما ما يشاع من علاقة حب بين جعفر والعباسة أخت الرشيد فهو مما تذهب إليه العامة في تعليلاتها المخترعة أو المروج لها . وقد نفى مسرور خادم الرشيد بعد وفاة سيده بزمن بعيد ، وهو الذي تولى قتل جعفر ، أن يكون لهذه الدعوى أثاره من صحة ، وذكر أنها من أباطيل الناس. أنظر الجهشياري : الوزراء والكتاب : ١٣٩ .

(٢) أنظر معجم الأدباء : ٥/ ٣٤٧ .

وكانت الحيرة عاصمة حضارية وثقافية تنصب إليها وتفترق منها طرق التجارة . فأثرت وظهر في أهلها الثراء والتنعم . وفي هذه المدينة كان يلتقي الناس من قبائل شتى وأجناس[1] . فيتناسون مع الزمن أصولهم الأولى ويتخذون صفة المواطنة ، وتنشأ عندهم عصبية لمدينتهم . ومتى اغتنت الأسر ، وتقدمت في التجارة ، أصبح لأموالها شأن في كيان الدولة وسياستها ، واستخدمت هي هذا المال في تعميق نفوذها لدى الحاكم واستثمرته في منافع اقتصادية مختلفة . وكان في الحيرة أسر عظيمة الأموال استعان بها المرشحون للحكم حتى أحرزوه ، وتعاقدوا على تبادل المنافع[2] . وتنافست هذه الأسر على الزلفى من الملك ونشب بينها ما ينشب بين أمثالها من العداء والكيد . واستطاعت في عهد المنذر بن ماء السماء أن تجرده من سلطاته الفعلية كلها وأن تترك منه ملكاً رمزياً يملك ولا يحكم . وأمسكت هي بالسلطة ووضعتها بيد واحد منها يحكم بمشورتها . وكان هذا الرجل هو زيد بن حماد بن زيد بن أيوب أبو الشاعر عدي[3] .

وكان أيوب الجد لاجئاً سياسياً من تميم إلى الحيرة ، ثم استطاع أن يعقد صلات مع أقوى الأسر ومع البيت المالك ، فمكن لأهل بيته ، وهيأ لحفيده زيد تلك المكانة التي رفع هو منها بعقده مودات مرعية مع شخصيات من وجهاء

---

(١) كانت أسرة عدي بن زيد من أصل تميمي ، وكان المناذرة من لخم ، وكان أعداء آل عدي بنو مرينا ـ ومنهم بنو بقيلة ـ من غسان ،وكان في المدينة من الفرس. أنظر أخبار عدي بن زيد في « الأغاني : ٢/٢٠ » .

(٢) احتاج النعمان بن المنذر إلى المال في معركة الوصول إلى العرش فاستسلفه من أحد وجهاء الحيرة ، وقال له : « لا جرى لي درهم إلا على يديك إن أنا ملكت » الأغاني : ٢/٢٥ .

(٣) الأغاني : ٢/٢٠ . وفي إحدى أبياته قال عدي للنعمان :

نحن كنا قد علمتم قبلكم عمد البيت وأوتاد الإصار

ديوان عدي : ص ٢٩٧ ق ١٧ ، ب ١٠ .

فارس[١] . وأحسن زيد تنشئة ابنه عدي ، فاضطلع بالثقافة العربية والفارسية ، واستكتبه كسرى ، وتمكن عنده ، وسفر له إلى ملوك الروم . «فرغب أهل الحيرة إلى عدي ورهبوه »[٢] .

وكانت أقوى الأسر حين قتل الملك عمرو بن هند أسرتي عدي وبني مرينا ، كلتاهما تشرئب إلى النفوذ . وكان للملك القتيل اثنا عشر أخا كلهم مرشح للحكم ، ولكل أنصاره من أهل الحيرة . وكان أقواهم النعمان بن المنذر مرشح عدي والأسود بن المنذر مرشح بني مرينا . وكان من سياسة كسرى أن يترك للحيريين اختيار ملكهم وللخميين الاتفاق على واحد منه . ويبدو أن قد استمر التطاحن شهوراً من غير اتفاق على أحد المرشحين لقوة عصبية الأسرتين ، فأغضب كسرى ميوعة الموقف ، وتهدد البلد بالاحتلال العسكري وبالاسترقاق[٣] فهرع أبناء المنذر كلهم إلى كسرى يحكمونه في أنفسهم ليختار واحداً منهم لعرش الحيرة . وبذلك تجمد نشاط الأسر وألقت بمقاليدها إلى الملك الفارسي ، وكان الفائز أحظاهم بثقته . وتوافدت على المدائن وكان لعدي في العاصمة الفارسية قصره وصلاته وقربه من كسرى ، ومعرفته بمداخل الأمور إليه ومخارجها ، فأحكم خطة لفوز مرشحه إذ كان يجول في ميدانه[٤] . ولا شك أنه كان أدرى بكسرى وأوثق عنده من ابن مرينا . وتجلى في خطة عدى

---

(١) الأغاني : ٢/١٨ .

(٢) الأغاني : ٢/١٦ .

(٣) قال كسرى : « لأبعثن إلى الحيرة اثني عشرة ألفاً من الأساورة ولأملكن عليهم رجلاً من الفرس ، ولآمرنهم أن ينزلوا على العرب في دورهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم » . الأغاني : ٢/٢١ .

(٤) ونوه عدي في إحدى حبسياته بدهائه حين انتصر ، فقال للنعمان :

وكنت لزاز خصمك لم أعرد ... وقد سلكوك في يوم عصيب
أعالنهم وأبطن كل سر ... كما بين اللحاء إلى الحسيب
ففزت عليهم لما التقينا ... بتاجك فوزة القدح الأريب

ديوانه : ص ٣٧ ، ق ٣ ، ب ١٢ - ١٤ .

دهاؤه السياسي ، فأبطن نصرة النعمان وأظهر الميل إلى الأسود . وانتهت المعركة السياسية بتتويج مرشح عدي النعمان بن المنذر . وكان فيها من النشاط والتخطيط مثل ما يحدث في الانتخابات العصرية للمناصب السلطانية . وكان فوز مرشح إحدى الأسرتين هو الانتصار المعنوي لها وعلو كعبها السياسي والمادي في الحيرة . وكان عدي يعد الانتصار في هذه المعركة من متممات الشرف وصيانة العرض . ولكنه امتاز بروح رياضية نادرة المثال في عصره على ما كان فيه من الحمية لبلوغ وطره . فكان رجلاً يقبل التحدي النبيل من غير موجدة ، وكان يؤمن أن المعركة الشريفة لا ينبغي أن تخلف في النفوس سخائم وأن لا تثريب على منتصر أو مخذول ، فكلاهما سعى لإحراز السبق ، وبين كل متسابقين متقدم ومتأخر . وانطلاقاً من هذا اليقين أولم للمرشحين وأنصارهم جميعاً ، ودعاهم إلى التصافي ، وأقسم عليه من جانبه ولكن بني مرينا أقسموا على معاداة عدي جهراً[1] .

وعاد النعمان إلى الحيرة ولا معركة بينه وبين أخيه ، وإنما المعركة بين بني مرينا وعدي . فاستجدت معركة لم يتبدل فيها المتنازلون وإن تبدل الميدان . فكانت الأحداث في قصر النعمان في الحيرة ، وبنو مرينا أنصارهم وأموالهم قريب ، على حين كان عدي بعيداً عن الساحة منقطعاً للعمل في بلاط كسرى . وبذلك تغيرت شرائط المعركة مما هيأ للتغيير في نتائجها .

ولا غرو أن المنتصر هو المستحوذ على قلب النعمان . وكان عدي مطمئناً إليه لأسباب كثيرة[2] وتلطف كبير بني مرينا إلى النعمان حتى صار أثيراً عنده وكثر أنصاره ، وانتهج خطة جديدة للانتقام من عدي كانت تهدف إلى أمرين

---

(١) انظر خبر الوليمة وعرض عدي المصالحة والمصافاة في « الأغاني : ٢/ ٢٢ »

(٢) من هذه الأسباب نشأة النعمان وتربيته في أسرة عدي ـ وكان أبو المنذر يفرق أولاده في أسر الحيرة القوية ، وكان الأسود عند بني مرينا ـ ومنها زواج عدي بهند ابنة النعمان ، ومنها دعم عدي له في المعركة . انظر المصدر السابق .

أساسيين : اكتساب ثقة النعمان بن المنذر ثم تحويل قلبه عن عدي بن زيد وتشكيكه في إخلاصه حتى يتم له الإيقاع به وتحطيمه . فسلك سبيل الحكمة الهادئة أول الأمر فكان يثني على عدي ويعرض به في آن واحد ، تعريضاً فيه التشكيك ، فلما تمكن من أذني النعمان زاد وأعوانه في الإرجاف به والكذب عليه ، فلما استحكم لهم الأمر دبروا له تهمة الخيانة العظمى(1) .

وتدل القصائد العديدة التي بعث بها من حبسه إلى النعمان على إصرار النعمان على اعتقاله بما صم عن نداءاته وتوسلاته(2) . ولا شك أن أعداء عدي نجحوا في إيغار صدر الملك على صديق نصير ناصح . وكانت طبيعة النعمان النفسية تعين على ذلك ، فكان عظيم الموجدة إذا غضب ، نافذ الانتقام ،

---

(1) تقرب ابن مرينا إلى الملك « فلم يكن في الدهر يوم يأتي إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ،وكان إذاذكر عدي بن زيدعند النعمانأحس الثناء عليه وشيع ذلك بأن يقول : إن عدي بن زيد فيه مكر وخديعة ، والمعدي لا يصلح إلا هكذا . فلما رأى من يطيف بالنعمان منزلة ابن مرينا عنده لزموه وتابعوه ، فجعل يقول لمن يثق به من أصحابه : إذا رأيتموني أذكر عدياً عند الملك بخير فقولوا : إنه لكذلك ، ولكنه لا يسلم عليه أحد، وإنه ليقول : إن الملك ـ يعني النعمان ـ عامله ، وإنه هو ولاه ما ولاه . فلم يزالوا بذلك حتى احنقوه عليه ، فكتبوا كتاباً على لسانه إلى قهرمان له ثم دسوا إليه حتى أخذوا الكتاب منه . وأتوا به النعمان ، فقرأه فاشتد غضبه ، فأرسل إلى عدي بن يزيد وهو يومئذ عند كسرى ، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد » . الأغاني : ٢/٢٢ .

(2) ذكر عدي إهمال النعمان له ، فقال :

ألا من مبلغ النعمان عني ... وقد تهدي النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسلة وقيداً ... وغلّا ، والبيان لدى الطبيب
وهم أضحوا لديك كما أرادوا ... وقد ترجى الرغائب من مثيب
أتاك بأنني قد طال حبسي ... فلم تسأل بمسجون حريب
ومالي ناصر إلا نساء ... أرامل قد هلكن من النحيب

« ديوانه : ص ٣٧ ، ق ٣ ، ب ٢١ ـ ٢٥ » وأشار إلى ذلك في (ق ٧ ، ب ١٤) وفي « ق ٨ ، ب ٢٢ ـ ٢٣ و ٢٩ ـ ٣٠ » .

قاسي الأخذ ، يحجزه غضبه عن سبر الأمور، وتحري الحق[1] . ومثل هذا الملك تستطيع حاشيته أن تستغل مزاجه الساخط وكبره بالتدليس والتمويه عليه وبالدس على الأبرياء ، فلا ينفك مستثاراً لا يرضى .

وفوجيء عدي بسخطة النعمان فما احتواه الحبس حتى أرسل إليه شعراً يذكره بسابقته عنده ، وبأواصر المصاهرة ، ويحذره من قبول الافتراء من خصوم الأمس[2] . وكان الخطاب على ما فيه من التخافض لا يرضي النعمان ، فقد ذكره عدي بما صنعه من أجله يوم حاز له التاج ، والملوك لا تحب أن يمتن عليها أحد بصنيعة ولو كانت حقاً . وكان هذا الامتنان مما ولج به خصومه إلى أحقاد النعمان عليه حين زعموا له أن عدياً يرى في النعمان عاملاً له[3] .

---

(١) انظر وصف الشاعر أبي زبيد الطائي - وكان مخضرماً من المعمرين - لشخصية النعمان بن المنذر عن مشاهدة وقرب في ، الاغاني : ١١/ ٢٥ » .

(٢) قال عدي في ذلك :

لبيت شعري عن الهمام ويأ ... تيك بخبر الأنباء ، عطف السؤال
أين عنا إخطارنا المال والانفـ ... ـس إذ ناهدوا ليوم نوال
ونضالي في جنبك الناس يرمو ... ن وأرمي وكلنا غير آل
فأحبت الذي تريد بلا غبـ ... ـن وأربي عليهم وأوالي
يوم لا أتقي بكفي طوال الـ ... دهر أنصاره بغير احتيال
وبعينيك كل ذاك تخطا ... ك وتخطيك نبلهم في النضال
وأناجي نفسي وأشعرك الو ... د بلا نبوة ولا إملالْ
ولقد فدتني كثيراً فوجهـ ... ـت بما خيبت عليك شمالي
مع صهر كان الرجاء فأديـ ... ـت حبيباً صاحبته بجمال
لاتهن خطبنا فإن يثبت السـ ... ـجري تذكر قولي وصدرك عالي
من خطوب تسعى إليك ولا تأ ... لوك شراً والهدى عند الآل
وتبين لدن بلغت من السـ ... ـن كثيراً بالناصح العمال

ديوانه : ص ٥٦ ق ٧ ، ب ١٠ و١٣ - ١٥ و١٨ - ١٩ و٢٣ .

(٣) انظر ص ح .

وكان عدي لا يتوقع تغافل النعمان عنه لما بينهما من الوشائج ولحاجته إليه عند كسرى ، غير أن الواقع لم يصدق التوقع ، فأهمله الملك إهمالاً طويلاً حتى ضاق بحبسه وأشقاه ، فانبرى يتظلم إليه مستكيناً بائساً(١) . وكان الشاعر على دين نصرانياً نقي السريرة ، فكان يقسم للنعمان على براءته قسماً ينضح بالصدق ، فلا يصنع ذلك عنده شيئاً(٢) . حتى يئس منه واتهمه بقصر النظر وجهله بالناس(٣) .

وتعزي صلابة النعمان من عدي إلى استئثار أعدائه بسمع الملك ، وكان

---

(١) قال له في تظلمه وفي تنبيه النعمان إلى حاجته إلى عدي :

فإن اخطأت أو أوهمت أمراً ... فقد يهم المصافي بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتموني ... وإن أظلم فذلك من نصيبي
وإن أهلك تجد فقدي وتخذل ... إذا التقت العوالي في الخطوب
فهل لك أن تدارك ما لدينا ... ولا تغلب على الرشد المصيب
وإني قد وكلت اليوم أمري ... إلى رب قريب مستجيب

(٢) من ذلك قوله :

أبلغ النعمان عني مألكا ... قول من خاف اضطغانا فاعتذر
إنني والله فاقبل حلفي ... لأبيل كلما صلى جأر
مرعد أحشاؤه في هيكل ... حسن لمته وافي الشعر
مؤمن الصدر يرجى عتقه ... يوم لا يكفر عبد ما ادخر
ما حملنا الغل من أعدائكم ... ولدى الله من العذر المسر
حولنا الأعداء ما ينصرنا ... غير عون الله ، والله نصر
لا تكونن كآسي عظمه ... بأسيً حتى إذا العظم جبر
عاد بعد الجبر يبغي وهيه ... ينحونّ المشي منه فانكسر

(ديوانه : ص ٥٩ ، ق ٣ ، ب ١٤ ـ ٢١) والابيل : الراهب .

(٣) « قال لما حبسه النعمان :

ابا منذر جازيت بالود سخطة ... فماذا جزاء المبغض المتبغض
فجازيته في ذا المثال كرامة ... ولست لشيء بعد بالمتعرض

ديوان : ص ١٣٦ ، تخريج : ٦٩ .

حقدهم لا ينام . ويدل شعر عدي على أنه تعرض لحملة متقنة من الدس وتشويه الحقائق قبل السجن وأثناءه[1] . فكان إذا زاره في سجنه بعض أصدقائه ممن يدخلون على الملك أثنى على النعمان لتنمي إليه أقواله ويطيب نفساً . ولكن أعداءه كانوا يحصون عليه أنفاسه وهمساته فلا تصل كلماته إلى الملك إلا محرفة مكذوبة ، فيغتاظ ويأمر بإرهاقه بالقيود[2] .

ولما ئيس عدي من الملك استشعر خوفاً شديداً ، وعلم أن أعداءه بالغون مقتله بأيديهم أو بيد النعمان[3] . فأرسل قصيدة ملؤها الذعر إلى إخوته في العاصمة الفارسية يسألهم عملاً سريعاً فيها لتدارك أمره قبل الفوات ، وحذرهم

---

(١) أشار عدي إلى ذلك في شعر قاله قبل النكبة على الأرجح :

ألا تلك الثعالب قد توالت ... علي وحالفت عرجا ضباعاً
لتمضغني العداة ، فمر لحمي ... وأفرق من حذاري او أتاعا
فإن لم تندموا فثكلت عمرا ... وهاجرت المؤرق والسماعا

(ديوانه : ص ٣٥ ، ق ٢ ، ٤ ـ ٦) وعمرو ابنه .

(٢) قال عدي بن زيد للنعمان :

جاءني من لديه مروان إذ قفيـ ... ـت عنه بخير ما أحذاني
بإفال عشرين قحمها الصعـ ... ـب لحسن الإخاء والخلان
لاصفايا دهم فأسنمها الرسل ... ولا جلة قطيع هجان

(ديوانه : ص ١٨٧ ، تخريج ١٤٢) و (الإفال : القيود ، قحمها : أدخل بعضها ببعض والرسل : اللبن ، وكان النعمان يسمى الصعب . « المعاني الكبير : ٨٧٨ و ١٠٢٧ » .

(٣) احس بالخطر أول الحبس ، فقال فيهم :

محلوا محلهم لصرعتنا العا ... م فقد أوقعوا الرحى بالثغال

(ديوانه : ص ٥٦ ، ق٧ ، ب٩) ولم يفارقه هذا الإحساس في كل ما نظم :

سعى الأعداء لا يألون شراً ... علي ورب مكة والصليب
أرادوا أن يمهل عن كبير ... فيسجن أو يد هدى في قليب
وما طلبي سؤالاً بعد خبر ... نماه الموضعون إلى الشعوب

(ديوانه ؛ ص ٣٧ ، ق ٣ ، ب : ١٠ ـ ١١ و ١٧ ») .

المجيء إلى الحيرة من غير ضمان أو حماية[1] . ووفق إخوته لاستصدار عفو من كسرى ، واتجه مبعوثه ليطلقه بيده . وتسامع أعداؤه بالنبأ ، فأطار قلوبهم الفزع ، وعلموا أن نهايتهم صارت قريبة ، وأن كسرى قد يديل لهم منه . فدخلوا على النعمان وأحرجوه ، وخوفوه حتى واطأهم على اغتياله ، ففرغوا منه قبل أن يصل مبعوث كسرى بالكتاب إلى النعمان[2] .

ومن المحتمل أن بني مرينا حملوا النعمان على مقتله حملاً ، أو قتلوه وألزموا النعمان بالرضوخ إذ كانت شوكتهم قد قويت وتصرفوا في أموره ، وأشركوه في الذنب[3] . ولما قضوا على عدي لم يبق لهم بالنعمان حاجة ، فهم

(١) في ديوانه قصيدتان إلى إخوته عند كسرى (ص ١٥٠ و ١٦٤) وفي الأولى يقول :

يا أبا مسهر فأبلغ رسولا ... إخوتي إن أتيت صحن العراق
أبلغا عامراً وأبلغ أخاه ... أنني موثق شديد وثاقي
في حديد القسطاس يرقبني الحا ... رس والمرء كل شيء يلاقي
في حديد مضاعف وغلول ... وثياب منضحات خلاق
فاركبوا في الحرام فكوا أخاكم ... إن عيرا قد جهزت لانطلاق

(تخريج ٩٢ ، ب ١٠ - ١٤) في الحرام : في الشهر الحرام ليأمنوا على أنفسهم ، وقوله : إن عيرا قد جهزت لانطلاق : انذار بتهيؤ أعدائه لقتله .

(٢) دخل رسول كسرى على عدي الحبس للبشارة قبل دخوله على النعمان ، فقال له عدي : « لا تخرجن من عندي ، وأعطني الكتاب حتى أرسله إليه ، فإنك والله إن خرجت من عندي لأقتلن ، فقال : لا أستطيع إلا أن آتي الملك بالكتاب فأوصله إليه ، فانطلق بعض من كان هناك من أعدائه فأخبر النعمان أن رسول كسرى دخل على عدي وهو ذاهب به ، وان فعل والله لم يستبق منا أحداً لا أنت ولا غيرك ، فبعث النعمان أعداءه ، فغموه حتى مات ثم دفنوه » الأغاني : ٢ / ٢٧ ثم كذبوا في أمره على كسرى ورشوا رسوله .

(٣) يدل على تمكن أعدائه وإطلاق النعمان أيديهم في مملكتهم قول عدي له :

ألا من مبلغ النعمان عني ... فيينا المرء أغرب إذ أراحا
أطعت بني بقيلة في وثاقي ... وكنا في حلوقهم ذباحاً
منحتهم الفرات وجانبية ... وتسقينا الأواجن والملاحا

(ديوانه : ص ١٢٠) وأغرب : أثرى . وأراح : مات . وهذا الشعر يدل على أن المنافسة كانت على المصالح المادية . وبنو بقيلة أقوى بني مرينا ، ويشهد بإثرائهم الضخم =

الأسـرة الأولى ذات القوة والنفـوذ في الحيرة ، وصـارت حاجـة النعمـان إليهم أشد[1] .

إن هذه الجريمة التي أجهزت على الشـاعر البـريء نجمت من منافسـة سياسية بين أسرتين ، استعـرت فيها الأحقاد والأطماع ، وقصر فيها نظر الملك عن استجلاء الحق وسير الأمور .

جعفر بن عثمان المصحفي :

وعلى كثرة من يمكن الحديث عنهم في هذا الصدد فإن الانتخاب لا مفر منه . . ويقدم تنوع البيئات واختلاف الأعصر صوراً معقدة في التآمر السيـاسي وفي كل منها طرافة وحداثة ، وإن لم تتباين دوافع ونتائج .

وكـانت ظروف الحكم في غـرب العالم الإسـلامي كما هي في مشـرقه تهيىء لرجالات الدولة تآمراً عظيماً . وفي الفاجعة التي قصمت الوزير الأندلسي جعفـر بن عثمان المصحفي كـل ما يمكن أن تنـطوي عليـه نفس الإنسـان من الاستئثار والغيرة والحسد والتحجر العاطفي والإسراف في الانتقام .

وكان المصحفي وزيراً للحكم المستنصر بالله[2] ، ترقى عنده حتى حاز ثقته كاملة ، فدبر له المملكة ، وكان عوناً نصوحاً وأحياناً أنيساً مسامراً ينفحه من قريحته العذبة المشرقة أشعاراً .

وشاء القدر أن يكون الخصم المتجرد للمصحفي ، ليحطه من منصبه ،

= قصورهم الفخمة التي بقيت ماثلة مشهورة في الإسلام . وورد ذكر لبني بقيلة في حـوادث القرن الأول . انظر أنساب الاشراف : ٥/ ٣٣٢ س ١٥ .

(١) قال أبو الفرج : « وندم النعمان على قتل عدي ، وعرف أنه احتيل عليه في أمره ، واجترأ أعداؤه عليه ، وهابهم هيبة شديدة » . الأغاني : ٢/ ٢٧ .

(٢) هو الحكم بن عبدالرحمن بن محمد خلافته ما بين ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ .

ألمع شخصية طلعت في تاريخ الأندلس خلفت المصحفي واستأثرت بالحكم دون الخليفة ، وبنت مجدها الخاص على كيان شامخ . وهذا الخصم هو الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر وكانت له عزيمة نافذة في الأمور وطموح لا يتوقف ، وهمة تتحدى الصعاب ، وجرأة على سفك الدماء بلا تحرج ، وقلب عند الملمات قُدَّ من صخر[1] .

ورجل هذه صفته لا يكون حظ خصومه معه لينا ولا مرحوماً ، فهو لا يتراجع ، ولا ينازل إلا على تحصن ، ولا يزال في هجوم بارع التخطيط حتى يعزل خصمه ويجهده ثم يعصف به في وثبة بطش الجبارين[2] .

وأعين المنصور على المصحفي بذكائه ثم بتشجيع رجال البلاط ووجوه الأسر المتنفذة ، وكانوا حاسدين للمصحفي حانقين عليه راغبين في إسقاطه[3] .

ولما بلغ المصحفي ذروة مجده ، وعلا على من حوله ، كان محمد بن أبي عامر شاباً ممتلئاً نشاطاً وقوة وفتوة وهمة ، يقلد الأعمال الصغيرة فيظهر كفاءة واقتداراً . وكان يلوذ بباب المصحفي ، ويسير فيما يكلفه به مخلصاً ، ويتقدم في خدمة أصحاب المسائل ويقضي حوائجهم . فأصاب محبة وقوة ، ولفت إليه أنظار القصر .

---

(١) قتل ولده عبد الله لما تخوف تآمره عليه . انظر ابن عذاري المراكشي في « البيان المغرب في أخبار المغرب : ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٦ » .

(٢) انظر مفصلاً خططه الذكية في قضائه على المصحفي في « البيان المغرب : ٢/ ٣٩٥ - ٤٠١ » .

(٣) قال ابن عذاري : « وكان مما أعين به ابن أبي عامر على جعفر بن عثمان المصحفي ميل الوزراء إليه وإيثارهم له عليه . . . فلما أحظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان حسدوه وذموه . . وكان أسرع هذه الطائفة إلى مهادنة المنصور عليه ، والانحراف عنه إليه آل بني عبده ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وكانوا في الوقت أزمة الملك » . البيان المغرب : ٢/ ٤٠٥ .

وأحس المصحفي بنبوغ ابن أبي عامر ، وقدرته على الارتقاء ، وجدارته بالوزارة ، فعمل على تأخيره أو تجميده . فانسحب من بابه ، وولج من طريق نساء القصر إلى أوطاره[1] ، واضطغنها على المصحفي طوال سعيه ، فلما تمكن منه بعد التدبير المتأني الطويل استفرغ من نفسه كوامن موجدته عليه .

وكانت الأحوال العامة تساير خطط المنصور وتنصره على خصمه إذ تعرضت الأندلس لأزمات خطيرة احتاجت إلى الحزم والتشمير والاقتحام ، فتهيبها المصحفي وغيره من الرجال ، وولج إليها المنصور بما فيه من ثبات وإيمان ودهاء ، فبلغ أقصى التوفيق . فكان يرتفع يوماً عن يوم على حين يتضاءل المصحفي ، ثم لم يلبث الأمر أن أفضى إلى المنصور .

ولعل المصحفي يئس من مجاراة ابن أبي عامر في أعماله الباهرة وارتقائه الخاطف فعمل على التخلص منه بالدس عليه عند الخليفة لتحطيمه . فانتبه إليه المنصور ودحض التهم وكره بالمصحفي . وكان في ذلك نهايته ، فنكب ، وانفرد به المنصور في السجن يردد عليه الهوان ، وجد في ترويع أسرته كلها وإزالة نعمتهم[2] .

---

(١) نهضت بالثناء عليه زوجة الحكم وأم ولي عهده صبح البشكنجية ، وكان استمالها « بحسن الخدمة ، وموافقة المسرة ، وسعة البذل في باب الاتحاف والمهاداة » (البيان المغرب : ٢/ ٣٧٤) وكانت هذه المرأة من أسباب نقل الملك إليه .

(٢) لم يذكر المؤرخون سوى أن المنصور كان موغر الصدر على المصحفي ، والمنصور هو الذي اعترف في شعره أن المصحفي كاد يودي به . فقد أرسل إليه المصحفي من الحبس مستعطفاً :

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم
بالغت في الحط ، فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

(من ثلاثة أبيات) فأجابه من أربعة ، ويأسه من رضاه :
أغريت بي ملكاً لولا تثبته ما جاز لي عنده نطق ولا كلم
البيان المغرب : ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

وتـريث في قتله سنين والمصحفي يواصله بـأشعاره ، يستعـطفه ويعتـذر إليه ، ولا رأفة ولا كرامة . ولعله تأخر باغتياله لأسباب منها إشباع مـا في نفسه من شهـوة الانتقـام ، ومنهـا أن المصحفي كـان كثيـر النصيـر في الجيش وفي خارجه ، فلم يشأ أن يسخطهم بقتله فيثوروا عليه وهو طري العود في السلطة ، فتـرك لهم شيئاً من الـرجاء . فلمـا لان أمر أصحـابه ويئسـوا من تجدد الـدولة للمصحفي ، واستعمل المنصور أكثرهم هجم على اغتياله . وبلغ من خوفه من تدبير المصحفي عليه وهو الحبس ، ومن اتصاله بأعوانه أو بالقادة أو بالخليفة أن كان يصطحبه معه مقيداً في غزواته .

وأخـرجت المحنة من المصحفي رجـلاً هزيـلاً خوار العـزيمة ، ضـامـر العزة ، شحيحاً بالحياة على الذل. فكان من أولئك الرجال الذين أنهضهم قدرهم من الحضيض إلى الرئاسات الكبرى ، ولكن نفوسهم ظلت تنطوي على صغار ذاتي ، فلما جردوا من أرديتها الخلابة بدت حقائق جواهرهم ، وخسروا احترام معاصريهم إذ لم يتجالدوا تجالد العظماء عند النكبات[1] .

والحق يقال إن المصحفي كان شيخاً مسناً لم يبق فيه من قوة النفس مـا يواجه به الأخطار[2] ، وإن سمت بعض نفوس الكبار على ضعفها . ولا شك أن حب الحياة هو الذي استذله . وقد أدرك هو هذه الحقيقة في موقفـه وتوسـلاته

---

(١) انحط المصحفي إلى العبودية في توسلاته ، قال للمنصور من خمسة أبيات :

عـفـا الله عـنـك ألا رحـمـة ... تـجـود بـعـفـوك أن أبـعـدا
ألـم تـر عـبـداً عـدا طـوره ... ومـولـى عـفـا ورشـيـدا هـدى

البيتان المغرب : ٢/ ٣٩٩ . ويقال : إن الأبيات لعلي بن الجهم وإن المصحفي تمثل بها .

(٢) قال وأخرج من السجن إلى محاكمة والخوف يأخذه وقد رأى كثرة المتنمرين له :

ولـقـد أراني والـلـيـوث تهـابـني ... وأخـافـني مـن بعـد ذاك الـثعـلب

البيان المغرب : ٢/ ٤٠٦ الثاني من ثلاثة .

لعدوه[1] ، فلما يئس من عفوه عنه ، واستيقن القتل ، واطرح الرغبة في البقاء تيقظت فيه بقية من رجولة ، فحدق في وجه خصمه من غير خوف ، وتحدى المنصور أن يكون هو قاتله ، إنما قاتله القدر المتربص بالمقتول والقاتل معاً[2] .

ابن زيدون :

ولعل أشهر شاعر أندلسي أذاعت أخبار الأدب حديث سجنه هو ابن زيدون ، وليس بينه وبين المصحفي مدة طويلة [3] ، ولا تختلف دواعي حبسه عما جرى لأمثاله ،وكان من فرسان السياسة والأدب[4]، متقدماً في ميدانه ، بلغ مجده في أوج شبابه ، فكاثره حساده وأوقعوا به حتى حبسوه .

والجديد في حديث هذا الرجل ان سجنه يقترن بقصة حب ذائعة ، ومن المشهور لدى المؤرخين ان هذا الحب كان من أسباب كارثته ، ولعب دوراً

---

(١) قال في نكبته :

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت

نفخ الطيب : ٢/ ١٣٤ . الرابع من خمسة .

(٢) « لما يئس المصحفي من عفو المنصور قال :

لي مدة لا بد أبلغها ... فإذا انقضت أيامها مت

لو قابلتني الأسد ضارية ... والموت لم يقرب لما خفت

فانظر إلي وكن على حذر ... في مثل حالك أمس قد كنت »

نفح الطيب : ٢/ ١٣٤ .

(٣) اغتيل المصحفي سنة ٣٧٢ هـ (البيان المغرب : ٣٩٨/٢) وعاش ابن زيدون ما بين ٣٩٤ - ٤٦٣ (الاعلام) وسجن « في الفترة ما بين محرم من سنة ٤٣٢ وشعبان من ٤٣٣ » ديوان ابن زيدون : المقدمة ص ٤٣ ، تحقيق علي عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ م .

(٤) بدأ حياته السياسية باشتراكه في المؤامرة التي انهت الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، واستوزره ابو الحزم بن جهور زعيم الدولة الجديدة ، وأعاده للوزارة ابنه أبو الوليد بن حزم سنة ٤٣٥ هـ وسفر بين ممالك أندلسية عديدة ، وعرف له فضله ، وفر من بني =

خطيراً في حياته العاطفية وإنتاجه الشعري ، ولكن الذي لا شك فيه أنه لم يكن بالسبب الوحيد ، ولعل ثمة أسباباً لا تقل عنه وجاهة كان لها الحب طلاء جميلاً ، ويجب تلمس العلل الموجبة في طبيعة الشاعر ، وطبيعة السلطان الذي يعمل ومن حول هذا السلطان ، وفي طبيعة المرأة التي أحبها .

أما ابن زيدون فسيرته الزاخرة بالمواقف العصيبة شاهدة على أنه كان من هواة السياسة ، هجم عليها في فجر شبابه ، ولم يتركها حتى يومه الأخير على ما ناله فيها من المحن . وكان بارع الذكاء ، كيّساً ، اكتسب على الأيام دهاءً كثيراً ، واستطاع بعد محنته الأولى بالحبس أن ينجو من نكبات كثيرة دبرها له منافسوه ، واستوزر لأطغى الحكام وأفتكهم فتفلت من أذاه [1] ، غير انه كان على كثير من العجب بنفسه ، تياهاً بمواهبه ، عظيم الزهو بشعره لا يرى من يدانيه [2] ، بعيد الأمل ، مقداماً على ما أراد . وأمدته حميا الشباب في أول عهده بالسياسة باندفاع عظيم وغرور كبير وسلوك يمكن أن يوصف بمجاوزة الروية والتدبر . فكان شديداً على خصومه ، عنيفاً بهم لا يرأف ولا يبقي [3] ، وهو عظيم الحب لذاته لا يرضى لها من النفائس إلا أنفسها ، فإذا دعي للوزارة فله

= جهور الى بني عباد في إشبيلية وشجعهم على احتلال قرطبة ، فتم له ذلك ، وكانت في إشبيلية وفاته .

انظر « تاريخ الفكر الأندلسي : «٨٠ ـ ٨٦» .

(١) كان المعتضد بن عباد ملك إشبيلية طاغية جباراً موغلاً في الدماء ، لم يكد ينجو من أصدقائه ناج منه ، واستوزر له ابن زيدون لما هرب إليه ، وسئل عن سلامته منه فقال : « كنت كمن يمسك بأذني الأسد يتقي سطوته ، تركه او أمسكه » . ديوان ابن زيدون : ص ٥٢ .

(٢) حديثه عن شعره وأدبه كثير ، انظر على سبيل المثال رائيته التي أرسل بها من السجن الى ابن جهور (ديوانه : ص ٥٠ ، ب : ٣٩ ـ ٤٤) ورسالتيه الهزلية والجدية ، وكلتاهما معرض مباهاة ببلاغته .

(٣) صبّ في رسالته الهزلية شواظ سخرية قاتلة على أبي عامر بن عبدوس منافسه على قلب ولادة وعلى الوزارة ، انظر رسائله في ديوانه : ص ٦٣٤ ـ ٦٧٩ .

المركز الأول فيها ، وإذا تعشق النساء فأعلاهن وأشهرهن وأجملهن [١] .

أما أميره فهو أبو الحزم بن جهور ، شيخ وقور عرفته قرطبة وجهاً من وجوهها ، وقاضياً متعففاً ، وكان بارعاً خبيراً في شؤون الحكم ، نشأ على السياسة منذ أيام المصحفي ، وتمرس بها في ظل الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وعرف الكثير من طبائع الرجال وتغير العهود وسقوط الدول . ولما أجهز وجهاء قرطبة على الدولة العامرية وعلى الخلافة الأموية فيها بتدبيره ، وفوّضوا اليه أمور البلد كان قد تحنك وغلبت فيه الأناة على التسرع ، ونفذ بصره الى كنه الأمور ، فطلب اللباب وعزف عن القشور ، ولذلك اكتفى بحقيقة الحكم دون مظهره ، فكان كل شيء إليه : يعمل لتأسيس ملكه وهو يظهر الزهد والرغبة عنه[٢] .

وكان أهم ما في الأمر عنده أن يحفظ على قرطبة استقلالها من ملوك الطوائف ، وان يسيطر في بلاطه على أعيان البلد وكبارها ، ويجعل بينهم شيئاً من التوازن يأمن معه على نفسه ، ويجعل بينهم وبينه حداً لا يوحشهم منه ولا يطمعهم فيه ، فكان لبقاً ليناً ومهيباً حازقاً . وفي مثل هذا البلاط حيث يقف الفرسان على قدم المساواة في حلبة واحدة يجري التسابق ، وتنشط الدسائس ، وتحبك المؤامرات .

وكان أبو عامر بن عبدوس بين رجال البلاط رجلاً له يسار ومداخلة للكبار بمن فيهم ابن زيدون ، ولم يكن له كبير علم وثقافة ، ولكنه كان ضالعاً في حياة البلاط ومؤامراتها .

---

(١) كان لاينـي إذا استوزر أن يكونا المقدم على الوزراء جميعاً سواء في بلاط بني جهور او بني عباد (انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٨٥ ومقدمة الديوان : ص ٥٠ ـ ٥١) وكانت صلاته الغرامية مع ألمع فتيات عصرها وهي ولادة وكانت ابنة خليفة سابق .

(٢) توفي سنة ٤٣٥ هـ ، وانظر شيئاً من سيرته في « مطمع الأنفس : ١٤ » . و « نفح الطيب : ١/٣٠٢ » .

وكان ابن زيدون الشاب الوزير والشاعر الأول في هذا البلاط ، وكان لا يزال يتلمس مرضاة ابن جهور بغرر المدائح يرفع بها ذكره في وقت كان فيه الأمير أحوج الناس إلى مثل هذا الشعر للدعاية له (١) ، ولا شك ان ابن جهور شجع الشاعر على المديح ، وكان لا يؤذيه من الشاعر وهو ضامن ولاءه ما يرى فيه من الاعتداد وحب الظهور ، والسلطان لا يسوؤه الإغضاء على أمور لا خطورة فيها ، أما إذا استشعر خطراً فسريع الانقضاض .

ومن ثم لم يبال ابن جهور بمدائح ابن زيدون حين أدخل الوشاة في روعه ان الشاعر يعمل خفية على خيانته ورد الأمر إلى بني أمية ، فغض منه ثم قطعه ، ولم يلبث أن لفق له تهمة وسجنه ، ولم يندم على حبسه أبداً ، ولم يقبل فيه شفاعة حتى كان قبيل وفاته بأشهر قليلة (٢) .

وأما معشوقته فهي ولادة بنت المستكفي الخليفة المخلوع (٣) . وتبرز منها الأخبار عاشقة لعوباً ، تياهة مدللة ، ذات جمال وظرف وأنوثة جذابة ، ولها أدب معجب وجرأة وتحرر ، وللقدماء والمحدثين فيها آراء متضاربة ، فمن طاعن في سيرتها ، ومن مدافع عنها ، ومن متوقف عن القول (٤) . ومن المستشرقين من يتهمها بالسادية (٥) ، ومنهم من يرى فيها فتاة عابثة ترضي غرورها بالاستكثار من المعجبين والعشاق (٦) ، ويترتب على هذا أن ابن زيدون في

---

(١) انظر ديوان ابن زيدون : ص ٥٨٢ ، ب ١٣ ـ ٢١ . وفي الأبيات ما يدل على الصلة الحسنة بينهما قبل الأزمة .

(٢) من دلائل الاتهام الكبير فرار الشاعر من سجنه الى إشبيلية ثم عودته مستخفياً الى قرطبة مستشفعاً بمن لهم كلمة مسموعة . انظر في « الديوان : ص ٧١٨ » ، رسالته الى أستاذه أبي مسلم أحمد بن أفلح النحوي .

(٣) خلع المستكفي سنة ٤١٦ هـ (الأعلام) .

(٤) انظر أقوال القدماء في ولادة في (نفح الطيب : ٤/٢٠٥ ـ ٢١١) .

(٥) مقدمة ديوان ابن زيدون : ٣٨ ، علي عبد العظيم .

(٦) بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس : ١٢٤ ، ط ٤ ، بيروت ١٩٥٨ م .

عذابـه وسجنه كان ضحية نزعتها السادية أو عبثها الماجن .

والنظرة الموضوعية في أمرها تكشف ان ما ورد عليها من الاتهام أكبر من الوقائع المذكورة وأضخم ، وهي لا تأذن بتأييد إذ الدلائل منقطعة .

ولعل كثيراً من الاستنتاج المعجل والتعميم رافق إطلاق الأحكام على هذه المرأة ولا يحسن إغفال شأن الشائعات في المجتمع ،وما يصيبها من التضخيم أو الاختراع ، ولا تفيد أخبارها سوى أنها كانت امرأة قوية الشخصية حسنة الثقافة والموهبة ، صناع في اكتساب قلوب الرجال ، ولكن ولادة عنيت بأن تكون مثالاً للفتاة الأندلسية التي أرادت شق الصفوف لتبرز للمجتمع ، ولعل سلوكيتها لا تفارق كثيراً ما كان لبنات جنسها في عصرها ، والظن أن شهرتها هو لاقتران اسمها بشاعر عربي كبير من شعراء عصرها ، فذاع من أمرها ما شاع ، ولولا ذلك لكان شأنها شأن المنسيات .

ولا يستطيع البحث ان يبني على الأخبار المنقطعة شيئاً معتمداً ما دامت النتائج تعوزها الحجج القاطعة . وخير من ذلك ان تستفاد الأحكام من الوقائع الثابتة التي احتواها شعر ابن زيدون ، فهي وحدها تسمح باستنتاجات أدنى للصواب ، وتقيد أو تغير كثيراً مما قيل في ولادة وفي كنه ما كان بينهما من تعاطف ، وما كان لها من دور في حبسه .

وقد أجمع القدماء والمحدثون على أن ابن زيدون أحب ولادة حباً عميقاً ، وأنه دخل السجن لما نشب بينه وبين أبي عامر بن عبدوس من المنافسة على قلبها ، وأن هذا الحب أضناه في سجنه وعذبه في هربه وتواريه ، وأنه فجر على لسانه قصائد عاطفية آية في الصدق والبلاغة ، فاكتسبت الخلود .

ويذكرون ان كلا من ابن زيدون وولادة توافقا على الحب ، واغتنما من الدهر صفاء ونعمياً ، ثم تحرك ابن عبدوس ليبتزها منه ، فأتحفه ابن زيدون بسخرية مميتة وهجاء مدمر في رسالته الهزلية المشهورة ، ولم يتراجع عنه خصمه حتى غيّبه في السجن إذ استطاع أن يتهمه عند الأمير اتهاماً خطيراً يشبه

الخيانة العظمى [1] ، وإذ ذاك خلا الميدان لابن عبدوس ، فواصلته ولادة ، فاتخذها خليلة حتى بلغا أرذل العمر .

والنظر في ديوان ابن زيدون وبخاصة غزله ـ نظرة شاملة دقيقة ، وتصنيف القصائد ، مما نظمه قبيل المحنة وفي الحبس ثم أثناء فراره ، يقود الى رأي يبدو للوهلة الأولى على شيء من الغرابة ، وهو أن حبه ولادة لا يكاد يكون له خطر ولا مضاعفات في نفس الشاعر أيام سجنه ، وأن الوقائع بينه وبينها تغاير ما ذكر في تسلسل الأحداث .

وأول ما يطلع به التحري أن آصرة الحب بدأ يتطرق إليها الوهن قبل تدخل ابن عبدوس ، وأن الصلة بينهما انبتت على أسوأ الحقد والجفاء قبيل سجنه ، وأن خصمه ابن عبدوس ،ظفر بولادة قبل حبسه لا بعده [2] .

وحق ما ذكره بعض الباحثين من « أنهما على تقاربهما في الميول والأهواء ـ كانا على أهبة للجفاء ، فكلاهما كان طاغي الشخصية عارم الغضب مندفعاً ، وهذه الصفات تجعل صاحبيهما متوازيين لا متكاملين [3] » .وهذا التعليل على ما فيه من الرجاحة يجب أن يقرن إلى مسببات أخر أوهنت الحب قبل أن يؤول غراماً .

ومن أظهر الأسباب نظرة ابن زيدون الى المرأة ومحلها من نفسه ومنزلتها الاجتماعية في رأيه ولو كانت المرأة ولادة ، فعلى ما أبدى لها من الرقة والصبوة في شعره وسلكوه ، كانت المرأة عنده لا تزيد أن تكون متعة صنو الخمر والقصف واللهو ، ولكنها من أبهج المتع وأعلقها بنفسه . وكان ابن زيدون رجل لذاذات ومسرات لا ينقطع عن طلبها شأن الغالبية في زمنه ، ومتى كان الرجل

(١) بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس : ١١٩ .

(٢) القصائد ما بين « ص ١٨٧ ـ ١٩٦ » تدل كلها على القطيعة بين العاشقين ، وأنها باتت قطيعة أشبه بالوحشة والاضطغان ، وذكر انها اشمتت به حساده وواصلتهم ، فكان يغيظها بأن وجد امرأة غيرها ، وليست هذه القصائد مما نظم في السجن ، فأشعار السجن معروفة ، وليست منظومة بعده لأن الشاعر انصرف عن ولادة بعد عودته الى الوزارة ، ولم تعرف لها صلات .

(٣) علي عبد العظيم ، مقدمة الديوان : ص ٣٧ .

ينظر الى الى المرأة نظرته تلك ويدانيها على ذاك الاعتبار لم تتغلغل في أعماقه وبقيت مع المتع والمسرات عائمة على سطح الشعور، وهي مطلوبة عنده ما طلب الاستمتاع، فإن زالت الدواعي ووقع الهجران لم يفجعه الفقد ولم تحرقه اللوعة، ولا أدل على ذلك من أن الشاعر لما رأى ولادة واصلت غيره ازدراها غير آسف، وتولى عن بقايا زاد شهي اطرحه لغيره، وما أكثر الزاد الشهي للكبار[1]، وكان يراها تافهة المقدار لا تزيد عن فعل يستجد الرجل منها ما شاء متى شاء[2]. وليس الشاعر يبدع في هذه النظرة فهو ابن عصر تباع وتشرى فيه أجمل الجواري الشاعرات المطربات المتأنفات بالمال، وكان الترف يغمر عموم الطبقات والانحلال والانحراف على حظ مؤذ من الانتشار، ومثل ذاك العصر لا يعطي المرأة اعتباراً ولا يجعل منها مطلباً كبيراً لانها كثيراً ما تلقى مبذولة ميسورة المنال.

وامرأة سليلة بيت خلافة، شهدت ثورة بلدها على أسرتها ثم وجدت من نفسها الجرأة ان تبرز للناس بأدب بارع وجمال رائع وتفتح نديها لرجال السياسة والأدب، وتنتخب من بينهم شاباً عزباً، مندفعاً قوي العارضة في الأدب، مكيناً عند الأمير وفي تدبير الدولة، يحسن بالباحث في أمرها ان يضع في حسابه إلى جانب ما أرادته من لهو واستمتاع بالحياة، أموراً أخرى قد تجول في

---

(١) قال ابن زيدون لها لما واصلت ابن عبدوس قبيل حبسه:

أكرم بولادة ذخرا لمدخر ... لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا: أبو عامر أضحى يلم بها ... قلت: الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا ... فيمن نحب، وما في ذاك من عار
أكل شهي أصبنا من أطايبه ... بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

الديوان: ص ١٩٦.

(٢) صدر هذا الرأي عن الشاعر في قصيدة هنأ بها المعتضد بن عباد بزواجه من إحدى بنات الأمراء بعد وفاة زوجه، فقال له:

هي والفقيدة كالأديم اخترته ... فقددت إذ خلق الشراك شراكا

« الديوان: ص ٤٣٨، ب ١٠ ».

نفوس أكثر النساء .

فمن الممكن الحدس أنها رأت في ابن زيدون فتى أحلامها ورغبت معه في حياة مستقرة نهايتها الزواج . ومن الممكن الظن أن هذه المرأة كانت على جانب من الدهاء فاختارت ابن زيدون سياسياً مقدماً لأغراض في نفسها ، وأعجبها منه طموحه وذكاؤه وغلواؤه ، فأرادت ان تكون من ورائه إذا سعى أن يكون رجل قرطبة الأول ، فترى أمجاد أسرتها قد عادت في ثياب رجل أحبته وشحذت من عزمه . ويقوي هذا الظن أمران ، أولهما ارتياب ابن جهور بابن زيدون ريبة اليقين ، وثانيتهما إشارة في شعر ابن زيدون رد فيها على ابن عبدوس زعماً زعمه أن ولادة أطلعته على أسرار خطيرة كان ابن زيدون أفضى بها إليها (١) .

وقد تكون هذه الأسرار افتراء او حقاً ، فالشعراء عراض الأماني والنساء سريعات التأثر والتصديق ، ومن العسير تمييز الحق من الباطل في حلقات الأوساط العليا في عهود موصومة بالدس ، مشحونة بالمؤامرات .

وكانت ولادة قلت الشاعر قلى حقيقياً ، ونفرت عنه راغبة عنه ، ولم تعد إليه أبدا (٢) ، بل نالته بأذى كثير وقذفته بهجاء محط (٣) .

---

(١) قال ابن زيدون من قصيدة تهدد بها ابن عبدوس لما غلبه على ولادة قبيل النكبة :

ونبئتها بعدي استحمدت   بسري إليك لمعنى غمض

(الديوان : ص ٥٨٢ ، ب ٢٩) قال شارح الديوان : « بلغني أنها توددت إليك أن باحت لك بأسراري لغرض تخفيه في نفسها » .

(٢) قال علي عبد العظيم في مقدمة الديوان (ص ٣٨) : « ولما عفا عنه الأمير وعاد إلى قرطبة بالغ في التودد إليها ، ويظهر أنها عادت معه إلى مودتها السابقة ولكن إلى حين ، فقد انصرفت عنه بقية الحياة ، وإن كان حبه لها ظل يعتلج في حنايا صدره ، ويتردد في ألحان شعره زهاء ثلاثين عاماً حتى طوته المنون » . قلت : هذا ـ الحكم في عمومه وشموله يعوزه الدليل العلمي . والنظرة التصنيفية لقصائد الغزل كما أشرنا لا تؤيد هذا الرأي ، وإنها تدعم ما قررناه .

(٣) انظر هذا الهجاء في « نفح الطيب : ٤/٢٠٥ ـ ٢٠٦ » .

ومن المستبعد ان يكون ثراء ابن عبدوس أغرى ولادة بهجر ابن زيدون ، فما كان للشاعر من الجاه والأدب والمنصب لا ينهض له ثراء ابن عبدوس ومحله في البلاط . والأرجح انها واصلت ابن عبدوس مكايدة لابن زيدون لا إعجاباً بشخصه ولا طمعاً بماله ، فتنكرت نعاشقها قبل أن ينجح خصومه في إلقائه في السجن بأمد . ولعلها مكنت ابن عبدوس من مقاتله ، وأغرته به ، وأفضت إليه بما أوهمت أنه لمن أسراره .

ومن المستبعد ان يكون الهجران ناجماً من زهوها بنفسها وشموخها إشباعاً لنهمها السادي بتحطيم قلب شاعرها كما ظن بعض الباحثين .

والدليل على ذلك ان ابن زيدون لم يعش قبل سجنه أو أثناءه في شيء من عذاب الحب ، ولم يأسف على ولادة لما أزمعت هجراً ،واستحدث علاقة بسواها (١) ، ولم يبق مفر من النظر في الأمر من زاوية أخرى وهو موقف الشاعر العاشق من ولادة ، ورأيها فيه . وهذا الموقف يمكن روزه إذا استحضر الذهن طبيعة بن زيدون الباحثة عن المتعة ، ونظرته الى المرأة (٢) ، ولا شك ان ولادة صدمت ابن زيدون صدمة محطمة عندما اكتشفت فيه رجلاً متمركزاً حول ذاته ، محباً لنفسه ، يستمتع بها تشمم الزهرة يعب عبيرها . ولا تنال منه غير رجع أنفاسه فلم يدخلها أغوار قلبه أبدا ، وما كان قادراً ـ وهو على ما هو عليه من الطول والترف والغرور ـ أن يعمق إحساسه بالحب ، فلم يحط بكنه

---

(١) أرسل إليها قبيل النكبة بهذه الأبيات :

قد علقنا سواك علقا نفيسا ... وصرفنا اليه عنك النفوسا
ولبسنا الجديد من خلع الحب ولم نأل ان خلعنا اللبيسا
ليس منك الهوى ولا أنت منه ... اهبطي مصر أنت من قوم موسى

(الديوان : ص ١٩٥) ورماها في البيت الأخير بأنها مثل قوم موسى لا تصبر على طعام واحد .

(٢) انظر ص ٢٧٢ من هذا البحث .

هذه المرأة التي تريد موازاة في الشعور ، وتغلغلاً في أعماق النفس ، وتمكناً ، فإن المرأة لا تطمئن حتى تسيطر .

فكان بينهما خلاف كثيراً ما حاول إزالتـه بالاعتـذار [1] ، فلا يلبث حتى ينشب لأن العلة الموجبة لم تنتف ، وتصاعد مرة الى الضرب فتناولها بيده [2] ، وإذا كانت المشادة بينهما بالغـة هذا العنف فـإن طريق التقـدم الى التعمق في الحب أصبحت مسـدودة ، ولم يبق لولادة إلا أن تتـراجع كلمـا تشامـخ عليهـا غروره .

وفي فورة من فورات الغرور الطائشة قذف عرض الحائط بكل ما كان من الممكن استبقاؤ ه من المودة بينهما ، وذلك عندما كتب رسالته الهزلية على لسان ولادة إلى ابن عبـدوس وقد زعم أنـه أرسل جـاريته تستميلهـا إليه ، وفي هـذه الرسالة أصاب ابن زيـدون نصراً ومني بخسـارة ، أما النصـر فقد أشبـع صلفه وتعاليه باستهزائه الممض بخصمه وبتحقيره وبتعفيره ، وبإعلاء أدبه ، وبالتطاول بمقدرته في النثر ، وإظهار ثقافته الجامعة ومحفـوظه الثـر ، فشغل النـاس بفنه فأرضى نفسه المتعالية ، ومزق عدوه وجعل منه ندرة المتندرين ، وأما الخسارة فكانت أكبر من النصر بكثير إذا كان الشاعر ممن يعز عليه ان يفقد امرأة زعم أنه أحبها .

فالرسـالة وإن أظهـرت ولادة غيوراً على الشـاعر وصحبتـه ـ شهرت بهـا أضعاف ما شهرت بابن عبدوس فالرجل لا يعاب إذا خطب ود النسـاء ، ولكن عار المرأة ان تبدو سلعة رخيصة يطمع فيها كل راغب ، وتتأبى هي عليـه تأبي البغي في حوزتها من يكفيها ، وقد هتكت هذه الرسالة ستر ولادة وأخرجت منها امرأة سهلة المنال تطمع فيها القوادات ، ويرغب فيها الرجال للذة العابرة .

---

(١) انظر أشعاره في الديوان : ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .

(٢) انظر اعتذاره اليها من ضربه لها في الديوان : ٪ ١٧٥ .

وإذا وزن ما أجرى على لسانها من الكلام لوجد أنه أشبع نفسه غروراً واعتداداً بما أطرى من شبابه وجماله وقوته وأدبه ، وأهان محبوبته بما نعتها به من التهالك على اللذة والاستمساك بالشاعر لقدرته على إرضاء رغباتها الجسدية والنفسية. ولم تحطم هذه الرسالة كل ما شاده العاشقان من الوصال والرجاء فحسب وإنما أضرمت ولادة حقداً على ابن زيدون فاستبعدته من حياتها، وباتت له عدوا وظهيرا لأعدائه عليه. ومثل هذا الموقف لا يجعلها متحرجة من الانتقام منه بالافتراء عليه .

ويستشم من سياقة أخبار المؤرخين أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة والود بينه وبين ولادة غير مقطوع . ولكن المنطق لا يقبل أن يعمي الغرور ابن زيدون عمى لا يحفظ معه كرامة محبوبته، وأن يكون في موقف الجاهل لمضمون الرسالة وإيماءاتها وقد كد الذهن في صياغتها، وتخير العبارات والإشارات، وهو الأديب الأريب لا تخفى عليه اللمحة، ولا يغلبه اللفظ على الغرض، وأكبر الظن أن الشاعر استهدف ابن عبدوس وولادة بسهم واحد عمدا من غير سهو بعد أن تحالفا عليه، وبعض القرائن الفنية تؤيد هذا الرأي[1] . فإن صح ذلك فمناسبة الرسالة من إرسال ابن عبدوس وصيفته إلى ولادة لتزين لها مواصلته لا أساس لها من الحقيقة. والحادثة من اختراع ابن زيدون ليصل إلى ما أراد من التشهير بهما معا، وما هذا عن أساليب الشعراء ببعيد .

---

(١) أقوى هذه القرائن بتهديده ابن عبدوس بقصيدة مطلعها:

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ونبهته إذ هدا فاغتمض

وفيها ينهى ابن عبدوس عن معاداته، ويحذره العاقبة، ويذكره بره به وإحسانه إليه ، وينصحه بالكف قبل أن يناله منه شيء غير العتاب، ويعرض به وبولادة التي واصلته تعريضاً شديداً، ويطلب منه إخبارها بأنه اعتاض خيراً منها ، ويهنئه هازئاً بما ترك الشاعر منها له (الديوان ص ٥٨٢) ولو كانت هذه القصيدة بعد الرسالة الهزلية لما كان بهذا العتاب والتحذير أي معنى ، لأن تلك الرسالة أجهزت على ابن عبدوس، فهي لا شك قبلها. وفي هذا الدليل على أن ولادة قاطعت الشاعر ومالت إلى خصمه قبل سجنه عندما اشتد خصومه في التدبير عليه لإخراجه من الحكم وزجه في السجن .

وموجز ما تقدم أن ولاّدة لا يستعظم دورها في حبس ابن زيدون، وأن الحب لم يتسبب فيه، وإن كان خصومه استفادوا من الجفوة بينهما، فغلبوه عليها، واستعانوا بها في التشنيع عليه .

وأعظم الأسباب بلا مراء حسد الحاشية الشاعر، وتضايقهم من نبوغه ، وتأذيهم من عنفه فيّ الرد عليهم، فاستطاعوا تقليص نفوذه بإبعاده عن ثقة الأمير[١] ، ثم اتهموه في وقت مبكر بأمر عظيم[٢]. وكان على جانب من الاغترار فخسر المعركة ، ولم يقدر أبعادها الحقيقية[٣].

ومن الجدير بالذكر أنه حوكم في تهمة لا تمت إلى السياسة بصلة، ولم يكن لديهم دلائل إدانة، فكانت المحاكمة واضحة البهتان وتغطية على الغرض الحقيقي وهو الإساءة إلى أمانة الرجل وعدالته، فالاتهام في المخالفات السياسية لا يحط من قدره عند العامة، وقد يجد له أنصاراً وأعذاراً[٤].

ويبدو أن ابن زيدون فجأه الحبس مفاجأة في أعقاب المحاكمة، وأحس بخذلان الأمير له والإجحاف به، فاغتلى غضباً وموجدة، ونفث السم في وجه

---

(١) أشار إشارة إلى تمكن خصومه من أذن أميره ، وتجافيه عنه في قصيدة بائية استعطفه وعاتبه بها قبل النكبة وسأله إنصافه منهم . «الديوان: ص ٣٦٦».

(٢) يرى المستشرق كور أنه اتهم بإعانة الأمويين على استعادة الخلافة(الأعلام) ، وهو رأي بطرس البستاني أيضاً في «أدباء العرب في الأندلس : ١١٩» ، ولمح الشاعر إليها ونفاها عن نفسه «الديوان : ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩».

(٣) اعترف الشاعر بما كان عليه من الغرور ومجانية الحذر أول مرة في قصيدة أرسل بها وهو هارب من السجن إلى أحد أساتذته ، فقال :

وما كان ظني أن تغرر بي المنى ... وللغر في العشواء من ظنه ضبط

«الديوان : ص ٢٨٥ ، ب ٢٤).

(٤) اتهم الشاعر باغتصاب عقار كان مؤتمناً عليه . انظر التهمة والمحاكمة والدفاع في رسالته إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد النحوي في «الديوان : ص ٧١٨»

ابن جهور[1] . ولما ضبط من نفسه قليلاً صرف ثائرته عن الأمير إلى أعدائه المغترين المدبرين عليه ، فتهددهم وهو في أعماق السجن[2] ، فبالغوا في إيذائه[3] ، ولم ييأس من التعويل على استعادة ثقة السلطان به ، وكثيراً ما دعاه إلى تجديد أسباب المودة وإلى إصلاح ما أفسده المغرضون[4] .

وكان كلما تمادى إهماله لهورهقه الحبس أغرق في مدحه، وتلطف إليه ببديع القول مشعراً الأمير من طرف خفي بأنه هو الذي توخى نكبة شاعره[4] .

---

(١) يشهد بذلك أبيات قذف لسانه بها أول حبسه :

قل للوزير: ـ وقد قطعت بمدحه ... زمني ، فكان السجن منه ثوابي ـ
لا تخش لائمتي بما قد جئته ... من ذاك في، ولاتوق عتابي
لم تخط في أمري الصواب موفقاً ... هذا جزاء الشاعر الكذاب

«الديوان ص ٥٩١».

(٢) قال من قصيدة من المخمسات يتشوق لقرطبة وهو في حبسها:

خليلي إن أجزع فقد وضح العذر
وإن أستطع صبراً فمن شيمتي الصبر
وإن يك رزءاً ما أصاب به الدهر
ففي يومنا خمر ، وفي غده أمر
ولا عجب أن الكريم مرزأ

«الديوان: ١٣٢/٩ ، تخميس ٢».

(٣) حشروه مع المجرمين والسفلة في السجن بعد أن كان في حبس للخاصة . انظر رسالته إلى استاذه أبي بكر في الديوان ص ٧٣٣.

(٤) كان يمدحه مدحاً يدل على تغاضيه عنه، فقال له وهو مسجون :

ما للذنوب التي جاني كبائرها ... غيري يحملني أوزارها وزري
قد كنت أحسبني والنجم في قرن ... ففيم أصبحت منحطاً إلى العفر

وقال له في هذه القصيدة: إني أسألك ما أنت عليه قادر، فكأنه يقول له :

أنت الذي دبرت حبسي (الديوان: ص ٢٥٠) وانظر حبسيته التي مطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجوم ... والمنى في هبوب ذاك النسيم

«الديوان: ص ٢٧٨ ، ب ١٧ ـ ٢٣».

وحبر فيه نفائس الشعر والنثر كأنه يتشفع بملكته إلى أميره[1] . ولعل الأدب كان وسيلته الوحيدة في وجه خصومه العاجزين عن مجاراته في هذا المضمار، غير أنه لم ينتفع به، فالسلطان قل أن يعبأ بالقول الجميل إذ رابه الولاء.

وكان يتطلع إلى الفرج في كل يوم، ولما أيأسه ابن جهور من رضاه احتال لنفسه ففر من السجن ومن قرطبة إلى اشبيلية ، ثم عاد إليها واستخفى فيها يتلمس الشفاعة والعفو، فلأياً وافاه مراده قبيل موت أبي الحزم بن جهور، واحتضنه ابنه أبو الوليد،وكان للشاعر صديقا من قبل، وأصلح حاله وأعاده إلى الوزارة بعد وفاة أبيه . ويبدو أن أبا الوليد لم تكن لديه قناعة بما اتهم ابن زيدون عند والده .

وكان شقاء ابن زيدون وقلقه النفسي فارا كما كان سجينا [2] . ومما يلفت النظر أن صوت الحب دوى عارماً أثناء اختفائه ، وأنه نظم قصائد الشوق اللافح ، في ولادة وهو هارب، يستعيدها إليه بعد أن تدابرا على أمض العداء قبل النكبة على حين لم يراسلها من سجنه، ولم يتشوق إليها ، ولم يكن لها في حبسياته كبير ذكر[3] . فكيف تيقظ الحب فجأة ينضح بالألم، ولم يكن أيام

---

(١) انظر لأميته المشهورة التي مطلعها:

ألم يأن أن يبكي الفحام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلت النصل

(الديوان ص ٢٦١ ، ب ٥ـ ٢٩) . واستفرغ في رسالته الجدية أطرف ما يرضي أدباء عصره من النثر الزاخر بالإشارات العلمية المتنوعة(الديوان ص ٦٨٠ ـ ٧١٧) .

(٢) لا فرق في نظر البحث بين الحبيس والفار من الحبس: فكلاهما يعاني أزمة واحدة، ولعل الثاني أشد قلقاً وأعظم خوفاً من الأول .

(٣) لا نجد له في الحبس غزلاً إلا أبياتاً قدم بها لإحدى قصائد المدح في ابن جهور وهذه المقدمة الغزلية مضطرمة الوجد، ولكن ليس بولادة التي لم يرد لها ذكر فيها أو إشارة إليها، ولكن إلى كل ما حرم منه الشاعر كما سيأتي توضيحه. انظر القصيدة في الديوان ص ٢٥٠ .

الوصال حباً معذباً بل كان ـ كما تبين ـ فيه البلوغ والمتعة .

إن المواقف العاطفية التي تتميز بالصدق والعمق يجب البحث عنهـا في الحوافز الخفية . والعودة إلى غـزلياتـه في ولادة أيام فـراره وتواريـه من جهة، وتقدير الظرف النفسي الذي عاناه من جهة ثانية فيها أكبر العون على استكشاف المعنى الحقيقي للشوق المشبوب .

وأظهر ما في هذا الغزل ـ على تعرفه ما بينهما من الجفاء ـ مناشدته ايـاها مناشدة حارة في العودة إليه إرغاماً لحاسـديه[1] ، ورفـع ولادة إلى سدة عـالية ومخاطبتها من عتبة خفيضة مثل وقوفه بين يدي سلطان يستعطفه ، وهـو موقف جديد من الشاعر[2] .

---

(١) اعترف بالتجافي في مطلع النونية المشهورة :

أضحى التنـائي بـديـلاً من تـدانينـا ... ونـاب عن طيب لقيـاكم تجـافينـا

وكان يدعوها لإصلاح موقفها منه لتدرأ عنه شماتة الأعداء وإرجافهم به :

يـا ليت شعري ولم نعتب أعـاديكم ... هـل نـال حـظا من العتبى أعـادينـا
لم نعتقـد بعـدكم إلا الـوفـاء لكم ... رأيـا ولـم نـتـقـلد غـيـره دينـا
مـا حقنـا أن تقـروا عين ذي حسـد ... بنـا ولا أن تقـروا كـاشحـاً فينـا

(الديوان: ص ١٤١ ، ب ٨ ـ ١٠) وكان يشعر أن انقطاعها إليه يكبت أعداءه ، وينزع من يدهم سلاحاً، فقال لها من قصيدة أثناء اختفائه على الأرجح :

وأعـجـب كـيـف يـغـلبـنـي عـدو ... رضـاك عـليـه من أمـضى سـلاح
فلو أسـطيـع طـرت إليـك شـوقـا ... وكيف يـطير مقصـوص الجنـاح

« الديوان: ص ١٤٨ ، ب ٥ و٨»

(٢) قال لولادة :

ربـيـب مـلك كـأن الله أنـشـأه ... مسكـا وقـدر إنشـاء الـورى طينـا
كـانت لـه الشمس ظئـراً في أكنتـه ... بـل مـا تجلى لهـا إلا أحـايينـا
مـاضـر أن لم نكن أكفاءه شـرفـا ... وفي المـودة كـاف من تكـافينـا
لسنـا نسميـك إجـلالاً وتكـرمـة ... وقـدرك المعتلي عن ذاك يغـنينـا
أمـا هـواك فـلم نعـدل بـمنهـلـه ... شـربا، وإن كـان يـروينـا فيـظمينـا =

وكان ابن زيدون يعاني حالة نفسية أوجز وصف لها هو الحرمان . وهو حرمان شامل كل ما حوى ماضيه من أحبة وإخوان وجاه وأمن ومتع . فكان يرى نفسه كالمنبت من أصوله، وبه جموح إلى العودة إلى حاله الأولى، ولذلك حرم الهناءة على ما كان له من اليسار لأن أسباب سعادته الحقيقية هي أن يبني ما نقض عليه أعداؤه وكان الحبيب من جملة ما أفسدوه عليه، فأحب عودته إليه لأنه جزء من ذلك الماضي، وبه تطيف أعذب الذكريات . وفي مثل هذه المواقف تستقطب النفس حول جزء من الماضي لتجعل منه رمزاً ومدارا للماضي كله، فحنينها إليه وتشبثها به تشبث وحنين إلى كل ما في ماضيها. ويزداد الوصال النفسي لذلك الرمز بتطاول أمد الحرمان. وكانت هذه الحال أول سانحة شحنت الشاعر بألم عظيم(١) .

ومن الأدلة على هذا التعليل أن ابن زيدون كان يعاني شعوراً بالاضطهاد، وليس العشق ما كان يؤلمه ، وإنما رد الاعتبار، فهو سجين هارب، مطارد ، مغدور، مسلوب الحبيبة والوزارة ، تآمرت عليه قوى كثيرة، فكان أهم ما في الأمر عنده مسألة رد اعتباره إليه، وكان من ظنه أن ولادة لو رجعت إليه وتخلت عن ابن عبدوس لفعلت شيئاً كبيراً له(٢) . فحبه لها في حقيقته حب لماضيه

= لم نجف أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه، ولم نهجره قالينا

«المصدر نفسه» .

(١) وهو شرط الصدق والتفوق الذي ميز غزله في تلك الفترة، وتفيض نونيته بالألم العظيم :

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه	وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
نأسىٰ عليك إذا حثت مشعشعة	فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا	سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
عليك منا سلام الله ما بقيت	صبابة بك نخفيها فتخفينا

«الديوان: ص ١٤٧»

(٢) كان يناشدها بما ليس في طباع أمثالها من النساء:

دومي على العهد ما دمنا محافظة فالحر من دان إنصافا كما دينا =

ولمجده المغتصب وللوزارة .

ذلك أن ابن زيدون ـ كما سبق بيانه ـ كان عنيفاً، حاد الانفعال، مشتعل التأثر، محباً لذاته ، يتحرق لما يريد، ويشعر بالاضطهاد وبالضياع إذا لم ينل مبتغاه(١) .

وكثير ممن علا صوتهم في الحب كان عشقهم لأنفسهم، وتمركزهم حول ذواتهم ، ودفاعاً عن كرامتهم أن يصيروا مجفوّين غيرمرغوب فيهم ممن كانوا معهم . وإن الهزيمة أو القهر أو الإخفاق قد يتخذ أشكالاً من ردود الفعل الحركي أو العاطفي ، وأساليب وصوراً مختلفة من التعبير عن حقيقة الحافز الخفي ـ وتلك عملية من عمليات تمويه النفس على النفس، فتتظلم إلى المحبوب منه . وقد يكون الظلم الحقيقي من غير جهته والشكوى أوجع من قضية امرأة هجرت .

ولذلك توقف الغزل اللاهب حين زالت أسباب النكبة، ورجع إلى الوزارة ، وكأن ولادة لم تكن في حياته. ولم تستأنف له علاقة بها .

لقد أدخل التاريخ حب ابن زيدون في قصة سجنه، وأعطاها حيزا حسناً فيها ، وكشف التحري والتحقيق أن هذا الحب كان ضعيف الدور، فهي سياسية خالصة، ومؤامرة من مؤامرات البلاط المعهودة، وإن ألهب الحب حناياه ففي حقبة الفرار من السجن والقلق في الأرض لما فصل من الأسباب .

= أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
«المصدر نفسه»

(١) بدأ إحدى حبسياته بهذه الأبيات :
ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتماً لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي
ولو أنصفتني وهي أشكال همتي لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلي
(الديوان: ص ٢٦١) . والتتل ضرب من الطيب .

الحاجري

وتقرى الأحداث والتراجم يثبت أن خلقية التآمر والدس كانت صباغا عاماً في حياة القصور في الممالك الكبيرة والصغيرة على حد سواء، لا فرق بين كبار الشعراء وصغارهم في ذلك، والمتقدم والمتأخر منهم .

وعندما تكون التهمة واضحة ـ حقاً أو باطلاً ـ لا تلبث الأسباب الصحيحة أن تنجلي ، أما إذا كانت خفية، ولم يقدم ديوان الشاعر إشارات مبينة، فالاعتماد على الحدس لا ينتهي إلى اطمئنان .

والشاعر الحاجري من الذين وقف تاريخ الأدب في قضية حبسهم، فلم يشهر السبب الصراح . وهو من شعراء المائة السابعة عاش في أربل عند أميرها وفيها سجن ولقي حتفه(١) . وزاره ابن خلكان في حبسه، ولم يشأ التصريح بسبب سجنه وإن كان به عارفاً(٢) . وديوانه يقدم منه شاعراً يختلط بطبقة الحكام مادحاً ، ويعيش على موائدهم ، ويطوف بشعره على الأمراء وأولي القوة. ويظهر أنه كان يأخذ معهم فيما يأخذون من اللهو والفسق والاغتياب والهمز واللمز . وخلقت له هذه المخالطة أعداء كما ينشأ بين هؤلاء من التحزب

---

(١) هو عيسى بن سنجر الإربلي الحاجري ، تركي الأصل، وهاجر من بلاد الحجاز، ونسب اليها لكثرة ذكره لها في شعره ، ولم يكن منها ، واغتيل في اربل سنة ٦٣٢ هـ وعمره خمسون عاماً(ابن خلكان: ١٦٩/٣) ولا يدرى إن كان ابن سعيد ترجم له في «الغصون اليانعة في محاسن المائة لأن المطبوع منها يتوقف عند وفيات ٦٠٥ هـ وصاحب إربل الأمير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك علي، وقال فيها ياقوت : «قلعة حصينة ومدينة كبيرة بين الزابين، تعد من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين . . وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل . . . » معجم البلدان: إربل .

(٢) قال ابن خلكان : «وكنت خرجت من إربل في أواخر شهر رمضان سنة ستة وعشرين وستمائة وهو معتقل بقلعتها لأمر يطول شرحه» (الوفيات : ١٦٩/٣) ولعل ابن خلكان أعرض عن ذكر الأسباب مداراة لحكام البلد واحتياطاً لنفسه .

والتباغض والنميمة. فاستاء منه أحد الأمراء، ورماه عند السلطان بأمر عظيم لم ينقذه منه الاستعطاف ، فأبعده إلى قلعة نائية مكبلاً محروماً من أهله ، ثم رده إلى قلعة إربل مسجوناً ، وفيها اغتيل [1] .

ولا تعرف التهمة على حقيقتها، وكانت شديدة الإيذاء اعتدت عليه من الكبائر وأورثته الشقاء والموت . ولعلها كانت تهمة أخلاقية عرض فيها بولد الحاكم[2] . أما الشاعر فكان يعتدها من سقطات اللسان ، وأن ليس في قلبه إلا الوفاء، وأن أعداءه زوروا عليه باطلا[3] . وكانوا كثرا أقوياء فلم ينج منهم[4] .

---

(١) كان السبب في قتله الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين بن قرطاي، وكان الحاجري من قبل له مادحاً (ديوان الحاجري: ص ٣ مصر ١٢٨٠ هـ) . وأبعد إلى قلعة حفتيدكان، وذكرها ابن خلكان والحاجري في شعره :

من لمرعوب طليق الدمع مأسور الجنان
دائم الحزن فريد في أعالي حفتيان

(ديوانه: ص ٧٢) وكان اعتقاله فيها مثار ألمه وأشواقه :

قيد أكابده وسجن ضيق ... يا رب شاب من الهموم المفرق
يا برق إن جزت الديار بإربل ... وعلا عليك من التداني روني
بلغ تحية نازح حسراته ... أبدا بأذيال الصبا تتعلق

«ديوانه: ص ٧١ ، ب ١ و٣ ـ ٤ »

(٢) جاء في الديوان تقدمة لإحدى القصائد: «قال رحمه الله تعالى يمدح الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين بن قبطاي بإربل، وهو الذي كان السبب في قتله حيث تعرضه عند مظفر الدين صاحب إربل، وذكر أنه أخذ ولده بالشعر. «ديوانه : ص ٣»

(٣) قال لصاحب إربل وهو مسجون :

مولاي أشفيت العدا بجفاك لي ... سل قلبك القاسي علي أما اشتفى
بلغ الوشاة مناهم بالسعي بي ... ولقد وشوا زوراً إليك وزخرفا
قالوا سفاها قد هفوت بزلة ... لم لا ألام ولي لسان قد هفا
لا تتهمني في هواك بزلة ... ما كان لي ذنب إليك سوى الوفا

«ديوانه: ص ٧٠ ، ب ٤ ـ ٧»

(٤) قال من ثلاثة أبيات :

بليت بكاشح ما منه بد ... وربع فيه سجان وأسر =

وكان يستدعي الرثاء حقاً بين يدي أميره، في موقف هو صورة مجسمة لاستعباد الإنسان وسقوط كرامته حيث يبسط السلطان جبروته والمواطن متخضع إلى أرذل الذل(١) .

وكان الشاعر يعلم ، وهو في هذا الموقف الضنك ، أنه أذل من على الأرض(٢)، وأن عصره قهر الشر فيه الخير وفسدت فيه القيم والأحوال(٣) ، وأن الضعيف مقطوع مأكول(٤) .

= كأني يونس والربع حوت ومن حولي - وقيت الشر - بحر
«ديوانه: ص ٧١».

(١) تضرع إلى السلطان بعشرة أبيات منها :

هبْ لي إساءة مازلت به القدم في العفو تطمع في ساداتها الخدم
هب المسيء جزاء عن إساءته فرط الندامة إذ لا ينفع الندم
فإن قتلت فعبد أنت مالكه وإن مننت فتلك العاد والشيم

« ديوانه : ٧٣ » .

(٢) قال في مطلع قصيدة :

وارحمتا لعزيز في السجن أضحى ذليلا
حليف وجد يعاني أسراً وقيداً ثقيلاً

« ديوانه : ص ٧١ » وقال :

تبا لدهر أصابت لحالنا منه شين

« المصدر نفسه ؛ ص ٧٠ » .

(٣) جاء في إحدى حبسياته آخر بيت فيها :

حكمت فينا بما تختار أولاد الزواني

« ديوانه ص ٧٢ » .

(٤) هذا الشعور واضح في قوله :

إن في السجن مستهاماً أسيراً قل أعوانه وزاد عناه
كلما قصر التباعد فيما ناله طال في الظلام بكاه

« المصدر نفسه : ص ٧٢ » .

ولا يعدو الحاجري أن يكون ضحية من عديد الضحايا التي قضت في ظلمات السجون ، ولم تستطع أن تناضل في وجه الاتهام والاستبداد الطاغي .

المنكوبون بالتبعية :

ومن تمام البحث الإشارة إلى الشعراء الذين ذاقوا من ويلات المؤامرات . ولم يكونوا ضالعين فيها ، ولكن تبعيتهم لبعض الأمراء أو الوزراء وعملهم بين أيديهم أشركهم لما نكبوا في مصائرهم . ومنهم من قضى في السجن بضع سنين مثل أبي إسحاق الصابي في المائة الرابعة(1) ، وكان في عمل الوزير المهلبي ، فلما توفي وسما أعداؤه إلى منصبه أخذ أبو إسحاق مع من أخذ من كتاب الدواوين ، وجرى أن كان عضد الدولة بن بويه عليه متغيظاً ، ولم يكن الصابي مسيئاً إليه ، وإنما كان عمله في الديوان يضعه مع أعداء عضد الدولة(2) .

فلما احتل الأخير بغداد أطال سجنه، وتقرب إليه أبو إسحاق بكثير من الشعر المؤثر(3) ، ولم يطلقه حتى سامه تأليف كتاب في أمجاد بني بويه(4) ، وحتى جهد الخلص من أصدقائه في سل سخيمة السلطان عليه(5) .

وفي المائة السادسة أخذ المهذّب الغساني بجريرة أخيه الرشيد ، واستطاع

---

(1) هو إبراهيم بن هلال الحراني (٣١٣ - ٣٨٤) كان ينوب عن الوزير المهلبي في ديوان الإنشاء ، انظر « معجم الأدباء : ٣٢٧/١ » .

(2) « نقم عضد الدولة عليه أشياء من مكتوباته عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار فحبسه ، فسُئل فيه وعرف بفضله ، وقيل : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان في خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة في نصحه ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك ، إذا استخدمه ، في أبيه ما أمكنه المخالفة » . معجم الأدباء ٣٢٤/١ .

(3) انظر الشعر في المصدر نفسه : ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(4) ألف كتاب التاجي في أخبار بني بويه وكان شرط تسريحه ، أنظر المصدر نفسه ٣٢٥ .

(5) أنظر معجم الأدباء : ٣٣٥/١ .

شعره أن يشفع له[١] .

ولكن التبعية أحياناً كانت قاتلة ، وهي التي حبست الطفرائي ثم أجهزت عليه[٢] .

المقالة الثانية

السجن في الخيانة والخروج على القانون

الخيانة والسرقة :

ومما يدخل في هذا الباب اختلاس الأموال ، فهو ضرب من خيانة الدولة والتآمر عليها ، وكان الخليفة الثاني في صدر الإسلام كثير التنبه لتزايد أموال عماله ، فأكثر من محاسبتهم ، واستن طريقة المقاسمة لثرواتهم[٣] .

ولم تمض على مقتل علي بن أبي طالب مدة كبيرة حتى كثرت الشكوى من الولاة والأمراء، وندد بهم الشعراء، وبما أثروا لأنفسهم من مال غير مستودع[٤] .

---

(١) هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير من أسوان مصر . كان شاعراً فاضلاً لا مشاركة له في السياسة ، وكان أخوه الرشيد ضالعاً فيها . وقبض على أخيه وقتل ، ولحقته الظنة فحبس مدة أكثر فيها من التوسل بالشعر للمسؤولين : أنظر معجم الأدباء : ٢/١٦١ ، وخريدة القصر : ١/٢٠٤ .

(٢) هو الحسين بن علي بن محمد ولد بأصبهان ، وكان اتصاله بالسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل، وكان إلى جانبه في الخصومة بينه وبين أخيه . وأسر الطفرائي في إحدى المعارك بين الأخوين ، واستؤني به قليلاً ثم قتل . انظر معجم الأدباء : ٤/٥٢ ، وقصائده في ديوانه : ص ٢٧ و٦٣ و٦٩ و٧٣ ، طبعة الجوائب ١٣٠٠هـ .

(٣) أنظر الجباية في الشام : ص ٤٤ ، محمد كرد علي ، محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الأول ١٩٢٥م .

(٤) رفع عبد الله بن همام السلولي إلى عبد الله بن الزبير قصيدة طويلة ذكر فيها الولاة والعمال بأسمائهم في بلاد الرافدين وأصبهان ، واتهمهم جميعاً بالسرقة ، وأغراه بهم وبأخذه بالشدة ، وقال في آخرها : =

ونشطت نفاسة الولاة بعضهم على بعض فيما احتجنوا من مال المسلمين منذ وقت مبكر[١]،فحبس اللاحق السابق ،ثم أرهق بعضهم بعضاً بالعذاب[٢] وكان الولاة وعمالهم يذيقون المكلفين بالضرائب أبشع النكال لاستخراج ما عندهم ، وكان بعض الخلفاء يأمر بذلك[٣] حتى تعطلت المصالح وفسدت أحوال الزراعة وعم الخراب لكثرة المظالم والابتزاز[٤] ويكشف الاطلاع على طريقة تضمين اقاليم لقاء مبالغ مقطوعة ، وعلى المبالغ الضخمة التي كان يصادر عليها الضامنون والوزراء ، عن صور مفرغة من الاختلاس والسلب[٥] . وصارت العواقب الوخيمة التي تنتظر من يتولى الخراج مألوفة مشهورة[٦] . فكان بعض الراغبين

= كانوا أتونا رجالاً لا ركاب لهم ... فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل
لن يعتبوك ولمّا يعل هامتهم ... ضرب السياط وشد بعد في الحجل
إن السياط إذا غضت غواربهم ... أبدوا ذخائر من مال ومن حلل

(أنساب الأشراف : ٥/١٩٣) والحجل جمع حجل وهو القيد .

(١) يقال إن أول من حبس على المال والي البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر في خلافة ابن الزبير ، حبس عبد الله بن الحارث وطالبه . أنظر المصدر نفسه٥/٢٧٧ .

(٢) ذكرت صور لهذا العذاب في الحديث عن تعذيب السجناء . وأنظر على سبيل المثال صنيع الحجاج بيزيد بن المهلب (الأغاني : ١١/٩٨) ومحمد بن عبد الملك الزيات بالمطالبين (ابن خلكان : ٤/١٨٧) .

(٣) قال سليمان بن عبد الملك لعامله أسامة بن زيد على مصر : « احلب حتى ينفيك الدم ، فإذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح ، لا تبقها لأحد بعدي ، فعمل أسامة في مصر أعمالاً جائرة حتى استخرج من أهلها اثني عشر ألف ألف دينار » الجباية في الشام : ص ٤٧ .

(٤) أنظر المسعودي في التنبيه والإشراف : ص ٣٦ .

(٥) في تحفة الأمراء للصابي الكثير من هذه الصور . أنظر مثلاً ص ١٢ ـ ١٥ .

(٦) ثبتت صور تعذيب عمال الخراج في أذهان الناس ، ولما سجن أبو دلامة شاعر المنصور قال :

أقاد إلى السجون بغير جرم ... كأني بعض عمال الخراج

« الأغاني : ٩/١٢٣ ».

في عمل الدولة يفرون من عمل الخراج لما يرون من تعذيب أصحابه[1] . وكثيراً ما كانت أجهزة الحكم مسرحاً لكبار المختلسين ومرتعاً للمنتفعين[2] .

وكان يستحثهم إلى السرقة الترف ، والاستكثار من زخارف الحياة ، وتكاليف الملذات وكان الذين يعيشون في البلاط ويعملون من إداريين وخدم وعبيد أكثر حرصاً على الفائدة . وعرف مما سبق ما كان لكبار المسؤولين من نهب[3] . وليس فيهم شاعر منقطع إلى الشعر وإنما يقولونه على ندرة في حومة مهامهم ومسؤولياتهم ، ويستكثرون منه في نكباتهم . ويعتبر نصيب الأصفر شاعر بني العباس الرجل الوحيد الذي حبس في سرقة مال ولم يعرف بغير الشعر .

نصيب الأصفر :

وكان نصيب عبداً أسود اشتراه المهدي رغبة في شعره ، وكان معه في قصره يخدم بين يديه ، فأتاح له هذا المقام مخالطة أبناء الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ووجهاء الناس وكانت حياة القصور طيبة المذاق في فم نصيب كثيرة الملاذ ، فأحبها وطلبها غير أنه عبد مملوك قليل ذات اليد ، لا يجد ما يريد لنفسه إلا ما أغضى له عنه أسياده . فتركت الحاجة والظمأ إلى المال والمتع في نفسه فراغاً منهما . وصدف أن أوفده المهدي إلى اليمن في بعثة تجارية ووضع تحت تصرفه مبلغاً كبيراً من الذهب ، فألفى نفسه لأول مرة مع المال الوفير بعيداً عن

---

(١) قال أبو الفرج : « قال رجل من بني أسد كان وجه لإسماعيل بن عمار : هلم أركب معك إلى يوسف بن عمر فإنه صديق لي أكلمه فيك يستعملك على عمل تنتفع به . فقال إسماعيل : دعني حتى يحول الحول . فنظر إسماعيل إلى عمال يوسف يعذبون فقال في ذلك . . . » وذكر القصيدة . الأغاني ١٠/١٣٠ وأنظر من البحث ص (٥١٦ ـ ٥٢٣) (٤٠٩ ـ ٤٢٢) التعذيب في السجون .

(٢) ذكرنا أمثال بن الفرات وابن مقلة وغيرهما . انظر تزوير صغار الكتاب في دواوين المنصور وعقوبتهم وضربهم في « الوزراء : ص ١٣٦ » للجهشماري .

(٣) أنظر ص ١٨٣ .

الـرقـابـة المبـاشـرة ، فلم يستـطع السيـطرة على رغبـاتـه المكبـوتـة وتنـاسى مسؤوليته»[1] ومر يده في الدنانير ينفقهـا في الأكل والشـراب وشراء **الجـواري** والتزويج ولما كتب إلى المهدي في شأنه أغضبتـه خيانتـه ، فأمر والي اليمن بحبسه مدة ثم حمل إلى بغداد موثقاً بحديده ، وترك في الحبس أمداً . وأخرجه السجن من اللهـو والعبث إلى تذكـر زوجه وأولاده ، وكـانوا يـزورونه في حبسه فيحركون فيه آلاماً . وندم على طيش أضاع عليه حياة طيبة[2] . واستمد بعض الأشراف الذين كان يمدحهم ، فنهض بشأنه عند المهدي حتى أذن له أن يدخل عليه في قيوده ، فقام بين يديه وأنشده قصيدة طويلة مفعمة بالأسى ، أحسن فيها الـدفاع عن نفسـه ، وحرك بهـا عطف الخليفـة ، فرق لـه ، وأمضى لـه قـرار الإعتاق ، وخلى عنه ، ووصله[3] .

الخروج على القانون : الصعلكة :

تعتبر الصعلكة نمطاً من أنماط العيش رمى بنفـر عديـد من شعرائـه إلى السجن . والصعاليك طائفة قديمة في جزيرة العرب ، كان لهـا خطرهـا وأدبها قبـل الإسلام وبعـده . وتمتاز ـ وبخـاصة في العصـر الجـاهلي ـ بتحللهـا من الالتزامات القبلية ، وبمسؤوليتها وحدها عن جرائرهـا ، وبتخلي قبائلهـا عنها ورفضها سلوكيتها وتبعاتها .

والصفـة العامـة لها هي الفقـر والتشرد والاعتمـاد على الذات في طلب المعاش[4] ، وانتهاج الغارة والنهب سبيلاً إلى ذلك . فكان طابعها عدوانياً سيء الأثـر في نفـوس العـرب لمـا في أعمال الصعـاليـك من الفتـك والسلب

---

(١) الأغاني : ٢٠ /٢٦ .

(٢) انظر قصيدته التي خاطب بها ابنته حين زارته في السجن في المصدر نفسه ٢/٢٧ .

(٣) أنظر القصيدة في الأغاني : ٢٠/٢٦ .

(٤) « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الزهري : ولا اعتماد » . لسان العرب « صعلك » .

والضراوة[1] . وإذا كانت أهداف بعض الصّعاليك على جانب من النبل[2] فإن الغالبية منهم كانت نفوسهم تنطوي على شر عظيم[3] إذ كانوا لصوصاً وقطاعاً يباغتون الناس ، ويصيبون الطريق ، ويحربونهم من النشب ، وأحياناً من الحياة[4] . ولذلك اقترنت في حياة بعض الشعراء الجاهليين والأمويين الصعلكة باللصوصية حتى لا تفريق بينهما، وبالجريمة أحياناً .

وتدل كلمات اللصوصية على نشاط هؤلاء ، وعلى أعمالهم الخطرة وآثارهم المرعبة . والألفاظ العامة تحمل معنى إخافة الناس وإصابتهم في صميم أموالهم على حين غرة كما يصيب السيف والرمح من الجسد[5] .

وتكشف بعض الألفاظ الخاصة أن من اللصوص من كان يوغل في السرقة واستئصال أموال الناس حتى لا يكاد يبقى لمن يباغتهم شيئاً[6] . وتدل ألفاظ

---

(١) أعلن بعض التجار في مطلع العصر الأموي فرحه بنجاته من القطاع برجز قال فيه :

الله نجاك من القصيم وبطن فلج وبني تميم
ومن أبي حردبة الأثيم ومالك وسيفه المسموم
ومن شظاظ الأحمر الزنيم ومن غويث فاتح العكوم

(معجم ما استعجم : ١٠٢٧/٣) والقصيم وفلج : أماكن معروفة في الجزيرة .
ومالك بن الريب وأبو حردبة وشظاظ وغويث لصوص مشهورون . والعكوم جمع عكم : الحبل يشد به المتاع .

(٢) أشهرهم أبو الصعاليك في الجاهلية عروة بن الورد ، وعرف بتعاهده الفقراء وتقديم ما ينهبه لهم . أنظر الأغاني : ٣/ ٨١.

(٣) ذكرت أسماء بعضهم في الحاشية ١ ، ومنهم تليد الضبي والمرار العفقسي ، وسيرد لهم ذكر في ص ٣٠٠ .

(٤) منهم السمهري اللص وأخوه بدر والقتال الكلابي . أنظر ص ١٢٧ و١٢٩ و٣٠٧ .

(٥) « القراضبة واللهاذمة : اللصوص ، وأصل ذلك قطع الشيء » (المخصص : ٧٨/٣) ومن معاني القرضاب الأسد والسيف (المحيط : قرضب : ومن معاني اللهذم السنان القاطع (المحيط : لهذم) .

(٦) ابن سيده : « الملط : الذي لا يدع شيئاً إلا ألمأ عليه سرقاً . . . ومثله العمروط والشص والهطلس » المخصص : ٧٨/٣ .

أخر على أن بعض اللصوص اختص بأنواع من السرقة ودرب عليها وتمرس بأساليبها لا يفارقها إلى غيرها[1] ، وأن آخرين منهم كانوا يعتدون على الأعراض مع عدوانهم على النفوس والأموال[2] . وقد عظم خطرهم ومهروا في صناعتهم حتى صار لها فن متقن كما تدل الكلمات التي تصف مهارتهم[3] .

وهذا هو الوجه القاتم الوضيع من الصعلكة . ويمكن أن نلمح لها وجهاً آخر فيه تصون عن إيذاء الناس وانتهاك الحرمات ، ويتميز باتباع طريقة خاصة في الحياة طابعها اللهو والانعتاق من تقاليد القبيلة وتكاليفها ، وإرسال النفس على سجيتها في طلب المتعة حرة في أرجاء الأرض .

ولعل هذا المنهج كانت له حدود واضحة في الجاهلية ، ورواج بين الشباب الذين يحملون استعداداً للعيش الحر المطلق من أية تبعة أو مسؤ ولية . ولعل طرفة بن العبد خير جاهلي رسم حدود هذا المنهج[4] وكان طرفة من هذا الجانب صعلوكاً بالفطرة لولا إيثاره الالتزام القبلي وانغماسه في العمل السياسي الذي أودى به[5] . واستهوى هذا المذهب بعض الشبان من علية القوم وأبناء الملوك . فالمشهور عن امرىء القيس أنه كان يضرب في البوادي مع ثلة من شذاذ العرب قبل مقتل أبيه يقصف ويلهو ويشرب غير عابىء بسخط والده على سيرته ولا بوراثة تاجه[6] . وانتهاج هذه السبيل من الصعلكة لا يمنع أصحابها

---

(١) ابن سيده : « الخارب : سارق الإبل خاصة ، والممترس الذي يسرق الإبل والغنم » المصدر نفسه .

(٢) « الطمل : اللص الفاسق » المصدر نفسه .

(٣) ابن سيدة : « الادلعقاف : المجيء للسرقة في ختل واستتار » و« اللطاة : اللصوص يكونون قريباً منك ولا واحد لها » و« سبد أسباد إذا كان داهياً في اللصوصية » المصدر نفسه .

(٤) أنظر معلقة طرفة « الأبيات ٥٣ ـ ٥٩ » في الديوان » ص ٢٧ . وكان يرى غاية الحياة في ثلاث متع هي الخمر والنساء وا لحرب

(٥) أنظر من هذا البحث ص ١٤٩ قسم العصبية القبلية .

(٦) ثم صار امرؤ القيس يستعين بهؤلاء الصعاليك والشذاذ في غزوات الثأر أنظر=

من جلائل الأعمال كما دلت الوقائع في حياة هذين الشاعرين . والصعلكة من هذا المنظار لا تدخل فيها السرقة وإن كانت تستهين بالمال وتبغض المستكثرين منه الحابسيه عن ذوي الحاجات وعن متع النفس(١) .

وليست هذه النزعة قاصرة على عصر وعلى أمة دون غيرها ، فهي من نزعات الإنسان قديماً وحديثاً ، وكان لها أنصارها في العصور الإسلامية ، ذلك أن اللهو يغلب بالفطرة على بعض النفوس ، ومن الناس من يرى الحياة كلها لذة ومتاعاً فيتهالك عليها . وعرف العصر العباسي طائفة من شعراء المجون الذين كانوا في حقيقتهم صعاليك فيما يتصل بجانب الإنفاق واللهو ، لولا ما ضربت عليهم حياتهم من صلات بالقصور والبلاط ، فالتزموا بالروابط الاجتماعية التقليدية . أما غير هؤلاء فكان منهم في مختلف العصور الإسلامية في المدن وفي خارجها جماعة الفتيان الشطار(٢) .

بيئتهـــا :

وتترعرع الظواهر والحركات الفردية أو الاجتماعية في محيط حاوٍ شرائط نموها وبقائها . والصعلكة الموسومة بالفتك تحتاج إلى بيئة يسهل فيها الكر والفر والاختفاء ، وتكثر المادة . والجزيرة العربية عالم كبير متنوع يجمع الأضداد من الخصب والمحل، والسهل والجبل ، والرحل والحضر(٣) .

= البغدادي : خزانة الأدب : ٣/٥٣٢ .

(١) أنظر معلقة طرفة : « الأبيات ٦١ - ٧٠ في الديوان « ص ٣٠ » .

(٢) أنظر في تطور الصعكلة في العصور الإسلامية كتيب أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام . مصر ، دار المعارف ١٩٥٢م .

(٣) أصاب القتال الكلابي دما ، فهرب واعتصم في جبل يسمى عماية ، فقال :

جزى الله عنا والجزاء بكفه عماية خير أم كل طريد
فلا يزدهيها القوم إن نزلوا بها وإن أرسل السلطان كل بريد
حمتني فيها كل عنقاء عيطل وكل صفا جم القلات كؤود

(الأغاني : ٢٠/١٥٩) والقلات جمع قلت وهي النقرة في الجبل . =

وتشقها الطرق التي تضرب فيها القوافل المثقلة إلى الأماكن المقدسة وإلى الموانىء التجارية[١] . ومن ثم كانت في الجاهلية والإسلام خير مسرح للصعاليك واللصوص ، وكان بعدها عن العاصمة ونشوب الثورات فيها والخلافات القبلية يوفر للصعاليك حظاً من السعة في العمل ، وفتور الطلب عنهم أحياناً .

أسبابها العامة :

وما دامت الصعلكة ظاهرة اجتماعية فلها أسبابها العامة والخاصة ، وأعظم هذه الأسباب خطراً الفقر والجوع الناجمان عن التفاوت الكبير في توزيع الثروات ، والخلافات الداخلية القبلية ، وتعدد الطبقات من أشراف و موال وعبيد ، والنزاع السياسي والحربي[٢] . والعامل المشترك بين جميع الأسباب

= وتشوق طهمان بن عمرو الدرامي وهو حبيس إلى جبله :

كفى حزناً أني تطاللت كي أرى ذري قلتي دمخ كما تريان
ألا حبذا والله لو تعلمانه ظلالكما يا أيها العلمان

(معجم البلدان : دمخ) وكان جحدر اللص تنازعه عن نفسه إلى الصحراء :

يا صاحبي وباب السجن دونكما هل تؤنسان بصحراء اللوى نارا
لوى الدخول إلى الجرعاء موقدها والنار تبدي لذي الحاجات أذكاراً

(معجم البلدان : الدخول) وكان الشمردل بن جابر يتطلع من سجنه إلى البوادي وواحاتها :

فيا ليت شعري هل أراني وصحبتي نجوب الفلا بالناعجات الضوامر
وهل أهبطن الجزع من بطن شوقب وهل أسمعن من أهله صوت سامر

(معجم البلدان : شوقب) .

(١) قال مالك بن الريب قبل إقلاعه عن اللصوصية :

سيغنيني المليك ونصل سيفي وكرات الكميت على التجار

« الأغاني : ١٩/١٦٣ » و« الشعر والشعراء : ١/٢٧٠ » .

(٢) أنظر تفصيل الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيما كتبه يوسف خليف في « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٨٩ ـ ١٣٨ » .
وحسين عطوان في « الشعراء الصعاليك في العصر الأموي : ٣٢ ـ ٧٦ » .

استعداد النفوس للثورة والجريمة والحصول على المال بالعنف والاستمتاع بحياة اللهو .

أسبابها المباشرة :

ولا تخرج الأسباب العامة الصعاليك من القبائل إلى الفيافي والجبال إن لم تعن عليها حوادث مباشرة لا تترك لصاحبها خياراً في التفرد والوقوف موقف الهجوم أو العدوان .

العوامل الذاتية :

وبعض هذه الأسباب ذاتي محض ، فثمة رجال فطرت نفوسهم على العزة والأنفة من الهضم ، وإذا لم يتيسر لهم أن يرتفعوا في جماعاتهم بالطرق الحميدة السليمة تمردوا وسلكوا سبيلاً للتميز والعلو بارتكاب الأخطار ومخالفة العرف والقانون ، وإظهار البأس والبطولة . وهذا السنخ إن كان ذا جوهر صاف كريم ونبل فطري لم تفقده الصعلكة مزاياه الأصيلة ، ولم تعف اللصوصية على نوازع من الخير لو قدر لها ظروف صالحة ، وتكافؤ في الفرص لاستقامت مرضية السيرة والغاية .

جحدر :

وخير ما يبرز خصائص هذا الصنف الشاعر اللص جحدر بن مالك بن معاوية العكلي[1] . وكانت اليمامة وما حولها مسرح سرقاته . وكان يؤمن أن

---

(١) قال ابن المبارك : « هو جحدر بن معاوية بن جعدة العكلي من بني محرز بطن من عكل » . واورد له نونيته المشهورة التي نظمها في سجن الحجاج يتشوق إلى نجد (منتهى الطلب : ٢/ ٢١٦) . ورائيته التي مدح بها إبراهيم بن العربي والي اليمامة حين حبسه فيها بسجن دوار (منتهى الطلب : ٢/ ٢٦٢) . وهو في « الحماسة البصرية : ٢/ ٣٣٧ » أيضاً جحدر بن معاوية بن جعدة العكلي » وذكر له قصيدة جيمية قص فيها نزاله الأسد في حبس الحجاج . وهو في « الزهرة : ٢٤٠ و ٢٤٧ » جحدر الفقعسي ، وذكر له من النونية أبياتاً . وفي ابن عساكر : جحدر بن مالك (تهذيب ابن عساكر : ٤/ ٦٨) وذكر جملة من

القوة خير سبيل لتأمين المعاش ، وأن طلب الرزق من غير الحرب عجز[1] . وأعجب به وبنظراته وبرجولته الصعاليك في اليمامة وما حولها ، فالتفوا حوله ، وزعموه عصابتهم يخطط لهم للسرقات ، ويتقدمهم في تنفيذها . وكان على ما يبدو مطاعاً فيهم محبباً إليهم . ولعله وجد فيهم مرضاة نفسه لما وقر فيها من حب الزعامة والشهرة . فكانت هذه الطائفة في قلبه ومن همه في أحلك لحظات حياته[2] .

=النونية . وعندما ساق ياقوت ستة عشر بيتاً من هذه القصيدة قال : « كان رجل من بني جشم ابن بكر يقاله له: جحدر ، يخيف السبيل بأرض اليمن » (معجم البلدان : حجر) وأورد له بضعة أبيات من قصائد متفرقة قالها في سجن دوار والديماس . وكان يقول : قال جحدر اللص أو قال جحدر المحرزي (معجم البلدان : الدخول ـ البيضاء ـ جو ـ الديماس) ووهم بعض الباحثين من المحدثين فزعم أن هناك جحدريين ثلاثة : جحدر المحرزي ، وجحدر بن معاوية العكلي ، وجحدر بن مالك بن معاوية الحنفي (الشعراء الصعاليك في العصر الاموي : ١٢١) ولم يذكره برو كلمان . ولا يعثر التحقيق إلا على جحدر واحد بعد الاستقصاء وهو جحدر بن مالك بن معاوية بن جعدة ، من بني محرز ، ومحرز من عكل (وفقعس من عكل أيضاً) وعكل من بني جشم من بكر ، وهؤلاء من بني حنيفة الذين يملؤ ون اليمامة وما حولها من نجد . انظر : « معجم البدان : حجر واليمامة » .

(١) زعم جحدر أنه كان لا يسرق إلا عند الحاجة الماسة فإذا بليت ثيابه سرق ناقة ليبتاع ثمنها كسوة ، وكان يرى أن هذا شريعة الحياة ، قال :

وإن امرءاً يعدو وحجر وراءه ... وجو ولا يغزوهما لضعيف
إذا حلة أبليتها ابتعت حلة ... بسانية طوع القياد عليف
سعى العبد اثرى ساعة ثم رده ... تذكر تنور له ورغيف .

« معجم البلدان : جو » .

(٢) قال في نونيته التي نظمها في ديماس الحجاج :

أيا أخوي من جشم بن بكر ... أقلا اللوم إن لم تنفعاني
إذا جاوزتما سعفات حجر ... وأودية اليمامة فانعياني
لفتيان إذا سمعوا بقتلي ... بكى شبانهم وبكى الغواني
وقولا : جحدر أمسى رهينا ... يحاذر وقع مصقول يمان

« منتهى الطلب : ٢/ ٢١٦ » و« معجم البلدان : حجر » .

ولا شك أن الفوضى السياسية في جزيرة العرب إبان النزاع الزبيري الأموي فسح لجحدر وأمثاله أن يرتع دون أن يخشى شوكة السلطان . وعندما انتهى النزاع أرسل عبد الملك إلى اليمامة والياً ضابطاً[(١)] ، وكان جحدر يومذاك قد روع الناس وخرق الأمن ، فجد في طلبه حتى قبض عليه ، فلبث في سجن دوار حقبة[(٢)] ، وكانت أخباره قد بهرت الحجاج الثقفي فأمر بحمله إلى حبسه في العراق .

وكثيراً ما تكون الأزمات سبباً للتخفف من الأوزار وتناسي سلوكية غريبة عن النفس ألزمتها بها أحوال خاصة . فإذا حلت الأزمة أتيح للمنحرف أن يتعرف على نفسه من جديد . وكذلك كان الحبس لجحدر أزمة خانقة غير أن ما لقي فيها من الضيق والخوف أعاد إلى نفسه صفاءها حتى خرج منها إنساناً قادراً على الاستقامة .

وكان دخوله السجن أول الصدمة إذ ألفى نفسه في وسط يزخر بالأشرار ، وكان عند نفسه كريماً كبيراً على ما كان يحترف من اللصوصية[(٣)] ، وذا قضية ، جديراً بالإكبار[(٤)] . فكأن غاراته وسرقاته كانت عنده ضرباً من الثورة على الفقر والظلم والاستئثار ، وتعبيراً عن سخط الساخطين يقودهم للحصول على

---

(١) هو إبراهيم بن العربي . انظر أنساب الأشراف (١/ ٢٢ ، مصر ١٩٥٩) وحديثه في « ص ١٦٩ » من هذا البحث .

(٢) معجم البلدان : دوار . وانظر حديث عنه في « ص ١٠٨ » .

(٣) قال في سجنه :

أقول للصحب في البيضاء دونكم ... محلة سودت بيضاء أقطاري
مأوى الفتوة للأنذال مذ خلقت ... عند الكرام محل الذل والعار

« معجم البلدان : البيضاء » .

(٤) أسي لحاله فقال في النونية :

ستبكي كل غانية عليه ... وكل مخضب رخص البنان
وكل فتى له أدب وحلم ... معدي كريم غير وان

« منتهى الطلب : ٢/ ٢١٦ » و« معجم البلدان : حجر » .

أرزاقهم وحقوقهم بالقوة . وهذا منشأ إحساسه بأنه حبس مظلوماً[1] . وكان جحدر رجلاً حراً ثقل عليه السجن وأشقاه خسران الحرية ، ومن هنا كان عذابه النفسي الذي أسهم في عودته إلى نقائه ،واستيقن أن لا سبيل إلى الحرية والأمن إلا بالمتاب والاستقامة ، فلاذ بأمير اليمامة يمدحه مخلصاً ويستجير به من السجن والعذاب . ويبدو أن لم يكن مدحاً عابراً بل نية صادقة بتحول نفسي سلوكي . فلاذ الشاعر بخالقه أيضاً يسأله العفو والتوبة بلسان صادق الندم راغب في البراءة[3] . وبذلك ظفر الشاعر بحظ معين من طهر النفس .

ولكن السلطة لا تأخذ نجربة النفس باعتبار وتقدير كافيين، ولا يتغاضى القانون عن الجرائم السابقة بظاهر من الندامة والتوب. فلم ينتفع جحدر بذلك ، وحمل إلى حبس الحجاج ، وهو ما هو بطشا ، فأهمته نفسه وتضاعفت فيها الأحزان[4] . وأنصت الحجاج لما يقوله في سجنه فاستشف في شعره

---

(١) قال جحدر :

لو يتبع العدل فيما قد منيت به ... أو يتبع الحق ما عمرت دوارا

« معجم البلدان : الدخول » .

(٢) انظر مديحه إبراهيم بن العربي في منتهى الطلب « ٢/ ٢٦٢ » .

(٣) قال في تلك القصيدة قبل المدح :

يا نفس لا تجزعي إني إلى أمد ... وكل نفس إلى يوم ومقدار
لله أنت فإن يعصمك فاعتصمي ... وإن كذبت فحسبي الله من جار
ادعيه سرا وناديه علانية ... والله يعلم إعلاني وإسراري
وما السعادة في الدنيا لذي أمل ... إن السعيد الذي ينجو من النار

« المصدر نفسه : ب ٧ و ١٠ - ١٢ » .

(٤) لا شيء يصور همومه مثل مطلع النونية :

تأوبني فبت لها كنيعاً ... هموم لا تفارقني حوان
هي العواد لاعواد قومي ... أطلن عيادتي في ذا المكان
إذا ما قلت : قد أجلين عني ... ثنى ريعانهن علي ثان
فإن مقر منزلهن قلبي ... فما انقهنه فالقلب آن

« منتهى الطلب : ٢/ ٢١٦ » .

سماحة وخلقاً ورجولـة[١] . ولما سأله عن الـدوافع التي حملتـه على إخافـة السبيل ورئاسة القطاع رد ذلك إلى ما حوى من شجاعة وطاقة ، وإلى سوء أحوال المعـاش في بلده[٢] . وكانت الـدولة قـل أن تدهن في أمـر أولي السـطوة من اللصوص حفاظاً على الأمن وهيبة الحكم ، وكـان جحدر في قناعة الحجـاج محكوماً عليه بالموت ، ولكنه فتح له نـافذة ضيقـة من الأمل إن أخـرجته منهـا بـطولته استحق الحيـاة . فخيره بين المـوت أو نزال أسـد ضار مجـوع فاختـار الثانية . ووقف له بقيوده والسيف بيده ، وكانت فرصته الأخيرة والبرهان الساطع على بطل مضيع . ووقف للسبع بين مخافة المعجبين وشماتة الجبناء ، وتشبث بالحياة ، واستبسل فقتل خصمه[٣] . وخرج بعد هذه المحنة إنسانـاً مستصلحاً

---

(١) وقال في النونية أيضاً :

ألم تـرني غـذيت أخـا حـروب ... إذا لـم أجن كـنت مـجن جـان
فـان أهـلك فـرب فتى سيبكـي ... عـلى مـخـضـب رخص الـبنـان
ولم أك قـد قـضيت ديـون نـفسي ... ولا حـق الـمـهـنـد والـسـنـان

« منتهى الطلب : ٢/ ١٦ ، ب ١٩ ـ ٢١ » .

(٢) قـال له الحجـاج : « مـا حملك على مـا صنعت ، فقـال : كلب الـزمـان وجـراءة الجنان » . معجم البلدان : حجر .

(٣) وصف لنا مشاعره عند قتله الأسد ، وهو ينتظر أن يبر له الحجاج بالوعـد فيطلقـه ، فقال :

يـا جمل إنـك لـو شهـدت كـريهتي ... في يـوم هـول مسـدف وعجـاج
وتـقـدمي لـليث أرسف مـوثـقـاً ... كـيـمـا أكـابـره عـلى الأحـداج
أقبلت أرسف في الحـديـد مكبـلاً ... للمـوت نفسي عـنـد ذاك أنـاجي
والنـاس منهم شـامت وعصـابـة ... عبـراتهم بي في الحلوق شـواجي
نـازلـتـه إن الـنـزال سـجـيـتـي ... إنـي لمـن سلفـي عـلى منـهـاج
وعـلمـت أنـي لـو أبيـت نـزالـه ... أنـي من الـحجـاج لـست بنـاج
فـفـلقـت هـامـتـه فـخـر كـأنـه ... أطـم هـوى مـتـقـوص الأبـراج
ثم انثـنيـت وفي قميصي شـاهـد ... ممـا جـرى مـن شـاخـب الأدواج

« الحماسة البصرية : ٢/ ٣٣٧ ، ب ١ ـ ٢ و ٨ ـ ٩ و ١٢ ـ ١٥ » .

مأموناً يعمل في خدمة الدولة[1] .

اللصوص المحترفون :

وأمثال جحدر كثير من الذين كانوا يؤثرون الموت على مذلة الفقر[2] . ولكن ثمة فئة غلب عليها الإيذاء والشر فطرة ، فإن عاضدتها البيئة والأحوال العامة ذهبت في التصعلك واللصوصية من غير ارعواء أو إحساس بالإثم . وتمكن منها حب هذا المسلك حتى أصبحوا لصوصاً محترفين جبلة وهوى . وإن أحدهم وهو تليد الضبي ليدخل السجن في أيام عمر بن عبد العزيز ، ويسلط عليه العذاب ، ولا يرفع عنه حتى يجهر بالتوبة وهو مشغول النفس بغير هذا المطلب ، فكان يحلم أن يطلق سراحه ، ويقود عصابته بين البوادي يغير على أرباب الإبل والنعم يسرق ويستاق ما استطاع[3] .

---

(١) معجم البلدان : حجر .

(٢) « كان أبو النشناس من لصوص بني تميم . وكان يعترض القوافل في شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها ، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده مدة . . . وقال :

وسائلة أين ارتحالي وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضنّ عنه بالنوال أقاربه
إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح ... سواما ، ولم يبسط له الوجه صاحبه
فللموت خير للفتى من قعوده ... عديماً ومن مولى تعاف مشاربه

(الاغاني : ١١/ ٤٢) وانظر شعر طهمان بن عمر الدرامي في « منتهى الطلب : ١/ ٢٦٤ » .

(٣) قال تليد :

يقولون : جاهزنا تليد بتوبة ... وفي النفس مني عودة سأعودها
ألا ليت شعري هل أقودن عصبة ... قليل لرب العالمين سجودها
وهل اطردن الدهر ما عشت هجمة ... معرضة الأفخاذ سبححاً خدودها
قضاعيه حم الذرى فتربعت ... حمى جرش قد طار عنها لبودها

« معجم البلدان : جرش » .

ولا شك أن الفقر أيضاً هو العلة الكبرى في هذا الجنوح . ولكنه لقي نفوساً مستعدة للجريمة ، احتضنت الآثام ، فأثقلها عقد كرهت إليهم الناس وحببت إليهم التفرد والتوحش خوفاً ونفوراً منهم[1] . ولذلك كان موقفهم ممن يلقون خالياً من الرحمة يأمر فيه الحقد وينهى . وينسحب هذا الوصف على ثلة من الشعراء جلهم أمويون ، منهم المرار الفقعسي والسمهري الأسدي وتليد الضبي وعطارد بن قران والأصيمر السعدي .

ومن الملاحظ أن روابطهم القبلية - على ما كان لها من شأن في ذلك العصر - كانت منبته . وتخلت عنهم عشائرهم وتبرأت إلى العرب منهم لما كان لهم من جرائم باهظة يثقل احتمالها[2] .

---

(١) تذكر طهمان الدرامي ، وهو في سجن نجران ، تأبده مع زميل له لص ، فقال :

وإني والعبسي في أرض مذحج ... غريبان شتى الدار مختلفان
غريبان مجفوان أكثر همنا ... وجيف مطايانا بكل مكان
فمن يرَ ممسانا وملقى ركابنا ... من الناس يعلم أننا سبعان

(معجم البلدان : دمخ) « كان طهمان لصاً مشهوراً في خلافة معاوية ، وسجن في نجران ، وأسره ، الخوارج ، وقطعوا يده . وله ديوان شعر مخطوط . انظر « بروكلمان : ٢/ ٨٥ » . وقال الأصيمر السعدي ، وكان لصاً متفرداً مطارداً في صدر الدولة العباسية :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت اطير
رأى الله أني للأنيس لشانيء ... وتبغضهم لي مقلة وضمير

(معجم البلدان : دورق) ونلمس هذا الشعور عند عبيد بن أيوب العنبري وكان من اللصوص زمن بني أمية :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة ... لقلت : عدو أو طليعة معشر
فأصبحت كالوحشي يتبع ماخلا ... ويترك مأنوس البلاد المدعثر

إذا قيل : خير ، قلت : هذي خديعة وإن قيل : شر ، قلت : حق ، فشمّر « منتهى الطلب : ١/ ٢٤٩ » .

(٢) انظر أخبار يعلى الأحول الأزدي في « الأغاني : ١٩/ ١١١ » .

عطارد بن قران :

وتفيد أخبارهم وأشعارهم أن حياتهم كانت شقية حقاً . فعلى ما كان لكل لص من منطقة يستكن فيها ويجول لم يكن لهم استقرار بله اطمئنان . وكانوا في هروب وملاحقة متصلة وغارات مفاجئة . ولذلك حبس بعضهم غير مرة في سجون مختلفة متباعدة فحبس عطارد بن قران مرة في نجران على أطراف اليمن ، ومعنى هذا أن أمير البلد أخذه قريباً منها . وكان عطارد فيها غريباً ، وجمعه الحبس بلصوص من قبائل شتى ولم يكن له نصير أو قريب ، فاستثار أريحية أشراف نجران وسادتهم[1] . ووجد محبوساً في ايمامة حاضرة نجد ، في دوار سجنها المشهور ، وكان مثقلاً بقيوده كثير الغم ، يترقب ساعة الإفراج لينطلق إلى البادية انطلاق جوارح الطير[2] .

المرار الفقعسي :

وكان موقف السلطة من هؤلاء صلداً تطيل حبسهم ، وربما مات بعضهم فيه . وممن تطاول عليهم الحبس المرار الفقعسي[3] ، وكان هو وأخوه لصين محترفين ، أضرت بهما الفاقة[4] ، وكانا ضالعين بسرقة الإبل ، يطردان هجمات منها ويبيعانها في أسواق بعيدة . وكثر ترددهما على السجون بين نجد

---

(١) قال عطارد :

تذكرتُ هل لي من حميم يهمه ... بنجران كبلاي اللذان أمارس
فأما بنو عبد المدان فإنهم ... وإني من خير الحصين لبائس
روى نمر من أهل نجران أنكم ... عبيد العصا لو صبحتكم فوارس

(معجم البلدان : نجران) وخبر « انهم » في البيت الثاني محذوف لدلالة خبر « إني » عليه . وبنو عبد المدان : وجوه نجران منذ القديم ، ولم يرد الشاعر هجاءهم بل تحريكم للدفع عنه والعمل لدى الأمير لإطلاقه .

(٢) انظر شعر عطارد في « معجم البلدان : دوار » .

(٣) انظر أخباره في «الأغاني : ٩ : ١٥٢ » .

(٤) انظر شعره الذي حدث فيه عن فقره في « حماسة ابن الشجري : ٣٧ » .

والحجاز ، وكان المرار حبس في اليمامة ثم أفلت[1] . وضبطا معا متلبسين بسرقة فاقتيدا إلى سجن المدينة ، ومات أخوه تحت العذاب . ومكث هو يرثي أخاه ويتصبر ، وعطف شعره المؤثر وفاجعته بأخيه عليه بعض القلوب الرحيمة ، فأفرج عنه بعد كثير من المحنة والضر[2] .

السمهري :

وكانت غارات هؤلاء اللصوص العتاة تتركهم في شدائد عسير انفراجها ، من عداوات لا تنام إلا بعد الثأر . وسرقة الاموال وحده يسيرة الخطب ، أما إذا اقترنت بالقتل حركت شعوراً عصبياً عاماً . وأصبح القاتل مطارداً من قبل كل فرد من قبيلة المقتول .

وهذه الحال كانت مأساة السمهري[3] إذ أصاب دما في إحدى سرقاته ، فأبت قبيلته عكل احتمال جنايته ، وقعدت عن نصرته في تشرده وسجنه قعوداً أغضبه[4] . وكان هذا الشاعر رجل ملمات ، هام على وجهه وأعداؤه يجدون في طلبه ، يدخل الصحاري المنقطعة والجبال والفلوات النائية يبحث عن إنسان

---

(١) قال في ذلك :

فيا صاحبي سجن اليمامة أطلقا   أسيركما ينظر إلى البرق ما يغري
ولو فارقت رجلي القيود وجدتني   رفيقاً بنص العيسى في البلد القفر

« الأغاني : ٩ / ١٥٣ » .

(٢) الأغاني : ٩ / ١٥٢ .

(٣) السمهري من شعراء الدولة الأموية . انظر: الأغاني : ٥٣/٢١ ، والخزانة : ٤٨٣/٣ ومنتهى الطلب : ٢٦٠/١ ، والأشباه والنظائر : ١٣٢/٢ ، ومختارات ابن الشجري : ٣٧ ، وذيل الأمالي : ٧٧ .

(٤) قال لما حبس في المدينة :

ألا ليتني من غير عكل قبيلتي   ولم أدر ما شبان عكل وشيبها
قبيلة لا يقرع الباب وفدها   لخير ولا يأتي السداد خطيبها

« الأشباه والنظائر : ١٣٢/٢ » و « الأغاني : ٥٥/٢١ » .

نبيل يحميه حتى هم باللجوء إلى عمان[١] . واستطاع السلطان العثور عليه قبل أن يتوارى ، فحمل إلى سجن المدينة ، ولما استفتي الخليفة في شأنه أمر بدفعه إلى أولياء المقتول فقتلوه [٢] .

وكان يعنيه في اختفائه وحبسه أمران : النجاة بحياته ، وحب عارم لفتاة من قومه لم يبارحه خيالها حتى آخر لحظة ،وهو يرسف بقيوده على شفا الموت [٣] .

وعلى قلة القتل فقد يسرف فيه بعضهم لأسباب نفسية قاهرة ، خضع لها في العصر الجاهلي صعلوك مخيف استكثر من القتل هو الشنفرى الأزدي [٤] . ولم يكن الداعي له إلى هذا الإسراف الفقر وحده بل الحقد على القوم الذين ترعرع فيهم حتى اشتد عظمه . وكان يظنهم رهطه وعشيرته ثم اكتشف أنه فيهم عبد قن [٥] . ففر منهم يترصد لهم ويغير عليهم ويسفك من دمائهم ، ولم يأخذه إلا بعد عناء وخسائر . وكان الحقد وا لجريمة صبغتا نفسه ظلاماً . فلما قدم للموت لم ير غير الظلام ، وشعر أن ماضيه ملعون ، وأن مستقبله بعد الموت لن يكون خيراً منه ، فأوصى ألا يدفن في أرض لئلا يكون له قبر معروف يشير إلى ذكراه ومآسيه ، وأن يلقى إلى الضبع ليضيع الى الأبد[٦] .

---

(١) انظر ذيل الأمالي : ٧٧ والأغاني : ٢٩/٥٥ .

(٢) انظر الأغاني : ٢١/٥٥ .

(٣) انظر شعره في منتهى الطلب : ١/ ٢٦٠ وحماسة ابن الشجري : ٣٧ .

(٤) أسره بنوه سلامان في بعض غزواتهم وهوطفل لا يعي ، وكانوا يستعبدون الأسير ، ولما بلغ مبلغ الرجال لمس احتقاراً له من ابنة آسره ، وكان يظنه أباه ، وتحرى الشنفري عن الأمر فعرف حقيقته . أنظر الأغاني : ٢١/٩٢ وص الفصل الأول من هذا البحث .

(٥) انظر شعره في الأغاني : ٢١/٩٢ .

(٦) يقال : إنه قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً ، وكان أقسم على المائة ، وأنشد في أسره قبل أن يقدم للموت :

فلا تدفنوني إن دفني محرم ... عليكم ولكن خامري أم عامر =

الخلاف القبلي والعصبية :

وأمثال هؤلاء الصعاليك ـ كما تبين ـ منبتون من قبائلهم ، منبوذون ، مطاردون ، وقد تساند عشائرهم السلطة في القبض عليهم . وأكثرهم حانق على قبيلته مقطوع ما بينهما من عواطف الود . ومنهم من ظل محتفظاً بالحمية القبلية وبمثلها احتفاظاً جاهلياً رغم تجافي عشيرته عنه ونفورها من جرائره ، فيلزم نفسه بتصرفها أيا كان رأيه الشخصي فيه ، ويطلب منها الحماية والاستنقاذ في الملمات .

الخطيم المحرزي :

وفي سجن الشاعر اللص الخطيم المحرزي ما يوضح هذه الحقائق(١) . وكانت العصبية بضراوتها ورعونتها تستحوذ عليه وترسم له سيره . وكان إحساسه بكيانها ضخماً يشعر أنه قادر بها على اجتياح الأرض ومن عليها لولا ما يعترض سبيله من ضغط أمراء قريش عليه(٢) . وكان يعلم من نفسه بسالة وإقداماً ، وهي صفات متأصلة فيه ولولا انحراف في حياته إلى اللصوصية لكان في عشيرته شريفاً أو في جيش أمته قائداً مغواراً(٣) .

= إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سجين الليالي مبسلاً بالجرائر
المصدر نفسه .

(١) هو من شعراء الدولة الأموية ، ومن بني محرز ، وقد شهروا بعدة من اللصوص الشعراء ذوي أخطار ، انظر منتهى الطلب : ١/٢٠٣ و٢٥٦ و« معجم البلدان : بلي »

(٢) قال وهو في سجن نجران مطلع قصيدة بلغت ستة وخمسين بيتاً :
أبت لي سعد أن أضام ومالك وحي الرباب والقبائل من عمرو
وإن أدع في القيسية الشم تأتني قروم تسامى كلهم باذخ الهدر
فلولا قريش ملكها ما تعرضت لي الجن بله الأنس قد علمت قدري
منتهى الطلب : ١/٢٥٣ .

(٣) قال بعد فراره من السجن والبعوث تطارده :
وإني لماضي العزم لو تعلمينه وركاب أهوال يخاف بها الردى =

ولم يحبس في سرقة ، وقاده إلى الحبس شجار بين العشائر إذ تنافس بطنان من قبيلته على الشرف ، وذهبا يعقران الإبل ازدهاء ومطاولة حتى يفضل أحدهما الآخر ، فيستقل بالشرف والزعامة فعل الجاهلية . ولم يتوقف العقر حتى فصم عرى المودة بين الحيين ، ونشب القتال وسالت الدماء .

وكان الخطيم منغمساً في قضايا عشيرته إلى الأعماق ،ولكنه كان ثاقب النظر كارهاً لهذا التباري الخطر ، فأنذر قومه بالكف حتى لا تتحطم وحدةالقبيلة ويرتدوا أعداء الدهر الطويل(١) . ولكن الجهل ركب الجانبين معاً، فكان الخطيم عندئذ أجهل الجاهلين . وكان له في الجانب الآخر بلاء وفتك . وتدخلت السلطة وأمسكت برؤوس الفتنة وأولي البأس . فكان الخطيم منهم . وسجن في نجران ، وكان يترقب محاماةقبيلته عنه واستخراجها إياه من محبسه . ولكن الفتن التي تكثر فيها الجراح والديات ، وتعزم فيها الدولة على الضبط والقصاص لا يجدي فيها التدخل والتعصب القبلي كثيراً . فكان الخطيم مطالباً بالغرم والقود ممن أصابهم وللدولة عليه حق العقاب . وهو أيضاً صعلوك محترف للصوصية ليس له في عشيرته نفسها وجاهة وليست عليه بذات غيرة . فتركته يعاني عذاب السجن . ولما استيأس منها عول على نفسه ففر من السجن ، واختفى في الفلوات المخوفة والبعوث تتعقبه ، فكان يتوارى نهاره ويدلج ليله على رثاثة

= ومسعر حرب كنت ممن أشبها ... إذا ما الجبان النكس هاب وعردا
وازداد في رغم العدو لجاجة ... وأمكن من رأس العدو المهندا
ويعجبني نص القلاص على الوجى ... وإن سرت شهراً بعد شهر مطردا
« منتهى الطلب : ١/٢٥٦ ، ب ٣١ ـ ٣٤ ».

(١) انظر ذلك في حبسيته الرائية (منتهى الطلب : ١/٢٥٣) ومن ذلك قوله :
أخلاي لم يشمت بنا ذو شناءة ... ولم تضطرب مني الكسوح على غمر
ولا منهم حتى دعتنا غواتنا ... إلى غاية كانت بأمثالها تزري
لحا الله من بلحى على الحلم بعدما ... دعتنا رجال للفخار وللعقر
وقلت لهم : إن ترجعوا بعد هذه ... جميعاً فما أمي بأم بني سدر
قدحنا فأورينا على عظم ساقنا ... فهل بعد كسر الساق للعظم من جبر

وخوف وكلال[١] . ويمم وجهة الشام وألقى نفسه على ولي عهد الخلافة سليمان بن عبد الملك مستجيراً به من جرائر ضعف رهطه عن احتمالها . فنهض بأمره وصلاح حاله[٢] .

ويستفاد من حديث الخطيم أن حبسه وتصعلكه نتجا من الفقر الذي ترافقه الشجاعة ومن الروح الجاهلية المتجسدة في العصبية القبلية . وإذا لم تكن الصعلكة السبب المباشر في حبسه فقد كانت السبب في إهماله وإطراحه في السجن . ومما يلفت النظر أن الخطيم على ما لقي من عشيرته بني محرز من الإهمال لم يحنق عليهم ، ولم يهجهم صنيع غيره ، وكان أكثر ما خاطبهم به التذكير ببلائه والعتاب على تناسيهم له[٣] .

الحوادث العارضة

القتال الكلابي :

ودخل بعض الصعاليك السجن لحوادث عارضة فردية لو أمكن اجتنابها لاختلف مستقبل صاحبها . والقتال الكلابي[٤] أحد الشعراء الذيين احترفوا الإجرام والصعلكة اضطراراً نتيجة تصرف طائش بادىء ذي بدء لم يزل يجنح به إلى الشرور حتى صار صاحبه مخوفاً مهجوراً . وكان الرجل معروفاً في قبيلته بالبأس ، مطبوعاً على الشراسة ، عنيداً لما يريد ، لا يثنيه وعيد ، رقيق الدين ، متشبعاً بروح الصحراء والعصبية ، إذا هيج تنبهت فيه وحشية لا تخشى النتائج . وهذه الوحشية هي التي ضربت عليه التأبد والعزل القبلي والسجن

---

(١) انظر لاميته في منتهى الطلب: ١/٢٥٩ .

(٢) انظر مدح سليمان في الرائية المذكورة قبل .

(٣) انظر الشعر في منتهى الطلب : ١/٢٥٥ .

(٤) اسمه عبادة أو عبيد بن مجيب الكلابي . انظر منتهى الطلب : ١/٢٢٦٥ وخزانة الأدب : ٣/٦٦٨ ، ونوادر المخطوطات : م ٦/٢٤٢ ، والأغاني : ٢٠/١٥٩ ، وديوانه بتحقيق إحسان عباس وتقديمه .

والشقاء ثم احتراف الجريمة ، وغلبته على التعقل مرتين[1] ، مرة حين قتل ابن عمه والأخرى عندما قتل سجانه وهرب ، وكان ارتكابه للجريمتين في حال من الهيجان الأعمى[2] .

وكانت الحادثة الأولى في عنفوان شبابه ، وكان يتعشق في حيه ابنة عم له ويغازلها ، فنهي عن ذلك وهدد ، ولكنه رجل لا يزيده التهديد إلا ولوعاً ، فعاود المغازلة عناداً واستخفافاً من غير هوى غالب . ورآها أخوها مرة يتحدث إليها فعدا وراءه والسيف بيده وهويقسم على قتله . ولم يكن يريد من ذلك غير العبث ، فهرب عنه[3] « يسأله بالله والرحم أن يكف عنه » وابن عمه يشتد وراءه يرغي ويشتم حتى استغضب القتال ، فتنمرت وحشيته فعطف عليه وقتله ، ثم اختفى من وجه طالبيه واعتصم وحده في جبل منيع[4] .

وكانت طباعه تؤهله للتأبد ومساكنة الوحوش ، والأقاصيص التي تروى في اختفائه لولا الأدلة من شعره لعدت في الأساطير . ولم يستطع مبارحة الجبل حتى صالح أخوه عنه . ومع ذلك لم يقدر على العودة إلى قبيلته لازورارها عنه

---

(١) ثمة جرائم أخرى أتاها عن تصميم وسترد في حديثه .

(٢) وصف القتال غلبة الغضب الوحشي عليه حين قتل السجان ، فقال :

ولما رأيت الباب قد حيل دونه … وخفت لحاقا من كتاب مؤجل
رددت على المكروه نفساً شريسة … إذا وطنت لم تستقد للتذلل
أقول له والسيف يقحف رأسه … أنا ابن أبي أسماء غير التنحل
عرفت ندائي من نداه وجرأتي … وريحا تغشاني إذا اشتد مسحلي

« ديوان القتال : ص ٣٢ ، ب ٢١ ـ ٢٢ و٢٦ ـ ٢٧ » .

(٣) الأغاني : ٢٠ / ١٥٩ .

(٤) هو جبل عماية ذكر اعتصامه به في شعره . أنظر المصدر نفسه ومن هذا البحث « ص ٢٩٣» .

(٥) يروى أنه نزل في غار من جبل عماية كان يبيت فيه نمر ، فألفه النمر ، وأقاما معا ، وكان القتال يصيد والنمر يعدو وراء الصيد في المرتفعات الجبلية الوعرة ملازمته له في إحدى قصائده . أنظر « الأغاني : ٢٠ / ١٦٠ » .

بعد جريمته فانحدر إلى البوادي ورافق اللصوص ، وترأس عصابة لهم . وكان يخيف بها السبيل حول المدينة في ولاية مروان بن الحكم ، ولعل مروان أراد تألفه واستصلاحه فاستدعاه، فلم يطمئن القتال إليه وتباعد عن يده[1] .

وخاف أهل المدينة القتال ومقتوه لاحترافه الجريمة ، وصار يؤجر نفسه لمن يريد قاتلاً فيقتل له . وصدف أن أحد الأشراف وهو مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري تغيظ على ابن عم له هو إسماعيل بن هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد فبيت قتله . فاستدم القتال وآمره على ذلك . وأنفذ القتال الأمر في بيت المقتول ، وهرب بعصبته إلى الصحراء[2] . وعرف من الآثار ومن طبيعة الجريمة أن القتال صاحبها ، فتجرد الأمير يطلبه حتى أمسك به وبمن آثره وحبسهم في سجن المدينة ولم يشأ الأمير أن يحكم بقتله ، ولم يعثر على بينة دافعة ، فأرسل إلى الخليفة يستفتيه في شأنه . ويبدو من الشعر الذي وصف لنا القتال فيه عذابه في السجن أن أهل المدينة نقموا منه عدوانه على أرواحهم ، وترقبوا أن يقتل . وتمثل هذا الشعور العام في معاملة السجان للجاني بالتضييق عليه والعنف به[3] . وأحس القتال بالخطر ، وهو

---

(١) قال في القصيدة المشار إليها آنفاً :

وأرسل مروان الأمير رسالة لآتيه إني إذن لمضلل
وما بي عصيان ولا بعد مزحل ولكنني من سجن مروان أوجل
وفي ساحة العنقاء أو في عماية أو الأدمي من رهبة الموت موئل

« الأغاني : ٢٠/ ١٦٠ » .

(٢) انظر نوادر المخطوطات : م ٦ ص ٢٠٢ ، ورجح بعض الباحثين لتضارب الروايات أن القتال قتل ابن هبار ، وهو في قافلة تجارية في الطريق إلى الشام (الشعراء الصعاليك في العصر الأموي : ١٧٦) وما ورد في نوادر المخطوطات مع الشعر الذي قيد فيه ابن قيس الرقيات الحادثة يثبت أنه قتله على باب داره ليلاً .

(٣) قال القتال في سجانه الذي قتله :

إذا قلت رفهني من السجن ساعة تدارك بها نعمى علي وتفضل =

يترقب كتاب الخليفة ، فكان لا يفتح عليه الباب إلا ظن أنه مدعو للموت[1] .

وتذكر الروايات أن القتال قتل السجان وهرب[2] ، ويذكر شعر الرجل أنه قتله بالسيف[3] . ويلفت النظر وصول السيف إلى الشاعر في الحبس عوناً له عل الهرب . وأكبر الظن أن ذاك العون كان من مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، وكان ملزماً بمعاونته على النجاة تستراً على أصل الجريمة ومنشئها . ولعل بعض الشعر الذي أطلقه القتال يعلن فيه أنه قتل ابن هبار لحساب رجل مسالم يترك مصعباً في موقف خيار[4] . وبعض الروايات في الأغاني تؤيد هذا الظن وإن لم ترد على النسق المتقدم[5] .

ولم يدخل القتال السجن بعد أن توارى في البيد والجبال ، واستطاع أن يألف قومه أحياناً . ولعلّ الاضطراب السياسي والخلاف بين الحجاز والشام أضعف عنه الطلب حتى تنوسي .

وهذه الحوادث الطارئة كان لها أثرها في أحوال رجال كثيرين فطرت نفوسهم على معافة الذل والرضوخ للسلطة . فمنهم من كان يهرب إلى البوادي

= يشد وثاقي عابساً ويثلني ... إلى حلقات في عمود مرمل
« ديوانه : ص ٣١ ، ب ٢٤ ـ ٢٥ » .

(١) وصف ذلك فقال :
مكالىء باب السجن ليس بمنته ... وكان فراري منه ليس بمؤتلي
« المصدر نفسه : ب ٢٣ » .

(٢) الأغاني : ٢٠/١٦٠ .

(٣) أنظر ص : ٩٤ ح ٢ .

(٤) قال القتال :
تركت ابن هبار لدى الباب مسنداً ... وأصبح دوني شابة وأرومها
بسيف امرىء لا أخبر الناس باسمه ... ولو أجهشت نفسي إليّ همومها
« الأغاني : ٢٠/١٦١ » و « الديوان ص ٤٠ » .

(٥) الأغاني ٢٠/١٦٢ .

يتصعلك أو يحيا حياة الصعاليك هرباً من أمير[1] ، أو حكم قضائي[2] ، أو تهمة في الدين خاف منها السلطان[3] ، فيجد في الصحراء تحرراً وملاذاً خيراً من ضيق السجون وعارها .

ولهؤلاء الصعاليك الذين قادتهم الظروف العامة والخاصة المتقدمة إلى الحبس أشعار المشوقين المعذبين والأبطال المغامرين .

المقالة الثالثة

السجن في مخالفة الآداب والأعراف

السجن في الغزل

معروف أن الغزل تعبير النفوس عن صبوة الجنس نحو الجنس الآخر،

---

(١) انظر جناية رافع الأسدي وهربه من الحجاج وشعره الثائر في « الأشباه والنظائر : ٢٤٣/٢ » وشبيه به سعد بن ناشب (حماسة أبي تمام : شرح التبريزي : ٣٥/١ بولاق) .

(٢) خاصم شبيب بن عوانة الطائي ابن عم له إلى مروان بن الحكم ، فحبسه مروان . فندم شبيب ، ولو عرف عواقب المحاكمة لآثر الفرار ، وقال :

قضى بيننا مروان أمس قضية ... فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعفتها ... ولكن أتت أبوابه من ورائيا

« حماسة أبي تمام : ١٦٩/١ » .

(٣) ظلت الصحراء مثابة للخائفين المتمردين على مدى القرون في أقطار الإسلام . ففي القرن السادس اتهم في الأندلس أبو الحسن بن جودي في دينه ، فطلب وفر ، وصار مع قطاع طريق بين الجزيرة الخضراء وقلعة خولان ، وقال في ذلك :

فأقسم لولا البعد عنكم لسرني ... ثوائي بالغابات وهي فلاة
فإن بها من رهط كعب وعامر ... سراة عنتهم للعلاء سراة
أبوا أن يحلوها بلاد حضارة ... مخافة ضيم والكفاة أباة
فخطوا بأم القفر داراً عزيزة ... تمار على حكم القنا وتقات

« المغرب في حلى المغرب : ١٠٩/٢ » .

وهو شعور فطري غير مدافع، قد تحف به العفة والاحتشام فتتقبله أكثر النفوس، وقد يطرح التحفظ ويصار به إلى التعبير الشهوي المكشوف فيكون مجونا .

ومعروف أيضاً أن عربي الجاهلية كان حريصاً على إذاعة هذا الشعور، فيتوسل إلى قلوب سامعيه بما يحب ويحبون من نسيب بمحبوبته وتعداد لمفاتنها، وسرد مغامراته الغرامية أحيانا، ولا يتأذى أحد بما يسمع ولا يجدون فيه مساءة أو خروجاً عن الأعراف .

ولم يشجب الإسلام هذا الطراز من الغزل، ويمكن القول بأن صاحب الرسالة لم ينه عنه باعتباره تقليداً جارياً لا يتوجه بالإيذاء إلى أحد مقصود، فاستمع في مسجده إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى ينشد القصيدة التي شهرت بالبردة. وكان كعب استهلها بغزل عف بامرأة وهمية أسماها سعاد[1] .

وبذلك أجيز البوح العاطفي المجرد شعوراً إنسانياً سامياً جديراً بالتقدير على أنه من عبث القول وتعلاته، وليس من الجد والتشهير وكشف الستر عن المحصنات الغافلات . فكان كبار العلماء والفقهاء لا يتحرجون من الاستماع إليه على أنه من جميل القول[2] .

ومتعارف أيضاً أن هذا الفن أصابه تطور ملحوظ في العصر الأموي، وجنح إلى الاستقلال عن الأغراض الأخرى في القصيدة التقليدية، وتميز به شعراء في مدن الحجاز وبواديه شهر بعضهم بامرأة مخصوصة وشغل بعضهم بعدة من النساء. وكانت أشعارهم أحياناً تحمل على الجد والحقيقة لاعلى الادعاء. وروج لها الغناء الذائع، وصارت مطلباً للجيل الجديد. وربما كان مسرة بعض النساء أن يذكرن في غزل كبار الشعراء وكان منهم من يتعرض لهن

---

(١) انظر ديوان كعب بن زهير: ص ٦ ، ب ١، وزارة الثقافة مصر ١٩٦٥ .

(٢) انظر جلوس عمر بن أبي ربيعة في حلقة عبد الله بن عباس وإنشاده رائيته« أمن آل نعم أنت غاد فمبكر» واعتراض نافع بن الأزرق على ابن عباس ودفاع ابن عباس عن القصيدة وحفظه لها في «الكامل: ٢/ ٩٦٤ ، أحمد محمد شاكر، مصر ١٩٣٧»

في المحافل وبخاصة نساء علية القوم والأسر الحاكمة عمداً بدوافع مختلفة[1] .

ولم يعرف الحجاز ، رغم تمايز الغزل فيه إلى عذري صائن ومادي عابث مفارقة كبيرة للذوق المحافظ أو إخلالاً بالآداب المتعارفة وإن أخذ عمر بن أبي ربيعة ببوادر الحرية والجرأة في تصوير مواقف اللقاء والاجتماع المحظور .

ولكن العـراق ملتقى الأجنـاس والثقـافـات والأذواق، وبلد الحـروب والثورات والرقي والازدهار هو الذي شهد انحدار الغزل إلى ما وراء الحشمة من المجـون والحديث الفاضح من الشهوات والموبقات.

وعلى رغم ما نوه به من تقبل الذوق العربي للغـزل قبل الإسـلام وبعده فثمة شعراء سجنهم غزلهم وحده، ومنهم من حبس في عهـد الراشـدين، وفي عصر بني أمية، وفي أوائل حكم بني العباس. ولم يؤخذ بعد ذلك أحد بعد أن فارق الناس أخلاق الحفاظ إلى المجتمع المغرق بـالترف والمـلاذ الدارج في الانحلال .

الأسباب البعيدة:

وإذا بدا الغزل أنه هو السبب القريب في الحبس فإن وراءه دواعي جديرة بـالاعتبار والاستقصـاء بعضها سيـاسي، وبعضها أخـلاقي وبعضهـا اجتمـاعي طبقي .

الأسباب السياسية :

أما أن الغزل اتخذ طابعـاً سياسيـاً فقد حـدث أول ما حـدث في خلافـة معاوية بن أبي سفيان، واستغله بعض الشعراء في معظم العصر الأموي. وكانت الخصومات السياسية والعصبية القبلية من وراء ذلك .وكان غرض الشاعر أن يشبب بنسـاء السلطان أو الأشـراف ليفتضحهم وتلوك ألسنـة المنشـدين والمغنيين

---

(١) يرد الحديث مفصلاً عن هذه الدوافع بعد قليل .

أعراضهم. وكان هذا التشبيب سبة مغيظة تحمل أولي الأمر على معاقبة الشعراء الخصوم مر العقاب .

ولا شك أن لم يكن للحب أو الوجد أدنى حظ في هذا الغزل بل هو غزل سياسي محض، وتلك تسمية صالحة له، وهو أدخل في باب الهجاء منه في باب الصبابة والنسيب إذا تحرى عن جوهر الغرض وإن برز في ثياب الغزل .

ودعت الخصومة بين الأنصار والأمويين عندما آلت الخلافة إليهم، إلى مثل هذا الموقف. فتغزل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، بابنة معاوية، وأحنق أخاها يزيد في عهد أبيه[1] . وكان معاوية واسع الحلم، أغضى عن شاعر الأنصار لمكانتهم وحريتهم ولكنه لم يغض عن شاعر آخر تغزل بابنته هو أبو دهبل الجمحي، فتناوله بسجن وعذاب، ومنعهُ هو وخلفاؤه من بعده دخول الشام وصرف إلى أقاصي اليمن[2] . وتناول الشعراء الأمراء أيضاً للعداوة السياسية والمنافسة على المنصب، ولم ينج أشدهم بطشاً من هذا التعريض المسيء، فتغزل أبو نمير الثقفي بأخت للحجاج بن يوسف ، وهام على وجهه في الأرض [3] . واستغل الشاعر العرجي هذا السلاح من الغزل أيما استغلال عندما سجنه عدوه أمير مكة محمد بن هشام المخزومي ، وكان غزله السوط اللاذع الذي صبه الشاعر على خصمه وهو في سجنه حتى مات [4] .

الأحـــوص :

ويبدي الحديث عن الشاعر الأموي الأحوص[5] أبعاد هذه القضية على

---

(١) انظر الكامل: ١/٢٥٥ ، أحمد محمد شاكر . والأغاني : ١٣/١٤٥ .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٣٨٩ ـ ٣٩١ ، والأغاني : ٦/١٤٩ ـ ١٦٥ .

(٣) انظر الأغاني: ٦/٢٦ ، والتنوخي : الفرج بعد الشدة : ٣٧١.

(٤) انظر حديث العرجي في ص ١٣٨ العصبية القبلية من هذا البحث .

(٥) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن أبي الأقلح ، من الأوس ، فهو حفيد صحابي جليل شهيد. انظر جمهرة الأنساب: ٣١٣ .

حقيقتها . فالمشهور عنه أنه كان رجلاً مخنثاً متسفل الخلق، وساق أبو الفرج كثيراً من أخبار شذوذه مع طائفة المخنثين الجدد من المغنين وغيرهم التي ظهرت في المدينة ، وقوبلت باستنكار واشمئزاز[1] وذكر أنه «كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى في شعره معبد ومالك، ويشيع ذلك في الناس ، ونهي فلم ينته »[2] ، وأن أمير المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتب في شأنه بطلب من الأشراف إلى سليمان بن عبد الملك أو إلى عمر بن عبد العزيز ، فأمر بجلده وتقييده وتغريبه إلى دهلك[3] ليحبس فيها . فنفذ الأمر على أقبح صورة وأغلظها[4] وطال بقاء الأحوص سجيناً منفياً ، ولم تجد فيه شفاعة قومه الأنصار ، ولم يفرج عنه ولم يرده إلى موطنه إلا يزيد بن عبد الملك إذ تغنت سلامة بشعر للأحوص يمدح به الخليفة يزيد ، فسأل عنه وسارع في تحريره والإحسان إليه[5] .

وظاهر الأمر يقرر أن الأحوص هجم غزله على أعراض الناس، وكان هو غير مرضي السيرة فعوقب . ومن المقبول أن الخليفة عمر بن عبد العزيز تشدد في حبسه وإبعاده لما عرف عنه من الورع والغيرة على الحدود، ولما كان يكره من إشاعة الفاحشة والترويج لها، ولما كان يريده من الحفاظ والاستقامة . ومن المشكوك فيه أن يكون إصرار عمر على حبسه لأمره غيره. ولكن الذي يمكن أن ينظر إليه بعين الشك الناقد أن يكون الشاعر قد تغزل بنساء رآهن وعرفهن أو صبا إليهن أو حركن فيه أثرا من عاطفة الحب[6]. ومن المشكوك فيه أيضاً أن يكون

---

(١) الأغاني : ٤/ ٤٠ ـ ٥٩.

(٢) الأغاني : ٤/٤٨ .

(٣) دهلك جزيرة بين بلاد اليمن والحبشة ، ضيقة حرجة حارة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. انظر معجم البلدان: دهلك والخزانة : ١/ ٣٣٢ ـ ٢٣٣ .

(٤) ضربه ابن حزم مائة سوط، وأقامه على البلس في سوق المدينة، وغربة إلى دهلك في محمل عريانا (الأغاني : ٤/٤٨).

(٥) الأغاني : ٤/ ٤٩ .

(٦) انظر أمالي الزجاجي : ١٩١ .

الشكاة منه قد ساءهم غزله وحده، فلم يكن ثمة أحقاد وعداوات سياسية سابقة .

والنظر في الشعر الذي صدر عن الأحوص في نكبته لا يترك مجالاً للشك في أن قضيته سياسية عصبية خالصة. واستطلاع ماضي الشاعر يشير إلى صلة حسنة بالأسرة الأموية الحاكمة، وكان مداحا لعبد العزيز بن مروان أمير مصر(١) . وتدل أشعاره في حبسه على أنه كان يرجو من الأمويين معرفة لحقه وتقليده عملاً من أعمالهم. وكان يترقب عند الخليفة عمر بن عبد العزيز حظوة لما كان صاغ في أبيه من المدائح، ولحق القرابة التي تصل بين عمر والأنصار من جهة أمه (٢) . غير أن سليمان بن عبد الملك ثم عمر من بعده أغفلا للأحوص حقه ، وقدما عليه رجلا وجده الأحوص دونه سابقة عند الأمويين ونسباً وكفاءة ، وهو أبو بكر بن حزم المشار إليه ، وأمروه على المدينة، فاستشاط الأحوص غيظاً حتى كاد يتقطع ألماً كما قال هو بصريح العبارة(٣) . وصار العدو الأول لابن حزم ومن شايعه ، ولم يجد وسيلة للانتقام منهم والتشهير بهم سوى التغزل بنسائهم وترديد

---

(١) انظر طبقات ابن سلام: ٥٣٤ ـ ٥٣٨ ، والأغاني : ٤/ ٥٠.

(٢) كانت جدة عمر ، وهي زوج عاصم بن عمر بن الخطاب، أنصارية ، وإلى ذلك يشير الأحوص في خطابه عمر بن عبد العزيز :

وكيف ترى للعيش طيباً ولذة ... وخالك أمس موثقاً في الحبائل

« الأغاني : ٨/ ٥٥».

(٣) أرسل الأحوص من سجنه إلى عمر يقول من أبيات :

ألست ، أبا حفص ـ هديت ـ مخبري ... أفي الحق أن أقصي ويدنى ابن أسلما
الا صلة الأرحام أدنى إلى التقى ... وأظهر في أكفائه لو تكرما
فما ترك الصنع الذي قد صنعته ... ولا الغيظ مني بعد جلدا وأعظما
وقد كنت أرجى الناس عندي مودة ... ليالي كان الظن غيباً مرجما
أعدك حرزا إن جنيت ظلامة ... ومالاً ثريا حين أحمل مغرما
تدارك بعتبي عاتباً ذا قربة ... طوى الغيظ لم يفتح بسخط له فما

«الاغاني ٤/ ٤٩».

هذا الغزل على ألسن مشاهير المغنين . والأمير في مركز قوة، وثمة غير سبب يستعين به لتغيير قلب الخليفة على الشاعر. وقد أتاه من الجانب الأخلاقي وهو تخنثه وعدوانه على الأعراض . فأمر الخليفة بجلده ونفيه وسجنه، وبذاك تمكن أعداؤه منه بإذن أعلى، وشفوا نفوسهم منه تشهيرا وضرباً وتعذيباً قبل النفي والسجن .

وكان الأحوص يعلم، والسياط تنهال عليه على ملأ من الناس، أنها ليست سياط الحد والشرع بل هي سياط العداوة والانتقام، وسياط عصبية غير الأنصار على الأنصار فالأنصار يريدون أن يكونوا في مدينتهم الأمراء، والأحوص لسانهم الناطق ، ويرى مأساته مع ابن حزم مأساة قومه أجمعين . ولذلك تماسك من غير استخذاء عند العقوبة صنع أبطال القبائل الثائرة في السجن وعند القتل(١) . وظلت عصبيته طوال سجنه لم تخمد، ينهال على آل حزم هجوماً ووعيداً بالهجاء، الفاضح، ويعاتب عمر بن عبد العزيز على إهماله له وإطالة حبسه وتقديم أعدائه عليه، وصوته عال، وقلبه حانق غاضب، وكرامته متنمرة ، ورجاؤه صار من غير تصاغر(٢) .

---

(١) روى أبو الفرج بإسناد، وقال : « رأيت الأحوص حين وقفه ابن حزم على البلس في سوق المدينة، وإنه ليصيح ويقول :

ما من مصيبة نكبة أمنى بها	إلا تعظمني وترفع شأني
وتزول حين تزول عن متخمط	تخشى بوادره على الأقران
- إني إذا خفي اللئام رأيتني	كالشمس لا تخفى بكل مكان
إني على ما قد ترون محسد	أنمى على البغضاء والشنآن

الأغاني: ٤/ ٤٤ ـ ٤٥ وابن سلام : ٥٣٨ .

(٢) أرسل إلى عمر من سبعة عشر بيتا :

أيا راكبا إما عرضت فبلغن	ـ هديت ـ أمير المؤمنين رسائلي
أفي الله أن تدنوا ابن حزم وتقطعوا	قوى حرمات بيننا ووصائلي
فكيف ترى للعيش طيباً ولذة	وخالك أمس موثقاً في الحبائل
وما طمع الحزمي في الجاه قبلها	إلى أحد من آل مروان عادل =

وهذا الموقف من الرجولة صبرا وتحدياً لا يوافق خلق المخنثين ، فقد اتهم الرجل بأخلاق النساء بلد المنحلين المطعون عليهم في رجولتهم . ومن كانت هذه حاله لا يصمد للنكبات الكبار، ولا يستعلي في العذاب والهوان . ولو كان الاتهام حقاً لتخلى عن نصرته كبار الأنصار الذين كانوا يرحلون في شأنه إلى الشام . وكان الإمام ابن شهاب الزهري الأنصاري أول من خرج من عند الخليفة ببشارة الإفراج عنه إلى قومه الأنصار ليلاً لم ينتظر النهار(١). وغير بعيد أن تكون العصبية والحزازات السياسية قد وصمت هذا الرجل ببهتان كبير، فإن من العداء افتراء يشوه كثيراً من حقائق التاريخ(٢) .

فليس راجحاً أن يكون عقاب الأحوص في حقيقته غيرة على الأخلاق ـ إن صح ما نسب إلى الأحوص من الانحلال ـ فقد كان في المجتمع له أشباه لم

= رجا الصلح مني آل حزم بن فرتنا ... على دينهم جهلاً ولست بفاعل
علي حين حل القول بي وتنظرت ... عقوبتهم مني رؤوس القبائل
فمن يك أمس سائلا بشماتة ... بما حل بي أو شامتا غير سائل
فقد عجمت مني العواجم ماجدا ... صبورا على عضات تلك التلاتل
اذا نال لم يفرح وليس لنكبة ... إذا حدثت بالخاضع المتضائل

«الاغاني : ٨/٥٤ ـ ٥٥ ».

(١)الأغاني : ٤/٤٩ .

(٢) أشار الأحوص في القصيدة التي أرسلها إلى عمر من السجن إلى مادس عليه وبهت به ، فقال :

وكنت أرى أن القرابة لم تدع ... ولا الحرمات في العصور الأوائل
إلى أحد من آل مروان ذي حمى ... بأمر كرهناه مقالاً لقائل
يسر بما أنهى العدو ، وإنه ... كنافلة لي من خيار النوافل
وشى وأطاعوه بنا وأعانه ... على أمرنا من ليس عنا بغافل
فهل ينقضن القوم إن كنت مسلما ... بريئاً بلائي في ليال قلائل

«الأغاني : ٨/٥٤ ـ ٥٥

(٣) الأغاني : ٤/٤٩ .

يعاقبوا عقوبته . وإنما كان الاتهام الخلقي ذريعة كما كان غزل الأحوص ذريعة . وهي ذريعة كافية لإيجاب العقوبة عند خليفة مثل عمر. ولو لم يبالغ أعداؤه في تضخيمها لكان التغاضي عنها ممكنا. ولذلك سقط اعتبارها عند خليفة غير متزمت هو يزيد بن عبد الملك، وساءه ما صنع سلفه بالشاعر .

ووجيز القول أن الأحوص سجنه أمران : حقد أمير المدينة عليه، واستياء الخليفة من غزله، فأما الأول فخصومة وعصبية، وأما الثاني فأخذ بظاهر الأمر دون حسبان للدوافع الخفية .

الأسباب الأخلاقيـة :

ويحدث الحبس بدافع خلقي بحث إذا هدد الغزل مثل المجتمع وتقاليده وروج للميوعة وجهر بالفحشاء ، أو إذا عرض بقوم المحبوبة وإن كان الشاعر عاشقاً حقاً غير معتمد الإساءة إلى أحد .

ويقوى أثر هذا الدافع بمقدار تحسس الحاكم والمجتمع به ، وتقل أهميته في البيئات المنطلقة. ومن ثم نرى أثره لا يجاوز مطلع العصر العباسي ، وهو أقوى في البوادي والقبائل منه في مجتمعات المدن المتفرقة .

الذلفـاء :

ويبدو أن التعبير عن لواعج الذات تعبيراً حراً صادم في صدر الإسلام مراقبة السلطة الشديدة للأخلاق والسلوك، فاتخذ عمر بن الخطاب موقفاً حازماً من الغزل الذي لا يتحرج في الاعلان عن رغبات النفوس في الجنس الآخر وإن كان غير بذيّ النبرة والغرض(١) . ومسارعته إلى معاقبة إحدى النساء المتغزلات

---

(١) «تقدم عمر بن الخطاب إلى الشعراء أن لا يشبب أحد بامرأة، فقال حميد بن ثور :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفناء العضاة تروق

كنى عن المرأة التي أرادها بالسرحة «معجم الأدباء : ٤/ ١٥٤ والشعر من قصيدة في ديوانه : ص ٤١ ، تحقيق عبد العزيز الميمني، مصر ١٩٦٥ م وانظر الأغاني ٤/ ٩٨.

أوضحت اتجاه السلطة وموقفها .

وكانت المرأة تسمى الذلفاء ، ولعلها من النشء الجديد في المدينة الذي فارق الشظف والتزمت ومال إلى المصارحة في أهواء النفس . وكانت شاعرة تحسن الغناء ، لم تشب سيرتها شائبة، ولم تعرف بسوء . فانطلقت ذات يوم تفصح عن ذاتها تتغزل بفارس ذائع الصيت بطولة وجمالاً باهراً ، نزل المدينة فأصبح حديث نساء ورجل أحلام . وكان شعرها بلا شك يجسد هذه الرغبة[١] ولم يكن في غزلها ما يشين، ولم تعد أن صورت فيه إعجاب الفتاة العربية بالفارس الوسيم البطل، وهو مثلها المطلوب في عصور الفروسية والحرب .

وتنوشد الشعر ورفع إلى عمر فسارع في حبس الذلفاء ، وأخذ الفارس فحلق لمته، وأخرجه عن المدينة إلى البصرة . ولم يكن له في الحق أي نشاط بين النساء ولا صلة بالذلفاء . وأرسل إلى عمر شعراً يحتج فيه لبراءته وصلاحه وطهارة الذلفاء. وألفاه عمر بريئا فأعاده وأصلح حاله[٢] . أما الذلفاء فاعتذرت وتأولت غزلها، فقبل عمر علانيتها وأطلق سراحها[٣] .

---

(١) قال الواقدي: «سمع عمر نشيد شعر من دارٍ ، فوقف فإذا الذلفاء تنشد وتقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... تضيء صورته في الحالك الداجي
نعم الفتى في ظلام الليل صورته ... لبائس أو لملهوف ومحتاج

فتوح الإسلام لبلاد العجم ، وخراسان : ص ٨٠.

(٢) انظر المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ: ص ١٦٨ . ونهج البلاغة : ٧٦٩/٣.

(٣) قال الواقدي : «علمت الذلفاء أن عمر سمعها، وأشفقت على نفسها من عقوبته : فكتبت إليه من محبسها بهذه الأبيات :

قل للإمام الذي تخشى بوادره ... ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج
إني عنيت أبا حفص بغيرهما ... شرب الحليب وطرف فاتر ساج
إن الهوى زلة التقوى ونورهما ... طول التهجد في ليل بإدلاج

فلما وصل مكتوبها إلى عمر أمر بإخراجها . . .» فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان : ص ٨٠ .

وما عاقب عليه عمر أصبح أهون هين على ما أذاعته ألسنة الشعراء من غزل الحجاز والعراق .

بشار بن برد:

ولم تضرب عقوبة على الغزل المقول بعد عمر، ولكن على المقارفة والسلوك[1] . وكانت الحضارة أخلت بأخلاق الناس، ولم يبق الملوك والأمراء خيراً من شعرائهم وعامتهم. وتغيرت القيم في المدن تغيراً ملحوظاً[2]، وشهدت مدن العراق مجوناً من بني أمية . ولم يبطىء على الشعراء عهد صرحوا فيه باشتهاء الغلمان [3] .

غير اننا نفاجأ بحبس بعض الشعراء في خلافة المهدي بن المنصور بغزل قالوه ، وتهددهم بالضرب . وكان نهيه عن حديث العشق عاماً لما أفرط فيه نفر من الشعراء مثل بشار بن برد ، من الغزل شبه المكشوف ، يهون به على الفتى والفتاة أمر الفحشاء [4] .

أبو العتاهية :

ومهما تكن دوافع بشار الى ذلك فإن الفقهاء والزهاد ارتاعوا من غزله وأثاروا عليه الرأي العام ، واستجاب المهدي لذلك فمنع غزل العاشقين ، وضرب بعضهم ، وأخاف الكثيرين فامتنعوا [5] ، ولا شك أن قوة الفقهاء

---

(١) ذكر ابن النديم في أخبار محمد بن اسحاق صاحب السيرة: «يحكى أن أمير المدينة رقي إليه أن محمدا يغازل النساء، فأمر بإحضاره . وكانت له شعرة حسنة فحلق رأسه وضربه أسواطاً ، ونهاه عن الجلوس في مؤخر المسجد، وكان حسن الوجه . .» الفهرست: ١٤٢ .

(٢) «كان أول من انحرف بأشعار الغزل إلى المجون مرداس بن خذام الكوفي . وشبب بزوجته، وكانت فارسية ثرية من الري . «بروكلمان : ١/٢٠٣ .

(٣) انظر شعر عباد المخرق في الورقة لابن الجراح : ٩٨ - ٩٩ .

(٤) المختار من شعر بشار : ١٠٩ ، الأغاني : ٣/٢٠ - ٧٠ .

(٥) كان أبو دهمان الغلابي من البصرة ، وهو من مخضرمي الدولتين ، مدح المهدي ، وقال لما ضرب أبا العتاهية بسبب عشقه جاريته عتبة :

فرضت هذه العقوبة فربما كان السلطان نفسه آخذاً لحقه من المتعة بأوفى نصيب (١) ، وكان أبو العتاهية ممن حبسهم المهدي في الغزل أيضاً ، ولكن في شأن خاص ، وكان أبو العتاهية كلفاً بجارية لزوج المهدي أو مظهراً الكلف بها ، فتذمرت الجارية الى ربتها ، فحملت الخليفة على تأديبه ، ثم شفع له خال المهدي فأطلقه (٢) .

شعراء البوادي :

أما البوادي فكانت أدنى إلى مراعاة القيم والأعراف ، وكان أهلها يتأذون من الغزل ، ولو عذرياً ، إذا أشهر اسم فتاتهم ، ولما استهتر جميل بثينة بذكرها شكاه رهطها الى مروان بن الحكم أمير المدينة ، فطلبه ، فتوارى عنه بعد ان بلغه الوعيد بقتله أو قطع لسانه . وقد ينتهي التعريض في التشبيب بين أهل البادية الى فتن وجرائم قاتلة (٤) ، وقيل ان الشاعر ابن الدمينة قتل رجلاً من قومه شبب بامرأته ثم قتل به (٥) ، وكثيراً ما تشكوا إلى أمرائهم من شعرائهم فلا

= لولا الذي أحدث الخليفة في العشاق من ضربهم إذا عشقوا
لبحت باسم الذي أحب ولكني امرؤ قد ثناني الفرق
أخاف ان بحت أن أعاقب والقلب طول الكتمان يحترق
الورقة : ٦٣ ، الأغاني : ١٩/١٥١ .

(١) انظر المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ : ١٧٦ ، وما روي عن المهدي من القصص المستورة الجريئة ، وعهدتها على من رواها .

(٢) الشعر والشعراء : ٢/٦٧٦ ، ط. دار الثقافة .

(٣) قال جميل :

أتاني عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

(٤) انظر حديث هدبة بن خشرم الذي سجن طويلاً في المدينة (حماسة أبي تمام للتبريزي) و ٢/١٢ - ١٧ بولاق قتل من جراء تبادل التشبيب رجزاً بينه وبين ابن عم له ، انتهى بهم الأمر الى خصام وقتل .

(٥) الأغاني : ١٥/١٤٤ - ١٥٦ .

يتلكؤون بعقوبتهم [١] ، وكانوا أحياناً يقبضون على الشاعر ويسلمونه للأمير فيحبس عنده [٢] .

ولا شك ان الحفاظ على الأخلاق والمحاماة عن أعراض الناس إخلاصاً أو نزولاً لصوت الشرع والجمهور كان الداعي لما أصاب هؤلاء الشعراء من العقاب من جراء غزلهم .

الأسباب الاجتماعية :

وكان تركيب المجتمع الطبقي من أحرار وموال وعبيد يعد لخلاف بين الطبقات ، ولحقد الدنيا على العليا [٣] ، وتمثل هذا الحقد الجارح في غزل سحيم عبد بني الحسحاس الذي سجن وعذب ثم قتل به .

سحيم عبد بني الحسحاس :

وموجز حديثه أنه كان في بني الحسحاس عبداً حسن الخدمة غير انه مخشي اللسان ، وكان يكثر ذكر نسائهم في شعره ، ويصرح بإتيانهن ، فتهددوه ، وحملوه إلى أمير المدينة ، فسجن وجلده ، ولما عادوا به عاود ما كان منه من التشبيب الفاضح ، فحبسوه عندهم وعالجوه بالعقوبة ، فلم يرعو فقتلوه أو قذفوه بالنار [٤] .

---

(١) انظر حديث الشاعر يزيد بن الطثرية وكيف سجن وعوقب من جراء طيشه ثم تشبيبه بامرأة مخصوصة كان يهواها . (الأغاني : ٧/١٠٩ ـ ١١٥) .

(٢) انظر حديث الشاعر العاشق الحبيس في دير حزقيال ، وكان كتب قصة حبه على إحدى سواري الدير ، وكان عمه حمله الى الأمير لتغزله بابنته ، فحبسه بالدير . (معجم البلدان : دير حزقيال) .

(٣) وذلك في محاولة التجاوز الطبقي التي كان يخفق العبيد فيها رغم ملابستهم للأحرار ، وكانت حوادث مذكورة . قال الثعالبي : « قال الجاحظ : ثلاثة من العبيد قتلوا بسبب العشق : منهم يسار الكواعب ، ومنهم عبد بني الحسحاس ، ومنهم وضاح اليمن » . ثمار القلوب : ١٠٩ .

(٤) ابن سلام : ١٥٦ .

ويذكر بروكلمان ان سحيماً أنشد عمر بن الخطاب قصيدة فاحشة ، فقتله [1] . وزعم بروكلمان ان الجاحظ أفاد ذلك في كتاب المحاسن والأضداد ، وما ورد في الكتاب المذكور لا تستخرج منه هذه الدعوى ، وأكثر ما يستفاد منه أن عمر حذره ان يقتله أسياده ، فقال له : « ويلك إنك مقتول » [2] ، على أن استماع عمر إلى غزله حادثة تقبل الشك الكثير ، ولا تثبت للمقابلة التاريخية [3] .

وفي كتب الأدب وفي ديوانه قصص كثير حول مغامراته وما كان منه ساعة القتل [4] ، ومن الأجدر ألا يؤخذ هذا القصص على أنه حق ، ومعظمه وضعه الرواة على أشعار سحيم لتوضيحها وتلوينها بلون من الواقع ، على حين لا يعدو الشعر أن يكون دعوى خيال .

ولا يستخلص من هذا القصص حقيقة معتمدة ، ومن الخير التعويل على الشعر وحده للتعرف على سر هذا الرجل في نفسه وموقفه من أسياده وتحديه لهم حتى هلك عناداً .

ويدل شعره على أنه كان أسود دميم الصورة ، تجفوه النساء ، ويترفعن عن معاطاته الحديث ، فكان في قرارة ذاته بائساً محروماً من نعمة المرأة

---

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ١/١٧١ .

(٢) المحاسن والأضداد : ٢٩٢ . وفي طبعة دار الكتاب العربي ببيروت : ص ١٧١ .

(٣) قلت : إن عمر بن الخطاب ، على ما عرف عنه من تقديره للشعر وإيصاء العرب بروايته لم يكن في حياته بطالة لينصت الى قصيدة من الغزل العملي الفاحش ، وعمر هو ما هو غيرةً وصرامة في الدين والخلق . وسجن الذلفاء في شعر هو عف إذا قورن بشعر سحيم . فكيف يترك هذه البادرة الخطرة دون عقاب ، ومن جهة ثانية قتل سحيم سنة « ٤٠ هـ » (بروكلمان : ١/١٧١) أو سنة « ٣٥ هـ » في خلافة عثمان (مقدمة ديوان سحيم : ٥) ومعنى هذا ان الشاعر راح يهجو ويتغزل ردحاً طويلاً قبل مقتله ، وحجم ديوانه لا يشهد بذلك .

(٤) ابن سلام : ١٥٧ والخزانة : ١/٢٧١ ـ ٢٧٤ .

الكريمة وعطفها ، وكان يحس في أعماق نفسه أنه ليس موضع رغبة أبداً [(١)] ، وكان هذا منبع ألم نفسي حاد عنده إذ كان قوي الجسد عارم الغريزة شبقاً ، تستهويه المرأة البيضاء ، وكان يرى فتيان القبيلة يظفرون من الفتيات بالتعاطف والوصال ، فيتشهى مثل حالهم ، وهو عاجز معزول ، فينطوي على ظمأ للمرأة وحرمان شديد [(٢)] .

ويفاقم هذا الألم منزلته الاجتماعية ، فهو عبد مملوك ، وأمثاله من العبيد ممن أوتوا رجولة وافرة وكرامة متيقظة وشعوراً مرهفاً ، يعانون شقاء ثقيلاً لما تسحبه عليه الفوارق الطبقية من المذلة ، ولما تفوّت عليهم من الحظوظ التي يظفر بها الأحرار ، ومن هنا منشأ حقد راسخ لا يزول عنهم ، وأدرك بعضهم خبيئة سحيم وأمثاله فأعرض عن شرائه خوفاً من أذاه [(٣)] ، ولا يغالى إذا قيل ان

---

(١) يوضح هذه الأمور قوله :

أتيت نساء الحارثيين غدوة ... بوجه براه الله غير جميل
فشبهنني كلباً ولست بفوقه ... ولا دونه إن كان غير قليل

(ديوان سحيم : ٦٩ ، ت : عبد العزيز اليمني ، القاهرة ١٩٦٥) وقوله)

رأيت الحبيب لا يمل حديثه ... ولا ينفع المشنوء أن يتوددا

« ديوانه : ص ٤١ ، ب ١٠ » .

(٢) له شعر كثير يصور نزوعه الى المرأة واشتهاءه لها ، منه :

وبتنا وسادانا إلى علجانة ... وحقف تهاداه الرياح تهاديا
توسدني كفا وتثني بمعصم ... علي ، وتحوي رجلها من ورائيا
وأشهد عند الله أن قد رأيتها ... وعشرين منها إصبعاً من ورائيا
أقلبها للجانبين وأتقي ... بها الريح والشفان من عن شماليا

ديوانه : ص ١٩ ، ب ١٧ ـ ١٨ و ٢٤ ـ ٢٥ » .

(٣) قال ابن سلام : « ذكروا عن عثمان بن عفان أنه أتي بعبد من عبيد العرب ، نافذ فأراد شراءه ، فقيل له : انه شاعر . فقال : لا حاجة لي به إن الشاعر لا حريم له .

ويقال : إنه عبد بني الحسحاس ، وذلك قبل خلافة عثمان . « طبقات الشعراء : ١٥٦ ، والديوان : ص ٥٥ » ، وفيه : « لا حاجة لنا فيه ، لأنه إن شبع شبب بنساء أهله ، وإن جاع هجاهم » .

مأساة سحيم مردها كلها الى شعوره بخساسة قدره وهوانه على الناس[1]، والنظر إليه نظرتهم الى سلعة بخسة من غير تقدير لأحاسيسه وقلبه ، فقد باعه أصحابه مرة بعد صحبة وعشرة مديدة ، فأحس كأنما يقتلع من جذوره ويرمى به الى الرياح [2] .

وكان سحيم حاد المزاج سريع الغضبة ، متوقد الغيظ ، فزاد مزاجه في أزمته النفسية . ولا تعرف حوادث مخصوصة تصور طابعه العصبي ، غير أن هذا الطابع في إنتاجه الأدبي بارز ملموس ، فكان يخلع على الطبيعة صور مزاجه الحانق المضغوط ، مما يدل على حياة داخلية تجيش بالأسى والبؤس ، وكان في محنته أحياناً يفضي بما ينم عن مركباته النفسية [3] .

وإذا جليت ظروف سحيم الاجتماعية والذاتية فليس من المقبول ان

---

(١) قال في وصف هذا الشعور :

أشارت بمدراها وقالت لتربها: أعبد بني الحسحاس يزجي القوافيا
رأيت قتبا رثا وسحق عباءة وأسود مما يملك الناس عاريا
يرجلن أقواما ويتركن لمتي وذاك هوانٌ ظاهر قد بدا ليا
فلو كنت وردا لونه لعشقنني ولكن ربي شانني بسواديا

« ديوانه : ص ٢٥ ، ب ٤٨ ـ ٥١ » .

(٢) قال في ذلك :

أشوقا ولما تمض لي غير ليلة فكيف إذا سار المطي بنا عشرا
أخوكم ومولى خيركم وحليفكم ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا
وما خفت سلاما على أن يبيعني بشيء ولو أمست أنامله صفرا

« ديوانه : ص ٥٦ » .

(٣) قال في وصف السحاب الممطر :

بكى شجوه واغتاظ حتى حسبته من البعد لما جلجل الرعد حاديا

« ابن سلام : ٧٨ » وقال في حبسه :

أرقا وتغنيظا ونأيا وفرقة على حين أبصرت المشارع تنشف

(ديوانه : ص ٦٣) والتغنيظ : أشد الغيظ .

يعرض نفسه للعذاب والتلف حباً في الغـزل وجريـاً مع هـوى شاعـريته ، وألا يرعوى وقد ذاق السجن واقتيد الى الموت لولا آلام جائحة ودوافع فيه لا تقاوم أمعنت به في محاربة القوم حتى الرمق الأخير .

وتلك الدوافع هي ما سبق بيانـه ، فكان سحيم شقيـاً حقاً ، حقـد على الأحـرار استعبادهم لـه ، وحقد على لـونه وخلقتـه ، وتلظى بنار الحـرمان من الجنس الأبيض (١) ، وكانت شاعريته سلاحه الوحيد ، وهو سلاح ماض إن كان الشعر يقع من النفس موقعاً مرضياً يكفل سيرورته (٢) .

ولم يهـج سحيم إذ لا يؤخذ هجـاء العبيد بـإعتبار . ولكنـه أخذ سبيـل التشبيب الفاضح ، يزعم فيه تمكنه من الشريفات ، لا يقول ذلك إلا انتقاماً من أسياده (٣) ، وكانت أشعارهم تستثير كوامن سخطهم على علمهم بتكذابه وبراءة نسائهم ، غير ان الشعر الفضاح متى تنوشد كان سبة لازمة صدقاً كان أو كـذباً فأخذوه بالعقاب بما لهم من السلطان عليه وحرية التصرف بمصيره، ولم يكن في حبسه استصلاح له بل زيادة ثورة لما فطر عليه من العناد والتحدي ، فكان يرد من سجنه بالقصـائد الفـواضح (٤) ، ويستهين بحبسـه وبالجلد مكـابرة وهـزءاً

---

(١) لا يـذكر إلا المـرأة البيضاء ، أنـظر ديوانـه : ص ١٨ ، ب ١٠ وص ٦٢ ، ب ١٠ و ١٥ .

(٢) قـال ابن سلام في سحيم : « وهـو حلو الشعـر ، رقيق حـواشي الكـلام » طبقـات الشعراء : ١٥٦ .

(٣) له في ذلك شعر كثير يسمي فيه النسوة ، انظر ديوانه : ص ٣٤ و٥٧ و ٦٤ .

(٤) من ذلك قوله وقد أكثروا ضربه :

إن تقتلوني فقـد أسخنت أعينكم ... وقـد أتيت حـرامـا ما تـظنـونـا
وقـد ضممت الى الأحشـاء جـاريـة ... عـذب مقبلهـا ممـا تصـونـونـا

(ديوانه : ص ٥٩) وقوله :

شـدوا وثـاق الـعبـد لا يـفلتـكـم ... إن الحيـاة مـن المـمـات قـريب
فلقـد تحـدر من جبين فتـاتكـم ... عـرق عـلى متـن الفـراش وطـيب

(ديوانه ص ٦٠) وانظر « ص ٦٣ » ثمانية أبيات قالها في محنته .

بأسياده لا يكف عنهم لسانه [1] ، ورضي أن يموت على أن يبلغ من تغييظهم مبلغاً بعيداً ، فذلك كان انتقامه الأوحد ، لم يقلع عنه حتى اللحظات الأخيرة إذ وقف للموت وهو يوزع الاتهام يمنة ويسرة على اللواتي وقفن يشهدن مقتله مع الرجال [2] .

وجماع الحديث ان سحيماً قتله وضعه الطبقي ، كما كانت قضايا السياسة وراء مآسي شعراء آخرين ، ولم يكن الغزل غير وجه مستعار ، وكان بعض الغزل تصوير رغبات منطلقة وقفت منها السلطة موقفاً سلبياً في صدر الإسلام ، وفي سنحات من الحكم الأموي ، وفي أول حكم بني العباس .

السجن في الخمر :

من الشائع أن عرب الجاهلية كان لهم على الخمر إقبال على اختلاف فئاتهم ، ولا يتذمم من شربها إلا قلة كانت تتأله أو تجد في الخمر إرهاقاً للجسد أو تحيفاً للمال . أما الغالبية فكانت عندهم من متممات الرجولة ومن دلائل

---

(١) قال وقد جلد ثمانين جلدة :

أبا معبد بئس الفراضة للفتى ... ثمانون لم تترك لحلفكم عبدا
كسوني غداة الدار سمراً كأنها ... شياطين لم تترك فؤادا ولا عهدا
فما السجن إلا ظل بيت سكنته ... وما السوط إلا جلدة حالفت جلدا
أبا معبد والله ما حل حبُّها ... ثمانون سوطا بل تزيد به وجدا
فإن تقتلوني تقتلوا ابن وليدةٍ ... وإن تتركوني تتركوا أسدا وردا

« ديوانه : ص ٦٦ » .

(٢) ذكر غير مصدر أنهم « غدوا به ليقتلوه ، فلما رأته امرأة كانت بـ بها وبينه مودة ثم فسدت ضحكت به شماتة ، فنظر إليها وقال :

فإن تضحكي مني فيا رب ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفرج

(الأغاني : ٢٠/٥ ، والديوان : ٥٩ ، وثمار القلوب : ١٠٩) . قلت : ولا شك ان المناسبة من اختلاق اصحاب القصص ، لا يعدو الأمر أن يكون سحيم أحس الشماتة في وجوه الملأ فالتفت الى إحدى النساء ورماها بما رماها .

السخاء والرخاء ، ومطلباً أصيلاً لمن أراد الاستمتاع بمباهج الحياة[1] . وكان شاربها لا يذم إلا إذا تجاوز أثرها ماله إلى نفسه وأخلاقه ومروءته[2] . لذلك كان متعاطيها لا يخشى عاراً اجتماعياً إلا عند الإفراط المؤذي ، ومن ثم لم يعاقب عليها في الجاهلية أحد .

ومن المعلوم أن الإسلام حرم الخمر ، وضرب شاربها الحد ، وأصبح من يتناولها مضطراً للتواري عن أعين السلطة والأشهاد ، فإن ضبط متلبساً بشربها أخذ بالسجن والجلد . ومن المتوقع أن تكثر الحوادث من هذا القبيل ، وأن يساق كثير من المدمنين عليها إلى الحبوس . والملاحقة ـ كما هو معروف ـ تفتق الحيلة ، وتزيد بعض النفوس المفطورة على الصلابة والعناد تمرداً وتحدياً . وكانت السلطة تراقب نهار ليل ، وكل من ضبط متأخراً بليل أودعه العسعس الحبس وغالباً ما ظهر فيه الشراب[3] .

والشعراء الذين سجنوا بالخمر كثر ، ومن الممكن التمييز بين البداة أو من كان قريب عهد ومكان من البادية وبين العاكفين على شربها من شعراء المدن . أما الفريق الأول فكان لا يزال على مفاهيم الجاهلية في الخمر ، يرى فيها سيماء المرؤة والكرم ، ولا يضعف عزمه الحبس فيها ، ولا يزال يجادل عن شربها مجادلة الجاهليين صنيع جعفر بن علبة الحارثي ، وكان من بادية نجد[4] . والشعراء البداة الذين انتقلوا إلى المدن ، ممن كان معاقراً للخمر، كان

---

(١) انظر أشعار طرفة وأعشى قيس وحسان بن ثابت في مدح الغساسنة .

(٢) من المشهور قول عنترة :

فإذا شربت فإنني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يكلم

« ديوان عنترة : ص ٢٠٦ ، ق ١ ، ب ٤٥ ، تحقيق سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٠ » .

(٣) أنظر في الأغاني أخبار الأقيش (١٠/٨٦) والسيد الحميري (٧ /١٨) وأبي دلامة (٩/١٢٣) .

(٤) « شرب جعفر بن علبة الحارثي حتى سكر ، فأخذه السلطان فحبسه ، فأنشأ يقول :

لقد زعموا أني سكرت وربما يكون الفتى سكران وهو حليم =

حب الشراب يغلبه على الحذر والخوف . وكان سوط الخليفة لا يعرف مجاملة ولا مداراة ، ولما غلب الإغراء النجاشي الحارثي على تناولها في رمضان زيد في عقوبته[1] .

أبو محجن الثقفي :

ومن هذا الفريق الشاعر الفارس أبو محجن الثقفي ، وحديثه مشهور ولم يعاقبه الخليفة الثاني لتناوله الخمر مع ثلة من الرجال فحسب ، ولكن أبا محجن كان يشهر تعلقه بها، ويدعي شغفه بها حياً وميتاً[2] . والمعروف أن عمر بن الخطاب كان لا يتهاون في إقامة الحدود ، فتشدد في ملاحقة الشاربين وإرهاقهم بالعقوبة وجلد أبا محجن مراراً ، ولما أعياه أمره أطال حبسه . وكان الشاعر من العناد والتحدي بمكان صعب . فكان يتقبل الحد ويعتبره طهراً من الخمر[3] . ولكن من الخطأ الظن أن حبه الخمر كان يهون عليه العقاب والسجن ، فما كان يعاود الشرب إلا مكابرة فهو من الرجال الذين يأنفون أن يتزحزحوا عن موقف بما ينالهم من الأذى والوعيد . وكان أبو محجن على

= لعمرك ما بالسكر عار على الفتى   ولكن عارا أن يقال : لئيم
وإن فتى دامت مواثيق عهده   على دون ما لا قيته لكريم »
الأغاني : ١١/١٤١ .

(١) جلده علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مائة سوط ، وحد الخمر ثمانون ، ووقفه للناس . أنظر شرح نهج البلاغة : ١ / ٨٠٠ ومعجم البلدان : الكوفة .

(٢) زعم أبو محجن أن عمر حبسه لأنه قال :
إذا مت فادفني إلى أصل كرمة   تروّي عظامي بعد موتي عروقها
الأغاني : ٢١/١٤٠ .

(٣) قال أبو محجن :
يطهرني منها السياط وتارة   على حر وجهي قد أجر وأسحب

(٤) جلد عمر بن الخطاب أبا محجن ، فأنشأ يقول : فتوح العرب لبلاد العجم : ص ٢٩ من تسعة أبيات
ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى   ولا يستطيع المرء صرف المقادر =

استعداد للامتناع من شربها أنفة واختياراً من غير عقاب ، فهويمثل الفردية العربية العنيدة تمثيلاً فذاً ، ولما أتيح له هذا الظرف فارق الخمر فراق من لم يعد إليها .

وكان الخليفة عمر أزمع إبعاد أبي محجن عن المدينة ، لما استيأس منه ، إلى جزيرة منقطعة في عرض البحر(١) . غير أن أبا محجن استطاع الإفلات من سجانه ، ويمم شطر العراق ، والعرب يوشكون أن يلاقوا الفرس في القادسية ، راجياً أن تتاح له فرص القتال ، فيأتي بأعمال تشهد له بفضائل تغفر له من تعاطيه الخمر .. ولم يكن سعد بن أبي وقاص أقل حرصاً على إقامة الحدود ، فلما ضبط أبا محجن يشرب حده وحبسه في قصره والمعركة على أشدها .

وأضر به الحبس هذه المرة ضرراً أليماً ، وتشكى منه ومن قيوده لأول مرة . فقد كان أبو محجن رجل مروءة لا يسعده الإبعاد عن ساحة الشرف ولو توفرت السلامة وكان بطلاً حقاً صناعته القتال ، وكانت بطولته فوق بطالته بكثير . ومن ثم كانت شكواه في السجن ، والمعركة قائمة ، شكوى البطل الأسير حقاً غير ادعاء(٢) .

= صبرت فلم أجزع ولم أك كائعاً لحادث دهر في الحكومة جائر
وإني لذو صبر وقد مات إخوتي ولست عن الصهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلانها يبكون حول المعاصر

الأغاني : ١٤٢/٢١ .

(١) انظر في « الأغاني : ١٣٨/٢١ » الخبر والشعر .

(٢) قال أبو محجن :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
وقد شف جسمي أنني كل شارق أعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله دري يوم أترك موثقا وتذهل عني أسرتي ورجاليا =

واحتال أبو محجن حتى خرج إلى القتال وسعد عنه غافل . وأبلى أحسن البلاء ، وشهد له بالصنيع المعجب ، وكانت المعركة بحاجة إلى كل بطل . وعاد إلى سجنه وآثار المعركة الضارية في ثيابه وجسده[1]، ولكنه كان أرضى نفسه ، ورضي هو عن إقدامها ، وشفاها من عار العقاب[2] .

ولم يستطع سعد أن يكتم إعجابه ببطولة الشاعر ، فأقسم ألا يحده أبداً ، وعندما أقسم الشاعر ألا يذوق خمراً أبداً . وبذلك تحقق له ما كان يصبو إليه من الإقلاع عنها طواعية واختياراً[3] .

= حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت ... وإعمال غيري يوم ذاك العواليا

منتهى الطلب : ١٣/٢ ، الأغاني : ١٣٩/٢١ .

(١) وصف أبو محجن في شعر حزين تضحيات القادسية ،وثباته في الموقف الضنك يوم فر إلى القتال ، وما أصابه من جراحات ، فقال :

وأنّى سرت من نحونا أم يوسف ... ومن دون مسراها قفار مجاهل
إلى فتية بالطف نيلت سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل
وأمسى أبو جبر خلاء بيوته ... وقد كان يغشاه الضعاف الأرامل
وأضحت بنو عمرو لدى الجسر منهم ... إلى جانب الأبيات ما ثم آهَل
وكنت هماما في مكر جيادهم ... إذا الخيل يدمي نحرها والشواكل
وما رمت حتى مزّقوا برماحهم ... ثيابي وجادت بالدماء الأباجل
وما رمت حتى كنت آخر رائح ... وصرع حولي الصالحون الأماثل
وقد تركوني في مكر جيادهم ... كأني عاداني من الراح شامل
مررت على الأنصار وسط رحالهم ... فقلت لهم : هل فيكم اليوم قافل

فتوح العرب لبلاد العجم وخراسان : ص ٩٧ ، مصر ١٨٩١ م .

(٢) قيل إن أبا محجن أعاد رجليه في القيد ، وقال من أبيات :

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي ... وإن أطلق أجرعهم حتوفا

الأغاني : ١٣٩/٢١ .

(٣) صرح أبو محجن بذلك ، فقال :

وكنت أروي هامتي من عقارها ... إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضرب =

وأما فريق المدن فالأخبار تشير إلى أن الخلفاء في صدر الإسلام أقاموا الحد في شرب الخمر على بعض الشخصيات التي كانت في مركز المسؤولية[(١)]، كما توضح أن من الناس من كان يترخص لنفسه بأشربة خاصة تردد القول في جواز شربها ومنعه، حتى أن أحد الولاة أجاز لهم أن يتناولوا أشربتهم المعتادة مستترين فأثار ذلك سخرية وسخطاً[(٢)]. وكانت الشرطة تعتقل السكارى تنفيذاً للقانون، وربما حل الشرطي حبوته وشرب من الخمر رشوة[(٣)].

= فلما درا عني الحدود تركتها وأضمرت فيها الخير، والخير يطلب

« فتوح العرب لبلاد العجم : ٢٩ .

(١) حد عمر بن الخطاب عامله على البحرين قدامة بن مظعون حين شهد عليه بشرب الخمر (الشعر والشعراء : ١٤٧ ، دار الثقافة) وجلد عثمان بن عفان أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط أمير الكوفة في مثل ذلك (أنساب الأشراف : ٥/٣٢ - ٣٥) .

(٢) اصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الجمحي بعد موت يزيد، فخطب أهل الكوفة، فقال: « إن لكل قوم أشربة ولذات فاطلبوها في مظانها، وعليكم بما يجمل ويحل منها، واكسروا شرابكم بالماء، وتواروا عني بهذه الجدران. فقال عبد الله بن همام السلولي :

اشرب شرابك وانعم غير محسود ... واكسره بالماء لا تعص ابن مسعود

إن الأمير له في الخمر مأربة ... فاشرب هنيئاً مريئاً غير تصريد

وقال آخر :

إني لأكره تشديد الرواة لنا ... فيها ويعجبني قول ابن مسعود

فلما بلغ ابن مسعود قول ابن همام قال :

قطع الله لسانه، فقد أساء القول .

« أنساب الأشراف : ٥/١٩٠ » .

(٣) « شرب الأقيشر في بيت خمار بالحيرة، فجاء شرطي من شرط الأمير ليدخل عليه فغلق الباب دونه، فناداه الشرطي : اسقني نبيذاً وأنت آمن، فسقاه النبيذ بأنبوب قصب من ثقب الباب حتى سكر، فقال الأقيشر :

سألني الشرطي أن نسقيه ... فسقيناه بأنبوب القصب

إنما نشرب من أموالنا ... فسلوا الشرطي ما هذا الغضب =

ولا شك أن أخلاق الناس اعتراها تطور ظاهر ، فاستهتروا بالخمر مع تقدم الحضارة وذيوع الترف وتوقف الفتوح . وتراخى الحكام في أمرها بعد الراشدين والأشداء من خلفاء بني أمية ، وكان بعض الحكام من معاقريها . وربما حبس الخلفاء من يشربها من غير جلد(1) ، وقد يناظر الشاعر الخليفة في أمرها بروح فكهة فيغضي عنه(2) . ورفض بعض الشعراء من ندماء الخليفة الامتناع عن الشراب حين سأله الخليفة ذلك ، وكان أحرص على لذته من حضور مجلس الخليفة والانتفاع به . ولم يسجنه إلا عندما أبى أن يشربها وحده ، مستتراً عن الناس ، حفظاً لكرامة الخليفة الذي كان يدنيه منه(3) . ولا

= (الأغاني : ١٠/٨٦) وسقى عمير بن الحباب السلمي الشرط في السجن خمراً وهرب .

انظر شعره في أنساب الأشراف : ٥/٣١٤ .

(١) انظر اعتلال المهدي بن المنصور بتغير الزمان في الوزراء والكتاب : ١٤٩ للجهشياري .

(٢) أخذ العسعس الشاعر أبا دلامة ، وخرقوا ثيابه ، وحبسوه مع الدجاج ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور :

أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صفراء صافية المزاج ... كأن شعاعها لهب السراج
تهش لها القلوب وتشتهيها ... إذا برزت ترقرق في الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم ... كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلاً ... ولكني حبست مع الدجاج
على أني وإن لاقيت شراً ... لخيرك بعد ذاك الشر راج

« الأغاني : ٩/١٢٣ » .

(٣) الشاعر هو إبراهيم الموصلي ، روى أبو الفرج عن ابن إسحق ، قال : « حدثني أبي : كان المهدي لا يشرب ، فأرادني على ملازمته وترك الشرب ، فأبيت عليه ، وكنت أغيب عنه الأيام ، فإذا جئته جئت منتشياً ، فغاظه ذلك مني فضربني وحبسني فحذقت القراءة والكتابة في الحبس ، ثم دعاني يوماً فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذل معهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنما تعلمت هذه الصناعة للذتي وعشرتي لإخواني ، ولو =

نكاد نجد بعد المنصور والمهدي من بني العباس شاعراً سجنته الخمرة إذ دخلت القصور نفسها ، وأطنب الشعراء في تصوير مجالسها وصبوحها وغبوقها .

ولا يعني هذا أن حد الخمر قد تعطل ، فالعقوبة واقعة عل من ضبط يشربها ، ولكن نشأت مفارقة ظاهرة بين المبدأ والتطبيق ، فلم يكن لزاماً على من أوكل إليه مراقبة الآداب أن يكون ملزماً نفسه بها[1] وصار لكثير من المسؤولين ازدواجية في السلوك ، يحتشمون أمام العامة ، ويطلقون لأنفسهم عنان اللذات في مجالسهم الخاصة[2] .

ومن المفيد أن يذكر أيضاً أن بعض من تناولهم الحد من الشعراء أخذهم خصومهم بالخمر ، وفي نفوسهم مآرب أخرى من العداوات والحزازات ، ولم يكونوا هم أعف واتقى[3] .

= أمكنني تركها لتركتها ، وجميع ما أنا فيه لله عز وجل . فغضب غضباً شديداً ، وقال : لا تدخل على موسى وهارون أبداً فوالله لو دخلت عليهما لأفعلن وأصنعن ، فقلت : نعم . ثم بلغه أني دخلت عليهما وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربني ثلاثمائة سوط ، وقيدني وحبسني » . الأغاني : ٤/٥ ، وطال مقامه في السجن وإرهاقه كما يدل شعره .

(١) ذكر ابن سعيد في خبر عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفي القرطبي أنه : « ولي الشرطة بقرطبة ، فمر به فتى ينزع سكراً ، فأمر بحده ، فقال : أنشدك الله من الذي يقول :

إذا عاب شرب الخمر في الدهر عائب ... فلا ذاقها من كان يوما يعيبها

فقال ابن عاصم : أنا ، واستغفر الله ، فقال الفتى : أما تستحي من الله ، تغري بالشراب ثم تعاقب عليه ، فكان ذلك سبباً لأن تركه . المغرب في حلى المغرب : ١٠١/١ .

(٢) انظر مثالاً لهذه المجالس المستورة في حديث جعفر بن يحيى البرمكي في العقد الفريد : ٧٢/٥ .

(٣) هجا الأحوص يزيد بن المهلب ، وذهب إلى أذربيجان ، وكان عليها الجراح من أنصار بني المهلب ، فبعث إلى الأحوص بزق خمر « فأدخل منزل الأحوص ، ثم بعث إليه خيلاً فدخلت منزله ، فصبوا الخمر على رأسه ولحيته ، وضربه الحد بين أوجه الرجال ، وهويقول : ليس هكذا تضرب الحدود ، فجعل الجراح يقول : أجل ، ولكن لما تعلم » طبقات ابن سلام : ٥٤٣ .

المقالة الرابعة
السجن في المعتقدات

للاعتقاد جانب كبير في حياة الإنسان ، ولا ينقطع تأثيره في مواقف الأفراد والجماعات ، وفي التحولات السياسية والاجتماعية وأحداث التاريخ الكبرى .

ولا يزال هذا الجانب واضح المعالم فعالاً على ما يتعارفه العالم المعاصر من التسامح وتقدم الثقافة وتبادل المنافع ، فهو يمازج طباع الإنسان ممازجة الفطرة ولا يزال له الأثر خفياً أو جلياً .

فإذا كانت حضارة أمة من الأمم ذات منشأ ديني محض وجب إيلاء هذا الجانب تقديراً كافياً ، وإذا كانت السلطة دينية مناطاً بها تنفيذ الشريعة التزمت بمراقبة الناس ، ومنعت الخلاف ، وعاقبت على المروق من الدين .

ولم يكن للعرب قبل الإسلام دولة ، ثم صار لهم في الإسلام خلافة وممالك عديدة كلها قائم على أساس ديني ، والحاكم فيها مذعن للشرع ، لا يتجرأ على خلاف بل كانت غالبية الحكام إلى استرضاء الفقهاء أميل ولرأيهم أخضع .

ولا شك أن سعة المكان ، وتطاول الزمان ، وتنوع الأقوام في ظل سلطة دينية واحدة أو متشابهة يعين على خلافات كثيرة .

وعلى تشتت العرب وتفرقهم في الجاهلية وضعف أثر الدين في حياتهم الفردية والقبلية فقد أظهرت بعض الحوادث تعصبهم لمعتقداتهم واضطهادهم لمن فارق عبادة آبائهم وأجدادهم .

ولعل المدن ـ وبخاصة مكة ـ التي كانت ملتقى القبائل والعشائر في مواسم الحج والأسواق كانت أحرص على مظاهر الدين . وكانت عبادة الأصنام

قد تمكنت في قبائل كثيرة بعد أن بعد العهد بدين إبراهيم عليه السلام ، ونشب في نفوسهم تعصب لها . وكان التعصب متعاهداً ملموساً في جانب المكيين الذين كانوا يحرصون على أن يبقى بلدهم متمتعاً بمكانته عند العرب الذين وضعوا أصنامهم حول الكعبة . ولهذا نراهم يشجبون محاولات البعد عن الأصنام والتشكيك في عبادتها ، تعصباً لقديمهم وحفاظاً على مصالح بلدهم ، وكان ينجم فيهم أحياناً من ينفر من الأوثان طبعاً وجبلة وفكراً ، ويستشعر وحدانية الله ، فيلقى منهم أذى يخرجه عن بلده(١) .

وأقدم من حفظ التاريخ ذكره في هذا المضمار زيد بن عمرو بن نفيل ، لم يستبغ عبادة الأصنام ، فما أن بلغ مبلغ العقلاء حتى استبان له سخف عبادتها ، ففارقها علانية ، وأعلن أن للكون ربا واحداً ينبغي السجود له . ورفض الاشتراك مع قومه في احتفالاتهم الدينية وتقديم القرابين لآلهتهم أو تناول لحومها(٢) . واستمسك بالحنيفية دين إبراهيم . فاستاء منه أشراف مكة واعتزلوه ، ولم يكن ثمة حبس جامع للبلد ، وكانت كل عشيرة مسؤولة عن أحداثها وعما يقع لها منهم(٣) .فتعهد أمره أخوه لأمه الخطاب بن نفيل ، وآمر

---

(١) انظر حديث ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل في « السيرة : ١/٢٢٢ » .

(٢) قال زيد :

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلا أدين ، وكان ربا ... لنا في الدهر إذ حلمي يسير

« السيرة : ١/٢٢٦» ومعجم البلدان : العزى » . وأنظر أيضاً « معجم البلدان اللات » .

(٣) قال زيد لزوجه واسمها صفية :

لا تحسبيني في الهوان - م - صفي ما دابي ودابه
إني إذا خفت الهوا ... ن مشيع ذلل ركابه
دعموص أبواب الملو ... ك وجائب للخرق نابه

انظر ابن كثير : « البداية والنهاية : ٢/٢٣٨ » و (الخزانة : ٣/٩٩) من تسعة أبيات .

زوجه عليه ، فكان حبيس بيته لا يؤذن له بالتنقل أو الرحيل أو الاتصال بأحد حتى لا يفسد عليهم ناشئتهم . وتجاوز الخطاب الحد في إيذاء زيد ، فهرب وانفرد بنفسه ظاهر مكة ، وإذ ذاك أغرى الخطاب به السفهاء يحولون بينه وبين دخوله مكة إذا احتاج لشيء من أمره . فكان زيد في حقيقة الأمر حبيس الخطاب وطريده .

ويدل شعره على أنه كان على عقيدة لا تلين ، لم يوهنه الاضطهاد ، ولم ينزل عن كبريائه ، وكان يتحين الفرص ليهرب في الأرض حراً بدينه . ولم يبرح ما هو عليه حتى قتل(١) .

ثم كان لقريش موقف آخر شهد لها بالاضطهاد القاسي لمن ترك أوثانها ، وهو موقفها من دعوة محمد ﷺ ومن أصحابه إذ لم تترك وسيلة من تعذيب وحبس راهق ثم قتل إلا أخذت بها قبل الهجرة وبعدها(٢) . فأنكرت على المسلمين حرية الاعتقاد ، ولم تعترف للإنسان باستقلال قلبه وفكره . وهجر فريق الحجاز إلى الحبشة ليعبد الله على مأمن . وكانت نفوس المضطهدين المعذبين تمور بالمرارة من قبيلتهم وأوليائهم وأخص ذويهم الذين سلكوا بهم أعنف ا لسبل ليغلبوهم على إيمانهم ، وبذلك تنضح أشعارهم التي قالوها في مكة أو في طريقهم إلى الحبشة(٣) .

ولن يتطرق البحث إلى حبس الخلفاء العباسيين لبعض الفقهاء وامتحانهم ، في صدام السياسة مع الشرع ، ولا إلى سجنهم للخلاف المذهبي

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٣٢/١ .

(٢) انظر على سبيل المثال بعض حوادث التعذيب والحبس قبل الهجرة في سيرة ابن هشام (٣١٧/١ - ٣٢١) وتقييد الحكم بن العاصي لعثمان بن عفان وحبسه حين أسلم في أنساب الأشراف (٥/ ٢) . وأنظر تقييد قريش لأبنائها وحبسهم عن اللحاق بالرسول ﷺ إلى المدينة في السيرة (٣١٨/٢ و ٣٢٣ - ٣٢٤) .

(٣) انظر أشعار عبد الله بن الحارث وعثمان بن مظعون القرشيين في سيرة ابن هشام « ٣٣٠/١ - ٣٣٣ » .

في زمن المأمون الذي جعل الاعتزال مذهب الدولة ، وفي زمن من بعده الذين أدالوا لعلماء السنة من المعتزلة ، فإنه لم يعرف لهؤلاء في ذلك آثار من الشعر .

السجن في الزندقة :

كان للذين دخلوا الإسلام من غير العرب دور غير ضئيل في الحياة السياسية ، أدى إلى القضاء على دولة بني أمية ، وفي الحياة الفكرية ، أدى إلى ظهور اتجاهات مذهبية ورجال كانوا يظهرون الكفر قليلاً ويبطنون كثيراً . وعرف هؤلاء الأفراد باسم الزنادقة .

وكان مفهوم الزندقة يتضمن إنكار التوحيد والنبوات والكتب السماوية ، واعتقاد مذاهب الفرس والهند من الوثنية والمانوية والبوذية تحت ستر مختلفة من الأقوال الحكيمة ومسالك الزهد[1] .

وربما استهوت دعوات المروق من الإسلام من كان عربياً[2] . وكان منهم شعراء لم يكتموا ما في أنفسهم وأخرجوه في تعريض أو تصريح . ولما كانت الخلافة دنيوية دينية فقد تتبع الخلفاء من ظهر الإلحاد في أشعارهم وأقوالهم وكتبهم وسلوكهم ، وقتلوا من امتنع منهم من توبة تقتيلاً . فكان للسلطان الديني أثر كبير في أشكال الزندقة ومواقف الزنادقة والمسارب التي دفعوا إليها .

---

(١) انظر نيكلسون : «A Literary History of the Arabs, -P.372» وينقل في p: 355 «رأي بيفان في اشتقاق لفظة زنديق من كلمة Zaddig » وهي اسم للنخبة الممتازة في طبقات المانوية . وأصل «Zaddig» آرامي ، ومعناها « الصالح » ونقلت إلى الفارسية فصارت «Zundik» وعربت فلفظت «زنديق» .

(٢) اتهم الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالإلحاد . (انظر أخباره في الأغاني : ٦/٩٨ ـ ١٣٧ ، والعقد : ٤/٤٥٢ ـ ٤٦٣ ، وأمالي المرتضى : ١/١٢٨) وزياد بن يحيى الحارثي ، وأبوه هو خال أبي العباس السفاح . (انظر المرزباني : معجم الشعراء . ٤٩٧ ، وأمالي المرتضى : ١/١٤٢) .

وكانت الزندقة قد ظفرت بحرية نسبية في فترة انتقالية هي النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، وكانت السلطة السياسية والمجتمع بتأثيرات شتى[1] تهيئان لعهد جديد كان أوله مجيء بني العباس إلى الحكم . وهذه الحرية وما يرافقها من ترك التحفظ أحياناً والمجاهرة بالرأي لم يكتب لها البقاء إذ بترها الخلفاء الحازمون أمثال المهدي والهادي والرشيد الذين تتبعوا الزنادقة المجاهرين وأخذوهم بالسجن والقتل . وحامت الشبه حول الذين يذهبون في سلوكهم الفردي مذهب التهتك والمجون ، فتناولهم السجن على أنهم زنادقة ، وحمل السيف أصحاب هذه الأفكار أن يظهروا في ثياب أخرى من الغلو في الحكمة أو الانحراف في التصوف بادعاء الألوهية وإنكار النبوة . وكان الغالب على الزنادقة جميعاً مظهر الحكمة وتعاطي الفلسفة والمنطق ، فحامت الريب حول بعض المتصوفة الصادقين وأصحاب الفلسفة والعلوم من ذوي الإيمان النقي ، فأصابتهم محن ونكبات من جراء ذلك .

ومن ثم يعرض البحث لهؤلاء الأصناف : ممن كان زنديقاً أو رمي بالزندقة كل على حدة ، ممن شهروا أنفسهم بآرائهم في أشعارهم ، وممن شكك مجونهم في عقائدهم ، وممن عرف بالحكمة أو التصوف : إما إخلاصاً ، فاتهم على براءة أو ادعاء لبث أفكاره ومعتقداته التي يحملها من دين يتستر عليه .

الشعراء الذين تحققت فيهم الزندقة :

لا يدرى على وجه التحقيق متى نجم في الزندقة شعر . ويمكن الجزم أن الربع الأول من القرن الثاني الهجري استنبت طائفة من الشعراء الزنادقة

---

(١) انظر هذه العوامل بعد قليل .

(٢) انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ١٥٣ ، وتاريخ الطبري حوادث سنة ١٦٦ ج ٨ .

المولدين بين الكوفة والبصرة . ولا يعرف عددهم ، ويظن من ذكر أعلامهم أنهم كانوا غير قلة[1] .

وثمة أسباب سياسية واجتماعية وثقافية وفردية ذاتية لظهورهم ، منها اضطراب الأقطار على بني أمية ، وفقدان الاستقرار السياسي والإداري بعد موت الولاة الأشداء[2] . ومنها انحراف الموالي عن بني أمية وتأييدهم وانضمامهم للدعوات والأحزاب المناهضة . ومنها انصباب ثقافات الأمم الأعجمية في المجتمع الجديد من فلسفات وعقائد ومعارف متنوعة . ومنها انتشار الترف في الأمصار والتظاهر بالتهتك من غير مراقبة واقية . ومنها امتزاج الترف المادي بالترف الثقافي ، فكانت الزندقة في بعض الأسر نوعاً من التميز الفكري[3] .

ومنها ظهور أفراد يحملون وراثات دينية سابقة من مجوسية ومزدكية وغيرهما ، ومشاعر قومية عدائية للعرب ولإسلامهم ، وأفراد تسلموا الوزارة والإدارة المطلقة فشجعوا من جانب خفي الحركة الشعوبية وأفكارها ومقاصدها[4] ، وأفراد من العرب ميالون طبعاً للتحلل من رقابة الدين ولإطلاق هوى النفس للانحراف والفسوق ، وللعدوان على الذمم والحياة .

عبد الله بن معاوية :

ويوضح هذا النموذج الأخير في الحقبة التي تمخضت عن ارتقاء بني العباس الحكم ، شخصية عربية معدودة في الطالبيين ، وهو عبد الله بن

---

(١) انظر أمالي المرتضى : ١/١٢٨ ـ ١٤٨ ، والفهرست : ٤٨٧ .

(٢) أمثال أبناء زياد بن أبيه والحجاج الثقفي .

(٣) ضبط أبناء بعض الوزراء والأشراف وبعض الكتاب على الزندقة . أنظر الجهشياري الوزراء : ١٥٣ ، والفهرست : ٤٨٧ .

(٤) انظر وصف نيكلسون لسياسة البرامكة الذين كانوا يقيمون شعائر الدين ويحافظون على مظاهره كلها ، ويتألفون المشتغلين بالعلم كما يتألفون الزنادقة : وقال ابن النديم : « قيل : إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك ، كانت زنادقة » الفهرست : ٤٨٧ .

معاوية ، وكان جواداً فارساً شاعراً[1] واستطاع منذ أن بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك أن يثور في العراق والمناطق القريبة من فارس وأن يتحكم بمقدراتها حقبة ، وأوى إليه جميع اللاجئين السياسيين[2] . وكانت سياسته أثراً من عقيدته وسلوكه . فاستعمل في أعماله زنادقة أساؤوا وأذاقوا الناس خوفاً وموتاً[3] . وكان هو « سيء السيرة رديء المذهب ، قتالاً »[4] . ولم يكتب لهذه الشخصية شيء من المستقبل إذ سقطت أمام أعدائها ، ولم يثق بها أعداء الأمويين أنفسهم ، فسجنوه ثم أعدموه[5] . ولم يحبس بدعوى الزندقة ولكن سجنته السياسة والحرب ، وأنهاه طموحه وسلاطة لسانه وفساد دخيلته إلى سقوطه في ذاك الميدان فكانت عقيدته وأخلاقه من وراء هزيمته وموته .

ويستخلص من حديثه أن بعض من وسموا بالزندقة ، وشهدت أفعالهم عليهم بها ، استطاعوا في فترات الفوضى وتهافت الحكم أن يظهروا للناس مستعينين بالثائرين وأن يضربوا للناس من أنفسهم وسياستهم مثلاً مكروهاً يئلون منه إلى الدمار .

أما أولو الحزم والهيبة من الخلفاء فقد أخافوا الزنادقة وتتبعوهم ، وأنشأ

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ١٦١ ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

(٢) أبو نعيم : تاريخ أصبهان ٤٣/٢ .

(٣) قال أبو الفرج : « كان عمارة بن حمزة يرمى بالزندقة ، فاستكتبه عبد الله ابن معاوية ، وكان له نديم يعرف بمطيع بن إياس ، وكان زنديقاً مأبوناً . وكان له نديم آخر يعرف بالبقلي ، وإنما سمي بذلك لأنه كان يقول : الإنسان كالبقلة فإذا مات لم يرجع ، قتله المنصور بعد أن أفضت الخلافة إليه . وكان هؤلاء الثلاثة خاصته . وكان له صاحب شرطة يقال له : قيس ، وكان دهرياً لا يؤمن بالله ، معروفاً بذلك ، فكان يعس بالليل فلا يلقاه أحد إلا قتله » . مقاتل الطالبيين : ١٦٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) حبسه أبومسلم الخراساني في خراسان ثم قتله سنة ١٣٣هـ . المصدر نفسه .

المهدي بن المنصور دائرة خاصة بهم[1] . وبنى لهم سجناً سمي باسمهم[2] . ومنهم من كان في زندقته على صلابة ثم استرخى عند الموت وهلع[3] ، ومنهم من أخذ بالتمويه متوارياً وراء ستار الأشعار والأقوال الحكيمة فلم يخف أمره[4] .

بشار بن برد :

وممن عد من الزنادقة شاعر كبير هو بشار بن برد . وتذكر أخباره أنه أخذ بالزندقة وجلد حتى الموت وقد ناهز الثمانين[5] . ولو كان له شعر في هذه المحنة لوجب التوقف عنده إلا أن قصر المدة بين أخذه وموته يرهق التحقيق صعوبة .

وأوجز ما يمكن قوله أن بشاراً لم يشهد له بإسلام صادق وعبادة[6] ، وهويدعي أصلاً فارسياً عريقاً[7] ، ولكن في حياته ما يشعر إلى أن الزندقة لا تزيد عن تهمة وصمه بها الساسة ، وشنع بها عليه العلماء فيما كان بينهم وبينه من لجاج وملاحاة . فالرجل لم يكن داعية لمذهب فكري أو ديني ، وما يعزى إليه من تفضيل النار على الطين له ظرفه الخاص ، وهو أقرب للجاج الجدلي منه إلى الاعتقاد المذهبي ، ولعله لم يقل ذلك إلا مكابرة لعلماء بلده[8] . ولكنه

(١) « جد المهدي في طلب الزنادقة ، وقلد عمر الكلوزاني طلبهم ، فظفر بجماعة منهم » الوزراء والكتاب : ١٥٦ .

(٢) انظر هذا البحث ص ١٢٠

(٣) انظر الوزراء والكتاب : ص ١٥٣ ، وتاريخ بغداد : ٣٠٣/٩ .

(٤) انظر الأسباب الداعية للتنكر في أمالي المرتضى : ١٢٨/١ .

(٥) كانت وفاته سنة ١٦٧ هـ.

(٦) انظر أمالي المرتضى : ١٣٨/١ .

(٧) انظر طبقات ابن المعتز : ص ٣٠ - ٣١

(٨) بعث تصادم الأفكار والملل جدلاً كلامياً كبيراً في الوقت الذي توضعت فيه أسس البرهان والاستدلال المنطقي . وكان بشار يأخذ ويعطي في علم الكلام . ويمكن الاطلاع في =

كان يحمل طبائع الثورة ، فكان خطيباً مفوهاً وسياسياً مشاركاً ـ رغم عاهته ـ بلسانه وفصاحته . وعاصر تفتح الحركة الشعوبية فكانت عواطفه مع كل ثائر . فانضم بحماسة إلى حركة أبي مسلم ، ولما قام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على المنصور بالبصرة كان قلباً ولساناً مع الثورة ثم توارى . ولما ولي يعقوب بن داود الوزارة ناوءه ، فكان يعقوب ـ على الأرجح ـ من وراء مقتله(١) .

ويضاف إلى الجانب السياسي قوة شخصيته التي تجلت في سلاطة هجائه وإرهابه علماء عصره ووزراءه . وشجع على اتهامه ما عرف عنه من غزل فاحش كان ينم عن شهوة جنسية نهمة .

وتفيد أخباره أنه كان يقف وحده في وجه الناس جميعاً يؤذي ويؤذى ، لا يصمت إلا بتهديد من الخليفة ، ورجل هذه ظروفه لا يمكن أن يكون تقياً ورعاً ، فالطعن عليه يسير ، ولكن اتهامه بالكفر المحض لا دليل عليه . ومما يضعف تهمة الزندقة ، وأنها أقرب إلى الافتراء السياسي منها إلى تقرير حقيقة أن بشاراً أخذ بها بعد أن أسن ، وهو ينابذ يعقوب بن داود العداء ، وكان الخليفة لخصومه أذنا(٢) .

صالح بن عبد القدوس :

غير أن ثمة شاعراً معاصراً لبشار لم يعرف له نشاط سياسي ، وحوسب على معتقداته وحدها . وتكشف حياته عن أصول الزندقة وتسربها إلى

= مطلع الجزء الأول من البيان والتبيين على ما استثار من ردود منطقية بين شعراء عصره حول تفضيله النار على الطين .

(١) يقرر ابن المعتز ، بعد أن عرض ما قيل من أسباب مقتل بشار من اتهامه بالزندقة ، وهجائه المهدي ، وتعهره في الغزل ، ما يلي : والصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره » . طبقات ابن المعتز : ٢٤ . ورأى ابن المعتز من الوجاهة بمكان لقربه من عصر بشار ، ولكونه من البيت العباسي وإحاطته بأخباره على حال لا تتيسر لكثير من العلماء .

(٢) لاستقصاء أخبار بشار في هذا الجانب واستجلاء حقيقته انظر الأغاني : ٣/ ٢٠ ـ ٧٠ .

المجتمع . فهو فارسي الأصل من أسرة سكنت البصرة وأظهرت الإسلام ولكنها لم تنس أبداً ديانتها القديمة . وكان السلف يلقنها للخلف تلقيناً ، فأخذها صالح عن أبيه ، وعلمها لولده(١) . ولعل هذا كان شأن كثير من الأسر(٢) وكان صالح ثنوياً(٣) ، ضليعاً في مذهبه ، محيطاً بثقافات الأقدمين وحكمهم . وكان نشيطاً في الدعوة لأفكاره . ولعل الفوضى السياسية في العراق في تلك الحقبة هيأت له حظاً من الحرية . فكان في سوق البصرة وشوارعها يلقي قصائد تشيع فيها الحكمة يجتذب بها آذان الناشئة ويضمنها شيئاً مما يريد تضميناً خفياً . ولعل هذا الطراز من الشعر كان يلقى من المثقفين استحساناً . وما تبقى له من أبيات الحكمة يشهد له بشعر واضح مصقول غني بالتجربة العقلية ، غير أنه غير سخي الشاعرية مما يؤيد أنه كان يجهد في وضوح أفكاره ضماناً للجذب والتأثير(٤) .

ومن الراجح أنه كان يجاهر بإلحاده في فترة من الفترات ، فثمة مناظرات في العقيدة عقدت بينه وبين أبي هذيل العلاف شيخ المعتزلة في عصره(٥) ، وكتب كتاباً يهيج الشك في النفوس(٦) . فكان في الحق خطر النشاط . وربما سجن غير مرة إذ ترك في وصف السجن والسجناء قصيدة تناقلتها كتب

---

(١) انظر رسالة الغفران : ص ٣٧٠ ، تحقيق بنت الشاطىء ، مصر ١٩٥٠م .

(٢) «رأيت بنتا لمطيع بن إياس قد أتي بها الرشيد ، فأقرت بالزندقة وقراءتها وتابت . وقالت : هذا شيء علمنيه أبي . فقبل الرشيد توبتها وردها إلى أهلها » . أمالي المرتضى : ١٤٢ .

(٣) الثنوية فرقة من الكفرة أتباع ماني ، تزعم وجود إلهين : إله للخير هو إله النور ، وإله للشر هو إله الظلمة . انظر الفهرست : ٤٧٢ ، والملل والنحل للشهرستاني : ١٤٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون : ١/١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) ذكر ابن النديم ديواناً لصالح بن عبد القدوس من خمسين ورقة ، وقال عنه « ويرمى بالزندقة » الفهرست : ص ٢٣٧ . وفي تاريخ بغداد (٣٠٣/٩) قصيدة حسنة من شعره .

(٥) أمالي المرتضى : ص ١٤٤ .

(٦) الفهرست ٢٥١ .

الأدب[1] . وذلك قبل أن يقبض عليه المهدي . ولم يعثر له على شعر في حبسه حدث فيه عن دينه أو غيره سوى تلك الأبيات . ولا شك أن أمثال صالح بن القدوس كانوا يجتنبون الاعتراف ، ويدرؤون عن أنفسهم التهم[2] . ولكنه لم يستطع أن يبرىء ساحته عند الخليفة المهدي . وكان صالح بهر الخليفة علماً وحكمة ، وهم بالعفو عنه لولا ما ثبت له ، بعد الامتحان ، من زندقته المكينة في نفسه ، فأمر بقطع رأسه[3] .

أبو بكر بن الصائغ :

ومن الزنادقة من كان لا ينفيها عن نفسه بل يجهر بمعتقده ولو في ظلمة السجن . ويمثل هؤلاء الوزير الأندلسي أبو بكر بن الصائغ . ودخلت الزندقة في تكوينه الفكري والأخلاقي ، وفي أسلوب حياته ، وفي هيئته وجسده . ويلمح فيه شبه غير ضعيف بالعدميين في عصرنا . فكان وهو في منصب الوزارة متجنباً للنظافة ، حريصاً على الاتساخ مستقذراً ، كأنما يريد أن يوائم بين نفسه وجسده ووجهه القبيح[4] .

وأصاب ابن الصائغ علوّ المنصب بمدائحه في أمير سرقسطة . ولكن وزارته كانت وبالاً على الولاية كلها إذ سار فيها برأي فاسد ، غير غريب عن

---

(1) هي سبعة الأبيات المشهورة ، وأولها :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فما نحن بالأموات فيها ولا الأحيا

وهي في ابن خلكان : ١/ ١٨٤ و٣/ ٢٠٣ ، وفي المحاسن والأضداد للجاحظ : ٣٥ ، وفي رسالة الغفران : ٣٧١ (وعزاها لابن لصالح كان مسجوناً) ، وفي أمالي المرتضى : ١٤٥ .

(2) من شعر صالح :

رب سر كتمته فكأني ... أخرس أو ثنى لساني خبل

ولو أني أبديت للناس علمي ... لم يكن لي في غير حبسي أكل

أمالي المرتضى : ١٤٥ .

(3) تاريخ بغداد : ٩/ ٣٠٣ .

(4) أنظر قلائد العقيان : ٣٤٦ .

اعتقاده أبعد عنها الولاة والرجال الحفظة الأكفاء ، وأضعف منتها ، فاضلت أحوالها وسهل على الفرنجة اختطافها وخاف عاقبة ذنبه فهرب إلى المغرب ، فتنبه إليه أمير المرابطين واعتقله(١) . ولم يمت في المعتقل إذ تخلص منه ، وظهر له ثراء بعد ذلك ، ولا شك أن ما انتهب من أموال سرقسطة ساعده على تدبر أمره في حبسه .

ومما يجدر التنبيه إليه جرأته في التصريح بأفكاره الإلحادية وهو في ظلمة السجن ، فكان لا يخفي أفكاره للمعاد ، ويرى فناء النفس مع الجسد . يذهب مذهب الطبيعيين أو من سماهم الإسلام بالدهريين(٢) . وهي جرأة بالغة حد الدهشة مما يدعو إلى الحدس أنه كان ثمة من يعضده ويساعده على أمره ممن كان على مثل مذهبه .

وخلاصة القول أن هؤلاء الزنادقة لم يخل قطر منهم ، وكانوا يفرون ويختفون في البلاد النائية . وكانوا يقتلون أو يؤذون في عهد الملوك الأقوياء ، ويتنفسون الصعداء مع الضعفاء . وقد يرتقي بعضهم إلى منصة الحكم غير متستر على زندقته ، ويسير بسياسة مستوحاة من عقيدته وسلوكه ، فيجر وراءه خراباً عظيماً مثلما فعل عبد الله بن معاوية وبطانته في المشرق وابن الصائغ في المغرب . ولا ريب أن كان لهم نوع من التنظيم وكتب معروفة تدعو إلى كفر

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤٧ .

(٢) قال ابن الصائغ وهومعتقل :

خفض عليك فما الزمان وريبه ... شيء يدوم ولا الحياة تدوم
واذهب بنفس لم تضع لتحلها ... حيث احتللت بها وأنت عليم
يا صاحبي لفظا ومعنى خلته ... من قبل حتى بيّن التقسيم
خذني على أثر الزمان فقد مضى ... بؤس على أبنائه ونعيم
هيهات ساوت بينهم أجداثهم ... وتشابه المحسود والمرحوم

قلائد العقبان : ٣٥٢ من ثمانية أبيات .

صريح[1] .

المتهمون بالزندقة للمجون :

وثمة شعراء حبسوا على الزندقة ، ولكن التنقيب في أخبارهم ودواوينهم لا يقدم دليلاً على اعتقادهم الإلحاد . وليسوا ـ كمن ذكروا ـ دعاة له خفية أو جهرة ، وإنما لحقتهم الوصمة من المجون .

والمجون هو المجاهرة بالخمر والزنا واللواط استهتاراً بها من غير احتشام وتكاثر طلابه في النصف الثاني من القرن الهجري ـ كما تقدم ـ وهو يمثل مسلك طائفة من الشبان في موقفهم من الدين في الحياة المزدهرة المترفة . فمن المعلوم أن الإسلام كبح الحرية الفردية بقيود كثيرة فيما يتصل بالشراب والجنس ، وفرض عقوبات صارمة أدناها الجلد ، ومتى كثرت دواعي الإغراء من الجواري والغلمان والمال ، وتيسر الارتواء على ما تشتهيه النفوس ، ضج بعض الناس إلى الانعتاق من تكاليف الدين وقيوده ، وآثروا الاعتقاد بأن لهم الحق أن يصيبوا لذتهم كيف شاؤوا[2] . وإنما نشأ المجون من هذا الصدام بين الحرية المطلقة الجامحة وبين تعاليم الدين . فيخرج الماجن بتصور للحياة وسلوكيةٍ تخالف المفروض ، مستوحياً أهواءه وحدها ، وربما أعجبه ما في بعض المعتقدات من الترخيص فيشوب عقيدته بها لمناسبتها سلوكه[3] .

---

(١) يستفاد مما أورده ابن النديم أن المانوية كانت نشيطة في العصر العباسي الأول تدعو إلى دينها ، وأن زعماءها كانوا يخالطون ذوي القوة والنفوذ ويؤاكلونهم وكانوا يرخصون لأهل المذهب والداخلين فيه أشياء محظورة في الدين (فهرست : ٤٨٢) وأشد كتب الزندقة ما أخرجه ابن الراوندي . وقد رجع عن كثير منها ونقضها على نفسه . وكان انحرافه إلى الزندقة لما جرى بينه وبين علماء عصره من مشاحنات . ومما يلفت النظر في أمر ابن الراوندي أنه توفي منبوذاً في الأهواز في بيت أحد اليهود . أنظر الفهرست : ٢٥٤ ورسالة الغفران : ٤١٠ و٢٤٢ .

(٢) انظر أشعار عباد المخرق في كتاب الورقة : ٩٨ .

(٣) انظر ما أشرنا إليه من قول ابن النديم في الحاشية ١ .

غير أن أكثر ما يكون من المجان ألا يتعدى أحدهم في مجونه إصابة لذته من غير حرص على الإلحاد وعلى إنكار حقائق الإيمان . ولكن سيرته المريبة تتركه في موضع اتهام عند من يشترطون الاستقامة في صحة العقيدة ، فيحمل عليه فسوقه تهمة الإلحاد .

ولما كان أكثر أهل المجون من المولدين ، وممن جلبوا معهم رسيس دياناتهم القديمة ، كانت تهمة الإلحاد تعني التزندق ، وهو الأخذ من المانوية والبوذية ومذاهبهما ، وكان الشعراء المتماجنون ، رغم إحاطة كثير منهم بالإسلام وعلومه[1] ، يعرفون مبادىء تلك الديانات ومراميها ويتراشقون التهم بها جداً أو مزاحاً[2] .

أبو نواس :

وكان أبو نواس الحسن بن هانيء[3] ضليعاً في المجون ، وحبس في الزندقة ، ونفاها هو عن نفسه . وتحقيق أمره مفيد لما يوضح من حال هذا الصنف الذي يتناوله الحديث .

---

(١) وصف ابن المعتز أبا نواس فقال : « كان عالماً فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والفتيا ، بصيراً بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه . . » الطبقات : ٢٠١ .

(٢) هجا أبو نواس أبان اللاحقي ، فقال :

جالست يوماً أبانا ... لادرّ درّ أبان
حتى إذا ما صلاة الاو ... لي أتت لأذانِ
فقام ثم بها ذو ... فصاحة وبيان
فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيان

(الأوراق للصولي : ص : ١١) ثم يتهمه بأقواله المشبهة وبالكفر ، وبأنه يتشبه بالمجان : بحماد وعجردووالبة بن الحباب ومطيع بن إياس ، علماً أن أبان كان من دينه على يقين . (انظر أخباره في المصدر نفسه .

(٣) ولد بالأهواز سنة ١٣٩ هـ ، وتأدب بالبصرة ، ومات ببغداد سنة ١٩٥ هـ .

(انظر طبقات ابن المعتز : ص ١٩٤ .

وكان الرشيد سجن أبا نواس أول مرة لما غاظه من عصبيته على النزارية[1]، ولما رمي به من الزندقة . وكان الرشيد يحذو حذو أبيه وأخيه في تتبع الزنادقة سجناً وقتلاً . وخاف أبو نواس فتك الرشيد خوفاً شديداً ، فعاذ به مرعداً ، ودافع عن نفسه في طاعة أمير المؤمنين ، ولم يتعرض لذكر الزندقة كأنما يتناسى أو ينكر أنه مرمي بهذه التهمة ذات الخطر الماحق[2] . وتغاضى عنه الرشيد إذ « صح عنده أنه ماجن »[3] .

ومما تجدر معرفته أن الرشيد لم يكن رجلًا هيناً تجوز عليه المسائل ، وتموه عليه الأمور . وكان يجري في شؤونه التي هي من همه على تحقيق ومضاء . وهو الذي فتك بالبرامكة وأخفى سر هذه الفتكة عن العالم والتاريخ . فما صح من أمر أبي نواس عنده كان بعد تدبر واستقصاء وبذلك يقرر الرشيد أن المجون شيء وأن الزندقة شيء آخر .

ثم حبسه الخليفة محمد الأمين على الزندقة . وكان لهذه الحبسة ملابسات إن استوضحت تعرت حقيقة الشاعر وأمكن تقريرها على كثير من الصواب .

وأول ما يجب اعتباره ما امتاز به أبو نواس من شخصية شديدة الجاذبية ، أعجب بها كل من رآها من أهل زمانه . وكان مثلا للفتى المثقف المنطلق ، أوتي ذكاء نادراً ، وعلماً بمعارف عصره ، وبيانا وفصاحة وبلاغة ، وظرفا وأدبا ، وحديثاً عذباً ، ونفساً مرحة ، وهيئة معجبة[4] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في حديثنا عن العصبية القبلية قبل ص ١٩٦ .

(٢) تضرع إلى الرشيد من أبيات ، فقال :

بعفوك ، بل بجودك عذت : لا بل ... بفضلك يا أمير المؤمنينا

فشفع حسن وجهك في أسير ... يدين بحبك الرحمن دينا

« ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي : ص ٤٠٣ ، مصر ١٩٥٣ » .

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور : ٢٢٤ .

(٤) انظر وصف ابن المعتز له في طبقاته : ص ٢٠٢ .

وكان لأخذه الشعر والأدب عن بعض المجان أثر في ولعه بالشراب والنساء والغلمان . وارتضى هذه السيرة لنفسه ، فكانت مبتغاه من دنياه يؤثرها على صحبة الملوك[١] . وانتهى به الأمر إلى أن غدا فاسقاً مرموقاً وظريفاً محبباً تشتهي منادمته السلاطين ، ولكن تخشى معرة مجالسته إذ لا يؤتمن أليف الحانات على أسرار الخاصة . واشتهى جعفر بن يحي البرمكي إدناءه منه لكنه آثر التباعد عنه إيثاراً للهيبة والوقار[٢] .

وكان أبو نواس مجاهراً بما يرتكب من الآثام ، يأتيها نهماً وشهوة نفس لا تحدياً لتعاليم الدين ومخالفته[٣] . ومن كان السكر والجنس قصاراه من دنياه . وكانت الديانة والعبادة في الجانب غير الجاد من حياته . وقد استغوته العربدة في سكره مرة على إنكار بعض أركان الإيمان ثم عاد إلى صوابه وإيمانه في صحوه[٤] .

ودخل أبو نواس على الأمين مادحاً له بقصائد جياد حافظاً للوقار والاحتشام فاستدناه منه الخليفة وأحضره مجالسه المغلقة ، فلما نادمه ورفع ما بينهما من التحفظ رأى في الأمين ما رأى من رجل لا يقل عنه إدماناً للخمر ، وأقل منه تماسكاً واتزاناً[٥] . ومن المؤكد أن الأمين أذن له بمداخلة كبيرة في حياته الخاصة ، فاطلع من خليفته على تهتك كبير حتى هان في عينه ، ولا شك

---

(١) طبقات ابن المعتز : ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٦ .

(٣) لم ينكر مجونه أبداً ، واعترف به وهو مسجون ، قال :

كدّر العيش أنني محبوس ... واقشعرت عن المدام الكؤوس
وجليس كأن في وجنتيه ... كل حسن تصبو إليه النفوس
قد أصبنا منه فنستغفر الله ... كثيراً ، وقد يصاب الجليس

ديوان أبي نواس : ٩٨ .

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور : ٢٢٨ .

(٥) « كان محمد الأمين إذا سكر عربد » أخبار أبي نواس لابن منظور : ٢١٧ .

أنه ازدراه ، ووجده أقل الناس استحقاقاً لهذا المنصب الخطير . وصار أبو نواس يجمجم بمثل ذلك في حالات سكره بينه وبين الأمين بما يشبه عربدة المزاح بين الندامى[1] . ولم يلبث الشاعر أن شعر بالترفع عن خليفته ، وداخلته كبرياء وأنفة عن مدحه وصرح بذلك من غير مبالاة[2] ، فالمال يناله من الأمين على المنادمة من غير عناء ولا مذلة .

وكان مرجحاً أن تدوم الحال بينهما على ما هما عليه لولا أن الظروف العامة والخاصة أخذت تتنكر للشاعر. فالخلاف بين الأمين والمأمون تفجر بثورة المأمون وحوله العناصر الفارسية والشعوبية التي أخذت تستعد للزحف على بغداد . وسبق الحرب حملة من الدعاية هتف بها وزير المأمون ومدبر أمره الفضل بن سهل . ووجد هذا الأخير أن من أفضل ما يزري بأخلاق الأمين أن يعرض بمجالسته لأبي نواس[3] . وارتاع خليفة بغداد ، وسارع إلى تبرئة

---

(١) قال أبو نواس من أبيات :

اسقنيها يا ذفافة ... مزة الطعم سلافة
ذل عندي من جفاها ... لرجاء أو مخافه
مثلما ذلت وضاعت ... بعد هرون الخلافة

(الجهشياري : الوزراء : ص ٢٩٥ . وابن منظور : أخبار أبي نواس : ص ٢٢٠) وأثر السكر واضح في صياغة الأبيات .

(٢) قال من قصيدة أولها :

ومستعبد إخوانه بثرائه ... لبست له كبرا أبرّ على الكبر

ثم قال :

وقد زادني تيها على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر
ولو لم أنل فضلاً لكانت صيانتي ... فمي عن جميع الناس حسبي من الفخر
فلا يطمعن في ذاك مني طامع ... ولا صاحب التاج المحجب في القصر

الجهشياري : الوزراء : ص ٢٩٥ .

(٣) « لما وقع الخلف بين الأمين والمأمون كان ذو الرئاستين (الفضل بن سهل) يخطب بمساوىء الأمين ، وقد أعد رجلاً يحفظ شعر أبي نواس ، فيقوم ويقول : ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزىء متهكم يقول كذا وكذا ، وينشد قوله :
=

ساحته من ملازمة الشاعر له ، فاستدعاه ، ووجه إليه تهمة الزندقة ، وأمر به إلى الحبس ، وهم بقتله . وكان هذا التصرف سياسياً محضاً لرفع التهم ولاسترضاء العامة ذات الدور الهام في الصراع بين الأخوين .

وكان هذا هو أقوى الأسباب ، وزاد في تأييده حقد بعض رجال البيت العباسي على أبي نواس لتطاوله عليهم وهجائه لهم معتدا بمنزلته عند الخليفة فشهدوا وأشهدوا عليه بالزندقة ، وكانت الشهادة أدنى أن تكون زوراً[١] . فوضعه الأمين تأييداً للدعوى في سجن الزنادقة مع طائفة منهم[٢] .

ومرت على أبي نواس ، وهو محبوس ، حالات نفسية مختلفة . فما كان يظن أن يطول به الحبس ، وهو ما هو عند الخليفة لا يكاد يخلي منه مجلسه ، ولا يحسب الخليفة أعزف منه عن مجون وأعف منه نفساً وسيرة . فخال سجنه من قبيل المداعبة ، فكان يرسل إليه الأبيات الخفيفة يسترضيه مترقباً في أعقابها الإفراج[٣] ويدعي التوبة ، ويمزج أحياناً توبته بسخرية صريحة يضاحك بها قوماً يعلم ويعلمون أنهم في المشرب سواء[٤] .

= ألا فاسقني خمرا وقل لي : هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونه ، فجزع له ، وأمر بقتل أبي نواس ، فكلمه فيه الفضل وغيره فأطلقه » ابن منظور : أخبار أبي نواس : ص ١٤٧ .

(١) انظر الجهشياري : الوزراء : ٢٩٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) قال للأمين :

بك أستجير من الردى وأعوذ من سطوات بأسك
وحياة رأسك لا أعو د لمثلها وحياة رأسك
من ذا يكون أبا نوا سك إن قتلت أبا نواسك

ديوان أبي نواس : ص ٤٢٤ .

(٤) يجد المتأمل هذه السخرية في قصيدة أرسلها للفضل بن الربيع يعلن فيها التوبة :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتنيه والخير عادة
فارعوى باطلي وأقصر حبلي وتبدلت عفة وزهادة =

ولما أتت عليه ثلاثة أشهر رفع صوت الشكوى ، وأعلن أنه مسجون على غير ذنب(١)، وجادل عن نفسه،وظهر في شعره الضيق والاغتمام ، واعترف في توسلاته أنه ماجن وليس بالزنديق(٢) ، وزاد الإبطاء فتخوف القتل واستبدت به الوحشة واليأس ، فلما أفرج عنه غمرته الفرحة بنعمة الحياة والحرية بعد أن أشرف على التلف(٣) .

= لو تراني ذكرت بي الحسن البصري في حسن سمته أو قتادة
المسابيح في ذراعي والمصحف في لبتي مكان القلادة
وإذا شئت أن ترى طرفة تعجب منها مليحة مستفادة
فادع بي لاعدمت تقويم مثلي وتفطن لموضع السجادة
تر أثراً من الصلاة بوجهي توقن النفس أنها من عبادة
لو رآها بعض المرابين يوماً لاشتراها يعدها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتني على يديك السعادة

(ديوان أبي نواس : ص ٤٥٩) والحسن البصري عالم زاهد توفي سنة ١١٠ هـ ، وقتادة من فقهاء القرن الأول .

(١) قال أبو نواس :

مضت لي شهور ، مذ حبست ، ثلاثة كأني قد أذنبت ما ليس ـ يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم حبستني وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

ديوانه : ٤٢٦ .

(٢) قال :

يا رب إن القوم قد ظلموني وبلا اقتراف معطل حبسوني
وإلى الجحود بما عليه طويتني ربي إليك بكذبهم نسبوني
ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي والمجانة ديني

ديوانه : ٥٩٦ .

(٣) قال لأهله لما خرج من السجن :

إني أتيتكم من القبر والناس محتبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولد ولا وفر

(ديوانه : ص ٤٦١) أبو العباس هو الفضل بن الربيع . وانظر أيضاً : ص ٤٦٠ و ٤٨٩ .

ولم يهمل الشاعر لزندقته أو لغضب الأمين عليه ، فالحل والعقد في بغداد كان للفضل بن الربيع ، وكان يقوم بأمور الخليفة ويعد عدته لملاقاة المأمون والفضل بن سهل . فأمسك بأبي نواس ليمنع عن الحكم قالة السوء . وليؤدب الشاعر الذي لم يحفظ أسرار الخاصة عن العامة وأهل الدين ، فأخذه بالشدة ليتماسك . ولعل الشاعر أنّب فاعتذر ، ووعد بالصمت[(١)] .

فإذا قدرت الظروف التي أدخل فيها أبو نواس الحبس وعرفت اتجاهته النفسية ـ على ما تقدم ـ كان اتهامه بالزندقة فيه كثير من المجازفة أو التجني .

محمد بن مسعود الغساني :

والحق أن المجون كثيراً ما ترك السلطان يحار في حقيقة أصحابه بين تهتك السلوك والمروق من الدين . فكان يستودعهم السجن أمداً طويلاً ، لا يفصل في أمورهم . وبعضهم لا يفارق في الحبس شهواته وشذوذه . ومن هؤلاء الشاعر الأندلسي محمد بن مسعود الغساني « نسب عند المنصور بن أبي عامر إلى الزندقة فحبسه في المطبق »[(٣)] . وفي المطبق هام بفتى وسيم من أبناء الخلائف هو الشريف الطليق ، ونظم فيه قصائد العشق الحار وهو أحوج إلى البراءة والطهر لينجو من التهم . فبذلك كان الحكم ، في مثل هذه المسألة ، على ما في الضمائر أمراً بالغ الحرج ، وترجم الشاعر عن هذا الموقف في أبيات رفعها إلى المنصور ليعفو عنه في اتهام لا بيّنة عليه[(٤)] .

---

(١) قال في النصائح التي أوصاه بها الفضل :

لقنتها من مفهم فهم ... فعقدتها بأنامل عشر

ديوانه : ٤٦١ .

(٢) المغرب في حلى المغرب : ٢/ ١٩١ .

(٣) انظر القصيدة في « نفح الطيب : ٤/ ٣٥٩ » ومطلعها :

غدوت في الجب خدنا لابن يعقوب ... وكان ذلك عندي في التعاجيب

(٤) قال ابن مسعود يخاطب المنصور من السجن :

دعوت لما عيل صبري فهل ... يسمع دعواي المليك الحكيم =

المشتغلون بالحكمة والمتصوفة والزهاد

ومن الواضح أن من كان على طريقة أبي نواس وابن مسعود، كانت قضيته أخلاقية أكثر منها دينية، على حين رمي غيرهم بالزندقة من طريق الفكر على ما كانوا يظهرون من شعائر الدين والعبادات. وهم فريقان: فريق يؤديها ولا دليل يدحض إيمانه إلا اتهام مغرض، وفريق يؤديها مداجاة يلابس الناس بها ويغالي ليركنوا إليه وهو يخبىء الزندقة .

وأول ما يذكر من الأسباب ما طرأ على العرب من فلسفات الأمم القديمة واليونانية خاصة، وما نقل من كتب المنطق والعلوم والحكمة ، وما كان من إقبال المثقفين عليها إقبالا بلغ عند كثير منهم الشغف والنهم . ووجدوا في ذلك معارف جديدة، وذخرا وتأملاً فكرياً ، ومنهجاً جديداً في البحث والنظر. وكان أكثر إعجابهم بما كتبه أرسطو . وإذا كان النقلة من غير العرب فلم تلبث هذه الثقافة أن ذاعت وتمرس بها العرب أنفسهم .

وكانت هذه العلوم غريبة في مادتها ومنهجها عن علوم العرب من لغة وأدب ودين . يضاف إلى ذلك أنها مصدر قديم كان أهله وثنيين يدينون بتعدد الآلهة ، وأن بعض من تمرس بها حامت الشكوك الكبيرة حول عقيدتهم مثل ابن المقفع ولذلك دارت الشبهات حول من تعاطاها من المسلمين، وكانت من أقوى الأسباب للطعن في عقائد كثير من علماء المسلمين. وكان يكفي للاتهام أن يتشبه الكاتب بأساليب الفلاسفة في عرض الأفكار[1]. ولعل ما جرى بين

= مولاي مولاي ألا عطفة ... تذهب عني بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذي زخرفوا ... عني فدعني للقدير الرحيم
فعنده نزاعة للشوى ... وعنده الفردوس ذات النعيم

نفح الطيب : ٤/ ٣٥٩ .

(١) كان أبو زيد أحمد بن سهل البلخي «فاضلاً في سائر العلوم القديمة والحديثة ، تلا في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة» فاتهم بالزندقة، وقال فيه أحد معاصريه: «هذا =

الفيلسوف الكندي وبين أبي معشر جعفر البلخي، في القرن الثالث، خير مثل على اختلاف منهج النقل عن منهج العقل(١) ولما كان الفكر يشق طريقه بين الصعوبات ولا يتراجع فما زالت العقلية العربية تعتاد أساليب اليونان في الجدل والتدليل والعرض والتصنيف حتى رسخت فيها. وخلال هذا التقدم اتهم كثير من أدباء القرنين الثاني والثالث بالزندقة . وهب هؤلاء يدفعون عن أنفسهم بإنشاء كتب يردون فيها على الزنادقة(٢) .

على أن سهولة الاتهام بالزندقة لمن كان يدرس العلوم الحديثة يسرت على أرباب السلطان أن يقذفوا بها من شاؤوا من كتابهم أو خاصتهم . فقد ذكر أن المهدي بن المنصور قتل كاتبه محمد بن عبيد الله بعد أن قرره على الزندقة ، وأماط كتاب المحاسن والأضداد اللثام عن سر التهمة، وهي لا تعدو - إن صح ما زعم - غضب الخليفة على كاتبه من جراء إساءة شخصية للخيزران زوج المهدي(٣) . وفي القرن الثالث الهجري كان العالم الأديب أحمد بن

= الرجل مظلوم، وهو موحد، أنا أعرف به من غيري. وإنا نشأنا معا، وإنما أتي من المنطق، وقد قرأنا المنطق وما ألحدنا بحمد الله» الفهرست: ٢٠٤.

(١) «كان أبو معشر جعفر بن محمد البلخي أولاً من أصحاب الحديث . . وكان يضاغن الكندي، ويغري به العامة، ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة . فدس عليه الكندي من حسن له النظر في علوم الحساب والهندسة . فدخل في ذلك فلم يكمل له، فعدل إلى علم أحكام النجوم ، وانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم» الفهرست: ٤٠٠ .

(٢) انظر ما حدث به ابن النديم عن محمد بن الليث الخطيب، وذكر أنه كان بليغاً مترسلاً فقيهاً متكلماً بارعاً، ورمي بالزندقة، فوضع كتاب الرد على الزنادقة. الفهرست : ١٨١.

(٣) الجاحظ: المحاسن والأضداد: ١٧٦ . وموجز الحديث أن المهدي كان فيه غزل وشدة حب للخلوة بالنساء، فبلغه عن ابنة كاتبه جمال، فقال للخيزران : استزيريها، فزارتها ودعتها للحمام، وجاء المهدي وطلب منها أن تزوجه نفسها ، ففعلت دون ولي. وعلم إخوتها فانتظر حتى زارت الخيزران أختهم في دارهم ودعتها إلى الحمام ، فعمدوا إليها وقالوا: لو أردنا أن نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكن لا نستحل. فكان السبب في قتل المهدي محمد بن عبيد الله على الزندقة .

الطيب السرخسي خلف الفيلسوف الكندي في العلوم الحديثة كلها والقديمة. واختير معلماً للمعتضد. ولما صارت الخلافة إليه قربه منه ينادمه ويستشيره في أخص أموره. وقبض المعتضد فجأة(سنة ٢٨٦ هـ) على أحمد بن الطيب وحوله إلى المطبق بعد أن ضربه مائة سوط، وفي المطبق قتل، ولما عوتب في ذلك صرح أنه قتله لزندقته وزعم أن ابن الطيب كان دعاه إلى الإلحاد(١) . ولكن حقيقة الاتهام عرفها ابن النديم، فذكر أن أحمد بن الطيب قتل في السجن في مؤامرة سياسية بغير علم الخليفة(٢) .

المتصوفة:

وكانت تهم الزندقة توجه أحياناً إلى بعض المتصوفة، وكان الفقهاء وجمهور علماء السنة ينظرون إليهم بريبة وحذر، وشاركتهم في ذلك السلطة .

وثبت لدى الباحثين أن أهم مصدر للتصوف هو فلسفة اليونان بمختلف مدارسها(٣) . والإسلام يدعو إلى محبة الله حبا لا يشركه فيه أحد، والصوفية تدعو إلى الفناء في الله . وفكرة الاتحاد والفناء مستفادة من الفلسفة اليونانية(٤) . وأوغل بعض المتصوفة في الأفلاطونية الحديثة ، وأخذوا بمذاهب الإشراق وجعلوها غاية العبادة. ولما كانت هذه العناصر غريبة عن الإسلام

---

(١) أورد ياقوت سؤال من سأل المعتضد عن أحمد بن الطيب: « يقولون : إنك قتلت أحمد بن الطيب، وكان خادمك ، ولم تكن له جناية ظاهرة. فقال: ويحك ، إنه دعاني إلى الإلحاد. فقلت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب هذه الشريعة، وأنا الآن منصب منصبه فألحد حتى أكون من ؟» معجم الأدباء: ١/١٥٨.

(٢) قال ابن النديم: «كان الغالب على أحمد بن الطيب علمه لا عقله . وكان سبب قتل المعتضد إياه اختصاصه به، فإنه أفضى إليه بسر يتعلق بالقاسم بن عبيد الله وبدر غلام المعتضد . فأفشاه وذاعه بحيلة من القاسم مشهورة. فسلمه المعتضد إليهما فاستصفيا ماله، ثم أودعاه المطامير». ثم قتله القاسم بحيلة ولم يعترض المعتضد ـ الفهرست: ٣٧٩.

(٣) انظر عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي : ص ٣٨٠ ، بيروت ١٩٦٢ م .

(٤) المصدر نفسه: ٣٨١.

وتناقض التصور الديني للألوهية فقد شجب الفقهاء شطحاتها البعيدة، وكانت لهم يد في المحن التي وقعت لبعض غلاة المتصوفة مثل الحكيم السهروردي في القرن السادس[1] .

وكانت الصوفية تقف من الحياة موقفاً سلبياً، وكان بعض رجالاتها يجعل من نفسه مثلا في التجرد من الدنيا والاتكال، فينال من العامة عطفاً كبيراً يصل أحيانا إلى الإجلال. وكان العلماء يرون في مفارقة ما كان عليه الرسول ﷺ في شؤون الحياة والعبادة بدعة تستحق المراقبة والحساب. وكان السلطان يرى في نفوذ المتصوف بين أتباعه ومريديه خطرا على حكمه .

ذو النـــون المصـــري

لذلك سيق بعض الزهاد والعابدين - قبل أن يتبلور التصوف ويأخذ طابعه المنظم - إلى السجن وكان الخليفة أحياناً يجد من الصعوبة بمكان البت في أمرهم ، ويأخذه جانب الورع من تحمل مسؤ وليته عابد في حبسه أو معاقبته . وهذا ما كان من المتوكل عندما قبض على ذي النون المصري، وحمل إليه من مصر إلى مطبق بغداد وسير في الشوارع والقيود في رجليه، وهو ينشد شعر الرضا بقضاء الله والحب لجلاله، والناس يسمعون ويبكون. ولما أدخل على المتوكل

---

(١) السهروردي هو شهاب الدين يحيى بن حبش ، كان فقيها شافعي المذهب، أصولياً أديباً شاعراً حكيماً متفنناً نظاراً ، لم يناظره أحد إلا خصمه . اختص بالظاهر أمير حلب في عهد أبيه صلاح الدين الأيوبي، وناظر العلماء والفقهاء فظهر عليهم فرموه بالإلحاد والزندقة، وافتوا بقتله، وخوفوا صلاح الدين من بقائه، فتشدد على ولده في قتله حتى نفذ فيه الحكم . ومات قبل الأربعين، وله من كتب الصوفية حكمة الإشراق وهياكل النور وله شعر صوفي في كثير ذكر منه ياقوت قصيدة في الحب الإلهي والاتحاد(معجم الأدباء: ٧/ ٢٦٩) وقد لمح بعض المحدثين في كتابه هياكل النور قولاً بإلهين: نور وظلمة، وخير وشر، وإله كامل وإله ناقص (تاريخ الفكر العربي: ٤١٨) وانظر «ابن خلكان : ٥/٣١٢».

(٢) انظر حديثه في «وفيات الأعيان: ١/ ٢٨٠».

استطاع أن ينفذ بكلماته إلى قلبه ، فأبكاه وعظه لما أحس فيه من الصدق والإخلاص ، وتورع عن اتهامه فرده إلى بلده. لقد حوسب ذو النون عن الأسلوب النفسي الذي يتجه به إلى ربه، وكان في غاية الاعتدال. ولعل ما خيف من هذا الأسلوب في معرفة الله أنه لا يراها تتم إلا في حالة من التأمل العقلي والاستغراقي ومن الوجد النفسي وليس بالاستدلال العقلي ، وإن وجود الإنسان يتحقق بالوصول إليها بالتزهد والتجرد من غير حسبان لضرورات الحياة المادية اللازمة في معركة البقاء ، بالرغم من أن ذا النون كان واسع المعرفة بالعلوم التجريبية مثل الطب والكيمياء[1] .

أبو منصور الحلاج :

وكانت المذاهب الدينية منتهزاً لبعض الرجال ذوي المآرب البعيدة ، ينفذون منها إلى أغراضهم.

وكانت الجماهير في القرن الرابع الهجري أهم مادة لأولي الأطماع والأغراض السياسية. وكانت العامة من السهل خداعها بمظاهر التدين المفرط لكثرة الطغام فيها . وكانت أحوال الطبقات الدنيا، من الفقر والجهل والظلم، تتركها موضوع الخديعة . فظهر بعض الرجال الذين خلبوا عقول العامة بمظاهر تزهدهم وتدينهم حتى وثقت بهم فئات منهم. وكانوا بلا شك ينحون بهم نحوا يستخدمونهم فيه في أهدافهم السياسية. ومنهم من ادعى الألوهية فقتل[2] .

وممن كثر فيهم الخلاف أبو منصور الحلاج ، ويكاد يكون الحكم في أمره شاقاً بين دفاع أنصاره من الصوفيين وآراء الجماعة من أصحاب السنة. وكل من كان شأنه هذا الشأن يضيع كثير من حقيقته بين عصبيتين، ويحمل عليه من الطرفين شيء كثير .

---

(١) انظر الفهرست: ٥١٧.

(٢) انظر حديث ابن الشلمغاني وابن أبي عون في «وفيات الأعيان: ١/٢٩٧و ٤١٨» .

أما المتصوفة فلا يرضون أن يتهم أحد منهم بزندقة أو إلحاد ، ولذلك آلوا عليهم تعليل أقواله وأفعاله ، واعتذروا عن بعض تصرفاته، كما فعل الغزالي وابن الطفيل بعد(1) ، وأما جمهور العلماء فلم يتماروا في زندقته، فحبس ثم حوكم وقضي بموته (2) .

وينفع في جلاء حقيقة الحلاج أن يذكر أنه جاء إلى بغداد من نيسابور. وكان جده مجوسياً، في عصر تفكك فيه أوصال الخلافة وكثرت الدعوات السياسية تحت شعار المذاهب ذات الصبغة الدينية . وألف الإمام الجنيد ثم انفرد بنفسه وأظهر زهداً موغلاً في ترك الدنيا وفي العبادة. ورمقته عيون العامة وتشكك الفقهاء والسلطان بطويته .

والمطلع على مناجياته وأشعاره يعلم أنه كان يقول بالاتحاد والحلول(3) . ومن المعلوم أن من يدعي لنفسه هذه الرتبة فإن أقواله لا تعارض وأفعاله لا تناقش، وعلى الأتباع الامتثال الكامل لأوامره. وتصبح كلمته مخيفة إذا تضخم حجم مريديه . وتبقى المسألة قائمة : أكان الحلاج مخلص الاعتقاد لرأي رآه أم كان هدفه سياسياً دنيوياً لتكون له الكلمة والأمر في بلده.

ولو تُقرّيت أخباره التي نشرها ماسنيون وتحدث عن بعضها ابن خلكان(4) لوجدنا الرجل لايني في إشهار نفسه على الملأ بحب الله والاتحاد به، وكان كثير من مواقف عبادته أدنى إلى الشعبذة . والمعروف أن المحب الصادق لا يشوب

---

(1) انظر« ابن خلكان : ٤٠٥/١» وانظر رأي ابن الطفيل في «تاريخ الفكر العربي : ٥١٩ . فروخ».

(2) انظر محضر المحاكمة وتصديق الحكم من الخليفة في وفيات الأعيان : ١/ ٤٠٥» وقد أمر بضربه ألف سوط ثم ضرب عنقه وحرق جثته .

(3) انظر أخبار الحلاج : ص ٢٠ و٥٧ ، تحقيق ماسينيون، باريس ١٩٣٦ م .

(4) وفيات الأعيان: ٤٠٥/١.

حبه بمراءاته ، ويكتم ذلك عن الناس ليكون بينه وبين خالقه . وإنما كان الحلاج يرتجف ويئن ويصرخ من شدة الحب والألم ـ كما كان يدعي ـ حتى إذا أخذ به بعض الناس واتبعه إلى معتزله وسأله تفسير ما قال أو ما كان منه أعلمه الحلاج أن ذلك لا يتيسر له حتى يفهم إشارته الخاصة ويسير في طريقته[1] وإن صح كل ما جاء من أقواله فإن أكثرها غامض معمى لا يعود على السائل بغير زيادة الجهل مما سأل[2] ، وبعضها خروج تام من التوحيد[3] .

فإذا وضع هذا الرجل في ظروف عصره، وأخذت مجوسيته باعتبار، وتذكرت الدوافع الخفية التي تجعل بعض هواة العظمة والأمجاد يلبسون لبوس الفقر والزهد والتقوى لإنجاح مآربهم، عرفت أسباب سجنه وقتله .

ولعل رأي ابن القارح تخلص من كنه أخبار الحلاج التي عرف بها، وهو يراه رجل دنيا طماحا للاستيلاء على الحكم[4] . وإذا صح الشعر الذّي أنشده وهو يتقدم للقتل فقد اعترف بأن أطماعه جنت عليه[5] .

---

(١) انظر أخبار الحلاج : ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٣ و٧٤ و٩٤ .

(٤) قال ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء المعري : «والحسين بن منصور الحلاج من نيسابور، وقيل من مر، يدعي كل علم، وكان متهوراً جسوراً يروم إقلاب الدول، ويدعي فيه أصحابه الإلهية، ويقول بالحلول، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة، وفي تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية حلت فيه. وناظره علي بن عيسى الوزير فوجده صفرا من العلوم، وقال: تعلمك لطهورك وفرضك أجدى عليك من رسائل أنت لا تدري ما تقول فيها، كم تكتب إلى الناس: تبارك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته . ما أحوجك إلى أدب » ص ٣١ .

(٥) «لما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب بن إلى القتل أنشد :

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مستقرا

وذقت من الزمان وذاق مني ... وجدت مذاقه حلوا ومرا

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لعشت حرا

ابن كثير القرشي : البداية والنهاية: ١١/١٤٣ .

ورثى الحلاج نفسه ليلة إعدامه، وزعم أن الدنيا بذهابه تخلو من النفوس الطاهرة[1] . ولما عاين الموت اضطربت نفسه، وأنشد من الشعر ما يفصح عن تشككه في العدالة الإلهية[2] .

الزهـــاد :

أبو العتاهيـة :

ويجنح المجتمع جنوحاً تلقائياً الى التوازن في الاتجاهات نتيجة لما فطرت عليه النفوس من اختلاف الميول ، فلما سرى فيه تيار من المجون لم يلبث أن وازن نفسه بتيار مقابل ، وفي الوقت الذي كان فيه أبو نواس يعلن أن العيش خمر وشهوة ، كان أبو العتاهية يحذر من الدنيا ويبغضها الى الناس ويدعوهم بحرارة الى هجر زخارفها ومفاتنها ولذاتها ، وسجن أبو نواس لأن مجونه أساء الى السياسة من جلسائه ولم يسجن للمجون نفسه إلا بقدر ما استغل لاتهامه بعقيدته ، ولكن أبا العتاهية لم يكن في زهده ما يسيء الى أحد ، ومع ذلك فبالزهد سجن ، وكان السبيل للطعن عليه واتهامه بالزندقة ، فنسبه قوم من أهل عصره « الى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد »[3] . ومن العسير إثبات التهمة أو دحضها إلا بعد الإحاطة بظروف سجنه والنظر في ديوانه نظرة شمول وتحر .

ومن الجدير الإشارة الى ما تقدم من أن أبا العتاهية حبسه المهدي بن المنصور على الغزل بجاريته عتبة التي زعم أنه شغف بها[4] . ثم حبسه ابنه الرشيد في المرة الثانية في نقيض السبب الأول إذ امتنع أبو العتاهية عن قول

---

(١) المصدر نفسه : ١٤٢/١١ . وفي أخباره ص ١١ ثمانية أبيات .

(٢) المصدر نفسه . وفي أخباره ص ٣٥ وقد يكون كل ما نسب إلى الحلاج من شعر من وضع أصحابه . ولهذا حديث بعد في مطلع الفصل الاخير من هذا البحث.

(٣) انظر الأغاني : ١٢٣/٣ .

(٤) انظر ص ٢٥٥ .

« الغزل الرقيق » [1] ، فغضب الخليفة وأغلظ في حبسه له .

ولعل هذين الخبرين يدلان على حالين متقابلين تعاقبتا على الشاعر ، أما الأولى فكان فيها خليعاً لاهياً مقبلاً على الشراب مولعاً بالغناء لا يكاد ينقطع عن مجلس إبراهيم الموصلي الذي آثر السجن عند المهدي على اجتناب الخمر [2] ، وكان ابراهيم عند أبي العتاهية مثالاً للرجل الحر الذي يعطي نفسه حقها من الاستمتاع ويحسن عشرة إخوانه في شرابه ومتعه [3] وكانا معاً نديمين للهادي بن المهدي يشربان معه ولي عهد وخليفة . وانضما معاً بعد موته الى حاشية هارون الرشيد فاستمتع بصحبتهما ، وكانا لا يفارقانه في حل ولا في حضر ، ومن الجائز ان تكون هذه الحقبة هي الدور الذي تم فيها لأبي العتاهية تكوينه الفكري والتأملي ، وفيها انتهى الى حزن مكتوم لوفاة الهادي لشدة الإلفة والمحبة حتى عزم هو وإبراهيم الموصلي أن يمتنعا عن الشعر والغناء بعده . فأرهقهما الرشيد بالحبس فتخاذلا ، وعاد الأول شاعر بلاط والآخر مغنياً فيه [5] . وأكبر الظن ان موت الهادي في عنفوان الشباب أرعب أبا العتاهية وضربت على قلبه بإحساس مخيف بالفناء المحتوم .

ولم يتوقف التحول النفسي عند أبي العتاهية وهو برفقة الخليفة ، فاستمر به وبلغ مداه عندما أزمع قراراً بترك الغزل ، ولبس الصوف وتزهد ، وبذلك بدأ الدور الثاني من حياته ، وتحدد لنا أخباره المكان الذي خرج فيه انقلابه النفسي من القوة الى الفعل ، فكان في سفر مع الرشيد ، ولما وصل الرقة أنفذ عزمه [6] ، وفوجيء الرشيد بموقف أبي العتاهية ، ولم يرضه منه أبداً ، وأوعز

---

(١) انظر الأغاني : ٣/١٥٣ .

(٢) انظر ص : ١١٩ ح٤ .

(٣) انظر في الأغاني : «١٠-٢/٧٣» شعراً قاله أبو العتاهية متألماً لحبس إبراهيم .

(٤) انظر الأغاني : ٣/١٥٢ .

(٥) انظر الأغاني : ٣/١٥٧

(٦) انظر المحادثة في الأغاني : ٣/١٥٢ .

إليه ان يعود الى قول الغزل لجملة أسباب سيرد ذكرها ، وأبدى أبو العتاهية صلابة هذه المرة ، وأقام في الحبس شهوراً [١] يصابر الخليفة وهو يهمله حتى يئس الشاعر منه ، فأعلن الرضوخ والإذعان ، وقال غزلاً خفيفاً وخرج من السجن [٢] ، ولكن نفسه كانت قد أزمعت قراراً على التنسك والزهد ، وحبس الفم عن الغزل ، وقصر القول على المواعظ والحكم ولما لم يلب رغبات الرشيد ضربه بالمقارع وسجنه ، ودارت في السجن بينه وبين الرشيد معركة عنيدة انتهت بانتصار قرار الشاعر .

ومن الواجب قبل التفصيل في أحداث المعركة أن تذكر الأسباب التي جعلت خليفة يزخر بلاطه بالشعراء يلح على واحد منهم بالضرب والحبس ليتغزل مكرهاً ، وإن ظاهر المطلب لا يقنع حتى ظن بعض المستشرقين ان طلب الغزل دعوى روّجها البلاط ، وان حقيقة سجنه ترجع لقوله الشعر الحكمي حتى لا يتأثر الناس بما يدعو إليه من التنفير من الدنيا [٣] . ولكن اعترافات الشاعر لا تدع مجالاً للشك بأن المطلب كان العودة الى الغزل [٤] .

ويدل تقري أخباره على وجه الدقة ان ثمة أسباباً بعضها فني وبعضها سياسي وبعضها ديني .

ولعل العامل الفني كان له شأنه ـ لأول مرة وآخرها ـ في حبس شاعر .

---

(١) كتب في هذه الحبسة الى الرشيد :

أنا اليوم لي والحمد لله أشهر ... يروح عليّ الهم منكم ويبكر

من أربعة أبيات . « الأغاني : ٣/١٥٢ » .

(٢) انظر الشعر في الأغاني : ٣/١٥٥ .

(٣) هو رأي جولد زيهر . انظر نيكلسون : «Nicholson: L.H.A, p.297» .

(٤) قال أبو العتاهية للرشيد :

يا ابن عم النبي سمعاً وطاعة ... قد خلعنا الكساء والدراعة

ورجعنا الى الصناعة لما ... كان سخط الإمام ترك الصناعة

« الأغاني : ٣/١٥٥ » .

ذلك ان الرشيد كان ذواقة ناقداً للشعر من الطبقة الأولى ، ومن البلاغة في أعلى درجاتها [١] ، ويمتاز بأنه نفذ نفوذاً قوياً في روح عصره وما يحيط ببلاطه خاصة من ترف الحياة ونعومتها ، وفي أدب ذاك العصر ، فكان يقوم إنتاجه تقويماً دقيقاً ، وارتأى في الشعر الغنائي رأياً جديداً هو أن تكون معانيه عفوية مما يحس به الناس على اختلاف طبقاتهم ، فجمالها في عفويتها ، وكان يجد ان هذه العفوية تفسدها الركاكة والغثاثة الظاهرة في الأزجال ، وكان يعتقد أن اذا قيض لها شاعر متدفق النظم ، مأنوس اللفظ ، رشيق التركيب ، فإنه يرفعها من الابتذال من غير بعد عن أذن السامع ، أي سامع . وكان يرى في أبي العتاهية الشاعر الوحيد المقتدر لهذه الغاية ، وكان يفعل فيعجب به [٢] ، فلما صمم الشاعر أن يجانب الغزل صادم هذا العزم الاتجاه الفني عند الرشيد ، وكان يعتمد على أبي العتاهية وحده في تحقيقه ولصياغته الشعر الملائم لألحان المغنين في البلاط .

والعامل السياسي أشد أثراً ، وإن موقف أبي العتاهية الأخير يشبه أسلوب بعض السياسيين في المقاومة السلبية ، فهو بعزوفه عن حياة القصر ، بعد أن كان ملابساً لها ، وبدعوته الى الزهد وازدراء المتع والطيبات ، مستحضراً دائماً نازلة الموت ، يخالف مخالفة صريحة ما كان عليه السلاطين من ترف يتجاوز الخيال . وهذا الموقف يشبه ان يكون هجوماً أو نقداً على الأقل لطريقتهم في الحياة . ولا يبعد أن الشاعر عاين التفاوت الكبير بين الطبقات ، وأدرك أن الإثراء الفاحش جاء عن الاستئثار والاغتصاب ، فاتخذ هذا الأسلوب قولاً وعملاً

(١) انظر حديث سهل بن هرون عن بلاغة الرشيد في العقد الفريد : ٥/٥٨ .

(٢) روى أبو الفرج بإسناد عن أبي العتاهية قال : « كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون به . فقيل له : ليس أقدر على هذا من أبي العتاهية ، وهو في الحبس . قال : فوجه اليّ الرشيد : قل شعراً حتى اسمعه منهم » . الأغاني : ٣/١٧١ . انظر نوعية الغزل الذي كان يحبه منه الرشيد في الأغاني : ٣/١٥٣ .

ليبخس الترف ويزري به .

ولا يخفى أثر هذه الأقوال عن الحاكم وعن ذوي الأموال وعن الغارقين في الملاذ ، ولذلك شجبوا جميعاً موقفه واعتبروه زندقة وكفراً . ويصوّر رأي الطبقة الثرية فيه الشاعر إبراهيم بن الخليفة المهدي ، فقد أرسل إليه قصيدة اتهام ، بل تهديد أخافت الشاعر ، ويتهمه إبراهيم بالتهمة الشائعة من ذكره الموت وحده والترهيب به من غير ذكر البعث والترغيب (١) ، وآثر الشاعر السكوت إذ لا طاقة له بالبيت الحاكم ، وحسماً للجدال في قضية يريد ان يفر منها ، فإن الشائعات تغلب الحقائق (٢) .

وأما العامل الديني فهو السبب الظاهر القريب ، ومن المعروف أن الرشيد تتبع الزنادقة وغلظ عليهم (٣) ، ومن المنتظر ان يرتاب بعقيدة أبي العتاهية وقد أرجف به بعض الوعاظ(٤)، ولا ريب أن عناده في قول الغزل عند خليفة لم ينقطع

---

(١) قال الصولي : « لما لبس أبو العتاهية الصوف كتب إليه إبراهيم بن المهدي » :

إن المنية أمهلتك عتاهي ... والموت لا يسهو وقلبك ساهي
وكلت بالدنيا تبكيها وتندبها ـ م ـ وأنت عن القيامة لاهي
العيش حلو والمنون مريرة ... والدار دار تفاخر وتباه
ما الزهد من رجل ألد مكذب ... بالبعث غير ضلالة وسفاه
إن كان لبس الصوف جملتك التي ... تدعو النجاة فإنني لك ناهي
لا شيء يقبل منك إلا ما به ... حكمت عليك نواطق الأفواه
والأمر بعد عليك ويحك واسع ... ما لم تسو إلهنا بإله

(أشعار أولاد الخلفاء : ص ٤٧) من ١٤ بيتاً ، وكان أبو العتاهية وإبراهيم صديقين حجا معاً .

(٢) لما قرأ ابو العتاهية الشعر قال :« أنا عيّي بجواب مثله ، وما له عندي إلا ما يحب » المصدر نفسه : ٤٨ .

(٣) انظر ص ٣٣٩ .

(٤) انظر ابن عبد البر في جامع بيان العلم : ٢/١٥٠ ، ومفاد الخبر أن الواعظ منصور بن عمار قص يوماً على الناس وأبو العتاهية حاضر ، فقال أبو العتاهية زنديق ، أما=

عنه بره ، وتحوله النفسي المفاجيء ، رجح جانب الاتهام .

والحق يقال ان الرشيد لم يسرع في الحكم عليه ، ولم يوجه إليه هذه التهمة توجيهاً مباشراً فيما عرف من أخباره ، ولم يعرض الشاعر لذكر العقيدة في توسلاته لإطلاقه ، مما يدل أن تهمة الزندقة لم تدخل في قناعة الرشيد . ووضعه الخليفة تحت المراقبة الدقيقة في السجن سنة أو أكثر تحصى عليه بوحاته الوجدانية ، فلم يظفر بدليل على كفره (٢) ، وثبت له ان الشاعر بريء فأطلقه وأحسن إليه وإن ظل على غيظه منه لعصيانه أمره (٣) .

وكان الحبس معركة بين أبي العتاهية وبين الرشيد « ضربه ستين مقرعة ، وحلف لا يخرج من حبسه حتى يقول شعراً في الغزل ، فلما رفعت المقارع قال أبو العتاهية : كل مملوك له حر وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن أوبلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكان الرشيد يحزن مما فعله فأمر ان يحبس في دار ويوسع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه » (٤) . وفي هذه اليمين ـ كما يتراءى ـ إصرار كبير يدل على يقين مستقر في أعماق النفس ، وقد أثر ذلك في الرشيد فلان له إلا أن هيبة الملك والرغبة في اكتشاف دخيلة الشاعر على جهة الجزم وقفتا دون الإفراج عنه .

= ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت وحده ، ومات منصور بعد أيام وبقيت الشائعة تلاحق أبا العتاهية .

(١) انظر المدح في الأغاني : ٣/١٥٢ .

(٢) « لما ضرب الرشيد أبا العتاهية وحبسه وكّل به صاحب خبر يكتب إليه بكل ما يسمعه منه ، فكتب إليه أنه سمعه ينشد :

أما ، والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

الأغاني : ٣/١٤٥ .

(٣) انظر الأغاني : ٣/١٧٣ .

(٤) الأغاني : ٣/١٣٥ .

وتشبث الشاعر برفضه لحياة البلاط ولزخارف الدنيا ، واتخذ من هذا الرفض شوكة تخز في قلب الخليفة وتؤرقه وتستثير منه دموعاً غزاراً ، فقد طلب إليه وهو في السجن ان ينظم شعراً يصلح لغناء الملاحين إذا ركب الخليفة دجلة ، فأرسل إليهم شعراً نغص على الرشيد لذته بعد سماعه ، وتركه أتعس الناس نفساً (١) ، ولم يستطع أبداً أن يجحد حكمة شاعره ولا أن يثني عزيمته ، وعلم أن رفضه لزخارف الدنيا عن تصميم صادق ، فأطلقه وتركه لشعره الحكمي .

ولا شك ان الرشيد انتهى في أمر أبي العتاهية الى صواب . فالتهمة لا تزيد عن إرجاف واعظ واحد هتف بزندقة أبي العتاهية من غير تحقق في ساعة استياء وغضب ، فكانت التهمة أدنى إلى البهتان ، ولكنها لما خرجت من فمه صارت ملك العامة وبلغت مبلغها .

والرجوع الى ديوانه يؤيد أن التهمة ضحلة ، فهو زاخر بذكر البعث والمعاد والحساب والجنة والنار (٢) ، وقد نبه ابن عبد البر الى أن الذين رموه بالزندقة لم ينظروا في شعره كله ، وانتقد ابن قتيبة الذي اختطف التهمة من ألسنة العامة من غير تحقيق ، ورأى ابن عبد البر في أبي العتاهية ، وقد روى

---

(١) من هذا الشعر قوله :

خانك الطرف الطموح   أيها القلب الجموح
كيف إصلاح قلوب   إنما هن قروح
أحسن الله بنا   أن الخطايا لا تفوح
كلنا في غفلة   والموت يغدو ويروح
كل نطاح من الدهر   له يوم نطوح
نح على نفسك يا مسكين   إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمرت   ما عمر نوح

الأغاني : ٣/١٧١ .

(٢) انظر الديوان : ق ٢ و ٤ و ٧ و ٤٥ و ١١٦ و ٣٨١ و ٣٨٣ .

ديـوانه ، رجـلاً لـم يفارق نصـائح السلف الصـالح ومـواعظهم ، وأن نفـرا من أصحاب المجون « كان يمقت أبا العتاهية ويحسده ويغتابه لانصرافه عن طبقته من الشعراء المستخفين ، وقد تاب توبة صادقة ، وداخل العلمـاء الصالحين ، ونوّر الله تعالى قلبه فشغله بالفكرة في الموت وما بعده »[1] .

ومن المفيد أن يضاف إلى ما ورد أن أبا العتـاهية كـان عربي الأصـل لا يحمل من آبائه وراثات دينية غريبة ، وانه لم يعرف بعصبية والحركة الشعـوبية على أشدها ، وأن ديوانه يشير الى حالة نفسية كان يرزح تحت وطـأتها ، وهي خوف مستهال من الموت ، تعاظمت في وعيه وكيانه واستولت عليه ، فكان يبدو أشبه بالجواد الأرن يشد إلى الموت من خطامه وهو يعصي ويتقهقر[2] ، فكانت هذه الحالة النفسية علة انقلابه من المجون الى الزهد ، وسبب إقباله على منابع الحكم الدينية يروّح بها عن نفسه بعض ما يعانيه ، ويعزيها بالمصير المحتوم ، ولشدة يأسه من دنيا لا تدوم دعا النـاس إلى التوقف عن الجـري في مغريـاتها ومتاعبها .

فلا نكران أن يكون زهد أبي العتاهية اتجاهاً فكرياً ارتضته نفسه فالتزمه ، فمن عادات النفوس أحياناً انقلابها على سلوكيتها وتحولها إلى الموقف المقابل في عصر يعج بالمتناقضات .

خـاتمــة :

تناول هذا المبحث الأخير من الفصل الثاني ، بمقالاتـه الأربع ، دواعي السجن وأسبابه ورجـالاته . وحقق في أحـوال السجناء ومـواقفهم في الظروف

---

(١) أبو العتاهية : أخباره وأشعاره : ص ٣٦ ـ ٣٨ ، تحقيق شكري فيصل .

(٢) انظر الديوان : ص ٣٩٨ ، ق ٤١٠ ومنها :

مـا بـال قـوم وقـد صحت عقـولهم   فيمـا ادعـوا يشتـرون الغي بـالثمن
لتجـذبني يـد الـدنيـا بقـوتـهـا   إلى المنـايـا وإن نـازعتهـا رسني
وأي يـوم لـمـن وافـى منـيـتـه   يـوم تـبين فـيـه صـورة الـغبـن

ب ١٦ ـ ١٨ .

السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وانتهى الى استنتاجات وتقريرات ، لم يتناولها بحث من قبل ، في إطار ما قدمته الأخبار والأشعار والأحداث .

وكشف هذا المبحث كشفاً أولياً عن أغراض شعر السجن واتجاهاته التي يتولى الفصل الرابع والأخير الإبانة عنها والتفصيل فيها .

أما الفصل الثالث التالي فهو يتحدث عن مصادر شعر الأسر والسجن ، وعن حجم هذا الشعر ومقداره ، وعن صحيحه ومنحوله .

الفصل الثالث

شعر الأسر والسجن :

مصادره وحججه

الفصل الثالث

شعر الأسر والسجن : مصادره وحجمه

لا يشكو المنقب في أدب العرب عن شعر الأسر والسجن من قلة مصادره ، فهي وفيرة . فإن هم أن يحيط بها على جهة الحصر آده الأمر ، ولا ينتهي إلا إلى تقدير ظني إذ لا سبيل إلى أرقام دقيقة .

وليست أسماء المراجع في حواشي البحث وفي أعقابه إلا القليل وإن دلت على كثرتها وغناها وقربها .

صعوبة الحصر :

وصعوبة الحصر في جانبين : أحدهما أن كثيراً من الكتب التي هي مظنة هذا الشعر مما تشير إليه المصادر المطبوعة ما زال مخطوطاً أو مجهول الوضع مفقوداً ، والآخر أن بعض المخطوطات لم تنقل منها نسخ مصورة إلى المكاتب العلمية والوطنية ، وأن بعض المطبوع منها يصعب الإطلاع عليه لندرته بتقادم الطبع ، ولأن منه ما طبع طبعة علمية محدودة الانتشار قام عليها بعض المستشرقين في بلادهم (١) .

---

(١) مثل ديوان الطليق القرشي الذي جمعه ونشره غومس غرسيه في مدريد ، والطليق أمضى في السجن ستة عشر عاماً غنية بالإنتاج الشعري .

أسباب التضخم :

ولغزارة المراجع سببان : أولهما أن البحث ينساح على عصور أدبية متطاولة شملت العصر الجاهلي وثمانية قرون متعاقبة على الأقل من تاريخ الإسلام ، في قارات ثلاثة ازدهرت فيها العربية وآدابها ما بين الأطلسي غرباً وأطراف الصين شرقاً ، وثانيهما أن أمم هذه الأرض كانت كثيرة الدول والأحداث والحروب ، جمة النشاط الإنساني ، وكانت سجونها مزدحمة بالنزلاء ، ودخلتها أصناف من الأسرى والسجناء بداةً وحضراً ، وخلفاء وسلاطين ، وقادة ووزراء ، وسادة وأتباعاً ، وسوقة وأشرافاً ، وعلماء وكتاباً ومفكرين ، ثائرين ناقمين ، ومتزمتين وماجنين ، ودخلها من الشعراء المكثرون والمقلون الأبرياء والمذنبون ، وألفاف من الناس هجم بهم سوء الطالع على الحبس .

وليس من الغلو في العمل والجهد إذا قيل إن مصادر هذا الشعر هي الغالبية العظمى من أشعار القدماء في التاريخ والسير والتراجم والطبقات ، وفي الأدب وأخبار الشعراء والمختارات ، وفي اللغة وشروح الشواهد ، وفي كتب الثقافة المتنوعة ، فضلاً عن دواوين الشعراء أسراء ومسجونين .

ذلك ان الأعداد الضخمة من السجناء يتصل كل منهم بفرع من فروع الثقافة أو غير فرع ، فكان له ذكر في غير سفر .

لا تصنيف للقدماء في أدب السجن :

وتدفع الأمانة العلمية الى التحري عن كل مرجع ما أمكن ، فأخبار السجناء ، وآثارهم متفرقة في الآثار على غير نظام ، والقدماء الذين حوت تصانيفهم أشتات العلوم والمعارف والآداب ، وخاضوا في كل فن ، تركوا لنا مهمة شاقة هي تتبع شعر الأسر والسجن في أسفارهم ، ولم يعينونا بمصدر جامع له لعصر أو بلد ، وإن اتجهوا الى التبويب والتصنيف وفق الموضوعات والأغراض في مختاراتهم وحماساتهم .

تصنيف أولي :

ومن المستحسن الأخذ بتصنيف لأشتات المراجع يحصرها نوعاً ومادةً لا عدداً .

مصادر الشعر قبل عصر التدوين :

وأول ما يشار إليه في هذه الخطوة هو التمييز بين ما جاءنا من شعر الأسر والسجن من العصر الجاهلي والقرن الهجري الأول الذي تلاه وما أتت به القرون من بعد ، وليس الغرض أن نفصل بين الانتاج بعلامات زمنية بل التنبيه الى طبيعة المصادر لكلتا الحقبتين ، فمن المعروف ان تدوين الشعر وجمعه بعد القرن الهجري الأول كان ميسوراً وإنما العناء فيما كان قبل ذلك من نتاج الجاهلية وصدر الإسلام إبان الفتوحات والفتن .

وعلى الباحث ان يكتشف الطريق التي جاءت منها هذه الطائفة الحسنة من شعر الأسرى والسجناء قبل التدوين الذي اشتد ساعده ـ على ما هو مشهور ـ في نهاية القرن الثاني ، فالاطمئنان الى الطريق هو للشعر توثيق .

القبائل :

وما ورد في هذا البحث من الشعر القديم يدل على مصادره الأصيلة وقيمتها . وكان تبين من الشعر احتواء القبيلة على الشاعر من نواحي حياته شعوراً ورأياً وسلوكاً ، كما دل على ما كان بين القبائل من الحلف أو العداء ، وما كان للشعراء من دور في تركيز الرأي السياسي لقبائلهم في كلمات سائرة فعالة ، لذلك كانت حياة الشعراء وما يقع لهم من الأحداث الهامة من أسر وسجن أو قتل جزءاً من تاريخ القبيلة ، كما كان من صميم تاريخ القبائل المعادية ، عند إمساكها بالشاعر ، لما كان يحدث فيها من المدائح أحياناً أو ينال من قبيلته حيناً ، إن أهملت شأنه ، فتحتفظ تلك بشعره احتفاظها بناصية الأسير بعد جزها ، فقبيلة الشاعر أو القبيلة الآسرة هما أهم المصادر لأخباره وأشعاره .

المـــــدن :

وكان للمدن في الجزيرة مثل مكة ويثرب واليمامة وهجر صلات وثقى بالقبائل ، وكان لشعراء المدن والقبائل اتصال بالممالك العربية الخاضعة للفرس والروم ، يفدون إليها ، وقد تستدعي تقلبات السياسة حبس بعضهم [1] ، وكان الحبس ينال العمال العرب أنفسهم فيعتقلون في عواصم الفرس والروم [2] ، وكانت قصائد العرب تصل الى الحيرة من حبوس الأكاسرة وتذاع بين الناس [3] ، وكانت أشعار المحبوسين في عاصمة المناذرة وحاضرة الغساسنة مسموعة منقولة [4] ولذلك تعتبر حاضرتا العراق والشام في الجاهلية مصدراً غنياً لشعر السجن .

دواويـن القبــائـل :

أما أشعار القبائل في جاهليتها وإسلامها فلم تذهب عن العلماء وقد هبوا في تجميعها ، وكانت دواوين القبائل معروفة مشهورة بين أيدي الناس ، وذكر الآمدي منها ستين ديواناً من صنيعة المحققين النابهين [5] ، وعدّد ابن النديم ثمانية وعشرين ديواناً للقبائل [6] ، ولعل عدة الدواوين تفوق هذين الرقمين ، وقد ذكر أن أبا عمرو الشيباني صنع نيفاً وثمانين ديواناً للقبائل كل قبيلة في كتاب [7] .

---

(١) ذكرنا حبس الغساسنة لبعض شعراء قريش ولبعض شعراء كلب ولخم (ص ٣٥) .

(٢) انظر حديث قيس بن مسعود بن ذي الجدين (ص ١٥٥) .

(٣) من ذلك شعر حجر بن خالد (شرح التبريزي للحماسة : ١٨٣/١) والبراء بن قيس (معجم البلدان : مجدل) وكانا في سجن كسرى .

(٤) انظر في (ص ٣٥ حـ ١) انظر شعر عدي بن زيد (ص ٢٥٣) .

(٥) في كتابه المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ، تصحيح كرنكو ، القدس ١٣٥٤ هـ .

(٦) الفهرست : ١١٦ .

(٧) المصدر نفسه : ١٠١ .

وديوان القبيلة بمثابة تاريخ أدبي سياسي للقبيلة يحوي أسماء شعرائها وأخبار المكثرين والمقلين ، فهم وهو سجل لأيامها ومفاخرها وتجاربها ، ولربما روى من شعر الشاعر ديوانه أجمع .

وكان ديوان القبيلة يجمع قرنين أو ثلاثة من انتاجها مما كانت حريصة على استبقائه وجريانه على ألسنة أجيالها ، وكان المظنون أن الرواية الشفهية كانت مصدر هذه الدواوين فهي مجموعة من أفواه الأعراب ، والحق أن الرواية الشفوية كانت من المصادر الثرة يطلبها العلماء في رحلاتهم الى البوادي ، ويأخذونها من الأعراب الوافدين على المدن ، ولكنها كانت إحدى شعبتي الرواية الأدبية ، أما الشعبة الأخرى فتلك الصحف والأوراق المكتوبة منذ عهد بعيد موغل في الجاهلية ، وكانت القبيلة تسجل فيها أشعارها وأخبارها ومآثرها وأنسابها ، فتنتقل من جيل إلى جيل وتنمو مادة بتزايد الأحداث ، وكانت هذه الدواوين تعرف بإسم الكتب ، والثابت ان عدداً وفيراً من هذه الكتب كان في حوزة الرواة وكبار العلماء مثل حماد وأبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والمفضل الضبي والأصمعي . وكانوا ينظرون فيها ويضيفون إليها ما يأتيهم من طريق الرواية الشفوية ، وانتقلت هذه المدونات والمحفوظات من بعدهم إلى علماء القرن الثالث مثل ابن حبيب وابن الأعرابي وأبي حاتم السجستاني والسكري ، وتجردوا لها تحقيقاً ومقابلة وزيادة حتى كان منها دواوين القبائل التي ذكرها الآمدي وابن النديم ، وليس الغرض سوق الأدلة التاريخية على حقيقة المدونات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام في هذا البحث بعد أن تجرد لها من المحدثين من استخرج لها البراهين فأكسب هذه الحقيقة رجحاناً

---

(١) كان حماد الراوية ينظر في هذه الكتب ، قال : « أرسل الوليد بن زيد إلي بمائتي دينار ، وأمر يوسف بن عمر يحملني على البريد ، قال ، فقلت : لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف ، فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بلي ، فأنشدته منها ما استحسنه . . » الأغاني : ٦/ ٩٤ .

علمياً حسناً [1] .

وأما أشعار المدن فالحيرة كانت أغناها بالنشاط الشعري ، وكان اللخميون بشهادة المؤرخين القدماء حريصين على تدوين الشعر [2] ، وبذلك كانت عاصمتهم كثيرة الموارد الأدبية والثقافية ، وكانت أشعارهم فيها معروفة [3] ، ومن عناية ملوكها بالشعر ما قام به النعمان بن المنذر من جمعه أشعار العرب وما قيل في أسرته في ديوان [4] ، وشهد العصر الأموي مثيلاً لهذا الجهد الرسمي مرتين عندما أمر معاوية بن أبي سفيان ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك بتدوين أشعار العرب في الكتب ، وكان لعبد الملك بن مروان جدّ عناية معروفة في كتابة الشعر والمغازي [5] .

وعلى هذا فاعتبار نهاية القرن الثاني الهجري بدء عصر التدوين نظرية يتناولها التعديل [6] ، والأدق أن نعتبر ذاك التاريخ بدء التحقيق العلمي الخصب معتمداً على المدونات السابقة ، وبذلك فما انتهى الينا من شعر الأسر والسجن ، من الجاهلية وأول قرون الإسلام ، قد كان في الكتب الأولى للقبائل والمدن .

ما تبقّى من دواوين القبائل :

غير ان دواوين القبائل ضاعت في تضاعيف الزمان ، فلم يبق إلا واحد

---

(١) هو الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه « مصادر الشعر الجاهلي ، وقيمتها التاريخية » انظر ص ١٠٧ ـ ١٨٢ و٥٤٣ ـ ٥٧٢ .

(٢) قال الطبري في تاريخه : « كان أمر آل نصر بن ربيعة ، ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق ، عند أهل الحيرة متعالماً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم » . ٢/ ٣٧ . طبعة مصر .

(٣) انظر حواشي الصفحات ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٤) انظر طبقات ابن سلام : ٢٣ وابن جني : الخصائص : ١/ ٣٩٢ .

(٥) انظر الفهرست : ١٣٤ ومروج الذهب : ٣/ ٤١ وخزانة البغدادي : ١/ ١٢٤ .

(٦) انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية : ٤٨١ ـ ٤٨٥ .

منها هو أشعار الهذليين ، وبضياعها خسرنا الكثير ، وكانت هي مرجع المصنفين والأدباء ومادتهم الأولى ، وضمنوا منها كتبهم التي وصلت إلينا أشياء كثيرة ، ومنهم من كان ينص على الاقتباس [1] ، فجاءنا من الأسر والسجن شعر كثير .

وبما أن دواوين القبائل وكتبها هي المنابع الأولى فلا بد من تتبع مادتها في الآثار المخطوطة والمطبوعة ، وهيَ مادة متنوعة مبثوثة في شتى المؤلفات ، فقد تروى لشاعر من القبيلة حتى تستوفي شعره كله ـ كما ذكر ـ فمن صنع ديوان شاعر قديم منها أخذ ، وفيها ذكر للأيام والمواقع والمفاخر والمطاعن ، فكان ذلك مادة المؤرخين ، وفيها أنساب وعليها اعتمد النسابون . وهي مظنة الشعر البدوي في الجاهلية ، والإسلام ، فهي مصدر أصحاب اللغة والنحو ، ومن كانوا يؤثرون شعر الجزالة والبداوة منها انتقوا مختاراتهم .

مجموعات المصادر :

ومن الواضح ان هذه الآثار المطبوعة والمخطوطة هي مصادرنا ، ومنها استخرج المنظوم في الأسر والسجن ، وأول العمل هو تصنيفها في مجموعات يرد اليها ما قد يكشف عنه من كتب الشعر والأدب والتاريخ .

دواوين الشعراء :

وتحتل دواوين الشعر عامة المكانة العليا بين مصادر هذا البحث ، وكان للعلماء عناية بصنعتها ، وعرف القرن الثالث الهجري كبار المحققين أمثال ابن حبيب وابن الأعرابي والسجستاني ، ولعلهم وجدوا من التيسير على طلبة العلم والمثقفين إفراد الشعراء المكثرين والمشهورين كل شاعر بديوان كانوا يشتقونه بلا ريب من دواوين القبائل ، ويقرؤونها على شيوخ عصرهم ، ويضيفون إليها ما وصلهم بطريق الرواية الشفوية من مختلف الجهات .

ولدينا طائفة حسنة من الشعراء الجاهليين وأوائل الإسلاميين الذين دخلوا

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ الآمدي في المؤتلف والمختلف : ص ٢٢ و ٢٣ و ٨٣ و ١٥٨ .

الحبس ، ودواوينهم صنفان : صنف انتهى إلينا برواية العلماء العباسيين وصنعتهم ، وصنف جمعت مادته حديثاً من مختلف المصادر الأدبية والتاريخية .

ويمتاز الأول بأن دواوينه صدرت تحت سمع العلماء المحققين وبصرهم وأن مصادره كانت متوفرة ، ولذلك حوى الديوان ما روي للشاعر على وجه الدقة والضبط ، وما جرى عليه من الأحداث الهامة كالحبس مثلاً .

ومن هذا الصنف ديوان طرفة بن العبد ، وأشهر رواياته رواية الأعلم الشنتمري ، ونشر في مطلع هذا القرن في فرنسا (١) ، وضمت إليه زيادات من قطعة مخطوطة وجدت نسخها في الجزائر وبعض العواصم الأوروبية .

وروى الأعلم في شرحه من الأخبار ما يساعد على استنتاجات محتملة في دواعي سجن طرفة (٢) ، وديوان الأعشى من هذا الصنف (٣) ، وعدي بن زيد (٤) ، وبشر بن أبي خازم (٥) ، وسحيم عبد النبي الحسحاس (٦) ، والحطيئة والفرزدق .

ومن الأوفى أن يذكر مع هؤلاء ما بين أيدينا من دواوين الشعراء الكبار في الأعصر العباسية ، وإن اختلفت مصادرها . ورواها لهم معاصروهم أو من جاء بعدهم . وهي تزيد هذا البحث غنى وثقة مثل ديوان أبي نواس وأبي العتاهية وعلي بن الجهم وابن المعتز والمتنبي وأبي فراس الحمداني ، والطغرائي ، وأبي الحسن التهامي ، والحاجري وابن زيدون . وظفر أكثرها بإخراج علمي وبعضها كدواوين ابن المعتز والطغرائي والتهامي والحاجري ما زال في طبعته

(١) طبعة أوروبا ـ فرنسا في مدينة شالون سنة ١٩٠١ .

(٢) انظر في البحث (ص ٣٥١) .

(٣) نشره المستشرق رودلف جاير ثم حققه الدكتور محمد محمد حسين في طبعة أنيقة ، مصر ١٩٥٠ .

(٤) تحقيق محمد جابر المعيبد . بغداد ١٩٦٥ .

(٥) حقق ديوانه الدكتور عزة حسن . دمشق ١٩٦٠ .

(٦) تحقيق عبد العزيز الميمني ونشر القاهرة ١٩٦٥ .

التجارية الأولى ينتظر التحقيق .

ومن الصنف الثاني ما جمعه الدارسون المحدثون من المصادر المطبوعة والمخطوطة[1] . مثل ديوان العرجي[2] ، ويزيد بن مفرغ الحميري[3] ، والطليق القرشي[4] ، وابن عمار[5] ، والمعتمد بن عباد ، وابن شهيد الأندلسي[6] . ولهذه الدواوين فائدة مزدوجة ، فهي توفر الجهد وترشد إلى المراجع التي تقدم للباحث في أدب الحبس ما يحتاج إليه من الوثائق الاجتماعية والتاريخية والأدبية .

وفقد كثير من دواوين رجال كانت لهم في السجن أيام مريرة . وأقوال وذكرت كتب الأدب من أشعارهم قليلها ، ودواوينهم أحفل وأوثق إذ يرجح أن يكون فيها أكثر ما قال أصحابها . وعدد ابن النديم طائفة حسنة منها . وهي في جملتها دواوين الشعراء الذين وسموا بالزندقة[7] ، ودواوين الذين عرفوا بالثورة والطموح السياسي[8] ، ودواوين وزراء وعمال جرى عليهم من المحن ما جرى[9] . وحجمها يتفاوت قلة وتوسطا وكثرة[10]. وأية خسارة في فقدان البحث

(١) نكتفي بذكر دواوين من سجنوا .

(٢) تحقيق العبيدي والطائي بغداد ١٩٦٥ .

(٣) تحقيق عبد القدوس أبو صالح : يزيد بن مفرغ الحميري : حياته وشعره . رسالة ماجيستير جامعة القاهرة ١٩٦٤ .

(٤) تحقيق غومس غرسيه (مدريد) .

(٥) ديوان ابن عمار (ملحق بكتاب محمد بن عمار الدكتور صلاح خالص ط بغداد ١٩٥٧) .

(٦) ديوان ابن شهيد جمعه العلامة تشارل بيلا . ط . بيروت ١٩٦٣ .

(٧) ذكر ابن النديم في الفهرست آدم بن عبد العزيز وابن أبي الوليد الزنديق (ص ٢٣٢) وصالح بن عبد القدوس (ص ٢٣٧) .

(٨) مثل أشعار عبيد الله بن الحر مجموعة في ديوان : الفهرست : ص ٢٣٣ .

(٩) عدد ابن النديم دواوين كثير من الوزراء والعمال مثل إبراهيم بن العباس الصولي والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر وابن مقلة . الفهرست : ص ٢٣٩ .

(١٠) لنا بعد حديث عن حجوم هذه الدواوين عند الحديث عن حجم شعر السجن .

ذاك الإنتاج الضخم ولا سيما أن التواريخ والتراجم لم تقتبس منها إلا قليلاً .

كتب الوقائع والحروب :

وكانت أيام العرب في الجاهلية والإسلام والعصبيات والفتن من أغزر موارد السجن[1] . ولذلك ضمت المصادر التي دونت هذه الأحداث حظاً غير قليل من الأخبار والأشعار للسجناء . وأشهرها كتب التاريخ والنقائض والسيرة وكتب الصحابة وبعض كتب الأدب والثقافة المتنوعة والمختارات .

التاريخ :

واستمدت كتب التاريخ مادتها من الرواة وما كان مدوناً من أحداث الجاهلية والقرن الأول من الهجرة . وكان لمعاوية بن أبي سفيان شغف بأخبار العرب وتجاربهم وحكمهم يطلب رواتها ويأمر بتدوينها[2] . وتاريخ القبائل قبل الإسلام إنما هو أيامها ووقائعها ، ولذلك كانت هي المعلومات الأساسية في تاريخها السياسي يطلبها كل من آرخ لتلك الأمة . واتصل بذكر الأيام وقائع الأسر والسجن ، ولم ينس المؤرخون أن يؤيدوها بالأشعار التي قيلت فيها .

ولذلك يعد تاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي وكامل ابن الأثير مراجع أساسية لما كان لأصحابها من الإحاطة والدقة في الرواية . وفي بعض مجلداتها تطلع على صلات القبائل والمدن بالإمارات والدول التي كانت على تخوم بلاد العرب وما كان لها من إيقاع ببعض الرجالات[3] .

وبما أنها كتب في التاريخ العام فالباحث واجد فيها مادة ثرة تجاوز الجاهلية والحقب الإسلامية الأولى إلى سنة وفاة المؤلف أو قريبة منها . وهي مصادر السجناء الأولى من الثوار والسياسيين والمخلوعين والمنكوبين من

---

(١) انظر في البحث ص (٧٣) و (١٦١) .
(٢) انظر اخبار عبيد بن شرية والفهرست (١٣٢) ومروج المسعودي (٣/ ٤٠) .
(٣) انظر ص ٣٠١ ح ١ و ٢ .

الخلفاء والوزراء والعمال والكتاب والشعراء الذين كانت لهم صلات قوية بأولي الأمر . فهذه الكتب تنتجع قبل غيرها لاستقصاء أخبار شاعر كالعرجي وأعشى همدان وأبي نواس وإبراهيم بن المهدي وابن المعتز إذ كان احتباسهم نتيجة أحداث سياسية في صميمها[1] . وأولئك الذين نهجوا في التأريخ غير النهج الزمني سنة بعد سنة كانوا كغيرهم من المؤرخين في دعمهم حوادث الحبس بالشعر . وصنع البلاذري هذا الصنيع في كتابه أنساب الأشراف الذي وضعه على خطة من طوائف الأنساب والأسر. وتقدم كتب التاريخ العام في غرب الخلافة مادة محلية غنية[2] .

وهذا ما يدعو للعناية بكتب التاريخ كلها ولا سيما تلك التي تؤرخ لطبقة خاصة من رجال السياسة والإدارة . وهي كتب ذات نفع كبير فيما تقدم من الوثائق التاريخية والاجتماعية والأدبية . وبذلك حسنت الفائدة من كتاب الوزراء والكتاب الذي ألفه الجهشياري وتحفة الأمراء الذي كتبه هلال الصابي . ومنها ما تناول أيام أسرة من الأسر ونكباتها ومحنها مثل مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ، ومنها ما قصر حديثه على وقائع حرب واحدة مثل كتاب وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ومنها ما وسع حديث الفتوحات ، مثل فتوح الشام ، وفتوح بلاد العجم وخراسان للواقدي ، وفتوح البلدان للبلاذري . وهي المصادر عن أسرى المسلمين وبعض المحبوسين كأبي محجن الثقفي .

النقائض :

ويعد كتاب النقائض مرجعاً أساسياً لأيام العرب في الجاهلية وذكرت في معرض الشرح والتفسير للإشارات التاريخية في القصائد . وما فيه من مادة

---

(١) انظر من البحث ص (١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨) .

(٢) مثل المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري المراكشي ، وتاريخ ابن خلدون ، والمقتبس في تاريخ رجال الأندلس (لابن حيان تحقيق الأب ملشور انطونية . باريس ١٩٣٧) .

غـزيرة عن تلك الحـروب ، ومن مقطعـات الأسر والحبس لبعض المغمـورين والمقلين يضعه في المكانة الأولى بين المصادر .

السيرة وكتب الصحابة :

وفي سيـرة ابن هشام الأيـام الأولى للإسـلام ، ومـا كـان بين المسلمين والمشركين من الأسر . وشيء من الشعر له قيمته التاريخيـة[١] . ومثل السيـرة الكتب التي ترجمت للصحابة مثل الإصابة ، وفيه بقايا قصائد لقرشيين سجنهم الغساسنة . ولهذه القصائد دلالة سياسية خاصة[٢] .

العقد ونهاية الأرب :

وأفرد كل من ابن عبد ربه في « العقـد » والنويـري في « نهايـة الأرب » حديثاً مستقلاً وافياً عن أيام العرب . والخبر والواقعة هما الهدف في كل ما أشير إليه من هذه المراجع ، ويساق الشعر شاهداً ودليلاً على صحة ذلك .

كتـب الاختيـار :

وقبست كتب الاختيـار الأولى في القرنين الثـاني والثالث قصـائدهـا من أشعار القبائل . وكان في بعضها نصيب من الاختيار للأسرى والمحبوسين . أما الأصمعيـات وجمهـرة أشعـار العـرب[٣] . فلم تلقيـا إليهم بـالاً . وليس في المفضليات غير قصيدة لعبد يغـوث بن صلاءة الحـارثي . على حين اختارت حماسة أبي تمام مقطعات لسجناء جاهليين وإسلاميين بداة طي الأغراض التي بنيت عليها الحماسة إذ خلت من باب خاص بالمحبسين . وكـذلك ضمن أبـو تمام « الوحشيات » مقطعات قليلة محدودة من هذا النوع .

ومرد انصراف أصحاب الاختيار عن هذا الصنف من الشعر إلى أذواقهم

---

(١) مثل أشعار فروة بن عمرو الجذامي . السيرة : ٢/ ٤ : ٥٩١ .

(٢) الإصابة ترجمة رقم ٣٧٦٤ . وهي تشير إلى محاولة الغساسنة أن يكون لهم عملاء ونفوذ في مكة .

(٣) تأليف أبي زيد القرشي .

واتجاهاتهم الأدبية التي كانت صباغ عصرهم . فكان المستجاد من الشعر هو القديم الجزل الكثير الغريب . وما كانت « الأصمعيات » نفسها عند علماء اللغة والنحو ـ وهم المرجع يومذاك ـ لترضي أذواقهم ، قال ابن النديم » : « وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها »(١) . فإذا كان معظم شعر السجن عفو القريحة غير ذي احتفال بالغريب فهو لم يكن محط أنظار العلماء ولا مظنة الاقتباس والاختيار . وعندما حكم أبو تمام الذوق وحده دخلت حماسته بعض القطع السمحة لسجناء من الأقدمين . ولعله بالنظر للذوق واللغة وضع حماسته الكبرى.ثم الصغرى ـ وهي الوحشيات ـ لما في الأخيرة من الغريب وأجواء البداوة والصحراء .

وحذا حذوه البحتري في حماسته ، فاختار للبداة الجناة وشيوخ القبائل المعتقلين ، والتقيا عند بعض الشعراء واختلفا في الاختيار لهم في القصائد أو عدد الأبيات(٢) .

على أن الحماسات المتأخرة كانت أغنى مادة وأكثر تنوعاً ، اختارت للشعراء الأمويين والعباسيين بداة وحضراً فضلاً عن الجاهليين فكثرت قصائد السجن في حماسة ابن الشجري وحماسة الخالديين ، والأخيرة أغزر شعراً لما نحن بصدده . وليست الحماسة البصرية دونهما ، وتمتاز باجتلاب قصائد كاملة للمسجونين .

ومن المختارات ما هو أقرب إلى تاريخ الأدب ، ونهج واضعوها في تصنيف الشعراء منهجاً إقليمياً . وهم يلتقون مع أصحاب الحماسات في احتكامهم إلى الذوق محضاً في انتخاب الشعر . ويتأثر الذوق بميول صاحبه وباتجاهات العصر الأدبية .

---

(١) الفهرست : ٨٣ .

(٢) صنيع كل منهما فيما اختار لهدبة بن خشرم العذري .

وأبرز هذه الكتب يتيمة الدهر ، واختار الثعالبي ـ فيما اختار ـ لشعراء وكتاب كبار ذاقوا الأسر والحبس ، وهم ذوو دواوين بعضها اليوم مفقود ، ولذلك تعد اليتيمة مرجعاً معتبراً في دراستهم . ولم يكن الثعالبي كبير العناية بهذا النوع من الشعر ، وحجمه بالقياس إلى مادة الكتاب ضئيل ولكن ما أورده من روميات أبي فراس وأبيات المتنبي ، والصابي ، وأبي بكر الخوارزمي ، وعبد الملك بن إدريس الجزيري ، والأمير عبيد الله بن أحمد الميكالي ، وعبد الله بن إسماعيل الميكالي ، وأبو الحسن علي بن محمد ، كل هذا مقدار لا يغفل شأنه . ولذلك فالباحث متتبع كل ما نهج نهج اليتيمة في التأليف مثل خريدة القصر بأقسامها المتعددة ، ففيها فائدة ومادة .

ولكتاب « منتهى الطلب في أشعار العرب » ، الذي ما زال مخطوطاً ، قيمة خاصة بين مصادر هذا البحث من جانبين : فهو يسوق نصيباً غير ضئيل من أشعار اللصوص والفتيان في حبوسهم ، ولا وجود اليوم لدواوينهم ، وهو عند الاختيار يستوفي القصيدة أجمع . وقد يختار للشاعر غير قصيدة في محنته فيقدم للدارس عوناً وقوة .

وصفوة القول أن المختارات تتفاوت في عنايتها بشعر السجن وبمقداره وبطريقة انتقائه . وبعضها كالأصمعيات والمفضليات وجمهرة أشعار العرب فقير بمادته ، ولكن باقيها قدم مقطعات وقصائد عز وجودها في كتب أخرى ، ولذلك فهي ركن من أركان هذا البحث .

كتب الشعر :

وتزخر كتب الشعر بمقطعات السجناء وقصائدهم ، وهي متنوعة حسب مقاصد مؤلفيها .

فمنها ما قصر صاحبه الحديث على شاعر كان حبسه حديث الناس ، فاستوفى أخباره وأشعاره في كتاب مثل « كتاب ضابيء بن الحارث البرجمي »

الذي صنعه المدائني[1] . و« أخبار هدبة بن خشرم وزيادة » كتبه الزبير بن بكار[2] . و « أخبار أبي نواس »[2] . وقد وضع كل من ابن هيفان وابن منظور كتاباً بهذا الاسم . وكتابا المدائني والزبير مفقودان . وهذه الكتب عظيمة الفائدة لورود الشعر فيها في إطاره الاجتماعي والتاريخي كما يدل ما بقي منها مثل أخبار أبي نواس وكتاب أخبار الحلاج[3] .

وهناك طبقات الشعراء ، وليس في كتابي ابن سلام وابن المعتز مادة كثيرة غير أنهما نافعان في تقصي بعض الأخبار وتحقيق بعض الأبيات .

وبعض كتب الشعر هي-في منهجها أقرب إلى تاريخ الأدب . ومنها ما يؤرخ لعدة عصور أدبية صنيع ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » . وبعضها مقتصر على عصر واحد مثل كتابي الورقة لابن الجراح والأوراق للصولي ولم يذكرا فيهما غير الشعراء في أيام العباسيين . ومنها ما يحصر مادته في حقبة زمنية محدودة مثل « الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة »[4] .

ويمتاز « الشعر والشعراء » بالنص على حادثة السجن في حياة من ترجم لهم غير أنه قليل الاختيار في هذا الجانب ، وقد يكتفي له بالبيت دون غيره[5] . ولذلك لا يعدو هذا الكتاب أن يكون مفتاح عمل في يد الباحث .

على حين تقدم لنا كتب أخرى قصائد عز وجودها في مراجع غيرها مثل كتاب « أشعار أولاد الخلفاء » الذي عمله الصولي لطائفة من شعراء الأسرة

---

(١) انظر الفهرست (ص ١٥٥) ومعجم الأدباء (٥/ ٣١٤ س ٥) وحديثنا عن ضابيء في (ص ١٥٩) .
(٢) الفهرست : ١٦٧ .
(٣) انظر حديثاً عن أبي نواس (ص ٣٤٩) والحلاج ص (٣٦٠) .
(٤) تأليف ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي ، تحقيق إبراهيم الأبياري . مصر ١٩٤٥ .
(٥) انظر مثلاً ترجمة لمالك بن الريب : ١/ ٢٧٠ .

العباسية الحاكمة . وأتيح له اقتباس كثير من أشعارهم لصلته الوثيقة بهم ، ولعل غيره لم يطلع على كثير منها . وكان شاهد عيان للنكبات التي نزلت بمن عاصر منهم ، وقرأ لهم وسمع منهم ما جرى على ألسنتهم من الشعر في حبوسهم[1] .

ولو وصلت أمثال هذه الكتب غير منقوصة لكان حصاد السجن منها وفيراً ، فإن القطعة الصغيرة الباقية من كتاب الورقة تدل على تنبه ابن الجراح إلى مواقف الشعراء السجناء وأقوالهم وعلى تقديره لها وأخذها باعتبار .

وعمل مؤرخو المغرب والأندلس كتباً في شعرائهم ، فيما ذكر للمكثرين والمقلين والمغمورين ، ونص على حبس من سجن منهم أو أسر في حروب الفرنجة . وهي كثيرة متفاوتة في مقدار ما تورد من شعر المعتقلين . ويذكر بعضها البيتين من القصيدة والمقطعات مثل المغرب في حلى المغرب[2] ، ويختار بعضها القصيدة تامة أو أكثر أبياتها مثل جذوة المقتبس[3] ومطمح الأنفس[4] والمعجب في تلخيص أخبار المغرب[5] .

وأغنى هذه الكتب إطلاقاً هو كتاب الأغاني ـ للأصفهاني ـ ، وليس مبالغة القول أن ما بين أيدينا من شعر الأسر والسجن معظمه من معينه ، فهو خير مصدر عن الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى من الإسلام في المشرق . وهو مشهود له بالاقتباس والاختيار الجم لمن ترجم لهم من الشعراء . وكاد يكون المرجع الأول أو الوحيد للمحدثين في جمع بعض الدواوين كديوان العرجي ويزيد بن

---

(١) انظر أخبار الخليفة الراضي وأشعاره وهو حبيس : ص ٢١٦ ـ ٢٦٧ .

(٢) المغرب في حلى المغرب عمله ابن سعيد وحققه شوقي حنيف . مصر ١٩٥٥ .

(٣) جذوة المقتبس . تأليف الحميدي ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي . مصر ١٩٥٢ .

(٤) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس . تأليف الفتح بن خاقان . ط . القسطنطينية ١٣٠٢ هـ .

(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي ـ تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة ١٩٦٣ .

مفرغ الحميري . وطريقته عند الدارسين معروفة مشهورة ، وأهم ما فيها أن الرجل كان كثير الاطلاع غزير المصادر ، وكانت متنوعة من منقول ومسموع ، وكان ينتخب جرياً مع ذوقه ولا يتكيء على غيره . وكان له عناية خاصة بشعر السجناء يورد كثيره وينص نصاً على معرفة جميعه[1] . والتزامه بالسند منحت أخباره ومقتبساته جدارة علمية . ولا يضاهيه في تذوقه هذا الصنف من الشعر إلا أديب أندلسي هو الفتح بن خاقان صاحب مطمح الأنفس وقلائد العقيان .

وتجدر الإشارة إلى كتب الشعر التي نحا واضعوها نحواً خاصاً في تصنيفها ، وهي وإن قل فيها نصيب السجن من الشعر ، توجه الباحث توجيهات مفيدة . ومن هذه الكتب كتاب المغتالين لابن حبيب ، والمعمرين للسجستاني ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ، وموشح المرزباني ومعجمه .

كتب الأدب :

وفي كتب الأدب المشهورة كالبيان والتبيين والحيوان والكامل أخبار قيمة وأشعار سائرة حسان ، ومقطعات ، وقصائد للأمويين والعباسيين . ولم يخص الجاحظ الذي عرف بالكتابة في كل فن السجناء بباب ولا فصل ، على كثرة ما كان من الحبس في عصره حتى أصابه رشاش منه . وما ورد في كتبه جاء عرضاً ، ولكنه وضع كتاباً في اللصوص[2] . وكان هذا الشعر قليلاً في كامل المبرد قلته في كتب الأمالي . وفي كتاب القالي بعض القصائد المشهورة التي كان يستجيزها الأدباء . وفي أمالي المرتضى قطعة نافعة عن الشعراء الزنادقة . وتفتيش كتب الأدب ذات الموضوع الواحد قد يظفر ببعض المنتخبات السائرة .

والكتب الضخمة التي جمعت إلى الأدب أبواباً في المعارف أغنى مادة .

---

(١) انظر مثلاً أخبار إبراهيم بن العباس الصولي (٩/ ٢٠) ومحمد بن صالح الحسني (١٥/ ٩٠) وإبراهيم بن المدبر (١٩/ ١١٥) .

(٢) كتاب اللصوص : تأليف الجاحظ (معجم الأدباء : ٦/ ٧٦ سطر ١٤) .

وفي العقد الفريد ونفح الطيب وذخيرة ابن بسام والنجوم الزاهرة اختيار حسن من أدب السجن وإشارات ووقائع نافعة .

التـراجـم :

وفي كتب التراجم من أخبار السجن وأشعاره مقدار ثمين. ولا تكاد تغفـل عن واقعـة الحبس في حياة من تـرجمت لهم على إسهاب أو اقتضـاب يغـري بالبحث عن أشعار من لهم في السجن أجـل طويـل وشعر كثيـر ثم غابت عنـا دواوينهم . ومن لطيف ما فيها تلك المقطعات الصغيرة التي كان ينظمها بعض السجنـاء من الساسـة أو غيرهم . وهي ، على مـا لقائليهـا من تجربـة شعريـة محدودة، ذات قيمة وفائدة في مثل ذاك الموقف. ولـذلك لا تخلو كتب التـراجم والطبقات مهما آثرت الإيجاز ، من شيء في شعر الحبس لـولا ذكرهـا إياه لم يعرف أبداً[1] . على حين تكاد تراجم بعض المشاهير تكون من أغزر مصادرنا لأخبـارهم وقصـائـدهم في سجنهم بعـد أن ذهبت الكتب التي أخـذ منهـا المؤلفون .

وكتب الطبقات والتراجم من الكثرة بمقدار . ومعجم الأدباء أغناها بمادة البحث ، استقرىء وكثر الاعتماد عليه . ويمتـاز ياقـوت بكثرة اطـلاعه وعمقـه وتحريه . وكانت ترجمات رجاله مستخلصة من مصادره العديدة التي كانت في متناوله ، ولم يتكىء على غيره في كثير مما نقل أو سمع . فإذا أضيف إلى هذا أنه كان أديباً حسن الذوق كان لما دون من الحقائق وما اختـار من الشعر قيمـة علمية وفنية .

ولا يقل الوفيات ، عن معجم الأدباء شأناً . ولكن ابن خلكان كان كثيـر

---

(١) فهرست ابن النديم مقتصد في إيراد الشعر . وحين ترجم لثمامة بن أشرس في بضعة سطور وذكر حبس الرشيد إياه سجل له في ذاك الموقف بضعة أبيات (٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

الاعتماد على جهود سابقيه، وكثير مما أورده في موضوع السجن يمكن الاجتزاء عنه بالكتب المتقدمة عليه[1] أما ماذكره من أمر معاصريه فطريف جديد. وهو أقل اختياراً في هذا الكتاب من ياقوت. ولكنه نافع أيما نفع فيما يذكر من أخبار السجن وأحوال السجناء في مواطن كثيرة. ذلك أن ابن خلكان تناول رجالاته بطريقة المؤرخ وهو يطلب الوقائع البارزة. ولكن الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات[2] جمع بين دقة المؤرخ وتذوق الأديب ولم يقصر في الاختيار. ولكن مما يؤسف له أن شعر السجن لم يكن ممايخفّ على قلبه. وكانت أغراض العصر من مديح ورثاء وهجاء وأوصاف وأحاج هي مثار إعجابه. فقد يذكر شاعراً حبس ست عشرة سنة من غير اختيار له من أقواله في سجنه أو يجتزىء بالقليل.

ومن أجود التراجم بلا مراء تاريخ ابن عساكر. وهو يجمع بين دقة الخبر المفصل والاستشهاد الوافي. وفي مجلداته الضخمة مادة غزيرة. وهو مظنة التحقيق لما تختلف عنده المصادر أحياناً من خبر أو شعر. بينما يجنح الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد إلى الإيجاز والاقتصاد.

وتلحق بعض التواريخ بالتراجم إذ تترجم للرجال ـ بعد عرض الأحداث ـ ترجمة وافية. وذاك شأن ابن كثير في البداية والنهاية، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين[3]، وذيل الروضتين[4].

وكتب التراجم في المغرب والأندلس غنية بمادة البحث يحتوي عليها كتاب

---

(١) انظر ترجمة الشاعر أبي سعيد المؤيد بن محمد الألوسي، واقتباسه من كتاب الخريدة: وفيات الأعيان: ٤٢٨/٤.

(٢) استنبول ١٩٤٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: عبد الرحمن أبو شامة (١ ـ ٢) القاهرة ١٩٦٢.

(٤) ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة القاهرة ١٩٤٧.

مثل الصلة[1] ، وصلة الصلة[2] ، والحلة السيراء[3] ، والإحاطة بأخبار غرناطة[4] ، وأعمال الأعلام[5] ، وسير أعلام النبلاء[6] .

ومجمل القول أن كتب التراجم تنطوي على مادة وفيرة من أدب السجن تكفي وحدها في إبراز صورة متكاملة للسجن والسجناء ، وفي بيان ما كان بين عرب الأندلس والفرنجة من أسر وما قيل فيه من شعر .

كتب البلدان :

وفي كتب البلدان كثير من أشعار المحبوسين ، وأغناهم معجم البلدان ، والحديث عنه يجزىء عن باقيها[7] ، وشعر الحبوس فيه كثير متفرق ، لعديد من الشعراء البداة والحضر أمويين وعباسيين . وكان ياقوت إذا وصف المدينة أو البلدة أتى على ذكر من نزلها من الأدباء، والعلماء والشعراء .فنال الذين حبسوا فيها عنايته . فجاءتنا مقطعات كثيرة وأحياناً قصائد تشهد له في هذا الكتاب باطلاعه الوسيع على شعر السجون واهتمامه به . وعرف ياقوت كيف يوفق في معجم البلدان بين النهج العلمي وميوله الأدبية توفيقاً دل على تنقيب وإحاطة وتذوق وحسن اختيار .

---

(١) الصلة (١ - ٢) لابن بشكوال . ط . القاهرة ١٩٥٥ .

(٢) صلة الصلة لأبي جعفر بن الزبير . تحقيق ليفي بروفنسال الرباط ١٩٣٧ .

(٣) الحلة السيراء لابن ابار القضاعي . تحقيق حسين مؤنس (١ - ٢) مصر ١٩٦٣ .

(٤) الإحاطة بأخبار غرناطة . لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محمد عبد الله العنان . دار المعارف مصر ١٩٥٥ .

(٥) أعمال الأعلام : لسان الدين الخطيب . تحقيق العبادي والكتاني . دار الكتب ، الدار البيضاء : ١٩٦٤ .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي (مصورة المجمع العلمي العربي بدمشق) .

(٧) مثل كتاب البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) .

القصص :

ويدخل في أخبار الشعراء القصص المنسوجةحولوقائع حياتهم وهي كثيرة موروثة من الجاهلية ، ومن تراث الحروب في الإسلام ، ومن حياة البداة في العصر الأموي . وفصلت أحاديثها بأشعار المأسورين والمحبوسين . وليس لها كتاب مفرد قديم ، ومادتها موزعة في التواريخ المشهورة عند الطبري وابن الأثير ، وفي كتب الفتوح عند الواقدي ، وفي كتب الأدب عند أبي الفرج الأصفهاني وعند الأب شيخو في شعراء النصرانية ، وفي النقائض ، وفي شروح حماسة أبي تمام عند التبريزي والمرزوقي .

كتب اللصوص :

وحظي اللصوص الشعراء بعناية القدماء قبل المحدثين(١) . فأفردوا كتباً في أخبارهم وأشعارهم . وشهد القرن الثالث من الهجرة عدة كتب لمشاهير الأدباء والعلماء والمحققين ذكرها ياقوت . فوضع الجاحظ فيهم كتاباً(٢) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى(٣) ، وذكر ابن النديم لقطرب كتاب لصوص العرب(٤) ، ووضع لقيط المحاربي بن بكير كتاب الخراب واللصوص(٥) . وتناول بعضهم جوانب خاصة من حياتهم(٦) . وتضم كتبهم نصيباً موفوراً من قصائد الحبوس إذ ندر منهم في الجاهلية أو الإسلام من أفلت من قبضة أعدائه أو من السلطة .

---

(١) أخرج يوسف خليفة « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » (دار المعارف مصر ١٩٥٩) وحسين عطوان « الشعراء الصعاليك في العصر الأموي » (دار المعارف مصر ١٩٧٠) .

(٢) كتاب اللصوص : معجم الأدباء : ٧٦/٦ س ١٤ .

(٣) كتاب اللصوص : المصدر نفسه : ١٦٩/٧ .

(٤) الفهرست : ٨٦ .

(٥) معجم الأدباء : ٢١٨/٦ والفهرست : ١٤٤ .

(٦) كتب الجاحظ كتاباً عنوانه أخلاق الشطار : معجم الأدباء : ٧٨/٦ س ١٥ .

ودليل ذلك كثير منه ما استشهد بـه ياقـوت في معجم البلدان من أشعارهم في حبـوسهم ، وما اختـاره ابن المبـارك في « منتهى الـطلب » لهم من القصـائـد الطوال . وكانت كتبهم ودواوينهم في متناولهما ولا سيما كتاب السكري « أشعار اللصوص »[1] . وكان كتابه مشهوراً لدى العلماء ، وكان من مراجع عبد القادر البغدادي الأساسية في « خزانة الأدب » ، نوه به في مقدمـة الخزانـة ، وضمن مؤلفه قطعة من هذا الكتاب المفقود .

ومن المؤسف أن نخسر هذه الكتب ، فلم يبق منها إلا ما قبسه القدمـاء في مؤلفاتهم . وربما كانت قطع وأجزاء من هذه الكتب مبعثـرة في المكتبات تخرج المطابع ما يعثر عليه منهـا في الحين بعد الحين . وقـد نشر منهـا ديوان طهمان الدرامي[2] ، وديوان القتال الكلابي[3] .

كتب الشواهد والشروح :

ليس فيمـا تستشهد معـاجم اللغة بـه من البيت أو البيتين غناء للبحث مـا عـدا الضبط . ولكن كتب الشروح والشواهـد كبيرة النفـع . وهي تعيد الشـاهد إلى قصيدته أو مقطوعته وتضبطها وتضعها في إطارها من الزمان والمكان والأحداث وتزداد الفائدة عندما يترجم بعضها للشاعر الحبيس ترجمة مفصلة ، فيورد كثيراً من الحقائق مشفوعة بشعر واف . وأشهـر ما يعنينـا من كتب الشواهـد : شرح الشـواهد الكبـرى ـ للعيني ـ وخزانـة الأدب ـ للبغدادي ـ وتعتبـر الخـزانـة من مصـادرنا الـلازمة في التحـري عن جملة من الشعـراء المشهـور حبسهم مثـل العرجي ، وهدبة بن خشرم ، وجعفر بن علبة الحـارثي ، وطهمان الـدرامي ، وعبيد الله بن الحر . أما شرح الحماسة للتبريزي فقـد نوه بـه غير مـرة . ومن

---

(١) الفهرست : ٧٨ . وخزانة الأدب للبغدادي : ١/ ١٠ .

(٢) ديوان طهمان الدرامي . تحقيق محمد جبار . بغداد ١٩٦٨ .

(٣) ديوان القتال الكلابي . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٣ .

الكتب النافعة . « شرح نهـج البلاغة[1] » . غير آن ما نعثر عليه عنده متردد في كتب سابقيه كالأغاني وغيره . كما ينص هو نفسه بالأخذ عنها .

الكتب المتنوعة :

ولا سبيل للإحاطة بالكتب المتنوعة التي لا تخلو من إشارة إلى مسجون أو ذكر لشيء من شعره . ومن المتوقع الخروج ببعض الفوائد الجزئية من كل منها على اختلاف موضوعاتها ، إذ قد يحمل الموضوع على ذكر ما كان لبعض السجناء فيه من قول . ومثال ذلك جملة الأغراض التي طرقها الجاحظ في كتابه « المحاسن والأضداد » فساق بعض وقائع الحبس المفيدة ومقداراً من الشعر حين كتب في « العفو ، والصبر على الحبس ، والغيرة على النساء » وكذلك ما كتبه البيهقي عن مساوىء الحبس ومحاسنه في كتابه « المحاسن والمساوىء » ومن ذلك ما أبدى ابن القارح من آراء حول بعض الزنادقة في رسالته إلى أبي العلاء المعري وما جاء من موافقة وتوضيح لها في « رسالة الغفران » أو تعليق عليها ، فهذه الآراء ـ وما رافقها من تعليل وإشارات وأبيات ـ هي من مادة هذا البحث .

وأغنى الكتب ما كان يتناول غرضاً يكثر لأصحابه الحبس والنكبات . ولذلك ثمة نصيب حسن في كتاب التنوخي : « الفرج بعد الشدة » ، ولابن أبي الدنيا كتاب بهذا الاسم لا يخلو من فائدة . وكان من المتوقع أن نجد من شعر السجن الكثير في كتب أخرى لو عرف لها مقر . وكانت عالجت موضوعات شديدة المساس بالحبس . ومن هذه الكتب كتاب « العفو والاعتذار » لأبي الحسين أحمد بن نجح ابن أبي حنيفة ، « العفو والصفح » لأبي عاصم النبيل ، وذكرهما ابن النديم[2] . وعقد ابن بسام في الذخيرة حديثاً في البديهة

---

(١) شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد . إخراج دار الحياة . بيروت ١٩٦٣ .
(٢) الفهرست : ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

والارتجال تمثل فيه ببعض السجناء[1] .

فصول وكتب خاصة :

ذكرنا من قبل أن القدامى لم يفردوا للحبس كتاباً . وهو إطلاق لا بد له من تقييد . وأدق منه القول أنه لم يصلنا عنهم في ذلك كتاب . وكان بعضهم تنبه إلى هذه الظاهرة الأدبية فخصها بفصل صغير من كتاب . من ذلك حديث عقده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » عنوانه « قولهم في الحبس » ذكر فيه طائفة من الأقوال المأثورة السائرة في السجن ، كان نصيب الشعر فيه أوفر من النثر ، لطائفة من الأمويين والعباسيين[2] . وصنع ابن قتيبة قريباً من ذلك في « المعاني الكبير » في فصل عن « القيد والغل » فذكر متفرقات من أبيات السجناء[3] . وأوجز الراغب الأصفهاني حديثاً عن الحبس في صفحات من «محاضرات الأدباء» تحت عنوان « ما جاء في الحبس والقيد والضرب وغيرها »[4] وعدد أبو فراس في إحدى رومياته أسماء طائفة من الأسرى ، تخلصوا من السجون أو ماتوا فيها ، متأسياً بصبرهم ومتعزياً بما جرى عليهم[5] .

وتكاد بعض الكتب تختص بهذا الفن مثل كتاب « إعتاب الكتاب » إذ ألفه صاحبه ابن الأبار لما تخوف من الأمير حاكم تونس بطشاً ونكبة لخطأ صدر عنه . فقدمه بين يدي إعتذاره وعرض فيه أخبار الوزراء والكتاب الذين تعرضوا لسخط مخدوميهم وحبسهم ، وما كان منهم من الاعتذار ، وما أجيبوا إليه من الصفح

---

(١) الذخيرة : ٤/ ١ : ٢٤ ـ ٢٦ .
(٢) عيون الأخبار : ١/ ٧٩ .
(٣) المعاني الكبير : ٢/ ٨٧٥ .
(٤) محاضرات الأدباء : ٢/ ٨٤ .
(٥) انظر قصيدته التي أولها :
لمن جاهد الحساد أجر المجاهد   وأعجز ما حاولت إرضاء حاسد
ديوان أبي فراس : ١/ ٨١ .

والإعتاب . ويعد هذا الكتاب نوعاً من التأليف في باب السجن والحبس غير أنه ينصب على أخبار الكتاب وعلى جانب التخلص والعفو والتغاضي .

ومثله كتاب عبد الملك بن غصن الحجاري في صفة « السجن والمسجون والحزن والمحزون » نظمه في استعطاف أميره المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وهو معتقل عنده . وضم إليه قصائد لآخرين من شعراء عصره(١) .

وإذا كان هذان الكتابان يعدان نوعاً من التأليف في هذا الباب فإن الهدف الموضوعي مستبعد فيهما . وكلا الرجلين نحا في كتابه نحواً ذاتياً إلى غرض فردي هو رضا الأمير وعفوه .

ولم يتطور هذا الغرض إلى كتاب متكامل مستقل رغم أن العرب اطلعوا في كتاب المجسطي على بحث خاص في « الأسراء والمحبسين » منذ المائة الثانية التي نقل فيها هذا الكتاب إلى العربية في عهد البرامكة(٢) . وينبه الدكتور براون في كتابه « تاريخ فارس الأدبي » إلى بدء الإحساس الأدبي بهذه الظاهرة وحيازتها على شيء من الاستقلال في المائة السادسة ، قال : « ترى في هذا العصر ظاهرة أخذت مكانها في الشعر هي كثرة الحديث عن عدوان الدهر والشكوى المريرة من الزمن . وظهر بشكل ملحوظ موضوع من موضوعات الشعر المطروقة هو القول في السجن وشكوى عذابه وآلامه . وقد نجد بعض الشعراء يكثر من هذا الحديث حتى تصبح له دواوين بتمامها فيه أو قصائد طويلة متواترة مثل الشاعر الفارسي مسعود بن سعد سليمان ، فقد كتب مجموعة من القصائد في حبسه سماها حبسيات . وللخاقاني (المتوفي ٥٨٢)« حبسية مشهورة »(٣) .

---

(١) انظر إعتاب الكتاب : الترجمة ٦٧ ، وجذوة المقتبس : ٣٧٨ .

(٢) الفهرست : بطليموس : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

(٣) الأدب في العصر الأيوبي : ص ٢٤٥ ، محمد زغلول سلام . مصر . دار المعارف ١٩٦٨ . ومسعود بن سعد بن سلمان الأمير ، همذاني الأصل ، اللاهوري المولد والمنشأ كان =

إن ما تنبه له براون لا يفارق الظاهرة التي نبهنا إليها في عمل ابن الأبار وابن غصن الحجاري .

تكامل المصادر :

وهذه المراجع يتمم بعضها بعضاً، وكثيراً ما تلتقي على الخبر والشعر ، وكثيراً ما يزيد بعضها على بعض . وهي مختلفة الغرض والمقصد ، فتتفاوت مادة فيما بينها . ولا بد من الاستعانة بها جميعاً في تكوين صورة تامة - جهد المستطاع - لشاعر سجين . وليكن المثل شاعراً شهر حبسه هو هدبة بن خشرم العذري ، فإن علينا تحقيق اسمه ونسبه من كتب الشعراء عند المرزباني في معجمه[١] . وعند ابن حبيب في المغتالين[٢] ، ونستقصي أخباره من خزانة البغدادي[٣] وشرح حماسة أبي تمام عند التبريزي[٤] ثم المرزوقي[٥] ، وتجمع أشعاره من هذه المصادر ومن كتب أخرى مثل سمط اللآلىء[٦]والكامل[٧] وشرح شواهد العيني[٨] ، والمحبر[٩] ، والحيوان ، [١٠] وحماسة البحتري[١١] ، والزهرة لابن داوود[١٢] ، إضافة إلى رأس المراجع الذي يكاد يحوي من كل ما حوت تلك وهو الأغاني [١٣] .

= أديباً شاعراً توفي سنة (٥١٥ هـ) له ديوان شعر عربي ، وديوان شعر فارسي ، وديوان شعر آخر بلسان الهند« هبة العارفين : ٢ / ٤٢٨ » .

(١) ص ٤٨٣ .
(٢) ٢ /٢٥٦ .
(٣) ٤ / ٨١ .
(٤) ٢ /١٢ .
(٥) ص ٤٧٢ .
(٦) ٢٤٩ و ٦٣٩ .
(٧) الكامل : ١٦٨ - و ١/ ٢٧٠ و ٢/ ٤٦٨ و ٣/ ١٢٤٦ - ١٢٤٩ (تحقيق أحمد محمد شاكر مصر ١٩٣٧) .
(٨) ٢ /١٨٤ .
(٩) ٣٩٠ و ٣٩٧ .
(١٠) ٧/ ١٥٥ .
(١١) ص ٧ وص ٣٩ - ٤٠ و ٤٨ و ٨٧ .
(١٢) ص ١٨٢ و ٢٣٢ و ٢٣٤ .
(١٣) ٢١/ ١٦٩ .

والحق ما من شاعر في المشرق أو المغرب إلا اجتمعت جملة من الكتب على الحديث عنه . والأمثلة فوق الحصر ، فلو أردنا حديثاً عن شاعر أندلسي ، متوسط المكانة ، مثل أبي عبد الله محمد بن مسعود ، وحبسه أشهر ما في حياته ، لزمنا التنقيب في أغزر مراجع الأندلس الأدبية وأجمعها ، فله في كل من ذخيرة ابن بسام (1) ونفح الطيب (2) والمغرب في حلى المغرب (3) ذكر وشعر .

وخاتمة الحديث أن كلًا من تلك المصادر تذكر من مادة السجن ما يتفق والغرض الذي تتوخاه .

أما المختارات فتنتحب الشعر تذوقاً خالصاً ويغلب عليها طابع المقطعات .

وأما التواريخ والتراجم وكتب البلدان والشواهد والشروح فلا يعدو الشعر عندها أن يكون دليلاً على الحادثة وتقوية للخبر ، وبرهاناً على القاعدة جرياً على سنن المؤلفين القدامى . ولذلك فقد تكتفي بالبيتين ، أو ببضعة الأبيات وأحياناً تورد قصيدة تامة متوسطة الحجم .

وأما كتب الأدب فتؤيد أخبارها بالأشعار ، ومنها ما يكتفي بالمقطوعة - كما في كتب الجاحظ المشهورة - والبيتين أحياناً - كما في كتاب المغرب في حلى المغرب - ومنها ما يختار حظاً وفيراً كالأغاني ونفح الطيب وقلائد العقيان ومطمح الأنفس .

وأما الكتب التي تنتخب قصائد كاملة - فيما عدا الدواوين - فقليلة ، وخيرها منتهى الطلب في أشعار العرب لابن المبارك .

شعر الأسر والسجن : حجمه ومقداره :

أوجز ما يقال في وصف شعر الأسر والسجن وصفاً كمياً : إنه كثير قليل .

---

(1) 1/ 2 ص 79 - 81 .
(2) 4/ 389 .
(3) 2/ 191 .

ولا مناقضة بين شقي الوصف : فهو كثير لا يحاط بحجمه إحاطة تامة ، وقليل إن قيس ما تبقى منه بما كان قد نظم . وهو على قلته كثير فما تحصل لنا منه ـ غير ما تركناه في مظانه ـ يملأ سفراً ضخماً بل غير سفر .

أسباب غزارته ـ كثرة المسجون من الشعراء :

ولهذه الغزارة في تاريخ الشعر العربي أسباب مختلفة فسرت الفصول السابقة معظمها . وأشهرها كثرة من دخل الحبوس من الشعراء الكبار والمشهورين والمغمورين . أما المشهورون والكبار ففي كتب الأدب أشياء من حوادث سجنهم وأشعارهم . وأما المغمورون فقد جدّ من الدواعي ما حفظ ذكر بعضهم وما نظموا من مقطعات ، وهم قلة قليلة في كتب الأدب ، وإن كانوا في واقع الأمر فوق الحصر ، ومعظمهم من الأسرى في الجاهلية والإسلام الذين لم يكتب لأشعارهم البقاء لأسباب كثيرة يأتي الحديث عنها(١) .

والـوزراء :

ومن أسباب هذه الغزارة حبس العديد من الساسة والقواد والعلماء والأدباء والقضاة وأصحاب المذاهب . وكان كثير منهم عالي الطبقة في الثقافة الأدبية وله في الشعر محاولات مرضية . وعانى معظمهم محناً قاصمة ، وكانوا يستريحون إلى النظم ترويحاً عما في أنفسهم ، قال المقري : « كان لسان الدين بن الخطيب ـ عفا الله تعالى عنه ـ أيام امتحانه في السجن يتوقع مصيبة الموت ، فتجهش هواتفه بالشعر يبكي نفسه »(٢) . وما ذكر من شأن ابن الخطيب شبيه بمآسي غيره من رجال الحكم وأولي الشأن . وكانت أشعارهم تؤثر وتذكر . وأخذت المختارات من أشعار المحدثين ودواوينهم تحتل مكانها تضارع دواوين القبائل والقدماء وتكاثرها . ولا غرو أن تضم فيما تضم جانب السجن من إنتاجهم الأدبي .

---

(١) انظر أسباب قلة شعر الأسر بعد قليل .

(٢) المقري ، نفح الطيب : ٧/ ٣٩ .

ويستفاد من أقوال ابن النديم أن بعضهم كان يدون شعر المحدثين كله[1] ، وبعضهم يختار لهم جميعاً[2] ، وبعضهم يجمع شعر الواحد منهم وأخباره[3] .

ودعت العناية الدقيقة إلى تقدير حجم ديوان الشاعر منهم . فإذا عرفت أسماء الكثرة من الوزراء والمنكوبين وعرفت حجوم دواوينهم تبين حظ السجن الكبير من الأشعار .

وحقا كان بعضهم مقلّا مثل يحيى بن خالد وابنه الفضل[4] ، ولعل معظم ما جمع لهما نظماه في نكبة أسرتهم البرمكية[5] . غير أن آخرين جمعت لهم دواوين حسنة الحجم مثل الوزراء من آل وهب الحسن وسليمان[6] ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وموسى بن عبد الملك[7] ، والوزير أبو علي محمد بن مقلة[8] . وكل من هؤلاء جرى لهم حبس ونكبات ومات بعضهم في السجن. هذا إلى ما كان لأولاد الخلفاء ورجالات أسرهم من الشعر في حبوسهم[9] .

---

(١) ذكر ابن النديم في الفهرست (٢٣٣) رجلاً اسمه عمار وصفه بأنه كاتب شعر المحدثين .

(٢) الفهرست: ٢٤٥ . قال ابن النديم بعد أن عرض أسماء الشعراء المحدثين : «هذا آخر ما تضمنه كتاب أبي الحسين بن حاجب النعمان الكاتب من أسماء الكتاب الشعراء الذين اختار من أشعارهم .

(٣) ذكر ابن النديم (٢٣٤) أن آل المنجم عملوا أخبار أبي نواس ومختار شعره فيما عملوه من كتبهم في أشعار المحدثين .

(٤) الفهرست: ص ٢٤٢ س ٦ .

(٥) انظر العقد الفريد: ٥/٥٨ ـ ٧٠ ووزراء الجهشياري : ص ٢٦٠ .

(٦) ذكر ابن النديم (٢٤٢) أن شعر «الحسن بن وهب مائة ورقة وسليمان بن وهب مقل» .

(٧) ابن النديم: ديوان محمد بن عبد الملك الزيات خمسون ورقة وموسى بن عبد الملك عشرون ورقة(الفهرست: ٢٤٢) . وشيء من شعر موسى بن عبد الملك في الفرج بعد الشدة (ص ٦٥) .

(٨) ديوانه ثلاثون ورقة (الفهرست: ٢٤٥) .

(٩) انظر أشعار أولاد الخلفاء للصولي: ص ١٦٤ (أخبار الراضي) وص ٣٠٧ خبر عبد =

والعمال والكتاب

ويقال مثل ذلك في العمال والكتاب. وكان منهم على درايتهم في الإدارة والكتابة شعراء من المرتبة العالية لو انصرفوا إلى الشعر وحده لبزوا الفحول. وكان إبراهيم بن العباس الصولي من هذا الطراز، وقال فيه دعبل: «لو تكسب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا غير شيء»(١) وتنقل في الدواوين، ونكب، وجرت له محنة سجن قاسية أكثر فيها من الشعر في وصف بلواه. ويبدو أنه جمع ما نظمه من ذلك في ديوان خاص(٢). وأمثال إبراهيم كثر: منهم أحمد بن المدبر وأخوه إبراهيم وقد نكبهما المتوكل «ولإبراهيم في حبسه أشعار كثيرة حسان مختارة»(٣)، وروي منها غير قليل. ولعل صاحب الفهرست خلط بينه وبين أخيه أحمد إذ جعله من المقلين(٤).

والقــواد:

وشأن القواد والأمراء شأن الوزراء والكتاب في التعويل على الشعر في كرب الوحدة تفريجاً عن النفس وتوسلا به إلى الحرية، قال ابن سعيد في قائد أندلسي هو أبو عمرو بن ياسر مولى عماد الدولة بن هود: «جرت عليه نكبة من عماد الدولة، وأطال حبسه، فأكثر من مخاطبته بالشعر، فسرحه»(٥).

=الله بن علي بن العباس.

(١) انظر الأغاني: ٩/٢٠ ومروج الذهب: ٢/٢٩٩.

(٢) قال ياقوت: «وقال الجهشياري: رأيت دفتراً بخط إبراهيم بن العباس الصولي فيه شعره قاله في حبس موسى بن عبد الملك إياه يصف غليظ ما هو فيه من الحبس وثقل الحديد والقيد ويذكر موسى في شعره..» معجم الأدباء: ١/٢٧٦.

(٣) الأغاني: ١٩/١١٥.

(٤) قال ابن النديم: «أحمد بن المدبر أبو الحسن ديوانه خمسون ورقة» وذكر إبراهيم بن المدبر، فقال: مقل (الفهرست: ٢٤٢). وما أورده صاحب الأغاني من شعره يدل على أنه كان مكثرا مجودا (١٩/١١٥) فلعل ابن النديم وهم فنسب ديوانه لأخيه.

(٥) المغرب في حلى المغرب: ٢/٤٤٣.

والاجتزاء ببعض الأفراد خير من السرد المفصل إذ الغرض لا يعدو تعليل غزارة ما نظم في السجون .

مــدد الحبس :

ومن أسبابها المدد الطويلة التي أمضاها بعض الشعراء في الحبوس. وإذا كان سجن يناهز السنة أو يزيد عليها يتسع لنظم وافر[1] فكيف العقد والعقدان ؟ ، وقد جاء في كتب الأدب أن الفيلسوف الإشبيلي أبو الصلت أمية بن أبي الصلت سجن عشرين سنة في خزانة البنود بمصر تجرد فيها للقراءة والتصنيف والنظم[2] . وسجن الخليفة المقتفي العباسي الشاعر المؤيد أبا سعيد الألوسي في مطمورة عشر سنين، والتقى به صاحب الخريدة العماد الأصفهاني وقد عشي بصره في ظلمتها[3] . وأمضى الشاعر الأندلسي الطليق القرشي ست عشرة سنة من صباه وشبابه في الحبس، ومارس فيه صناعة الشعر وتخرج فيه شاعرا مذكورا[4] . وكثيرون أولئك الذين قضوا بضع سنوات كان إنتاجهم من الشعر فيها خصباً مثل يزيد بن مفرغ الحميري وأبي إسحاق الصابي، والشاعر الأندلسي الرمادي يوسف بن هرون[5] وغيرهم كثير .

ومن الشعراء من وئدت حياته في الحبس، وهم عدد جم تتبع صاحب كتاب «المغتالين» بعضهم، وجاء البحث بأسماء أكثرهم في ثنايا المراجعة والتقصي. ويتوالون في خط طويل يمتد من الجاهلية، بينهم طرفة بن العبد وعدي بن زيد والمنخل اليشكري، إلى عصور الإسلام فيضم مثل ضابىء

---

(١) مثل إنتاج الفرزدق في سجنه وعلي بن الجهم وابن زيدون .

(٢) المغرب في حلى المغرب : ١/٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤/٤٢٨ وفاة الوفيات : ٢/٣٦ .

(٤) انظر يتيمة الدهر: ١/٤٠٢ ، والضبي في البقية (٤٤٧) والمعجل للمراكشي (١٥٣) والمغرب في حلى المغرب (١/١٨٦))

(٥) انظر ياقوت : معجم الأدباء : ٧/٣٠٨ ـ ٣٠٩ ونفح الطيب : ٤/٣٦ وجذوة المقتبس ٣٤٦.

البرجمي ، وهدبة بن خشرم، وجعفر بن علبة، وأبي نواس، وابن المعتز ، وابن العميد، والطغرائي، وأبي الحسن التهامي، في المشرق والمعتمد بن عباد، وصديقه وضحيته أبي بكر محمد بن عمار[1] ، وعبد الملك بن إدريس الجزيري[2] في المغرب، وهم من الكثرة بمكان كبير، ونوه أهل الأدب بما كان لهم في حبوسهم من إنتاج ثر فذكر ابن سعيد في حديث شاعر مشهور مكثر هو مؤمن بن سعيد مولى الأمير عبد الرحمن الداخل، أن الوزير هاشم بن عبد العزيز« أطال حبسه الذي أدى به إلى التهلكة . ولم يفده ما أطال في حبسه من النظم والنثر، فأقذع في هجائه»[3] وقال صاحب النفح في الأديب أحمد بن فرج الجياني : «واعتقله الخليفة . . فلم يومض له عفو حتى قضى معتقلاً . . . وله في السجن أشعار كثيرة وأقوال مبدعات منيرة»[4] وقال الصولي في حديث ابن سماعة الشاعر: «كان إسحاق بن وهب بن سماعة المطيعي يهجو سليمان بن أبي جعفر(المنصور) وهو يلي الرقة، وكان لإسحاق ضياع ، فطلبه فاستتر ثم ظفر به فحبسه إلى أن مات، فهجاه بأشعار قبيحة»[5] . والازدياد من هذه الإشارات متوفر لولا مغبة الإسهاب .

الحاجة إلى القول: الذاتية:

ومن الأسباب المرعية في غزارة شعر السجون الحاجة إلى القول ذاتية أو غائية. فثمة غير داع نفسي في المحنة والوحشة يهز الأديب ليهتف بالشعر. وكأن نفوس الشعراء كانت لا ترضى الصمت بل تسعى في سماع صوتها. فإذا جاءهم الزوار سمعوا ما جرى على ألسنتهم في تلك الوحدة القاسية من الأبيات أو القصيدة[6] وكثير من الشعر خرج من الحبس من هذه الطريق . وكثير ممن حيل

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩١ .
(٢) نفح الطيب: ١/ ٥٨٦ .
(٣) المغرب في حلى المغرب : ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٤) نفح الطيب: ٤/ ٤٨ .
(٥) أشعار أولاد الخلفاء: ١٦ وذكر شيئا من هجائه .
(٦) انظر مثلا الفرج بعد الشدّة : ٦٥ .

بينهم وبين الناس أبوا أن يدفنوا أشعارهم في صدورهم، فكانوا إن وجد الورق واليراعة كتبوه[1]، وإن تعذرت أدوات الكتابة سجلوه على الجدران قدر المستطاع، وبخاصة أولئك الذين لم يتعودوا الاختزان في الذاكرة. فقد ذكر الوزير موسى بن عبد الملك أنه أثبت أبياتاً على الحائط في ظلمة الليل خوف أن تذهب عنه[2] . وذكر ياقوت في ترجمة ابن العميد الإبن أن شعراً له وجد على حائط محبسه بعد قتله[3] . وفي حديث الكاتب أبي بكر بن أبي العلاء قال ابن سعيد: «جرت عليه محنة سجن فيها وقيد، فكتب على الحائط بالفحم (شعراً) وقد أيقن بالموت»[4] .

الحاجة الغائية

وكذلك كان الشعر من أقوى الذرائع للخروج من السجن، يقدمه الرجل بين يدي حاجته إلى ذويه وقومه كيما ينهضوا بأمره عند السلطان، أو يشير عليهم بما يجب أن يكونوا عليه بعد عثرته. ومن هذا القبيل ما نظمه شيوخ القبائل والشعراء الذين حبسوا في حومات العصبية القبلية مثل يزيد بن مفرغ الحميري وأضرابه[5]. واستأجر مرة يزيد رسولاً ليحمل شعره من محبسه في كابل إلى قومه من اليمن في دمشق[6] . ومن هذا القبيل ما بعث به الشعراء الى الحكام من قصائد المدح اعتذاراً وتضرعاً وترقيقاً. فقد أطلق الفرزدق بما مدح به الخليفة هشاماً وأمير العراق خالد بن عبد الله القسري والمنذر بن الجارود[7]

(١) قال الجهشياري: «نقل الفضل بن يحيى (البرمكي) من محبس إلى محبس، فأصيبت في ثني مصلاه رقعة فيها. .» وذكر تسعة أبيات (الوزراء: ٢٦٠).

(٢) انظر الفرج بعد الشدة: ١٩٤ .

(٣) معجم الأدباء: ٣٤٩/٥ .

(٤) المغرب في حلى المغرب: ٣٨٢/٢ . وذكر الشعر .

(٥) انظر من البحث ص ١٣٠ .

(٦) انظر الأغاني: ٥٩/١٧ ـ ٦٠ .

(٧) انظر الأغاني ٢٣/١٩ ـ ٢٥ والديوان: ١٨٨/٢ و٢٨٥ (صادر بيروت ١٩٦٠) وفي مطبوعة مجمع اللغة العربية بدمشق ص ١٢٥ .

وفزع أبو العتاهية إلى الرشيد بالمدح[١] . ومن هذا الشعر ما كان يبعث به المحبوسون إلى الأصدقاء والإخوان تذكيراً بالمودة وطلباً للعون[٢] ، وكثيراً ما أدت هذه القصائد إلى نجح المقصد. ولما صعب على إبراهيم بن المدبر المخرج لجأ إلى طاهر بن الحسين والي خراسان ، فأرسل له مدحاً، فنهض بأمره حتى تخلصه[٣]. وكتب الأحوص الى حبابة شعراً غنت به الخليفة يزيد بن عبد الملك فأفرج عنه[٤] .

ونوه الأدباء ، بما كان لهذا الشعر من أثر في نفوس السلاطين، والشواهد كثيرة، وبعضها يجزىء عن بعض. قال ياقوت في ترجمة أبي إسحاق الصابي : «قد كان أبو إسحاق يكاتب عضد الدولة في الحبس بالأشعار ويرققه، فما رققه شيء كقصيدته القافية . . . »[٥] .

وخلاصة القول: تنهض تلك الأسباب دليلاً قاطعاً على غزارة ما نظم في سجون العرب. وفي إشارات القدماء إلى تلك الكثرة ـ فيما تقدم من أقوالهم ـ وفيما قبسوه من شعرهم واختاروا خير برهان .

أسباب القلـــة :

ومع ذلك فهذا الشعر الكثير بقي منه قليله. واصطلحت على ضياعه عوامل عديدة متنوعة تاريخية وسياسية وجغرافية ودينية ومعنوية وفنية ومادية، يتضح أثرها فيما يبسط من الظروف التي فقد فيها هذا الشعر .

---

(١) قال أبو الفرج : «ولأبي العتاهية في الرشيد لما حبسه أشعار كثيرة» الأغاني ١٥٣/٣ .

(٢) قال أبو الفرج : «كان محمد بن صالح العلوي صديقاً لسعيد بن حميد، وكان يقارضه الشعر، وله في الحبس أشعار كثيرة يطول ذكرها» مقال الطالبيين ٦١٠ .

(٣) الأغاني : ١٩/ ١١٥ ـ ١١٦ .

(٤) الأغاني : ٤/ ٤٩ ـ ٥٠ .

(٥) معجم الأدباء : ١/ ٣٣٥ .

ذهاب شعر الأسر:

وأضخم خسارة وأفدحها في تاريخ الشعر العربي هو شعر الأسر في الجاهلية والإسلام. فما بقي منه ـ على وفرته ـ أقل من القليل. ويعزى ذلك إلى جملة من الأسباب التاريخية والجغرافية والدينية والوطنية، تعمل مفردة أو مجتمعة ، فالشعر الجاهلي موغل في القدم، وأقدم آثاره التي وصلتنا لا تجاوز عصر امرىء القيس . والمجتمع الجاهلي قبلي شريعته الغزو والاسر بين قبائله كثير. وما جاء من أخبار الأسر وأشعاره يدور من حول الشعراء والفرسان والنابهين الذين صنعوا مآثر لأقوامهم في يوم أو غزاة. وهو مقدار ضئيل لأمة كثيرة العدد والقبائل والحروب في قرنين من الجاهلية على الأقل . وحظ المغمورين زهيد، وهم الذين يقولون الأبيات والقصيدة أحياناً على السجية والفطرة في الموقف المؤثر . وهؤلاء المغمورون هم العدد الجم من الأسرى . ولا يصح الزعم أن كل أسير كان قادراً على وصف ما يعاني شعراً، ولكن أفرادا منهم على الأقل كانوا على ذلك مقتدرين ، وكان تاريخ القبيلة وتراثها ومآثرها حظاً مشاعاً بين الأفراد، مما يجعل القدرة على التعبير ميسرة لمن عنده أدنى ملكة. وكان من المتعارف أن الكلمة الموجزة الهادفة خير معوان على بلوغ الحاجة. ولذلك يقترب الحدس من اليقين عند القول أن شعراً كثيراً نظم في الأسر في الجاهلية تنفيساً أو لبلوغ حاجة ، وقد تآزت جملة من الأسباب على ضياعه :

أحدها أن من الشعر ما لم يرض الآسرين، ويطول بقاء الأسير أحياناً ولا يلقى راوية فينسى ما نظم. وما بقي من أسماء المغمورين ومقطعاتهم راجع بقاؤه إلى ما في شعرهم من ثناء على الآسرين وتكريم(٢). من ذلك ـ مثلاً ـ لما

---

(١) قال عمر بن الخطاب: «نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم. «ابن رشيق : العمدة: ٤/١ ط مصطفى الحلبي مصر ١٩٣٤.

(٢) انظر حديث جويرية بن بدر وشعره في النقائض : ٣٠٨/١ ـ ٣٠٩ .

عرض أبو الفرج لأسر قيس بن الحدادية جاء بدليل من شعره على تلك الحادثة مما نظمه قيس في مدح منقذه عدي بن نوفل(١) . ولما حدث عن أسر ربيعة بن مقروم ـ وهو مخضرم ـ اكتفى ببيتين من قصيدة كان مدح بها الذي استخلصه من القيد(٢). وقد ينسى اسم الأسير الشاعر ويبقى الشعر فهو موضع الاهتمام(٣) .

ومن الأسباب أن القائل قد يسخط قبيلته، إن تناولها شعره بعتاب وتلوم فتصمت عنه .

ومنها أن اهتمام الشاعر بما قال يضعف بعد خلاصه من الأسر. ولعله كان يجهد في تناسيه لما فيه من ضعف وصغار وذكريات غير كريمة .

ومنها أن ما كان في مجموعات القبائل ودواوينها من شعر كثير قد ضاع بضياعها. ذلك أن القليل الباقي كان كثيره معروفاً عند العلماء إلى قرون بعيدة قبل أن تذهب به عوادي الزمن، وقد استشهد ياقوت الحموي بشعر وجداني لأسير جاهلي مغمور لا شك أنه اقتطفه من جملة أبيات(٤). وكان النويري يكتفي بمطلع قصيدة لبعض المخضرمين في أسرهم(٥) . وكان من المقدر أن نجهل هذا المقدار الضئيل أيضاً لولا ما جرى عليه العلماء من دعم الخبر بالشعر

(١) الأغاني: ١٣/٥.

(٢) الأغاني: ١٩/٩١ .

(٣) قال ابن الأثير في حديث بسطام بن قيس «وكان في الأسرى إنسان من بني يربوع فسمعه بسطام بن قيس في الليل يقول. . » وذكر الشعر وبقية الخبر. الكامل: ١/٣٦٦ وشعراء النصرانية: ٢٩٨ .

(٤) قال ياقوت: قال قيس بن العيزارة الهذلي وهو في الأسر:

وقال نساء: لو قتلت لساءنا ... سواكن ذو الشجو الذي أنا فاجع

رجال ونسوان بأكناف راية ... إلى جثن تلك العيون الدوامع

معجم البلدان: راية .

(٥) انظر يوم الشعب أسر سحيم بن وثيل الرياحي (نهاية الأرب: ١٥/٤١٧) ذكر النويري ما يبدو مطلع القصيدة، وفي النقائض (٢/٥٨٩) أبيات منها .

وخاصة فيما يتصل بأيام العرب[١] .

أما من بقي من شعرهم حظ أوفر ـ مثل عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والأعشى ـ فالفضل فيه لجهود العلماء الرواة الذين جمعوا أشعارهم في دواوين مستقلة. ومن يدري فلعل هؤلاء الكبار نظموا في الأسر أضعاف ما جمع، وقد شهد أبو عمرو بن العلاء أن ما وصل إلينا من أشعار العرب القدماء إلا قليله[٢] ، ثم أسهمت كثير من العوامل التاريخية والمعنوية التي ألمح إلى بعضها في ضياعه .

فقدان شعر الأسر في الإسلام:

وشعر الأسر في الإسلام يفوق ما أنتجت الجاهلية منه أضعافاً فالحروب بين المسلمين وأعدائهم لم تخمد قروناً في المشرق وآسيا الصغرى وفي الأندلس وكان الأسر ضخما متداولاً بين الفريقين بشهادة المؤرخين المسلمين[٣] . وكانت القبائل العربية تجمعت منذ صدر الإسلام في الثغور والعواصم على تخوم الروم وغيرها للذيادة والغزو. وهم يحملون معهم أدبهم وقرائحهم. ومن المتوقع أن يكون في الأسرى من العرب من يعينه استعداده على تصوير شقائه وآلام المعتقلين صنيع الذين وصلت إلينا أشعارهم في المواقف العصيبة[٤] .

ولكن عند التنقيب في المراجع يتحصّل منه القليل لما كان يجب أن تحوي صحائفها. ولا شك أن هذا التراث مفقود لأسباب معتبرة .

---

(١) مثل كتب التواريخ والنقائض .

(٢) طبقات ابن سلام : ٢٣ .

(٣) انظر خطط المقريزي: ١٩١/٢، مصر ١٢٧٠ هـ.

(٤) حوصر المسلمون في خلافة أبي بكر في حصن هو أثابا بالبحرين فأرسل أحد المسلمين المحصورين وهو عبد الله بن حذف شعراً يستنجد بالخليفة. انظر البلاذري: فتوح البلدان: ١١٤ ـ ١١٥ وانظر الأغاني : ٤٥/١٤ .

العامل الجغرافي

أولها العامل الجغرافي، وتبرز أهميته في تاريخ الأسر لأول مرة، وكان الأسير قبل الإسلام لا يخرج اعتقاله عن إطار بلاد العرب، فهو من مرابعه وأهله قريب. وفي الإسلام حملته الحروب الخارجية الى معتقلات نائية غريب أهلها ولسانها. ويستظهر من أقوال المؤرخين أن الغالبية من الأسرى قبل نهاية القرن الثاني الهجري لم يقدر لهم فداء. فماتوا في الرق والامتهان. ولم يشهد العصر الأموي فداء على كثرة ما تعاور من حروب هو والروم. وكان أول فداء في الإسلام سنة ١٨٩ للهجرة في خلافة هرون الرشيد[١]. وأطبقت على هؤلاء الأسرى معتقلات صماء لا ينطلق عنها الرسل ولا يزورها الأصدقاء. وكان نزلاؤها في نظر الناس ميؤوساً من استعادتهم[٢]. وعلى هذا فما نظم في سجون العدو قرابة قرنين على الأقل لم يحمل إلى ديار الإسلام، فمات مع أهله في السجون.

العامل الديني والمعنوي

وثانيها عامل الدين، وهو من التأثير بمكان، إذ كانت الحروب السجال بين المسلمين وأعدائهم دينية الصباغ. ويقتضي الاستعداد القوي المأمور به[٣] اجتناب الموهنات. وإذاعة أشعار الأسرى موهن العزيمة ويضعف القوة المعنوية عند الجند. فكانت ظروف الحرب العامة تشجع على الإغضاء عنه

---

(١) انظر حديث الفداء وعدد الأفدية في خطط المقريزي: ٢/١٩١ ـ ١٩٢. وفي التنبيه والإشراف للمسعودي: ص ١٦٠.

(٢) جرى الفداء الأول في خلافة الرشيد باللامس من ساحل البحر الرومي، فقال: «مروان بن أبي حفصة في كلمة طويلة يمدح بها الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا: سجون المشركين قبورها»

التنبيه والإشراف: ١٦١. وخطط المقريزي: ٢/١٩١.

(٣) «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» سورة الأنفال: ٦٠.

وعلى تجاهله إن وصل منه شيء لا يورث ذكراً ولا مجداً. فلا يرغب فيه القادة والأمراء، ولا يطلبه أصحاب القصص. وإن كان السلطان مشغولا بالفتن الداخلية أو بأهوائه وأوطاره عن الجهاد لم يرضه أن تذاع أشعار الأسارى لما في ذلك من تنديد ضمني بتقاعسه عن مصاولة العدو، وبعجزه عن افتكاك الأسرى .

فأثر الدين كبير تقاس الأمور كلها في ذلك العصر بمعياره، وتتخذ المواقف بناء على حدوده. وكان له دوره في تناسي شعر الأسر ـ كما سبق ـ وغيره من الأدب الصادر في بلاد الحرب(١) .

وقد ينجم الاعتراض الآتي: لم الزعم أن ثمة شعراً ضائعاً في معتقلات الروم ولا أدلة تاريخية على ذلك .

والحق أن بعض الأمور لبعض دليل، فأخبار الفتوح في التواريخ والمغازي يرافقها شعر كثير، ولا يترك المؤرخون مدينة فتحت من غير أبيات تفتخر بإفتتاحها أو تمدح القائد الفاتح . والشعراء من المقاتلة الذين يرسلون الشعر سجية وليسوا شعراء كبارا. وما كان تاريخ الأدب ليعرف أسماءهم لولا ظروف الفتح . ومن المتوقع أن يكون بين الأسرى، وهم من المقاتلة أيضاً، أن ينظم في شأنه كما نظم المنتصرون .

يدل على ذلك أن شعر الأسرى كان متى توفر له من يحمله إلى بلاد

---

(١) فارق جبلة بن الأيهم الغساني مع ثلاثين ألفاً من قومه أرض الاسلام إلى بلاد الروم يوم خالف عمر بن الخطاب. وصاروا مع الأيام في جملة الأمة والملة الرومية . ولم يذب هؤلاء في أيام وسنوات في مجتمع الروم : ولم ينسوا آباءهم ولغتهم وماضيهم ، ولمينقطعوا من أدب ينطق عن الذات بين ليلة وضحاها. لقد قالوا أشعاراً ـ من غير شك ـ وقد يكون منه المقطوعة الوحيدة المنسوبة لجبلة بن الأيهم (الأغاني : ١٤/٦ معجم البلدان) ولكن هذا الشعر واراه الدهر فلا يعرف عنه شيء. ولذلك نحسب أن أدباً عربياً غير ضئيل نظم واندثر في بلاد الروم . ولا بد من التنبيه إلى أن الدين وحده ما منع يوماً رواية شعر غير المسلمين الذين لم يخرجوا عن جسم الأمة ، ولكنه منع ذلك وهو مشفوع بالسياسة والحرب .

الإسلام سلم وعرف . وتناشد الناس قصيدة كبيرة نظمها أعشى همدان، وهو أسير في بلاد الديلم[1] ، لأن صاحبها هرب من الأسر . ولم تطو روميات أبي فراس لأن الروم أنفسهم كانوا يهيئون الرسل للشاعر يحملون قصائده إلى سيف الدولة[2] ، وذكرت كتب الأدب والتراجم مقدارا حسناً من شعر المسلمين الأندلسيين في أسر الفرنجة إذ كانت المراسلة متوفرة أحيانا وإن شكا بعض الشعراء من تعذرها [3] .

ومن الأدلة أن قصائد الذين كانوا في سجون الغساسنة والروم قبل الإسلام كانت معروفة في عصر الرواية والتدوين على بعد الزمن، ذلك أن الحال لم تكن حال حرب بل كانت نفوذاً وتبعية . وكان الاتصال والانتقال ميسورا، ولم يكن من الحوائل السياسية والمعنوية ما يشجب سيرورة الشعر .

ومن الأدلة أيضا أن علماء اللغة ورواة الأدب لم تفتهم أشعار اللصوص في العصر الأموي وما نظموا في تواريهم وفي سجنهم، وقد ألفوا في ذلك كتباً كثيرة [4] . فقد كان حبسهم داخل البلاد لا يحول بينهم وبين الرواة والناس حائل قاهر كالذي جعل الاتصال بالأسرى وتقصي أخبارهم وأقوالهم متعذراً. وإذ ما كان ينشد لأهل الثغور من الشعر يشهد باهتمام العلماء بكل ما كان الوصول إليه ممكناً[5] .

---

(١) انظر شعر الأسر : ص ٦٢ .

(٢) انظر ديوان أبي فراس : ٢٦/١ .

(٣) بعث أبو محمد عبد الله بن عدره من مكانه في أسر الفرنجة إلى ناصر بن عبد المؤمن قصيدة منها : وإذا أردت رسالة لكم فما ألفي رسول . المغرب في حلى المغرب: ١٤٨/٢ .

(٤) انظر ص ٣٩٥ .

(٥) من ذلك أشعار الفتوح الكثير« التواريخ ، مثلا(الطبري ٢٥٥/٥ أبيات لكعب الأشعري) » .وانظر في «العقد الفريد ٢٨٥/٥» خبراً عن عبد الله بن المبارك يكتب بيتاً قاله أحد أهل الثغور .

ويستظهر ـ مما تقدم ـ أن خسارة جسيمة كانت فيما وئد من شعر الأسر وعفا . وإذا كان ما يصدر عفو الألم والمحنة هو أعذب الشعر الإنساني فإن ما نظمه الشعراء والمغمورون من الأسرى كان من هذا الطراز النبيل، يدل على ذلك قليل المقطعات المتبقية من كثير ذاهب .

العامل السياسي :

وكان للسياسة أعظم الأثر في فقدان كثير من المنظوم في السجون إذ كان الحساب في الحكم الاستبدادي عسيراً على الكلمة وأحياناً على التلميح مما سبق تفصيله في حديث مضى(١) . ويومىء أغلب ما نظمه الشعراء إلى أنهم كانوا في حبوسهم راضين غير ساخطين، ومذعنين غير ناقمين، مقرين بالذنب شاهدين للسلطان بالعدل والنصفة(٢) ولا مراء أن هذا الظاهر من القول هو غير الحقيقة ، وأن ما جهر به اللسان من المداراة والملق والمداجاة هو غير ما في القلب. ولعل السخط والغيظ والنقمة هي المشاعر الحقة التي ملأت نفوس من دخل السجن من الشعراء .

وكانت إذاعتها تضر بها بصاحبها وتؤخر خروجه من حبسه إن لم تود بحياته . فكان كثير من الشعراء يكاتمون هذا الغيظ على مضض أليم يستشعر في بعض ما نظموه(٣) .

والمعتقد أن الشعراء باحوا بذات نفوسهم، وخففوا عنها بكثير من الشعر

---

(١) انظر من البحث ص ١٥٣ . ومن الأخبار المفيدة أن بهاء الدين البغدادي كافي الكفاءة ـ وهو من أهل الرئاسة والأدب والفضل ـ صنف كتاب التذكرة ، ونقل من التواريخ حكايات رأى فيها الخليفة المستنجد قدحاً بالدولة العباسية ، فعزله وحبسه حتى مات سنة ٥٦٢ هـ. انظر ابن خلكان: ٤/ ١٥ والوافي بالوفيات : ٣٥٧/٢ .

(٢) انظر شعر المدح في أغراض شعر السجن .

(٣) في أقوال المتنبي(البحث ص ٢١٨) وأبي الحسن التهامي (ص ٢٤٢) والحاجري (ص ٢٨٣) أمثلة دالة .

الناقم، وأسمعوه العواد من أصدقاء وقرابة. ولكن خوف السلطان الرهيب منع من تناقل ذاك الشعر وسيرورته بين الناس. وكان ما يؤذن به أو ما يترخص في تناشده هو ما لا يمس الحاكم بسوء ولا لوم. فلا غضاضة في شعر يعرض بالعشيرة والأصدقاء[1]، ولا في رواية القصائد التي مدح بها السجين سجانه، ولكن الخوف كل الخوف في إنشاد يعرض فيه الحبيس بأولي الأمر، فالخطر يحف بالشاعر والرواة معاً .

ولذلك أهمل الحظ الأكبر من أشعار السخط والنقمة، وتنوسيت قبل أن تصير من مذخور الرواة ومن تراث الأدب. والبقية الباقية تشير إلى ما ذهب. فالمؤرخون ذكروا المنخل اليشكري وما جرى له من الحبس ثم القتل على يد الملك عمرو بن هند، ولم يجدوا دليلاً من شعره لتلك الحقبة الخطيرة من حياته الا بيتين يذم بهما قومه لتشاغلهم عن استخلاصه من حبس الملك[2] . ولم يكن المنخل في عصره مغموراً ولا مقلا ، ولكن ذهب بقصائد حبسه أنه كان في الحيرة غريباً لا أهل ولا قرابة . ولو تهومس بشعره لكان ذلك في تكتم وحذر إذ سيف عمرو بن هند مصلت لا يجرؤ مجترىء على إشهار ما يسوؤه. وربما كان البيتان الباقيان بعض قصيدة ملأى بالسخط على العشيرة وعلى الملك أيضاً ، إذ كيف لا يغضب الشاعر إلا من عشيرته وظلامته عند آسره، ولكن الخوف والإرهاب أضاع منها حظ الملك حتى عفا مع السنين، فلما جمع الشعر ووضعت الدواوين لم يعرف له من أشعار حبسه إلا هذا المقدار .

وهذا الموقف نفسه يفسر لنا ما بقي وما أخفي من قصائد عدي بن زيد سجين النعمان بن المنذر. ولا شك أن عدياً ثار الثورة العارمة لما لقي من

---

(١) انظر طرفة بن العبد: أشعاره الساخطة على رجال من قبيلته وهو محبوس . الديوان ص ٤٣ و ٤٦ شرح الشنقيطي مصر ١٩٠٩ .

(٢) الشعر والشعراء : ٣١٨/١ .

(٣) انظر ديوان عدي: التخريجات : رقم ٢٥ و٦٩ و١٠٦ و١٤٢ .

النعمان من الغدر وكفران الجميل. وفي ديوانه بعض مقطوعات وأبيات هي بقايا قصائد تشير إلى ما قال من الشعر الناقم . وكان في الحيرة ذوو عدي وأنصاره ولكنهم كانوا يعرفون ما يُنشدون لعدي وما يكتمون ، وعيون النعمان وخصومهم تراقبهم . ومن ثم فالقصائد العديدة التي عاشت هي تلك التي بعث بها إلى النعمان مادحاً معتذراً وناصحاً حكيماً ، وقد حافظت على تمامها .

ومن الأخبار ما يدل على أن الشعراء الذين ماتوا في الحبوس كان بين أيدي ذويهم أشعار لهم لا تخرج عن نطاقهم إلا لمن استوثقوه فينشدونه منها . وفي كتاب «أشعار أولاد الخلفاء » يذكر الصولي أن القائد الذي أنهى دولة الأمويين وهو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس كان في حبس المنصور يرسل بالشعر إلى إخوته ليعملوا على حفظ سلامته، وهو ينقل الحديث عن بعض أفراد الأسرة العباسية يعقوب بن جعفر بن سليمان الهاشمي، قال: «وأنشدني من شعره في حبسه ذلك»[1]. ولا شك أن ما أنشده إياه مقدار غير خطير، وأن كثيره بقي طي الكتمان، فخلفاء بني العباس وأشرافهم لا يرضون تناقلها لما فيها من إساءة لجدهم المنصور. فكتمت الدوافع السياسية هذا الشعر دهراً حتى فقد، ولم يند منه غير ذاك الخبر والأبيات. ولم يخش الصولي من ذكرها في كتابه وقد ضعفت في زمنه منة الخلفاء .

ولذلك يمكن الاستنتاج ـ مما سبق ـ أن شعراً مهاجماً للحكام كان ينظم في السجون ويخرج من أسوارها ، فيدار على حذر بين أيدي الخاصة من الأهل والصحابة دهراً طويلاً ثم يتولاه الإهمال ويتناسى. ولعل ما نظمه ابن العميد، ما بين حبسه واغتياله، سخط كله وغضب. وكان محببا جم النصير والأعوان، فاعتقله رؤساؤه تخوفاً من طاعة الجند له، وساموه هوانا وتمثيلاً، فكان يائساً من البقاء، ولذلك لم يكن ثمة تحفظ من مهاجمته أعداءه، وما بقي من شعره يدعم

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء: ٣٠٧ ـ ٣٠٨ ، وأول الشعر :

نقض العهد خائس بالأمان مستحل محارم الرحمن

هـذا الظن[1] ، فهنـاك ـ على الأقل ـ قصيـدة طويلة[2]، ولكن ذهب بكثيـرها الإرهاب والحذر، وربما ذهب بأمثالها .

ولو قيض لأمثال هؤلاء الشعراء أنصار أقوياء لا يخشـون السلطة لأذاعوا أشعارهم على الملأ مكايدة ومناهضة . وآية ذلك أن شاعراً أموياً هـو يزيـد بن مفرغ الحميري أشبع الأمير عباد بن زياد بن أبيه هجاءً قتالاً وهو في سجنه يأخذه بعذاب شديد. فسرت قصائده من كابل في أقصى المشرق إلى العراق والشـام على ألسنة الناس . فقد كان للشاعر أنصار كانوا الخصوم السياسيين لآل زياد بن أبيه ، وكانوا يثبتونه على العذاب . ليضرىٰ هجاؤه وهم يـريدون التشهيـر بهم وإسقـاطهم . ولكن هذا الـظرف النادر الـذي نشر شعـر ابن مفرغ بين النـاس ووضعه في متناول تاريخ الأدب لم يقيض مثله لغيره[3] .

ويزيد هذا الاستنتاج قوة ما بقي من القصائد المعدودات لشعراء لبثوا في الحبس بضع سنين قبل أن يموتوا فيه، وكان من المتوقع أن يكون إنتاجهم فيـه موفوراً . فلو نقب في ديوان المعتمد بن عباد لعد له ما بين قصيدة قصيرة ومقطعة اثنتان وعشرون ، ومن المعروف أنه كان شاعرا متقناً كثير القول يقارض الشعراء وهو في السجن إذ كان الشعر تعلته الـوحيدة يخفض بـه عن نفسه مـا تجد . . ومكث في سجن المرابطين في أغمات خمس سنوات حتى توفاه المـوت . وما

---

(١) وجد على حائط مجلسه في الحبس بعد قتله أربعة أبيات منها :

ملك شـد لي عـرى الميثـاق ... بـأمـان قـد سـار في الآفـاق
فقرى الوحش من عظامي ولحمي ... وسقى الأرض من دمي المهـراق

معجم الأدباء: ٥/٣٤٩ .

(٢) ذكر ياقوت منها بيتاً في خطاب السلطان(المصدر نفسه) هو :

راعـوا قليـلاً فليس الـدهـر عبـدكم ... كـمـا تـظنـون والأيـام تنـتقـل

وفي ص (٣٥٣) أربعة أبيات في تخلي قومه عنه . وفي هذه التجزئة دلالة على الشعر بقية قصيدة عارمة ذهب أكثرها .

(٣) انظر تفصيل ما جرى لابن مفرغ من الحبس في «ص ١٧٢ ـ ١٨٢ » .

بين الأيدي من شعره لا يخرج عن شعر اللوعة والتحسر والحنين والرثاء . أما شعر التحفز والغضب فلم ينشده منشد. فهل كان المعتمد راضياً مذعنا مستسلماً، إن الأحداث كانت تشير إلى أن المعتمد لم يكن هادىء الخاطر ، وكان يترقب أمراً إذ كان أبناؤه وأعوانه في الأندلس يعدون العدة لاستعادة ملك سلبهم المرابطون إياه غدراً. وقد ثار ولداه هناك فأخفقا وقتلا ، فضيق عليه في حبسه واغتم هو غماً شديداً أفصح عنه في أبيات متعطشة إلى الثأر من غير تصريح كاشف[1] . وكان ارتجل هذه الأبيات بمحضر بعض العواد والأصدقاء إذ نعي إليه ولداه ، وهي القصيدة الوحيدة التي تفصح عن النقمة والغضب . أفكانت تلك هي كل ما قالّ من الشعر الحانق الثائر في خمس سنوات، أو ليس من الراجح أنه نظم أشباهها، وكان رجلاً تراقب اتصالاته وأقواله وتخشى تطلعاته ، فكان التصريح بها يقرب حياته وحياة أطفاله من خطر محقق؟

وغير المعتمد كثير مثل ابن المعتز[2] ، والطغرائي [3] والرمادي الأندلسي[4] ، والرشيد الأسواني المصري الذي كان ثائراً طماحاً من الطراز الرفيع ، وشاعراً مغامراً ذاق السجن من غير ندم ولا ارعواء، ومات دون أهدافه[5] . وترك ديوان شعر أضاعته الأيام. فلو عثر على هذا الديوان فما حظ

---

(١) قلائد العقيان : للفتح بن خاقان : ١٠٣ ـ ١١١ (نسخة مصورة عن طبعة باريز) والأبيات المرتجلة ثمانية أولها :

كـذا يهلك السيف في جفنه	إلى هز كفي طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقله	ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيم	مرتقباً غرةً في كمين

وهي في الديوان: ص ١١٦.

(٢) حبس ابن المعتز مرتين ،وكان حبسه في الثانية قرابة شهر قبل أن يقتل انظر« ص ١٨٥».

(٣) انظر من البحث (ص ٢٨٦) .

(٤) انظر نفح الطيب: ٤/ ٣٦ ـ ٤٠

(٥) انظر معجم الأدباء: ١/ ٤١٩ .

الشعر السياسي الذي هاجم به المتسلطين على الحكم في مصر وهو سجين ، وهل يجرؤ ناسخ أو جامع لديوانه على احتمال تلك التبعة يومذاك .

ومن ثم فليس ضعيفاً الافتراض أن السياسة جردت تاريخ الأدب من كثير من أشعار المحبسين التي صورت حقائق نفوسهم ومواقفهم .

العامل الديني :

مضت الإشارة إلى موقف الخلفاء الحازم من الزنادقة، وإلى نشاطهم الفكري وما نظموا من الشعر في الحبوس[١]. ومعظم ما في المراجع يدور حول التبرؤ من التهمة أو حول إشارات مبهمة وشكوك صريحة أحياناً نادرة[٢]. وكان السجين المتهم يتستر على اعترافاته الحقيقية، ولا يقصر أنصاره في مواراتها باعتبارها دليل إدانة ، والقصد التبرئة والنجاة . وما حوسب عليه بعض الزنادقة من شعر كان ينكره عند المحاكمة أو التحقيق نكراناً مغلظاً[٣]. ويتحامى المصنفون الشعر الكافر على السعة ـ إن وجدوه ـ تورعاً أو خوفاً . ولو عثر على دواوين الشعر الضائعة للزنادقة لكان نصيب الاعتراف الصريح ضئيلاً فيها[٤] .

---

(١) انظر من البحث (ص ٣٣٩) .

(٢) الشعر الصريح قليل ومن أمثلته شعر أبي بكر بن الصائغ (البحث ص ٣٤٦) وشعر الفيلسوف ابن حبيب القصري الذي سجنه سلطان الموحدين وقتله فيمن قتل من الزنادقة . قال ابن سعيد في ترجمته : «وله شعراً أنشد منه قوله :

جلت في علم ترفعت به عن ذي البرية
وترقيت إلى أن صح لي الذات العلية
ثم إنا نجزع المو ت جميعا بالسوية
فأبن لي العدل ياجا هل في هذي القضية

ـ «المغرب : ١/٢٩٦» .

(٣) انظر ترجمة صالح بن عبد القدوس عند الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد: ٩/٣٠٣»

(٤) أنظر ما ذكره ابن النديم من حجم دواوين الشعراء الزنادقة في الفهرست: ٢٣٦ـ٢٣٨ .

ومع ذلك يرجح أن هؤلاء قالوا في حبوسهم شعراً غير قليل مات معهم أو بعدهم ، فكثير منهم إن حبس كان يترقب الموت، فلا مانع له أن يجري في النظم مجرى الشعراء فينفث خبيء صدره ، ويدعم هذا الظن وقائع حرص فيها المصنفون ومن أخذ عنهم المصنفون على التغافل عن الآثار الأدبية التي يقولها محبوس على الزندقة . ومن شواهد ذلك أن الشهاب السهروردي في القرن الخامس الهجري كان عالماً محيطاً ومتكلماً بارعاً وأديباً مجيداً ، وكان له أشعار على غاية من حسن النظم ، أفحم مناظريه فاتهموه بالزندقة ، وحملوا السلطان على سجنه ثم على قتله . وشهد له كل ما ترجم له بقوة التفكير والاحتجاج . قاله فيه ياقوت: «كان فقيهاً أصولياً أديباً شاعراً حكيماً متفنناً نظاراً، لم يناظره مناظر إلا خصمه»[1] وقال ابن خلكان في وصف أدبه : «وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها »[2] . ومع ذلك يساق من الأقوال ما يراد به الغض من فضائله العلمية والفكرية، فنقل ابن خلكان قول أحدهم : «رأيته كثير العلم قليل العقل، ويقال: إنه لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد:

أرى قدمي أراق دمي وهان دمي فيها ندمي»[3]

ولا شك أن مثل هذا الشعر الغث لا يوافق ما وصف به . والأرجح أن يكون تلفيقاً . ولعل الشعر الذي كان ينشده هو غير هذا الشعر، وكان فيه من نفسه وفكره الكثير[4] .

ويخلص الرأي ـ إذن ـ إلى أن أشعار المتهمين بالزندقة ، ممن كان بين

---

(١) معجم الأدباء: ٢٦٩/٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣١٢/٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) انظر ما اختاره ياقوت من شعره في معجم الأدباء (٢٦٩/٧ وما بعدها) تجد عمقاً وفلسفة صوفية حول عودة النفس إلى جوهرها الذي انفصلت عنه فلعل شعره في الحبس لم يخل من تلك النظرة .

سجنهم وقتلهم مجال للقول والنظم ، لم يقيض لها السيرورة بين الناس ، وربما كانت تحت أيدي الخاصة من رجال مذاهبهم، وكان يخشى المصنفون من الاستكثار منها ، فطواها الضياع كما طوى كثيراً من المصنفات ، ولم يبق منها إلا أقلها .

العامل الذاتي :

ويسلك الشاعر أحياناً مسلكاً يذهب ببعض شعره على عمد أو تهاوناً : كأن يرغب في أن ينسى الناس معرة حبسه ، فيغيب شخصه وذكره عنهم أمداً حتى إذا عاد إليهم كانت ذكريات تلك الحقبة قد تساقطت أضغاثاً . ونحا القتال الكلابي هذا المنحى ، وكان رجلًا فيه هوج مركباً على شر عظيم ثم غدا مجرماً محترفاً(١) . وعانى في السجن عذاباً حمله على قتل سجانه والهرب ليرتكب جريمة نكراء في المدينة . فطلبته السلطة فتوارى زهاء سبع سنين في البوادي يخفي شخصه ويضائل ذكره ويحبس شعره . ولما أحس الأمن ظهر بعد أن عفّى على حقبة من حياته لم يبق من ذكرها إلا ما تصوره قصيدة طويلة من أيام حبسه . ومن المتوقع من رجلٍ دخل السجن مرتين ، جارٍ على معاودة النظم ، أن تسعفه قريحته بحظ من الشعر أوفر : ولكن القتال طوى ما رغب أن يطوي من ماضيه وذكرياته وأشعاره .

وتوسل كثير من الشعراء إلى أولي الأمر بالشعر طمعاً بالصفح والعفو ، وكثيره باق غير أن بعضهم كان زاهداً فيما نظم بعد الإفراج عنه إذ لم تبق له حاجة بشعر أدى مهمته بإصابة غرضه . من ذلك حديث ابن خلدون عن نفسه أنه سجن في المغرب ، ورفع إلى سلطانها قصيدة عدتها مائتا بيت أورد منها خمسة في وحشة الحبس وفي التشوق ثم توقف معتذراً بذهابها عن حفظه(٢) .

---

(١) انظر من البحث ص ٣٠٧ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٧/ ٤٠٣ .

ومن المعروف أن المؤرخ حريص على الوثائق ، ولكن ابن خلدون لم يبد حرصاً على وثيقة أدبية تاريخية هامة لما احتاج إليها لم يجد إلا بقايا . ذلك أنه نظم ما نظم استرضاء للسلطان الذي هش لقصيدته ـ كما قال هو ـ فلما بلغ مراده غفل عنها حتى ندت عنه .

وكثير مثل هذا الشعر الذي نظمه أصحابه في ظروف خاصة وأهملوه(١) .

العامل الفني :

التصنيف والأختيار :

وكانت مناهج المؤلفين والرواة والشراح والمحققين ومقاصدهم أقوى العوامل التي أبقت للسجناء من أشعارهم الكثير أو القليل . وهي وحدها العون الأكبر في تقدير النسب المتبقية والمفقودة من أدب السجن . فما يساق من الأشعار خاضع للغرض الذي يتوخاه المؤلف ، وهذا الغرض الذي يفرضه موضوع الكتاب واتجاهه ـ فإذا كان غرض الطبري ـ مثلاً ـ أن يدعم الحدث التاريخي بدليل من الشعر ، فيجتزيء منه بما يقيم الدليل ، ، فإن موضوع الكتاب نفسه لا يسول الاسترسال في سياقة الأشعار زيادة على الحاجة ـ ولذلك كان النظر في هذه الأغراض خير ما يفسر أسباب الكثرة والقلة . ويمكن ردها إلى أغراض ثلاثة هي الاستشهاد والاختيار والجمع .

الاستشهاد :

وفي الحديث عن مصادر شعر الأسر والسجن أشير إلى التزام المؤرخين والجغرافيين والأدباء واللغويين وأصحاب الشروح إيراد الشعر عقب ذكر الحدث أو البلد أو الشاعر أو اللفظة والمثل . والراجح أن هذه الطريقة مستفادة من

---

(١) كان يعثر على بعض الشعر في غرف الحبوس ، وفي غرفة الفضل بن يحي البرمكي أصيبت رقعة فيها شعر بعد نقله إلى محبس آخر . انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٢٥١ .

أصحاب الفقه الذين يؤيدون الحكم بالدليل النقلي ، ومن أصحاب اللغة الذين يقدمون الشاهد برهاناً على شروح الألفاظ ومبانيها ، فضلاً عما جرت عليه عادة العرب من طلب الأشعار مع الأخبار ليزداد حظها من القبول والتصديق . فوجد فيها أهل العلم قوة فالتزموها على تفاوت فيما بينهم في الإكثار والإقلال . ولا يكاد يشذ عنها مؤلف وإن جنح إلى الإيجاز والتركيز ، وتباعد جهده عن الشعر . ولا يظن تاريخ أوجز من كتاب المسعودي « التنبيه والإشراف » في ترك الجزئيات والاقتصار على الخطوط الكبرى ومع ذلك احتاج إلى الاستشهاد بالشعر في مواضع عدة يتصل بعضها بغرض هذا البحث[1] . وكان ابن النديم في الفهرست مشغولاً فيمن ترجم لهم من الشعر والأدباء والعلماء بتركيز الحقائق ومع ذلك لم يخل كتابه من أبيات في الحبس لم ترد في غيره[2] .

المؤرخون :

ولا شك أن المؤرخين الذين كتبوا المجلدات الضخام كانوا أغزر استشهاداً ولكن من غير إسراف . ولو تتبعنا مؤرخاً كالطبري لوجدنا الشعر عنده جزءاً لا ينفصل من الخبر . وإذا كان الرجل الحبيس بعيد العهد أورد له ـ على الراجح ـ ما حضره من شعره ، وإن كان محدثاً أو معاصراً انتخب من شعره[3] في الحبس مشهورة من غير إقلال وقد ينتخب فوق ما يورد مؤرخ الأدب[4] إن كان الرجل شاعراً معدوداً أما إن كان الشعر في حياته عارضاً فقل أن يشفع الخبر بشعر إذ لا يقدم شعره للخبر دعماً مذكوراً .

وأغلب المؤرخين مقتصرون على أقل الشعر ، وإن كان هذا القليل نافعاً مفيداً ، شأن البلاذري في أنساب الأشراف وفتوح البلدان ، وابن كثير في

(١) انظر ص ١٧ و ١٦١ و٣٠٣ . ط . دار التراث ، بيروت ١٩٦٨ .
(٢) انظر الفهرست : ١٠٣ (أخبار معاذ الهرا) و٢٥٣ (ثمامة بن أشرس) .
(٣) انظر خبر قيس بن مسعود الشيباني (١/ ٦٠٩) .
(٤) انظر أخبار إبراهيم بن المهدي (٨/ ٥٥٧ ـ ٦٠٦)

البداية والنهاية ، وابن خلدون في تاريخه . ويشير الانتخاب إلى قصائد ذات قيمة حقاً ولكن منهج المؤرخ لم يأذن له باقتباس كثير . ولعله كان يفتش القصيدة عن أعدل أبياتها للخبر ومجموعة القصائد عن أوجز المقطعات وأجمعها . ومثال ذلك ما أخبر به البلاذري في فتوح البلدان عن محمد بن القاسم فاتح المشرق وعزله واعتقاله وحمله إلى واسط مغلولاً فما رواه من شعره كاف من الوجهة التاريخية ، وفيه دلالة بينة على ثائرة الأمير والأسير والفاتح الكبير[1] . ولو وصلنا هذا الشعر كله لكان ثروة أدبية تصف مأساة إنسانية في نفس هذا البطل المقهور . ولكن التاريخ لم يذكر منه إلا قبساً ضئيلاً عما وراءه من جذوة غضب .

وليس المؤرخون مسؤولين عن هذه القلة فهم إخباريون همهم في الوقائع لا الإنتاج الأدبي الذي يأخذون منه قدراً يصلح برهاناً . ولولا هذا النهج من الاستشهاد لذهب من الشعر ما لا سبيل إلى تحصيله . وقد بقيت هذه المنتخبات صوى على طريق البحث تعين على تصور حجوم الإنتاج الشعري في الحبوس .

أما إذا كان الشعر يقع في الصميم من الحادثة التاريخية ومواقف الرجال ، لا يتم وضوح الخبر بغيره ، فالمؤرخ كان يسوق منه ما هو لحمة الخبر إن أوجز في إيراده لم يفته أجوده وأنفعه[2] .

الجغرافيون :

وينحو المؤلفون في البلدان منحى المؤرخين في النهج والقصد . وكان ماضمنه ياقوت معجم البلدان من شعر الحبوس جنى كثيراً ، معظمه مما قاله

---

(١) انظر خمسة أبيات من قصيدتين : فتوح البلدان : ص ٦١٨ .

(٢) انظر حديث الوزير الشاعر المصحفي في قبضة المنصور بن أبي عامر : البيان المغرب في أخبار المغرب : ٢/ ٤٠٥ ـ ٤٢٨ .

اللصوص . ولا شك ان ياقوت كان بين يديه دواوين هؤلاء الشعراء ، وخاصة ما صنعه السكري ، فأعطته طلبته من أشعارهم . وكان من خطته إذا ذكر البلدان أن يذكر بعض علمائه وشعرائه أو من نزل فيه من هؤلاء . والمدن والقرى والنواحي النائية هي أشبه بالمجهولة عند كثير من الناس ، فوجد ياقوت في شعر الذين نزلوا سجونها معواناً له على الوفاء بهذا الغرض ـ وكان يجتزيء من القصيدة الكبيرة ببضعة أبيات في أحدها اسم المحلة أو الثغر أو البلدة . ولو أورد البيت وحده لكان دليله وبرهانه ، ولكن الرجل كان يحب للمراجع أن يجد إلى جانب التحقيق العلمي ما يمتعه . والأمثلة في كتابه كثيرة . ومن حسناتها أنها تقتطف شيئاً قليلاً من قصائد الشعراء المغمورين الذين حبسوا ، وهو كل ما أبقى لهم التاريخ من أثر[٢] ولا شك أن معظم ما استشهد به ياقوت منتخب من قصائد كاملة بين يديه . وبعض شواهده من أشعار اللصوص تمامه في الأغاني ومنتهى الطلب[٣] . فهو يقبس ثلاثة أبيات والأربعة من منظومة ذات عشرين بيتاً أو ستين . فإذا قيس سائر الاختيار على ما يقارب تلك القصائد عرف الحجم الأول لذاك الشعر .

أصحاب التراجم :

وصنع أصحاب التراجم صنع أصحاب التاريخ والبلدان غير أن مجال

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ البلدان : نجران ، راية ، دمخ ، الدهناء .

(٢) من هؤلاء قاضٍ ذكره ياقوت ، قال : « يقول عين القضاة عبد الله بن محمد الميانجي في رسالة كتبها إلى أهل همدان وهو محبوس :

ألا ليت شعري هل ترى العين مرة ... ذرى قلتي أروند من همذان
بلاد بها نيطت علي تمائمي ... وأرضعت من عفانها بلبان

معجم البلدان : أروند .

(٣) استشهد للخطيم العكلي بخمسة أبيات (معجم البلدان : بلي) هي في منتهى الطلب « ٥٦ » بيتاً (٢ / ٢٥٤) .

الترجمة يسمح بإيراد حظ أكبر من منظوم شاعر حبيس . ويختلف كتاب التراجم فيما بينهم في هذا الغرض .

وكان ياقوت الحموي ظاهر الاهتمام بإنتاج ذوي الشأن من السجناء . وكان يلتمس مرضاة ذوقه ، فهو على استقصائه في العلم وشمول اطلاعه أديب رفيع الذوق ـ كما ألمح ـ إذا مر للسجين بمنظوم فائق استكثر منه ولو طال به الحديث . وبذلك حفظ لنا معجم الأدباء قصائد إنسانية في المرتبة العليا من الجودة كان معرضة للضياع فيما ضاع لولا استحسان المؤلف لها[1] .

ومن الغلو أن نزعم أن واضعي التراجم اطلعوا على آثار من ترجموا لهم كافة . فمن كانت دواوينهم ورسائلهم قريبة معروفة اقتطفوا منها ومن نأت أو خفيت آثارهم اكتفوا بما سقط إليهم من مسموع أو مكتوب . فكان ياقوت يستكثر من شعر الأديب أنى توفرت له مصادره الأولى ـ وكانت كثيرة بين يديه ـ ويقل إن افتقدها ، فيعول على أحاديث غيره أو نقولهم . وبهذا يعلل كثير ما ساق لأبي إسحاق الصابي وقليل ما ذكر لإبراهيم بن العباس الصولي . وقد صرح أن حبسيات ابراهيم عرفها غيره . فنقل عن الجهشياري قوله : « رأيت دفتراً بخط إبراهيم بن العباس الصولي فيه شعره: قاله في حبس موسى بن عبد الملك إياه يصف غليظ ما هو فيه من الحبس وثقل الحديد والقيد ويذكر موسى في شعره »[2] . ولو كان هذا الديوان بين يديه لاتسع في الاستشهاد اتساعه في شعر غيره . فلم يكن من منهج ياقوت الاجتزاء بالقليل من شعر المحبسين إلا إذا لم يقع إليه كثير شعره أو لم يوافق ذوقه .

وغير ياقوت من أصحاب التراجم أقل احتفاء بالشعر ، وكان الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » مقتصداً ، وكذلك ابن خلكان إذ جعلا همهما في الوقائع والأخبار مع أقل الشعر . ويستفاد من مواطن عدة في وفيات الأعيان

---

(١) انظر ترجمته لابي اسحاق الصابي: ١/٣٣٣ .

(٢) معجم الأدباء : ١/٢٧٦ .

معلومات عن شعر حبس كثير . ولكن المؤلف التزم منهجاً لا يسمح له بإيراد هذا الشعر وإن حسن ذكرا . وهو يصرح بذلك أحياناً . ولما ذكر ما جرى لعلي بن الجهم من الحبس ونصبه للناس في نهار مصلوباً اكتفى ببيتين من إحدى قصائده في تلك الحادثة ، ثم قال : « وهي أبيات كثيرة مشهورة [١] ، وله وقد حبس أبياته المشهورة التي أولها :

قالوا : حبست، فقلت ليس بضائري   حبسي وأي مهنّد لا يغمد

وهي أبيات جيدة في هذا المعنى ، ولم يعمل مثلها ، ولولا طولها لذكرتها »[٢] واجتناب الإطالة هو سبب استبعاد الشعر الكثير . ويكاد ابن خلكان ينصرف عن مثل هذا الشعر لولا ما كان يستطرف ذوقه من بعض الأبيات . ولما ذكر اعتقال العماد الأصفهاني وقصيدته التي أرسلها الى الخليفة في مدحه اقتصر منها على بيتين أعجبته فيهما الصنعة وحسن الانتفاع بحوادث التاريخ ، ولولا ذلك لأغمض عن القصيدة كلها [٣] . وقد يترجم للرجل جل أشعاره منظومة في الحبوس فلا يقتطف منها إلا أبياتاً يسيرة حول بعض الحوادث البارزة في حياته كما فعل فيما اختار لعلي بن مقلة الوزير الذي قال عنه ابن خلكان إنه سجن ثلاث مرات مددا طويلة وأكثر من وصف حاله وبلواه [٤] .

---

(١) وهما :

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الاثنين مسبوقاً ولا مجهولاً
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم   شرفاً وملء صدورهم تبجيلاً

الوفيات : ٣/ ٣٩ ـ ٤٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) وهما :

قل للإمام : علام حبس وليكم   أولوا جميلكم جميل ولائه
أو ليس إذ حبس الغمام وليه   خلّى أبوك سبيله بدعائه

وفيات الأعيان : ٤/ ٢٣٧ .

(٤) انظر وفيات الأعيان : ٤/ ١٩٨ والبداية والنهاية : ١١/ ١٩٥ .

ولا تخرج كتب التراجم الأخرى التي نوه بها قبل عن إحدى خطتي ياقوت وابن خلكان، وكلتاهما عون على تقدير ما بقي وما غاب من قصائد بعض المحبسين .

أما مجال الفائدة في كتب اللغة والشروح ففي ما نقدم غنية[1] . وللاختيار دور أكبر في النظرة الكمية في شعر الحبوس . والفرق بينه وبين الاستشهاد أن الحكم فيه هو الذوق الفردي لا الحاجة إلى الدليل .

وما ذكر من حديث المختارات في مصادر هذا الشعر يعين بعض العون على تصور المقادير التي انتخب منها ، ولا مدعاة للاستزادة .

ولكن التوقف عند المراجع التي جمعت بين فضيلتي الاختيار والاستشهاد يكشف للناظر عن مقدار الحجوم المقتبسة والمفقودة .

وخير كتاب لهذا الصنف هو كتاب الأغاني . وكان أبو الفرج فيه عالماً محققاً أو أديباً ذواقة معاً : يختار ما يستحسن مع حرص على السند في الرواية والدليل من الشعر . ومن المعروف أن أبا الفرج لم يرد تأريخ الأدب حتى عصره ، ولكنه رصد أشهر الأصوات والألحان والأشعار التي غناها المغنون . وهو يذكر الصوت والشعر المغنى ثم تناول صاحب الشعر بحديث مفصل يحقق فيه اسمه ونسبه وما اشتهر من أمره مستقصياً في الوقائع والأخبار شافعاً لها بشعر كثير ، ولا يخلي ذلك من نقد وتحقيق . فكانت خطته عظيمة النفع في الإحاطة بحظ عظيم من شعر الحبس فقدمت منه نصيباً موفوراً ، وأرشدت إلى مصادره وأشارت إلى حجمه في إنتاج الشاعر ، وحققت بعضه بالمقابلة بين الروايات المتعددة للقصيدة الواحدة .

ومن يقرأ في الأغاني أحاديث الشعراء الذين دخلوا الحبوس يعلم أن الأصفهاني اطلع على شعرهم كله في تلك المحنة ، وكان ينقل من الدواوين ومجموعات أشعار القبائل نقلاً مباشراً . وكان يختار الكثير ولا يستوفي كل ما نظم

---

(١) انظر ص ٤٢٣ .

الشاعر في الحبس ، ويكتفي بالتنبيه إلى مقدار النظم[1] .

والفضل في تفصيل الأخبار بقصائد تامة أو قريب من التامة مرجعه إلى ذوقه ، وكان له الدليل فيما استكثر وفيما أغفل . فلو نظرنا ـ مثلاً ـ في حديث الشاعر الثائر عبد الله بن الحجاج[2] وجدناه يقتبس من القصيدة التي نظمها في حبس بني أمية بدمشق ساخطاً عليهم ، فيقتبس من المطلع بضعة أبيات ثم يقطع فيذكر الشعر في حادثة الحبس[3] . ومطلع القصيدة غزل خالص فاختاره استحساناً وضمنه كتابه الذي أراد له أن يحوي أنفس الشعر وأجمله . ولولا أن سرح ذوقه يرعى ما شاء لفقد من شعر المحبوس حظ ضخم .

ولم يكن تحقيق أبي الفرج الشعر دون ذوقه نفعاً . وكان كثيراً ما ينقل من نسختين لديوان الشاعر فيقابل بين الروايتين ذاكراً كلتيهما ثم يخرج برأيه . ولما ساق أخبار جعفر بن علبة وما كابد من الحبس كان بين يديه ثلاث نسخ من ديوانه إحداها رواها أبو عمرو الشيباني ، وصنع الثانية النضر بن حديد والثالثة ابن الأعرابي[4] . ومن كل أخذ الاصفهاني فقابل وحقق الأبيات والألفاظ ورفع وهم الاختلاط بين قصيدتين في رواية النضر اتفقتا في الغرض والبحر والقافية ، واختلفتا في الروي ، فظنهما النضر قصيدة واحدة[5] .

هذا نهج أبي الفرج في أحاديث شعرائه جميعاً ، قد عاد بالبركة على شعر

---

(١) أوردنا بعض التنبيهات في ص ٣٩٠ .

(٢) انظر الأغاني : ١٢/ ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) جاء في المصدر نفسه : « فأخذ من دار أحيح ، فأتى به الوليد فحبسه ، فقال وهو في الحبس :

أقول وذاك فرط الشوق مني ... لعيني إذ نأت ظمياء فيضي

وبعد أربعة أبيات استأنف أبو الفرج قوله : « يقول فيها« . . . . » وذكر ابياتاً في التعريض ببني أمية .

(٤) انظر الأغاني : ١١/ ١٤٣ ـ ١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه : ١١/ ١٤٦ .

الحبس فحفظ من مادته ما عزّ وجوده في غير الأغاني ، وجاء على نحو يرضي الذوق وتاريخ الأدب . ولا يدانيه في المشرق والمغرب كتاب في غناه ونفعه فيما نحن بصدده ، على أن أدباء في المغرب مثل الفتح بن خاقان والمقري تنبها إلى أشعار السجن واستجادا منها ما حسن وعلا .

ويشهد كتابا الفتح : مطمح الأنفس وقلائد العقيان أن الرجل كان يستعذب إنتاج السجناء ويتتبعه وينتخب أنفسه . وتميز عن الأصفهاني أنه كثيراً ما يختار للشاعر قصيدة طويلة تامة من حبسياته . وقد يكتفي بها عما سواها إذ هي في تقديره خير ما قال في الحبس[1] . وقد يزيد عليها فيورد بضع قصائد[2] . ومما يحمد له أنه كان احياناً يحصي ما نظمه الشاعر في السجن ويقيد مطالع القصائد ومناسبتها[3] . ويشهد هذا النهج أن الفتح كان يحس أن لأدب السجن كياناً خاصاً إن لم تسمح كتبه بإيراده كله فقد اكتفى منه بالنفيس وبالإشارة الى كثيره . ولا يخفى ما لهذا النهج من عون في تقدير كمية شعر الحبوس .

ويحسن التنبيه على ان الاكتفاء بالقصيدة الواحدة المشهورة أو المستملحة للحبيس قد أغفل الكثير من أشعاره في السجن كما ينص المؤلفون أنفسهم ، وقد أجمع صاحب المطمح وغيره على أن الشاعر الكاتب عبد الملك بن إدريس الجزيري له شعر كثير في وصف حاله في الحبس ، وكان المنصور ابن أبي عامر ثم ابنه المظفر من بعده أطالا حبسه حتى مات ، فرأى المؤلفون أن قصيدته الرائية التي وصف فيها معتقله ببرج طرطوشة وهمومه ونصائحه ووصاياه لابنه رأوها مجزئة عن سائر ما نظم في السجن ، وأوردها بعضهم بتمامها[4] ، وقل

(١) انظر المطمح : ص ٢٠ ، قصيدة ابن « شهيد الأندلسي : « قريب بمحتل الهوان مجيد » .

(٢) انظر المعتمد بن عباد في قلائد العقيان : ١٠٣ ـ ١١١ .

(٣) انظر مطالع قصائد ابن زيدون في الحبس في قلائد العقيان : ٨٤ .

(٤) انظر البغية للضبي : ص ٣٦٢ ، فهرست ابن خير : ٤١٠ .

مثل ذلك فيمن انتخب من غيرها [1] .

ويقال في لسان الدين بن الخطيب مثل ذاك ، ولم يتداول الأدباء من شعره الكثير في الحبس غير قصيدة بليغة من ثمانية أبيات [2] . فإن كان سوق القصيدة كاملة نافعاً فإغفال بقية الشعر خسارة كبيرة .

ونجد المقري يجنح الى تضمين كتابه نفح الطيب كثيراً من شعر السجن ، وقد يحتذي حذو ابن خاقان في استتمام القصيدة او انتخاب كثيرها ، وبخاصة ما يصف أحوال الشاعر الحبيس ، ولكنه يتكيء على الفتح في اختياره ، وكأنما فرض الفتح ذوقه على المقري ، فكفاه مؤونة الاختيار ، وترك له الانتقاء من مختاراته ، ولذلك يعتبر الأصفهاني والفتح بن خاقان خير من أحسن النظر في أشعار السجناء وساق منها قطعاً طوالاً وقصاراً .

ولو احتفل غيرهما احتفالهما بهذا الضرب من الأدب لتجمع محصول أوفر . وكثير من المؤلفين كان اختيارهم أشبه بالاستشهاد في القلة إما لضعف العناية بشعر السجن أو لاتجاههم الى الاستكثار من أعداد الشعراء مع الإيجاز في الترجمة والاختيار . وبنى ابن سعيد كتابه المغرب في حلى المغرب على هذه الخطة ، وهو يقدم البيتين وبضعة الأبيات وفاق ذوقه وميوله الفنية [4] ، ولذلك ينص حيناً على حبس الشاعر ولا يذكر قولاً فيه ، ويستملح من المعاني

---

(١) انظر المغرب في حلى المغرب : ١/٣٢١ .

(٢) نفح الطيب : ٧/٣٩ ، وتاريخ ابن خلدون : ٧/٣٣٢ .

(٣) انظر الشاعر الرمادي يوسف بن هارون في نفح الطيب : ٤/٣٦ ـ ٤٠ .

(٤) ذكر من شعراء طليطلة أبا حامد الحسين بن علي « وقد كبا به فرسه ، فحصل في أسر العدو » واختار له قوله في أسره :

وكنت أعد طرفي للرزايا ... يخلصني إذا جعلت تحوم
فأصبح للعدا عوناً لأني ... أطلت عناءه فأنا الملوم

(المغرب : ٢/٢٨) ولا شك اختار البيتين لطرافة المعنى .

ما جاء في أغراض أخرى [١] ، وإن سياقه الأخبار لتوميء أن وراء الاستشهاد الضئيل او الإعراض عنه قصائد أو مقطعات كثيرة لم يبق لها اليوم مرجع معروف .

الجمـــع :

وكان العلماء الذين صنعوا دواوين الشعراء وأشعار القبائل يشيرون الى ما نظم في السجن والأسر منها ، فإحصاؤها يسير فيما طبع منها ، ولكن بعض الشعراء العباسيين لم تظفر دواوينهم بمثل هذه العناية ، ولذلك ثمة صعوبة في تعيين القصائد الصادرة من السجن ، فلو فتشنا ديوان الطغرائي وجدناه غفلاً من الإشارة إلى قصائد الحبس ، مع أن كتب التراجم ذكرت ما جرى له من الاتهام والسجن والقتل [٢] ، وبعض شعره يصرح بذلك [٣] ، وليس في حديث الأدباء عنه من الشعر ما يعين القصائد في الديوان ، وما ذكره ياقوت في هذا الغرض أربعة أبيات ليست في ديوانه [٤] ، ومن الواجب استخدام الباحث مقاييسه ـ مع الحذر ـ لاستخراج تلك القصائد ، وبعضها ظاهر الدلالة على أن صاحبها نظمها في محنة خانقة لا يستطيع فيها أن يتقدم أو يتأخر ، ويرجح أنها محنة الحبس (ص ٦٣ و ٦٩) ، والحيرة شديدة عند بعضها الآخر كالقصيدة في صفحة (٧٣) التي وصف فيها الشاعر احتماله وتجاريبه وتنكر الأيام له ، وهي كغيرها لا بيت فيها ينص على ان الشاعر كان في سجن ، ولذلك إن رجح الباحث أن هذه القصيدة أو تلك من عمل الحبس فإن ما يخشاه أن يكون نظمها في ظل النكبة خارج السجن وهو منكوب مراقب مضطهد ، والمعروف ان الطغرائي أطلق بعد

---

(١) انظر ترجمة مؤمن بن سعيد : ١٣٢/١ والشريف الطليق : ١٨٦/١ والأديب أحمد بن فرج الجيائي : ٥٦/٢ .

(٢) انظر ترجمة في معجم الأدباء : ٥٢/٤ .

(٣) قال من قصيدة يمدح مؤيد الملك بن نظام :

ألم ألق فيك الأسر وهو مبرح ‏ ‏ ‏ ‏ وألتذ طعم الموت وهو زؤام

(٤) معجم الأدباء : ٥٢/٤ .

أسره فترة وجيزة ثم أخذ وقتل بعد أن بهته السلطان بتهمة الزندقة بهتاناً .

ويرد مثل هذا التساؤل والشك في بائية ابن المعتز [١] ، ولم ينص الديوان على نظمها في السجن ، والراجح ان الشاعر قالها في حبسه الأول [٢] .

وبعد ، فقد تبين أن ما جعل شعر السجن كثيراً قليلاً معاً هو جملة من الأسباب السياسية والدينية والذاتية والجغرافية والتاريخية بالإضافة الى السبب الفني المتمثل في مناهج المصنفين والمؤلفين في الاستشهاد والاختيار والجمع .

ومن الممكن من خلال ما تقدم من الأدلة والأمثلة والتعليل تصور حجم الشعر الذي نظمه الأسرى والمحبوسون في تاريخ الأدب العربي إبان ماضي عصوره ، وهو تصور لا ينتهي إلى تقدير كمي نهائي ولكن إلى تقدير ظني .

وإن اختفى منه الكثير النفيس فيما تبقى منه نفيس غير قليل ، وهو كاف في بيان أغراض هذا الشعر واتجاهاته وخصائصه ، وهو العمل في تمام هذا الكتاب بعد أن يلم بما دخل على هذا الصنف من الشعر من المنحول والموضوع إلمامة سريعة .

الموضوع والمنحول في شعر الأسر والسجن :

الوضع والنحل في أدب العرب القديم مسألة تنبه ونبه لها القدماء [٣] . وحازت من بعض المستشرقين والباحثين المحدثين اهتماماً كبيراً ، فشهد الربع

---

(١) ومطلعها :

من يذود الهموم عن مكروب   مستكين لحادثات الخطوب

ديوان ابن المعتز : ٢/ ٧٠ .

(٢) انظر من البحث ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢ .

(٣) انظر طبقات ابن سلام : ٥ ـ ٨ ، والعقد الفريد : ٥/ ٣٠٧ .

الثاني من هذا القرن نشاطاً أدبياً نقدياً دفع إليه طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » بما أبدى من شكوك وأطلق من تساؤلات حول حقيقة هذا الشعر . فثارت إليه ردود عدة تصدت لآرائه في عدد من الكتب [١] .

وبعد هدوء العاصفة بسقت ثمرة ذاك الشك ودحضه في دراسة موضوعية تتبعت الحقائق التاريخية على تثبت واستقصاء ، وكشف طرق الرواية الأدبية وأخذت الرواة بالجرح والتعديل صنع رجال الحديث ، كل ذلك في إطار الدوافع والبواعث والمقارنة التاريخية حتى تبدت الى حد واضح أسس تمييز الصحيح من المنحول . تلك الدراسة التي قدمها ناصر الدين الأسد هي موضوع كتابه : « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » [٢] .

وليست النية استئناف الخوض في هذا الموضوع إذ سبق الآخرون إلى قديمه ، وليست صلته بالبحث ذات خطر كبير يعرض حقيقته لشك واسع ، ولكن الوضع تسرب إلى جانب من شعر الأسر والسجن ، وهو جانب ضئيل بالقياس إلى حجمه الضخم ، ومن الميسور الدلالة على مقداره المعدود من القصائد والمقطعات في مواضعها ، ولكن وجب بيانها في إطارها التاريخي وفاء للبحث واستبانة للحقائق على يقين .

دواعي الوضع والنحل : العصبية والقبلية :

وأقوى الدواعي لوضع هذا الشعر العصبية والقبلية والقصص والأخبار وسبق البحث على جانب من التفصيل في دور العصبية القبلية في زج الشعراء في الحبوس [٣] ، والقصد في هذا الحيّز هو الكشف عن أثرها في اختلاق شعر

(١) مثل كتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلي » لمحمد فريد وجدي ، وكتاب « الشهاب الراصد » لمحمد لطفي جمعة ، وكتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد خضر حسين ، وكتاب « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » لمحمد أحمد الغمراوي ، وغيرها .

(٢) دار المعارف ، مصر ١٩٦٢ .

(٣) انظر البحث : ص ١٤٧ .

زعموا انه قيل في الأسر والحبس .

ومعظم هذا الشعر من إرث الجاهلية وأخبارها ، دعت إليه حاجة القبائل الى الاستزادة من مكارم أسيادهم وأشرافهم السابقين ومآثرهم عندما راجعت ماضيها في الإسلام ، فاستكثرت ما شاءت من ادعاءات المجد والسؤدد ، ووضعت من الأخبار والأشعار وفاء هذه الرغبة ما يملأ في نفوسها جانب الفخار وما تقدمه بين يدي نزعاتها وأوطارها السياسية ، فاستعانت بتضخيم ماضيها على تأسيس حاضرها في الإسلام في حومة الصراع القبلي إبان العصر الأموي خاصة .

وكان استنقاذ الأسرى وفك السجناء في ذروة المكارم ، لا يستطيعه إلا بطل مغوار أو سيد شريف لا يرد له طلب (١) ، فنسجت بعض القصص لهذا الغرض ووضعت لها الأشعار ، وبنيت كلها على نسق متشابه : وهو أن يكون الأسير او الأسرى في يأس من النجاة والبقاء ، فينشد أحدهم شعراً يستغيث به بسيد من الأسياد متمنياً لو أسمع مقالته . وتشاء المفاجآت او الظروف أن يصل الشعر الى الرجل ، فيهب لاستخلاص الأسير إما بسيفه وإما بوجاهته .

وأوجز هذه القصص لا يخفى فيها الوضع خبراً وشعراً ، من ذلك ما رواه ابن الشجري في حماسته نقلاً عن الأغاني ، قال (٢) « ذكروا أن عمرو بن معد يكرب خرج في خيل من زبيد يريد غطفان ، فبينا هو يسير وقد انفرد من أصحابه في ليلة باردة إذ سمع رجلاً يقول :

أما من فتى لا يخاف العطب ... يبلغ عمرو بن معد يكرب
بأنا منوطون في مازن ... بأرجلنا مثل نوط القرب
فإن هو لم يأتنا مصرخا ... فيكشف عنا ظلام الكرب
وإلا استغثنا بعبد المدان ... وعبد المدان لها إن طلب

(١) انظر افتكاك الأسرى في هذا البحث ص ٥١ ـ ٥٤ .
(٢) حماسة ابن الشجري : ١٢ .

ثم نادى : يا عمراه ، فعلم عمرو أنه أسير في بني مازن بن صعصعة ، فقال لأصحابه : مكانكم ، واقتحم على القوم وحده فإذا هم يصطلون ، فقال : أنا أبو ثور ، فبادر القوم إليه يقاتلونه ، فلم يزل يقاتلهم حتى استعفوه، وقالوا: إنا لله، والله إنا نعلم أنك لم تأتنا وحدك، ففك الأسرى واكفف عنا خيلك ، ففعل ثم قال للأسرى : هل علمتم موضعي حين أنشد منشدكم ما سمعت ، قالوا : لا والله ، وما أمسينا منذ أسرنا أشد يأساً من الحياة وإيقاناً بالهلاك من الليلة . وفي ذلك يقول عمرو . . » .

والخبر جلي ان الدافع الى وضعه ما كان من منافسة في الإسلام على سابقة زعامة الجاهلية وشرفها بين حيين من اليمن هما رهطا عبد المدان ومعد يكرب .

وكانت الأخبار والأشعار يوضع بعضها على بعض ، ففي الأغاني خبر آخر ينسب ليزيد بن عبد المدان من المكرمة ما نسب لعمرو بن معد يكرب ، وهو حديث رجل من جذام سجنه ابن جفنة وأقسم على قتله ، فنظم شعراً يستصرخ به أياً قدر على تخليصه ، فسمع يزيد بن عبد المدان الشعر ـ وكان وافداً على ملوك الشام ـ فدخل على ابن جفنة واستوهبه إياه ، فوهبه له ، وقال : « ما كانت يميني لتفي إلا بقتله أو هبته لرجل من بني الديان ، فإن يميني كانت على هذين الأمرين ، فعظم يزيد في عين أهل الشام ونبه ذكره وشرف »(١) .

والغرض السياسي بيّن في الخبرين ، وأسماء الأسرى لا تذكر في مثل هذه الأخبار ، فتضعف قيمتها ويرجح الوضع فيها على الحقيقة .

وثمة أخبار دلالتها السياسية أظهر مثل حديث قيسبة بن كلثوم السكوني ، وكان ملكاً في قومه ، فأراد في الجاهلية الحج ، فوثب عليه بنو عامر بن عقيل ، فأسروه وخفي خبره على قومه ، وبعد ثلاث سنين استطاع ان يرسل شعراً إلى

---

(١) الأغاني : ١٠/١٤٠ .

أخيه الجون مع الشاعر الصعلوك أبي الطمحان القيني ، كتبه على قتب رحله بالخط المسماري [1] .

ورغب أخوه في معونة ابن عمه قيس بن معد يكرب ، فشرط عليه قيس أن يسير تحت لوائه فأبى ثم رضخ ، « وسار الجون معه تحت لوائه وكندة والسكون معه ، فهو أول يوم اجتمعت فيه السكون وكندة لقيس ، وبه أدرك الشرف ، فسار حتى أوقع بعامر بن عقيل ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستنقذ قيسبة » [2] .

وقد تكون وراء هذا الخبر وأمثاله حقيقة من حقائق التاريخ ، ولكن العصبية القبلية وجهته الوجهة التي شاءت ، وهي تسويد قيس بن معد يكرب على كندة والسكون في الجاهلية ، ويرجح في الأبيات المروية لقيسبة في أسره أن تكون موضوعة ، فكيف يتسع قتب الرجل لخمسة أبيات بالخط المسماري ، وان كان قيسبة كتب شيئاً فغير هذا الشعر او بعضه مثل البيتين في أوله [3] ، والنظر فيه يدل على أن بين أوله وباقيه اختلال وهو أحرى أن يكون بقية من قصيدة أطول نظمها قيسبة في أسره إن كان قيسبة قال شعراً في الأسر .

النحل والوضع في أشعار الفحول :

ويتصل بالعصبية القبلية مظهر آخر من مظاهر النحل هو ما أضافته القبائل لبعض الفحول من شعرائها الجاهليين الذين عفا القدم على كثير من شعرهم ، فرغبت أن تضعهم في طبقة المكثرين فنحلتهم شعراً كثيراً شكا منه النقاد الأوائل

---

(١) الأغاني : ١١/١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١١/١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٣) وهما :

بلغا كندة الملوك جميعا ... حيث سارت بالأكرمين الجمال

ان ردوا العين بالخميس عجالا ... واصدروا عنه والروايا ثقال

المصدر نفسه .

وأكثروا الشك فيما نسب إلى أولئك الشعراء (١) .

ضادية طـرفة :

ومن هؤلاء الفحول طرفة بن العبد ، ولا قصد الى تمييز صحيح شعره من منحوله ، وهو مطلب تحاماه الرواة والنقـاد القدماء ، ولكن يقتصر على ما نظمه في السجن ، ومـوطن الشك هـو قصيدتـه الضـاديـة وهي كبـرى قصـائـده في حبسه (٢) ، وعدتها ثمانية وخمسون بيتاً ، وهي بتمامها في ديوانه الذي أخرجه ماكس سلفسون في فرنسا في أول سنة من القرن العشرين . والديـوان بروايـة الأعلم الشنتمري وشرحه ، وأضاف إليـه ماكس قـطعة من الأشعـار « لم يسبق طبعها مأخوذة من نسخ موجودة في الجزائر وبرلين ولوندرة وليدن » (٣) .

والقصيدة الضادية من القطعة المضافة الى الديوان ، وهي الأصل الوحيد الذي جاءت فيه القصيدة كـاملة في شكلها الأخير ، وهي لا تشير الى أصـل مشرقي ، غير أن أصولها المشرقية متوفرة على حال من التشتت والاضطراب ، وقد تفرقت بعض أبياتها في كتب اللغة والأدب والبلدان (٤) مما يبعث الاطمئنان الى بعضها على الأقل ، والحق ان الرواة الثقات عرفوها فكان لهم نحوها تحفظ كثير ، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أن المفضل الضبي الكوفي كان ينكرها وأن الأصمعي البصري لم يثبتها في شعر طرفة ، فاتفق رأسا مدرستي الكوفة والبصرة في الرواية على تضعيف هذه القصيدة . ولذلك أحجم الأعلم الشنتمـري عن إثبات القصيدة في ديوان الشاعر ، وفي الجانب الآخر كان الجـاحظ يراهـا من الشعر الجيد (٦) ، وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى القصيدة ، وتدل روايته على

(١) طبقات ابن سلام : ٢٣ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد : ١٣٧ ـ ١٤٣ ، الطبعة الفرنساوية ١٩٠٠ م .

(٣) ديوان طرفة : الغلاف .

(٤) معجم البلدان : اسبذ .

(٥) شرح ديوان طرفة بن العبد : ص ٤٧ ، أحمد بن أمين الشنقيطي ، مصر ١٩٠٩ .

(٦) قال الجاحظ : ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث ، فإن قسنا =

أن عالماً كبيراً على الأقل جعل القصيدة في عداد شعر طرفة ، وأورد أحمد بن أمين الشنقيطي القصيدة برواية أبي عبيدة فكانت عدتها ثلاثة وعشرين بيتاً ، فنقصت خمسة وثلاثين بيتاً من النسخة المضافة الى الديوان ، وهو فرق كبير ، ولا شك أن رواية هذه القصيدة في القرن الهجري الثاني كانت تختلف ترتيباً وعدد أبيات بين راو وآخر ، وهذا التفاوت والاضطراب حمل المفضل والأصمعي على إنكارها ، وهو إنكار ينصب على عدتها لا على أصل حقيقتها ، ولم يشأ أي منهما النظر في صميمها ومنحولها فأعرض عنها ، ويتراءى أن ما أحجم عنه الضبي والأصمعي أقدم عليه أبو عبيدة ، فتنخل منها حسب مقاييسه النقدية ثلاثة وعشرين بيتاً ، والأرجح أنه انتهى الى صواب كثير ، فلو عرضت القصيدة في أبياتها الثمانية والخمسين لوجد في كثير منها لين ظاهر وإسفاف وجفاف رونق مما لا يوافق ما عرف به من شعر طرفة من فخامة وشدة أسر ، ولكن بعضها شديد الصلة بروحه وأسلوبه لو تنخل لاختير منها عشرون ونيف موافقة لاختيار أبي عبيدة .

يائية عبد يغوث :

وزيد في أشعار محبسين آخرين مثل عدي بن زيد ، وفي شعره دخل الصحيح في المنحول وتوقف النقاد عند تخليصه [٢] ، وفي قصيدة الأسير عبد يغوث بن صلاءة الحارثي اليمني زيادة بمقدار الثلث [٣] ، وهي في المفضليات عشرون بيتاً . ووقف الأصمعي في روايتها عند البيت الثاني عشر ، ولم يصح له منها غير هذا القدر [٤] ، وقد يفترض أن اختلاف مصادر الرواية

= جودة اشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما ، فلم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية « البيان والتبيين : ٢٦٨/٢ والحيوان : ١٥٧/٧ » .

(١) ص ٤٧ .

(٢) طبقات ابن سلام : ١١٧ .

(٣) انظر المفضليات : ٣١٥ شرح ابن الانباري . ط . الآباء اليسوعيين .

(٤) المصدر نفسه : ٣١٧ : قال الأصمعي : إلى ههنا سمعت (البيت ١٢) ولم أسمع بقيتها .

وطرقها بين مدرستي الكوفة والبصرة سبب للخلاف في عدد الأبيات [1] ، وإذا صح هذا الافتراض في بعض القصائد فإن النقد الموضوعي يأباه في قصيدة عبد يغوث ، ويرجح وضع ثمانية أبيات زيدت في نهايتها ، فقد نظم الأسير قصيدته بين أعدائه ، وهم رواتها بعد أن قتلوه ، وليسوا من الغفلة أن يرووا ما يسيء الى سمعتهم ، وهو في البيت الثالث عشر يعرض بنسائهم وميلهن الى الفاحشة [2] ، ولا شك ان العصبية اليمنية أضافت مثل هذا الشعر الى أصل القصيدة تغييظاً لبني تميم الذين يفخرون بأسره وقتله .

عصبيات أخرى

القصيدة المنسوبة إلى خبيب بن عدي :

ودفعت عصبيات غير قبلية دينية أو مذهبية إلى وضع الشعر .

ومما وضعته العصبية الدينية شعر منسوب للصحابي خبيب بن عدي وهو أسير يوم أجمعت قريش على صلبه . وهو عشرة أبيات ذكرها ابن إسحاق [3] . وأوردها ابن هشام بعد عبارة تنص على الشك نصاً هي « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له » . وليس في العبارة إجماع من أهل العلم على إنكارها بل شك وإنكار من بعضهم . ولأهل العلم مبرراتهم وأدلتهم . ولم يذكر ابن هشام شيئاً منها . وسكت السهيلي عن هذا الأمر فلم يثبت ولم ينف [4] . ولم يشرح منها لفظاً على حين شرح مارثي به خبيب . ولعل أقوى ما تذرع به العلماء المنكرون أن شعراً غير هذا لم يعرف لخبيب . وهو مبرر للرفض له وجاهته . ولعل الذين توقفوا عن الرفض لهم معاذير أرجحها ما تمتاز به القصيدة من جزالة وحرارة . فالتحقق التاريخي ـ السند ـ يشكك في نسبتها لخبيب ، والبناء الفني ـ

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية : ٤٧٧ .

(٢) قال :

وظل نساء الحي حولي ـ رُكّداً ... يراودن مني ما تريد نسائيا

(٣) سيرة ابن هشام : ٢/ ١٧٦ .

(٤) الروض الأنف : ٢/ ١٧٠ .

المتن ـ يبعث على القبول الحذر أو التوقف في أمرها كما هو موقف السهيلي .

ولا يكتفى بالبناء الفني وحده دليلاً في زمن تمرس فيه الرواة بصناعة الشعر ومحاكاة السابقين حتى حاز بعضهم في القرن الهجري الثاني قدرة عليا في هذا الفن(١) . ويزيد في اللبس أن الذين ينحلون شعرهم للرجل في مثل هذا الموقف تربطهم به وشيجة عاطفية أساسها وحدة العقيدة ، ولذلك يخرج الشعر حاراً . وهذا ما يدفع إلى الظن أن يكون ناظم هذه القصيدة من المسلمين المتسترين على إيمانهم في مكة ، وكان يخشى على نفسه إن رثي خبيباً فنظمها على لسانه ونسبها اليه .

وفي القرآن ما يدل على كثرة هؤلاء المتسترين حتى عام الفتح(٢) . ومن ينظر في السيرة يعلم أن بعض مسلمي مكة كان ينظم الشعر فينسبه إلى الجن خوفاً من التبعة والأذى(٣) . فإن لم يكن قائل القصيدة من معاصري خبيب فلعله من أهل الدراية بالشعر في زمنٍ لا يكاد يجاوز المئة الأولى والله أعلم على كل حال .

الشعر المنسوب الى الحلاج :

ومما وضعته عصبية المذهب الشعر المنسوب إلى أبي منصور الحلاج .

وتقدم بسطٌ لحديث في ظروف سجنه وقتله(٤) . وينسب إليه في سجنه قصيدة ومقطوعتان على الأقل(٥) . ولا يؤخذ هذا الشعر إلا بحذر أدنى إلى الارتياب . ويقوي الريبة أن هذا الشعر قيل بعضه في الليلة التي قتل في

---

(١) انظر الأغاني (دار الكتب) ٦/ ٨٨ ـ ٩٠ ومقدمة المفضليات : ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) انظر سورة الفتح : ٢٥ .

(٣) انظر ابن هشام : ١/ ٤٨٧ .

(٤) انظر البحث ص ٣٦٠ .

(٥) انظر ماسينيون : أخبار الحلاج : ١١ و ٥٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية : ١١/ ١٣٩ ـ ١٤٣ .

صبيحتها الحلاج . وبعضه وهو يقدم إلى القتل ، وزعم من رواه أن الحلاج قام في تلك الليلة يناجي ربه . وذكر المناجاة كلها في كلام طويل من عبارات الصوفية[1] . وجاءت القصيدة في عقب المناجاة وهل يُصدق أن كان رفيق للحلاج ومعين في تلك الليلة الرهيبة ، إنه من المستبعد ، وهو رجل ذو خطر ، أن تأذن له السلطة برفقة . ولو أذنت فالمناجاة أطول من أن تستوعبها الذاكرة لأول مرة . والقصيدة في أعقابها رثاء لنفسه ، ولا تشبه حديث الذات ولا رثاء النفس للنفس . إنما هي تمجيد وتقديس لها[2] . والأرجح أن تكون من رثاء الآخرين له . والمقطوعتان تناقضان القصيدة روحاً وبناء . وفي إحداهما اعتراف بالطمع في سلطان الدنيا ، وفي الثانية كفر صريح[3] . ويحمل هذا التناقض على رفض الشعر كله : فالأولى من وضع مريديه ، والثانية من صنع خصومه . ولم يشتهر الرجل بشعر ، ولم يؤثر له إلا قليله . ولعله ما قال شعراً قط وهو حديث عهد بالعربية والإسلام[4] .

والولاء طرف من العصبية . ولكنها عصبية ضيقة المجال محصورة في إخلاص شاعر لفرد أو لأسرة ، فيحمله الحب والإخلاص على نحلهم شعره حباً وكرامة . والاسترفاد معروف بين الشعراء منذ القديم . وكان في العصور كلها ـ على ما يبدو من أقوال المؤرخين ـ من أسعف غيره بشعره نحلة[5] . وليس ثمة وقائع ثابتة تنص على أن شعراً نحله الطلقاء السجناء . ولكن بعض الأخبار

---

(١) المصدران نفسهما وابن الاثير : الكامل : ٦/ ١٦٧ .

(٢) البداية والنهاية : ١١/ ١٤١ ، انظر الشعر .

(٣) المصدر نفسه : ١١/ ١٤٢ ، انظر الشعر .

(٤) انظر ترجمة في الفهرست : ٢٨٣ وابن خلكان : ١/ ١٨١ . ومرآة الجنان : ٢/ ٢٥٣ . وأوسعها وأجمعها : تاريخ بغداد : ٨/ ١١٢ ـ ١٤٢ . وفي تاريخ بغداد (١٢٩) ومرآة الجنان (٢/ ٢٥٧) أخبار ترجح قول الشعر على الحلاج .

(٥) انظر ابن رشيق : العمدة : ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٧١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٣٤ .

توحي بظن راجح يجدر التنبيه له ـ من هذه الأخبار ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من انقطاع الشاعر الرقاشي إلى البرامكة . ثم ما كان من نكبتهم ومراسلتهم الرشيد بالأشعار . قال أبو الفرج : « كان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل برمك . مستغنياً بهم عمن سواهم . وكانوا يصولون به على الشعراء ، ويروون اولادهم شعره ، ويدونونها القليل والكثير منها تعصباً له وحفظاً لخدمته وتنويها باسمه وتحريكاً لنشاطه . فحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم، فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ثم رثاهم فأكثر من رثائهم »[1] .

وأورد ابن عبد ربه في العقد الفريد (٥/ ٦٨) رسالة نثرية من يحي بن خالد البرمكي إلى الرشيد ملأى بالاستعطاف ذيلها بقصيدة تنحو منحى غرض النثر . وقد نوه الأدباء ببلاغة البرامكة[2] ، فلا يصح القطع بأن مثل هذا الشعر من صنع الرقاشي . ولكن قيامه بخدمتهم في السجن تأذن بالظن ـ دون الشك ـ أن الشاعر قد يرغب في مثل ذاك الموقف في أن يخفف عن صاحبه مؤونة النظم وأن يسخر شاعريته في خدمته ، فيسعفه بما ينهض بحاجته . وفي العقد خبر آخر يزيد في رجمان هذا الظن (٥/ ٦٥) جاء فيه أن « الأمين محمد بن زبيدة ـ كان ـ رضيع يحيى بن جعفر فمت إليه يحيى بن خالد بذلك ، فوعده استيهاب أمه إياهم وتكلمها لهم ، ثم شغله اللهو عنهم . فكتب إليه يحيى ، ويقال إنها لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ، فيقول . . . الشعر » أفلا يستفاد من هذا الخبر أن غير شاعر كان يضع نفسه في خدمة البرامكة .

القصص والأخبار :

كان للقصاصين ورواة الأخبار يد طولى في اختلاف الأخبار والأشعار ،

---

(١) الأغاني : ١٥/ ٣٤ .

(٢) انظر العقد الفريد : ٥/ ٥٨ .

فنجدمن ذلك مادة كثيرة توفرت في كتب السيـر والمغازي وأيام العـرب وتراجم الشعراء وكان للعلمـاء القدمـاء تشكك فيهـا وإنكار لهـا[١] ، وللمحدثين بيـان وتعليل للدوافع إلى وضعهـا[٢] . والغرض هـو التنبيه على حظ أشعـار السجن منها ، وهو حظ حسن أصاب مَن الشعر الجاهلي وغيره .

ومـن الممكن النـظـر إلـى ذاك الشعر من جـوانب عـدة : فقـد تـوضـع الأقاصيص على الأشعار الصحيحة ، أو توضع الأشعار على الأخبار تأييـداً لها وتثبيتاً ، أو يتناول الوضع الخبر والشعر معاً .

أما الضرب الأول الذي وضعت فيه الأخبار على الأشعار فيتناول طائفة من الجاهليين والإسلاميين ، وهم شعراء كان لهم في حياتهم من الحوادث ما ساعد أصحاب القصص على توشيحهـا باختـلاقٍ كثير إرضـاء لجمهور العـامة ، ثم صارت أقاصيصهم المصدر الوحيد لأهل العلم والأدب .

ومن هؤلاء الشعراء الشنفرى ، وهـو صعلوك تنسب إليه جـرائم بطوليـة أشبه بالأساطير ، انحدرت إلى تاريخ الأدب من الخيال الشعبي الجاهلي . وهو رمز للفرد الشاذ في وجه القبيلة ، ينازل وحدة قبيلة حتى يعجزها ، فلا تقضي عليه إلا بعد أن يقتل منهم مئة رجل . ولا شـك أن مثل هـذا النموذج هـو من صنع الخيال والأبيات التي قالها في أسره وعند موته تنضح بالثـورة . والتمرد ، وفي تراكيبها قساوة الصحراء . ولكنه قدر ضئيل من شعره كان بأيـدي القصاصين ، فاختلقوا له من الحوادث ما يلائم الشعر[٣] .

ويبدو عمل القصاصين في ابتكار الحوادث وتصور المواقف أوضح فيمـا وضعوه حول الشاعر البدوي الأموي هدبة بن خشرم . وكان ارتكب جريمة قتل

---

(١) طبقات ابن سلام : ٨ ـ ٩ .

(٢) انظر مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العـرب : ٣٧٥ . ط . ١٩٤٠ . وطه حسين : في الشعر الجاهلي : ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٣) انظر الأغاني : ٢١ / ٨٧ ـ ٩٢ « وحماسة أبي تمام ـ بشرح التبريزي ـ : ٢ / ٢٣ ـ ٢٦ .

في قومه ، وسجن في المدينة ، واستؤني بن ثماني سنين حتى بلغ ولي المقتول الحلم ، ليقتل أو يعفو . وفي هذه السنين المديدة كان بين الرجاء والإبلاس ، ونظم فيها كثيراً من الشعر الحزين الرقيق ، فعطف إليه قلوب أهل المدينة ، وبذلوا من أجله الديات ، فلم يرض ولي الدم إلا القتل ، فقتل . وكانت هذه الحياة مادة مأساة حزينة للقصاصين رتع خيالهم فيها ما شاؤ وا . ومن ينظر فيما أورده أبو الفرج في الأغاني من أخباره وفي المواقف الثانوية من حياته وهو في السجن يعلم علم اليقين أن هذه الأخبار نسجها القصاصون ليصلوا بين قصائده وأشعاره بمناسبات ترضي أذواق الناس وتمتعهم[1] .

وقد تعود الإخباريون ـ على ما يبدو ـ أن يوفروا مثل هذه المناسبات الخيالية لتوضيح الشعر في حلقات العامة . من ذلك أن مطلع قصيدة طرفة بن العبد في حبسه يبدأ بخطاب امرأة تسمى خولة :

ألا اعتزليني اليوم خولة أو غضي   فقد نزلت حرباء معضلة العض

فجاء في شرح الديوان : « وكان العبدي الذي احتبسه أرسل له بامرأة اسمها خولة ، فأبى أن يقبلها »[2] . والعجيب أن هذه الأوهام أصبحت جزءاً من تراث الأدب .

ومن هذا القبيل الأخبار حول أشعار سحيم عبد بني الحسحاس إذ نسجت حول بعض المقطعات والأبيات مشاهد كاملة[3] . وأخبار عبد يغوث بن صلاءة الحارثي فقد تنوعت الروايات في تصوير ساعته الأخيرة وهو ينشد قصيدته اليائية الوحيدة[4] .

(١) مثال ذلك : أراد القاص أن ينشد شعراً رثى به هدبة بن خشرم نفسه فجعله في الإطار التالي : « فلما مضى من السجن للقتل التفت فرأى امرأته ، وكانت من أجمل النساء ، فقال : . . . . » . وذكر خمسة أبيات في فضائله ومكارمه : الأغاني : ٢١ / ١٧٥ .

(٢) ديوان طرفة : شرح أحمد بن أمين الشنقيطي : ص ٤٧ مصر ١٩٠٩ .

(٣) انظر ديوان سحيم عبد بن الحسحاس : تحقيق الميمني : ص ٥٧ وما بعدها من الديوان .

(٤) انظر خزانة الأدب : ١/ ٣٧٠ وشعراء النصرانية : ١/ ٧٥ والأغاني ١٥/ ٧٢ .

والضرب الثاني وضعت فيه الأخبار والأشعار معاً . ومن أمثلته ما قيل في مقتل الشاعر القديم عبيد بن الأبرص ، وما أنشد من الشعر يوم لاقى المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه . والخبر والشعر أسطورة بلا مراء ، وضعه قصاص أديب يحسن صناعة الشعر والنثر . وليس هناك مؤيدات تاريخية في ديوانه أو غير ديوانه تشير إلى وفادته على آل لخم في الحيرة ، وهو أسدي من نجد كان مشغولاً بمعارضته آل حجر الكندي الحاكمين(١) . وقد ذهب بعض النقاد القدماء إلى إنكار شعر عبيد كله(٢) . .

وثمة رجال لا يشك في صحة كثير من أشعارهم لم يبرؤ وا من زيادات في أشعارهم وأخبارهم شأن أبي محجن الثقفي فشعره في حبسه مشهور ثابت . ولكن بطولة الرجل جعلت من مواقفه مثلاً مضروباً ، فزاد القصاصون فيها مبالغات كثيرة وأشعاراً لا تضارع ، تماسكاً وجزالة وطلاوة ، ما أثر عنه من شعر . فلا يلبث القاريء أن يتبين فيها الوضع لانحدار النظم إلى كلام حظه من الشعر الوزن(٣) .

وذلك النحل متعلق بشخصيات ذات وجود تاريخي ، ولكن قد يخترع القصاصون شخصيات لم يعرف لها وجود تاريخي إلا من خلال القصة . مثل خبر ساقه التنوخي في الفرج بعد الشدة عن شاب عاشق اسمه داود الطائي زعم أنه كان يهوى ابنة عم له اسمها وردة . فلقي النعمان في يوم بؤسه ، فخيره بين الحياة وبين أن يزوجه من ابنة عمه فيمتعه بها سبعة أيام ثم يقتله بعدها . فاختار الثانية . وأقبل على النعمان بعدسبعةأيام ينشده شاكراً مستميحاً إياه تمام

---

(١) انظر ديوان عبيد بن الأبرص : ١٣٦ تحقيق حسين نصار مصر ١٩٥٧ وخبر لقائه بالمنذر يوم بؤسه في : ص ٩٨ .

(٢) انظر طبقات ابن سلام : ١١٦ .

(٣) انظر من البحث ص ٣٣٠ .

(٤) انظر فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان للواقدي : ص ٢٧ مصر ١٨٩١ .

الجميل ، فأطلقه . والشعر إسلامي الديباجة ، والخبر من توليد الخيال لا شك[1] .

والضرب الثالث ما اقتصر فيه الوضع على الشعر ، وقد عرف بعضه فيما وضعته العصبية القبلية والدينية . ويضاف إليه ما اخترع حول حياة بعض الأسرى من الأحداث وما وضع على لسانهم من الأشعار . وقد استغل القصاصون شخصية ضرار بن الأزور الذي أسرته الروم فجعلوها مثلاً للأسير المسلم ، وصوروا فيها ما شاؤ وا من عواطفه وآلامه وما يتطلع إليه ، وما يتصف به من وفاء لدينه وأسرته ووطنه . وكان الجند يمتعهم مثل هذا الشعر في أسمارهم ، تثار به حماستهم ، وتسترضى مشاعرهم وأذواقهم . وصنعة القصاص في الشعر بارزة في جلاء في أسلوب القصّ وتطويل النظم والإكثار من عبارات المجاملة . ولا غرو أن ضراراً لم يقل هذا الشعر ، ولعله لم يكن صاحب شعر ، فإن ما نسبوه إليه لا يصح منه شيء لما فيه من الهذر والهلهلة والغثاثة وبرودة الخيال ، فهو صنعة قصاص قصير الباع في النظم[2] . وإذا صح ما ذكره الذهبي من أن ضراراً استشهد في وقعة أجنادين سنة (٣) للهجرة قبل سنتين من معركة اليرموك رجح ما تقدم[3] .

---

(١) الفرج بعد الشدة : ٢/ ٢٠٦ .

(٢) قال ضرار من قصيدة طويلة :

ألا أيها الشخصان بالله بلغا	سلامي إلى أهلي بمكة والحجر
تلقيتما ما عشتما ألف نعمة	بعز وإقبال يدوم مع النصر
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه	فقد خف عني ما وجدت من الضر
بصنعكما لي نلت خيراً وراحة	كذلك فعل الخير بين الورى يجري
وما بي وأيم الله موتي وإنما	تركت عجوزاً في المهامة والقفر
وكنت لها ركناً أعد رجاله	وأكرمها جهدي وإن مسني فقري
وأطعمها من صيد كفي أرانبا	من الوحش واليربوع والظبي والصقر

انظر الواقدي : فتوح الشام : ١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٣) سير اعلام النبلاء : ١/ ٢٢٨ .

وبعد ، قد تبين على سبيل الحصر ـ تقريباً ـ مواضع النحل والوضع في شعر الأسر والسجن ، وأسباب ذلك من مختلف العصبيات واختراع القصاص الخبر ليناسب الشعر ، أو الشعر ليوافق الخبر ، أو الشعر والخبر معاً . أو الزيادة في القصائد .

الفصل الرابع

أغراض شعر الأسر والسجن وخصائصه

يضم هذا الفصل الأخير من الكتاب مبحثين : الأول في أغراض شعر الأسر والسجن والثاني في أنواع النظم وخصائصه الأسلوبية .

ومعظم أغراض هذا الشعر يتناول الجوانب النفسية والعاطفية والفكرية للشعراء ووصفهم للحياة في السجون والمعتقلات . ويسجل مواقفهم من السلطان والتبادل ما بينهم وبين ذويهم وأقربائهم وما بينهم وبين أصدقائهم وكذلك يتناول فن الغزل وبعض الفنون التقليدية .

والمبحث الأول يعرض لهذه الأغراض بمقدار ما يظهر مداها ويوضح سماتها وأما المبحث الثاني فيفصل الحديث في أنواع الحبسيات وعناصر تركيبها وتأليفها ومزايا الفن والأسلوب .

الفَصْل الرَّابِع

المبحث الأول

أغراض شعر الأسر والسجن

- ١ -

الجوانب النفسية

تشمل الجوانب النفسية بيان مواقف الشعراء من السجن ومحنته ، وحديثهم عن همومهم وآلامهم ، ودخائل نفوسهم .

الموقف من السجن :

الحبس بين الحقيقة والتمويه :

تحدث الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن عن واقع الحبس وسبروا أغواره ، فكانت حقيقته لديهم ـ على اختلاف أزمنتهم وديارهم وأقدارهم ـ أنه محنة وبلاء وشقاء ، قال إبراهيم بن إسحاق الموصلي [١] .

ألا طال ليلي أراعي النجوم　　أعالج في الساق كبلا ثقيلا
بدار الهوان وشر الديار　　أسام به الخسف دهرا طويلا

وألمح بعضهم إلى أنه كيان فريد في خصائصه [٢] ، غريب كل الغرابة

(١) الأغاني : ٥/٥ . وكان في حبس هرون الرشيد .

(٢) قال ابن قتيبة : « وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء وتجربة الصديق ، وشماتة الأعداء » . عيون الأخبار : ١/٧٩ .

عن الحياة المألوفة ، ليس له وجه إلا النكد ، وليس له فعل إلا الإعنات [1] :

ألا أحـد يـدعـو لأهـل مـحـلة | مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كـأنهم لـم يعـرفـوا غيـر دارهم | ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى

ويوضح هذا الغرابة تصوير المفارقة المذهلة بين العالم الخارجي والحبس ، ووصف أثرها الهادم في النفس ، وما يعتري السجين أول دخوله من انقباض ورهب ورغبة نازعة إلى الهروب ، ثم ما يأخذه من اعتياد متدرج إذا هدأت حدة الصدمة . وتلك حقيقة نفسية ندت عفو الخاطر في بيتين لأحد الأعراب [2] :

ولـمـا دخلت السجن كبـر أهـله | وقالوا : أبـو ليلى الغداة حـزين
وفي الباب مكتوب على صفحاته | بـأنـك تـنـزو ثم سـوف تـلـين

وكانت آثار الغرابة والصدمة ترتسم في تعابير الوجوه ، رآها السمهري حين حبس :

بـمنـزلـة أمـا اللئيم فشـامـت | بهـا وكرام الناس باد شحوبهـا [3]

ومن ثم قرر ابن زيدون أن واقع السجن ظلم وظلام عقيم :

نـار بـغـي سـرت إلـى جنـة الأر | ض بياتا فأصبحت كـالصريم [4]

---

(١) المحاسن والأضداد : ٣٥ الجاحظ . غير معزوين لأحد . وفي هـذا المعنى ـ المصدر نفسه ـ أربعة أبيات لعبد الله بن معاوية بن أبي طالب ـ كما عزاها الجاحظ ـ أولها :

خـرجنا من الـدنيا ونحن من أهلها | فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا دخـل السجـان يـومـاً لحـاجـة | عجبنا وقلنا : جاء هذا من الـدنيا

(٢) عيون الأخبار : ١/ ٨٠ . قال ابن قتيبة : « ويقال : إن قولهم : « تنزو وتلين » رؤي مكتوباً على باب حبس ، فضرب مثلاً » .

(٣) الأشباه والنظائر : ٢/ ١٣٢ . للخالديين .

(٤) ديوان ابن زيدون : ص ٢٨٣ .

ويرصد انعكاس هذا الواقع في شكوى الشعراء والأشداء القساة منهم . وقد هرب القتال الكلابي ـ على انه كان قاتلاً محترفاً مطرداً ـ من الحبس في فجاج الأرض ، يشكو ملء صدره الألم ، بعد نفاذ صبره واحتماله [١] . وما أكثر صرخات الضجر والانهيار الحادة في أشعارهم [٢] .

وليس في تقرير الشعراء لهذه الحقيقة مغالاة ولا تهويل ، وإنما هو تسجيل خاطف لرجع صداها في نفوسهم . ولكن منهم من ذهب مذهباً آخر ، فأغمض عينيه عن سوءات الحبس ، وتكتم على آلامه عمداً ، وأظهر رضاه عن السجن ، واستحسن مزاياه . فزعم إبراهيم بن المدبر أن السجن دار كسائر الدور لا عار فيه ولا عذاب [٣] :

هو الحبس ما فيه علي غضاضة   وهل كان في حبس الخليفة من عار
وهل هو إلا منزل مثل منزلي   وبيت ودار مثل بيتي أو داري

وأبعد علي بن الجهم في التحسين إذ وجده بيت كرامة وصيانة ، وكان ـ فيما زعم ـ خيراً عنده من طرق أبواب السلاطين والتخضع للحجاب :

---

(١) انظر لاميته التي نظمها في فراره من الحبس ، وما يمور فيها من الألم . وفي مقدمة القصيدة الغزلية تعابير ترمز الى ما لقي من العناء :

أميم لقد حملت ما حمل امرؤ   وفي الصرم إحسان وإن لم يجمل

(ديوان القتال : ص ٣١) .

(٢) الشواهد كثيرة ، انظر على سبيل المثال حبسيات عدي بن زيد ، وروميات ابي فراس ، وقصيدة لعاصم بن محمد الكاتب ـ حبسه أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف ـ منها :

تمضي الليالي لا أذوق لرقدة   طعماً وكيف يذوق من لا يرقد
في مطبق فيه النهار مشاكل   لليل ، والظلماء فيه فرقد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد   وإلى متى هذا البلاء مجدد

(المحاسن والمساوىء : ٣٤٨/٢ للبيهقي) وهي (٣١) بيتاً .

(٣) الأغاني : ١١٦/١٩ ، وكان في حبس المتوكل .

والحبس ما لم تغشه لدنية شنعاء نعم المنزل المتودد
بيت يجدد للكريم كرامة ويزار فيه ، ولا يزور ، ويحمد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه لا يستذلك بالحجاب الأعبد (١)

وركب أبو إسحاق الصابي مركباً شططا في هذه الدعوى إذ جعل منه مثوى الأحرار ومعتصم الأشداء الأجلاء (٢) :

الحبس قصر لكل حر والقيد خلخال كل فحل
والخطب كالضيف لا تراه ينزل إلا على الأجل

ولا يحتاج التمويه إلى دليل في هذه الدعاوى ، ولم يصدق الشعراء أنفسهم في هذا الموقف المكابر وقد كانوا يتوسلون بكل سبب للخروج من الحبس ، ووراء هذا الموقف دوافع نفسية زينت لهم هذا الادعاء العريض المزخرف . وأوجز تعليل لتلك الدوافع أنها ردود فعل تعويضية عما يصاب به الشاعر من سقوط وهوان في منزل الذل والظلم ، فيسعى وقد خسر مكانته ، أن يوثق نفسه وأن يعيد إليها قيمتها واعتدادها . فيقابل الوقائع الصارخة بالادعاء الواهم ، ويضع التشامخ الرافع في مواجهة الذل الخافض ، والقوة في وجه الضعف ، إنه مسعى هادف للدفاع عن الذات في وجه العالم الخارجي الذي فصل بينه وبين الشاعر وقد بات عرضة للشماتة والصغار . ولذلك لبس بعض الشعراء لبدة الأسد ، وسل من ضعفه سيفاً باتراً يوعد به ويرهب من وراء الأسوار (٣) .

---

(١) الأغاني : ١٠٤/٩ . وكان الشاعر في حبس المتوكل .

(٢) ثمار القلوب : ٦٣٢ . وكان الصابي في حبس عضد الدولة بن بويه ببغداد .

(٣) وحدث ان أخرج علي بن الجهم من محبسه ، وصلب نهاراً كاملاً ثم رد إليه ، فلم تعرف نفسه مهانة أوجع ، ولكنه تحول في قرارة نفسه ليثاً ضارياً ، قال :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الاثنين مسبوقا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم شرفا ، وملء صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعة بنكوله وازدادت الأعداء عنه نكولا =

ويكاد الحنق يزلزل ببعض الشعراء أركان سجنه وهو يأخذ نفسه بالمكاتمة والمصابرة والتمويه الكاذب . قال إبراهيم بن المدبر [1] :

إن طال ليلي في الإسار فطالما أفنيت دهراً ليله متقاصر
والحبس يجمعني وفي أكنافه مني على الضراء ليث خادر
عجب له كيف التقت أبوابه والجود فيه والغمام الباكر
هلا تقطع او تصدع أو وهى فعذرته لكنه بي فاخر

ورائد هذه الطريقة الشاعر الأموي الأحوص الذي تشامخ على الذين حبسوه وشهروا به [2] وهي تتفرع من غرض واسع من أغراض الشعر عند العرب ، وهو الفخر . ولكن علي بن الجهم وإبراهيم بن المدبر توسعاً في هذا الفن من تحسين الحبس ومداهنة النفس . وانتهجها الشعراء من بعدهم واستفادوا من طريف معانيهم [3] . وأحرزت دالية ابن الجهم [4] شهرة في الأوساط الأدبية بما فيها من فرار من العار الى الفخار في موطن الهون

= هل كان إلا الليث يألف غيله فرأيته في محمل محمولا
لا يأمن الأعداء من شداته شدا يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن بز عنه لباسه فالسيف أهول ما يرى مسلولا

الأغاني : ١٠٢/٩ .

(١) الأغاني : ١١٥/١٩ .

(٢) انظر الخبر والشعر في الأغاني : ٤٤/٤ .

(٣) انظر ـ مثلاً ـ قول ابن زيدون :

لا يهنىء الشامت المرتاح خاطره أنّي معنى الأماني ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف بغير الشمس والقمر
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

ديوان ابن زيدون : ص ٢٥٤ . تحقيق علي عبد العظيم .

(٤) التي مطلعها :

قالوا : حبست ، فقلت : ليس بضائري حبسي ، وأي مهند لا يغمد

الأغاني : ١٠٤/٩ .

والإذلال ، وبما فيها من نفس قوية مكابرة ، فاستطرف الذوق الأدبي هذا الدفاع عن الحبس والمحبوسين ، واستحسنه المنكوبون والسجناء .

ولا مراء أن تمويه الواقع لا يغير حقيقته ولا يمحو أسواءه إلا فيما بين الشاعر ونفسه في لحظات يترضى فيها ذاته . ويبقى الإحساس بواقع الحبس أقوى من أي احتجاج أدبي طريف . ومن ثم لم يقبل بعض الشعراء هذا الطلاء المموه ، وحبذوا التصريح بالحقيقة ، على ما فيها من المرارة والأذى ، لما كانوا يجدون من ضغط السجن على صدورهم . فنقض محمد بن عاصم ، وهو في الحبس ، دالية علي بن الجهم بمثلها على بحرها ورويها ، فاعترف فيها من غير مداراة بأسواء الحبس وأقدار السجناء ، فكانت ردة فعل موازية للإنكار والاستعلاء . وتبدلت فيها صرخة الكبرياء بصوت حزين صاغر [١] :

قالوا : حبست ، فقلت خطب أنكد ... أنحى عليّ به الزمان المرصد
لو كنت حرا كان سربي مطلقا ... ما كنت أحبس عنوة وأقيد
لو كنت كالسيف المهند لم يكن ... وقت الكريهة والشدائد يغمد
لو كنت كالليث الهصور لما رعت ... في الذئاب وجذوتي تتوقد
من قال : إن الحبس بيت كرامة ... فمكاثر في قوله متجلد
ما الحبس إلا بيت كل مهانة ... ومذلة ومكاره لا تحمد

ومرد التباين بين الموقفين ، في مواجهة الحبس ، إلى التكوين الذاتي . فأما ابن الجهم وابن المدبر فكانا على قدر كبير من العنفوان والكبرياء الجريح ، ولكل منهما مكانته في المحافل الأدبية وفي القصر ، فاستمسكا بالتجلد والتعالي في وجه الشماتة . وأما محمد بن عاصم فكان كاتب ديوان مغموراً ، غاية أمله أن يفوز برضا مخدومه وصفحه ، ولم يذكر بغير معارضته لدالية ابن الجهم . ومن السهل رؤية الحقيقة سافرة في أبيات لأبي إسحاق الصابي أماط فيها اللثام عما تنتحله الذات من ادعاء عريض مراوغ وهي في قرارة المذلة والعجز

(١) المحاسن والمساوىء : ٢/ ٣٤٨ للبيهقي .

والبؤس فصارح نفسه والناس بما كانت نفسه عليه من الخوف والضعة ، في يوم كان يتوارى فيه ، ورجال السلطان يقصون أثره حتى سجنوه [١] .

ليس لي منجد على ما أقاسي — من كروبي سوى العليم السميع
دفتري مؤنسي وفكري سميري — ويدي خادمي ، وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطشي قريضي — ودوائي غيشي ، ودرجي ربيعي
أتعاطى شجاعة أدعيها — في القوافي لقلبي المصدوع
بمقال أعز من ليث غاب — وفعال أذل من يربوع
كلما هر في جواري هر — كاد يفضي إلى فؤادي المروع
وإذا اجتاز في السطوح فمن قبل قبوع الجرذان فيه قبوعي

والحق أن من ذهب في تحسين الحبس ومن أقر بأسوائه يلتقيان في الإحساس بواقع الحبس ، ويختلفان في التعبير عن ردة الفعل بين الحقيقة والتمويه .

الشعراء والمحنة :

ولا بد للشاعر من أن يتخذ من نكبة الحبس موقفاً فيصعد أو يهبط . فمنهم من تصاعد بنفسه والأزمة تعتصره ، ووقف للأعداء في إباء معجب ، وكثير من الشعراء ارتفع الى هذا السمت ، وهم لا يجحدون النكبة الفادحة ولكن يجحدون أن توهن عزائمهم وأن تلفتهم عن أهدافهم ، وفي شعر الأحوص نموذج للنفوس الشامخة [٢] .

فمن يك أمسىٰ سائلاً بشماتة — بما حل بي أو شامتاً غير سائل
فقد عجمت مني العواجم ماجدا — صبورا على عضات تلك التلاتل

---

(١) يتيمة الدهر : ٢/٢٦٨ .

(٢) الأغاني : ٥٤/٨ ، من قصيدة بعث بها من منفاه في الحبس الى عمر بن عبد العزيز . وانظر أيضاً في « الأغاني : ٤٤/٤ » أبياتاً في هذا المعنى .

إذا نـال لم يـفـرح، وليس لـنكبـة　　　إذا حـدثت بـالخـاضـع المتضـائـل

وكـان بعض الشعراء يلفـون أنفسهم في اختبار دقيق مـع الرجـولة [١] ، فصابروا العذاب ليخرجوا من المحنة منتصرين . وكان الموت عندهم هو الوهن والخنوع ، فانتزعوا الإعجاب بالثبات والتحدي . وغـدت مواقفهم وأقـوالهم مضرب المثل . وما في أبيات يزيد بن مفرغ الحميري التالية من الفخر أقل من التعذيب المبرح الذي تعرض له [٢] .

فصبـرنـا على مـواطن ضيق　　　وخـطوب تصيـر البيض سـودا
لا ذعرت السوام في وضح الصبح　　　مغيـرا ، ولا دعيت : يـزيـدا
يوم أعطي مخافة الموت ضيما　　　والمنـايا يـرصدنني أن أحيـدا

ووصف أكثر الشعراء نكبة الحبس بأنها عرض زائل لا ينال من جـوهر الإنسان ما سلمت له مقومات المروءة والكرامة [٣] .

ويـرافق هذا المـوقف موقف شبيه به يستـولي على الشاعـر فيـه شعـور بالاضطهاد من قبل القوى الخارجية . ويعاني منه ذوو النفوس الكبيرة ، الذين تبوؤا مراكـز قياديـة مرمـوقة ، فلمـا سقطوا وقـر في نفوسهم أنهم مضـطهدون مخذولون من العالم .

ويجعل هؤلاء من أنفسهم محور مكرمات وفضائل ، ويطنبون في الدور الذي كانوا في قومهم مضطلعين به ، ولا يزالون يذكرون أن مكانهم إذ شغر لا يسده غيرهم وأن التباطؤ في استنقاذهم من محنتهم قصر نظر .

وعانى أبو فراس من الشعور بالاضطهاد معاناة طاحنة ، ورومياته منسوجة

---

(١) انظر قصيدة أعشى همدان وهو في أسر الديلم : ديوانه : ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

(٢) يزيد بن مفرغ الحميري : حياته وشعره . عبد القدوس أبو صالح : ص ١٣٧ ، ق ١٥ ، ١١ بيتاً .

(٣) انظر في هذا الغرض الطغرائي : ديوان الطغرائي : ص ٦٣ و ٧٣ ، ويتيمة الدهر (٤٥٣/٤) أبياتاً ستة لأبي الحسن علي بن محمد الغزنوبي .

بمشاعر العظمة والألم معاً [1] ، وكان يلح على ابن عمه سيف الدولة بمفاداته إلحاحاً ينفخ فيه التلوم والغضب والسخط [2] ، ولم تتح له رغبة الذاتية المستبدة به أن يقدر الظروف العصيبة المحدقة بأميره في السنوات الأخيرة من حياته .

ويتضخم الشعور بالاضطهاد في شعراء آخرين ويذهب بهم مذهباً من التهويل يرى الشاعر فيه نفسه في مركز العالم بل الكون ، فينهال باللوم والتقريع على زمانه لما ألحق به من الإساءة وما سبب له من السقوط . وصاحب هذا الإدعاء ـ على ما في دعواه من الشطح ـ صادق الاحساس مع نفسه إذ يعاني تجربة السقوط المروعة ما بين ماضيه العزيز وحاضره البائس الذليل . وفي شعر المعتمد بن عباد صور لهذه التجربة إذ يعتريه عرام هذا الشعور فإذا زمانه عنده متهم وعليه معتد . ومن ذلك قوله :

أبى الدهر أن يقنى حياء ويندما   وأن يمحو الذنب الذي كان قدما
وأن يتلقى وجه عتبي وجهه   بعذر يغشي صفحتيه التندما
ستعلم بعدي من تكون سيوفه   الى كل صعب في مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دوني فتكة   بأخجل من خد المبارز أحجما [3]

---

(1) لا تكاد تخلو قصيدة من رومياته من ذلك ، مثل التي مطلعها :
دعوتك للجفن القريح المسهد   لدي وللنوم القليل المشرد
وهي (٥٢) بيتاً ، منها :
فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلا   وأسرع عواد إليها معود
(ديوان أبي فراس : ١/٧٨) ومثل قوله :
سيذكرني قومي اذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
(ديوان أبي فراس : ١/ ٢٠٩ البيت : ٤٨) .

(2) أعنف رومياته عتاباً ساخطاً التي مطلعها :
يا حسرة لا أكاد أحملها   آخرها مزعج وأولها
(ديوان أبي فراس : ٢/٣٣٠) وهي (٤٥) بيتاً .

(3) ديوان المعتمد بن عباد : ص ١١٤ ، وانظر أيضاً في (ص ٩٨) مقطوعة يرى فيها الزمان عيوناً باكية عليه .

وكانت تتراءى له قصوره ، وسرير ملكه الذي خلفه عليه آسره ، وماضي آبائه وأجداده ، تبكي له وهو المليك الأسير (١) .

وما في شعر المعتمد من السخط المهول يوافق هجمة الكارثة التي كادت تسحق نفسه ، فتصدى لها بالتحدي والتعنيف ، وكانت أزمنة مأساوية عميقة الأبعاد .

ولكن من التهويل ما هو فارغ أجوف يعوزه الصدق والمعاناة الحارة إذا صدر عن الذات تعويضاً عن آمال لم تتحقق أو من إحساس بالنقص من جراء السقوط . ولا صدق إلا إذا كانت الأزمة حاطمة تحدث تغيراً في الصيغة الشعورية والفكرية في الشاعر. ولذلك ليس غير القعقعة والبريق في المأساة الكونية التي نسجها ابن زيدون حول حادثة حبسه ، فإنه مفتقر إلى عنف التجربة وعمقها كالتي عاشها المعتمد بن عباد (٢) .

الشعراء والموت :

ومن الشعر ما يصف مواقف الشعراء وهم من محنة الحبس في المحرق ، وقد دفعوا الى الحافة الرهيبة التي تهوى بهم الى العالم الآخر ، وعلموا أنهم

---

(١) قال المعتمد يذكر قصوره في الأندلس : المبارك والثريا والوحيد :

بكى المبارك في إثر ابن عباد ... بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه ، لا غمت كواكبها ... بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد ، بكى الزاهي وقبته ... والنهر والتاج كل ذلة بادي
ماء السماء على أبنائه درر ... يا لجة البحر دومي ذات ازباد

(ديوان المعتمد : ص ٩٥) وتنتسب اسرة ابن عباد الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء .

(٢) انظر ديوان ابن زيدون (ص ٢٦١) لاميته ، وأولها :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ... ويطلب ثأري البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ... لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي
ولو أنصفتني ـ وهي أشكال همتي ـ ... لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلي

ذائقو القتل ، فأصاب الموت بعضهم وأدرك العفو آخرين منهم . وكلا الفريقين عاش تجربة النهاية ، وكانت له خواطره ومشاعره ومسلكه وهو يتأهب لأن يفارق الدنيا . ولكل تجربة لونها الفردي وفاقاً لمكونات الشاعر العاطفية والفكرية وإمكاناته العملية في مواجهة الأزمات ذات الخطر البالغ . وثمة بعض القصائد والمقطوعات تحدد معالم هذه المواجهة .

والقاسم المشترك في مواقف الشعراء هو الخوف من النهاية ، واسترهاب الموت لأنفسهم استرهاباً قد يصل ببعض الشعراء إلى الانهيار النفسي . فالجزع من مداناة الموت أول سمات هذه المواجهة ، قال بعض الأعراب (١) :

ولما دخلت السجن أيقنت أنه ... هو البين لا بين النوى سوف يجمع
وما السجن أبكاني ولا السوط شفني ... ولكنني من رهبة الموت أجزع

ومثل هذا الشعر تصريح بما هوى فيه صاحبه من التشبط النفسي لما تبدت له النهاية المرهبة ، فالسجن والعذاب فيهما الألم ولكن الكارثة التي تذهب بالقلب هي الموت . وفي شعر بعض الأندلسيين رصد لحركة القرار النفسي والفزع الهادم عندما برزت له النهاية سافرة عازمة(٢) :

أقول لنفسي حين قابلها الردى ... فراغت فرارا منه يسرى الى يمنى
قري تحملي بعض الذي تعرفينه ... فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنا

وتبدو تحربة الزوال عن العالم الأرضي في صور عديدة : فمن السجناء من اعتراه شعور الراغب بإيقاف الزمن وتجميده حتى لا يتقدم به إلى الساعة المرتقبة ، فالتشبث بالزمن رمز المعاناة الضارية في أعماقه وهو يعيش الأزمة الحادة . قال بعض الأسرى في ليلة كان يتوقع القتل في صبيحتها :

---

(١) هو دراج بن زرعة ـ أموي من نجد ـ أخذ وحبس في دمشق إثر فتنة قبلية ثم قتل (النقائض : ٢ / ٩٣١) .

(٢) هو أبو بكر الصائغ ، كان في الحبس ، وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، فقال (البيتين) ثم تخلص . (قلائد العقيان : ص ٣٥٢) .

ألا ليت هـذا الليـل طبق سـرمـدا   عـلى النـاس لا يـأتيهم بنـهـار
يكـون كـذا حتى القيـامـة ، إنني   أحـاذر في الإصبـاح ضـرمـة نـار
فيـا ليـل طبق إن في الليـل راحـة   وفي الصبح قتلي أو فكـاك إساري[1]

ومن هذه الصور الاعلان عن حب الحياة . والخوف من الموت وحب الحياة صـورتان مختلفتـان تعبران عن مـوقف نفسي واحـد ، فمن استحى من الاقـرار بالخوف أعلن أنه متشبث بالبقاء بما أظهر من حرص على الحياة .

واتخذ تصوير الحرص على الحياة طرقاً من التعبير متنوعة : فمن الشعراء من أطلق خواطره الحزينة في صور شجية تأسىٰ لفراق الحياة وطيباتهـا ، وتغتم للاحتباس في جوف القبر . وفي الأبيات التالية يبوح هدبة بن خشرم بحسراتـه في بكاء مكتوم ، وكان ، وهو في الحبس ، يعلم أنه على موعـد مضروب مـع الموت [2] :

ألا عـللاني قبـل نـوح النـوائـح   وقبـل اطـلاع النفس بين الجـوانـح
وقبـل غـد يـا لهف نفسي عـلى غـد   إذا راح أصحـابي ولسـت بـرائـح
إذا راح أصحـابي تفيض عيـونهم   وغـودرت في لحـد عـلي صفـائحي
يقـولـون هـل أصلحـتم لأخيـكـم   وما القبر في الأرض الفضـاء بصالـح

ومنهم من أطلق صرخات الارتياع من الفراق الأبـدي كمن استيقظ على حقيقـة تكشفت في غير إبـانهـا ، ويبدو صـراخ الارتياع في آمـاده البعيدة في بيت هتف بـه عبد يغـوث بن صلاءة الحـارثي لما تيقن أن الـذين أسـروه ، لا بـد ، قاتلوه[3] :

---

(١) هو الاصبغ بن ضرار الأزدي ، أسره الأشتر النخعي في صفين ، فنظم قصيدة (١٢ بيتاً) ثم أطلقه علي بن أبي طالب . (ابن مزاحم : وقعة صفين : ٥٣٣) .

(٢) هدبة بدوي ـ أموي ـ حبس في المدينة أجلا غير قصير في دم أصابـه ثم قتل بـه . الحماسة (التبريزي) : ٢/١٢ ـ ١٧ ، وتنسب الأبيات الى أبي الطمحان القيني ، قالها في الجاهلية وهو أسير ، انظر الأغاني : ١٢٧/١١ .

(٣) النقائض : ١٥٣/١ .

أحقـا عبـاد الله أن لست سـامعـا   نشيـد الـرعـاء المعزبين المتـاليـا

وهذا الارتياع الاكتشاف الأخير في تجربة نفسية محطمة بحث فيها الشاعر السجين عن نفسه في الأرض وفي المجتمع وعند الأحبة فلم يجدها ، فاستيقن ان الأواصر تقطعت بينه وبين الوجود فتساقط مستسلماً مخذولاً .

ولعل جعفر بن علبة الحارثي كان رصده لهذه التجربة أدق ، فأخرجها ، عفو مشاعره ، زاخرة بالأسى الباكي ، قال : (١)

أحقـا ، عبـاد الله ، أن لست رائيـا   صحـاري نجـد والـريـاح الـذواريـا
ولا زائـراً شـم العـرانـين أنتمـي   إلى عـامـر يحللن رمـلا معـاليـا
إذا مـا أتيت الحـارثيـات فـانعني   لـهن ، وخـبـرهـن أن لا تـلاقيـا
وقـود قـلوصـي بـينهـن ، فـإنها   ستبـرد أكبـادا وتبكي بـواكيـا

وتمتاز هذه التجربة بالاتساع وتعدد العناصر في موقف متكامل استعرض فيها الشاعر رؤوس الذكريات اللماحة المحوّمة ، وودع الوجود بتعـاطـف شج مثير للدمـوع .

وفي مواقف أخرى تستقطب المخاوف والأحزان حول عنصر خارجي وثيق الصلة بعواطف الشاعر ، وقد استطاع أحد الشعراء بحـديثه أن يحمل نفوس السامعين على التعاطف والتداعي له وأن يغير خاتمة الموقف الفاجع الى نجاة ، قال (٢) :

ومـا جـزعي من أن أمـوت ، وإنني   لأعـلم أن الـمـوت شـيء مـوقـت

(١) جعفر بن علبة الحارثي ـ من مخضرمي الـدولتين الأمويـة والعباسيـة ـ أصاب دما وسجن في مكة ثم قتل . الأغاني : ١١/١٤١ .

(٢) هو تميم بن جميل ثار في نواحي الخابور على المعتصم ، ثم أخذ وقيد وسجن ، ولما قدم للقتل بين يدي المعتصم أنشد شعراً منه الأبيات ، فعفا عنه ، وهو في زهر الآداب (٣/٨٠٤) خمسة أبيات وفي معجم البلدان (رحبة مالك بن طوق) تسعة أبيات . وانظر للطغرائي (معجم الأدباء : ٤/٥٢) أبياتاً أربعة في الغرض نفسه .

ولكن خلفي صبيـة قـد تـركتهـم وأكبـادهم مـن حسـرة تتفتـت
فـإن عشت عـاشـوا سـالمـين بغبطة أذود الـردى عنهم ، وإن مت موّتـوا

والشاعر في الأبيات اعترف بالجزع وإن أنكر خوفه من الموت ، وإذا كان الأطفال الصلة فيما بينه وبين الحياة ، والقوة الجاذبة ، فهو قول جميل فيه الكثير من النبل والإخلاص . ولكن أطفاله ـ في الحق ـ كانوا في قرارة نفسه هم الحياة ، فالحياة كلها تتوهج في حبه لأولاده ، وتعلقه بهم تعلقه بالبقاء ، فكان أولاده رمزاً للحقيقة الخالدة التي هي حب الحياة .

الشعراء والقدر المحتوم :

محنة الحبس عند شعراء العرب قدر مقدّر ، ونازلة ، إن حمت ، لا فرار منها ، وهو يقين اعتصموا به على توالي الأعصار . فقبل الإسلام قال عدي بن زيد للنعمان (١) :

فـإن أظلم فقـد عـاقبتمـوني وإن أظلم فـذلـك من نـصيـبي
وإني وقـد وكلت اليـوم أمـري إلـى رب قـريـب مـستـجيـب

وفي الإسلام علل أبو محجن الثقفي ما أصابه من الجلد والحبس بأنه قدر لا يصرف ، وأن لا مناص من الصبر (٢) :

ألم تـر أن الـدهـر يعثـر بـالفتى ولا يستطيـع المرء صـرف المقـادر
صبـرت فلم أجـزع، ولم أك كـائعـا لحـادث دهـر في الحكـومـة جـائـر

وكان الشاعر السجين يجد في هذا اليقين علاجاً روحياً يستريح إليه من قلقه ومن حساب التوقعات الخطيرة ، قال أسير كان يتوقع الموت (٣) :

---

(١) من قصيدة أرسلها الى النعمان من سجنه (ديوان عدي بن يزيد : ق ٣ ص ٣٧) .
(٢) الأغاني : ١٤٢/٢١ .
(٣) هو الأصبغ بن ضرار الأزدي ، انظر وقعة صفين لابن مزاحم (ص ٥٣٣) .

فيا ليل طبق ، إن في الليل راحة ... وفي الصبح قتلي أو فكاك إساری
ولو كنت تحت الأرض ستين واديا ... لما رد عني ما أخاف حذاری
فيا نفس مهلاً ، إن للموت غاية ... فصبرا على ما ناب يا ابن ضرار

ووجد بعض الشعراء في هذا اليقين ما يبرر به أخطاءه واندفاعه في مغامراته ، فعزا هدبة بن خشرم ما ارتكب من أعمال العنف والقتل الى القضاء والقدر ، في قصيدة أنشدها بين يدي الخليفة وهو سجين ، بسطت تلك القوة الغيبية ظلالها على أبياتها ، قال في مطلعها (١) :

ألا يا لقومي للنوائب والدهر ... وللمرء يردي نفسه وهو لا يدري

ثم قال :

رمينا فرامينا ، فصادف رمينا ... منايا رجال في كتاب وفي قدر

ولا شك ان هدبة ينزع إلى إلقاء التبعة كلها على القدر ، وبذلك يجد الذريعة للتنصل من المسؤولية الشخصية في مقارفة الأخطاء ، أو هو يقنع نفسه بذلك على الأقل . وبهذا التذرع تبرأ أبو فراس الحمداني من مسؤوليته عن وقوعه في الأسر ، قال (٢) :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرىء ... فليس له بر يقيه ولا بحر

فالشعراء المحبوسون كانوا يحتاجون الى مبررات تخفف عنهم اللوم الذاتي ، فكان هذا اليقين خير معوان لهم ، وربما برروا به إساءة الآخرين إليهم ، قال ابن زيدون (٣) :

---

(١) دافع هدبة عن نفسه بقصيدة ألقاها بين يدي معاوية بن أبي سفيان . انظر الأغاني (١٧٣/٢١) .

(٢) ديوان أبي فراس : ٢٠٩/١ .

(٣) ديوان ابن زيدون : ص ٢٥٥ ، وأبو الحزم بن جهور أمير قرطبة ، ارتاب في ابن زيدون ، فسجنه ، فخاطبه بعدة مطولات .

وإن يثبط أبا الحزم الرضا قدر عن كشف خيري فلا عتب على القدر

ولا شك أن السجناء كانوا يجدون في التسليم الى القدر راحة للنفس ، ورضا بالمحنة [1] ، وعوناً على التجلد والتماسك ، وقد تعمق بعض الشعراء هذا اليقين القدري تعمقاً استغراقياً خرج به من مصيره الفردي إلى مصير كوني شامل تخضع له الكائنات ، قال ابن المعتز [2] .

تعلمت في السجن نسج التكك وكنت أمرأ قبل حبسي ملك
وقيدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور الفلك
ألم تبصر الطير في جوها تكاد تلاصق ذات الحبك
إذا أبصرته خطوب الزما ن أوقعته في حبال الشرك
فهذاك من حالك قد يصاد ومن قعر بحر يصاد السمك

وخرج بعض الشعراء من هذه القدرية الى شعور قانت ، وموقف استسلامي ، ونظرة تشاؤمية ضربت شباكها على أولئك الذين سقطوا فجأة من ذروة المجد إلى حضيض الهوان ، فزعزعت ثقتهم بالحياة زعزاعاً شديدا ، وصاروا الى يأس خاذل . وتحكي أبيات لِيحيى بن خالد البرمكي هذا اليأس ، وكان اشتهى قطعة من لحم [3] ، فحرم منها ، فأحس إحساساً حاداً أن الدنيا إذا تولت فلا رجاء فيها ، قال [4] :

---

(١) قال أبو الحسن علي بن محمد الغزنوبي (من شعراء اليتيمة) في نكبته :

ليس إلا الرضا بما قدر الله وإلا الإذعان والتسليم
والعزاء الجميل والصبر والإيقان ان المولى رحيم كريم

(يتيمة الدهر : ٤٥١/٤) من سبعة أبيات .

(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد : ص ٣٦ .

(٣) ذكر الجهشياري أن يحي بن خالد اشتهى في السجن سكباجا ـ وهو لحم يطبخ بخل ـ فسمح له بها ، فلما انتهى نضجها وقعت القدر فاندلق ما فيها وكسرت ، فقال يحي الأبيات . (الوزراء والكتاب : ص ٢٤٥) .

(٤) المصدر نفسه .

قطعت منك حبائل الآمال وأرحت من حل ومن ترحال
ووجدت برد اليأس بين جوانحي فحططت عن ظهر المطي رحالي
فالآن ، يا دنيا ، عرفتك فاذهبي يا دار كل تشتت وزيال
والآن صار لي الزمان مؤدبا فغدا عليّ وراح بالأمثال

وفيما ختم به أحد الأمراء مقطوعة له في حبسه تأكيد على هذا الإحساس [1] :

وكيف يصح للأيام عهد وشيمتها التغير والفساد

ونتج عن هذا التشاؤم تبغيض الحياة إلى النفس ، والاستخفاف بها ، وتحبيذ الموت إذ هو نهاية كل بداية ، وليس في العيش إلا البؤس والتنغيص ، قال الصابي في حبسه [2] .

إذا لم يكن بد من الموت للفتى فأروحه الأوحى الذي هو أسرع
وما طال عمر قط إلا تطاولت بصاحبه روعات ما يتوقع
فكن عرضاً بالعيش لا تغتبط به فمحصوله خوف وعقباه مصرع

وهذه النظرة السوداوية قلبت القيم والمفاهيم عند أصحابها بما طلعت عليهم الأحداث السياسية من تناقضات ، فاقتنعوا بأن ثمة تناسباً عكسياً بين المقدرة والحظ ، وكان أبو إسحاق الصابي صريحاً بالتعريض بأولئك الذين احتلوا المناصب عن غير جدارة :

إذا جمعت بين امرئين صناعة وأحببت أن تدري الذي هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأقدار حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

---

(١) هو الأمير عبيد الله بن أحمد الميكالي (يتيمة الدهر : ٤/ ٣٧٩) .
(٢) الصابي أبو إسحاق (يتيمة الدهر : ٢/ ٢٦٧) .
(٣) يتيمة الدهر : ٢/ ٢٦٧ .

وكان من جراء هذه التناقضات أن ساد اعتقاد عند الأدباء أن النكبة متربصة بكل من أصابه الجد ورزق المال منهم ، وكانوا يسمون النازلة إذا نزلت بأحدهم « حرفة الأدب » (١) .

ولكن هذه القدرية ، وما يتفتق عنها من نظرات وأحاسيس ، تفتقد عند الشعراء المطبوعين على التمرد والعصيان ، فهؤلاء لا يعفون أحداً من مسؤولية ما يجري عليهم،فعلق شاعر مطبوع على تبرير العقوبة بالقضاء والقدر تعليقاً مشوباً بالنقمة الساخرة حين جلد ، فقال (٢) :

ضربوني ثم قالوا : قدر قدر الله لهم شر القدر

ولا يخفون نوازعهم الذاتية فيما أتوا به من الأعمال أو يريدون إحداثه فهم يتحملون مسؤولية سلوكهم عن قناعة وتصميم ، وفي شعر لأحد اللصوص إصرار على احتمال العقاب في سبيل بلوغ الهدف من غير أن يسند تبعة الى الأقدار (٣) .

---

(١) قال أبو إسحاق الصابي في سجنه :

قد كنت اعجب من مالي وكثرته ... وكيف تغفل عنه حرفة الأدب
حتى انثنت وهي كالغضبى تلاحظني ... شزراً ، فلم تبق لي شيئا من النشب
فاستيقنت انها كانت على غلط ... فاستدركته ، وأفضت بي الى الحرب
الضب والنون قد يرجى التقاؤ هما ... وليس يرجى التقاء اللب والذهب

يتيمة الدهر : ٢/٢٦٦ .

(٢) هو النجاشي الحارثي ، جلد على شربه الخمر ، انظر شرح منهج البلاغة : ١/٨٠٠ .

(٣) هو تليد الضبي سجن وجلد ، فقال :

يقولون جاهرنا تليد بتوبة ... وفي النفس مني عودة سأعودها
ألا ليت شعري هل أقودن عصبة ... قليل لرب العالمين سجودها
وهل أطردن الدهر ما عشت هجمة ... معرضة الأفخاذ سجحا خدودها

(معجم البلدان : جرش) .

=

الهموم والآلام

ترك شعراء السجن مقداراً ضخماً من القصائد والمقطوعات الذاتية التي باحوا فيها بهمومهم وآلامهم في الأيام القاسية . وهو غرض إنساني بـارز ظاهر السمات والاتجاهات .

معايشة الألم

ويشهد استقراء هذا الشعر بأن السجناء كـانوا يعـايشون أحـزانهم ، وما يؤودهم من الغموم والكروب ، من غير قطيعـة ، وبخاصـة في ظلام الليـل . فالسكينة تسمح للذات الداخليـة أن تستيقظ ولكوامن المشاعر أن تبـرز ، فتتنبه الآلام وتنشط نشاطاً ظاهراً . ويبيت السجين تحت هجمتين من عذاب الجسد وأحزان القلب معاً[1] . وتدل كثرة الشكـوى على هذا التعـايش الدائم . فـإن شاعراً ، مثل عدي بن زيد ، نظم في سجنه عدة قصائد لا تخلو واحدة منها من مكابدة الآلام .

وكانت الهموم لعدي زادا يقتات منه في وحدته ، ويزجي بنحواها ظـلام الليل . وفي ديوانه قصيدة ـ هي الثامنة ـ تتحدث مقدمتها عن هموم الليالي التي كان عدي فيهـا فريسـة الهواجس والمـرعبات ، يستبـطىء الزمن ، ويهـال من الظلام المتمادي ، ويحسن إحسـاساً واعيـاً بيقظة الأسى المكبـوت وموراتـه .

= وانظر في هذا الغرض أشعار عبيـد الله بن الحر في سجن مصعب بن الـزبير . (منتهى الـطلب : ٢٧٣/٢) وشعر ضـابىء بن الحـارث البـرجمي الـذي هم بقتـل الخليفـة حين حبسه ، وأوله :

همممت ، ولـم أفعل ، وكدت ، وليتني ... تـركت على عثمـان تـبكي حـلائله

(أنساب الأشراف : ٨٥/٥) .

(١) قال جحدر العكلي :

لـيســت كـليـلـة دوار يـؤ رقـنـي ... فيهـا تـأوه عـان من يني السيـد

ونحن من عصبة عض الحديد بهم ... مـن مشـتك كبله مـنهـم ومـفـؤ ود

(معجم البلدان : دوار)

وأفرغ عدي هذه الأحاسيس في الصور والصيغ اللفظية الشائعة في عصره التي تصف الليالي النابغية من امتناع النوم، وتمادي الليل، وترقب الفجر، وتململ الشاعر على مثل الإبر(١):

طال ذا الليل علينا واعتكر   وكأني ناذر الصبح سهر
من نجي الهم عندي ثاويا   بين ما أعلن منه وأسر
وكأن الليل فيه مثله   ولقدماً ظن بالليل القصر
لم أغمض طوله حتى انقضى   أتمنى لو أرىٰ الصبح جشر
شئز جنبي كأني مهدأ   جعل القين على الدف إبر
غير ما عشق ولكن طارق   خلس النوم وأعطاني السهر

وكان نصيب الأصغر مولى المهدي، في هذا اللبوس النفسي عندما أنشد قصيدته مكبلاً بين يدي الخليفة، فجاء المطلع مشحوناً بالهموم السود، مغرقاً في تهاويل الصور: الجبال تكاد تتصدع، والأرض في صباغ الظلام. ولم يجنح للتهويل من نضوب الإحساس غير أنه آثر أن يخزن انفعاله الجياش في التراكيب والصور «الجاهزة» على أن تسرح في تعبير طليق(٢).

وكثير أولئك الشعراء الذين احتشدت عليهم الهموم فقمعوا واستكانوا(٣) وكان آخرون يخشون من سطوتها بهم، وقهرها لصبرهم وعزائمهم، وأن

---

(١) ديوان عدي: ص ٥٩، ق ٨، الأبيات ١ ـ ٦ من (٣٠) بيتا.

(٢) القصيدة في الأغاني (٢٠/٢٦/٢٧) ومطلعها:

تأوبني ثقل من الهم موجع   فأرق عيني والخليون هجع
هموم توالت لو أطاف يسيرها   بسلمى لظلت صمه تتصدع
ولكنها نيطت، فناء بحملها   جهيز المنايا حائن النفس مجزع
وعادت بلاد الله ظلماء حندساً   فخلت دجى ظلمائها لا تقشع

(٣) انظر مطلع بائية ابن المعتز (ديوان ابن المعتز: ٢/٧٠) وأولها:

من يذود الهموم عن مكروب   مستكين لحادثات الخطوب
حولته الدنيا إلى طول حزن   من سرور وطيب عيش خصيب

تورثهم الوهن . وكان جحدر العكلي لايني يرى همومه تشرب من معين قلبه وكان هذا الرجل الجلد على ما أصابه من عظيم الكرب حسن التنبه لصحته النفسية ، حريصاً على سلامتها من الضعف ، فنصح نفسه أن تتفرج منها كيلا يسقط ضحية لها [1] . ويبدو أنه ألف همومه كما يألف الصديق صديقه فلم يتداع ، واحتفظ قلبه بنبضاته حارة على ما تعرض له من هجماتها، وحديثه عنها في قصيدته النونية المشهورة خير حديث حر الأداء مفعم بعمق المعاناة والتشخيص الحي [2] .

تأوبني فبت لها كنيعاً ... هموم لا تفارقني حوان
هي العواد لا عواد قومي ... أطلن عيادتي في ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عني ... ثنا ريعانهن عليّ ثاني
فإن مقر منزلهن قلبي ... فما أنقهنه فالقلب آن

البكـــاء

ويواجه الشاعر ، أحياناً في حديثه عن همومه ذاته قد تعرت من كذب أو ادعاء . فلم يكتم الرجال الأشداء الذين عرفوا بسمو المطلب والمنزلة وبمعاناة الأخطار ، لم يكتموا عندما هالهم ظلام الحبس ، الوهن الذي تملك نفوسهم في عزلته بين الذل والخوف .

كان الوزير الأندلسي هاشم بن عبد العزيز قائد جيوش شديد المراس ، ولما أسر كان يود ألا يرى منافسوه في بلده ضعفاً منه ، ولكنه لم يستطع أن يخنق شجونه التي كانت تزعزع نفسه ، وتستدر دموعه فأسر إلى أحد أصدقائه بالحقيقة

---

(١) قال جحدر :

إن الهموم إذا عادتك واردة ... إن لم تفرج لها ـ ورداً بإصدار
كانت عليك سقاماً تستكين له ... وأنصبتك لحاجات وإذكار

منتهى الطلب : ٢/٢٦٢ (من ٢٦ بيتاً) .

(٢) منتهى الطلب : ٢/٢١٦ (٢١ بيتاً) .

الإنسانية التي يصعب إخفاؤها في ذاك الموقف[1] .

فكم غصة بالدمع نهنهت خوف أن يسر بما أبديه شنآن كاشح
تحاملت عنه ثم نادمت في الدجى نجوم الثريا والدموع سوافح

ومن المعروف أن طرفة بن العبد كان رجل قبيلة من الطراز الأول ، لم يترك مأثرة من مآثر الفروسية لعصره إلا وجدها في نفسه أو ادعاها لها . وحين ارتهن في الحبس ، وعلم أنه الموت ، تساقط عنه ذلك الادعاء الفضفاض ، وحدق في النهاية المفزعة والذعر يخلع قلبه ، و عيناه تفيضان من الدموع ، فانطلق بالبوح الباكي في مستهل قصيدته الضادية[2] .

ألا اعتزليني اليوم ، خولة أو غضي فقد نزلت حدباء معضلة العض
أزالت فؤادي عن مقر مكانه وأضحى جناحي اليوم ليس بذي نهض
فحسبي من الداء الذي ليس بارحي وبعض هموم لم يكد وجدها يفضي
ألم تر أن العين فاضت سجامها من الليل حتى لم يكد جفنها يغضي

ومما لا شك فيه أن سجيناً أشرف على النهاية مستيقناً للموت ، وتساقطت عنه أثقال الحياة وما لها من اعتبارات وقيم،لا شك أنه يعترف بحقيقة مشاعره في صراحة وصفاء.

آلام الرجولة

ويقرن بعض الشعراء همومهم بذكر الظروف التي لم يحسنوا الانتفاع بها للنجاة من الحبس أو الأحوال القاهرة التي غلبوا فيها على أمرهم .

ويأكل الندم قلب الشاعر إذا فرط بحق نفسه ، وألقى بيديه إلى السجن وقد كان له منجاة منه لو احتال لذلك . وفي إحدى المقطوعات يأزم الندم بقلب والٍ لبني أمية ، تمكن منه أعدائه السياسيون فسجنوه . وكان الهرب له ميسوراً

(١) الحلة السيراء : ١٤٢/١٥.
(٢) ديوان طرفة بن العبد : ص ١٣٧ وفي شرح الشنقيطي : ص ٤٧ .

ولكنه آثر المسالمة فلما أحدقت به وحشة الحبس علم أن الحكمة لم تكن في الانقياد الى الذل وأن الرجولة تقتضي منه أن يركب ظهر الأرض ليفوت أعداءه (١) . وقيمة الأبيات بما فيها من الاعتراف الصريح بالتفريط في نغمة ملأى بآلام رجل معذب تأخر باتخاذ القرار الحاسم . وبصدق عفوي كاشف عن أعماق النفس ، وبانسياب شعري لم تقف فيه جزالة الألفاظ وطابعها الصحراوي عن التعبير الدقيق عن أعمق المشاعر .

ومنشأ الألم في مثل هذا الموقف هو أن الذات لم تستنفد إمكاناتها فتعذر . ويؤلم الرجال إخفار هذه الإمكانات بمقدار ما في نفوسهم من الحس الفردي اليقظ . وهو من نصيب كبار النفوس وكان لا يزال غضاً متحفزاً في العصور التي لم تستهلك الكرامة فيها ضغوط الاضطهاد . وبهذا المعيار يقاس الألم المحرق في حنايا أبي محجن الثقفي عندما كانت القيود في قدميه ، وأصوات السلاح تقرع مسامعهم ، والرجال في القادسية يبنون المجد ، وباب السجن مغلق عليه . والحق أن نفساً يجري فيها دم الحمية وتحكم سلوكيتها قيم الفروسية ، لا ترضى بحظ دنيء فتفجرت آلامه من الأعماق إذ حيل بينه وبين السلاح وتحقيق ذاته في يوم يشهده الأبطال. وأبياته اليائية المشهورة صورة للرجولة المحرومة من حقوقاً القتال (٢) .

---

(١) هو إبراهيم بن العربي كان والي اليمامة لعبد الملك بن مروان ، وكان مقتدراً حسن التدبير . قال (من ٧ أبيات في الحماسة شرح التبريزي : ٢/١٣١) :

لعمري إني يوم سلع للائم ... لنفسي ولكن ما يرد التلوم
أأمكنت من نفسي عدوي ضلة ... ألهفي على ما فات لو كنت أعلم
لو ان صدور الأمر يبدون للفتى ... كأعقابه لم تلفه يتندّم
لعمري لقد كانت فجاج عريضة ... وليل سخامي الجناحين أدهم
إذا الأرض لم تجهل علي فروجها ... وإذ لي عن دار الهوان مراغم

(٢) الأغاني : ٢١/١٣٩ ، ومنها ـ
كفى حزناً أن تدعس الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علي وثاقيا =

وفي شعر المعتمد بن عباد مقطوعة فذة ترسم جيشان الألم المكبوت نظمها إذ أخفقت ثورة ولديه في الأندلس فقتلا. وحال الأسر بينه وبين ميدان الكفاح وتحقيق الذات بالنصر أو الموت [١] :

كذا يهلك السيف في جفنه ... إلى هز كفي طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ... ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيم ... مرتقباً غرة في كمين
كأن الفوارس فيه ليوث ... تراعي فرائسها في عرين
ألا شرفٌ يرحم المشرفيَّ ... مما به من شمات الوتين
ألا كرم ينعش السمهري ... ويشفيه من كل داء دفين
ألا حنة لابن محنية ... شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة ... تبوئه صدر كف معين

وشعر المعتمد الأسير شعر الألم الطافح ، فهو الأسير الذي هزمه عدوه وأبت أن تنهزم نفسه ، فظل يكابد محنته في ضرب من الاحتراق الذاتي ، يواجه فيه رجل عظيم النفس بطولي الجبلة ، مصيره البائس قسراً ، فينتفض تحت الصغار انتفاض النسر الحبيس[٢] .

= إذا قمت عناني الحديد ، وغلقت ... مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد شف جسمي أنني كل شارق ... أعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت ... وإعمال غيري يوم ذاك العواليا

(١) ديوان المعتمد : ١١٦ .

(٢) في أغلب مقطوعات المعتمد شواهد على تجربة الاحتراق الذاتي وبخاصة قصيدته التي مطلعها :

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديع

ويذكر فيها اليوم الذي أسره فيه ابن تاشفين بعد قتال دائر . انظر (الحلة السيراء : ٢/ ٦٥) .

الغربـــة والذل :

وكـان يجتمع على الشـاعر إذا حبس في غيـر ديـاره ، ذلتـان : السجن والاغتراب . فيعظم إحساسه بالمهانة لما هو فيه من العجز التام بين أيدي آسريه . وأفصح عن ألم المذلة الممض غير شاعر من البداة أو الحضر[1] . فتفجرت في غربة الأسر آلام أبي فراس، وتعد الروميـات ردة فعل على الاستـذلال والعذاب الـذي أضنى روحه وذهب بصبـره [2] ، وحبب إليه المـوت على الحيـاة [3] . وكـذلك شكـا أبـو الحسن التهـامي شكـاوى بـائسـة من ذل الاغتـراب وعجـز الغرباء [4] . أما المعتمد فقد آثر كأبي فراس الهلاك على البقاء في شقاء الأسر قال[5] :

أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشقي بها الشقـاء
فمن يـك من هواه لقـاء حبٍ ... فـإن هـواي من حتفي اللقـاء

---

(١) قال طهمان بن عمرو الدارمي وكان حبيساً في نجران مع صديق له عبسي :

وإني والعبسي في أرضي مـذحـج ... غــريبــان شتى الــدار مختلفــان
غــريبــان مجفــوان أكثـر همنــا ... وجيـف مـطايــانــا بكــل مـكــان
فمن يـر ممســانــاً وملقى ركـابنـا ... من النـاس يـعلم أنـنـا سبعــان
ومـا كان غض الـطرف منـا سجية ... ولكننـــا في مــذحــج غــربــان

معجم البلدان : دمخ .

(٢) رومياته كلها مثال صالح . وانـظر ـ على سبيل المثـال ـ الأبيات السبعـة الأولى من قصيدته :

يـعــز عـلى الأحــبــة بــالـشــآم ... حـبـيـب بــات مـمـنـوع الـقـيــام

ديوان أبي فراس : ٢/٣٧١.

(٣) انظر بيتين له في يتيمة الدهر : ٢/٢٣٤ .

(٤) أنظر ديوان أبي الحسن التهامي : ١٢٣ ـ ١٢٤ الأبيات ١ ـ ٣٣ من قصيدته :

لنفسـك لم لا عذر قـد نفد العـذر ... بـذا حكم المقـدور إذ قضي الأمـر

(٥) ديوان المعتمد : ص ٩٠ من (١١) بيتاً .

ويضاف إلى هذا العذاب النفسي السجن وما فيه من القيود والتعذيب وغطرسة المسؤولين وأولي الأمر . وكلها مبعث لآلام مبرحة وهموم متراكبة يشكو منها الشعراء جميعاً ويذكر بعضهم بواعثها وأسبابها (١) .

الصبر والتطهير النفسي

حديث السجناء عن الصبر كثير في ثنايا القصائد ملء المقطوعات وهو حديث الإنسان المعذب وردود فعله في وجه الملمات الفادحة ، وما لديه من الاحتمال والقدرة على المقاومة والشعراء إذا ذكروا الصبر والمحنة يعانون موقفاً إنسانياً موحداً ، نسيجه الألم ، لا تفاوت فيه إلا فيما جبل عليه أفرادهم من قوة وتمرد أو ضعف وتخضع .

الصبر :

وإذا كان أكثر الشعراء المحبسين من السياسيين أو رجال الدول تبدت ظاهرة الصبر عندهم في كثير من الجلادة البطولية . فالشاعر بأعين أعدائه وأنصاره جميعاً ، وعلى تصريحاته تترتب نتائج مستقبلية وأحكام تقوم شخصه تقويماً لا ينساه التاريخ . ولذا كان عدي بن زيد يلتف برجولته كلها والنعمان ممعن في إذلاله (٢) :

إن يصبني بعض الأذاة فلا وا ... ن ضعيف ولا ألفُّ عثور
غير أن الأيام يغدرن بالمر ... ء ، وفيها الميسور والمعسور
فاصبر النفس للخطوب فإن الد ... هر حيناً يدجو وحيناً ينير

وربما كانت هذه الأبيات للوزير المصحفي أبعد دلالة على ما يكابده الشاعر الحبيس لإخفاء آلامه وضعفه عن خصومه (٣) :

---

(١) انظر قصيدةمحمدبن عاصمالكاتب عند البيهقي: المحاسن والمساوىء: ٢/ ٣٤٨.
(٢) ديوان عدي بن زيد : ص ٦٩، ق ١٦ .
(٣) جذوة المقتبس : ص ١٧٦ . للحميدي ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ١٩٧٢ .

أجاري الزمان على حاله | مجاراة نفسي لأنفاسها
إذا نفس صاعد شفّها | توارت به بين جلاسها
وإن عكفت نكبة للزمان | عكفت برأسي على رأسها

ولا يخفىٰ ما في هذا الشعر وأمثاله من قدرية مستيقنة توافق عليها الشعراء وعلى مباديء مثلية نافعة في المحنة : فالقوى الخارجية هي المسؤولة عن المصيبة والإنسان مغلوب على أمره بحوادث الدهر ، والصبر من شيم الأحرار ، والفرج مع الصبر(١) .

وتعين هذه القدرية الشعراء على زيادة في طاقة احتمالهم ، ويجدون في استيقانها استيقاناً عميقاً تبرئة لأنفسهم من المسؤولية عن المصير الذي انتهوا إليه . فإذا تعمق أحدهم من خلال هذا اليقين مأساته ، ونفذ منها إلى ناموس كلي صارم يحكم الوجود الإنساني عندها يبلغ هدوءاً نفسياً راضياً في ظلال الأحزان وراحة فكرية من جراء ما يصل إليه من قناعة ، بحتمية الأحداث ذات المنطق المطرد عبر الزمان . فيتأمل الشاعر في حطام حياته وسعادته ، مركوماً بين يديه بين جدران سجنه ، ويرضى كل الرضى أن يعزو ما حصل له إلى القدر الذي لا يدافع ، والأبيات التي تركها الفضل بن يحيى البرمكي في سجنه ـ قبل موته ـ في نكبته ونكبة أسرته تنبع من هذا الاتجاه واليقين (٢) .

إن العزاء على ما ناب صاحبه | في راحة من عناء النفس والتعب
والصبر خير معين يستعان به | على الزمان ، ومن ذا فيه لم يصب
لو لم تكن هذه الدنيا لها دول | بين البرية بالآفات والعطب
إذن صفت لأناس قبلنا وبهم | كانت تليق ذوي الأخطار والحسب
ولم تنلها ، وفيما قد ذكرت أسى | وعبرة لذوي الألباب والأدب

(١) انظر في جذوة المقتبس (ص ٨٦) شعراً لمحمد بن مسعود الغساني ، وفي الحلة السيراء (١/١٥٤) مطلع قصيدة لسعيد بن جودي الأندلسي .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري : ٢٦٠ .

ألستم مثل من قد كان قبلكم فارضوا وإن أسخطتكم نوبة الحقب
نضو الحوادث نضو ليس ينفعه شيء سوى الصبر من كد ومن تعب

ولا يخدعن هذا الصبر ، فوراءه ظلام كثيف لا نور ولا أمل . إن هو إلا صبر المستيئس الذي لم يترك له العقاب قبساً من رجاء ، فأشرف على النهاية البائسة ، فاستسلم للتأسي والتصبر فراراً من الانهيار . ومن اليسير استكشاف الألم الممض ، في ثنايا هذا الشعر ، والرجولة المقهورة التي احتبست دموعها وراء غشاء رقيق من التأمل والعزاء .

وأمثال هذه القطع تمتاز بالتعبير الصريح عن طوية الشاعر لخلوها من محاولات التمويه والتعالي على المحنة [(١)] .

ويصف بعض الشعراء من الصبر وجهه الثاني أو وجهه الحقيقي الذي تتطلب مواجهته شجاعة كافية ومصارحة ذاتية جريئة وهو الذل الموروث من تعود الصبر .

وصارح الوزير المصحفي بأن ما يبدو حكمة وفضيلة عند الأخذ بالصبر هو في حقيقة الأمر تعبيدٌ للنفس وإخضاعها للقوى المتغلبة وتذليلها لقبول الظروف الجديدة الجائرة قال [(٢)] :

صبرت على الأيام حتى تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فوا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس يوم العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت ماتت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها : يا نفس موتي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

---

(١) انظر في هذا الغرض خمسة أبيات في «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة : ص ١٩٥ والأبيات للوزير أبي بكر بن الحكيم .
(٢) نفح الطيب : ٢/ ١٣٤ .

وللصبر جانب مشرق إيجابي الاتجاه يبحث السجين من خلاله عن منافذ الأمل ويستعين به على المقاومة والبقاء ، وينفذ منه إلى رحاب واسعة من ترقب الفرج . واسترفد الشعراء من هذا المعين النفسي في الشدائد . فكانوا يتجاوزون المصيبة الطاحنة أو يتعالون عليها ، بالصبر على مكروهها . وكان طريقها الى ذلك هو اللجوء النفسي إلى الله ، إلى القوة المهيمنة على القوى المتصرفة كيف تشاء، المجيبة نداء من ناداها . وإن هذا في قصائدهم شعور إيماني حار بعيد الأغوار ويقين تصدقه الحماسة والإصرار . وليس هو تأملاً فكرياً فحسب . والشاعر السجين أحوج إلى الإيمان اليقيني في الموقف الضنك المخوف . فتومض الأفكار والمشاعر حول قطب واحد هو: الله والصبر والفرج كقول الأندلسي وكان سجيناً (١) :

صبرا على نائبات الدهر إن له ... يوماًكما فتك الإصباح بالظلم
إن كنت تعلم أن الله مقتدر ... فثق به تلقَ روح الله من أمم
وقلما صبر الإنسان محتسباً ... إلا وأصبح في فضفاضة النعم

التطهير النفسي :

وكان هذا اليقين يقرب هؤلاء من الله فيلوذون برحمته ويتطهرون من ذنوبهم في موقف مثالي يرفع من نفوسهم فيرتضون به عن الإحساس بالسعادة والشقاء ويرتقون إلى صفاء ينجيهم من العذاب والألم . وهذا الأفق الرفيع ارتقى إليه غير شاعر حبيس(٢) . فكانوا يستشرفون الفرج مؤتسين بسير كبار

---

(١) هو رشيد الدولة أبو يحيى محمد بن عز الدولة عبيد الله بن المعتصم محمد بن معن من شعراء المائة السادسة ، كلف بالآداب ، وبرز فيها ، ثم تاق إلى الرئاسة ، فقيد فمن قوله في السجن : الأبيات الحلة السيراء : ٢/١٩١ .

(٢) قال أبو الحسن علي بن محمد الغزنوي في نكبته :
ليس فيما مضى من الخير خير ... إنما الخير في الذي لا يريم
وكذا الشر ينقضي ليس شرا ... إنما الشر شر من يستديم =

الصابرين في التاريخ مستمدين من مواقفهم قوة ورجاء:

قـد أجـاب الإلـه دعـوة نـوح   حـين نـادى بـأنـه مـغـلوب
وشفى ذو الجـلال علة أيـو   ب وقـد شارف الـردى أيـوب
وانقضى سجن يـوسف وقـد استيـأس وارتـد مبصـرا يعقوب[1]

ومن الشعر ما يدخلنا إلى نفوس الشعراء الذين عاشوا أزمة الشعور بالذنب وتجربة التوبة. والحق أن محنة الحبس كانت تمارس على ضمائر بعض الشعراء ضغطا ثقيلا، فتردهم إلى موقف فيه محاسبة للنفس وإدانة للسلوك، وفيه التبرؤ من الذنب والتوبة إلى الله. وكانت عزلة السجن ووحشته تتيح لهم أن ينفصلوا عن المؤثرات الخارجية التي كانت دافعهم إلى الجنوح والجريمة، وأن يتأملوا فيما جنوا، وأن يشعروا بما فيه من القبح والسوء، وأن يساورهم الندم والأسى. فكانوا يعودون إلى الإنسان في أنفسهم الإنسان الذي انفصل عن القيم الجاهلة التي كانت تحكم سلوكهم.

فالشاعر هدبة بن خشرم أتى جريمة قتل نكراء، يدفعه إليها شهوة الانتقام التي تعصف بنفوس أهل البادية، وتتوقد في دمائهم. فلما خلى بنفسه في حبسه الطويل شكـا إلى الله مخلصا من ظلم البيئـة ومن نفسه الـظالمة، ولاذ بعـدله وعفوه ورحمته لواذ المقر النادم، قال:[2]

أذا العرش، إني مسلم بك عائذ   من النـار ذو بثٍ إليـك فقيـر
بغيض إلى الظلم ما لم أصب به   من الظلم مشغوف الفؤاد نغير

= فـاحمـد الله إن حصلت مصيـرا   واشكـرنـه أن لست ممـن تضيـم
واتـق الله واسـتـعـنـه وأيـقـن   أن أجـر الـصـبـور أجـر عـظيـم

يتيمة الدهر: ٤/٤٥١ من أبيات.

(١) الشعر (من أبيات) لعبد الملك بن غصن الحجاري في إعتاب الكتاب(ص ٢٢٠) لابن الأبار.

(٢) الحماسة للتبريزي: ٢/١٢ـ١٧.

وإني وإن قالوا: أمير وتابع وحراس أبواب لهن صرير
لأعلم أن الأمر أمرك إن تدن فرب، وإن تغفر فأنت غفور

وإذاكان في أبيات هدبة يكمن الخوف من عقوبة الموت العاجلة ومن حساب الآخرة، فالتوبة مبعثها هذا الخوف في أعماقه، فإن بعض الشعراء خلصت نفسه للتوبة رغبة لا رهبة ، وطابت نفسه أن تتطهر من الآثام وأن تصفو صفاء نقياً . وكان بعضهم من المعصية بمكان ، فتعلق بالتوبة تعلق الغريق بحرف المركب. والغريب أن يكون بعضهم من اللصوص وقطاع الطرق ممن أوغل في العصيان والمخالفات ، فأعادته تجربة الحبس إلى نقاء فطرته . ولعل في أبيات لعبيد بن أيوب العنبري ـ وكان من اللصوص ـ ما يشهد بهذا النقاء وبالتوبة المخلصة[1] .

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا ايمانهم أنني من ساكن النار
أيحلفون على عمياء ، ويحهم ما علمهم بعظيم العفو غفار
إني لأرجو من الرحمن مغفرة ومُنّةً من قوام الدين جبار
أنا الغلام عتيق الله مبتهل بتوبة بعد إحلاء وإمرار
خليت بابات جهل كنت اتبعها كما يودع سفر عرضة الدار

فلا ريب أن محنة الحبس كانت لها آثارها في الاتجاهات النفسية والسلوكية عند كثير من الشعراء .

ـ ٢ ـ
الجوانب العاطفية

الآمال والأشواق

الهموم والآلام في أشعار السجناء ناشئة من انقطاعهم عن العالم الخارجي ، وانطوائهم على أحزانهم . فهي هجمة غازية لهم من مؤثرات

---

(١) منتهى الطلب: ١/ ٢٤٩ (من قصيدة له في الحبس). وانظر في الغرض نفسه قصيدة على بحرها ورويها ، لجحدر بن معاوية العكلي، قالها في سجن اليمامة (منتهى الطلب: ٢/ ٢٦٢) .

الحبس المختلفة التي ظهرت في أقوالهم .

وثمة ارتداد في الاتجاه المضاد من النفس إلى خارج الأسوار ، وهو اتجاه فيه كثير من الإشعاع والتطلع الدافىء إلى المستقبل. ويتخذ هذا الارتداد النفسي على الهموم والآلام مظهرين : الأمل والأشواق .

بين الأمل واليأس :

وسجل الشعراء ما كان يعتريهم من ارتفاع الرجاء وانحساره ، وهو تلك الموجات العاطفية التي تطغى عليهم شديدة قاتمة حيناً وهينة مسعدة حينا ، فيخرج الشاعر من يأس إلى أمل، ومن أمل إلى يأس . وتقدم القصيدة البائية لهدبة بن خشرم العذري معرضاً لهذه المشاعر المتنافرة. فكان في قلبه الواجب شعاع من أمل على ما كان يغمره من البؤس النفسي إذ كان يترقب أن يقتل، فكان كمن يعاين الموت ثم يشيح عنه شاخصاً ببصره إلى مستقبل مستبهم لا يدري ما وراءه . ولكنه على استبهامه ، كان أملاً(١) :

عسى الهم الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف، ويفك عان ... ويأتي أهله الرجل الغريب
فإن يك صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدا لناظره قريب
على أن المنية قد توافي ... لوقت ، والنوائب قد تنوب

والأمل تقوية للنفس، وتثبيت ، وأبيات هدبة تدل على أمنيات فساح ، ولكن كان وراءها قلب يلهث من اليأس . فالشعراء، بما يستحدثون من الأمنيات، يحققون توازناً بين قوى النفس لينجوا من سطوة اليأس. أما الذين استيأسوا من النجاة فالانكسار والتشاؤم والتسليم ملء أشعارهم(٢) .

---

(١) الحماسة البصرية: ١/٤٤ ، الأبيات ٣ - ٤ و٨ و١٤ .

(٢) شعر المعتمد بن عباد في حبسه كله ذاهب في التشاؤم، من مثل قوله :

ماذا رمتك به الأيام يا كبدي ... من نبلهن ولا رام سوى القدر =

ومن المعروف أن الرجاء صنوالصبر، قوة نفسية ترفدها القيم الدينية والإنسانية ، وتصل قلب الشاعر بقوة الغيب التي هي فوق القوى جميعا ، فيستمد منها ثباتا مكيناً[1] . وقوام الرجاء الإيمان بتغير مجرى الأحداث المتوقعة تغيراً فجائياً . وهو منطق تقره طبيعة الأحداث نفسها التي تبدو للشعراء خارجة عن إرادة البشر وخاضعة للمفاجآت .

وليس لهذا اليقين أبعاد متفاوتة لدى الشعراء، فهم فيه على قدر مشترك ، ولكنهم يتفاوتون في الإكثار أو الاقتصاد في ترداده وبهذا الرجاء المستيقن افتتح علي بن الجهم إحدى قصائده التي تضرع بها إلى المتوكل من الحبس[2] . وأخرج الرمادي هذا المعنى إخراجاً لطيفاً في معرض غزلي مستطرف[3] .

وقالت: تظن الدهر يجمع بيننا ... فقلت لها: من لي بظن محقق

= أسر وعسر ولا يسر أؤمله ... استغفر الله كم لله من نظر
(ديوان المعتمد: ص ٦٠) .

(١) أنقذ هذا اليقين أحد السجناء كان الحجاج أمر بضرب عنقه ، فاستأناه بقتله يوماً واحداً، وأنشد الحجاج شعراً علم منه أن صاحبه يترقب فرجا من الله، فلم يخيب رجاءه . والأبيات صادرة عن نفس متماسكة يدعمها يقين عتيد :

عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى ... له فرجا مما ألم به الدهر
عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر
إذا لاح عسر فارج يسرا فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه يسر

وعلق الحجاج على الشعر: «والله ما أخذه إلا من القرآن: كل يوم هو في شأن» انظر كتاب الأرج في أدعية الفرج: ١٦٩ .

(٢) انظر المحاسن والأضداد (ص ٣٣ ـ ٣٤) ومطلعها :

غير الليالي بادئات عود ... والمال عارية يفاد وينفد
لا يؤيسنك من تفرج كربة ... خطب أتاك به الزمان الأنكد
فلكل حال معقب ولربما ... أجلى لك المكروه عما تحمد
صبرا فإن اليوم يعقبه غد ... ويد الخلافة لا تطاولها يد

(٣) نفح الطيب: ٣٦/٤ ـ ٤٠ .

ولكنني فيمـا زجـرت بـمقـلتي زجرت اجتماع الشمل بعد التفرق
فقد كانت الأشفار في مثل بعـدنا فلما التقت بالطيف قالت: سنلتقي

وهذه التفاؤلية التي تبدت في معرض فني معجب ، ووراءها نفس طامعة في الحياة طماعة من أراد أن ينسى توقع الموت . ولا شك أن هذا الشعر يباين شعر المعتمد الذي نسج اليأس عليه ظلالاً دكناء .

الأشـــواق :

وترافق الانفعالات المتفائلة تطلع الشعراء إلى الروابط والعهود التي كانت تشـدهم إلى العـالم الحـر : إلى الارض والأهـل والأحبـة ؛ وهـو عـالم غني بالذكريات ، قادر على إثارة العواطف المستكنة ، والأمنيات .

لـذاك كان الشعـر الذي هـو وليد هـذه الانفعـالات صـافيـاً في أطيـافـه الإنسانية ، عذبا مؤثراً ، مـوحيـا . وتتميز فيه هذه الخصائص بمقدار ما عظمت فيه شدة الانفعال والتوتر .

وللبوح العفوي الدفوق أعظم الأثر في التعبير المرهف المثير ، وهو ميسور للشعراء ، من البوادي والحواضر ، على قـدر سواء . وإن تـأثر التعبيـر بالتـرف والألوان الساطعة الوهاجة أو يسر العيش وألوان الطبيعة الهادئة . فوراء ذلك كله الإنسان بمشاعره الخالـدة ذات الرصيـد المشترك . وفي كـلا النمطين عـدوى إنفعـالية مؤثـرة ، وجمال وطـرافة ، لا يجفـوها الصـدق ولا يعترض مجـراهـا المتدفق التعمل الفني .

أمـا ما كانت العفـوية ، ذات النقـاء ، طابعـه المميـز فـأشعـار البـداة من اللصوص وغيرهم ، الذين قادهم سوءالطالع إلى سجن غريب بعيد ، فاصطلح

---

(١) إذا كان مؤلفو كتب البلدان والمعاجم الجغرافية وجدوا فيه ضالتهم من أسماء الأمكنة والمياه والبلاد فإن ما فيه من الطلاوة والعـذوبة والصـدق أغراهم وأغـرى الأدباء ومؤلفي المختارات به .

عليهم الحبس والاغتراب معاً . وحرموا من أنشطتهم الجمة: من ضرب في الفيافي، وغزو وسباق، واجتماع بالأحبة وافتراق، ومن أيام دواليك، فيها الأمن وفيها الخوف، بقيت منها ذكريات لا تنسى. ولم تحفظ المؤلفات القديمة شعراً أكثر من هذا الشعر، استشهادا به أو اختياراً له. وليس الغرض النقل من المختارات فهي مبذولة فيها، ولكن أن تتقرى سماته وألوانه باعتباره غرضا واسعاً محبّذاً من آداب السجون. وأكثر أشعار الحنين والشوق في شعر البداة مقطوعات أو قصائد قصيرة أو أبيات منتخبة[١] .

وأظهر سمات هذا الشعر النزوع إلى الأرض التي كانت المنشأ والموطن ومسرح الماضي[٢] . وهو نزوع فطري يسكب على الوطن الجمال ولو كان خلاء موحشاً، فلا ترى عين الشاعر المشوق بقعة تضاهي دياره بهاء. وإن صور تلك المرابع الغافية ما وراء الشعور، تتيقظ في الغربة والحبس، وتبث حنينا ونزوعا تواقاً لا يهدأ . وتلك صورة لهذا النزوع في أبيات لأعرابي مجهول، كان محبوساً في اليمامة، وكان يتشمم رائحة تراب أرضه من خلال الذكريات الموحية :

هل الباب مفروج فأنظر نظرة ... بعين قلت حجرا ، فطال احتمالها
ألا حبذا الدهنا وطيب ترابها ... وأرض خلاء يصدح الليل هامها
ونص المهارى بالعشيات والضحى ... إلى بقر وحي العيون كلامها[٣]

---

(١) لا شك أن أمثال هذه الأبيات مقتطفة من قصائد مفقودة اليوم. فإن الجغرافي واللغوي يستشهد بالشعر على قدر حاجة الاستشهاد. وثمة أبيات - مثلا - يستشهد بها ياقوت، ونجد بقيتها في قصيدة كاملة، أو غير كاملة، في الأغاني وغيره من المختارات. وقد ترد بعض القصائد خالصة في التشوق والحنين. ولكن كثيرا ما يرافق ذلك وصف لهموم الشاعر وأحواله .

(٢) يشارك في هذه الخاصة كل شعر في الحنين سواء كان صاحبه حبيسا أم نازحا .

(٣) معجم البلدان: الدهناء. وحجر هي اليمامة .

وكانت صور الوطن هذه ، إنسانه وحيوانه ، في ليله وضحاه ، زاد الشعراء ومعينهم النفسي الذي يسقي حرمانهم وعزلتهم وإيحاشهم . ولذلك كانت تتسع في خيالهم جميعا ملأى بالظلال والحياة والحنان . قال جعفر بن علبة الحارثي(١) :

ألا هل إلى فتيان لهو ولذة	سبيل وتهتاف الحنان المطوق
وشربة ماء من حدوراء بارد	جرى تحت أظلال الأراك المسوق
وسيري مع الفتيان كل عشية	أباري مطاياهم ببيداء سملق

ومن البيّن أن هذه الأبيات ، وما أشبهها ، ترسم اتجاها نحو العالم الفسيح الزاخر بالذكريات : العالم الذي يريده الشاعر ويعرفه ويحب أن يعرف فيه ويذكر. وقد ولدها حرمان حارق وظمأ لاهب إلى الحرية . فهي ترسم الحركة النفسية في طوايا هؤلاء السجناء ، وصراعها مع الحوائل والحواجز. وبعض الشعر أوضح في تصوير الصدام النفسي بالأسوار والمسافات الشاسعة ، وارتداد النفس حسيرة عاجزة عنها ، وفي تصوير ما يعقب ذلك من تلهف مضطرم وإمعان في النزوع إلى الربوع التي هي - في يقين الشاعر - الغاية من الخلاص ، وهي الشفاء والسعادة :

عذرتك يا عيني الصحيحة والبكا	فما لك ، يا عوراء ، والهملان
كفى حزنا أني تطاللت كي أرى	ذرى قلتي دمخ كما تريان
كأنهما ، والآل يجري عليهما ،	من البعد عينا برقع خلقان
ألا حبذا ، والله ، لو تعلمانه	ظلالكما ، يا أيها العلمان
وماؤكما العذب الذي لو وردته	وبي نافض الحمى ، إذن لشفاني(٢)

إن هذه التجارب النفسية ، في المحن القاسية ، وجدت ، عند هؤلاء البداة ، التعبير العفوي ينثال حراً طليقاً ، وقد احتوى التجربة ، من جوانبها

(١) معجم البلدان : حدورة والأغاني : ١١/١٤٥ .

(٢) معجم البلدان : دمخ .

كلها ، في عمقها وشدتها وجوهرها الإنساني . وهي على صباغها الصحراوي الساذج ـ مشحونة بطاقة كبرى قادرة على التأثير والإيحاء . والحق أن شعر الشوق والحنين لا يتفاوت فيه الشعراء إجادة بما لهم من الحظ الحضاري ، ولكن بما يحدث فيهم من الانفعال العارم المتوهج بالألم . ولعل الرصيد الإنساني في أشعار البداة ـ التي عرض بعضها ـ هو الرصيد نفسه في شعر المعتمد بن عباد الأسير ، على ما لمع فيه من البريق والأضواء . فمثل الأبيات التالية قيمتها الأدبية في المشاعر لا في ألوان الحضارة الساطعة(١) .

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... تغني قيان أو ترف طيور
بزاهرها السامي الذرا ـ جادة الحيا ـ ... تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده ... غيورين ، والصب المحب غيور
تراه عسيرا أو يسيرا مناله ... ألا كل ما شاء الإله يسير
قضى الله في حمص الحمام وبعثرت ... هنالك منا للنشور قبور

وللامكنة في هذه الأنماط من الشعر ـ من صحار وبلدان ورياض وقصور ـ مضمون عاطفي فريد ، إذ يجتمع حول اللفظ من أحاسيس الشاعر ما لا يمكن حصره ولا تفسيره . وكانت هذه الأسماء في قرارة الشاعر ذات إشعاع ثاقب . وما يبدو الآن ألفاظاً جامدة أو هامدة كان رموزا تحف بها هالة من المشاعر المتوهجة ـ وما زالت ـ بعد القرون ـ على شيء من الإيحاء حيث يحوم الحنين والذكريات حولها ، ولكن إيحاءها لأصحابها ومعاصريها فوق كل إثارة شعورية في المتأخرين .

وجعل بعض الشعراء من أسماء الأمكنة وحدها مركز إشعاع عاطفي وإيحاء . فتوالت في أبياته في معرض استذكار ، وبكل منها يرتبط شطر من ماضي الشاعر . ففي إحدى الروميات ركز أبو فراس حنينه العارم في أسماء

(١) ديوان المعتمد : ص ٩٨ ، الأبيات ٩ ـ ١٤ .

المحال، وعرضها، في المطلع ، عرضا لماحا، تعوم فيه الذكريات الحية. ولكن ما أضفاه الشاعر عليها من ذات نفسه وكوامن مشاعره لا يعدي السامع أو القارىء على بعد العهد وفي تلك الأبيات وقف البحر المجزوء والصيغ التقليدية دون انطلاق التعبير في آماد نفسية مترعة باللواعج والأحاسيس العفوية(١) .

التشوق إلى الأهل :

والشوق إلى الأهل بعض الشوق إلى الوطن . ولكن عند التشوق إلى الوطن تغمر صور الأرض ورائحتها وذكر الماضي غيرها من الصور . وفي التشوق إلى الأهل يبرز الإنسان ـ متمثلاً في الأحبة ـ وتتدانى الشخوص ، وتتمايز حتى تكون هي العنصر المهيمن في الصورة ، والباعث الأول للشجن .

وقد لا يخرج الحنين إلى الأحبة في أشعار السجناء عن الأطر المعروفة في أشعار الطلقاء ، ولا عن مداها العاطفي ، ولكنه يمتاز عند السجناء بأصالة التجربة وعمق الألم ، وتفجر الشوق نتيجة للكوابت القاهرة ـ فيتفجر التعبير تفجر الشوق من غير احتفاء بتحبيره ، ويأتي بوحاً ساذجاً ولكنه متدفق من الأعماقّ . ويغلب على النفس في جيشانها العاطفي سذاجتها وعفويتها فلا يتاح لها تعميق الأفكار أو الغوص وراء تأمل بعيد . ومن هذا النمط قول أحد أدباء القرن الرابع في نكبته(٢) :

أقول وفي فؤادي نار وجد ... لها ما بين أحشائي اتقاد
وللأحزان في صدري اعتلاج ... وللأفكار في قلبي اطراد

---

(١) انظر قصيدته التي مطلعها :

قف في ربوع المستجا ... ب وحي أكناف المصلي
تلك المرابع والمنا ... زل لا أراها الله محلا

ديوان أبي فراس: ٢/٣٢٦ .

(٢) هو الأمير أبو الفضل يحيى عبيد الله بن أحمد الميكالي من شعراء اليتيمة (٤/٣٧٩) وهي من (١٠) أبيات .

ألا هل بالأحبة من لمام · وهل شمل السرور بهم معاد
ولا ، والله ، ما اجتمعت ثلاث · فراقهم وجفني والرقاد

ويسخر الشعراء أحياناً ، في هذا الموقف ، عناصر كونية تكون مطية الشوق إلى الأحبة أو موضوع النجوى ، لما هم فيه من الاحتباس ، ولما استبد الشوق بهدبة بن خشرم ، وقد طال حبسه وشط عنه ذووه ، تمنى أن تتردد الرياح بينه وبين أحبابه بالأنباء . وكان تمنياً ساذجاً ولكنه حار يملأ النفس(١) :

ألا ليت الرياح مسخرات · لحاجتنا تراوح أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا · وتخبر أهلنا عنا الجنوب
بأنا قد نزلنا دار بلوى · فتخطئنا المنية أو تصيب

وهذه التمنيات محاولة اجتيازية يفرضها واقع الحبس على النفس . وقد يرتقي الشاعر إلى تيقظ عاطفي واعٍ ، تتماثل فيه عناصر الطبيعة واعية عاقلة ، مسعدة ، يهامسها في مناجاة وجدانية تشف عن حزن مستتر . قال أبو فراس في أسره(٢) :

يا ليل ما أغفل عما بي · حبائبي فيك وأحبابي
يا ليل نام الليل عن موجع · ناء علي مضجعه نابي
هبت له ريح شآمية · متت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات حبيب لنا · فهمتها من بين أحباب

البرق :

وكان البرق مطية من مطايا الاشتياق . وكان خطف وميضه يحمل الشعراء على أجنحته إلى ديارهم ، فكانت صور الوطن في ثنايا لمعان البروق . وتدل الأوصاف الجغرافية التي نعتوه بها على أنهم اتخذوا البرق رمزاً للوطن ، فهو

---

(١) الحماسة البصرية ١/٤٤ ، الأبيات ٥ ـ ٧ .
(٢) ديوان أبي فراس : ١/٥٢ .

يماني أو شآمي[1] . قال جحدر العكلي[2] :

ألـيس الله يعـلـم أن قـلبـي   يحبـك أيها البـرق اليمـاني
وأهـوى أن أعيد إليـك طـرفي   على عـدواء من شغلي وشاني

والحق كان البرق في أشعار السجناء عنصر إثارة ، كالثقاب يوقد نـاراً ، لشـريط من الذكـريات[3] . فعـدي بن زيد إذ لمـح البرق امتطاه، فأخرجه من سجنه ، وحلق به فوق الأمكنة والمنازل التي لم ينسها ، فعددها منزلاً منزلاً إذ تراءت لعين خيالـه [4] . فالبـرق له دور إيجـابي في تفرج السجـين من وحشة الانقـطاع والـظلام . فهو في أشعـار المحبسين أعمق مـدلولاً وأغنى رمـزاً مما هـو في أشعار الأحرار .

ولا فرق بين سجين من الباديـة أو الحاضـرة ، فالمـوقف والاستجابـات النفسية ، متشابهة . ولكن التأنق الفني قد يمسح على الشـعر الحضري رونقاً وأناقة في التعبير إذا أولى الشاعر نظمه عناية مقصوده[5] .

---

(١) قال أبو فراس :

ألا يـــا صــاحــبـي تـذكـرانـي   إذا مـا شمتـمـا البـرق الـشـآمي

ديوانه : ٢/ ٣٧١ .

(٢) منتهى الطلب : ٢ / ٢١٦ .

(٣) انظر رسالة أشواق بعث بها الحاجري من سجنه البعيد إلى الوطن ، منها :

يـا بـرق إن جـزت الـديـار بـإربـل   وبـدا عـليـك مـن الـتـداني رونـق
بـلغ تـحـيـة نـازح حـسـراتـه   أبـدا بـأذيـال الـصـبـا تـتـعـلق

ديوان الحاجري : ٧١ .

(٤) انظر ديوان عدي بن زيد : ص ٣٧ ق ٣ وأولها :

أرقـت لـمـكـفـهـر بـات فـيـه   بـوارق يـرتـقـين رؤوس شـيـب
تـلـوح الـمـشـرفـيـة فـي ذراه   ويـحـلوا صفـح دخـدار قشيب

(٥) قال محمد بن صالح العلوي من قصيدة تأنق بنظمها في مدح المتوكل، وأرسـل بها =

النيـــران :

وثمـة عناصـر معيشية أسـاسية في حيـاة الصحراء كـانت للسجنـاء مثـار أشواق . فالنيران التي كانت تـوقد ليـلاً في اليفاع والـوهاد نـداء اهتداء وعـون وسلام ، تقليد بدوي دخل دنيا الشعر رمز تلاق وأنس وبذل . وتعلق به السجناء باعتباره محوراً من محاور الماضي ، وتركزت حوله انفعالاتهم الثائرة وذكرياتهم الحنون . قال جحدر[1] :

يا صاحبي ، وباب السجن دونكما   هـل تؤنسان بصحـراء اللوى نارا
لوى الدخول إلى الجرعاء موقدها   والنار تبدي لذي الحاجات أذكارا

والشعراء يسترجعون على أضواء النار صورٍ ماضٍ ثري . ومن أكثر الصور وروداً تلك التي تبرز المحبوبة تصطلي بالنار المشبوبة في خباء تلعب به ريـاح الصحراء وهي صورة كان خيالهم يتوسعهـا ، ويبرز فيهـا إبراز دقيقـاً العناصـر الأسـاسية ، من العيـدان والعرف والجمـر ، والحناء والـريـح في إطـار منسق الجوانب ووجه المحبوبة فيها له حيز كبير ، فتتوضح قسمـاتها على ضـوء النار حتى يغـدو وجهها هـو العنصر المشـع ، كالكـوب المضيء ويسري الـدفء منهـا إلى قلب الشاعر فيبعث فيه الأشواق . ويلتف الماضي كله حول النـار ذلك أن النفس في عملية انتخاب داخلي تقبس منه أقوى عناصره لصوقاً بها وإيماء لهـا وفي هذه اللوحة البدوية التي رسمها خيال سجين هارب ، مثال فني موافق[2] :

وشـبت لنـا نـار لليلى شيـافـة   يـذكى بعـود جمـرهـا وقـرنفـل
أقـول لأصحاب الحـديد تـروحوا   إلى نـار ليلى بالعقـوبين نصطلي

=إليه من الحبس :

وبـدا لـه من بعـد مـا انـدمـل الهـوى   بـرق تـألـق مـوهـنـا لـمـعـانـه
فـدنـا لـينـظر أيـن لاح ، فـلم يـطق   نـظرا إلـيـه ، ورده سـجـانـه

مقاتل الطالبين ٦٠٩ والاغاني ٩٥/١٥

(١) معجم البلدان : الدخول .

(٢) هو القتال الكلابي . انظر ديوانه : ص ٣١ الأبيات ١٣ - ١٨ .

يضيء سناها وجه ليلى كأنما ... يضيء سناها وجه أدماء مغزل
غلا عظمها واستعجلت عن لداتها ... وشبت شباباً وهي لما تربل
بدت بين أستار عشاء يلفها ... تنازع أرواح جنوب وشمال
يكاد بأثقاب اليلنجوج جمرهما ... يضيء إذا ما سترها لم يجلل

ولا شك أن القتال الكلابي كان يستضيء بهذه الصورة ، وهو طريد العدالة في وحشة الصحراء وصمت الجبال ويستمد منها قوة لنفسه وأنساً لروحه الغارقة في الإثم والخوف ويفتح مغاليق عزلتها على ماضٍ دافيء منير .

واستطاع هذا التقليد الشعري أن يحتفظ بقيمته الإيحائية في أشعار من سجن من أهل المدن بعد قرون من أنق الحضارة . وراحت النار ترفع لعين الشاعر صورة المحبوبة من وراء الأفق ، فتتراءى له فتانة القسمات كما يهوى . ولا يغيب عن الصورة إلا صباغ الصحراء أما عنف الحنين في استحضار الماضي فهو حس مشترك ، كما تدل الموازنة بين شعر القتال وهذه الأبيات لمحمد بن صالح العلوي وهو في سجن المتوكل(١) :

نظرت ودوني ماء دجلة موهنا ... بمطروفة الانسان محسورة جدا
لتؤنس لي ناراً بليل توقدت ... وتا لله ما كلفتها منظراً قصدا
فلو صدقت عيني لقلت : كذبتني ... أرى النار قد أمست تضيء لنا هندا
تضيء لنا منها جبيناً ومحجراً ... ومبتسماً عذباً وذا غدر جعدا

الطيف :

وترائي المحبوبة هو حلم واعٍ يحياه الشاعر حياة داخلية نشطة ، خارجة من انغلاق الذات في الحبس القاهر ليتعلق بالرياح والسحاب والبروق والنيران . ويتخذ هذا النشاط الداخلي مسلكاً آخر في التعويض عن الحرمان لا يخرج فيه الشاعر إلى الطبيعة بل تفتح عليه الأبواب ليلاً ويزار . فإذا أغمض

---

(١) مقاتل الطالبيين : ٦٠٩ والأغاني : ١٥/ ٩٠ .

السجين عينيه من الليل وافاه الحبيب فتجسد له بلحمه ودمه وهيئته الفتانة وتلاقت الروح بالروح . وهذا النشاط النفسي في حقيقته كسابقه ، محاولة داخلية لتجاوز المكان المغلق ، وقهر الذلة المفروضة ، وتعويض غير إرادي عن لقاء اليقظة المفقود . ولذلك كان حديث السجناء عن الطيف ينم ـ أيضاً ـ عن تجربة الحرمان والألم والشوق وهي العناصر الأركان في تجارب شعراء الحبوس .

ومع أن حديث الطيف ليس من مستحدثات شعر الحبس ومع أنه ـ كما قال الشريف المرتضى ـ « باب قائم بنفسه ، قد أطال فيه الشعراء وأقصروا وأصابوا وأخطؤوا ، وتصرفوا وتفننوا »[1] . فإن حديث السجناء عنه يجب أن يحظى بعناية متميزة . فما نظموه هم لا يدانيه شيء في صدق الإحساس والمعاناة مما نظمه الطلقاء وإن افتنوا في المعاني وأبدعوا في التحليل . ذلك ان طيف الشاعر الحبيس يضعنا في حميم نوازعه النفسية المكبوتة ، في حال اللاوعي او شبه الوعي على حين يتأمل غير المسجونين الطيف تأملاً فنياً ويحللون معاني اللقاء والزيارة تحليلاً منطقياً في حال يقظة فكرية واعية [2] .

فالحديث عن الطيف يكشف عن الرغبات الغافية في أعماق السجين وتصف ما كان ينتابه من نزوع لاهف إلى استذكار الماضي ومواصلة الأحبة ، وكيف كان الشاعر إذا حضر طيف المحبوب ينسى نفسه وآلامه ويتبدل بشقائه سعادة ، وينصرف إلى نجوى عاطفية شجية بين الأشواق والذكريات . ويصف مطلع قصيدة لعدي بن زيد هذه التجربة : تجربة الشوق الحارق إلى اللقاء[3] :

أنّى طرقت ذوي شجن تعودهم   وكنت عهدي قطوف المشي محيارا

(١) طيف الخيال : ص ٣ .
(٢) انظر في « طيف الخيال ـ على سبيل المثال ـ أبياتاً لقيس بن الخطيم ص ٤٥ » ولأبي تمام (ص ٧ ـ ١٧) وللبحتري (ص ٢١ و٢٤) وللمرتضى (ص ٦) .
(٣) ديوان عدي بن زيد ص ٥٠ ، ق ٦ الأبيات ١ ـ ٧ و١٤ وهي (٥١) بيتاً .

أم كيف جزت فيوجا حولهم حرس ومترصاً بابه بالشك صرارا
فيا له من حبيب صادفت ألماً وكنت أنعمه بالا إذا زارا
ولم يكن غير شوق بعد بارحة وغرب عين تسح لعين إسرارا
وقد أراه على حال أسر به كأنما اجتلى في الصبح دينارا
وأحور العين مربوب له غسن مقلد من جناح الدر تقصارا
قد اصطلى ناره حيناً ويضرمها إذا خبا ضوءها الهندي والغارا
فخال ذلك أحلاماً أذكرها بعد النعيم وكان العيش أطوارا

وينطوي هذا الشعر على المؤثرات التي انطلق منها الحزن والبؤس فالمفارقات بين ماضي الشاعر المترف وحاضره البائس الزري هي مبعث الشقاء . وتشاهد المفارقات في الحبيب المرفه المنعم الذي لم يتعود السفر والتعب وركوب الأهوال وقد عاد صاحبه في حبسه الموحش الذليل . وبين الترف الكريم والذل المهين ، مفارقات كبيرة تبعث في النفس هزات شديدة . والبكاء سلوك الاضطرار لهذه الهزات الأليمة . وإذا أراد الشاعر باستزارة الطيف أن يحيي الماضي ويعيش في ظلاله الحالمة ، فراراً من قسوة الواقع ، فإن هذه القسوة الجافية وانعكاساتها المستمرة كانت أقوى من الحلم :

فخال ذلك أحلاماً أذكرها بعد النعيم وكان العيش أطوارا

فعندما يصحو الشاعر من الحلم يستدعي الرؤ ى التي ملأ أثرها نفسه ويصوغها في نمط يقرب من واقع الرؤيا التي عايشها ، على ما بين الوعي النفسي ـ عند النظم ـ والتجربة الحالمة من فرق في توتر الشعور .

ومن هذه التجارب الفنية ما وصفه جعفر بن علبة الحارثي لما اقتحمت عليه محبوبته الأسوار ، فجنح إلى ما يشبه الاتحاد الروحي بها ، وكان غارقاً في حال من الاندماج غير الواعي . وحين انتبه وثاب إليه وعيه وفارقه ما كان فيه من قبل كان كمن صحا على حقيقة رهيبة يجهلها ، فطغى عليه يأس فاجع وخيبة قاتلة . والأبيات تصدق إحساس صاحبها وحلمه الدفيء وتصف أعماق

التجربة . ولعلها خير ما يصور الرجولة التي هدمها الحبس وهي تناضل عن نفسها وتتطاول على الخوف والصغار ، في عين من أحبها وأحبته[1] .

عجبت لمسراها وأنى تخلصت ... إلي وباب السجن بالقفل مغلق
ألمت ، فحيت ثم قامت ، فودعت ... فكادت عليها مهجة النفس تزهق
فما برحت حتى وددت بأنني ... بما في فؤادي من دم الجوف أشرق
فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم ... لشيء ولا أني من الموت أفرق
ولا أن قلبي يزدهيه وعيدهم ... ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صبابة ... كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق
فأما الهوى والود مني فطافح ... إليك ، وجثماني بمكة موثق

والبيت الأخير تركيز لما بين السجين والمكان المغلق من صراع .

ولكن بعض التجارب في حديث الطيف تدل على أن العذاب والمخاوف ظلت ، في ساعة الحلم ، تغمر قلب الشاعر فلن يستطع أن يحقق تدانياً روحياً نجاح عدي وجعفر ، بل غلب واقع الحبس على حدة شعوره فجعل يبث الطيف هواجسه وهمومه . ولم يتجاوز شاعر كالسمهري عالم الوحشة والظلام ، ولم يتبين وجه طيفه على الحقيقة في غشاوة الظلمة[2] .

وأبعد من هذا عن التجربة المحضة إذ جعل الشاعر حديث الطيف مقدمة تقليدية لقصيدته ، وهي على ما تتضمن من الذاتية تصف المشاعر اليقظة ، والآلام الجسدية ، والرغبات الواعية والتمنيات البعيدة ، وخير النماذج أبيات لأبي الحسن التهامي جاءت في مطلع إحدى مطولاته في الحبس ، وكان نظمها

---

(١) انظر : الأغاني : ١١ / ١٤٣ .
(٢) انظر أبياتاً للسمهري في الأغاني : ٢١ / ٥٣ منها :
ألا طرقت ليلى وساقي رهينة ... بأشهب مشدود علَيَّ مسامره
وأنظر في منتهى الطلب : ١/ ٢٦٠ قصيدة له منها :
لقد طرقت ليلى ورجلي رهينة ... فما راعني في السجن إلا سلامها
فلما ارتفقت للخيال الذي سرى ... إذا الأرض قفر قد علاها قتامها

في ليلة عيد ، فكان الطيف وسيله لبث أشواقه الثائرة إلى وطنه ، وللشكوى من الغربة وللتخوف من المصير الغامض[1] .

وهذا الشعر وإن كان الصدق من مقوماته إلا أن البون واسع بين الاندماج في الماضي وبين الحديث عن آلام الحاضر ومخاوف المستقبل .

والحق أن كثيراً مما نظم في الطيف ـ في إطار الحبس ـ موضوع خصب للتحليل النفسي . ولكن إذا خفّ سلطان الانفعال والعالم الداخلي على النظم فلن يتوقع صدور شعر يستحق التوقف[2] .

الطيــر :

ومن متممات الحديث عن أشواق السجناء ما ورد في أشعارهم مِن ذكر الطير والحمام. والقصائد المتوسطة الحجم والمقطوعات التي نظموها في هذا العرض لا تختلف في الشكل والمضمون عما صاغه شعراء الحنين ، الذين عاشوا تجربة الاغتراب ـ على مدى العصور ـ في مناجاة الحمائم . ولكن ما نظمه السجناء ـ من ذلك ـ له محل ممتاز إذ هو ـ كشعرهم في الطيف ـ يضعنا أمام واقع الحبيس النفسي وهو يرزح تحت الأزمة ، وموقفه السلبي أو الإيجابي في مواجهة المحنة .

ومن الطريف أن نجد بعض البداة يربط إثارة النواح لكوامن نفسه بتشاؤمية ساذجة ، تتصل برواسب فكرية محلية ، لا تدل على غير تبدد عاطفي مشوش[3] :

وكنت قد اندملت فهاج شوقي ... بكاء حمامتين تجاوبان

---

(١) انظر القصيدة في ديوان أبي الحسن التهامي : ٥٣ ـ ٥٥ ومطلعها :
طرقت خيالاً بعد طول صدودها ... وفرتِ إليك السجن ليلة عيدها

(٢) انظر على سبيل المثال ثلاثة أبيات لأحمد بن فرج الجياني في نفح الطيب (٤/ ٤٦) وخمسة أبيات لمؤيد الدولة أسامة بن مقلد في معجم الأدباء (٢/ ١٧٧) .

(٣) منتهى الطلب : ٢/ ٢١٦ .

تـجـاوبتـا بـلحن أعـجـمـي على غصنين من غـرب وبـان
فكـان البـان أن بـانت سليمى وفي الغـرب اغتراب غيـر دان

ولهذه الأبيات شهرة في كتب الأمالي والمختارات . وليس فيها من الذخر الانفعالي غير الإثارة. ولعل مرد شهرتها الى هذا التقسيم المنطقي لمفاهيم مرتجلة لا تخضع للمنطق . ولهذا الانسياب العفوي في النظم على أنه يحسن أن يوضع عـامل الـزمن في الحساب . فمثـل هذا الشعـر يحـدث من الإثارة في الـوسط البدْوي ـ أو القريب من البداوة ـ في ذاك العصر ما لا يحدثه فينا مهما بذلنا من جهد استيحائي ، فإن القوة الإيحائية في الألفـاظ والصيغ تختلف عبـر العصور والبيئات .

ويقابل الانفعال الغامض في هذا الشعر وضوح في الإحساس والرؤ يا في غيره . وثمة أشعار كثيرة تتيـح تحديـد الموقف ورسم الحـركة العـاطفية بـدقة ويسر . ولعل أول حركة ترصد عن رؤ يـة الحمام هـي خفقان القلوب حزناً على الحرمان من الحرية وتلهفاً عليها . وهي واضحة في إقبال ابن المعتز على الطير وقد مر بسجنه عند السحر :

يـا نفس صبرا لعـل الخير عقبـاك خانتك من بعد طول الأمـن دنياك
مرت بنا سحـراً طير فقلت لهـا : طـوبـاك يـا ليتني إيـاك طـوبـاك
لكن هو الدهـر فالقيـه على حذر فـرب مثلك ينزو تحت أشـراك[١]

ولكن هاجس الرعب والقلق من سـوء المصير ـ في البيت الأخيـر ـ قطع على ابن المعتـز تحليقه في فسيـح المعاني التي تستـوحي من التحـرر والجـو الطليق .

أما المعتمد بن عباد فهو يحقق تفتحاً عاطفياً إيجابياً وتشاجيـاً صدوقـاً إذ

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء : ٢٨٩ . والفرج بعد الشدة : ٩٣ .
(٢) انظر بقية الأبيات في (البداية والنهاية : ١١/١٠٩) .

انطلق إلى جواء الحرية في توق عارم ، واستثار عواطف إنسانية خالدة بالمقابلة بين جماعة الطير السارحة وأولاده المطروحين في ربقة الأسر ، وحرك تعاطفاً داعماً لقدسية الحرية التي أوحى بها الطير الطليق . وبهذا يكون المعتمد أول من استشف حق الحرية المقدس استشفافاً إنسانياً يكاد يكون كونياً لو وسع الشاعر إطار تأمله بنظرة شمولية . فقال هو أيضاً لما مرت بنافذة سجنه القطا : [1].

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي	سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك - والله المعيذ - حسادة	ولكن حنيناً أن شكلي لها شكل
هنيئاً لها أن لم يفرق جميعها	ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل
وإن لم تبت مثلي تطير قلوبها	إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريني وإنما	وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل
بنفسي إلى لقيا الحمام تشوف	سواي يحب العيش في ساقه حجل
ألا عصم الله القطا في فراخها	فإن فراخي خانها الماء والظل

وقد بارك المعتمد الحرية والمتحررين في صفاء نفسي برئت من الحسد ، وفاضت إنسانية نبيلة . ولذلك انسابت الأبيات انسياباً عفوياً صادقاً مشاكلاً لانسياب المشاعر الدافقة في قرارة ذاته .

ويتضح ما في أبيات المعتمد من الرصيد الإنساني الخالص إذا قورنت بأبيات أبي فراس الحمداني السائرة في مناجاة حمامة سمع نواحها . فنرى فيها رجلاً كبيراً تعترك في طويته محنة قاسية طاحنة ، فيستدعي حمامته النائحة مشفقاً على قلبها الصغير وجرمها الضئيل :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تعالي أقاسمك الهموم تعالي

وهو - في الحق - يعاني مكاتمة ذاتية لإخفاء الضعف : يعترف به ثم

(١) ديوان المعتمد : ١١٠ - ١١١.

يتراجع ويتعالى »[1] . حقاً إن موقف البطل الذي تعود العطاء والنجدة دون الأخذ والاستنجاد ، موقف معجب ، ولكن الذي فقدناه في هذا الموقف هو الإنسان الصريح الذي لا يمسح دموعه في الخفاء :

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعي في الحوادث غالي

ولذلك لا يعد بيته المعجب تقسيمه ومقابلاته سوى صناعة ماهرة :

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندب سال

وليس وراء هذه المفارقات ـ في إطار التعجب المبهم ـ مضمون عاطفي موح .

ومع ذلك يظل أبو فراس أدنى إلى المشاركة الوجدانية والبث من الشاعر الطفرائي الذي أبى على الحمامة أن تحمل شيئاً مما يعتمل في نفسه من الهموم والأحزان أو أن تعرف ما يعاني ، فهو وحده الإنسان والطير لادراية ولا حس قال :

طليقة من إسار الهم ناعمة ... أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبهت بي في وجد وفي طرب ... هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت ... مني الليالي ولا تدرين ما شاني

وقد يعد « استبهام » الحمامة واستبقاءها خارج إطار المشاركة لونا من الواقعية غير غريب عن تقاليد الشعر العربي . ولكن القيمة الإنسانية في شعر السجن إذا فارق هذه الواقعية إلى إضفاء الوجدانية الصادقة التي تتدفق عفوية

---

(١) قال :
أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا لو تشعرين بحالي
ديوان أبي فراس : ٢/ ٣٢٥ .

(٢) انظر القصيدة في (ديوان الطفرائي : ٩٣) و (معجم الأدباء : ٤/ ٥٨) وهي (١٠) أبيات .

تمدها الأشجان . وقد حقق ذلك على نطاق واسع فريد شاعر أندلسي مرموق هو أبو عامر بن شهيد ألقى همومه وأحزانه على الطائر ، وبعث فيه من مواجده واتصلت بينها المشاركة حتى لابست أبواب السجن وجدرانه ، فعادت كلها قلوباً مسعدة تغدق على الشاعر عطفاً ومواساة قال في ذلك :[1] .

وما زال يبكيني وأبكيه جاهداً ... وللشوق من دون الضلوع وقود
إلى أن بكى الجدران من طول شجونا ... وأجهش باب جانباه حديد

إن مضمون هذا الشعر لا يدانيه ما ابتدعه الشعراء غير السجناء من الأوصاف والتشبيهات الفائقة التي لا تجاوز المظهر الخارجي في صفة الطير ومناجاته . وتحصل الفروق الجوهرية بينها إذا قورن ما سيق في هذا الفن هنا بقصيدة نظمها علي بن حصن الأندلسي في وصف فرخ حمام[2] .

تبين مما سبق أن الشعراء المحبسين سخروا الرياح والبروق والأطياف والطيور في التعبير عن آلامهم وأشواقهم . وهي وإن كانت عناصر قديمة في الشعر ، قد عبئت بطاقة نفسية صادقة .

- ٣ -
الجوانب الفكرية

الاعتبار والحكمة

أفضت التجارب بكثير من شعراء الحبوس إلى التأمل في سيرتهم وفي الأحداث التي عاشوها ، وانتهوا إلى نظرات هي خلاصة آرائهم في مواقفهم ، وفي زمانهم بعد كفاحهم وصراعهم والمآسي العنيفة .

ومن الممكن التمييز بين لونين من التأمل : في أحدهما يخلص الشاعر إلى حكمة عملية ممزوجة بكثير من الذاتية ، وفي الثاني يستنتج عبراً هادفة لها

---

(١) انظر القصيدة في نفح الطيب (٣/ ٣٦٠) .
(٢) انظر تاريخ الفكر الأندلسي : ٨٨ ترجمة حسين مؤنس .

طابع الشمول والعموم ، ويوجه بها الشاعر في غرض مقصود .

الحكمة العملية :

وبين الشعراء الذين عانوا السياسة ـ فأظفرتهم حيناً وطاحت بهم في السجون حيناً ـ توافق على عد حوادث الدهر درساً مفيداً للإنسان في صقل نفسه ، وإغنائه بالخبرة ، وتمرسه بالأمور . والأبيات التالية ـ للوزير العباسي سليمان بن وهب ـ على ما فيها من سذاجة في الأداء ـ تعلن عن الحكمة العملية التي أفادتها التجارب رجلاً ضرسته المحن ، ودفع ثمن المناصب[١] :

نوائب الدهر أدبتني ... وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً ، وذقت مراً ... كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم ... إلا ولي منهما نصيب

وقد تصدر هذه الحكمة عن نقد سلوكي ذاتي : ينظر الشاعر فيما قدم وجنى وفي العواقب التي آل إليها ، فيستخلص عبراً جليلة جريئة ، لا يقر بها إلا من رزق التجرد والإخلاص في المصارحة . من ذلك أن الوزير الحسن بن مخلد الكاتب أخبر أن خصومه يريدون إخراجه إليهم من الحبس ليناظروه في أمر الأموال ، فتأمل فيما سلف منه وما صار إليه ، فرأى أن خصومه يأخذونه بالمعاملة كما سبق له أن عامل الناس ، فأقر معتبراً[٢] :

من صادر الناس صادروه ... وكابر الناس كابروه
وباهتوه الحقوق بهتا ... وبالأباطيل ناظروه

---

(١) إعتاب الكتاب : ص ١٤٠ . والفخري : ص ٢٢٠ . وقال ابن مقلة في حبسه :

جربني الدهر على صرفه ... فلم أخر عند التصاريف
ألفت يوميه ويا ربما ... يؤلف شيء غير مألوف

الفخري : ص ٢٣٩ .

(٢) كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة : ص ٨٥ للتنوخي ، المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٣٠ .

بمثـل مـا راح من قبيـح　　أو حـسن منـه بـاكـروه

ومـا انتهى إليه الشـاعر من نـظريـة متعـارف عليهـا في عـواقب السلوك الإنساني استقاها من تجاربه ، وعاش كلا موقفيه : ظالماً ومظلومـاً ، وصاغهـا بتعبير قريب وجيز مشبع مضمونه بالحقيقة والتجربة والمعاناه ، وبالأسى والندم والاتعاظ الذاتي .

والشعراء الذين كان السجن لهم نهاية مرحلة أو نهاية عمر تبدو الحكمـة عندهم أعمق وأوسع مدى ، مفعمة بحزن كسير[1] . وتتـركز كلهـا حول نـظرة انقلابية للأحوال والأوضاع وسقوط الإنسان ضحية هـذا النامـوس الكوني[2] . والصلة وثيقة بين هذه النظرة وظروف العصر السياسية . فالمؤمرات والانقلابات والثورات هي الباعث الحقيقي لها فالانقلاب الخارجي إذا زعزع قرارة الشاعر رافقه انقلاب داخلي فإذا المكاسب السابقة أعراض لاثبات ولا معنى لها . ولا يكتشف الإنسان باطلها حتى يفقدها . وأعمق ما يكون يقيناً بهذه النظرة إذا بلغ القعر في سقوطه . وذلك بما يتاح لـه من المقارنـة بين ماض خـلاب وحاضـر بائس ، ومن التأمل فيهما .

وربمـا كان لسـان الدين بن الخـطيب أعمق إحساسـاً بـالمفـارقـات بين الحالين إذ كان في قعر الهاوية ، وتراءت لـه مأسـاته كـارثة كـونية تهيمن على مصائر أمثاله قال[3] :

---

(١) وثمـة قصيدة حسنـة لابن المعتز (٤٤ بيتـاً) ومقطوعـة لإبـراهيم بن المهـدي (٧ ابيات) وأخرى للسان الدين الخطيب (٨ أبيات) تصلح لسبر أبعاد العبر عمقاً واتساعاً .

(٢) قال إبراهيم بن المهدي :

وهـل لـيـلة فـي الـدهـر إلا أرى بـهـا　　تـثـبـت أقـدام وزلـة أقـدام
كـذاك رأيـت الـدهـر يقـدم صـرفـه　　عـلى كـل حـال بيـن بـؤس وإنـعـام

(حل العقال : ١٣٥) .

(٣) نفح الطيب : ٧/ ٣٩ .

بعـدنـا وإن جـاورتنـا البيـوت وجئنـا بـوعظ ونحـن صمـوت
وأنـفـاسنـا سـكـنـت دفـعـة كجهـر الصـلاة تـلاه القنـوت
وكنا عـظامـاً فصرنـا عـظامـاً وكنـا نقـوت فهـا نحـن قـوت
وكنـا شمـوس سمـاء العـلا غـربنا فناحت علينا السمـوت
فكم جـدلت ذا الحسام الـظبا وذو البخت كم جـدلتـه البخـوت
وكـم سيـق للقبـر في خـرقـة فتى ملئت من كسـاه التخـوت
فقل للعدا : ذهب ابن الخطيب وفـات ، ومن ذا الـذي لا يفـوت
ومن كـان يـفـرح مـنـهـم لـه فقـل : يفرح اليـوم من لا يموت

وحياة ابن الخطيب في حد ذاتها عظة وعبرة ، لما كان لـه من السلطان العريض والشهرة البعيدة قبل أن ينكب . واستطاع هو أن يتأمل مأساته وأن يقرأ فيها العبرة بحروف كبيرة بارزة وأطل منها على النهاية الحتمية للإنسان ، وامتلأت نفسه قنوطاً ورهباً هادئاً وهويستسلم للمصير المحتوم الذي يجرف تياره أشلاء البشرية .

الحكمة الهادفة :

من الممكن أن يجمع الباحث طائفة حسنة من الحكم والأقوال الهادفة توخى بها الشعراء تحريك العواطف الفطرية الإنسانية في الملوك بعد أن طغى على قلوبهم قسوة السلطة وجبروتها .

وأطول الشعراء السجناء باعاً في هذا الجانب هو عدي بن زيد ، ففي ديوانه عدة قصائد تشغل الحكمة حيزاً كبيراً في كل منها(١) . وكان لثقافة الرجل ومقوماته النفسية الأثر الأكبر في هذا الجانب الحكمي . فقد كان نقي السريرة ، نافذ النظر ، على ما عرف عنه من طلب المتاع واللهو والجري في ميدان المنافسة السياسية . وكان توسعه في الحكمة لينفذ بها إلى قلب النعمان بن المنذر

(١) انظر القصائد في ديوان عدي (ص ٤٢ و ٦٣ و ٨٤ و ١٣٢) .

وقد وقف أعداؤه من دونه وملؤوه عليه حقداً . وكان النعمان ، إذا غضب ، عاتياً لا يرضى . فاجتهد عدي في إقناعه أن الانسان ضعيف مآله إلى الموت ، وأية قوة تلك التي يطويها الموت ، توسع عدي بهذه الفكرة توسعاً ثرياً في معرض الحكمة المباشرة ، كقوله[1] :

ألا من مبلغ النعمان عني علانية ، وما يغنى السرار
بأن المرء لم يخلق حديدا ولا هضبا توقله الوبار
ولكن كالشهاب سناه يخبو وحادي الموت منه ما يحار
فهل من خالد إما هلكنا وهل بالموت ، يا للناس ، عار

أو في معرض قصصي غني بالمشاهد والحركة . فتضرب الأمثال من زوال الدول الغابرة التي كانت في منعة وعظمة ثم وافاها القدر بالهلاك . فالإنسانية إلى فناء على الرغم من إرادتها : القوي والضعيف ، والعزيز والذليل ، والقاهر والمقهور ، والظالم والمظلوم إلى خاتمة واحدة هي الزوال . فإذا كان الأمر كذلك فما نفع الظلم للظالم ، هل يطيل في بقائه أو يزيد في سلطانه أو يمنع عنه الموت ، لقد طرح عدي هذا السؤال على الطغاة وأولى البطش في سخرية الحكيم الذي رهقه الألم :

وما ظلم امرىء في الجيد غل وفي الساقين ذو حلق طويل[2]

وأي جهل إذا نسي الإنسان هذه الحقيقة ، وحكمته نزواته وأحقاده .

هذه التساؤلات الحكيمة هي مرامي الأمثال والقصص العديدة التي ضربها عدي للنعمان مثلاً . وهي طريقة مهذبة مع الملوك في النصح والعتاب والتحذير بل التهديد بما ينتظر الظالمين جميعاً . ولم تغلب في النعمان طبيعته العاتية الحاقدة غير أنها كانت خير سبيل للتنديد والوعيد . ولم تكن أمثالاً وعبراً

---

(١) ديوان عدي . ص ١٣٢ .
(٢) ديوان عدي : ص ٣٣ ، ق١ . البيت ٢ .

مدرسية جامدة بل توجه بها إلى هذا الهدف ، فهي تنبع من النفس مصحوبة بالرجاء نحو هدفها ، ففي ثنايا عرضها حيوية وصدق وعمق .

ولا نجد في الإسلاميين غير أبي العتاهية ينظم في حبسه الحكمة الموجهة الهادفة ، وفي نطاق محدود[1] وهي لا تخرج عن فلسفة عدي في الإنسان وسلوكه الظالم ومصيره . ولكنها تمتاز عنها بلبوس ديني مهيب . ويوجه الألم من الظلم الحكمة والموعظة توجيهاً أظهر وأعنف[2] :

أما والله ، إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
تروم الخلد في دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم

وفي إحدى المقطوعات استهدف أبو العتاهية الخليفة الرشيد استهداف الصياد للطائر وجهد في صياغة أفكار النهاية والموت حتى أبكاه[3] . وتدور حكمة أبي العتاهية حول فساد طوية الإنسان وغروره وحول ضعفه وانتهائه إلى الموت .

والفارق بين أبي العتاهية وعدي أن الأمل في الإنسان ، عند أبي العتاهية ، كان ضعيفاً لأن الإنسان يتجاهل حقيقتين : نفسه الشريرة ونهايته . ولم يكن عدي فاقد الثقة بالإنسان ولا ضعيف الرجاء في صلاحه إذ لا أثر في حكمته لتلك التشاؤمية السوداء الغالبة على شعر أبي العتاهية .

والفارق بينهما أيضاً أن عدياً كان يرى في الموت رادعاً للإنسان عن الكبر والظلم والعدوان ، وليس في نفسه وحكمته خوف من النهاية بل اتعاظ بها . أما

---

(١) هي ثلاث قصائد نظمها في حبسه ، وتوجه بها إلى الرشيد . وهي في (الأغاني : ٣/ ١٥٤. ، ١٥٥ ، ١٧١) .

(٢) الأغاني : ٣/ ١٥٥ من ١٠ أبيات .

(٣) هي في الأغاني (٣/ ١٥٤) ١٦ بيتاً ، مطلعها :

خانك الطرف الطموح ... أيها القلب الجموح

أبو العتاهية ففي حكمته ـ على ما فيها من جلال المعنى الديني ـ خوف من الموت ونهاية الإنسان ، ويواكب هذا الخوف حزن عميق على دنيا زايلة .

أما الشعر الحكيم المدرسي الذي لم يكن له هدف سوى ضرب الأمثال وتوجيه النصح المثالي فليس من شأن هذا البحث لأنه لا يمت إلى السجن بسبب فكري أو نفسي سوى أن نظم بين جدرانه[1] .

ـ ٤ ـ

وصف المعتقلات والعذاب

ثمة إشارات كثيرة إلى صفات الحبوس في ثنايا القصائد ، ولكن ما من قصيدة خالصة في هذا الغرض . ومع ذلك يعد وصف الحبس غرضاً من أغراض شعر السجن ، فهو ـ بمثابة شعر البيئة في قصائد العرب ـ يرد بين الأغراض المشهورة .

وللوزير الأندلسي الشاعر عبد الملك بن إدريس الجزيري محاولة جادة في وصف معتقله بطرطوشة ، في حصنها المنيع ، في ذروته المنيفة . وأورد مؤرخو الأدب بضعة أبيات من هذا الوصف . وهو ـ على الأرجح ـ القسم الثاني من قصيدة طويلة ذات مقدمة ذاتية . وتصف الأبيات موقع الحصن أما الحبس وأحواله وما يجري فيه فلم يقتطف من وصفه شيء[2] .

---

(١) مثال هذه الحكم قصيدة عبد الملك بن إدريس الجزيري التي صاغ فيها لابنه الحكم من الآداب والسنة لتسدد خطاه في الحياة . انظر : (يتيمة الدهر : ٢/ ٨٨ ـ ٩٠) و(بغية الملتمس : ٣٧٤ ـ ٣٧٥) .

(٢) عبد الملك بن إدريس الخولاني المعروف بالجزيري سجنه المنصور بن أبي عامر ثم ابنه المظفر في طرطوشة حتى مات . نظم في معتقله قصيدة طويلة ضمنها ، نصائحه لابنه ، وفي صفة معتقلة قال :

في رأس اجرد شاهق عالي الذرى ... ما بعده لمؤمل من معمر
يهوى إليه كل أعور ناعق ... وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى إليه مرة ... من دهره يشكو انقطاع الأبهر

انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس : ١١٥ ، والمطمح : ١٣ ، فهرست ابن خير : ٤١ .

لذلك تستخلص صفة السجون من المقطوعات والقصائد المتفرقة في مراجعنا ، وضم بعضها إلى بعض يعين في تكوين صورة واضحة لواقع الحبوس .

منظر السجن الخارجي

وألمحت أبيات الشاعر الجزيري إلى الشكل الخارجي العام للحصن الذي حبس فيه[1] . ولكن بعض الأبيات تضيف تفصيلات أخرى . فكانت الأسوار التي تدور بالسجن فيها الأبراج للحماية والحراسة . وليس في السور منفتح إلا موضع الباب ، وكان الباب من الخشب الغليظ قد أحكم إغلاقه بالأقفال ، وله عند الفتح والإغلاق صرير عال .

وذكر جحدر العكلي اللص مناعة سجن دوار ، فقال :[2]

وقد دعوت وما آلو لا سمعه   أبا الوليد ودوني سجن دوار
في جوف ذي شرفات سد مخرجه   بباب ساج أمين القفل ، صرار

وهذه صفة السجون كلها ، فالكثير من الشعراء شكوا من تحصين الحبوس وارتفاع أسوارها قال أحد السجناء[3] .

فبت بأحصنها منزلاً   ثقيلاً على عنق السالك

وتدل بعض الأبيات على أن زمراً من الكلاب كانت نقبع حول السجن

---

(١) انظر الحاشية السابقة .
(٢) منتهى الطلب : ١/٢٦٢ .
(٣) البيان والتبيين : ٣/٦٣ . وفيه أيضاً قول أحد السجناء :

ولي مسمعان وزمارة   وظل مديد وحصن أمق

المسمعان : القيدان ، والزمارة : خشبة توضع في عنق الكلب . وقال عبيد الله بن الحر لما استقدمه مصعب بن الزبير وسجنه في الكوفة :

فكان جزائي إذا أنخت ببابه   حجول وأحراس وصعب مراتبه

(منتهى الطلب : ١/٢٦٢ .

تنبح كلما فتح بابه لداخل أو خارج [1] :

إذا نبحت كلاب السجن حولي   طمعت هشاشة وهفا فؤادي
طماعة أن يدق الباب قومي   وخوفاً أن تبيتني الأعادي

وإن جوارح الطير تألف أسواره والرحبة من حوله ، وتأخذ من جيف الحيوانات أو جثث القتلى :

ذلك خير من فيوج على البا   ب وقيدين وغل قروص
أو من نسور حول موتى معا   يأكلن لحما من طري الفريص[2] .

ويشير بعض الشعراء الى الأبواب إشارات ذات مدلول خاص :

إذا قمت عناني الحديد وغلقت   مصاريع من دوني تصم المناديا[3]

فهي الحاجز المنيع دون الحرية :

إذا تحرك باب السجن قام له   قوم يمدون أعناقاً وأبصاراً[4]

وتفتح أحياناً عن مفاجآت مرعبة ، فيستدعىٰ قومٍ إلى القتل والعذاب :

إذا حرسيّ قعقع الباب أرعدت   فرائص أقوام وطارت قلوبها

وفي الشعر ذكر للكوى ، وهي نوافذ ضيقة يتسرب منها النور والهواء ، قال المرار الفقعسي [6] :

---

(١) قتل مصعب بن عمر الشاعر ابن الدمينة ، وحبس في تبالة ، وكان ينتظر أن يخرجه رجال قبيلته ، فقال أبياتاً منها البيتان . (الأغاني : ١٥/١٤٧).

(٢) من قصيدة لعدي بن زيد وهو في سجن النعمان . ديوان عدي بن زيد : ٦٩ .

(٣) من قصيدة لأبي محجن الثقفي في حبس القادسية . (الأغاني : ٢١/١٣٩).

(٤) من أبيات لجحدر العكلي في (معجم البلدان : الدخول).

(٥) للسمهري اللص : انظر الخالديين : الأشباه والنظائر : ٢/١٣٢ . والأغاني ٢١/٥٥ .

(٦) الأغاني : ٩/١٥٣ .

أئن ربدت في كوة السجن ضوؤ ها عشية حل الحي بالجزع والعفر

ولعل عدي بن زيد لمح البرق ، من كوة محبسه حين قال [1] :

أرقت لمكفهـــر بــات فيــه بــوارق يـرتقين رؤوس شيب

وليس في الشعر وصف مفصل لأقسام السجن ومساربه ، ولكن فيه وصفاً محدوداً لمكا ن السجين الضيق .

في منزل مثل ضيق القبر أوسعه دخلته فحسبت الأرض تهوى بي [2]

ولدناءة الموضع وقذارته :

على أنني من ضيق حبسي وحيلتي بليت كما حدثت عن خفش أيم
أجانب فيه ذكر خلي تكرما وأخجل من طيف الحبيب المسلم [3]

ولحشراتها السامة المروعة التي دعا عليها المعتمد بن عباد بـالهلاك في سجن أغمات :

ويـا عقاربهـا لا تعدمي أبـداً شحا وعقراً ولا نوعاً من الضرر
كما ملأتن قلبي مذ حللت بها مخافة أسلمت عيني للسهر [4]

وللهول الذي يذهل العقل حتى شبه بيوم الحشر، قال الفرزدق : [5] :

أرى السجن سلاني عن الروعة التي اليهـا نفـوس المسلمين تحـوم
عجبت من الآمال والموت دونهـا ومـاذا يـرى المبعـوث حين يقـوم

---

(١) ديوان عدي بن زيد : ٣٧ .

(٢) البيت لمحمد بن مسعود ، وهو في حبس المنصور بن أبي عامر ، (الذخيرة . ١ /٢ ص ٧٩). وللشعراء في مثل هذا كثير انظر أبا نواس (ديوانه: ص ٤٦١) ومحمد بن صالح العلوي (مقاتل الطالبيين : ٦٠٩) .

(٣) لعبد الملك بن غصن الأندلسي ، انظر ابن الأبار : إعتاب الكتاب: ٢١٩ .

(٤) ديوان المعتمد بن عباد ١٠٠ .

(٥) ديوان الفرزدق: ٢ /٢٦٢ .

وكانت الحياة فيه هي الموت عند كثير من الشعراء قال جحدر [1] :

كـأن سـاكنـه حيـاً حشاشته ... ميت تردد فيه السم في الجسد

ويذيع هنا التشبيه من إحساس صادق بواقع السجن . وصور أبو عامر بن شهيد الأندلسي الجو الغامض الذي تنشره الظلمة والوحشة في الليـل واختلاط الأصوات المبهمة ، فتبدّى له عالماً مرعباً تأهله الجن :

فمن مخبر الفتيان أن أخـاهم ... مقيم بـدار الـظالمين وحيـد
مقيم بدار ساكنوها من الأذى ... قيام على حجر الحمام قعـود
ويسمـع للجنان في جنبـاتهـا ... نشيد كترجيع الصدى ونشيد [2] .

وهذه صـور ، وإن تكن جزئية ، تتيـح رؤ يا واقعيـة لأوضاع الحبـوس وأحوال السجناء ، ففي بيتين من شعر جحدر يلوح الليل القاسي الذي لا يجد فيه المحبوسون سبيلاً إلى النوم من آلام الجسـد والنفس :

لـيـسـت كـليـلة دوار يـؤ رقـنـي ... فيهـا تـأوه عـان من بني السيـد
ونحن من عصبة عض الحديد بهم ... من مشتـك كبـله فيـهم ومفؤود [3]

ويـوضـح بيت للفـرزدق مـا يحـدث بينهم من التعـاطف والتـواسي عـلى اشتراكهم في الضراء .

أبيت أقـاسي الليـل والقـوم منهم ... معي سـاهـر لي لا ينـام ونـوم [4]

وأحياناً تزجى الليالي الطويلة بالأحاديث :

يـطول علـيّ الليـل حـتى أمـله ... فأجلس والنهدي عندي جالس [5]

---

(١) معجم البلدان : ديماس .

(٢) من قصيدة طويلة كتبها إلى ابن هود مستشفعاً به (نفح الطيب : ٢/ ٣٦٢) .

(٣) معجم البلدان : دوار .

(٤) ديوان الفرزدق : ٢/ ٢٤٨ . صادر .

(٥) البيت لعطارد بن قران اللص من عدة أبيات في (معجم البلدان : نجران) وكان معه في حبسه رجل من نهد .

وهذا الوصف الصادر عن ذاتية تنضح شقاء كثيراً ما يلم في عدة أبيات بمشهد منسق لجانب من واقع الحبس وأهله وأحوالهم النفسية . قال السمهري[1] :

لقد جمع الحداد بين عصابة تساءل في الأقياد : ماذا ذنوبها
مقرنة الأقدام في السجن تشتكي ظنابيب قد أمست متيناً علو بها
إذا حرسّي قعقع الباب أرعشت فرائص أقوام وطارت قلوبها
بمنزلة أما اللئيم فشامت بها وكرام الناس باد شحوبها

ولدينا بعض مقطوعات الشعراء أندلسيين وغيرهم تصف هذا الوسط المحموم الذي اصطلح فيه على الكريم الحبيس المنزل الوضيع والمجتمع المتدني [2] . ولا شك أن هذه اللمحات الوصفية المركزة تنشر أحاسيس حادة .

السجانـــون :

ويقترن بهذه الأوصاف ، العارضة المنبثقة من الألم ، ذكر القائمين على الحبوس إذ كان للسجان هيمنة على الحبيس بعثت فيه الرعب ونلمح ظل هذا الرعب الخفي في قول عدي بن زيد [3] :

في حديد القسطاس يرقبني الحا رس والمرء كل شيء يلاقي

واستهلت بعض القصائد بذكر السجان لما كان له من الظل الثقيل :

حي ذا الزور وانهه أن يعودا إن بالباب حارسين قعودا[4]

---

(١) الأشباه والنظائر للخالديين : ٢/١٣٢ .

(٢) انظر مقطوعة في (المغرب في حلى المغرب: ١/٢٠٦) لأبي الأصبغ عيسى بن الحسن . وأخرى في (إعتاب الكتاب : ٢٢٠) لعبد الملك بن غصن الحجازي . وانظر لجحدر بن معاوية العكلي أبياتاً في (معجم البلدان: البيضاء).

(٣) ديوان عدي بن زيد: ص ١٥١ ، تخريج ٩٢ /البيت ١٢ .

(٤) شعر يزيد بن مفرغ الحميري : ص ١٣٧ من ١٥ .

ويرد ذكرهم وروداً عابراً ـ ولكنه مؤثر ـ كما في هذه الأبيات ولكن كثيراً ما يقص الشعراء حوادثهم مع هؤلاء أو رأيهم فيهم .

وكان يسحق الشاعر إحساس باهظ بالذل ترجمه عنه أبو فراس بقوله :

قد عذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل [١]

وذلك من جراء الخضوع المطلق للسجان ، وكان العزيز الكريم يفقد في هذا الخضوع المستذل ما كان له من تصون وتكرم ، ويستسلم استسلامه للقدر المضروب ، ويشف قول جعفر بن علبة الحارثي عن هذا الشعور :

ويصبر فيه ذو الشجاعة والندى على الذل للمأمور والعلج والوالي [٢]

فكانت العلاقة بين الفريقين أساسها العداء والكيد من جانب والخوف والبغض من جانب فيمارس السجان أحياناً من ضروب العنف والتضييق وضراوة الاضطهاد ما يملأ قلب سجينه حقداً . وكان أبو نواس يتفجر غيظاً وألماً عندما صب على سجانه هذا الهجاء :

وقيت بي الردى زدني قيودا وثنّ عليَّ سوطا او عمودا
ووكل بي وبالأبواب دوني ، من الرقباء شيطاناً مريدا
وأعف مسامعي من صوت رجس ثقيل شخصه يدعى سعيدا
فقد ترك الحديد على ريشا وأوقر بغضه قلبي حديدا [٣]

ويدل بعض الشعراء أن الأزمة بين السجين والسجان تتفاقم الى عداء مميت يحمل المقهور حملاً على الانتقام لإنسانيته من ظالم لا يعرف الرفق . وعاش القتال الكلابي هذه الأزمة بكل ما فيها من غيظ وألم وتربص بسجانه حتى قتله وفر ، وكانت ذكرياته معه ذات مرارة وأسى بالغ حين ذكر هذه الحادثة في

---

(١) يتيمة الدهر : ٢/٢٣٤ .

(٢) الأغاني : ١١/١٤١.

(٣) ديوان أبي نواس : ص ٤٥٤ .

القصيدة التي أعقبت فراره من الحبس :

إذا قلت رفهني من السجن ساعة   تتم بها نعمى علي وتفضل
يشد وثاقي عابساً ويشدني   إلى حلقات في عمود مرمل
أقول له والسيف يقحف رأسه :   أنا ابن أبي أسماء غير تنحل[1]

وفي أمثال هذا الشعر يسبر الشعور بالمهانة الفادحة في ذاك الوسط المجهول ، وما كان يعانيه الشاعر من الانهيار المفاجىء ، والتعفر القاهر ، وسقوط القيم ، وما يعتري النفس من الارتياع والذعر ، فكثيراً ما كان يترك كرام الناس لهذه الطبقة من سجانين سفلة يعبثون بأقدارهم وفي هذه الشكوى الغاضبة التي رفعها أبو إسحاق الصابي عندما حبس مع جماعة من الكتاب دلالة بليغة :

أنا بين إخوان لنا قد أوثقوا   بسلاسل وجوامع وقيود
وموكلين بنا نذل لعزكم   فكأننا لهم عبيد عبيد
والله ما سمع الأنام ولا رأوا   بقرا توكل قبلهم بأسود
من كل حر ماجد صنديد   في كل وغد عاجز رعديد[2]

ومن هذا الشعر قصائد ذات قيمة إنسانية كشفت عن سلوكية بعض القائمين على الحبس والعذاب وما فيها من التناقض بين النية والعمل أو ما بين الدوافع والتنفيذ . فينفذون التعذيب إرضاء لأولي الأمر ليحتفظوا هم بمناصبهم أما فيما بينهم وبين أنفسهم فلا يرون عداءً مباشراً بينهم وبين هؤلاء المنكودين فيجنح بعض هؤلاء المسؤولين إلى التخفيف والرفق النسبي . وأحسن أبو إسحاق الصابي تصوير هذا النموذج من أصحاب السجن ، ونفذ إلى أعماق

---

(١) منتهى الطلب : ١/٢٦٥ . وديوان القتال : ص ٣١ .
(٢) يتيمة الدهر : ٢/٢٢٠ .

سلوكيتهم بتحليل متميز ممتزج بتهكم ساخر ، لمح من خلاله انهيار القيم والمعايير الإنسانية فيما يصب على المحبسين من النكال في عرض ظاهره الرضى والثناء وباطنه فاجعة ودموع . والاجتزاء بالأبيات التالية يكفي دليلاً[١] :

لله در أبي محمد الذي	ضمنت إساءته بنا إحساناً
طويت جوانحه على خيرية	مكتومةً تبدو لنا أحياناً
عكس النفاق لنا فأخفى باطناً	حسناً وأظهر ضده إعلاناً
مستخرج للمال مضطر إلى	استعمال ما يرضي به السلطانا
متوعر الجنبات في استخراجه	وإذا تعطف للفتوة لانا
فتراه في ديوانه مستأسداً	ليثاً وفي خلواته إنسانا
رجل يؤدبنا ونحن مشايخ	مثل المعلم يضرب الصبيانا
نهواه علما أنه خير لنا	من غيره إن قلد الديوانا
فالله يحفظه علينا راضياً	ويعيذنا من بأسه غضبانا

التعذيب والتشهيـــر :

ومن أغراض هذا الشعر الحديث عن العذاب الذي مسّ العديد من الشعراء، فذكروا ما أنزل بهم منه في مقطوعات أو قصائد قصيرة . وغايتهم من هذا الوصف أن يخففوا عن نفوس ما أثقلها العذاب وأن يفضحوا الظالمين ، وأن يعطفوا إليهم قلوب المسؤولين بإثارة دواعي الشفقة والرحمة فيهم . ولا شك أن الشاعر كان يريد أن يدل على مكانه وحاله في ذلك العالم المجهول .

ويشير السجناء إلى أنواع شتى من العذاب تبدأ من الثياب المتسخة حتى صارت مضرب المثل في القذارة والرثاثة [٢] ذكر هدبة بن الخشرم أن زوجه

---

(١) أوردها الثعالبي فيما اختار لأبي إسحاق الصابي (اليتيمة: ٢ / ٢٦٩) وهي (١٥) بيتاً . وقدم لها بقوله : «وقال في مستخرج مال كان يرفق به حال مصادرته ويتشكر له تلك الحال » .

(٢) وصف الخطين المحرزي ـ من اللصوص ـ رثاثة ثيابه ، وهو مطارد فلم يجد لها =

ارتاعت من لون جلده الذي سودته الأوساخ[1] .

رأت ساعدي غول وتحت ثيابه جاجيء يدمي حدها والحراقفا

وكانوا يُلبسون جباب الصوف مبالغة في الإيذاء والإذلال[2] . وإليها ألمح أبو فراس في إحدى رومياته[3] :

يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصوف ما نبدلها

وعلى كل كان الاتساخ وغليظ الثياب أهون الشرور ، وكان الشعراء يشكون من قيودهم شكوى لا تنقطع آناء الليل والنهار ، ومن الممكن جمع طائفة غير قليلة من اشعارهم التي ذكروا فيها قيودهم وكانت مصدر إزعاج دائم يوحي لهم بالصور المفزعة ، ومن هذه الصور الكثيرة الخطور صورة الأفعى وصورة الأسد قال ابن عباد[4] :

تعطف في ساقي تعطف أرقم يساورها عضا بأنياب ضيغم

ويتخايل للعرجي قيده ، وهو يعض بساقيه كأنه فحل من الإبل ، هائج[5] .

=شبيها غير ثياب السجين قال :

طريد مطا حتى كأن ثيابه على جلد مسجون وإن لم يكبل

وقال عدي بن زيد يصف حاله في السجن :

في حديد مضاعف وغلول وثياب منضحات خلاق

(ديوان عدي : ص ١٥١ تخريج ٩٢ البيت ١٢).

(١) الأغاني : ١٧٤/٢١.

(٢) انظر (الفرج بعد الشدة: ٣٥) لابن أبي الدنيا ومقاتل الطالبيين : ١٩١ و«والفرج بعد الشدة: ٥٣) للتنوخي .

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني : ٢/٣٣٠.

(٤) ديوان المعتمد بن عباد : ١١١ وهذه الصور كثيرة في شعره وفي غيره انظر (المغرب في حلى المغرب : ٣٨٢/٢ .

(٥) ديوان العرجي: ١٥٥ .

وفي الرجل مني كبل قيد يؤودها وثيق إذا ما جاءه الخطو يهتف
كأن شبا مسماره وهو ناجم شبا ناب قرن يضرب الشول يصرف

وكان القتال نقم من سجانه الذي قتله أنه كان يشد قيده إلى عمود ثابت في الأرض لا يأذن له بالتحرك بين جدران محبسه[1] . وما من شاعر إلا اعترف بالقيود الثقيلة التي تنوء به عن الحركة نهاراً ثم تضاعف وتشد بالأرض ليلاً لتوء من محاولات الهرب . قال جحدر بن معاوية[2] .

الدهر أرسف في كبل أعالجه وحلقة قاربوا فيها بمسمار
أدور فيه نهاري ثم منقلبي بالليل أدهم مزرور بإزرار

ويذكرون ما تسببه من إيلام فهي تؤذيهم بأصواتها إذا تحركت وبمسها الذي يأكل من الجسد وقد صرح المعتمد ـ وهو رجل جلد ـ أنه بكى من آلام القيد : [3]

يعيد على سمعي الحديد نشيده ثقيلا فتبكي العين بالجس والنقر

والتذمر من قعاقع القيود الجشه أكثر وكانت تمنع من النوم، وخيل لأحد الشعراء وهو يسمع صلصلتها أنه يسمع صوت خطاطيف البئر وهي تدور لترفع الدلاء المملوءة[4]:

ألا ليت شعري هل أتى أم واصل كبول أعضوها بساقي تجرح
إذا ما صرفت الكعب صاحت كأنها صريف خطاطيف بدلوين تمتح

وثمة مقطوعات تحدث فيها الشعراء عن الليالي السوداء التي كان ينوء فيها السجناء تحت وطأة الظلام وأثقال القيود، فيجلسون في وحشة الليل الحار

---

(١) ذكر سابقاً وانظر ديوان القتال : ص ٣١.
(٢) منتهى الطلب: ٢٦٢/٢ .
(٣) ديوان المعتمد بن عباد: ١٠٦ .
(٤) الأغاني : ٤١/١٣ .

تتحسس أيديهم حلقاتها الباردة كما ترد الإبل الظماء الماء ، قال عطارد بن قران اللص[١] :

يطول علي الليل حتى أمله ... فأجلس والنهدي عندي جالس
كلانا به كبلان يرسف فيهما ... ومستحكم الإقفال أسمر يابس
له حلقات فيه سمر يحبها ... العناة كما حب الظماء الخوامس
إذا ما ابن صباح أرنت كبوله ... لهن على ساقي وهنا وساوس

ومن مقطوعات أخرى تنبع وجدانية حزينة في إطار مناجاة باكية بين القيد وصاحبه ، استسلم فيها الشاعر لقيده استسلام اليائس البائس بعد نفاد الصبر والاحتمال. وفي هذه النغمة المذعنة التي ترددت على شفاه المعتمد في حبسه مأساة مبرحة قال :

قيدي، أم تعلمني مسلما ... أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك، واللحم قد ... أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد حطما[٢]

والحق أن القيد كان تتجمع فيه المهانة بأقسى معانيها، أما دعوى علي بن الجهم في فخاره بالقيود في مثل قوله :

فلا تعجبي إما رأيت قيوده ... فإن خلا خيل الرجال قيودها[٣]

فهو ضرب من التمويه والمماحلة .

وثمة صور أخرى من العذاب الجماعي لم تفت الشعر كأن تدخل أرجل المحبوسين في عامود طويل فيه ثقوب كل ثقب على قدر سعة الساق وكانت

---

(١) معجم البلدان : نجران .
(٢) ديوان المعتمد بن عباد: ١١٢ . وأبو هاشم أصغر أبناء المعتمد .
(٣) ثمار القلوب: ٦٣٢.

تسمى المقطرة . قال جحدر[١] :

يُغشون مقطرة كأن عمودها عنق يعرق لحمها الجزار

ولكنها لا تضاهي ذكر القيود[١] ومن ذلك أيضاً أن يحال بين السجناء وبين النوم ليلاً بعد يوم العذاب المضني، فتقرع الأجراس طوال الليل، فيجتمع عليهم النصب والوصب وثقل النعاس المحطم للأعصاب . قال جعفر بن علبة الحارثي [٢] :

إذا باب دوران ترنم في الدجى وشد بإغلاق علينا وإقفال
واظلم ليل قام علج بجلجل يدور به حتى الصباح بإعمال

التشهيـــــر :

ومن صور العذاب التي قبسها الشعر عقوبة التشهير . وكانت بالغة الإيذاء شديدة على النفوس، وقد ازدادت على الأيام فحشاً ، وتوخى أصحابها فضح المشهر حتى لا تقوم له قائمة . وكان الحقد والانتقام وراء هذا الصنيع . وفي عصر بني أمية وصف يزيد بن مفرغ الحميري عملية تشهير مخيفة سامه بها ابن زياد فرفعه على ناقة ـ بعد الضرب المبرح ـ وسقاه المسهل، وجعل وراءه خنزيرة وهرة وكلباً، وطوف به في الأحياء وهو بين قذر يخرج منه وكلب ينهش، وهرة تموء وخنزيرة تصيء لما يصيبها منه قال[٣] :

أصاب عداتي اللون فاللون شاحب كما الرأس من هول المنية أشيب
قرنت بخنزير وهر وكلبة زمانا، وشان الجلد ضرب مشذب
وجرعتها صهباء من غير لذة تصعد في الجثمان ثم تصوب
وأطعمت ما لا أن يحل لآكل وصليت شرقا بيت مكة مغرب
من الطف مجلوبا إلى أرض كابل فملوا وما مل الأسير المعذب

---

(١) معجم البلدان : دوار (٢) الأغاني : ١١/١٤١ .
(٣) ابن مفرغ الحميري حياته وشعره : ص ١١٤ . ق ١ الأبيات : ٦ ـ ١٠ .

وللتشهير في صاحبه ردود نفيسة لا يحدث مثلها السجن سرعة وقوة ، فهو في مواجهة المجتمع بين شمات الأعداء، وجزع الأحباء وانتقام السلطان ومعاناة الخذلان . فجاءه شعر المشهرين يغتلي بغيظ حانق وحقد وتحد[1] ، وبآلام متراكمة تندد بالظالمين وتثير الرحمة في نفوس الجماهير[2] . فاحتوى هذا الشعر رصيدا حسناً من الحس الإنساني الصرف الذي يتعاطف له الناس تلقائياً . وحرصت كتب الأدب والتاريخ على تناقل مقطوعات هذا الشعر لهذه الخاصة .

وخير من برع في وصف التشهير وما يطيف فيه من المشاعر والآلام هو الشاعر العرجي . وشهره أعداؤه غير مرة قبل أن يموت في حبسهم . وفي القصيدة التالية تصوير للكبرياء الجريح المعفرة يستذل على ملأ من الناس وهي متنمرة يغلي غليان المرجل متحفزة للفتك ، ولكنها عاجزة مقهورة تنظر في عيون الأصدقاء فترى الأسى والرثاء، وفي عيون الأعداء فترى الشماتة قال[3] :

يا ليت هنداً رأتنا غير جازعة لما هبطنا جميعا أبطح السوق
وكشرنا ـ وكبول القين تنكبنا كالأسد تكشر عن أنيابها الروق
نمشي يفوت مخف القوم مثقلهم مشي الجمال المصاعيب المطاريق
والناس شطران من ذي بغضة حنق ومن مغيظ بدمع العين مخنوق
هووا لنا زمرا من كل ناحية كأنما فزعوا من نفخة البوق
وفي السطوح كأمثال الدمى خرد يبكين عولة وجد غير ممذوق

---

(١) انظر مقطوعة لامرأة جاهلية من سليم(الأغاني : ١١/ ١٤). وانظر الأحوص (الأغاني: ٤/ ٤٤) وعلي بن الجهم(الأغاني: ٩/ ١٠٢) والنجاشي الحارثي (خزانة الأدب: ٤/ ٣٦٨) و(معجم البلدان الكوفة) .

(٢) انظر أبياتا في ديوان العرجي (ص ١٣٥) أولها :

فكم من كاعب حسناء رود ألوف الستر واضحة التراقي

(٤) ديوان العرجي ص ١٣٧ . من (١١) بيتاً وانظر أيضاً قصيدة للشاعر الرمادي يوسف بن هارون في (نفح الطيب : ٤/ ٣٦) .

من كـل نـاشـرة فـرعـا لـرؤ يتنـا ومفـرقـا ذا نبـات غيـر مفـروق
يضـربن حـر وجـوه لا يلوحهـا لفح السموم ولا شمس المشاريق

التمثيـل والنكـال :

وحفظ الشعر ـ أيضاً ـ صوراً خاطفة من النكال الفادح الذي أنهى حياة كثير من الشعراء، ولا شك أنهم كانوا غير قادرين على التوسع في النظم وهم في مقاساة المحنة ولكن الأبيات القليلة توضح أبعاد الفاجعة وقد ذكر في غير هذا الفصل ما عاناه ابن العميد على يد أميره(١) . وفي الأبيات الثلاثة التالية التي ودع بها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات الحياة صورة ناطقة لما يكون عليه السجين الرخيص المعروض على العذاب يحسو الموت حسوا بطيئا، وما يكون عليه السلطان من الغفلة وقلة الاكتراث . فقال يخاطب المتوكل(٢) :

تمكنت من نفسي فـأزمعت قتلهـا وأنت رخي البال، والنفس تذهب
كعصفـورة في كف طفل يسـومها ورود حياض الموت، والطفل يلعب
فلا الطفـل يدري مـا يسوم بكفـه وفي كفـه عـصفـورة تـتضـرب

ولعل أطراف الحديث الآنف وضحت معالم الحياة داخل السجن، وأضاءت كثيراً من جوانب هذا العالم المغلق ولم يقصر الشعر في تصوير المآسي التي حلت بالسجناء وربما استقلت قصيدة بوصف أهوال التعذيب عندما بلغ السوء أقصى مداه في القرون المتأخرة(٣) .

---

(١) انظر من هذا البحث ص ٢٥٢ .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي : ٢/٣٣٥ . هذا وكان ابن الزيات أشد الناس تعذيباً للمصادرين ، وكان يزعم أن الرحمة خور في الطبيعة وهو الذي صمم التنور ذي المسامير .

(٣) انظر قصيدة لابن السبط التعاويذي (القرن السادس الهجري تصف فظائع العذاب في سجون بغداد منها :

حشـر وميـزان وعـرض جـرائـد وصحـائف منشـورة وحسـاب
وبهـا زبـانيـة تبث على الـورى وسـلاسـل ومـقـالع وعـذاب =

- ٥ -
الموقف من السلطان

لكل شاعر موقف من السلطة التي ألقت به في السجن . وتتضافر في بناء هذا الموقف مؤثرات جمة : منها ما جبل عليه الشاعر من المقومات النفسية والخلقية في مواجهة المحنة ، ومنها ما انطوى عليه السلطان من النوازع والقيم التي تحكم قراراته وأحكامه ، ومنها ما امتاز به العصر من اليسر والصفاء أو التعقيد والاضطراب في السياسة والاجتماع، ومنها مستوى الذنب أو الاتهام الذي أخذ به الشاعر .

وتتفاعل هذه المؤثرات لدى الشعراء، فتنتج سلوكيات مختلفة فالشاعر إما أن يصون نفسه عن المهانة فيعتذر إلى السلطان، ويلتمس عفواً كريماً ، وإما أن يخلع الخوف قلبه فيأخذ بالاستصراخ والاستغاثة وإما أن يثأر ويغضب فيتمرد على العقاب ويتحدى، وإما أن يقف بين السخط والرضا فيعاتب، ويجادل عن قضيته ، ويطالب بحريته ، وإما أن يعتاد الخسف فيزداد في التخنع والعبودية .

الاعتذار والاستعطاف :

كان ، على توالي القرون ، شعراء مدحوا آسريهم من غير انهيار، والتمسوا المعذرة، من غير إهدار للكرامة ومن غير تعفر ، كما كانت تفرض مثل العزة والشهامة والسماحة والأريحية .

وقد يكون للعصر قيمة ـ كالعصرين الجاهلي وصدر الإسلام ثم مطلع العصر الأموي ـ المقام الأول في الحفاظ على كرامة الإنسان السجين عند طلبه حياته أو حريته ، ولكن الإنسان ليس أقل فاعلية من العصر، فالشاعر ـ وأحيانا الحاكم ـ هو الذي كان يعطي الموقف قوامه من العز أو الذل .

وثمة عدد من الشعراء الكبار ، في متفرق العصور، يعين الشعر الذي

= ما فاتهم من كل وعدوا به ... في الحشر إلا راحم وهاب

الوفيات : ٤/ ٩٠ .

نـظموه، في محنـة الأسر والسجن ، على تعيين مـزايا السلطة وصفـاتها، وفي تفسير المعنى السياسي ـ غالبا ـ أو الاجتماعي لحادثة الأسر والسجن من جـراء التفاعل ما بينهم وبين أصحاب السلطان .

ومن الشعراء الجاهليين الذين كانوا، في أسرهم، يتـوجسون خشيـة من الموت طرفة بن العبد وبشر بن أبي خازم وربما الأعشى .

أما طرفة فقد لقي حتفه في سجنه بـأمر من عمـرو بن هند، وخـاطبه في الضـادية المشهـورة التي نظمهـا في حبسـه[1] . وعلى أنـه التمس من الملك استبقاء حياته فيما يشبه التوسل فإن عنف البداوة الغاضب والنقمة كانا في طي هـذا التوسـل . وفي إنعام النـظر في الشعر يعـرف ـ مع النقمـة ـ اتهام الملك بالتعطش للدماء وبالختل والغدر[2] . ولا شك أن عنفوان هذا الشاب الحبيس ندّ عن حقيقة مشاعره نحو الملك . فجاء النداء ظاهـره التوسـل العف وباطنـه الاتهام المغيظ .

ويجزىء الحديث عن بشـر بن أبي خازم عن ذكـر الأعشى، فإن دواعي أسرهما متشابهة[3] . وقد ذكر من قبل أن بشر بن أبي خـازم كان كثيـر الهجاء لأوس بن حـارثة بن لام أحـد زعماء طيء إذ تنـاوله بخمس قصـائد مقـذعات هادمات للمجد. ولما حصل عند بشر أسيرا كان قتله غير بعيد الاحتمال. ولكن أوسا ، إذ لمس طمع الشاعر الشديد في الحياة ، استأتى به يستمع مدحه فيـه بين الحين والحين حتى نقض كـل قصيـدة هجـاء، سبقت، بقصيـدة مـدح ، فأطلقه ومن عليه[4] .

إن طبيعة العداء بين الخصمين تـدل على معنى المدح وأهميتـه في ذاك

---

(١) انظر ديوان طرفة بن العبد: ص ١٤١، ط أوربا ١٩٠٠ م .

(٢) انظر المصدر نفسه: ص ١٤٢ ، البيت: ٤٥ .

(٣) انظر حديث أسر الأعشى في الفصل الأول: الشعراء في الأسر .

(٤) انظر حديث بشر بن أبي خازم في الفصل الأول: الشعراء في الأسر .

الموقف: فكل من الهجاء والمدح له معناه السياسي. فإذا رضي الشاعر أن يكذب نفسه على الملأ، وأن يعيد إلى خصمه ما سلبه من المكارم، سلت السخائم، ولم يبق للأسر مبرر. فالمسألة مسألة اعتراف الأعداء المأسورين بالسيادة والمكارم لخصومهم والتنويه بها في صوت عريض مسموع في القبائل، وطأطأة الرأس لها.

وعنصر الإكراه مفقود في الاعتراف وفي إحناء الهامة. فالشاعر الأسير لا يعاني ضغوطا خارجية تستخرج المديح إكراها. حقا إن الأسر، في جوهره، كره وحرج، ولكن لا شيء يمنع الشاعر من الحفاظ على موقفه الأول وتقبل العقوبة بالرضا والصبر إذا كان مبدئياً مع اتجاهاته السابقة. وما يحدث هو أن الشاعر يمارس ضغطا على ذاته لتستبدل موقفاً بموقف مناقض للماضي، بدافع من الرغبة في البقاء والحفاظ على الحياة أو الخلاص من ربقة الأسر المستذل. فهو إكراه إرادي نابع من اختيار هادف، ولذلك لا يسمع في شعر صادر عن هذا الموقف صوت مغلوب خانع بل صوت قوي مفعم بالرغبة والرجاء[1]. وإذا بدا فيه اعتراف بالخوف والضعف فهو شعور حق ليس عارا الاعتراف به إذ هو من حميم حقائق النفس. ويساعد هذا الاعتراف في تبريد غضب الخصم وفي رفعه إلى مركز القوة المعترف به. ولا ينتهي الشعور بالضعف ببشر بن أبي خازم أو الأعشى إلى التذلل بل يستند الطلب إلى ما يمتاز به شخص الآسر من سجايا النبل والحلم والكرم التي هي صفات السيادة.

---

(١) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٤١، ق ٩، ٧ أبيات، منها:

وإني لراج منك، يا أوس نعمة	وإني لأخرى منك، يا أوس، راهب
فهل ينفعني، اليوم، إن قلت: إنني	سأشكر إن أنعمت، والشكر واجب
وإني قد أهجرت بالقول ظالما	وإني منه، يا ابن سعدى، لتائب
وإني إلى أوس ليقبل عذرتي	ويعفو عني، ما حييت، لراغب
فهب لي حياتي، فالحياة لقائم	بشكرك فيها خير ما أنت واهب

وكان وضع هذه الصفات في ميزان الأمور يمنح الإنسان اعتبارا ، ويحمي الشاعر من التمرغ في التراب كما حدث في العصور المتأخرة . لذلك لا نرى في قصيدة عبد يغوث بن صلاءة الحارثي ، إذ تشبث آسروه بقتله ـ غير دفاع عن الذات في كبرياء وشمم، وغير عرض للفدية وتحضيض على الخير[1] . ولا نرى في مدح الحطيئة عمر بن الخطاب لإطلاق سراحه غير استرحام كريم ، واعتراف بالخطأ ، وتوبة منه، وتعليل موضوعي لسلوكية الشاعر في ظروف عصر انتقالي[2] .

إن المدح الشبية بالاستعطاف هو اللون المميز لشعر السجن في عصر تحكمه مبادىء الفروسية أو العدالة، عند اتصاله بالآسر أو الحاكم . وعندما غلبت الأهواء والمآرب على القيم المثلى تراجع هذا اللون من المديح . ولكننا لم نفتقده افتقاداً تاماً : وهو وليد العصر والرجال معا . فالعنصر الذاتي له دوره في الموقف المتماسك . ولهذا نلتقي ـ بعد قرون بعيدة العهد بالبداوة وروح الصحراء ـ بلمع من الشخصيات المتأخرة ، كابن زيدون والمعتمد بن عباد والطغرائي ، ظلت ومضات أمل في حياة الكرامة الفردية .

وكان ابن زيدون عول على المدح كثيراً ليظفر بالنجاة من سجنه . وكان خصومه تآمروا به ، وهو في ميعة الشباب، وفي قوة من الأمل .

---

(١) انظر حديث عبد اليغوث بن صلاءة في الفصل الأول: الشعراء في الأسر . وانظر قصيدته في النقائض(١/ ١٣٩/ ، ومنها :

أمعشر تيم، قد ملكتم فأسجحوا ... فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا ... وإن تطلقوني تحربوني بماليا

(٢) كان الحطيئة أول شاعر سجن في الإسلام لهجائه الناس. وعلل ذنبه بتغير الزمن والمجتمع من الجاهلية المتفرقة إلى وئام الإسلام :

تحنن علي، هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا
ولا تأخذني بقول الوشاة ... فإن لكل زمان رجالا

الأغاني : ٢ /٥٣ من ستة أبيات.

ولم يشأ أن يخسر مستقبله السياسي عند أول محنة له ، فكان على جانب من التماسك والتعزز النفسي ، واستطاع أن يوفق في قصائده بين تعنت السلطة وإرضائها وبين صون نفسه من الابتذال والتعفر ، فوفر لها حظاً من الاحترام في عصر الفوضى والمؤامرات السياسية يوم كان الفرد شيئاً غير مذكور .

وفي القصائد التي بعث بها الى ابن جهور [١] لم يبخل بإغداق الصفات الفذة التي يزدهي بها الحكام من السماح والكرم وحسن التدبير والسياسة واجتماع الكلمة عليه والتقوى والصلاح والنجدة وكظم الغيظ والسهر على مصالح الرعية وإغناء البلاد بالأمن والثراء . وهي صفات في متناول الشاعر لا تكلفه من ذات نفسه كثيراً ، ولكن إذا فرغ من المدح إلى طلب العون أو العتاب كان منه حديث الند للند والسياسي للسياسي ، وليس حديث العبد للسيد . فلا خنوع ولا توسل ، وإنما المناشدة بأسباب كثيرة من سابقة التعاون في ميدان السياسة ، ومن نسب الأدب ، ومن المدح السابق والإخلاص في المعونة وهو موقف يخرج منه ابن زيدون بكثير من الاحترام والتقدير . وذلك راجع الى عنفوان الطباع الأصيلة فيه ، وقد فرض هذا الرجل احترامه على كل من عمل معهم من الملوك [٢] ، ولم يتردد في غير موقف أن يلوح بقدرته على الهرب ، وقد أنفذه لما يئس من إنصاف ابن جهور له [٣] .

إن قصائد المدح التي يغلب عليها الاعتذار والاستعطاف تحقق توازناً بين المديح والكرامة ، وأهم مزايا هذه القصائد أن الشاعر ينسى نفسه ما عدا الخوف والرجاء ، ويحتشد لتجميع السجايا الممتازة وإضفائها على الآسر في معرض تزييني فخم رفيع الصياغة والصنعة ، والمقارنة بين القصيدة (٩)

---

(١) انظر أربع قصائد في ديوان ابن زيدون : ص ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ .

(٢) انظر المساجلات والمراسلات الشعرية بينه وبين المعتمد رجالات عصره في الديوان : ١٩٧ - ٢٣٧ .

(٣) انظر في الديوان : ٢٧٢ الأبيات ٤٧ - ٤٩ من القصيدة اللامية .

والقصيدتين (٢٤ و ٢٩) في ديوان بشر بن أبي خازم تظهر ما بذل الشاعر من جهد فني في إحكام التراكيب والصور لتضخيم معاني القوة والعفو والحلم والكرم عند آسره .

وليس افتراضاً على الاطلاق الاعتقاد بأن القوة الآسرة كانت لا تقبل المدح العابر الساذج ، فلو أن الغرض هو الاعتذار في حد ذاته لأعفى الشاعر نفسه من كثير من العناء ، ولأجزأت الأبيات عن القصائد المحبرة ، ولكن الغرض أن يكون المدح من طراز رفيع ، مرموقاً في عالم الأدب ، ذا قدرة على السيرورة بين الناس ، فيغدو مادة الرواية والتناشد ، ولا يكون له ذلك الا بالإتقان المبدع ، وقد نرى الممدوح يطلب هذا الصنف طلباً صريحاً لا يرضى بما هو أدنى منه (١) .

وسحب هذا التقليد نفسه على شعر السجناء على مدى القرون ، فكانت المثل الأدبية المطلوبة في كل عصر همّ الشعراء ، ولعل قصائد ابن زيدون في ابن جهور نماذج تنطق عن حرص الشاعر على توفير القيم البديعية وإغنائها بالصور التقليدية المتداولة في كل بيت منها ، إرضاء لأميره ، وتدليلاً على براعته هو (٢) .

وهذه الظاهرة تنبه على ظاهرة أخرى هي الإكثار من قصائد المديح ، وبخاصةٍ ، إذا طالت المدة او كانت العقوبة مرهوبة الخاتمة .

الاستغاثة :

تبين ، مما سبق ، أن العصر الذي تسوده مبادىء الفروسية أو الإنسانية

---

(١) هرب عبد الله بن الحجاج من أمير العراق الحجاج الثقفي واستجار بعبد الملك بن مروان بدمشق ، واستغاث به ببيتين مشحونين بالخوف ، فقال له عبد الملك : ما صنعت شيئاً ، فخرج ، وعاد فمدحه بأبيات لا يخفى فيها الاحتشاد الفني ، انظر القصة في « الأغاني : ١٢/ ٣٠ »

(٢)انظر شعره في أية قصيدة من الأربع التي أشرنا الى مواضعها في الديوان في ص ٤٣٠ .

يهيء للسجيين موقفاً لا تنهار فيه رجولته ، وبدأ إخفار هذه القيم مع السياسة الاستبدادية التي أخذت تتقدم في العصر الأموي ، وتتراجع أمامها روح البداوة و « العروبية » في تقهقر واضح ، وخيف البطش ، وشعر الرجال من جرائه بالضياع، وكانت عملية تبديل الولاة ـ في قطر كالعراق ـ لا ينتج عنه غير تغيير في الأداة، أما أسلوب الحكم وأهدافه ونتائجه فلا تزداد إلا إيغالاً في الإرهاب .

ولكن روح العصر ـ العروبية ـ لا تتراجع فجأة في الأفراد ، وإنما تتقلص تدرجاً ، ويتنكر الخضوع بظاهر من العزة والأنفة .

وفي ديوان الفرزدق عدد من قصائد الحبس فيها البرهان على أن روح العصر لا تزال تبعث في المرء شيئاً من المقاومة الذاتية في مواقف الانهيار .

ومن المعروف ان الفرزدق كان في شبابه قوي العارضة في تحدي الولاة الكبار ، فكان شاعر بني مجاشع ، وشاعر بني تميم كلها في ميادين الصراع القبلي ، واضطر الى مغادرة العراق أحياناً [1] ، وظلت روح المعارضة والتمرد تسرى في دمائه حتى شيخوخته ، فتصدى ـ وقد جاوز الثمانين ـ لأمير العراق اليمني خالد بن عبد الله القسري ، فلما قبض عليه خانته السن ، وكانت سجون العراق تشهد ألواناً من التعذيب المريع والاغتيال ، فارتعد الفرزدق خوفاً ، وكان سلاحه الشعر ، فضرب به عشوائياً ، فلم يبق له من ذوي السلطان خصم إلا صار له ولياً .

كان يناهض مالك بن المنذر بن الجارود أمير البصرة لخالد القسري ، فلما سيق إليه ، ومثل بين يديه ، ارتمى عليه وعلى قبر أبيه ـ الجارود ـ عائذاً مستجيراً به وبأولاده ، فمدحهم بشرف الجاهلية والإسلام ، ودعاهم لإجارته وللحفاظ على حق الجوار ولم يكتم خوفه من مالك [2] .

---

(١) انظر الأغاني : ٤٣/١٩ ، وانظر ديوان الفرزدق : ١٨٧/١ .

(٢) انظر في ديوان الفرزدق (٢٤٨/٢) مدح مالك بن المنذر بن الجارود (٣٧) بيتاً منها : =

وأرسل الفرزدق من السجن بالقصائد الى أسد بن عبد الله القسري أخي خالد أمير العراق [١] ، ومدح خالدا بشعر أكثر مما كان هجاه به [٢] ، وأرسل بالمدح ابنه الى هشام بن عبد الملك بدمشق ، وسأل هشاماً الوفاء بجوار جده مروان بن الحاكم يوم أجاره، وهو وال للمدينة ، من زياد بن أبيه [٣] ، واستجار بزعيم من كلب ، وذكره بالحلف القديم بين قبيلتهما في الجاهلية [٤] .

ومناشدة الأحلاف القديمة في مواطن الاستنجاد إيقاظ للعروبية التي سجلت انحساراً كبيراً في الأنفة والعزة ، واتخذ هذا الانحسار في قصائد الفرزدق مظاهر متنوعة من الخوف والاستغاثة والإيغال في المدح بإغداق المآثر والمكارم على الخصوم بغير حساب . ومع ذلك فإن أنفة البداوة والعروبية ما زالت منها بقية ملحوظة ، فالفرزدق لم ينحط إلى الاستخذاء والعبودية وإنما كان يناشد صفح خصومه بالمروءات والفضائل التي أضفاها عليهم لتكون له شفيعاً إليهم ، وبذاك يلاقي شعره في حبسه شعر بشر بن أبي خازم في أسره .

= حلفت برب الجاريات إذا جرت ... وحيث دنت من مروة البيت زمزم
لما زادتي من خشية إذ حبستني ... على الخشية الأولى التي كنت تعلم
إذا ذكرت نفسي يديك نزت بها ... كراسيع زالت والقطيع المحرم
أعوذ بقبر فيه أكفان منذر ... وهن لأيدي المستجيرين محرم
ألم ترني ناديت بالصوت مالكا ... ليسمع لما غص بالريقة الغم
أمالك إن أخرج بكفيك صالحا ... تكن مثل ذي نعمى لمن كان ينعم
أقول لرجلي اللتين عليهما ... عرى وحديد يحبس الخطو أبهم
أما في بني الجارود من رائح لنا ... كما راح دفاع الفرات المثلم
عسى الله أن يرتاح لي فيفكني ... برحمة من هو من أبي بي أرحم

(١) انظر ديوان الفرزدق (٢/٤٣ و ٥٢) .
(٢) المصدر نفسه : ١/١٣٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٢/١٨٨ .
(٤) انظر الأغاني : ١٩/٢٤ ـ ٢٥ .

ومن شواهد تمرد البداوة والعروبية في النفوس تلك المواقف التي يكره الشاعر فيها نفسه على المدح ، فيأخذ بالتمويه والكذب ، فيند عنه ما في نفسه ، وعانى أعشى همدان هذه الأزمة لما أخفقت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، وسيق أسيراً ، فوقف بين يدي الحجاج يمدحه في شعر ظاهره الثناء وباطنه التحريض عليه وعلى بني أمية ، فلم يلبث أن قتله مكانه [١] .

وكان يحفظ الشاعر أحياناً من التمادي في التذلل ما اتصف به السلطان من النبل وحب الصفح ، فيجنب الشاعر كثيراً من الرياء والملق ، ولعل موقف الخليفة المأمون من عمه إبراهيم المهدي تميز بكرم نبيل وتسامح ، فقد كان إبراهيم مناوئاً لابن أخيه ، ونصب خليفه في بغداد ، واختفى بعد إخفاقه خمس سنين ، ولما عثر عليه وحبس كانت درايته بمزاج الخليفة النفسي وحسن تأتيه سبيلاً لنجاته من الموت ، وكان أول ما فعل أن أرسل إليه بأبيات ليس فيها تخضع بل إفضاء واعتراف بالضعف البشري وإن الانسان عرضة للخطأ والانحراف ، وقدم هذه الحقيقة المقررة عذراً بين يديه ، واتبعها بتوبة صادقة نسخت ما جره عليه الضعف . وأحدثت هذه الممارسة من الشاعر أثراً إيجابياً في تنبيه مشاعر المأمون وإفراغ نفسه من ضغوط الغيظ والحقد ، وأصبح العفو أمراً غير مرفوض نهائياً إذ أذهب الشعر أكثر ما في نفس المأمون عليه [٢] .

وكانت الأبيات استغاثة هادئة واسترحاماً إنسانياً أجمل ما فيها صراحتها المؤثرة ، بها نجى الشاعر من الموت ، ومن ثم اندفع في قصيدة بعدها يطالب بالاطلاق من الحبس ، وارتكز الى محور القصيدة الأولى ، فضخم من ذنبه وجرمه تضخيماً جعل الخليفة في قمة الحلم والكرم [٣] ، ووجه قواه النفسية والفنية الى إحكام المدح وتجويد الصناعة ، فأعجب سامعيه في معانيه ومبانيه .

---

(١) انظر الأغاني : ١٥/١٥١ ، ومن البحث ص ٢٢١ .
(٢) انظر من البحث ص ٢٣٢ .
(٣) انظر من البحث ص ٢٣٣ .

ولا شك أن أخلاق المأمون فتحت للشاعر هذا المنفذ الذي باعد به عن كثير من الكـذب ، فإن حـدة الاستغاثـة كانت تتـوقف على مـا عـرف الشعـراء من لين حكامهم أو قسوتهم ، وعلى ما بين الفريقين من الصلات أحياناً ، وفيما جرى لأبي نواس من حبس على يد الخليفة الأمين تتضح هذه الحقيقة .

كان الشاعر نديم الخليفة على الشراب ، واستغـل الثائـرون على الأمين تقريبه للشاعر الخليع ، فشنعوا عليه ، فسارع الخليفـة الى حبس الشاعـر وبدا هذا الحبس لأبي نواس غريباً حقاً وهو الذي يشاطر الخليفة مجونه ، ويعلم من عيوبه ما يعلمه من نفسه . ولا شك ان الشاعر كان يرى أن الخليفة ليس أقل منه استحقاقاً للحبس إن كان التهتك هو الاتهام ، ولذلك اتصف خطابه للأمين ثم لوزيره الفضل في بادىء الأمر بكثير من السخرية المضحكة في إطار التوبة التي كان يعلن عنها (١) . ويكفي مثلاً لاستخفافـه بالخليفـة أن يبدأ اتصـاله بـه من الحبس بأبيات ثـلاثة لا تـوقير فيهـا ولا خشية غيـر القسم برأس الخليفـة على الاحتشام ، وغير التنويه بمكانه من مائدة شرابه (٢) .

ولم تزايل أبا نواس السخرية المبطنة في كثير من مقطوعاته إلا عندما أطيل حبسه ، وقطع عن لذائد الدنيا ، وعرف أن السلطان غير هازل فاحتشم وتوقر ، وصنـع في المدح مـا يصنع نـظراؤه من الاطناب والتنميق والتمـاس العفو في ضراعة وتوسل (٣) .

ان للسلطان ـ كمـا للعصـر ـ التـأثيـر البين في مـواقف الشعـراء ، وفي اتجاهاتهم في المدح ، وفي مستوى الفن الشعري .

الـتحـــــدي :

ولطبائع الرجـال أظهر الأثـر في مواقفهم ، فـإذا كانـوا شديـدي المراس

---

(١) انظر من البحث ص ٣٥٣ وديوان أبي نواس : ٤٢٤ .

(٢) انظر من البحث ص ٣٥٢ ، وديوان أبي نواس : ٤٥٩ .

(٣) انظر ديوان أبي نواس : ٤٢٦ ، ومن البحث ص ٣٥٣ .

واجهـوا العنف والحبس بالمقـاومة والتحـدي ، لا يكتمون مـا في أنفسهم من الغيظ ، ولا يطأطئون الرأس ، ولا يستغيثون ، وإنما دفاع ومصابرة .

وتتجسد رعونة البداوة في سلوكيـة ضابيء بن الحـارث البرجمي الـذي سجنه الخليفة الثالث عثمان في الهجاء الفاحش ، وكان ـ لو شاء ـ قادراً على ان يتخذ موقفاً تراجعياً ـ كالحطيئة ـ ويخرج من السجن باعتذار قريب ولكن وحشية البداوة غلبت عليه ، فتغيظ على الخليفـة ، وهم باغتيـاله ، ولم يبـد في شعره ـ وقد قضى عمره في حبسه ذاك ـ ندم على تصرفه الشـائن ، وإنما كـان ندمـه لإخفاقه في الفتك بالسلطان (١) .

أمـا التحدي ففي الاحتجـاج الصارخ الـذي جهر بـه عاليـاً عبيـد الله بن الحر في وجه مصعب بن الزبير أمير البصرة القوي الماضي في إنفاذ ما يـريد ، فقد نظم عبيد الله قصيدتين على الأقل في حبس المصعب ندد فيهما باستدراجه الى الحبس وإيقاعه به بعد معونته للمصعب في حروبه ، وكان في ذلك تعريض قادح بالأميـر (٢) ، كما صـرح ، وهو لا يـزال في حبسه ، بـانفصالـه التام عن السياسة الزبيرية ، وبانحيازه الى الفريق المناوىء ، وجاهر بالتهديد والوعيد في جرأة البطل الذي وجد في الحبس عاراً لا يغسل إلا بالانتقام (٣) ، ولما انفلت

---

(١) انظر الشعر في أنساب الأشراف (٥/ ٨٤) وفيه يقول :

هممت ولم أفعل ، وكدت ، وليتني ... تـركت على عثمـان تبكي حـلائله

(٢) انظر القصيدة في منتهي الطلب (١/ ٢٧٢) ومنها :

دعـاني إليـه مـصعب فـأجبتـه ... نـهـاري ولـيـلي كـله أنـا دائبـه

فكـان حبـائي إذ أنخت ببـابـه ... حجـول وأحـراس وصعب مـراتبه

(٣) انظر القصيدة في منتهى الطلب (١/ ٢٧٤) ومنها :

وألفيتني يـا ابن الـزبيـر كـأنمـا ... رميت بسهم من سهـامـك نـاصـل

فـإن أنفلت لا تجمـع الشمس بيننا ... ولا الليـل إلا في القنـا والقنـابـل

متى أدع فتيـان الصعـاليـك يـركبوا ... ظمـاء الفصـول فـارعـات الأبـاجـل

من الحبس تحول الوعيد الى ثورة قتالية حقيقية؟[1] .

وللثورة الغضوب نموذج آخر في شعر عبد الله بن الحجاج ، وكان لجأ الى عبد الملك بن مروان ، ثم لحق ببعض زعماء الخوارج في خلافة ابنه الوليد ، ثم اضطر للاستجارة بأحد أفراد الأسرة الأموية بدمشق ، فلم يرع جواره ، ونقل خبره إلى الخليفة فأخذ من دار الأموي الى الحبس [2] .

وكانت طريقة حبسه خروجاً ظاهراً عن أعراف البداوة التي لا تعيرها السلطة اهتماماً جاداً ، فاستبد بالشاعر الغضب ، وارتفع صوته يفاخر ويتحدى الخليفة والأمويين وهو في هاوية السجن ويكشف الشعر عن فخار ذاتي عارم صادر عن نوع من المقايسة ما بين بدويته التى ترعى التقاليد والأعراف وما بين السلطان الذي حطم هذه التقاليد وأخفر الجوار ، وهو فخار تدنت معه في عين الشاعر خلقية الحاكم ، فرفع مكارمه على مكارم الخليفة ، وعده مسؤولاً عن قبول وشاية من استجار به ، فهما سواء في إخفار الذمة ، وتبدو هذه التسوية في سخرية مؤلمة حين فدى الخليفة بالشريف الأموي ، وهو يهجو المفدى به[3] .

وسيرة ابن الحرو وابن الحجاج نعدهما مثلاً لهذه الجلادة والمعارضة الساخطة ولا ينتظر من المقاتلين الأشداء موقف مناقض ، وهذا العامل الذاتي هو الدعامة في الموقف القوي ، ولذلك لا يخبو حتى في الأزمنة التي فقدت

---

(١) انظر من البحث ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) انظر من البحث ص ٢٢٦ .

(٣) انظر الشعر في الأغاني (٢٦/١٢) ومنه :

فان يعرض أبو العباس عني ... ويركب بي عروضا عن عروض

فاني ذو غنى وكريم قوم ... وفي الأكفاء ذو وجه عريض

غلبت بني أبي العاصي سماحا ... وفي الحرب المذكرة العضوض

فدى لك من إذا ما جئت يوما ... تلقاني بجامعة ربوض

على جنب الخوان ، وذاك لؤم ... دسست بخفة الشيخ المريض

وأبو العباس : هو الخليفة الوليد .

حس العصبية والكرامة الفردية . فالثائر الحق قد يعارض روح عصره بما فيه من قوة نفسية تنتسب في حقيقتها وتكوينها الى عصور القوة والبطولة ، وإذا استلسلم، استسلم مكرهاً استسلام الأبطال لا العبيد ، ومعروف ما كان عليه المتنبي من الكبرياء والأنفة ، فلما سجن في يفاعته وهو يشتعل تمرداً وطموحاً ، وصدمه طغيان الحكام في القرن الرابع ، صبر مغيظاً محنقاً صبر الأسد ألقيت عليه القيود ، وجاء شعره رصداً لهذه المعاناة الثائرة المكبوتة (١) ، وقاست نفس الطغرائي الكبيرة من عصرها مثل ما قاسى المتنبي ، وذهب الطغرائي ضحية سموها وأوطارها (٢) .

والمعتمد بن عباد مثال حي للبطل الذي لم يذهب الأسر والحبس بشيء من عظمة نفسه ، ولم يبتعث فيه غير التحدي الذاتي المستمر ، وقلة أولئك الذين يعيشون ويموتون أبطالاً ، وقد شهدت له معركة الزلاقة وغيرها من الوقائع أنه كان مقاتلاً حمياً مصابراً من الطراز الأرفع ، ولما استأنف يوسف بن تاشفين الغارة على ملوك الطوائف ينتزع ما بين أيديهم ، خاض المعتمد معركة يائسة في الدفاع عن عرشه ، وخرج الى القتال عن قصره حاسراً ، ولم يلق السيف حتى كثرته الجموع ، وكان خرج ليموت دون ملكه ولكن القدر شاء له أن يعيش بعد المعركة خمس سنوات أسيراً في أغمات ، ومن الناس من يرضى من الحياة بالسلامة ، غنيمة كيف اتفقت له ، ولكن المعتمد ما تمناها أبداً ذليلة ، وكان أمله أن يعود اليه ملكه لا أن يطول بقاؤه (٣) . وكانت صور الماضي الملأى

---

(١) توعد أبو دلف المتنبي باستبقائه بالحبس فقال ، (شرح العكبري: ٢/ ٢٨٠) :

أهون بطول الثواء والتلف ... والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي ... والجوع يرضي الأسود بالجيف
كن ، أيها السجن ، كيف شئت فقد ... وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة ... لم يكن الدر ساكن الصدف

(٢) انظر من البحث ص ٢٨٦ .

(٣) قصائده كلها تدل على ذلك وبخاصة المقطوعة في ديوانه ص ٩٠ .

بالعز والكبرياء تلح عليه إلحاحاً متصلاً [1] ، وليس فيما وصل إلينا من شعره ذكر لآسريه ، ولعل الظروف السياسية لم تسمح لشعره فيهم بالبقاء أو بالخروج من أبواب السجن ، ولو كان استرحاماً أو ثناء لكتب له البقاء ، ومن يدري لعل شعره جف على شفتي الشاعر فلم ير الحياة .

ويدل خلو ديوانه من مثل هذا الشعر على موقف سلبي دائم منهم [2] ، فهم قد سلبوه ملكه غدراً ، وهذه السلبية وحدها شاهد إبائه وبطولته ، ويشهد بتلك البطولة التي ظلت لبوسه النفسي في أسره قصيدته التي ذكر فيها اليوم الذي دافع فيه عن ملكه قبل اعتقاله ، قال :

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديع
وتناسرت هممي لما ... يستامها الخطب الفظيع
قالوا : الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ... ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ص على الحشا شيء دفوع
وبذلت نفس كي تسيـ ... ل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط الى الكما ... ة وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع [3]

---

(١) انظر ديوان المعتمد : ص ٩٥ .

(٢) ليس لآسريه ذكر سوى قصيدة في ديوانه (ص ٩٧) عاتب فيها حواء أخت يوسف بن تاشفين على اعتذارها عن خباء تعيره إياه يوم أسره .

(٣) الحلة السيراء : ٢/٦٥ .

لقد حلت الهزيمة بالمعتمد فأنكرها قلبه ، وتحداها ، ورفضها ، فعاش ملكاً ومات ملكاً .

العتـــاب :

ويتصل العتاب بالتحدي والثورة ، وهو ثورة كفكف منها تهيب الخليفة أو الأمير ، والتزم الشاعر بتوجيه القول في منحى لا يخفي ما في نفسه ولا يسخط السلطان ، فهو ينقد السلطة ويرجو العون منها ، ويدافع عن نفسه ويتبرأ من الذنب أو الخطأ .

والعتاب في شعر السجن كثير ، وخير نماذجه في شعر الأحوص وأبي فراس الحمداني .

أما الأحوص فقد اتفق عليه النفي والحبس معاً والقيد وتطاول المدة ، ولم يفت في جلده وعلو عتابه سوء العذاب وطول الحرمان ، ويشهد شعره ان كرامته كانت فوق مطالبة كلها ، وطالب فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يرد إليه اعتباره السياسي والاجتماعي(١) في بلده، فلم يكن يريد حريته وحدها بل يريد حقه كاملاً . إن الخليفة ـ في رأي الشاعر ـ آثر عليه خصومه باستعمالهم في مرافق الدولة ، وذاك في حقه إجحاف وهضم ، فكان عتابة هو المطالبة بإنصافه شعوراً منه أن الجور على كرامة النفس أشد إيلاماً من السجن نفسه ، وسواء أنجح العتاب في مسعاه عند الخليفة أم أخفق فالشاعر لم يقصر في الاحتجاج وطلب الانتصاف ، والأبيات التالية تشهد أنه كان يسأل حقاً من حقوقه ولا يستجدي معروفاً (٢) .

أيا راكبا إما عرضت فبلغن ، هديت ، أمير المؤمنين رسائلي
فكيف ترى للعيش طيباً ولذة وخالك أمسى موثقا في الحبائل

---

(١) انظر من البحث ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) الأغاني : ٨/٥٤ .

وكنت أرى ان القرابة لم تدع ولا الحرمات في العصور الأوائل
إلى أحد من آل مروان ذي حمى بأمر كرهناه مقالا لقائل

أما روميات أبي فراس فتقدم أسيراً له مستواه النفسي الرفيع . نشيء تنشئة قيادية ، وورث العزة الذاتية . ولم تكن مسألة أبي فراس العصيبة قط مع الروم بل كانت من ابن عمه سيف الدولة(١) . وكان هو في الحق صنيعة ابن عمه : تعهده ، فشق طريقه في ميدان الفروسية والأدب . فكان أبوفراس - إلى حد غير بعيد - صورة انبعاثية للفارس العربي القديم الذي كان يتوقد بمثل قومه وأهدافهم ، ويطمح إلى المجد ثم يصرع دون هدفه(٢) .

وينجلي استقراء الروميات عن الاتجاهات التالية : الشكوى والألم والفخر ، وندب الأمير إلى فدائه ، وعتابه ومدحه .

---

(١) كان الروم يشجعون أبا فراس على مراسلة ابن عمه ليفتديه بمن عنده من بطارقة الروم . وكان سيف الدولة يحتفظ بهم ليستدفع أخطار الروم المتزايدة .

(٢) كان أبو فراس يتولى ثغر منبج ذي الأهمية الدفاعية . ولم تكن تجاربه ، على غناها ، كافية له أن يحترس من مكائد عدوه . فأسره الروم وهو في نزهة صيد . ودخل الأسر بزهو ظاهر ، ولم يمنعه تفريطه بنفسه من الادعاء أنه جابه ألفا من الروم بنفر قليل من أصحابه افتداء بابن عمه في الشجاعة (انظر الرومية التي أولها : دعوتك للجفن القريح المشهد ، الديوان ١ / ٧٨) وذهب يحمل سيف الدولة في أولى رومياته مسؤوليته كاملة إما مكرمة افتدائه أو عار خذلانه :

دعوتك والأبواب ترتج دوننا فكن خير مدعو وأكرم منجد
تشبث بها اكرومة قبل فوتها وقم في خلاصي صادق العزم واقعد
فإن مت ، بعد اليوم ، عابك مهلكي معاب النزاريين مهلك معبد

(المصدر نفسه) وفي قوله « قم في خلاصي واقعد » انعكاس لما كان فيه من التسرع كان لا يضع في ميزان الأحداث غير نفسه ، ولا يقدر معاذير الدولة وظروفها الحربية المتراجعة وقد رفع على ابن عمه في الرومية الأولى فخاراً فيه من العنفوان والتبجج الكثير ومن إيلام الاسر القليل .

واتشحت الروميات بالحزن ولم تتشح بالخوف . وكان يملؤها العنف . ومرد ذلك إلى طبيعة الشاعر التي كانت تظن سلوكيتها فوق النقد ، فكان عنيفاً في الرد حتى على الملاحظة العابرة ولو كانت من أميره[1] . وهي طبيعة انفعالية ذات ردود سريعة أساءت الظن بالأصدقاء والناس جميعاً[2] .

ولولا التجمل والمجاملة لصرح بسوء الظن بأميره . ولكنه كان لا يتجرأ أن يقطع ما بينه وبين ابن عمه لحاجته إليه أولاً وآخراً . فالكلمة له في فدائه ثم للوفاء الملزم نحو رجل بني حمدان الذي كفله يتيماً وصنع منه رجلاً . وكان أبو فراس يغتلي ويهتاج ، ويرفع صوته بالعتاب المر ثم يحني رأسه في خاتمة الرومية بالرضا والولاء والاستعداد للتضحية في سبيل أميره [3] . وعلينا أن نقدر نوعاً من المجاهدة في كتم المشاعر الحقيقية وحبسها وتمويهها تحت طلاء عذب الرواء فيه من المجاملة والمبالغة أضعاف ما فيه من صدق الرضا[4] ولم يكن لأبي فراس من مطلب غير الفداء وكان مقتنعاً أنه يطلبه لغير مصلحته .

---

(١) انظر الرومية التي نظمها رداً على أميره عندما قال له في كتابه : « ومن لك في خراسان » وكان أبو فراس استأذنه أن يكاتبهم في فدائه (الديوان : ١/ ٢٦) .

(٢) انظر على سبيل المثال الرومية البائية في ديوانه (١/ ٢١) .

(٣) أعنف الروميات عتاباً التي صور فيها آلام أمه وقد ردها سيف الدولة خائبة عن فداء ابنها (الديوان : ٢/ ٣٢٠ ، ٤٥ بيتاً) منها :

تلك المودات كيف تهملها	تلك المواعيد كيف تغفلها
تلك العقود التي عقدت لنا	كيف ـ وقد أكملت ـ تحللها
يا واسع الدار كيف توسعها	ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله	ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا	نحمل أقيادنا وننقلها
رأيت في الضر أوجها كرمت	فارق فيك الجمال أجملها
إن كنت لم تبذل الفداء لها	فلم أزل في رضاك أبذلها

(٤) انظر على سبيل المثال روميته (أما لجميل عندكن ثواب) الديوان : ١/ ٢١ ، الأبيات : ٤٤ ـ ٤٧ .

وخلاصة القول أن الإباء الذي ورثه أبو فراس في دمائه ، ورعاه فيه سيف الدولة ونماه ، كان هو الباعث الذي حاور فيه أميره وسيده في أدب وتجمل تفرضه الضرورة والاحترام المسبق .

العبودية :

لدينا مقطوعات وقصائد غير قليلة يبدي فيها الشعراء تخضعاً وتذللاً من غير تحفظ . ويعود بعضها إلى وقت مبكر حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ثم تكاثرت على مدى القرون . ومرد هذه الظاهرة المبكرة إلى الاستبداد في الحكم وإلى الاستبداد الفردي .

وكثيراً ما لاقى الحبس نفوساً فاقدة للقدرة على المقاومة والتماسك على أنها كانت من قبل في مراكز قيادية سياسية أو إدارية . ولعل سبب ذلك أنهم لم يكونوا مؤهلين بطولياً لهذه المناصب ، كما كان فرسان القبائل وقادتها ، بل وصلوا من طريق إداري أو تدبير تآمري في أبهاء القصور ومقاصيرها . وثمة طائفة كبيرة من أسماء الوزراء ، في متفرق العالم الإسلامي ، لم يكونوا في الحبس إلا عبيداً عند أقدام أسيادهم . منهم البرامكة الذين كانوا ملوكاً على الحقيقة بما لهم من النفوذ والمال والأتباع . وكان لهم الحل والعقد فوق ما للرشيد نفسه . ولما أوقع بهم الرشيد لم يكونوا في سجونهم ملوكاً قط . والقصيدة التي وجهه بها يحيى البرمكي الى الخليفة تنضح بالصغار والعبودية[٢] .

وبدأت صور العبودية في القرن الثاني في عرض المواقف البائسة اليائسة التي يقف فيها السجين كالفريسة المستسلمة لقدرها تستدر بالضراعة ما قد تعثر عليه من الرحمة في قلب الحاكم ، وتقر بذنب هي منه بريئة ، وتشهد للسلطان

---

(١) كان يقول إن فداءه دعامة للدولة والإسلام ، انظر القصيدة السابقة ، الأبيات : ٢٨و ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) انظر القصيدة في العقد الفريد : ٥/ ٦٨ . وانظر البحث ص ٢٥٢ .

بالإنصاف والعدالة[1] .

ورافق هذه الصور ألفاظ العبودية . وهي صيغ تنتسب إلى قصور الملوك وسياستهم الاستبدادية ، وتعكس الصلة بينهم وبين عمالهم . فهي تتصل بشكل الحكم لا بعصر دون عصر . ولذلك قد نجدها على قلة في قصائد عدي بن زيد إلى النعمان[2] .

وكانت مبادىء ظهورها أدخل في أدب مخاطبة الملوك منها في العبودية المعنوية . ولم يأنف منها شعراء مشهود لهم بالإباء والصلابة مثل علي بن الجهم الذي خذله صبره بعد أن أطيل سجنه ، فتوسل إلى المتوكل[3] .

عفا الله عنك ألا حرمة ... تعود بفضلك أن أبعدا
ألم تر عبداً عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدا هدى
أقلني أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

ولكن الشعراء لم يلبثوا أن خاطبوا بهذه الصيغ غير الملوك من الوزراء والكتاب والمتنفذين لما لهم من القدرة على السجناء[4] ولا يأتي القرن الرابع

---

(١) من هذه الصور أبيات تضرع بها أحد آل البيت إلى أبي جعفر المنصور .
ارحم صغار بني يزيد إنهم ... يتم لفقدي لا لفقد يزيد
وارحم كبيراً سنه متهدماً ... في السجن بين سلاسل وقيود
ولئن أخذت بجرمنا وجزيتنا ... لنقتلن به بكل صعيد
أو عدت بالرحم القريبة بيننا ... ما جدكم من جدنا ببعيد
مقاتل الطالبيين : ٣٠٣ وابن الأثير : ٥/ ٢٢٢ .

(٢) انظر ديوان عدي بن زيد : ص ٩١ ، ق ١٦ ، الأبيات ٤٣ ـ ٤٤ وما بعدها :
وتقول العداة أودى عدي ... وعدي بسخط رب أسير
لا بسخط المليك ما شيع العبـ ... ـد ولا في عقابة تنكير

(٣) الأغاني : ٩/ ١١١ .

(٤) انظر في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٣٥) قصيدة عاصم بن محمد الكاتب وهو في حبس أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف . ومنها : =

حتى نـرى بعض الشعراء في الأنـدلس ـ وغيرهـا ـ يقفـون بين يـدي السلطان يخاطبـونه بأذل العبارة خطاب مستعبد مقطوع الرجاء من النجاة(١) .

وأصبح مألوفاً أن يصرح السجين أنه عبـد السلطان يستحق الاعتاق(٢) . ومهمـا عزى مثـل هذا الخـطاب إلى التأدب والمجـاملة وابتغاء الـزلفى والظفر بالحرية فإنه من العسير تفريغه من مضمونه المفعم بالذل والعبـودية وأن يعـزى الاتضاع في الأبيات التـالية التي نـظمها الحـاجري ـ في القـرن السابـع ـ إلى التجمل والتأدب(٣) :

هب لي جناية ما زلت به القدم ... في العفو تطمح في ساداتها الخدم
حسب المسيء جزاء عن إساءته ... فرط الندامـة إذ لا ينفع النـدم
فـإن قتلت فعبـد أنت تملكــه ... وإن مننت فتلك العـاد والشيم

ومن الممكن استخراج صورة واضحة الأبعاد ، تحتـوي مواقف الأحـرار في قبضته الطغيان ، من القصائد التي اختارها صاحب اليتيمة ثم ياقوت من شعر أبي إسحاق الصابي الذي نظمه في سجن عضد الدولة بن بويه في القرن الرابع الهجري . وقوام هـذا الشعر الـذي مدح بـه الشاعـر السلطان هو الإيغـال في الكذب وتشويه الحقائق إيغالاً لم يقبله الحاكم نفسه إذ لم يتأثر به ولم يستجب

= مـا لي مجير غيـر سيـدي الـذي ... مـا زال يـكفـلني فـنعـم الـسيـد
فــاغفــر لعبــدك ذنبــه متــطـولا ... فــالحقـد منـك سجيـة لا تعهـد

وانظر في إعتاب الكتاب لابن الأبار (ص ١٦٤) قول أبي الجهم الكاتب وهو محبوس لنجاح بن سلمة .

(١) انظر شعراً لمحمد بن مسعود وهي في سجن المنصور بن أبي عامر (نفح الطيب : ٤ / ٣٥٩) وللوزير المصحفي في المصدر نفسه (٢ / ١٣٢) .

(٢) انظر في إعتاب الكتاب (ص ٢١٨ لابن غصين الحجازي ـ ١٠ أبيات) في اعتقاله يخاطبها المأمون بن ذي النون منها :

أضــاع الـدهــر مـني عـلق فـهـم ... إذا نـظر الـمـمـيـز مـنـه راقـه
وأي فــتـى لـتـقـديـم الأيــادي ... لــديـه ، وأي عـبـد لـلعـتـاقـة

(٣) ديوان الحاجري : ص ٧٣ ، مصر ١٢٨٠ هـ .

لما رافقه من توسل . ولكن الشاعر الذي فقد الحيلة في الخلاص ظن ذلك الوسيلة الوحيدة التي تبقت له لبقائه حياً أو للخلاص من العذاب فتعلق بها ، على تفاهتها ، سبباً للنجاة ، ولم ير ما فيها من الحط والنكر[1] .

وكان عضد الدولة طاغية صلباً تسجد له الرعية ، وتخافه حاشيته وأعوانه ، ويطيعه جنده ، والخليفة لديه دمية . فهو لا يرضى من أعوانه إلا التعبيد والخنوع المطلق . وكان لأبي إسحاق دراية بمزاج عضد الدولة وخبرة ، واعتياد سابق على طقوس الخدمة . فارتسمت ظلال العبودية في القصائد التي مدحه بها مدة حبسه . وما المدح في هذه الحال إلا الوجه السلبي للسياسة العامة في الحكم التي فرضت على الناس التصاغر وانتحال العبودية قولاً وشعوراً . ويفقد السجين معها الإحساس بالكرامة ، ويختار هو أن يميت في نفسه هذا الإحساس طمعاً في الخلاص .

وبعض مطالع القصائد ذات سقوط مشين وعبودية تنداح حتى تغطي الناس والأرض في صورة سجود تحت أقدام السلطان العملاق الذي يطأ الرقاب والرؤوس وهي تقبل منه الأقدام . فكان رهيباً حقاً مثل هذا الشعر[2] :

أهلاً بأشرف أوبة وأجلها ... لأجل ذي قدم يلاذ بنعلها
فرشت لك الترب التي باشرتها ... بشفاهها من كهلها أو طفلها
لم تخط فيها خطوة إلا وقد ... وضعت لرجلك قبلة من قبلها

---

(١) لم يكن الصابي سياسياً خطراً ، ولكنه كان كاتباً وإدارياً كبيراً يخلص لمن استخدمه ، وأخلص لأسرة بني بويه الخدمة ، ووقع تنافس بين أمراء بني بويه ، فكان إخلاصه لمخدومه عز الدولة سبباً لحقد عضد الدولة عليه ، فلما صار الأمر للأخير سجنه أربع سنوات قضاها كلها في الاسترحام والتوسل الباكي (انظر معجم الأدباء : ١ / ٣٢٤ واليتيمة : ٢ / ٢٥٠ : وكان يتحين المناسبات العامة والعابرة ويزف الى عضد الدولة المدائح والتهاني .

(انظر أيضاً معجم الأدباء ١ / ٣٣٣ واليتيمة : ٢ / ٢٥٦ و ٢٧٠) .

(٢) يتيمة الدهر : ٢ / ٢٥٠ .

وإذا تذللت الرقاب تقرباً   منها إليك فعزها في ذلها

وهذا الشعر هو المؤشر إلى الحقبة التي سحق فيها الإنسان وهدرت قيمته وخست حتى صارت عند السلطان في مستوى الأقدام .

وقاد هذا الموقف المستخزي الشاعر إلى مغالطات نفسية لا يقبلها منطق المادح ولا الممدوح . وهو قلب الحقائق وتحويل الظلم عدلاً ، والإساءة إحساناً ، والهوان إكراماً ، والسجن منة ونعمة واختصاصاً . منطق غريب ممجوج ولكنه مجبول بالألم ، وصاحبه يستحق العطف والرثاء . ولا شك أن الشاعر فقد توازنه المنطقي إذ قال لعضد الدولة[1] :

شهدت لئن أنكرت أنك صنتني   ولم أرع ما أوليتني من ترفق
لقد ضيع المعروف عندي، وأصبحت   ودائعه مودوعة عند أحمق
وحبسك لي جاه عريض ورفعة   وقيدك في ساقي تاج لمفرقي
وما موثق لم تطرحه بموثق   ولا مطلق لم تصطنعه بمطلق

لقد كذب الشاعر كذباً لم يصدقه السلطان ولم يصدقه الشاعر نفسه وفي قصيدة أخرى تملك الصابي مس من الهذيان المضحك إذ قال فيها[2] .

فمن لي بصبر عن جبينك لامعاً   إذا سيم ما بين السماطين من بعد
براني بري القدح شوق مبرح   إليه ، ووجد جل عن صفة الوجد
إذا أبصرت عيناي خدا معفرا   لديك نقلت الترب منه إلى خدي
وإن سمعت أذناي عنك محدثا   لهجت بتكرير الحديث الذي يبدي
فذكراك جهري حين يطرأ زائري   ونجواك سري حين أخلو بها وحدي

إن السلطان والشاعر مسؤولان معاً عن هذا السقوط المدمر للإنسان . وإذا

---

(١) معجم الأدباء : ١/٣٣٥ .

(٢) يتيمة الدهر ٢/٢٧٠ ، من ٣٥ بيتاً .

لم يكن عدلاً أن نطالب الشاعر بالاستشهاد حفاظاً على كرامة الإنسان ـ فحب الحياة فوق المبادىء والمثل غالباً ـ فإن من العدل أن نقرر أن هذا التردي والتعفر لم يكن الشاعر ملزماً به ولا ضرورياً له إذ لم يحرك في عضد الدولة شفقة ولا رثاء . فهو مظهر عبودي تعود رؤيته في حاشيته ورجاله . ولكن الذي أثار فيه العطف أبيات في القصيدة القافية . وصف الصابي فها أحوال بناته وصغاره من بعده وصفاً مؤثراً ، فتحركت في السلطان عواطف الإنسان ، فكانت أول التفكير بإطلاقه[1] . ولقد كان هذا الوصف الإنساني طريقاً أقرب وأصون لو وفق الشاعر إليه منذ البدء .

- ٦ -
القرابـــة

ما حفظته المراجع من أشعار السجناء في أقاربهم قليل نسبياً . والمرجح أنهم نظموا في ذويهم حظاً لا بأس به من الشعر . ويدعم هذا الترجيح وفرة ذكر الأهل في أشعار الإسلاميين مثل أبي فراس الحمداني وأبي إسحاق الصابي والمعتمد بن عباد. أما المتقدمون الأوائل ـ ولا سيما الجاهليون ـ الذين تأخر الزمن بجمع دواوينهم وأخبارهم إلى ما بعد القرن الثاني الهجري، فقد ضاع كثير من شعرهم الذي لم تكن له صلة متينة بالدواعي القبلية والسياسية والتاريخية إذ كان لها دور كبير في بقاء الأثر الأدبي أو اختفائه أو تحويره. ولعل الرواة أغفلوا كثيراً من أقوال الشعراء في أسرهم . فلم تكن لهم مطلبا ولا لجمهورهم . نجد دليل هذا الحدس في مؤلفات المتأخرين فابن الأبار لما ترجم لسعيد بن الجودي في الحلة السيراء، وأورد حظاً حسناً من قصيدته في الأسر ، أسقط البيتين اللذين ذكر فيهما أبويه وزوجه[2] .

---

(١) قال ياقوت : « كان أبو إسحاق يكاتب عضد الدولة في الحبس بالأشعار ويرققه ، فما رققه شيء كقصيدته القافية ، ومنها :

أجل في البنين الزهر طرفك إنهم ... حوى كل مرأى للأحبة مونق

معجم البلدان : ١/ ٣٣٤ ، ومنها الأبيات التي أوردت من قبل .

(٢) الحلة السيراء : ١/ ١٥٩ .

والقليل المتبقي من أشعار القدماء يشهد بكثيره ، فالقطع الصغيرة في شعر عدي بن زيد في أهله تشير إلى أنه كان غير غافل عنهم، وكان بحاجة نفسية إلى تذكرهم والإفضاء إليهم، مما يشجع على الظن أنه نظم في هذا الجانب شيئاً كثيراً . ومن المرجحات أيضاً أن بعض القطع القديمة المتبقية لنا من الجاهلية وردت في معرض الاستشهاد بها على وقعة حربية أو موضع، ولولا هذا الغرض لذهبت فيما ذهب .

ولكن دواعي الاستشهاد يجب ألا تغفل دور العامل الأدبي أحيانا . ولعل الأبيات التي توسل بها الحطيئة إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بأولاده الزغب الحواصل[1] سارت سيرورتها في كتب الأدب بما فيها من عواطف أبوية حنون أعطتها نوعاً من الجدة يومذاك .

وعلى ذلك فما بين أيدينا من أحاديث الشعراء عن الأزواج والأمهات والأولاد والأخوة هو مقدار حسن واف لتقويم مشاعر السجين وسبر أعماقها إذ ينصرف بقلبه إلى الذين تربطه بهم وشائج الدم والروح .

الأزواج :

لا تحتل الزوج في شعر العرب المكان الصدر الذي احتلته المرأة في مطالع قصائدهم، وفي غزلياتهم. وإذا استثنيت بعض القصائد والمقطوعات التي تذمر فيها الشعراء من أزواجهم ومواقفهن السلبية منهم[2] ، ومن نصائحهن ولومهنّ في مواطن الجود والمجازفة[3] ، أو الإشارات التقليدية إليهن ، وهن ينتظرن سيب الخليفة أو الأمير[4] ، فإن ما لهن من الذكر يشغل حيزاً متواضعاً

(١) ديوان الحطيئة : ص ٢٠٨ .

(٢) انظر قصيدة لزيد بن عمر بن نفيل في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٢٩ .

(٣) انظر قصيدة للنمر بن تولب في «كتاب الاختيارين: ٢٦٦» وأخرى لسلم بن زياد في الأغاني ٨/ ١٨٣ .

(٤) انظر في ديوان جرير(ص ٩٦) قصيدته التي يقول فيها :

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوي امتياج

جداً. ولا نكران أن منزلتها الاجتماعية التي وضعتها دون الرجل بدرجات[(١)] حالت بين الشاعر وبين الاعتراف بحقائق مشاعره نحوها إلا بتعبير محترس يفضح الضغط الاجتماعي الذي كان يبهظ الرجل، ويمنعه أن يعيش عواطفه الإنسانية صراحة[(٢)] .

ولكن في الأزمات يتجاوز الشاعر الإنسان الاعتبارات المفروضة، وينطلق متحرراً وتكشف بعض المحاولات المحدودة لبعض الشعراء، تحت وطأة هجمة حنين غالبة، عن الإنسان الصريح والفطرة غير المشوبة بالتقاليد، على ما يبدو فيها من معاناة محصورة في إطار ضيق. وفي قصيدة شوق ـ نظمها جحدر بن معاوية العكلي عقيب حبسه حاول أن ينفذ من أقطار المكان والزمان لتلتقي روحه بروح زوجه، في أجواء الله غير المتناهية، في هدأة الليل وسبح النهار[(٣)] :

أليس الله يجمع أم عمرو ... وإيانا، فذاك بنا تدان
بلى، وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني
فما بين التفرق غير سبع ... بقين من المحرم أو ثمان

ويعد هذا الانعتاق المحدود من إسار التقاليد نجاحا مُرْضياً إذ كثيراً ما يهم الشعراء بهذا الانعتاق ثم يدركهم الخجل الاجتماعي فيحولون مجرى مشاعرهم في اتجاه آخر. وهذا ما نراه في أبيات سجين جاهلي كان عند كسرى، غلا حبه لزوجه وشوقه إليها، فكان ـ كما يدل أول الأبيات ـ مشغول القلب، متصل الذكر بها، ولكنه لم يستطع أن يسترسل بالإفصاح، وانحسر اعترافه الصريح

---

(١) كان عنترة ـ على ما عرف به من الحب لابنة عمه ـ يفضل فرسه على زوجه .

(٢) انظر ـ على سبيل المثال جرير في زوجه :

لولا الحياء لعادني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار

ديوان جرير : ١٩٩ .

(٣) منتهى الطلب: ٢١٦/١ .

إلى تحول خجول ومكابرة مكشوفة . فالمراقبة الذاتية المحترسة من الوسط الخارجي اعترضت العاطفة الدفوق وحولت مجراها إلى تعاظم ذاتي ، قال[(١)] :

كلبيـة علق الفؤاد بـذكـرهـا   مـا إن تـزال تـرى لهـا أهـوالا
فاقني حياءك ـ لا أبا لك ـ إنني   في أرض فارس موثق أحـوالا
وإذا هلكت فلا تريدي عاجـزا   غسـا، ولا برمـا ، ولا معـزالا
واستبـدلي ختنا لأهلك ، مثله   يعطي الجزيل، ويقتل الأبطالا
غير الجديـر بأن تكـون لقوحه   ربـا عليه، ولا الفصيـل عيـالا

والوسط البدوي أشد إعجاباً بالرجولة التي تتحدى الأزمات وتتعالى عليها بالمكرمات. وقد قمع ضغط الوسط عفـوية الإفضـاء العاطفي عنـد غير شـاعر حبيس[(٢)] . ولا يحتاج مثل هذا التعليل إلى برهان، فان من طبائع النفوس حب الجنس الآخـر، وتظل عهـود الزوجيـة ـ في مثل هـذا المـوقف ـ رمـزاً للوفـاء والإخلاص وتكتسب هذه العلاقة فيـه شيئاً من القـداسة، فيشتـد التعلق ويزداد التوجه .

ويلمح هذا التعلق والتوجه إلى الحبيب الذي ينتظر وراء الآفاق البعيدة ، في مطلع القصيدة لزعيم قبلي كبير[(٣)]، حبسـه كسرى في أعقـاب معركـة ذي

---

(١) التبريزي : شرح حماسة أبي تمام : ١/١٨٣ .

(٢) خاطب هدبة بن خشرم، وهو في الحبس، زوجه بالأبيات التالية :

أقـلي عـلي الـلوم يـا أم بـوزعـا   ولا تجـزعي ممـا أصـاب فـأوجعـا
ولا تنكحي إن فـرق الـدهـر بيننـا   أغم القفـا والـوجـه ليس بـأنـزعـا
كليلا سوى ما كان من حد ضرسه   أكيـد مبـطان العـشيـات أروعـا
ضـروبـا بلحييـه على عـظم زوره   إذ النـاس هشـوا للفعـال تصنعـا
وحـلي بـذي أكـرومـة وحـميـة   وصبـر إذا ما الـدهر عض فـأسـرعـا

(الأغـاني : ٢١/١٧٥) والشعراء لا يـوصون بهـذا الشعر أزواجهم بـالـزواج ، ولكنهم يشيرون إلى أن هذه الصفات متوفرة فيهم هم .

(٣) هو قيس بن مسعود بن ذي الحدين ، كان والياً لكسرى على الأبله، وفي جيشه يوم ذي قار، وأنذر قومه، فحبسه، (الأغاني : ٢٠/١٣٤) .

قار[1] :

تعنـاك من ليلى مع الليـل خائـل ... وحب لهـا في القلب ليس بزائـل

أحبك حب الخمر مـا كان حبهـا ... إلـي ، وكـل في فـؤادي داخــل

وليست ليلاه إلا رمزا للمرأة التي ملأت ماضيه ، ولكن الرجولة لا تسمح لرجل في مرتبة الزعامة إلا بقدر من البوح . ولذلـك فالشـاعر يكتفي بـالتلميح المألوف المعتقـد ، أو بتحويـر الموقف إلى فخـر ذاتي أو أن يتستر على الحب والحنين الواقد بالثناء على خلائق زوجه ومزاياها النادرة[2] .

وما شعراء السجن في العصور الإسلامية بأصرح من الجاهليين في هـذا الموقف . وليس في وصف هدبة بن خشرم لزيارة زوجه له في السجن وانفراده بها سوى الإفصاح عن آلام ومخاوف وأسواء مجتمعة على الشاعر[3] . وما تشوق أبي العتاهية إلى زوجه ـ في حبسه ـ إلا عواطف عابرة افتدى به نفسه من الغزل بغيرها[4] . ولا تعليـل لإهمال الشعـراء المتأخـرين لزوجـاتهم سوى التـواضع الاجتماعي على تجاهلها . وكان هذا التجاهل نتيجة خلفيـة اجتماعيـة متوارثـة على ما أبدت المرأة من نباهة في ميادين الثقافة والأدب . ولكن نزراً من أشعار

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) انظر أبيات البراء بن قيس في معجم البلدان (مجدل) ـ وكان حبيسا عنـد كسرى ـ ومنها :

كـانت إذا غضـبت عـلي تـظلمت ... وإذا كـرهت كـلامهـا لم تثـقـل

وإذا رأت لـي جنـة عملـت لـهـا ... ومـتـى تـعـن بـعـلم شـيء تـسـأل

(٣) في قصيدة أورد منها أبو الفرج أبياتا ، منها :

وأدنيـتـنـي حـتـى إذا مــا جـعـلتـنـي ... لـدى الخصـر أو أدنى استقلك راجف

فـإن شئـت، والله ، انتـهيـت ،وإنـنـي ... لأن لا تـريني آخـر الـدهـر خـائف

رأت سـاعـدي غــول وتحت ثيـابـه ... جآجيء يـدمى حـدهـا والحـراقـف

الأغاني : ١٧٤/٢١ .

(٤) كان الرشيد سجنه لامتناعه عن قول الغزل، واستجاب للخليفة بعد سنة من الحبس بأبيات تشوق فيها لامرأته . انظر الخبر والشعر في الأغاني (١٣٦/٣) .

الأندلسيين يدل على تخطي بعضهم هذا الحاجز ، فإن زعيما عربيا لما أسر صرح أنه لا يشغل باله شاغل، إن مات، غير ما تعاني زوجة من هموم وكروب(١) ، وتشير قصيدة أرسلها الوزير هاشم بن عبد العزيز من أسره ، إلى إحدى نسائه ، إلى المستوى العقلي الرفيع الذي كان لهذه المرأة إذ فتح لها مغاليق قلبه وباح لها بمخاوفه وأفكاره بوحاً يتعدى المجاملة إلى اللجوء النفسي إلى صدرها الأمين(٢) .

الأولاد :

أما عاطفة الأبوة فكانت في منجاة من الضغوط الاجتماعية، ففاضت عن قلوب السجناء صوراً من الحب، مشحونة بطاقة دائمة على الإيحاء .

وإذا كان الحطيئة شاعراً صناعاً استدعى إلى قضيته عطف سلطان رحيم فإن الجهد الفني الذي أنفقه في الثناء على الخليفة صرفه عن إشباع الجانب العاطفي الذي تثيره صور الأفراخ الضعاف الجياع إشباعاً يوسع إطار الأبوة البائسة .

أما إذا لم يشغل الشاعر مطلب خارجي ـ كالمدح ـ فهو يتسع في إشباع التعبير واستيحاء الواقع استيحاء معوضاً عن تجويد الفن . وما فقدناه عند الحطيئة نعثر عليه عند المعتمد بن عياد الذي نقل صوراً من واقع أسرته البائس وقد تردت بالفقر من بعد أسره . وهي صور تختزن طاقة إيحائية منبهة تستبعد الاحتشاد الفني . وفي المقطوعة التي هجس بها لما دخل عليه ابنه الصغير ـ أبو هاشم ـ وكان الملك الأسير في قيوده ـ صورة الأبوة التي يمزقها الألم رازحة

---

(١) انظر الحلة السيراء: سعيد بن جودي ١/ ١٥٩ .

(٢) انظر أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق بروفنسال، بيروت ، ١٩٥٦، وهي سبعة أبيات في (ص ٢٥) أولها :

وإني عداني أن أزورك مطبق ... وباب منيع بالحديد مضبب

فإن تعجبي يا عاج مما أصابني ... ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب

تحت الصغار، وهي عاجزة عن إسعاد أطفالها الذين غمرهم وغمرها مصير نكد واحد[1] :

قيـدي أمـا تعلمني مسـلمـا	أبيت أن تشفـق أو تـرحمـا
دمي شـراب لك، واللحم قـد	أكلتـه ، لا تهشم الأعـظمـا
يبصـرني فيـك أبـو هـاشم	فينثني والقـلب قـد حـطمـا
ارحم طفيـلا طـائشـاً لبـه	لم يخش أن يـأتيك مسترحما
وارحـم أخيـات لـه مـثله	جـرعتهـن السم والعـلقمـا
منهن من يـفهـم شيئـا فـقـد	خفنـا عليه من البكـاء العمى
والغيـر لا يفهم شيئـا فـمـا	يـفـتـح إلا لـرضـاع فـمـا

والحق أن المأساة الانقلابية التي عاشها المعتمد كانت موجعة فـادحة . وبالإحساس ما بين ماضيه وحاضره من بون استطاع التعبير عن أعماق الكارثة في نفسه ، فالهوة بينهما سحيقة والسقوط كان مميتا ، وكل ما ذكر به أولاده هو في حقيقته انعكاس لتجربة السقوط . وكانت بعض المناسبات العامة أو الطارئة تجدد له الأحزان[2] . وكان العيد مرة إحدى هذه المناسبات :

فيما مضى كنت بالأعيـاد مسرورا	فساءك العيد في أغمـات مأسـورا
تـرى بناتـك في الأطمار جـائعـة	يغـزلن للناس لا يملكن قـطميـرا
خـرجن نحـوك للتسليم خـاشعـة	أبصـارهن حسيـرات مكـاسيـرا
يـطأن في الطين والأقـدام حافيـة	كـأنهـا لم تـطأ مسكـاً وكـافـورا

إنه موقف الأبوة العاجزة البائسة في ذلها وقيودها في أعين أطفالها . وهو موقف تعرض له غير شاعر وكان منه في محرقة من ألم[3] .

---

(١) ديوان المعتمد: ١١٢ .

(٢) ديوان المعتمد: ١٠٠ .

(٣) انـظر أبياتـا لعدي بن زيـد(ديوانـه: ص ١٥٠ ، تحريـج ٩٢) وقد زارتـه ابنته في السنجن ، وأرادت تقبيله ، فتحسست قيوده تحت ثيابه فبكت .

ولا شك أن القرب واستشعار الذل والاتضاع يفجر الألم والبكاء وفي حال البعد ما بين السجين والأولاد تهدأ العواصف ولكنها لا تبرد، ويطغى على نفس الأب الحب لـلأبناء يعلو على الألم . وهـو شعور لا يغـالبه ويبـدو في سيولـة عاطفية حـادبة على الصغـار الذين لم يتشبـع من طفولتهم، ولـم ينعمـوا بحماه الحنون. وهنا يتوهج الحب ممتزجاً بالألم الدفين . وهـو الحب نفسه المتجـه نحو الذين بلغوا الأشد، ولكنه يأخذ وجه الثقة والاطمئنان والإعجاب والتشجيع أيضاً . وفي مطولة شهيرة للشـاعر الأنـدلسي عبد الملك بن إدريس الجـزيري وصف واف لهذا الموقف الأبوي (١) :

وإذا الفتى فقـد الشبـاب سمـالـه ... حب البنين ، ولا كحب الأصغـر
عجبـا لقلبي يـوم راعتني النــوى ... ودنــا وداعـي كيـف لم يـتـفــطر
مـا خلتني أبقى خـلافـك سـاعـة ... لـولا السكون إلى أخيـك الأكبـر
إنسان عيني ، إن نظرت ، وساعدي ... مهما بطشت ،وصاحبي المستوزر
فـإذا شكوت إليـه شكـوى راحـة ... ذكـرتــه، فشكــا إلـي بــأكثــر

والاعتداد بالابناء غريزة في جبلة البشر جميعاً (٢) .

ويختلف المـوقف عند شعـراء آخرين، فهم يـرمـزون إلى الحب والقلق رمزاً ، وذلك بـالبـوح والإفضـاء إلى أولادهم إفضـاء يخفف عن نفـوس مثقلة بالهموم . ولهذا الإفضاء مرماه ومعناه . فالشـاعر يبحث عمن يلقي إليـه بأثقـال نفسه، فيصدقه من غير نقاش، ولا تكذيب، ولا ارتياب . ولا مثل الولد في هذا الموقف، فينحاز تلقائياً إلى أبيه . ولعل نصيب الأصغر أدنى منه ابنته في نجواه

---

(١) يتيمة الدهر: ٢/٨٨ ـ ٩٠ ، الأبيات ٦ ـ ١٠ .

(٢) انـظر شعراً لأبي إسحـاق الصابي في ولـده المحسن (يتيمـة الـدهـر: ٢/٢٤٦ ، ٥ أبيات) وشعراً لمحمد بن عمر بن المنذر في رثاء ابنته التي ماتت حزناً له لما اعتقل وسملت عيناه(الحلة السيراء: ٢/٢٠٨) .

النفسيـة لأنه علم أنهـا كانت مصـدقة لمـظلمته، وراثيـة لبؤسـه، وهـو المتهم بالاختلاس[١] .

وإن المحبة وراء كل موقف أبوي حتى في المواقف التي أخذ السجنـاء أولادهم بعتاب قاس أو لوم، لم يكن ذاك إلا بدافـع خلفي من الحب الذي لا يحتمل الأب معه رؤ ية ابنه منصرفاً عن واجباته وحقوقه عليه[٢] .

وأظهر ما يميز هذا الشعر هو الصدق في التعبير الرسل السمح ، وإذا أخذ الشاعر أحياناً بشيء من المبالغة المعهودة في أساليب العرب فإن صدق المشاعر الأبوية لا تخفى فيها[٣] .

الأمهـــات :

ولا بد أن يكون الحديث عن الأمهات والآبـاء، كالحـديث عن الأولاد، تشاجياً مؤثراً . ومن المؤسف أن هذا الغرض الإنساني ضئيل الكمية، ذهب به التقادم ضياعاً ، والمرجح أنه كان كثيراً ، ولكن دواعي حفظه لم تتوفر . والقطعة المتبقية من الجاهلية تشير إلى كثـرة هذا النـوع، وإلى دوره في تحريـك أفئدة الآسرين وإثارة أريحيتهم. وهي نموذج للتوفيق بين العاطفة البنوية والرجاء في الإطلاق[٤] .

فـدى بـوالـدة علي شفيقـة   فكـأنها حـرض على الأسقـام

---

(١) انظر قصيدته في (الأغاني : ٢٠/ ٢٧) ومنها :

أهجنـاء، صبـراً ، كـل نفس رهينـة   بمـوت ، ومكتـوب عليـه بـلاؤ هـا

(٢) أنظر قصيدة عدي بن زيد إلى ولده عمرو ، وقد غاب عن السعي لتخليص أبيه من السجن (ديوان عدي : ص ٣٣، ق ١) .

(٣) انظر بيتين للوزير ابن مقلة كتب بهما من الحبس إلى ولده المـريض (الفخري في الآداب السلطانية : ٢٤٠) .

(٤) قائلها فتى وقع في أسر بسطام بن قيس الشيباني، أنشده الأبيات ، فأطلقه انظر ابن الأثير : ١/ ٣٦٦ . وشعراء النصرانية : ٢٩٨ .

لو أنها علمت فيسكن جأشها | أني سقطت على الفتى المنعام
إن الذي ترجين ثمّ إيابه | سقط العشاء به على بسطام
سقط العشاء به على متنعم | سمح اليدين معاود الإقدام

ولا يعتبر الشعر الحزين المنسوب إلى ضرار بن الأوزر، في التوجع لأمه المتوحدة في القفار، في الميزان النقدي شيئاً، فهو من صنع قصاص غير متمكن في النظم. ولكن ينتفع به على أنه أرضية مقبلو له في تصوير عواطف الأسرى في سذاجتها. ومنابعها الفطرية، فالمؤلف على صلة بالوقائع والأخبار، وهي تبرز ما كان يفكر به الجندي في مثل ذاك الموقف.

أما الذخر الثمين فهو الشعر الذي نظمه أبو فراس الحمداني في أمه وهو أسير. وعلى ما مني به الأدب من خسارة فالشعر المتبقي يكشف خطوطه وخصائصه. ولا شك أن اتقاد العاطفة البنوية أو همودها هو الذي يعطي هذا الشعر رصيده الحقيقي.

وأول سماته القلق الذي يعتري الأبناء لما يكابد من أجلهم آباؤهم وفي الأبيات الجاهلية السابقة طرف منه، وهو صريح في بيت لأسير أندلسي(١):

فيا ظاعناً أبلغ سلامي تحية | إلى والدي الهائمين لدى ذكري

ثم الألم الذي يواكب القلق، وهو ألم غضوب في القصيدة التي أرسلها أبو فراس إلى سيف الدولة إذ رد أمه دون مطلب أفتدائه(٢). فقد فجر النضال الذي حملته أمه من أجله، ثم موتها وهو أسير، عميق ألمه.

وتستشف في بعض رومياته البنوة الصافية التي زادتها الآلام والتجارب

---

(١) هو سعيد بن جودي: الحلة السيراء: ١/١٥٩.
(٢) مطلعها:
يا حسرة ما أكاد أحملها | آخرها مزعج وأولها
ديوان أبي فراس: ٢/٣٢٠.

إخلاصاً . لقد عرف في محنة الأسر حقائق مروعة أسلمته إلى التشاؤم : عرف الأصدقاء والأهل الذين تنكروا إليه وتنقصوه ، وشجعوا أميره على إهماله ، فكانت الخيانة والغدر في هذا الموقف محور محنته ، ففر منهم إلى صدر أمه الذي لا يغدر ولا يخون وبثها في موقف بنوي صريح مواجده وأحزانه وتوجسساته وكانت أمه له عالماً كبيراً يدخله آمنا ويفضي إليه بذات نفسه . وتدل كثرة الروميات التي خاطب أمه بها على تعاظم اللجوء النفسي إليها (١) . ودليل ذلك هو الإحساس الفاجع الذي اعتراه بموتها ، فصرخاته الشجية المفعمة بالدموع تنم عن شعور حقيقي بالوحدة في ميدان الحياة ، وعن فجيعة داخلية لا يشوبها صراخ التهويل بل صدق الهاجس الداخلي لبنوة مخلصة معذبة (٢) :

أيا أم الأسير سقاك غيث ... بكره منك ما لقي الأسير
أيا أم الأسير سقاك غيث ... إلى من بالفدا يأتي البشير
أيا أماه كم هم طويل ... مضى بك لم يكن منه نصير
إلى من أشتكي ولمن أناجي ... إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقى ... بأي ضياء وجه أستنير
بمن يستدفع القدر الموفى ... بمن يستفتح الأمر العسير
نسلى عنك أنا عن قليل ... إلى ما صرت في الأخرى نصير

إن البر من صميم اليقين الديني غير أنه في هذا الشعر مغموس في دم القلب غمساً وكثير من المعاني والمشاعر ـ من الإشفاف والتشوق والتصبر ـ التي كانت تنساب انسياب السذاجة عند كثير من الشعراء تكتسب عند أبي فراس إحساساً صميمياً أصيلاً(٣) . وتتوضح هذه المزية إذا قورن شعره في أمه بما

---

(١) أنظر ديوان أبي فراس : ٢١٦/١ ، ٣١٢ ، ٤٣٣ .

(٢) ديوان أبي فراس : ٢١٦/١ .

(٣) انظر قصيدته في ديوانه (٣١٢/١ ـ ٣١٨) . ومنها :

وإن وراء الستر أما بكاؤها ... علي ، وإن طال الزمان، طويل
فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه ... إلى الخير والنجح القريب رسول =

خاطب به ابن زيدون أمه من قصيدة طويلة مدح بها أميره ابن جهور. وتكشف المقارنة عما بين الرجلين من تفاوت في عمق الموقف إذ كان ابن زيدون مجتمعاً حول نفسه، ولم يفقد ثقته بها ولا بالناس، وكان يبدو على ثقة من أمره ولو يئس من أميره، فلم يتعد موقفه من أمه الإشفاق العابر. وإن بكت لم يبك قلبه. ذلك أن ابن زيدون شغل عن الإنفعال المضطرم بتوجعه لنفسه قبل أمه، وبحبه لذاته ثم باحتفاله بالصنعة والتجبير في قصيدة يرفعها الى الأمير وعيون الأدباء تراعيها. فجاءت المواساة سطحية أقرب إلى المجاملة والنصح، بعيدة عن تعاطف بنوي وراءه ألم عميق[1].

أما غير هذا من المقطوعات والقصائد التي صدرت من الحبس إلى الآباء والإخوة والأعمام فهي لا تخرج عن التشكي والاستعطاف وطلب المعونة، ولا تعلو عن هذه المعاني التقليدية إلى أفق تأخذ فيه المحنة أبعادها الإنسانية[2].

- ٧ -
الإخــــــــوان

لا يتأتى للسجناء غالباً أن يتخذوا من السلطة موقفاً صريحاً. فهم

= تأسي، كفاك الله، ما تحذرينه ... فقد غال هذا الناس قبلك غول

(١) انظر ديوان ابن زيدون: ص ٢٦٤، ومنها:

أمقتولة الأجفان مالك ولهاً ... ألم ترك الأيام نجماً هوى قبلي
أقلي بكاء لست أول حرة ... طوت بالأسى كشحا على مضض الثكل
وفي أم موسى عبرة إذ رمت به ... إلى اليم في التابوت، فاعتبري، واسلي
لعل المليك المجمل الصنع قادراً ... له بعد يأس، سوف يجمل صنعاً لي
ولله فينا علم غيب، وحسبنا ... به عند جور الدهر من حكم عدل

(٢) انظر شعر عدي بن زيد إلى إخوته (ديوانه: ص ١٥٠) واسماعيل بن يسار إلى أبناء أخيه (الأغاني: ١٠/٣٣).

والمعتمد إلى أبيه المعتضد وقد حبسه لهزيمة عسكرية لحقت به (قلائد العصيان: ٢١).

مقهورون على التصاغر والكذب والرياء . ولكنهم يتخففون من الخوف والملق إذا تحدثوا إلى إخوانهم ومعارفهم . فيبوحون بالشكوى صراحة من خلال التجربة المريرة التي تكتنفهم . وقد لا يحجمون عن التعريض والذم والشتم . ولا شك أن نوعية التبادل بين الحبيس والأصدقاء هي التي تعين له مواقفه الإيجابية أو السلبية منهم .

التعاطـــــف :

ولا بد من التذكير بندرة الوفاء ـ وبخاصة بين علية القوم وكبارهم ـ في المجتمعات التي ساسها الإرهاب وكثر فيها التآمر وتداول السلطة. فكان السجين متى أخذ من ميدانه فقد وسائل تأثيره ونفوذه ، وتولى عنه أولو المآرب ، وتحفظ في مواصلته والعناية به خاصته درءاً للأذى عن أنفسهم ،وأظهر الشماتة به من كان لا يناله خيره ، وتألب عليه من رغب في ممالأة خصمه ، وقل من بقي على مودته وتفقده له إلا من سلم من انتهازية وغدر وخوف . ولذلك كان السجناء أقدر الناس على تقدير الإخلاص والترحيب به إذا عن لهم . فكانوا يبادرون بالشكر من يتعاطف أو يتوجع لهم[1] ،ويطيرون سعادة بمن يتنصر[2]

---

(١) بلغ الوزير الأندلسي المصحفي أن أقواماً توجعوا له وتعجبوا مما وصله فكتب إليهم :

أحن الى أنفاسكم فأظنها بواعث أنفاس الحياة الى نفسي
وإن زمانا صرت فيه مفندا لأثقل من رضوى وأضيق من رمس

(مطمح الأنفس: ص ٨) .

(٢) أسر الوزير الأندلسي هاشم بن عبد العزيز بن هاشم . فذكره السلطان ونسبه الى الطيش . فلم يدفع عنه التهمة في المجلس غير الوزير الوليد بن عبد الرحمن .

فكتب هاشم إليه من الأسر :

أيا ذاكري بالغيب في محفل به تصامت جمع عن جواب به نصري
أتتني والبيداء بيني وبينها رقى كلمات خلصتني من الأسر =

لهم ، ويعتدون المعروف منه يداً لا يفيها شكر[1] ، وزيارة المجاملة فضلاً يفيض له الثناء [2] .

وتكشف بعض القصائد الإخوانية المنظومة في الحبوس عن حاجة أساسية نفسية لدى السجين هي الإفضاء والتخفيف عن النفس في البوح المنطلق[3] ، يستعين بذلك السجين على احتمال المحنة ، ويحقق نوعاً من الاتصال النفسي بين السجن وخارجه وبين ماضيه وحاضره . فالحبس حلقة منقطعة قاطعة : منقطعة عن الحياة الحرة الطليقة ، قاطعة ما بين ماضي السجين وحاضره . والتواصل الأخوي يغني هذه الحلقة بالمشاعر والتمنيات . فثمة قصيدة من العصر الجاهلي أرسل بها عدي بن زيد إلى صديق له من آل النعمان بن المنذر ، كانا رفيقي قنص وشراب . وهي (٢٢ بيتاً) بدأها بالدعاء والتمنيات الطيبة أن يدوم لصديقه اللهو والخمر والصيد وأن تدوم له السعادة وأن يباعد عن وحشة الحبس والمحنة . وناشده أن يخطر ذكراه في باله كلما جلس إلى شرابه أو خرج إلى مطارح قنصه . وتساءل في حرارة الملهوف : هل يتأتى له معاد مع صديقه إلى ما كانا عليه [4] .

= لئن قرب الله اللقاء فإنني سأجزيك ما لا ينقضي آخر الدهر
(نفح الطيب: ٣/٣٧٢).

(١) انظر في منتهى الطلب (٣/٢٥٣) قصيدة الخطيم المحرزي التي ذكر فيها فضل أعرابي عليه أعانه بظهر وسلاح وزاد ليتابع هربه إلى دمشق فيدخل السجن قبل أن يدركه أعداؤه فيقتلوه . فكان كأنما أعطاه الأعرابي الدنيا بأسرها . وهو عطاء في مثل هذا الموقف لا يقدر على تقديره غير الشاعر . وهي الأبيات (٥ ـ ٩) وأولها :

وما ابن مراس حين جئت مطرداً بذي علة دوني ولا ضائق الصدر

(٢) زار قاضي القضاة في بغداد أبا إسحاق الصابي في حبسه . فذكر سروره بالزيارة (اليتيمة: ٢/٢٦٩) في كلمة بعث بها إلى قاضي القضاة من شعر ونثر ، منها :

فعاش من كلمات منك سحن له كالروح عائدة منه إلى البدن

(٣) انظر أبياتاً لأبي إسحاق الصابي في معجم الأدباء : ١/٣٥٧ .

(٤) ديوان عدي بن زيد: ص ٦٨، ق ١١.

وثمة قصيدة بعث بها أبو الحسن التهامي من سجنه في خزانة البنود بالقاهرة الى صديق له في غزة وصل فيها ما قطعت الأيام بينه وبين أخيه، وعاتبه عتاب المحب المحتاج ألى أذن صاحبه وقلب المخلص إليه يفضي بحاجات نفس مشتعلة، وهذا العتاب اللاهب الرقيق خير دليل على أن البوح الوجداني مطلب أساسي في وحدة السجين [١] :

وأعظم ما بي يا محمد أنني | بأرض وفيما بيننا البعد والهجر
تأمل أبا عبد الإله مقالتي | فإن الصديق الحر يعتبه الحر
أتذكر اذ كنا لدى الدهر رتعاً | ومصر وأرض الشام إذ عيشنا نضر
فمالك تجفوني مع الدهر إذعتا | أكل زمان هكذا عيشه مر
وأنت أخي في كل حال وإنما | عتبتك هذا العتب إذ نفث الصدر

إنها قصة سجين فقد الأخلاء في ساعة العسرة . فهو يطالبهم بحقوق المودة في وقت الشدة . وهو شديد الحرص على مخاطبتهم يشفي نفسه بالقول ويفضي إليهم بخلاصة نظراته في الحياة والحكام والأصدقاء[٣] .

ومن هذه الإخوانيات عدد وافر لأبي فراس الحمداني [٣] وأبي إسحاق الصابي[٤] وابن زيدون[٥] ، وقطع متفرقات لآخرين . وتتجه من غير استثناء إلى الأخ والصديق تطرى سجاياه وإخلاصه ووفاءه ثم تسكب بين يديه الهموم ، والاحزان ، والخوف والتشاؤم من الناس والأصحاب ، والصبر على البلية والعذاب والتحدي والرجاء . وتمتاز كلها بأنها فيض عاطفي عفوي ينبع من تجربة الخيبة وسوء الظن ، ويتفجر من ألم غاضب ونظرة يائسة وضعف الثقة

---

(١) ديوان أبي الحسن التهامي : ١٤٣ .
(٢) انظر بقية القصيدة في المصدر نفسه .
(٣) ديوان أبي فراس : ص ٧٣ و٤٨١ .
(٤) يتيمة الدهر : ٢/٢٦٨ .
(٥) ديوان ابن زيدون : ٢٧٣ .

بالآخرين . وتكفي مقطوعة ـ في الحلة السيراء ـ بعث بها ملك مخلوع سجين في الأندلس إلى صديق كان وزيراً له ، تكفي في توضيح الخطوط الكبرى لتلك الإخوانيات المطولة[١] :

لئن غضّ منك الدهر يوماً بأزمة   فحسبك أن تلقى وأنت صبور
فليس أسى يبقي وإن جل مثلما   ـ على كل حال ـ لا يدوم سرور
أيوجد في الدنيا من الناس صاحب   إذا أعرضت أبقى ،لذاك عسير
طلبت عزيزاً لا ينال فإن يكن   فإن أبا بكر بذاك جدير
رضيت به حظاً من الناس كلهم   فما بعده حر إليه نشير

والقصائد المشار إليها أصدق ما نظم في هذا الفن وأعمقه . وثمة الكثير من هذا الشعر الغني بما فيه من توادد وصفاء . ولكنه إلى المناسبة والمجاملة أقرب فإما أن ينظم في طلب العون أو في مداعبة بالقول والنظم[٣] .

خيبة الأمل والتشاؤم :

شكى الشعراء من خيبة أمل كبيرة في أصدقائهم المقربين خاصة . ويوجز هذه الشكوى بيتان مشحونان بلوعة الخذلان وبؤس العزلة هتف بها إبراهيم الموصلي لما طال حبسه [٣] :

كثير الأخلاء عند الرخاء   فلما حبست أراهم قليلا
لطول بلائي مل الصديق   فلا يأمنن خليل خليلا

---

(١) الحلة السيراء : ٢/ ٢١٠ . والشاعر هو محمد بن المنذر أبو الوليد بعث بها إلى أبي بكر المنخل وكان استوزره في ولايته وكان بينهما إخوانيات متبادلة . أنظر أيضاً ص (٢٠٨) .

(٢) انظر أبياتاً لأبي العباس الصفري (معجم الأدباء : ٢/ ١٢٤) وقصيدة مداعبة لأبي إسحاق الصابي (يتيمة الدهر : ٢٥٣/١) مع الأديب أبي الفرج الببغاء ، وأخرى لأبي المعتز في (زهر الآداب ١/ ١٨٥) وهي أرجوزة أرسلها لأستاذه ثعلب .

(٣) الأغاني ٥/ ٥ .

ويـزداد السجين قطيعـة وخيبة إذا كـان ذا خطر مـريباً عنـد أولى الأمـر . فيخشى الناس عواقب مواصلته . فإن ابراهيم بن المهدي في سخطة المـأمون عليه تفقد أعوانه الذين زينوا له الثورة على ابن أخيه فلم يلق منهم واحداً في محنته العصيبة [1] :

تحـامـاني الصـديق وغـاب عنـي ثقـات صنـائعي وهـم حضـور
أيـا عجبـاً أمـا في النـاس ممـا تـقلد نـعـمـتي رجـل شكـور

وتزايد الانهيار الخلقي وتساقطت القيم تساقطاً ذريعاً في معمعة المؤامرات والمكـائد فكـان بعض الأعوان والأصحـاب يتحولـون الى أعداء فجـأة ممـالأة للمتنفـذين أو غدراً ، وكان الوزيـر محمد بن عبـد الملك بن الزيـات في القرن الثالث مضرب المثـل في التنكر لـلأصدقـاء والعدوان عليهم في محنهم [2] ، والأبيات الثلاثة التالية لأحد شعراء المغرب يصدق مضمونها غير شاعر :

وإخـوان تـخـذتـهـم دروعـاً فـكـانـوهـا ولكـن لـلأعـادي
حـسبتـهم سـهـامـاً صـائبـات فـكـانـوهـا ولكـن في فـؤادي
وقـالـوا قـد صفت منـا قلوب لقـد صدقـوا ولكن من ودادي [3]

وذهبـأبو إسحـاق الصابي ـ في القـرن الرابـع ـ في وصف هذا المـوقف وتحليله أيمـا تحليل شعـراً ونثـراً [4] . وارتفعت أصـوات الشعـراء على مـدى القـرون تعرض بـالأصدقـاء وتنكرهم لإخـوانهم المسجـونين [5] . وبلغ الأمـر بالطغرائي أن توسل إليهم أن يتركوه لسخطة الدهر وحدها وأن يكفوا عن أذاه في محنته [6] .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء : ص ٤٨ .

(٢) الطرائف الأدبية : ص ١٣٢ .

(٣) الشعر لمحمود بن علي بن أبي الرجال ، نكبه المعز الصنهاجي (.إعتاب الكتاب ٥ / ٢).

(٤) يتيمة الدهر : ٣٤١/١ .

(٥) انظر الحلة السيراء (ص ٢٠٨) وديوان أبي الحسن التهامي (ص ١١٧ ـ ١١٩) .

(٦) انظر ديوان الطغرائي : ص ٦٣ .

أخلاق البلاط :

ومن الإنصاف أن تعزى أسباب التبدل الخلقي ، من صفاء البداوة الغضة إلى النكران الصفيق ، إلى تطور الحكم وأساليبه وغلبة العناصر الأجنبية عليه وعلى الجيش ومرافق الدولة تطوراً نحو الإرهاب والبطش .

ولذا يقود هذا الجانب من الشعر إلى دراسة ذات جدارة هي خلقية رجال الحاشية الذين التفوا حول السلطان ، وماتت عندهم القيم وفق طبيعة المركز وتلبية لنداء المصلحة الذاتية . وتقدم في بعض الشعر شيء من أبعاد هذه الخلقية .

وممن أزاح أقنعة الرياء عن وجوه رجال الدولة والمقربين من السلطان علي بن الجهم . ففي أول قصيدة بعث بها من السجن إلى أخيه فضح ما اتسمت به سلوكية هؤلاء القوم من ثنائية أصبحت معها القيم والمثل صوراً من غير مضمون وتزييفا . ويكاد ابن الجهم يلاقي « لراشفوكولد » في تشاؤمية نفعية تشكك في كل ما تواضع الناس على تسميته إخاء وإخلاصا ووفاء . ونظفر من خلال وصف الواقع بتحليل لخلقية البلاط لا يرفضه التصديق[1] :

توق الناس يا بن أبي وأمي	فهم تبع المخافة والرجاء
ولا يغررك من وغد إخاء	لأمر ما غداً حسن الإخاء
ألم تر مظهرين علي عتبا	وهم بالأمس إخوان الصفاء
فلما أن بليت غدوا وراحوا	علي أشد أنواع البلاء
أبت أخطارهم أن ينصروني	بمال أو بجاه أو ثراء
وخافوا أن يقال لهم : خذلتم	صديقاً فادعوا قدم الجفاء
تضافرت الروافض والنصارى	وأهل الاعتزال على هجائي

وكانت أقرب الصور خطوراً على ابن زيدون لهؤلاء صورة الذئاب الواكفة في دم الجريح :

---

(١) الأغاني : ١٠٥/٩ .

أذؤب هامت بلحمي فانتهاش وانتهاس[1]

وتعد بعض هذه القصائد مصدراً نافعاً في استنباط الكثير من عوامل الفساد التي كانت تهدم في بناء الدولة، وفي الكشف عن كثير من أعراض الانهيار الاجتماعي والخلقي. وقصيدة إبراهيم بن المدبر (٢٠ بيتاً) - على سبيل المثال - إلى صديقه أبي عبد الله بن حمدون وثيقة تاريخية عن المظالم السياسية والمفاسد الاجتماعية وما ملأ جهاز الدولة من خيانة وفوضى وسرقات وإهمال حقوق الآخرين مع إهمال المصالح العامة، ومن اطراح الابرياء في السجون والتآمر والدس والمكر[2] . وقصائد عديدة تفضح أخلاق الكبار في كراسي المسؤولية أو من هم حول المسؤولين مثل بعض روميان أبي فراس، وثمة قصيدتان في ديوان أبي الحسن التهامي[3]، وقصيدة لمحمد بن عاصم الكاتب[4]، وشيء من شعر الحاجري[5] والفتح بن العميد[6] .

- ٨ -
الغـزل

ليس للغزل غزارة في أشعار السجناء ومع ذلك لا يسعنا إغفال هذا الغرض .

ويلاحظ أن البث الناشيء عن معاناة الحب مفقود الأثر في هذا الغزل ما خلا بضعة أبيات ساذجة الشعور والأداء[7]، وشيئاً من غزل مذكر يسجل الشذوذ

---

(١) ديوان ابن زيدون : ٢٧٦ .

(٢) الأغاني : ١١٦/١٩ .

(٣) ديوان أبي الحسن التهامي : ص ١١٧ و١٤٣ .

(٤) المحاسن والمساوىء : ٣٤٨/٢، للبيهقي .

(٥) ديوان الحاجري : ص ٧١ .

(٦) معجم الأدباء : ٣٥٣/٥ .

(١) أنظر أبياتاً لشاعر مجهول سجن في دير مهجور هو دير حزقيال (معجم البلدان : دير حز قيال) .

الجنسي لشعراء حملوه من وسطهم إلى الحبس[1] .

وبعض غزل الحبوس مطالع للقصائد أو يرد في ثناياها ، وأحياناً يشغل الغزل الحيز الأكبر منها[2] .

ومن اليسير تمييز أنماط من هذا الغزل يتصل كل نمط منها في خصائص ومضامينه العاطفية والجمالية بذوق عصره وطرائقه في التعبير . ولكنه غزل صادر عن دوافع وحاجات نفسية نجمت في محنة الحبس وليس تقليداً فنياً فحسب .

غزل البداة التقليدي :

ولدينا من غزل البداة بضعة نماذج منشؤها ما بين الجاهلية ومنتصف الحقبة الأموية[3] .وهي مطلع قصيدة لمهلهل بن ربيعة[4] ، وأبيات من قصيدة طويلة لهدبة بن خشرم[5] وهو حبيس في المدينة . وأبيات من مطولة نظمها أعشى همدان وهو في أسر الديلم[6] والظاهرة الغالبة على هذا الصنف افتتان البدوي بالجمال الجسدي وتعداد محاسنه تعداداً دقيقاً . فالمرأة التي كان يهواها أعشى همدان جمعت ـ أو جمع لها الشاعر ـ المثل الجمالية الخارجية التي كانت تعتبر المقياس الرفيع في تقويم الحسن والصباحة . فالنظر الفاترة ، والأسنان ذات الريق والبريق ، وضخامة الردفين ، وامتلاء الأطراف ، واختضاب

---

(١) انظر محمد بن مسعود في (الذخيرة لابن بسام : ٢/١ : ٧٩) وقصيدته في الشاعر الطليق وكان به هائماً وهو سجين معه . وانظر مقطوعة للشاعر في غلام أسود (نفح الطيب : ٤٠/٤) .

(٢) انظر الرمادي في نفح الطيب ٣٩/٤) والمطمح (ص ٧٣) .

(٣) انظر قصيدة طهمان في منتهى الطلب (٢٦٤/٢) والسمهري في المصدر نفسه (٢٦٠/١) .

(٤) انظر قصيدته في الأغاني (١٤٠/٤) .

(٥) انظر قصيدته في المصدر نفسه (١٧٤/٢١) .

(٦) انظر ديوان أعشى همدان : ٣٤٤ ، الأبيات : ٥ ـ ١٤ .

البنان ، وبياض الصدر ، والعوارض المصقولة ، والبطن المخطف والبشرة البيضاء في لون الشمس هي الصفات التي ترسم « فينوس » البادية [1] .

وإذا قرأنا ما نظمه هدبة بن خشرم في نسوة رآهن من نافذة حبسه في المدينة طالعنا شاعر بدوي أعجبه الجمال الحضري المنعم . فوصفه كما رآه ، وأعطاه نعوت البادية وأصباغها . فهن معصفرات محمرات ممتلئات ، أعناقهن كأعناق الظباء ، وأعينهن أعين الجآذر[2] .

وواضح أن هذا الذوق موروث ليس فيه من إيحاء السجن أثر . فالشاعر السجين إذ يعبر عن حسه الجمالي يستلهم بيئته وزمانه . والصبوة إلى المرأة شعور ملح دائماً ولا سيما في الدوائر المغلقة ولذلك يرجح أن وراء هذا الفن التقليدي نصيباً موفوراً من الشعور الدافق الحي ، وهو الرغبة في الجنس . وتترجم هذه الرغبة المستسرة عن نفسها باستعراض الأوصاف المادية الشهوية عرضاً مفعماً بالصبابة. والدفء. فلا نقع في هذا الغزل سوف استشفاف الدوافع النفسية الخفية المعبأة في الإطار والتعبير التقليديين . ومن السهل اكتشاف تنازع الرغبة والألم في نفس المهلهل عندما طافت به المغنية وهو أسير . فصبا إلى أنوثتها ثم ردته همومه وآلامه إلى مأساته[3] :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ... ء لعوب لذيذة في العناق
فاذهبي ما إليك غير بعيد ... لا يؤتي العناق من في الوثاق

الغزل الرمز :

ولكن بين أيدينا ثلاث قصائد بدوية نظمها في السجون ثلاثة من الصعاليك في العصر الأموي : ثنتان خالصتان في الغزل ، والأغراض الفرعية

---

(١) انظر المصدر نفسه .
(٢) الأغاني : ٢١/ ١٧٤ .
(٣) الأغاني : ٤/ ١٤٠ .

فيهما نابعة من الشعور الذي صدر عنه الموضوع الأساسي نفسه[1] ، والثالثة يشغل الغزل منها ما لا يزيد عن ثلثها ولكن المنطلق النفسي الذي خرج منه الغزل يسيطر على باقي موضوعات القصيدة كذلك[2] .

وتمتاز هذه الثلاث بغلبة الجانب الروحي غلبة ظاهرة ، وبطغيان الشوق والألم طغياناً يفارق النوع الأول مفارقة غير خافية . والشاعر في هذه القصائد قد يلمح إلى محاسن محبوبته من غير تفصيل ولكن يضفي عليها هالة من التوق وقداسة الذكرى ، وتبدو فيها فتانة يحف بها جمال روحي سام .

ذلك أن الشعراء جعلوا من المحبوبة ، في هذا الغزل ، محوراً تطيف به مشاعرهم وآلامهم . فالدعاء بالسقيا ، في قصيدة طهمان بن عمرو الكلابي ، هو للمرأة . ولها يصرح بحبه الراسخ في عظامه وأعماق فؤاده . وهي التي يحرص على سمعتها وسلامتها . ومن أجلها يتمنى الخروج من الحبس ليمر بها ، فيطوي في خياله الصحراء المخوفة بينها وبينه ، وينطلق فيها على ناقته الصلبة الضامرة تحمل منه رجلاً كريماً شجاعاً ذا حفاظ وعفة وحياء .

وكان السمهري يقضي ليلته مع طيف محبوبته وقد وافاه بعد أن نذر قومها دمه . فارتفق ينظر إليها فإذا الأرض الخلاء غبار مثار بينهما كأنما الجن أثارت الأرض لتخيفه . ولكن ليلاه تبتسم له وتحدثه . ولما ألقت عليه التحية ألقى عليها من التحيات عدد الحصى وكان أقصى ما يتمناه أن يلتقيا لقاء لا فراق بعده : إن عاشا عاشا معاً وإن ماتا ماتا معاً .

وثمة سؤال : هل كان أمثال هذين الشاعرين عشاقاً حقاً ، وهل كانت ليلى التي ناجاها كل من طهمان والسمهري ، وأميمة التي بثها القتال الكلابي

---

(١) منتهى الطلب ٢/٢٦٤ و٢/٢٦٠ . الأولى لطهمان بن عمرو الكلابي ، والثانية للسمهري .

(٢) انظر ديوان القتال الكلابي : ص ٣١ .

مواجده ، هل كن نساء لهن وجود حق ، وهل كان ذاك التعلق تعلقاً بأشخاصهن أنفسهن ؟

إن السبر العميق لظروف هؤلاء الشعراء قد يرجح تفسيراً آخر لهذا الغزل ، وقد يجد وراءه دوافع لا تكفي النظرة الخارجية لرؤيتها . فهم كانوا في حال من التشرد القاسي : تخلت عنهم قبائلهم ، وتركوا للهلاك والضياع وللمخاوف والأخطار ، تطاردهم السلطات والأعداء معاً ، ولا ملجأ لهم إلا شعاف الجبال والغيران والوديان ، ولا معاش لهم إلا من سلب وفتك . وهم من جماعة لهم من مجتمعهم موقف وفي الحياة رأي[1] .

إن أشواقهم وحنينهم غير متجه إلى المرأة وحدها بل هي أشواق إلى القبيلة كلها ، وحنين إلى الأرض والسلام . إن طهمان ـ مثلاً ـ في خاتمة القصيدة يدافع عن مذهبه ومسلكه في الحياة ، وعن أخطائه التي قادته إلى السجن . ولقد كان بينه وبين قومه جفوة وتقاطع ، وله فيهم أهل وأحباب . فكان هذا الغزل تعبيراً عن الشوق إليهم جميعاً ودفاعاً عن نفسه وتبرئة لها من الاتهام .

فهذا الغزل لا يعدو أن يكون رمزاً لعواطف وآلام شتى تعتلج في قرارة الشاعر فليس فيه مشاعر الجنس ولا الهوى الحزين المثبط الذي يبعثه أحياناً هجران النساء . وليس ما فيه عواطف مريضة بل هو القوة والرجولة والشوق العارم الصادق والفتوة والإباء والوفاء . وهذه العواطف في مثل هذا العنف والتضرم تتجه إلى ما هو أخطر من حب امرأة . ولا تثير المرأة عند البداة هذه الانفعالات الروحية المتوقدة . إن للآلام منشأ أعظم هو التهديد والخوف والسجن والعزل الاجتماعي والاتهام ، إن ليلى وأميمة في حقيقة الأمر هي القبيلة والعشيرة والأحبة . وإن الظلام والهول والجن هو واقع الشقاء والعذاب في السجن. وأما الذكر والأمنيات فهي حقائق الشعور في أعماق النفس.

---

(١) انظر البحث ص ٢٢٩ .

ويؤ يد دعوى الرمز في الغزل بعض كبار الشعراء من غير البداة اتخذوا من الغزل التقليدي شكلاً تعبيراً عن آلام وحقائق تغمر وجدانهم وأقوى الأدلة رومية لأبي فراس الحمداني اشتهرت مقدمتها الغزلية (٢٧ بيتاً) حتى صارت موضوع غناء عصري سائر(١) ودار فيها عتاب شيق بين الشاعر وغادته ليس هو في حقيقته إلا غزلاً رمزياً ظاهره الشكوى واللوعة والأشواق الصادرة عن حرمان الوصل وهجران الحبيب وصدوده ، وباطنه الشكوى من انصراف ابن عمه عنه وأصدقائه وإخوانه ومن أوجاع الأسر وهوانه . ومن قرأ الروميات وعرف ما كان بين الشاعر وبين أميره وحساده علم أن غادته في الأبيات التالية هي سيف الدولة نفسه(٢) .

بنفسي من الغادين في الحي غادة ... هواي لها ذنب وبهجتها عذر
تروغ إلى الواشين في وإن لي ... لأذنا بها عن كل واشية وقر
فلا تنكريني يا بنة العم إنه ... ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكريني إنني غير منكر ... إذا زلت الأقدام واستنزل النصر

والحق أن « ابنة العم » هي « ابن العم » سيف الدولة ، والمعاني التي ألم بها غزل أبي فراس عرضت في عتابه ابن عمه وفي فخره مرة في رومياته وفي هذه الرومية ذاتها .

من هذه الأدلة قصيدة نظمها عبد الله بن الحجاج في حبس الوليد بن عبد الملك له وكان ثائراً مطرداً استجار بشريف أموي في دمشق ، فوشى به إلى الخليفة فحمل إلى السجن . فثارت ثائرة الشاعر ، وانطلق يسامي الخليفة ويفاخره ويعاتبه ، ويسخر بالشريف الأموي لإخفاره حق الجواروبمرؤته ،ويهجوه هجاء مضحكاً .

وللقصيدة مقدمة غزلية أعجب بها صاحب الأغاني فأورد بعضاً منها . والشحنة

---

(١) القصيدة مشهورة وهي في ديوان أبي فراس (١/ ٢٠٩) ٥٤ بيتاً ، وأولها :
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر
(٢) المصدر السابق .

العاطفية في المقدمة تملأ القصيدة كلها . وهي شحنة غضب محتدم كأنما يريد الشاعر أن يتفجر . والدموع في المطلع الغزلي ما هي إلا مظهر الغضب الذي رغب الشاعر في أن يفرج بها عن نفسه[1] :

أقول ـ وذاك فرط الشوق مني ـ   لعيني إذ نأت ظمياء فيضي
فما للقلب صبر يوم بانت   وما للدمع يسفح من مغيض

وهو صنو الغضب في تحدي الخليفة[2]،وجعل ما ذكر من فراق ظمياء وطعم ريقتها وإفضائها إليه بحبها وسيلة أو ذريعة للبكاء . وما كان عبد الله المشهود له بالشدة والمغامرة والثورة ليبكي لفراق امرأة . وما ظمياء إلا امرأة خيال . ولكن عبد الله يبكي مما هو أدهى : يبكي من الغدر والحبس . والرجولة تقضي ألا يبكي صراحة فيؤخذ عليه الجزع والضعف ، فالتمس في الغزل مخرجاً فبكى وقد تقنع بقناع الصبابة .

وخلاصة ما تقدم أن الغزل في مطالع بعض قصائد الحبوس هو رمز للتيارات النفسية التي تستأثر بالسجين عند النظم وتسري في باقي القصيدة غير خفية ، ولا شك أن التنبه لهذه الظاهرة يجعل للغزل قيمة خاصة للسببين التاليين : الأول هو كونه المفتاح النفسي الشعوري للقصيدة وليس جزءاً تركيبياً مضافاً إليها ، والثاني كونه اتخذ في التعبير رموزاً مألوفة من تعابير النسيب وتراكيبه وصوره للدلالة على معان حارة حية .

الغزل الحزين .

ومن ثم وجبت الإشارة إلى المطالع الغزلية في بعض قصائد المدح فإن الغزل الرمز لا تزال له فيها دلالته وخلفيته النفسية من الأسى الذي هو ظلال السجن . ولكن الشاعر يصرف فيه جهداً خاصاً ليوفر له قيماً تعبيرية تقليدية موافقة لذوق

---

(١) الأغاني : ١٢/٢٦ .

(٢) انظر البحث ص ١٧٤ .

العصر ، فيمتزج الفن بالشعور . وقد يغلب أحدهما على الآخر . وفي ديوان ابن زيدون قصيدتان في مديح ابن جهور تبدأ كل منهما بمقدمة غزلية .

أما الأولى فمطلعها :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر   إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر[1]

وأما الثانية فمطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجوم   والمنى في هبوب ذاك النسيم[3]

والمقدمة الغزلية أحد عشر بيتاً يغيب فيها الوصف الجسدي ويبرز الحديث عن الماضي السعيد .

وتستعرض في مثل هذه المقدمات ذكريات اللهو والوصال ، ويطرى جمال المحبوب ، ويشاد بمكانته عند الشاعر الذي يتحسر على ما حل به من مصيبة الحبس .

ولعل وراء هذه المطالع غرضين : الأول فني وهو تصدير القصيدة بمطلع غزلي يطرف السامع . والثاني وجداني ذاتي هو تمركز الشاعر حول محاور عاطفية معينة هي ذكريات الماضي التي كانت أجمل ما في حياة الشاعر فيجد الشاعر في البوح مستراحاً ومتنفساً . وليست المرأة في هذا الغزل هي مصدر الحسرات . فما هي إلا رمز . فإن آلام ابن زيدون لم تنبعث من فقده ولادة وحدها بل من حرمانه أسباب الرفعة والمجد فوراء هذا الغزل مظاهر الحرمان كلها من المرأة ومن رفعة المنزلة والحظوة وطيب العيش .

وتتلاقى مقاصد الشاعر الأسلوبية بأحواله النفسية فتتمازج مشاعره الحزينة

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ٢٥٠ .

(٢) ذكر محبوبته وليالي الوصال في (٤ أبيات) ووصف محاسنها في (٦) أبيات ثم تمنعها عليه والتأسف على ما مضى من نعيم أيامه الخالية التي لم يبق منها غير الذكرى .

(٣) ديوان ابن زيدون : ص ٢٧٨ .

مع التعابير والصور الغزلية قديمها وحديثها ومع الألوان التزيينية من البديع ، فيخرج خليط من العمل الأدبي يكاد الشعور الصادق فيه تطمره كثافة العمل اللفظي[1] .

الغزل المستعار :

وفي نعت بعض الغزل بالمستعار بعض الغرابة . وسبب ذلك أن صاحب الغزل لا يريد أن يتغزل بل يريد تشهيراً بأهل المرأة وذويها وأن يفضحهم بها .

وأبعد في هذا الأسلوب سحيم عبد بني الحسحاس في الهجوم على أعراض القوم الذين كان فيهم . فكان يصور المواقف الفاحشة ليغيظ المجتمع الذي ازدرى لونه واسترقه وحرمه حريته وسخره لأغراضه . فانبرى يمزق بلسانه الأعراض في صور الفحشاء الفاضحة حتى قتل[2] .

واستغل هذا الرسم الأحوص في مهاجمة منافسيه في المدينة فحبس[3] .

أما الشاعر العرجي ففي ديوانه قصيدتان نظمهما في السجن ادعى فيهما حب دعجاء ووجناء من حرم أمير مكة محمد بن هشام المحزومي الذي حبسه[4] .

---

(١) يستحسن التمثيل بأبيات من مقدمة غزلية للرمادي الأندلسي في حبسه (نفح الطيب ٣٩/٤) :

على كبري يهمي السحاب ويذرف	ومن حزني تبكي الحمام وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلي	وتلك على فقدي نوائح هتف
ألا ظعنت ليلى وبان قطينها	ولكنني باق فلوموا وعنفوا
وآنست في وجه الصباح لبينها	نحولا ، كأن الصبح مثلي مدنف
وأقرب عهد رشفة بلت الحشا	فعاد شتاء بارداً وهو صيف
وكانت على خوف ، فولت كأنها	من الردف في قيد الخلاخل ترسف

وانظر له في المطمح (ص ٧٣) قصيدة أصفى مورداً لقلة الطحالب اللفظية .

(٢) انظر البحث ص ٢٥٦ .

(٣) انظر البحث ص ٢٤٩ والأغاني : ٤٨/٤ .

(٤) الديوان ص ١٣٧ و١٥٥ وانظر البحث ص ١٤١ والأغاني : ١٥٥/١ .

والقصيدة الثانية من ثلاثة وعشرين بيتاً يوهم فيها الشاعر أن قد سجن بسبب تلك المرأة . وهي شغله الشاغل ،وحبها طافحٌ به قلبه لا يقدر على كتمانه (الأبيات = ١ ـ ٤) . وقد دله عليها فتى اسمه حمزة (٥ ـ ١٢) كأنها معروفة بأنها مطلب العشاق ـ ثم يصف جمالها على عادة الجاهليين في صفة المرأة : ضعف المشية ، وضخامة الوركين ، ودقة الخصر ، ولين القد ، وحور العين . . . (الأبيات ١٣ ـ ١٨) ويعلن أنها أحب نساء الدنيا إليه ويحلف على ذلك (٢٠ ـ ٢٣) .

وهو لا يريد بهذا الوصف إلا زيادة في التشهير وفي إغاظة الأمير إذ لم يترك صفة مستملحة من صفات النساء عند العرب إلا جعلها فيها . فإذا كانت جميلة مطلوبة ، وكانت أمله من دنياه، وشغله في حبسه ، فهو يستحق أن يسجن بها . فقضيته عند الأمير قضية عشق لبعض حرمه ، وليست خلافاً من نوع آخر . وفي ذلك سخرية وهجاء ومعرة .

وواضح أن هذا الضرب من الغزل لا صلة له بالقلب إطلاقاً بل هو هجاء استعار رداء الغزل ، غرضه التشهير بالخصوم وفضحهم لتلوك الألسنة أعراضهم وتتغنى بها في المجالس ، إنه ضرب من الغزل السياسي أو العدائي ، وهو من ميراث المجتمع المتظاهر بالمحافظة ، ولذلك لا يجاوز منتصف العصر الأموي ، ولا يعدو محيطات الحجاز والبوادي ، وقد استغله أحد الشعراء في إغاظة الحجاج إذ تغزل بأخته [(١)] .

ـ ٩ ـ

أغراض تقليدية

في أشعار السجناء ـ إلى جانب الأغراض السابقة التي أضفى عليها السجن صباغاً خاصاً ـ أغراض نابعة من صميم حياة البادية والمجتمعات القبلية ، معروفة بعراقتها وأصالتها في الشعر العربي التقليدي ، فالعصبيات وما

---

(١) هو الشاعر أبو نمير الثقفي . انظر الأغاني : ٦/٢٦ والفرج بعد الشدة : ٣٧١ .

تثيره من قتال وثأر ، والصحراء والناقة والبرق والسحاب والوحش وزجر الطير كلها صور ثابتة في شعر البادية ، وطبيعي أن تبدو هذه الصور واضحة الخطوط مفصلة في أشعار السجناء البداة .

ومعروف أن بعض هذه الأغراض ـ مثل وصف الناقة والصحراء فرضت نفسها على القصيدة العمودية التي التزم رسومها شعر المدح الرسمي في القرنين الأول والثاني للهجرة .

ولا اهتمام للبحث بهذه الأغراض إذا جاءت التزاماً شكلياً وراثياً كما هي في أشعار الحواضر ، ولا يتناولها إلا إذا مسها الحبس بصباغ نفسي جديد واتجه بها اتجاهاً آخر .

وهذا الشرط الأخير متوفر إلى حد ظاهر في أشعار البداة المحبوسين غير قصيدة عمودية واحدة طويلة نظمها أعشى همدان وهو في أسر الديلم ، فأتى بها طبق الرسوم الجامدة الجافة في الغرض والشكل حتى كادت الذاتية تغور وراء صور الصحراء والغزل والوصف التقليدي والتراكيب المنحوتة المتداولة بين الشعراء ميراثاً (١) ، ولا نكاد نعرف في هذه القصيدة أجواء الأسر والسجن لولا تصريح الشاعر بما يعاني من الغربة والوحشة في يد الديلم وفي جبالهم المنيعة ، أما غيرها من الشعر البدوي الصادر من الحبوس ، فالشعراء تصرفوا بالأغراض التقليدية تصرفاً وضعها في إطار الحبس وفي صميم الانفعال النفسي للشاعر ، وبذلك تكتسب الجدارة بالدراسة ، فالشعراء لم يريدوا بها عرضاً لمقدراتهم البلاغية والاتساع في القول شأن بشار وأبي نواس في قصائد المدح ذات الرسوم وإنما الغرض له مساس شعوري وثيق بواقع الشاعر الحبيس ، ويختزن طاقة زاخرة من أحاسيسه ومكنوناته الوجدانية .

وسيعرض البحث لبعض هذه الأغراض ذات الصفة التقليدية ، غير ما

---

(١) انظر ديوان أعشى همدان : ص ٣٤٤ ومطلعها :

لمن الظعائن سيرهن ترجف   عوم السفين إذا تقاعس مجدف

تناولته الدراسة من قبل ، مقتصراً منها على الجوانب التي تعكس ذاتية السجين [1] .

الفرد والمجتمع القبلي :

لا يراد تناول ملامح هذا المجتمع في أشعار السجناء تناولا مفصلاً إذ سبق الحديث عنه في الحديث عن العصبية القبلية ، ولكن توضيح الخطوط الكبرى لموقف الشاعر الحبيس من قبيلته ولموقفها منه ، وأثرها في تكوينه النفسي إيضاحاً موجزاً بدلالة ما نظموا من شعر .

ومن اليسير التقرير بما يشبه البداهة أن الشاعر الحبيس صعلوكاً كان أو غير صعلوك ، رئيساً كان أو مرؤ وساً ، يجد وجوده كله وكيانه في قبيلته . فهو يدخل السجن بالمشاركة في الأحداث التي انتابتها والجرائم التي اقترفتها ، ويبقى قلبه معلقاً بها قلقاً على قضاياها مشغولاً بإحرازها أوتارها وأمجادها وبسلامة سمعتها فوق شغله بنفسه ، ولا تزال نفسه مفعمة بالفخار القبلي والاعتزاز بالانتماء ، فيتصدر الفخار صدر قصائدهم التي يخاطبون بها أقوامهم من حبوسهم [2] .

وعرفنا طائفة من هؤلاء الشعراء من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي [3] ، يجمع بينهم موقف واحد هو الشعور بالمسؤ ولية نحو الشرف

---

(١) انظر الحديث عن دور العصبية القبلية في الحبس في (ص ١٤٧) وموضوعات البرق والنار في « الشوق والحنين » (ص ٤٩١ وما بعدها) .

(٢) انظر في منتهى الطلب (٢٥٣/٢) مطولة للخطيم المحرزي - من العصر الأموي - وقد سجن في فتنة قبلية ، أولها :

أبت لي سعد أن أضام ومالك ... وحي الرباب والقبائل من فهر

(٣) ذكرنا منهم فيما سبق (ص ١٥٥ وما بعدها) قيس بن مسعود وحلحلة بن قيس ، ودراج بن زرعة وغيرهم . قتلوا في السجن وليس لهم هم سوى أن تبقى كلمة قبائلهم متحدة تتابع رسالتها القبلية في عالم تحكمه روح العصبية الفائرة .

القبلي ، وهو شعور تنطق به أشعارهم وهم يعانون مأساة حارقة مروعة تنتهي غالباً بهم إلى الموت ، وليس في دعواهم تزيد أو ادعاء وغرور إنما هو حقيقة الإحساس بالعزة والأنفة القبلية تعلن عن نفسها في ثورة الغضب وفي الاعتداد والثقة بالنفس ، فإن حلحلة بن قيس زعيم فزارة يقف في السجن ـ كما كان في قبيلته من قبل ـ جبلاً يدعو الى مواصلة الزحف على الأعداء والثأر (١) ، وكان دراج بن زرعة على ما شغله من رهبة الموت يخشى أن يتقاعس قومه عن الانتقام (٢) .

وفي « الأغاني » قصيدتان لجعفر بن علبة الحارثي فوارتان بالدم ، ذكر فيهما إيقاعه بالعقيليين وإمعانه في قتلهم وسفك دمائهم من غير ارعواء ، يتميز حقداً وعنفاً كاسراً لكأنه الوحش الوالغ في الدماء لا يعرف الإحساس بالندم (٣) ، ولا يرتد الصوت المتوحش إلى الإنسانية إلا إذا ثاب إليه وعيه بواقع الحبس واستشعر قرب النهاية وتنفيذ حكم الموت فيه (٤) .

وفي أثناء هذا الشعر تعرض صور النزاع القبلي الناجم غالباً عن مسافهات

---

(١) انظر شعره في البحث ص ١٦٢ .

(٢) انظر البحث ص ١٦٤ .

(٣) القصيدتان في الأغاني (١١/١٤٦ ـ ١٤٨) وفي وصف انتقامه يقول :

ألا لا أبالي بعد يوم بسحبل ـ إذا لم أعذب ـ أن يجيء حماميا
تركت بأعلى سحبل ومضيقه مراق دم لا يبرح الدهر ثاويا
شفيت به غيظي ، وحرب موطني وكان سناء آخر الدهر باقيا
أرادوا ليثنوني فقلت : تجنبوا طريقي ، فما لي حاجة من ورائيا
تركناهم صرعى كأن ضجيجهم ضجيج ضبارى النيب لاقت مداويا
أقول وقد أجلت من القوم عركة ليبك العقيليين من كان باكيا
فإن بقرني سحبل لأمارة ونضح دماء منهم ومحابيا

المصدر نفسه (١١/١٤٧) .

(٤) منتهى الطلب ٢/٢٥٣ .

أو مفاخرات كلامية لا تلبث أن تؤول ناراً تأتي على الناس والضرع ، وتقدم مطولة الخطيم المحرزي اعترافاً خطيراً من الشاعر بالجهالة التي ارتكبها قومه بنو محرز في منافرات ما بينهم وبين عشيرة مجاورة أخت لهم ، ويذكر ما أعقب ذلك من اقتتال وضحايا وأحقاد وتباعد طويل حتى سد على الحلم والإصلاح الطرق والمنافذ ، وجميل من الشاعر هذا الاعتراف المنصف [1] :

أخلاي لم يشمت بنا ذو شناءة	ولم تضطرب مني الكشوح على غمر
ولا منهم حتى دعتنا غواتنا	الى غاية كانت بأمثالنا تزري
فكنا لأقوام عظات وقطعت	وسائل قربى من حميم ومن صهر
لحا الله من يلحى على الحلم بعدما	دعتنا رجال للفخار وللعقر
وجاؤوا جميعاً حاشدين نفيرهم	إلى غاية ما بعدها ثم من أمر
وقلت لهم: إن ترجعوا بعد هذه	جميعاً فما أمي بأم بني سدر
قدحنا فأورينا على عظم ساقنا	فهل بعد كسر الساق للعظم من جبر

وعلى ما يبدو من انصهار الشاعر نفسياً في قضايا القبيلة فهو عظيم الشعور بذاته أيضاً ، وبالتالي يضع القبيلة كلها أمام مسؤوليتها تجاهه ، فيطالبها أن تسخر قوتها وسلطانها لحمايته واستنقاذه من السجن ، وكان هذا مطلب الخطيم المحرزي في القصيدة السابقة [2] ، ومطلب جعفر بن علبة في أبيات أرسلها الى أخيه [3] ، فالفرد إذ يعطي القبيلة كل ما لديه من قوة لا يجهل قيمة نفسه وتأثيرها وما يترتب على قومه نحوه .

الراحلة :

ويخيل بادىء ذي بدء أن الناقة والصحراء غرضان تقليديان من

---

(١) المصدر السابق : الأبيات ٤٦ ـ ٥٦ .
(٢) المصدر السابق الأبيات ٥٤ ـ ٦٣ .
(٣) الأغاني : ١١/١٤٩ .

الجموديات أو المتحجرات في القصيدة العمودية ولا صلة لهما بحياة السجناء ولذا يجدر تجاوزهما ، والحق أنه لا تنكر جمودية الأطر والصور والصياغة والأوصاف إذا انتزعتا الأبيات لهذين الغرضين من القصيدة انتزاعاً ، أما إذا تأملنا فيها وهي في الإطار الواحد الجامع للقصيدة وجدناها تتصل وثيقاً بالمحور النفسي للسجين وتمازج مشاعره وأحاسيسه ممازجة لا يحسن بالدارس إغفالها على ما فيها من الرسوم واللفاظية الجامدة .

وأول ما يتراءى من صلتها بنفس السجين أنها رمز الحرية والانطلاق في فلوات الله الواسعة ، فما تحن نفس الحبيس الى خارج الأسوار حتى تعن له صورة ناقته تسرح به كل مسرح (١) ، فهي أقرب شيء إليه من ماضيه ووصفها أو ذكرها هو المقارنة بين حالين : السجن والحرية (٢) ، ويذكر الحبيس أحياناً ناقته في تمركز نفسي مختلف وذلك إذا فخر بشجاعته ورجولته واقتحامه الأهوال ، فيذكر ناقته واختراقه الصحراء باعتبارها شاهداً على رجولة الأحرار (٣) .

وكان الأبطال عامة في الحبس يطيب لهم ان يذكروا الخيل والسلاح والفروسية في محاولة رد ذاتي على واقع الحبس وللتعالي على الأعداء (٤) ، وليس ذلك قاصراً على عالم البداوة ، بل نجده عند أكثر الشعراء التصاقاً

---

(١) قال جحدر بن معاوية :

فصرت في السجن والأحراس تحرسني ... بعد التلصص في بر وأمصار
وسير حرف تسير الليل حافلة ... عوم السفينة في ذي اللجة الساري

منتهى الطلب : ٢/٢٦٢ .

(٢) قال طهمان بن عمرو الدارمي :

وإني والعبسي في أرض مذحج ... غريبان شتى الدار مختلفان
غريبان مجفوان أكثر همنا ... وجيف مطايانا بكل مكان

معجم البلدان : دمخ من (١٥ بيتاً) .

(٣) انظر قصيدة لابراهيم بن العربي في الحماسة : ٢/١٣٥ شرح التبريزي .

(٤) انظر في منتهى الطلب (٢/٢٧٣) قصيدة لعبيد الله بن الحر (٢١ بيتاً) .

بالحضارة والترف مثل ابن المعتز إذ ذكر في حبسيته البائية [1] الفرس والناقة فخاراً برجولته وإقدامه ، وكانت نفسه ممتلئة فخاراً بسبب ما امتهنه به أعداؤه من الحبس .

وإذا كان وصف الناقة في بعض القصائد خطوة في الطريق إلى غرض آخر كوصف الصحراء والتشوق الى الأهل [2] فإنه في بعض المقطوعات يكشف عن توجه الشاعر المحبوس نحو راحلته توجهاً إنسانياً يداني المشاركة الوجدانية ، وكانت ناقة أحد الشعراء قد بقيت له وحدها دون الأصدقاء الذين ارتحلوا عنه قبل أن يفتكوه من السجن [3] :

أمرتحل وفد العراق وغودرت تحن بأبواب المدينة « صيدح »
فإنك لا تدرين فيما أصابني أريثك أم تعجيل أمرك أنجح

والخطاب المباشر واضح الدلالة على التقارب النفسي والتبادل العاطفي ، وأسباب ذلك غربة الشاعر وهموم حبسه فيتخذ من المطية أنيساً يفضي عندها بما شاء من بثه ، وهي أول ما يلقى إذا خرج من سجنه ، وهي الظهر الذي يعتليه حراً ، وهذه الأسباب النفسية هي التي جعلت أحد الشعراء يستشعر غربة فرسه [4] .

وفي القرن الخامس يدنو الطغرائي الى مداخلة نفسية أعمق وأشف في حوار مع راحلته صرح فيه بأمانيه وتطلعاته البعيدة لما أسره أعداؤه [5] ، وبذلك

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز : ٢/ ٧٠ .

(٢) انظر مطولة الخطيم المحرزي في منتهى الطلب (٢/ ٢٥٣) الأبيات ٣٤ ـ ٤١ .

(٣) هو عبد الله بن الزبير الأسدي ، أنظر البحث ص ١٤٨ والأغاني : ١٣/ ٣٩ .

(٤) هو ضابىء بن الحارث البرجمي حبس في المدينة زمن عثمان ، قال :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

الشعر والشعراء : ١/ ٤٦٧ .

(٥) قال الطغرائي :

أقول لنضوي وهي من شجني خلو حنانيك قد أدميت كلمى يا نضو =

تدخل المطية في إطار السجين النفسي متصلة بتصوراته وخططه ، فهي مظهر من حنين الشاعر إلى الماضي وإلى الوطن وإلى الانطلاق في الفلوات وليست مجرد وصف تقليدي وفاء بعمود الشعر او إظهاراً للبراعة الأدبية وللمعرفة بالغريب من اللفظ .

ومرد ذلك الى دور المطية الحيوي في حياة الشاعر ، ويبلغ هذا الدور أهمية كبرى في قصيدة للمتنبي يوم فرضت عليه الإقامة الجبرية في مصر فكان شبه سجين أو في سجن كبير ، ولما استطاع الفرار تحت جنح الليل كانت نفسه وعواطفه كلها مع ناقته ، بل مع كل خطوة من خطواتها ، إذ كانت وسيلة نجاته ، ولذلك افتتح القصيدة بذكرها وفداها بالنساء جميعاً (١) ، وسجل الأماكن والبلدان التي اجتازها تسجيل الرحالة ، فكانت عنده كل شيء حتى سلم له المهرب ، قال :

ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة وميط الأذى
ضربت بها التيه ضرب القما ر إما لهذا وإما لذا (٢)

فكانت مناط آماله في إنجاح مغامراته يشف عن ذلك إسناد السفر والانتقال إليها لكأنها هي الدليل والراكب :

فمرت بنخل وفي ركبها عن العالمين وعنه غنى
وأمست تخيرنا بالنقا ب وادي المياه ووادي القرى

= تعالي أقاسمك الهموم لتعلمي بأنك مما تشتكي كبدي خلو
تريدين مرعى الريف والبدر أبتغي وما يستوي الريف العراقي والبدر
فأسر ولا فك ، ووجد ولا أسى وسقم ولا برء ، وسكر ولا صحو
ديوان الطغرائي : ص ١١٥ ومعجم الأدباء : ٥٩/٤ من (١٠ أبيات) .

(١) انظر ديوان المتنبي : ٣٦/١ ، شرح العكبري وأول القصيدة :
الا كل ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيدبي

(٢) المصدر السابق : البيتان: ٣ ـ ٤ .

وقلنا لها: أين أرض العراق فقالت ونحن بتربان: ها[1]

وإذ أبلغته مأمنه وانفلت من عدوه عاد الى نفسه إلى ضمير المتكلم :

فلما أنخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلا
وثبنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدا [2]

ويجب ان نقدر ظرفاً نفسياً شديد التوتر عميق الانفعال قرب ما بين الشاعر وراحلته حتى كادت تزول بينهما الفوارق في ساعة الخطر ، وهذا الانفلات من اللفاظية والإطار الجمودي إلى المداخلة الوجدانية قل أن نجح فيه الشعراء غير المتنبي في قصيدته تلك [3] .

أغراض أخرى :

وثمة ملامح بدوية في أشعار السجناء ، منها الإشارة الى قربة الماء ووصف الأسد ، وصفه كل من الفرزدق وجحدر العكلي وهما سجينان .

أما الفرزدق فقد كان ـ كما هو في قصيدة لبشر بن أبي خازم في أسره [4] ـ غرضاً إضافياً في قصيدته [5] ، فجعل منه ذريعة لتهويل مخافته من الأمير على الطريقة النابغية في تضخيم الخوف ، وفي هذا الوصف مبالغات ولفاظية متعمدة .

أما جحدر العكلي فقد نازل الأسد حقاً في سجن الحجاج ، وقتله فأطلقه

---

(١) المصدر السابق : الأبيات ٦ ـ ٨ .

(٢) المصدر السابق : الأبيات ١٧ ـ ١٨ .

(٣) وصف الفرزدق ، فيما وصف من هربه من زياد بن أبيه ، الناقة في ٦ أبيات وصفاً تقليدياً محضاً ، ولكنه لم يستطع أن يحقق شيئاً مما حققه المتنبي . انظر ديوان الفرزدق : ١٨٨/١ ، الأبيات : ١٣ ـ ١٨ .

(٤) انظر ديوان بشر بن أبي خازم : ص ١٤٢ ، ق ٢٩ .

(٥) انظر ديوان الفرزدق : ٢٠/٢٤٨ ـ ٢٥٠ ثمانية أبيات من (٣٧) بيتاً .

الحجاج ، وكان الوصف تسجيلاً لموقف بطولي وفخاراً ذاتياً ، ولكن وصف الأسد بالذات لا يضيف أي طرافة غير أوصافه المألوفة عند العرب (١) .

ومن ملامح البادية عادات وترهات كان للشاعر البدوي السجين تعلل بها وقت المحنة مثل زجر الطير والتفاؤل او التشاؤم بنعيب الغراب ، وقد تركت انعكاسات صادقة في مطلع إحدى المقطوعات (٢) :

ألا يا غراب البين أسمعت فاربع   وطر بالذي قد حم، ويحك، أوقع
فطار بتحقيق وجدت بعبرة   أثار رشاش العين من كل مدمع

ويبدو ان الشاعر السمهري اللص زجر طيراً ، فتوافق الزجر مع الوقائع التي جرت له ، فربط بينهما برباط من القناعة الساذجة (٣) :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة   ينشنش أعلى ريشه ويطايره
فقلت: غراب باغتراب من النوى   وبان ببين من حبيب نحاذره

ولكن هذه التعلات كانت عند الكثيرين خارج دائرة التصديق (٤) .

وغير غريب أن يمتاز شعر السجين بهذه المسحة البدوية في أغراضه وصياغته ، فكثير من شعراء الصحراء والقبائل عانوا السجن فنظموا قصائدهم فيه على الأنماط التي ألفوها متأثرة بوقائع الحبس وارتكاسها في نفوسهم .

---

(١) الحماسة البصرية : ٢/٣٣٧ .
(٢) المقطوعة لدراج بن زرعة ، انظر النقائض : ٢/٩٣٠ .
(٣) الأغاني : ٢١/٥٣ من ٧ أبيات .
(٤) قال ضابىء بن الحارث البرجمي في حبسه :
وما عاجلات الطير تدني من الفتى   رشاداً ولا عن ريثهن يخيب
الشعر والشعراء : ١/٤٦٧ ، دار الثقافة .

المبحث الثاني

خصائص شعر الأسر والسجن وسماته الفنية

يلم المبحث الثاني من الفصل الرابع بأنواع الحبسيات وعناصرها الأساسية وتركيبها ، وبالمقطوعات وقصار القصائد ، وبالسمات الفنية البارزة في شعر الأسر والسجن .

الحبسيات

يقود استقراء القصائد الطوال المنظومة في الحبوس إلى أنواع ثلاثة هي : حبسيات المدح والحبسيات القبلية والحبسيات الوجدانية .

حبسيات المدح

من الأفضل أن نصنف حبسيات المدح من حيث الشكل صنفين : حبسيات ذات مقدمات تقليدية أو وجدانية ، وأخرى غير ذات مقدمات . أما الغرض أو المضمون فيها : مدح ذوي الشأن والسلطان من وراء القضبان .

ولهذا التصنيف مبرراته : ذلك أن أفكار المدح واتجاهاته متشابهة إن لم نقل : متماثلة . ولا فرق إلا في الإكثار أو الإقلال ، وفي الاحتفال بالتزيين أو الإقلاع عنه وفي تطور المعاني بين البداوة والحضارة . فلم يبق ما يميز بين قصائد المدح إلا المقدمة إذ هي تحدد للشاعر موقفاً ذاتياً مغرقاً بالذاتية أحياناً أو ذاتياً مشوباً بالتقليد أو موقفاً تقليدياً صرفاً . ويترك هذا الموقف ظلالاً نفسية هامة على بناء القصيدة والروح المنسكبة . فيها . ويعطيها خصائص لست هي في

قصائد المدح التقليدية المنظومة خارج السجن ومن ثم كان الحديث عن حبسيات المدح أساسياً في هذا البحث : للفوارق الأسلوبية والعاطفية التي تمنح الشعر ، على ما فيه من التكلف أحياناً ، كثيراً من المشاعر الصادقة والرغبات الحارة : إن لم تكن في موقف الشاعر من الممدوح فهي في موقف الشاعر من نفسه وقضيته .

الحبسيات ذات المقدمات :

المقدمة التقليدية :

لدينا منها نماذج ترجع إلى القرن السادس الميلادي : وهي عدة قصائد لبشر بن أبي خازم وواحدة لعدي بن زيد[١] . وكانت مدائح بشر في أوس بن حارثة بن لأم سيد جديلة من طيء : نظمها فيه لما أسره[٢] . وحرص فيها على تمجيده ، تمجيداً يرضي شريفاً بدوياً جاهلياً حفياً بالثناء والحمد . ولذلك أخرجها إخراجاً أدبياً من طراز رفيع . وتعد قصيدته الفائية نموذجية في بابها تغني دراستها عن غيرها[٣] . وهي تبدأ بمقدمة بالغزل فوصف الناقة قبل المدح . وخير ما يفسر حرص الشاعر على التزام العمود المرسوم هو إرضاء الآسر إرضاء ينم عن الاحترام والتوقير ، فيصاغ الشعر في قالب أدبي يعد في عصره أسمى مناهج النظم والإخراج .

ولا مجال في مثل تلك المقدمات للبحث عن عناصر ذاتية ترد إلى مشاعر واقعية وليس إلا المعاني المعروفة في الصورة البدوية واللفظ الجزل . فترد معاني المنعة والسطوة والإقدام في معرض أدبي جميل مهيب في مثل صور

---

(١) انظر ديوان عدي بن زيد : ص ٥٠ ، ق ٦ ، ٥١ بيتاً .

(٢) انظر البحث ص ٦٧ .

(٣) انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٤٢ ق ٢٩ ومطلعها .

كفى بالنأي من أسماء كافي ... وليس لحبها إذ طال شافي

الجبال المنيعة يعتصم بها الوعل ، والعقاب وصورة الأسد حوله فرائسه ، متوحداً في عرينه متأهباً للوثوب .

فمعاني المدح يمكن حصرها ـ كالكرم والحلم والعفو والشجاعة ـ ولكن، المقام الأول للأسلوب إذ يتولى عرضها وتوسيعها وتجسيدها في أطر محسوسة متقنة محكمة ومعبرة . ولا يجاوز الاحتفاء بالأسلوب ، في عرض المعنى وتوسيعه وتعميقه ، حدود ، الاعتدال .

فنظام هذه الحبسيات هو الغزل فوصف الناقة فالمدح . ولا نكاد نعثر على فرق جوهري في الشكل أو المضمون أو الألوان المعدلة بين هذه الحبسية وغيرها من قصائد المدح .

المقدمة الذاتية :

والتقديم للغرض الأساسي بمقدمة تقليدية في الشعر كالمقدمة السابقة . ونستطيع أن نتبين محاولات تجديدية في المقدمات ضمن الإطار التقليدي تمت تحت ضغط واقع السجن وانعكاساته في النفس وذلك في المقدمات الذاتية . وهي مقدمات ينزع بعضها إلى التعبير عن الذات وانفعاليتها تعبيراً صريحاً ، ويجعل بعضها من الغزل مقدمات تتفاوت فيما بينها في نصيبها من الذاتية الصريحة الصادقة .

وتمتاز حبسيات المدح ذات المقدمات الوجدانية بقلة عدد أبيات المدح بعد المقدمة . ففي حبسية لجحدر العكلي[١] . تبلغ نسبة المدح ٢٦/٥ ، وفي حبسية لأبي عامر بن شهيد الأندلسي[٢] . النسبة ٧/ ٢٦ . واستفاضة القسم الوجداني لا يوهن أمر المدح ، فإن الشاعر اتخذ من الوجدانية مسلكاً يتلطف به إلى قلب الممدوح صاحب الكلمة في إطلاقه وارتهانه .

---

(١) انظر القصيدة في منتهى الطلب : ٢/ ٢٦٢ .

(٢) انظر القصيدة في نفح الطيب : ٣/ ٣٦٠ .

الوحدة الفنية :

ولذلك يمكن أن نكتشف من غير عناء ، على تنوع عناصر المقدمة وحدة فنية تدعمها وحدة شعورية أو نفسية وافرة القوة والحرارة تشد إليها المدح شداً محكماً وهذه الوحدة من الفن والشعور قل أن تتوافر لقصائد المدح التي نظمت في غير الحبس .

وتختلف عناصر المقدمات الوجدانية ومحتواها باختلاف البيئات والعصور والمثل الفنية . ولذلك تبرز في حبسية جحدر ـ التي مدح بها والي اليمامة إبراهيم ابن العربي أيام عبد الملك بن مروان ـ عناصر بدوية في قالب من التعبير البدوي . ولكن الشاعر من خلال تجربة خاضعة لانفعال أليم ، عرض هذه العناصر ومزج بينها وبين عناصر واقعية جديدة ، من حبسه ، مزجاً في عملية نظم شبه عفوية تشهد على شيئين : الأول التزام الشاعر بعناصر تقليدية كانت مفروضة عليه إذ لا يملك غيرها ، والثاني قدرته على إخضاع هذه العناصر للتجربة الداخلية ومداجتها في العمل الفني فامتزجت بالشعور وبالعناصر الواقعية حتى ليبدو من العسير استبعادها كما يبدو ذلك ممكناً في قصائد المدح التي نظمت خارج الحبس .

ويظهر طرافة هذا العمل ، فيما أضفاه من صباغ توحيدي على الحبسية إذا عرضنا عناصر الحبسية . فالمقدمة (٢١ بيتاً) تبدأ بذكر البرق والهموم والسجن (١ ـ ٦) ثم بمصابرة النفس على البلاء وباللجوء إلى الله وبتطهير السريرة (٧ ـ ١٢) ويتصل بهذا القسم الدعاء لنفسه بالرحمة (١٣ ـ ١٤) ويستصرخ إبراهيم ابن العربي (١٥ ـ ٢١) لتخليصه من سجنه وقيده اللذين وصفهما بأربعة أبيات . أما بقية الشعر (٢٢ ـ ٢٦) فهو مديح ابن العربي .

وتشهد الأبيات التالية بتمازج العناصر البدوية التقليدية بعناصر ، موضوعية من واقع سجنه[١] .

---

(١) منتهى الطلب : ٢/ ٢٦٢ .

إني أرقت لبرق ضافني ساري — كأن بالعين منه مسّ عوار
أو حر فلفة كانت بها قذيت — لما برى قشرها عن حرها الباري
إن الهموم إذا عادتك واردة — إن لم تفرج لها ورداً بإصدار
كانت عليه سقاماً تستكين له — وأنصبتك لحاجات وإذكار
فصرت في السجن والحراس تحرسني — بعد التلصص في بر وأمصار
وسير حرف تسير الليل جافلة — عوم السفينة في ذي اللجة الجاري
سقيا لسجنك من سجن وساكنه — بديمة من ذهاب الماء مدرار
بكل جون رواياه مطبقة — واهي العزالي من الجوزاء جرار

إن الذي لا شك فيه أن الشاعر ينظم تحت ضغط من تراث أصيل من الألفاظ والأوصاف والصور والأساليب. ومع ذلك فهذا التراث يعبر أثناء العملية الفنية مكامن الشعور الحي والانفعال المتوهج فيتألف ـ بهذا الوسيط ـ مع الواقع النفسي والمكاني. ونحن، وإن لم نظفر بتجديد في الأسلوب أو طريقة النظم ولكننا نظفر على الأقل ـ كما ذكرنا ـ بتخطي التقليد إلى الواقع نوعا ما، وفي لف القصيدة كلها من مبتدئها إلى آخر بيت فيها بتيار متدفق وإحد من الشاعر والأحاسيس.

ولا نكاد نجد في المقدمة أو سائر القصيدة ـ عنصراً يمكن إغفاله بل كل عنصر منها له مبرراته ودواعيه الذاتية. وهذه المبررات نفسها تعليل لطول المقدمة. وهي مبررات نابعة من موقف السجين: من ظروفه وملابسات حبسه. فعندما يؤخذ السجين بجريرة فردية كاللصوصية، مثل قضية جحدر، أو التماجن والشطط الخلقي ـ كما في قضية ابن شهيد الأندلسي ـ لا يجد الشاعر غير طريق واحدة لاستعادة الثقة به هو التبرؤ والتوبة أو دحض التهمة.

وإذا كانت القضية لا تحتمل النكران ـ كلصوصية جحدر ـ فالأولى بصاحبها أن يتوب، وأن يكون مع نفسه صادق التوبة، فهو السبيل الأمثل لاقناع السلطة بسلامة نواياه واعتدال سلوكه. وهذا ما يفسر عملية التطهير النفسي الصادقة التي جربها جحدر في سجنه إذ تلقى الأمر بتسليم قدري مستيقن، وبلجوء إلى الله واعتصام به، وبإخلاص السرية له. إن هذا الموقف من التقوى لا يصدر إلا

عمن أحس بثقل الأوزار . فتخفف من ذلك في ساعة الشدة ليستوثق لنفسه من نفسه وليوثقها أيضاً عند الأمير (الأبيات ٧ ـ ١٢) .

ويعد هذا التقديم ، بما فيه من وصف العناء في السجن وتحريك الشفقة ، خطوة ، على طولها ، منطقية من الوجهة النفسية والفنية ، في الطريق إلى المدح وبها يحدث المدح فعالية وتأثيراً لأن الاقتناع بالبراءة أو الرضا عن المتهم يجعل المدح بحد ذاته ذا جدوى ، وبغير ذاك قد لا يحدث أثراً إيجابياً .

وإذا كانت الأبيات (١ ـ ٢١) كلها في هذا الغرض وأبيات المدح (٢٢ ـ ٢٦) تتويجاً للغاية المطلوبة فلا شك أن القصيدة ظفرت بوحدة من نوع فريد داخلية وخارجية معاً .

وليست معاني المدح فيها بمستجدة ، وهي صنو المعاني السابقة التي تغدق جزافاً على كل قوي أو مسؤول : كاستحقاق الثناء والقوة والمنعة والعفو عند المقدرة . وهي فضائل لا تزال المثل الأعلى لصاحب الرئاسة والسؤدد في العصرين الجاهلي والأموي .

أما إذا كان ثمة مجال للإنكار ـ كما في اتهام ابن شهيد ـ فالمقدمة قد تتجه إلى التبرؤ ، ودحض التهمة ، وتصوير ما يلقاه إنسان بريء من عذاب السجن . وهو المنحى الذي انتحته حبسية ابن شهيد في مدح خليفته . فالمقدمة (١ ـ ١٩) بدأها بشكوى الوشاة الذين أوغروا صدر الإمام عليه افتراء (١ ـ ٨) وما يلاقي في سجنه الموحش من الغم (٩ ـ ١٣) ثم ناجى الحمام نجوى(١) أتاحت له أن يبكي بكاء حاراً (١٤ ـ ١٩) . وليست هذه الأبيات التي تقدمت مدحاً لا يزيد على سبعة أبيات إلا محاولة جادّة من الشاعر لإقناع الإمام ببراءته من تهمة المجون التي يعذب بها في ظلمات قاسية ، يدفع فيها التهمة بالاحتجاج والدفاع السطحي ، ويثير الشفقة والعواطف الكريمة لتلعب دوراً مساعداً في استنقاذه . ومن ثم كان

---

(١)انظر البحث ص ٤٠٥ ونفح الطيب : ٣/ ٣٦٠ .

عرض الأسباب التي حبس بها وتصوير أهوال السجن ومناجاة الحمام طريقاً ـ على طوله ـ إلى غرض أساسي موجز هو المدح . وكان الغرض من إطالة الطريق تخفيف النقمة واستدرار الرضا والعطف وتهيئة الأمير نفسياً لقبول المدح من رجل معذب بحاجة إلى صفحه وعفوه .

وإذا كان المدح مقتصداً لا يزيد عن الإشادة بقوة الإمام في عساكره ونفوذه وسلطانه فإن أمثال هذه الحبسيات تعتبر نوعاً متميزاً في المدحيات إذ تتخذ الإثارة العاطفية طريقاً إلى التخلص بمدح مقتصد . وهو تعويل على الجانب الإنساني نجى الشاعر من كذب مسرف . وكان للحطيئة تجربة محدودة في إثارة الرأفة والشعور بالمسؤولية في مدح عمر بن الخطاب[1] نجح أبو إسحاق الصابي في توسيعها في قصيدة له مدح بها عضد الدولة وعادت بنتائج إيجابية[2] . ولكن هذه التجربة لم تستثمر حق استثمارها وأفاض المحبسون في المدح وأطنبوا وأسرفوا في إهالة الفضائل إهالة استرخصت بها تلك المعاني حتى غدت أشبه بعملة عائمة لا رصيد لها .

ولدينا نماذج لمدحيات ذات مقدمات وجدانية وجيزة تتراجع أمام مدح مديد مقصود . واستطاع الفرزدق في مقدمة موجزة ـ من قصيدة أرسلها مع ابنه إلى هشام بن عبد الملك يستنصره على واليه خالد بن عبد الله القسري ـ أن يؤلف تأليفاً موفقاً بين الآلام النفسية ومسبباتها السياسية . والإشارة إلى هذه الأسباب يعد نقداً أو هجوماً مصيباً على السلطة من قبل الشاعر الذي يتراءى فيها ضحية قضيته يدافع عنها . ولعل إعجاب صاحب الأغاني بهذا المطلع أجزأه عن اقتطاف أبيات أخر منها[3] :

بكت عين محزون ففاض سجامها   وطالت ليالي حادث لا ينامها

---

(١) انظر ديوان الحطيئة : ص ٢٠٨ .

(٢) انظر البحث ص ٥٤٣ ـ ٥٤٥ .

(٣) الأغاني : ١٩/ ٢٤ .

فإن تبك لا تبك المصيبات إذ نأى   بها الدهر والأيام جم خصامها
ولكنما تبكي تهتك خالد   محارم منا لا يحل حرامها

وقل أن نظفر في حبسيات المدح بمثل هذه المقدمة إيجازاً وتركيزاً وسرعة وصول إلى الهدف وقدرة على التأثير بالإقناع العاطفي لما فيها من إثارة ينحاز بها السامع لصف الشاعر انحيازاً تلقائياً .

ولابن زيدون أربع حبسيات في المدح على الأقل ذات مقدمات غزلية تقليدية الطابع تميزت واحدة منها ـ هي اللامية ـ باستهلال ذاتي صادر عن حالةٍ انفعالية غامرة . وأولها :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي   ويطلب ثأري البرق منصلت النصل

وعدة هذا المطلع التمهيدي (١٤) بيتاً : تتحدث (٩) منها عن انهيار الشاعر المفاجىء المذهل على ما كان له من الألمعية ، وتصف (٦) منها وله أمه وحزنها . فالمطلع مأساة اجتمعت فيه آلام الشاعر وأحزان أمه معاً ثم ينبسط المدح (٣٦) بيتاً من (٥٠) هي عدة القصيدة . ويتوالى المدح في نسق منطقي العرض : تسعة في مدح ابن جهور وانعقاد الرجاء به . وخمسة في عتابه على إغفال الشاعر وسبعة عشر بيتاً يعود فيها إلى مدحه . ويختم القصيدة بخمسة : ينذره بالانقطاع عن خدمته والهرب من دولته .

ويلاحظ في المطلع مقال ذاتي في تهويل مأساوي لا يكاد يمس شعورنا بتعاطف حقيقي . وأغلب ما ينتهي إليه النظر المتعمق هو أنّه التعاظم في شكل من « الانتفاخ » ناتج عن شعور متضخم بالأنا إذ الشاعر في شرخ شبابه لم ينس طعم النصر في ثورة سياسية أوصلت ابن جهور إلى الحاكم وابن زيدون الى الوزارة . وغطى هذا التعاظم على الآلام الإنسانية في تفتحها العفوي الغض ، وأعطاها ـ شكلاً ومضموناً ـ طابعاً اصطناعياً ، جعل الشاعر في موقف زائف تراجعت فيه العواطف الإنسانية الصريحة أمام موجة من الفخار المدعى وإن كان

(١) ديوان ابن زيدون : ٢٦١ .

نابعاً من جرح عميق ، فالكبرياء تموه وتستر على ما هو مشاعر حقيقية يعزف الشاعر عن الإعلان عنها ، فاجتاز بتلك الكبرياء أرق العواطف وأنبلها في مأساة أمه ، وبقي الشاعر بعيداً عن قلب الأم وبقينا مبعدين عن حقائق قلبه في هذا الموقف ، وخاطب أمه من مكان عال : تأسي بأم موسى ، وارضي بقضاء الله الذي لا يخلو من حكمة (١) .

ومن أثر التعاظم المصطنع في إفقار المضمون العاطفي أن الأبيات التسعة الأولى لا نعثر فيها على غير معنيين اثنين ينشب ثانيهما بالأول حتى يصيرا كالمعنى الواحد ، وهما :

١ ـ كان على الكون كله أن يبكي ابن زيدون .

٢ ـ ومن طبيعة الدهر أن ينال بالمصائب النبلاء الأذكياء .

ولا يجد الشاعر تعويضاً عن الفقر والنضوب غير الصور الجامدة المكرورة المتنوعة للمعنى المحدود .

ومع ذلك لا يمكن أن نخرج هذه المقدمة عن الوجدانية أو الذاتية ، ولا أن نعدها قطعة مستعارة إذ هي تصور ، في حد ذاتها ، موقفاً نفسياً حقيقياً للشاعر : موقف التعاظم والتخفي على إحساس السجين المهان . وهو موقف أوحى من قبل بقصائد تمويهية للعديد من الشعراء (٢) .

ويمتاز قسم المدح بمزايا فنية نادرة لا تتوفر إلا لشاعر صناع . ففي (٢١) بيتاً من المدح عقد ابن زيدون على جبين ابن جهور فيضاً مما تعاوره الشعراء من المعاني . ولكنها المعاني التي صقلتها يد شاعر مغموس في الحضارة المنعمة فإذا المعاني القديمة الواردة من البوادي منذ قرون تجلى وتعرض عرضاً ثرياً مترفاً ، فالثراء والصقل والرقة أظهر ما يميز عمل هذا الأندلسي المثقف إذ يصوغ

---

(١) انظر البحث ص ٤٥٥ .

(٢) انظر البحث ص ٣٦٠ وما بعدها .

عناصر الثقافة المشرقية قديمة ومستحدثة ، ولنا أن نصدق الشاعر - في مجال العمل الفني على الأقل - أنه يغص بمحاسن ممدوحه . وهي - لا شك - المعاني التي كانت تزدحم عليه كثرة فتفيض عن حاجة المدح . قال [1] :

محاسن ما للحسن في البدر علة   سوى أنها كانت تمل فتستملي
تغص ثنائي مثلما غص جاهدا   سوار الفتاة الرؤد بالمعصم الجدل

والحق ان هناك تضخماً في المعاني توحي به الصورة المستلطفة في البيت الأخير .

ولذلك فإحصاء معاني المدح (مثل الهمة العلياء ، والنسب العريق ، والمروءة ، والتقى ، والسيادة والفضل ، والرأي والعزم ، والبشر) لا يزيدنا معرفة بها ، ولما كانت مألوفة ولازمة لا بد عنها كان على التعبير ان يتحمل عبء عرضها في فخامة لفظية وزخرفية رنانة .

وتمتاز القصيدة الى جانب ذلك بالتوفيق الفذ بين « الأنا المتعاظمة » وذاك المدح المطنب ، أما العتاب الرقيق في ختام القصيدة فهو قوة حفزللممدوح لأن يتوج المحاسن التي أضفاها الشاعر عليه بمكرمة الإطلاق ، ولذلك فهو يصدر عن النبع النفسي الذي انبثقت منه مقدمة القصيدة ، ألا وهو الشعور القوي بالذات وبمزاياها وحاجة الدولة إليها . فثمة - في الحق - توفيق وثيق بين الأقسام الثلاثة (المطلع - المدح - العتاب) . وذاك التوفيق يدل على أن المدح في جوهره ممر الملق في الوصول الى الغرض وهو الحفز على تحريره من الحبس ، ونجد في البيت التالي صورة مصغرة مركزة لعمود القصيدة الفكري [2] :

أعدك للجلى ، وآمل أن أرى   بنعماك موسوما وما أنا بالغفل

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٨ .

فهو مزج مركز من مدح الأمير ورجاء الإطلاق وإعلاء النفس .

ويجعل هذا التوفيق أقسام القصيدة ذات وحدة شعورية متوازنة ، فالشاعر الذي أخذ على نفسه أن يتعاظم لم يطأطىء رأسه في المدح والعتاب ، وأكثر ما فيهما هو الكياسة وحسن التأتي الى قلب الملك ، ولذلك لا يبدو القسم الأخير وهو التهديد أو الإنذار بالهرب غريباً عن روح الحبسية .

وأظهر المزايا تلك المنطقية المتينة التي جمعت أقسام القصيدة في وحدة فنية - إضافة الى الوحدة النفسية - ذات نسق بديع كأنما القصيدة كتاب محكم : النتائج فيه مستخلصة من مقدمات صحيحة والمقدمات مدعومة بالذرائع والأدلة ، ولا شك أن خطة السبك (المقدمة الذاتية - المدح - العتاب - المدح والعتاب - الإنذار بالهرب) خطة قائمة على منطق واضح ، وان صنعة الكتابة التي تميز بها ابن زيدون أعطت هذه الحبسية إحكاماً منطقياً في تنظيم الأفكار وتنسيقها وترتيبها .

الحبسيات ذات المقدمات الغزلية :

وتعد الحبسيات ذات المقدمات الغزلية نوعاً وسطاً بين القصائد ذات المقدمات التقليدية وذات المقدمات الوجدانية إذ يجتمع فيها خصائصهما معاً .

فالغزل أو النسيب في المطلع رسم معروف ولكن انسكاب عواطف السجين فيه وتلون معانيه بواقع السجن هو المستحدث ، فاللمسات الجديدة لا تخرج عن حيز الإطار المحدد مسبقاً .

وسنتقرى خصائص هذا النوع في ثلاث حبسيات لابن زيدون واثنتين من حبسيات أبي الحسن التهامي .

أما مدائح ابن زيدون في حبسه فهي في الأمير ابن جهور ، ولا تخلو واحدة منها من عتاب : وتنفرد الرائية (١) من الثلاث بتفريغ وجداني مشتق من

---

(١) ديوان ابن زيدون : ٢٥٠ .

المقدمة الغزلية ، أما الحائية [١] والميمية [٢] فالمدح فيهما يلي الغزل مباشرة وتسمح لنا الدراسة المقارنة للقصائد الثلاث ان نسجل الملاحظات التالية :

١ ـ الغزل في الحائية والميمية تقليدي بحت . وهو في الأولى أربعة أبيات خفيفة بدأت بالقسم بمحاسن المحبوب وكان جواب القسم أول بيت في المدح [٣] . أما النسيب في الميمية فيأخذ امتداداً أطول بقي لنا منه عشرة أبيات [٤] .

٢ ـ ومحاسن المحبوب ومفاتنه الجسدية هي موضع العناية الأكبر ، وفيها تنبه شهوي واضح يلمح إليه الإلحاح على الجانب المادي في غزل القصائد الثلاث .

٣ ـ ولا شك ان ابن زيدون كان يلزمه الاحتشام في حضرة الأمير والتوقير لمقامه ، وقد فرض عليه الاحتشام في الحائية ضبطاً واعياً لميوله الاستمتاعية حين قال في البيتين الثالث والرابع :

لم أنس إذا باتت يدي ليلة ... وشاحه اللاصق دون الوشاح
ألممت بالألطف منه ولم ... أجنح الى ما فيه بعض الجناح

٤ ـ ليس للغزل أو النسيب في القصيدتين الحائية والميمية قيمة ذاتية ظاهرة ، وهو في حقيقة أمره استفتاح تقليدي بارع الأداء لتكون القصيدة ، باتباع الإطار المرسوم ، أدخل في باب الاحتفاء والتوقير للممدوح ، وفي الإمتاع

---

(١) المصدر نفسه : ٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٨ .

(٣) أول بيت (ص ٢٤٧) هو :

أما الحاظ مراض صحاح ... تصبي وأعطاف نشاوى صواح

وأول المدح :

لأصفين المصطفى « جهوراً » ... عهداً لروض الحسن عنه افتضاح

(٤) ديوانه : ص ٢٧٨ .

الفني ، فإذا كان هذا التعليل مصيباً وصفنا هـذا الضرب من الغـزل بأنـه أغنية خفيفة مزخـرفة بـالأوصاف المـادية أرادهـا الشاعـر مفتاحـاً لمسرة الأميـر ليقع المدح ، بعد الاتقان الفني ، موقعاً إيجابياً من نفسه .

٥ ـ ولكن الغزل في الرائية ، على ما فيه من أوصاف الجسد ، مغموس في وجدانية محمومة حقاً ، فهل ثمة في القصيدة امرأة ـ مثل ولادة ـ كانت من وراء الآلام ؟ إن القصيدتين الحائية والميمية لا تشجع هذا الافتراض ، ويبعده أيضاً في الرائية التكلف في التشوق وذكر المحاسن (١) .

واهـا لثغـرك ثـغـرا بـات يكـلؤه   غيـرانُ تسـري عـواليه إلى الثغـر
يقـظان لم يكتحـل غمضـاً مـراقبـة   لـرابط الجـأش مقـدام على الغـرر

ولكن منشأ الوجدانية هو تحرك الانفعال باتجاه الماضي : ماضي الشاعر الحافل بالجاه والمركز والشعـر ومتع الحب وهـذه القوى المفقـودة أثارت أسى حزيناً مازج الغزل ممازجة ، وأعـطاه ـ على التصنع ـ طـابعاً ذاتيـاً ، ونجد في البيتين التاليين ذاك الأسى الحزين المنبعث من ضغط الماضي (٢) :

لا لهـو أيامـه الخـالي بمـرتجـع   ولا نـعيـم ليـاليـه بـمـنـتـظر
منى كـأن لم يكـن إلا تـذكـرهـا   إن الغـرام لمـعتـاد مـع الـذكـر

وهذه الانفعالية الصادقة هي التي تحولت الى شكـوى ذاتية ، من شيبـه المبكـر ومن حوادث دهـره ، في عشرة أبيـات بعد الغـزل ، وبذلـك نجـد أن الشكوى في هذه القصيدة ولادة طبيعية في مضمون الغزل العاطفي .

٦ ـ ومن ثم تمتاز الرائية من أختيها بوحدة متينة ما بين المقدمة والمدح ، وليست هي الوصل الفني الذي سماه البلاغيون حسـن الانتقال ، بل هي وحدة نفسية . ذلك ان المطلع الغزلي يستبطن مشاعر حزينة ، نابعة من هموم وصفها

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٥٣ .

في عشرة أبيات ، سرت إلى عتابه والحديث عن سوء حاله .

٧ ـ لم تخل قصيدة من الثلاث من حديث الشاعر عن نفسه حديث المتظلم ، العارف لقدر نفسٍ فخور ، الآسي لما أصابها ، وهو حديث له حيز خاص في الرائية حيناً ويخالطُ العتاب والمدح حيناً آخر في القصائد كلها ، ولكن حجم الشكوى الذاتية قليل في الحائية ، كثير في الرائية ، متوسط في الميمية .

٨ ـ ليس في مدح ابن زيدون في حبسياته كلها تصاغر ولا توسل على ما أصاب المدح من تفخيم وإطناب ، فهو يحقق ضرباً من التوفيق بين الكرامة والتصون وبين المدح المسهب المفخم .

٩ ـ لا يفوت ابن زيدون شيء من معاني المدح المطروقة ، ولكنه يولي عنايته المعاني التي تروق رجل دولة صغيرة ، حديث عهد بحكم ، مطموع فيه ، مهدد بالثورات والحروب ، وهي معان تدور حول ألمعية الحاكم ونباهته ، ورضا الخاصة والعامة به ، ونشره الأمن ، ومعالجة مشاكل بلده سلماً من غير حرب (١) .

١٠ ـ وكان ابن زيدون في مدحياته يصطنع وسائل تأثير تزيينية متلاحقة بغزارة تشهد له بباع طويل في الخيال والبديع وصياغة المعاني المستطرفة .

حبسيات أخرى ذات مقدمات غزلية :

وحازت بعض قصائد السجن في المدح شهرة تاريخية لما امتاز به النظم من صنعة وإتقان لفظي وبديعي كان في نظر النقد المعاصر له أمثلة تطلب .

وتعتبر قصيدة عيسى الوكيل نموذجاً رفيعاً شهرت صاحبها بين أدباء عصره (٢) ، وهي ذات مقدمة غزلية تقليدية ، ممزوجة بالأشواق والأحزان ،

---

(١) المصدر نفسه : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٢) أرسل عيسى بن الوكيل من سجنه الى قضاة سلا بني عشرة قصيدة مدح ، فافتدوه من =

يتلوها مدح متأنق ، مشفوعة بصناعة فائقة في استحضار المعاني والصور المغمورة بالمعارض اللفظية الزخرفية .

ولكن حبسيات المدح تتفاوت فيما بينها في حجم المقدمة والمدح ، ويرتفع حجم الغزل إلى خمسة عشر بيتاً في كل من حبسيتين لأبي الحسن التهامي ، وتجزىء إحداهما عن الأخرى في استجلاء المزايا الخاصة (١) .

واعتمد أبو الحسن التهامي على المدد اللفظي المتداول في الغزل للتعبير عن الانفعال الصريح في واقع السجن ، فكان ثمة شعور حاد بالواقع نم عن ذاته من خلال الإطار والصور والألفاظ المستهلكة ، وتشهد الأبيات التالية بكثير من حقائق الشعور : مثل الخوف من الموت والإحساس بالذل ، واحتدام الأشواق والآلام ، قال :

طرقت خيالاً بعد طول صدودها	وفرت إليك السجن ليلة عيدها
أنى اهتدت لا التيه منشاها ولا	سطح المقطم من مجر برودها
مستوطناً دار البنود ، وقلبه	للرعب يخفق مثل خفق بنودها
فتعثرت بعرى الأداهم فالتقى	جرسان ، جرس حليها وحديدها
قيد وسلسلة وأدهم صامت	محن الكرام عظيمة كصفودها
وتأوهت عن زفرةٍ لو صادفت	حجراً جرى ماء لفرط وقودها
فعففت ثم ولو هممت بضمها	منعت من استقصائها بنهودها

ونرى فيها تآلفاً عن جهد مقصود ، بين ألفاظ الغزل التقليدية (خيال ، صدود ، برود ، زفرة) وألفاظ البيئة الواقعية (السجن ، التيه ، المقطم ، دار البنود) ، ولعل ثمة تعادلاً بين الفئتين من الألفاظ في قوله :

=السلطان بمال كثير . انظر : صفة جزيرة . الأندلس : ص ١٩٥ : تحقيق بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

(١) ديوان أبي الحسن التهامي : ص ٥٢ .

فتعثرت بعرى الأداهم فالتقى جرسان : جرس حليها وحديدها

وهو تعادل توافقي تفرضه طبيعة الإطار وأدوات النظم ، ولذلك كان هذا الفرض يدفع من غير عمد بعض المعاني إلى تناقض وفساد :

فعففت ثم ولو هممت بضمّها منعت من استقصائه بنهودها

فالعفة غير متحققة ولا مسوغة مع ما في البيت من وصف جسدي شهوي وقد منع التصنع في الوصف الشاعر من تحقيق تآلف معنوي واتساق منطقي يفصح عن موقف عاطفي متوازن .

وقادت عملية النسج من خيوط السابقين أبا الحسن التهامي الى ضعف آخر إذ اتجه الى إطالة القصيدة في المقدمة والمدح ، فضخم حجم القصيدة من غير غنى ، بل كان التضخم ضعفاً جنح فيه الشاعر الى إطالات تافهة فيها من الإساءة أكثر مما فيها من الإحسان ، وربما قلب المعنى المستضعف عدة وجوه في غير بيت في دورية لفظية ، فكانت بعض الأبيات من التفاهة والإسفاف بمكان [١] ، ومن السهل إسقاط بعضها من غير أن يعتري النظم خلل ، ولعلنا ـ لو فعلنا ذلك ـ لسد الخلل وأعيد للقصيدة بعض الإحكام .

ولا يعزى الضعف والإسفاف للإطالة ـ فقد أطال ابن زيدون في حبسيته الرائية ولم يسف ـ بقدر ما يعزى إلى الانهيار النفسي الخفي الذي ثبط أبا الحسن التهامي عن نظم حصد إذ كان يائساً مخذولاً وحيداً في مصر بين أعدائه ، متهالكاً على الذلة فالرجاء كان حسيراً ولا يأتي على ضعف الرجاء شعر متين ، ولذلك كان يبدو النظم مستكرهاً ، وكل ما فيه من عدة الفن ، متصنعاً حتى المحسنات البديعية ـ على إسرافه فيها وعنايته بألوانها ـ جاءت باهتة من غير رونق .

---

(١) انظر الديوان (ص ٥٥) من مثل قوله :

لغو كحرف الزيد لا معنى له أو واو عمرو فقدها كوجودها

ومن ثم فالبون بعيد ما بين ابن زيدون والتهامي في الموقف النفسي والعطاء الفني ، ولكن التهامي يلتقي مع ابن زيدون في اختيار المعاني المدحية المناسبة لممدوحيه من رجال الدولة من الصفات الدينية والأخلاقية والإدارية والمزايا الشخصية كالحكمة والذكاء .

وعلى ما بين الحبسيات من تباين في البناء والإحكام والإجادة لا خلاف في مخططها وتصميمها الذي أشير إليه سابقاً وهو :

المقدمة - فالمدح - فالطلب والرجاء .

وقد يمازج العتاب المدح ، كما في حبسيات ابن زيدون ، ويتداخلان تداخلاً دورياً بين البيت والبيت ، والمدح فيها جميعاً أطول أقسامها ، والمقدمة لا تقل عن ١/٤ من القصيدة . أما القسم الاخير - المطلب - فهو أصغرها ما بين « ٢ - ٥ » أبيات .

وتخضع خصائص الطلب ومزاياه الى ما خضعت له سائر القصيدة من القوة النفسية والفنية ولا يعدو الشاعر أن يكون أبياً منيعاً كابن زيدون فيترفع فيه عن الاستجداء ، بل لعله يهدد كما أنذر بالهرب ، أو يكون متجملاً كإبراهيم بن المدبر فيلتمس في رجولة مهذبة مطلبه (١) ، أو يكون متصاغراً متهالكاً كأبي الحسن التهامي فيلتمس مطلبه في خوف وذلة وإلحاح .

حبسيات المدح غير ذات المقدمات :

يعتبر تجديداً يستوقف الدارس قصائد متوسطة الطول في المدح الخالص تجردت من المقدمات للغرض مباشرة ، ومن الطريف أن ينجم هذا التجديد ابتداء في قصائد السجن .

وبذلك بدأ منعطف في حبسيات المدح لم يستطع ، على ما فيه من الجرأة والتحرر من الرواسم والعناية بالهدف والوحدة ، أن يضاهي الاتجاه

---

(١) انظر الأغاني (١١٦/١٩) قصيدة مدح بها إبراهيم محمد بن عبد الله بن طاهر .

التقليدي ذي المقدمات في امتداده وسيرورته . وكانت هذه الأعمال تند في أزمنة متباعدة ، فلم تجد من التآزر واتصال العمل ما يعمق مجراها المستجد ، وظهر بعضها في القرن الأول الهجري ، ما بين منتصفه ونهايته ، في العراق في حبسيات لعبيد الله بن الحر [1] والفرزدق [2] ، وفي نجد في قصيدة للخطيم المحرزي [3] ، وفي القرن الثالث نجد قصيدة لإبراهيم بن المهدي في مديح المأمون [4]، ثم قصيدتين على الأقل في القرن الرابع لأبي إسحاق الصابي في مديح عضد الدولة ابن بويه [5] ، هذا غير قصير القصائد والمقطعات .

وهذا الاتجاه ينطوي ـ نفسياً وفنياً ـ على معنى جدير بالاعتبار هو صرف الجهد والاهتمام للمدح كله ، والتعبير عن منازع النفس وأحاسيسها من خلال الخطة المدحية ، فالمدح ينمو نمواً موجهاً متكاثراً ، إذ لا شيء غيره ، والشاعر يدامج حاجاته النفسية وتطلعاته في ذاك المدح مدامجة تحقق وحدة متكاملة متقنة بين الوسيلة والهدف .

وتسمح القصائد المشار إليها بتسجيل الملاحظات التالية :

أول ما يلاحظ ان القصيدة تستهل استهلالاً مستوحًى من الموقف أو المناسبة ، وهو الدليل على أن الموقف يغمر الشاعر ، وأن الشاعر ينسج من عناصر موضوعية نسجاً مباشراً من غير أن يستهلك قواه النفسية والفنية في أطر تقليدية .

واستعراض هذه المطالع مفيد ، فالفرزدق عندما يستجير ببني أمية من خالد القسري يبدأ بتذكيرهم بأبيهم مروان بن الحكم يوم أجاره ، وهو أمير على

---

(١) منتهى الطلب : ٢/٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٢/٤٢ و٢/٣٠١ .

(٣) منتهى الطلب : ٢/٢٥٣ .

(٤) تاريخ الطبري : ٨/٦٠٤ .

(٥) معجم الأدباء : ١/٣٣٣ ويتيمة الدهر ٢/٢٧٠ .

المدينة ، من والي العراق زياد بن أبيه :

ألم تـذكـروا يـا آل مـروان نعمـة　　لمروان عندي مثلها يحقن الدما (١)

ولما اقتيد وهـو يرعـد فرقـاً ، إلى أمير البصـرة مالـك بن المنذر استهـل القصيدة بترجمة عن حقيقة خوفه :

حلفت بـرب الجـاريـات إذا جـرت　　وحيث دنت من مـروة البيت زمـزم
لمـا زادني من خشيـة اذ حبستـني　　على الخشية الأولى التي كنت تعلم (٢)

وحين توجه إلى مدح الخليفة هشام حشد لـذاك طاقتـه الشعريـة وباشـر المدح بعيداً عن أي تأثر ذاتي :

رأيـت سـمـاء الله والأرض ألـقتـا　　بـأيـديهمـا لابن الملوك القمـاقم (٣)

ويبدو استيحاء الموقف جلياً في قصيـدة إبراهيم بن المهـدي الذي كـان يطمع في صفح خليفة قوي نبيل على ما كان عليه الشاعر من حرج ويأس :

يـا خيـر من ذمـلت يمـانـيـة بـه　　بعـد الـرسـول لآيس أو طـامـع (٤)

أما أبو إسحاق الصابي فاستوحى المناسبة الـزمنية في حبسيتين : الأولى في خروج عضد الدولة إلـى زيارة ضريح الإمام علي في الكوفة :

تـوجهت نحـو المشهـد العلم الفـرد　　على اليمن والتوفيق والطائر السعد (٥)

والثانية عند عودته من إحدى تلك الزيارات :

(١) ديوان الفرزدق : ٢/ ١٨٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٢/ ٢٤٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٢/ ٣٠١ .
(٤) الطبري : ٨/ ٦٠٤ .
(٥) يتيمة الدهر : ٢/ ٢٧٠ .

أهـلاً بـأشـرف أدبـة وأجـلهـا   لأجـل ذي قـدم يـلاذ بنعلهـا (1)

وهذان المطلعان الأخيران وليدا المناسبة الزمنية التي وجد فيها الشاعر سانحة لتجديد مدائحه وتصوير نوازعه ، ولرفع توسلاته وضراعته الى سلطانه .

ويلاحظ في كثير من هذه الحبسيات توفر الشاعر على المدح نفسياً وفنياً ليصل إلى رضا السلطة ويظفر منها بالصفح والإطلاق. والرغبةالحارة لتحقيق هذا الغرض هي الدافع الى النظم والإجادة والإطالة أحياناً ، وفي سبيل ذلك يتخذ الشاعر مواقف إيجابية من السلطة تناقض في كثير من الأحيان حقائق مشاعره ومواقفه تناقضاً أشبه بالتزييف والكذب (2) .

ويتأثر مضمون هذه الحبسيات بشخصية السلطان والشاعر والعصر تأثراً يتناول نوعية المعاني والمشاعر ومستوى النظم كما فصلنا في غير هذا المكان (3) .

ومن السهل رسم خط بياني لهذا الضرب من الحبسيات بعد رصد المؤثرات الذاتية ، وأقواها اثنان : الرهبة من السجن والضيق به ثم الرغبة في بلوغ مرتبة الرضا من الممدوح . والشاعر ينطلق في البدء من أحد الشعورين : إما من الرهبة فيذكر هواجسه ومخاوفه ثم يمدح وإما أن يباشر المدح ويذكر بعده هواجسه ورجاءه ، وأيا بدأ به الشاعر فهو يستجيب لأحواله النفسية ، وكثيراً ما يكون الشاعر في حال من الهلع والاضطراب تنعكس على توارد الأقسام ، فالفرزدق في مدح خالد بن عبد الله القسري (4) يبدأ بالشكوى من السجن (بيتان) ثم يمدح بأربعة عشر بيتاً ثم يعود الى الشكوى من السجن والقيود (٦

---

(١) معجم الأدباء : ١/٣٣٣ .

(٢) انظر البحث ص ٥٤٠ .

(٣) انظر الموقف من السلطان ٥٢٣ وما بعدها .

(٤) ديوان الفرزدق : ٢/٢٨٥ .

أبيات) والاضطراب والتشتت أظهر في مدحه مالك بن المنذر بن الجارود [١] : يستهل القصيدة بالتخوف (٣ أبيات) ثم الاستغاثة والاستنجاد والمدح (١٢ بيتاً) ويذكر قيوده مرة أخرى (بيتان) . ويرتد الى المدح والتوسل والاستغاثة (٨ أبيات) .

هذا التداخل والاضطراب في الموضوع ناشيء عن اضطراب العواطف وجيشان المشاعر ، وليس صعباً ترتيب القصيدة وتنسيق عناصرها وتحقيق وحدتها الفنية وفق وحدة نفسية ، إذ هي خالية من المواقف الجانبية او العناصر الأجنبية .

وفي بعض القصائد الأخرى التي نظمها الفرزدق في سكينة وضبط نفسي ووعي فني نلقى إحكاماً وتناسقاً [٢] فهو يقدم المدح ويجعل منه جسم القصيدة ، فمدح هشام بن عبد الملك في (٥) أبيات وبني مروان في (١١) بيتاً ، ثم هشاماً مرة أخرى في (٥) أبيات وبعده يذكر مشاق الطريق وإفضاء الراحلة في (٧) أبيات .

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة ، التي كادت تخلص لمعاني المدح ، التزام الشاعر عنصراً من عناصر الإطار القديم ، هو وصف مشاق الطريق ومصاعب الرحلة ، وكان الشاعر في السجن ، ولكنه أرسل بالقصيدة ابنه الى الخليفة هشام ، فأراد تصوير المشقة واستغلالها في جانب المدح ليبرز أهمية المقصد وشأن المقصود .

فتناول القالب المعد والإطار المرسوم ، ذلك ان الشاعر خاضع خضوعاً قبلياً للرواسم والجموديات ، ولم تستطع الدوافع الذاتية وظروف السجن الجديدة أن تحرره منها ، ولكن الشاعر غيّر في موضع الوصف من الإطار فجعله

---

(١) المصدر نفسه : ٢ / ٢٤٨ .

(٢) ديوان الفرزدق : ٢ / ١٨٨ .

بعد المدح على حين يأتي مكانه في عمود الشعر بعد النسيب وقبل المدح .

ويغلب الترتيب والتنسيق على حبسيات الشعراء الذين أعدوا أنفسهم للمدح في موقف حاسم يتقرر فيه مصير حياتهم كما فعل إبراهيم بن المهدي في حبسيته التي أنشدها بين يدي المأمون فجاءت متناسقة من الانبجاسات النفسية : المدح فالشكر على إبقاء الحياة فالإقرار بالذنب والاعتذار فالدعاء والشكران والتعريض بطلب الإفراج(١)، ويغلب هذا الترتيب على الشعراء ذوي الثقافة الممتازة كإبراهيم بن المهدي وأبي إسحاق الصابي، وكانت حبسياته قطعاً منسقة أشبه برسائله ، ولا شك ان التنسيق مظهر الوعي الفكري المشرف على الأثر الفني في أبعاده وجزئياته ، ويبدو في تعادل الأقسام في الدالية التي رفعها أبو إسحاق الى عضد الدولة (٢) ، فتبدأ بتعظيم الملك (٥ أبيات) ويلتمس الخروج من السجن قبل حلول الشتاء (٧ أبيات) ويرجو عفوه على ما أصابه من الملك (٥ أبيات) ويعتذر إليه ويستمحيه العفو استماحة العبد من السيد (٨ أبيات) .

والإلحاح على المطلب في أوائل القصائد تختتم به أيضاً ، ويبذل الشاعر جهداً نفسياً وفنياً واعياً في تركيزه .

ويجدر التنبيه الى التأثر المتبادل بين شعر الحبسيات وسمات العصر الفكرية والأدبية ، فأثر المنطق في التعليل والوضوح والمقابلة بالأضداد واضح في شعر الصابي وغيره . وتعد الدالية المذكورة مثالاً حسناً لثقافة صاحبها وخصائص الصناعة الأدبية في عصره . فالمعاني والأفكار تنبسط انبساط النثر مفصلة معللة كأن القصيدة رسالة محكمة الأقسام ، بناؤ ها لغة تأخذ بالمتانة والجزالة على قرب ويسر ، وترد الألفاظ من موارد ثقافته العديد : من البادية والحاضرة ، وكان لا يزال ثمة دور لألفاظ البادية في مديح ملك في أرقى عواصم العالم في القرن الرابع مثل (عارض ـ برق ـ رعد ـ العود ـ القدح ، الورد) ، وتجاورها ألفاظ ا لحضارة المنعمة (النرجس ـ الورد ـ السماطان ـ العقد) .

---

(١) انظر البحث ص ٢٢٨ .

(٢) يتيمة الدهر : ٢/ ٢٧٠ .

الحبسيات القبلية

القصائد القبلية كثيرة في أشعار القدماء . وهي ما نظموه في قبائلهم : في قضية من قضاياها أو موقف خطير من مواقفها تعبيراً عن اتجاهات القبيلة السياسية ، ودفاعاً عن تحركاتها أو تبريراً لها .

في هذه القصائد يخفت من الشاعر صوت « الأنا » ويعلو صوت الجماعة ويذوب الشعور الفردي في الشعور القبلي العام ، فتتحد « الأنا » والمجموع في كل واحد . وهذه القصائد كثيرة في الجاهلية والإسلام ، وكان بعض أصحابها وفود قبائلهم إلى الملوك، في الجاهلية وما بعدها ، يلقونها بين أيديهم(١) .

ولكن الحبسيات القبلية تفارق غيرها من الشعر القبلي بعض المفارقة « فالأنا » لا تضمحل ، وللشعراء مواقف مختلفة إذ تتضخم « الأنا » حيناً حتى تسع القبيلة كلها وأهدافها ، ويشتد الصوت الفردي ولكنه يعبر عن موقف عام(٢) ، ويحقق الشاعر ، حيناً ، اندماجاً كاملاً في « الكل » ولكنه يقيم توازناً بين ذاته وبين قبيلته ، ويستثمر « الكل » لمصلحة « الأنا » لمعونتها(٣) ، وحيناً تنحل « الأنا . . . » في الكيان القبلي فليس إلا صوت القبيلة الضخم وآلاء شرفها ومكارمها(٤) .

وصدر عن السجن شعر قبلي كثير غير أن موضع العناية هي القصائد الطويلة غير القصيرة وغير المقطعات . فلا يتجاوز نطاق البحث حبسيات معدودة .

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ معلقتي عمرو بن كلثوم ولبيد ، وفخريات الفرزدق ، وشعر أعشى همدان (البحث ص ٢٢١) .

(٢) انظر ـ بعدُ ـ شعر هدبة بن خشرم وجعفر بن علبة الحارثي ص ٦٠٥ ـ ٦٠٩ .

(٣) انظر ـ بعدُ ـ الحديث بن الخطيم المحرزي ص ٦١١ ـ ٦١٥ .

(٤) انظر ـ بعدُ ـ الحديث عن الفرزدق ص ٦٠٩ ـ ٦١١ .

ومن الممكن أن نحدد مضمون القصيدة القبلية وفق النماذج التي بين أيدينا . فهي القصائد التي تتناول حادثاً قبلياً أو قضية قبلية أو تجول في صلات القبائل وعلائقها وأحلافها . ويختلف فيها دور الشعراء على نحو ما بيناه .

وكان من المقبول أن ضادية طرفة بن العبد من هذا القبيل لولا غلبة العنصر الذاتي والإكثار من المفاخر الفردية ـ كما في معلقته ـ . ومع ذلك فالصوت القبلي فيها له دوي إذ تلمح إلى الوضع السياسي لقبيلته تغلب وأختها بكر ، وخضوعها المكره للمناذرة الذين كان أعوانهم يحكمون المنطقة من قاعدتهم في البحرين[1] . والشاعر يتوعد الملك بثأرها لدمه توعداً يخرج من إيمان قبلي راسخ . ولكننا لا نستطيع أن نعتبرها نموذجاً للحبسية القبلية لأسباب : منها كثرة الفخر الذاتي ـ والذاتية غير القبلية ـ كثرة تدفع إلى الشك في بعضه ـ ومنها اضطراب القصيدة وتداخلها ـ وفق ورودها في الديوان ـ تداخلاً يفقدها الوحدة الفنية والفكرية معاً . ومنها اختلاف عدد أبياتها في روايات الديوان المختلفة[2] .

وتعتبر القصيدة التي نظمها هدبة بن خشرم في حبسه ـ ليلقيها بين يدي معاوية بن أبي سفيان قاصاً ما نشب بينه وبين أقربائه وجيرانه ـ حبسية قبلية ذات منشأ قبلي صرف . وكان أن وقعت مشادة بين هدبة وأولئك تطورت إلى صدام وغارة وقتل .

وسرد الشاعر « القاتل» بين يدي الخليفة الأحداث التي نجمت عن خلاف صغير لم يعتم أن آل إلى شقاق وشر كبير بات الشاعر به محبوساً مطلوباً بدم القتيل . ولا تفارق القصيدة هذا الموضوع ، ولا تجمع إليه غيره ، فهي ذات وحدة من هذا الجانب[3] .

---

(١) انظر البحث ص ١٤٩ .

(٢) انظر البحث ص ٤٣٩ .

(٣) انظر الأغاني : ٢١/١٧٣ . الخبر والقصيدة .

ويبدو أن الشاعر نظمها بعد مضي وقت غير قصير على اجتراح جريمته ، فالقصيدة خالية من سورة الغضب ، يخيم عليها جو من هدوء النفس ومن الشعور بالأسى والحزن يشوبه الندم . وأعطاها هذا المنطلق النفسي شكلاً ترتيبياً خاصاً يسيطر عليه وعي شعوري ويقظة فنية . وهو ترتيب يفارق عمود الشعر المألوف وقد أعدها الشاعر ليلقيها في حضرة الخليفة .

وبدأها هدبة بمقدمة تأملية في الحياة والموت وناموس الزوال المفروض على الخلق جيمعاً . وهذه المقدمة على ما فيها من سند ديني جلي تستمد قوتها من واقع المأساة التي يعيشها الشاعر ويكابد منها الكثير وينتظر من جرائها الموت . ثم ذكر وقائع الحادثة واعترف بالقتل ، أعلن استعداده لقبول أحد الحكمين : إما الدية وإما عقوبة الموت .

وسيطرت الفكرة التأملية ـ وهي الاعتزاء بالقضاء والقدر ـ على وجدان الشاعر سيطرة تامة رأى من خلالها نفسه أداة في يد الأحداث إلا ما كتب لها القدر :

رمينا فرامينا فصادق رمينا   منايا رجال في كتاب وفي قدر(١)

ويمنح الشعور المستيقن بالحتمية القدرية الشاعر نوعاً من التبرير لسلوك صدر عنه ـ في رأيه ـ بغير إرادته .

في هذه الحبسية غابت الروح القبلية الثائرة التي لا تندم على ما فرط منها ، وحل التأمل الحزين الساكن الراضي ، فأعطى القصيدة طابعاً وحدوياً ، وجاءت المقدمة أساساً عاطفياً ومنطقياً للحادثة المسرودة ارتقى بالقصيدة من المستوى القبلي إلى الإنساني بما أوتي الشاعر من صفاء شعوري وتأمل هادىء .

ونادر في الحق تجرد القبلي من هوجائية المشاعر ، وتطهره من الغضب

---

(١) الأغاني : ٢١/١٧٣ .

وحب التشفي ، وانطلاقه من إطار القبلية إلى تخوم المدى الإنساني من خلال التأمل .

ونطل على الوجه المقابل للبدوية الغضوب في حبسية مماثلة لجعفر بن علبة الحارثي . وكان أن أصابه بنو عقيل بجراح ، فأصابهم بقتل ، وانتهى إلى ما انتهى اليه هدبة من السجن والقصاص .

ولم تنسلخ الحادثة ـ الجريمة ـ من شعور هدبة ، وظل الانتقام المأثرة التي أنجزها :

ألا لا أبالي بعد يوم بسحبل إذا لم أعذب أن يجيء حمامياً[(١)]

بل يجد الشاعر في معايشتها بالذكرى شفاء نفسياً . فالقصيدة نموذج مغاير كل المغايرة للنموذج الأول ومتميز عنه .

وتستهل الحبسية بذكر الأحداث تفصيلاً وأسماء أماكن اللقاء والقتال ، وذكر الأشخاص ومراق الدم وأسلوب القتل . ويصرّ الشاعر على تعداد الجزئيات إصرار من يتشفى بتذكار من صرعهم ثم يتلهف على من فاته منهم .

فصوت الثأر ، وهوس الانتقام ، وبرد التشفي عند جعفر بن علبة طبيعة أصيلة فيه : هي طبيعة البداوة الموروثة في الدم والمتجسدة في البيئة بكل معطياتها وحوافزها ، ولا أثر إطلاقاً للقانون الجديد ـ الشريعة ـ ولا خوف من القصاص أو الموت . فهو مثل للإنسان الذي تنتصر فيه روح البيئة وأعرافها وطبيعتها التاريخية العريقة على منابع الخير في الإنسان وعلى زجر القانون .

فليس ثمة ندم ، والأبيات الأخيرة تدل على أنه يرى نفسه رجلاً كبيراً شغر مكانه في قومه ، وأن وجوده سيستمر من بعده في ولده[(٢)] .

فالمحيط المحدود الزاخر بفعاليات بشرية ونفسية كبيرة لا يجد مجالاً

---

(١) الأغاني : ١١/١٤٧ .

(٢) انظر من القصيدة الأبيات ١٤ ـ ١٧ المصدر السابق .

إنسانياً يتسع لنشاط آخر ، ويقتصر قهراً على فعاليات محدودة من الهياج والغزو والثأر . وتغدو هذه الفعاليات وحدها عنوان الرجولة . وهذا ما يعلل الإصرار على الفخار بالثأر في حبسية جعفر .

ولذلك خلت القصيدة من مقدمة شعورية أو تأملية ، واندفعت في سرد الأحداث سرداً ملحمياً (١١ بيتاً) . أما القسم الثاني فهو الجانب الإنساني منها : موقف الإنسان وهو يواجه الموت ويشعر بالزوال الأبدي . وفي هذا الموقف يغمر الحزن والأسى أمواج الغضب ، ويحدق الشاعر في النهاية ، فيهال من الحقيقة :

أحقاً عباد الله أن لست رائياً صحاري نجد والرياح الذواريا
ولا زائراً شم العرانين أنتمي إلى عامر يحللى رملا معاليا[1]

وبذلك نرى أن هذه الحبسية ذات قسمين متحدبن : وصف الحادثة ثم التشوق والحنين الى الديار والأهل مع التعزي والتصبر . وإن تباين القسمان فالمعين الشعوري واحد .

وكلا الحبستين ذات نظام ثنائي : تبدأ الأولى بالقسم الذاتي ثم الحادثة . وتبدأ الثانية بالحادثة ثم القسم الذاتي . ومن أظهر خصائصهما ـ على منشئهما في المحيط القبلي الضيق ـ أن غلبت عليهما ذاتية قوية في حالتي الهدوء والاهتياج . وكان لهذه الذاتية أثر بين في النظم والسبك .

فالتأمل والشوق والاهتياج حوافز نفسية للإفصاح بالسهل من اللفظ والعبارة . ولعل كثيراً من التآلف الصوتي والمعنوي محقق في المقاطع وفي الصور ذات الإيحاء الفني بالتعاطف الإنساني :

أحقاً عباد الله أن لست رائياً صحاري نجد والرياح الذواريا
إذا ما أتيت الحارثيات فانعني لهن وخبرهن أن لا تلاقيا

---

(١) الأغاني : ١٤٨/١١ وانظر البحث ص ٥٧٥ .

وقـــود قلوصي بينهن فـــإنهـــا ستبـرد أكبادا وتبكي بـواكيا[1]

وفي ديوان الفرزدق حبسية قبلية تخضع للنظام الثنائي نفسه مقدمة ذاتيـة تقليدية ثم إشادة بالتحالف القيسي التميمي[2] .

والقصيدة من « ٢٥ » بيتاً . وتعد المقدمة « ١٢ » بيتاً . وهي نفثة مسجون لهمومه . ولكنها لم تباشر البوح والإدلاء الحر عما في النفس بل دخل الشـاعر في الإطار التقليدي ، وجمع في مداه المحدود (١٢ بيتاً) عناصر كثيرة منها : المنازل ـ الخيال ـ الشوق والذكرى ـ الرياح ـ الركاب ـ الطير ـ الراحلة ـ حمار الوحش . وهي عناصر سقطت إليه ـ بل فرضت نفسها عليـه ـ من الممارسـات الشعرية التقليدية الراسخة في طريقته على حين عرفنا من الفرزدق ، أحيانـاً ، التحـرر من المقدمـات أو التعديـل فيهـا وإخضـاعهـا للغـرض[3] ، والحق أن العناصر التقليدية التي ذكرناهـا ، على كثرتهـا ، عامت على وجـدانية جيـاشة بـالأحزان والأسى الصـادق ، ولم ترد رسـوماً كـالنقوش الجـامدة . واتجـه بها الانسياب مع الشعور نحو تعبير واقعي لم يلبث أن ارتد إلى التعابير المفروضة من قبل صور الصحراء . قال ·

أهـاج لك الشـوق القديم خيـالـه مـنـــازل بيـن المنتـــقى ومـنـيـم
وقد حال دوني السجن حتى نسيتها وأذهلني عـن ذكـر كـل حميم
على أنني من ذكـرهـا كـل ليلة كـــذي حمّـةٍ يعتـاد داء سليم[4]

ومن السهل أن نتوضح أن الشوق مرده إلى الآلام التي كان الشاعر الشيخ يعانيها : فالشوق رمز للآلام . والمقدمة في تطورها تصـدر عن إحساس حـاد

---

(١) من حبسية جعفر بن علبة : الأغاني : ١١/١٤٨ .
(٢) انظر القصيدة في ديوان الفرزدق : ٢/٢٨٥ .
(٣) انظر البحث ص ٥٩٨ وما بعدها .
(٤) ديوان الفرزدق : ٢/٢٨٥ . الأبيات ١ ـ ٣ .

بالألم تحول إلى دفاع عن الكرامة من جراء مهانة السجن ، وإلى استحضار صور مجيدة من الماضي يخفف زهوها مذلة الحاضر . قال :

فإن تنكري ما كنت قد تعرفينه   فما الدهر من حال لنا بذميم
له يوم سوءٍ ليس يخطىء حظّه   ويوم تلاقي شمسه بنعيم[1]

وهو نوع من الدفاع اعتاده شعراء الحبوس ينبثق من دافع نفسي خالص انبثاقاً تلقائياً .

وفي القصيدة خلل فني : فعلى ما بين أبيات المقدمة من الترابط والتوالد العاطفي تبدو ـ ظاهرياً على الأقل ـ مقطوعة عن القسم الثاني من غير وصل لفظي وموضوعي .

ولعل طبيعة المشاعر في القسمين لم تمكن الفرزدق من تحقيق الاتصال الفني بينهما : فهي في الأول ذاتية محضة ، وفي الثاني قبلية عامة خرج الشاعر فيها من قرارة الحزن إلى الفخار الطائر بعيداً عن المعاناة والألم .

وهذا القسم الثاني هو عملية إحياء سياسية لحلف قديم بين قيس وتميم ـ وهو حلف جاهلي قديم ـ إذ كان الفرزدق رمى بذاك إلى الاستعانة بالقيسيين عند الخليفة لإطلاقه من سجن خالد بن عبد الله القسري[2] . واستطاع الفرزدق بما أوتي من نفس نزوع إلى الفخار أن يرسم ، في الوهم ، صوراً أسطورية ضخمة للقبيلتين اللتين خضع العرب لنفوذهما . وجعل عشيرته في علياء المجد ، ووضع نفسه في الذروة منها سيداً شريفاً يظلم ولا يظلم .

إننا ، وإن اعتبرنا الفخر صناعة شاعر كبير كالفرزدق ، لا نستطيع أن نتجاهل الدوافع المضادة في الأعماق التي تخرج الفخر البطولي الأسطوري كردة فعل على صغار السجن .

---

(١) المصدر السابق : الأبيات ٦ ـ ٧ .
(٢) انظر الأغاني : ١٩/ ٢٤ ـ ٢٥ .

وعندما نأخذ هذه الملاحظة باعتبار نحكم بأن القصيدة كلها متحدة نفسياً فيه صادرة عن الآلام ، صريحة في المقدمة ، مرتدة ، في القسم الثاني ، إلى مباهاة وإطناب دعائي فهو تعبير عنها بصور من الفخار المنحول في الموقف الصعب .

وعند المقارنة بين حبسية الفرزدق والحبسيتين النجديتين السابقتين المنظومتين في سجون الحجاز نسجل فروقاً لغوية في طبيعة الألفاظ . فعلى ما لدى هدبة وجعفر من البدوية الصرفة في الموطن ونمط العيش ، وعلى بعدهما عن العمق الحضري ، فاللغة سهلة مأنوسة على جزالتها ، متآلفة مع المعنى ومع التماوج النفسي الداخلي : تكاد تكون موسيقاها انعكاساً للاهتزازات الداخلية . بينما نجد الفرزدق ، وهي في وسط حضري ، يأخذ نفسه بلغة مفرقة في الجزالة ألفاظاً وتراكيب ، فتكسوها الجزالة غموضاً ناشئاً عن بعض الغرابة . ولا شك أن كلا من هدبة وخشرم تأثرا باللغة الحجازية الآخذة بالرقة ولطف الجرس وخفته بينما ظلت لغة الفرزدق مستمسكة ببدويتها تأبى التعديل الحضاري الجديد .

ولا نستطيع أن نميز في الحبسيات القبلية الطويلة عناصر أساسية غير العنصرين الجوهريين : الهموم والقضية القبلية . ولكن يقدم طول الحبسية مدى مفيداً في تفجير ذاتية الشاعر في مجار متشعبة ، وفي عرض مفصل للحادثة أو المأساة القبلية مما يتيح اطلاعاً أعمق وأشمل على المسببات والدوافع الحقيقية ، وتقديراً أبعد موضوعية لظروف الشاعر النفسية ، ومعرفة لأثر التطور العاطفي في بناء القصيدة كلا وأقساماً وأجزاء .

ولدينا من هذا الطراز حبسية من « ٦٣ » بيتاً للخطيم المحرزي ـ أحد صعاليك عكل ومحاربيها الأشداء ـ نظمها في سجن نجران إثر منافرة بين قومه بني محرز وعشيرة قريبة لهم آلت إلى اقتتال ودماء وعداء ضار . وكان للخطيم يد جارحة في الفتنة ، فاقيتد إلى نجران ليسجن فيها غريباً بعيداً عن قومه . ولم

يكن لـه سبيل إلى الخـروج إلا بمساعي قـومه ، ولـذلك وجـه إليهم القصيدة الطويلة[1] .

وتشغل المقدمة المتعددة الأقسـام « ٤٣ » بيتًا ، والقضيـة القبلية(٢٠) بيتاً .

والمقدمة على طولها وتنوعها تستحـوذ عليها وحـدة متماسكـة تجعل من أقسامها المختلفة مظهراً لانفعال واحد أو لمشـاعر منبثقة عن انفعـال جوهـري واحد . وهي تأخذ الاتجاهات التالية : ـ

أ ـ الفخر بانتمائه إلى جذم يتفرع منـه عدد من القبـائل الأبيـة ، بكرمـه وشجاعته التي جاوزت الحد (١ ـ ٥) .

ب ـ الثناء على صديقه ابن مراس الذي أعانه بالسلاح والراحلة في هربه قبل القبض عليه (٦ ـ ٩) .

جـ ـ وصف الفلاة الملتهبة المهول التي اجتازها وإن أحداً لا يجروء على عبورها (١٠ ـ ١٣) .

د ـ البـوح بهمـومـه (١٤ ـ ٤٣) ومنـاشيء هـذه الهمـوم وهي : بعـد المحبوبة ، والسجن الغريب ، وذكرى الوداع والفراق ومرابع الأهـل وحمـامها وجيادها ونـوقها ، ومن ذلـك ينسل إلى وصف النـاقة في معـرض التشوق إلى الانطلاق في الغلاة .

ويحقق الشاعر بين هذه الأقسام أواصر طبيعية وحقيقية ، فالتواصل بينها ليس انتقالاً متكلفاً بل هو تواصل داخلي ناجم عن انفعال نفسي حميّ تعددت مظاهره ومساربه .

ولا شك أن استحضار الظروف يكشف عن البواعث فـالمطلع الفخـري

---

(١) انظر القصيدة في منتهى الطلب : ٢٥٣/٢ وانظر البحث ص ٥٧٦ .

الفخم مرده إلى إحساسه الجارح بالضيم والهوان في حبس غريب . والثناء على المخلصين له جاء في معرض الفخر والثناء على ذاته . ومن ذاك ينبع وصفه للفلاة إذ يرد في معرض الحديث عن رجولته وصبره واحتماله ودرايته بالمسالك . فكل ما في سلوكيته مدعاة للفخر : إن عانى الأهوال في فراره أو اجتاز البيداء المثكال . وبذلك تتوفر الوحدة النفسية لمقدمة طويلة إذ يتصل وصف الأهوال بهمومه الذاتية اتصالاً وثيقاً .

وتعتبر هذه المقدمة الطويلة خير الأمثلة للشاعرية المتدفقة التي تعاني محنة نفسية أو انفعالاً ضخم العبوة ثم لا تجد لتجسيد مشاعرها وهواجسها غير الصور ذات الأطر التقليدية :

السير ـ الصحراء ـ الهموم ـ الوداع ـ الناقة .

ولا شك أن هذه الأطر ذات التصميم المسبق تصيب الحالة الداخلية بتعطيل في التعبير العفوي المليء . فهي مهما اتسعت ، ومهما عظمت براعة الشاعر في التصرف بقيمها التعبيرية ، لا تطاوع التعبير الصافي الشفاف الذي يخطف المعنى أو الشعور قوياً مشرقاً في مثل لمح البرق وسطوعه .

وإن البيئة الصحراوية ، ذات الرتابة في مشاهد الطبيعة وأنماط العيش ، لا تهيء لتطور فني معادل للهجس الداخلي الحي . ولذلك يستمسك البدوي بكل ما هو تقليدي وراثي قديم . وإذا احتاج شعراء الحواضر لكثير من العناء للتحرك نحو فك بعض عناصر الإطار العمودي ، أحياناً ، على توفر العوامل والدواعي ، فليس شاعر البادية بمطالب بما هو صعب على طبيعته . وما أردناه هو الإشارة إلى كبح الأطر المسبقة الصنع للانطلاق الحر في التعبير عن المواقف الذاتية غير المحتاجة للرواسم ـ كما في المدح مثلاً ـ .

أما الشاعر المحرزي فقد كان ذا قدرة حسنة على التصرف في فنون القول ، في إطار المصطلحات والمفردات التقليدية ، تصرفاً حقق له ما يريد من الإبانة عن مشاعره . قال :

لعمــرك إنـي يــوم نعـف سـويقـة — لمعتـرف بــالبين محتسب الـصبــر
غـداة جـرت طيــر الفـراق وأنبــأت — بنـأي طـويـل من سليمى وبـالهجــر
فمــا أنس من الأشياء لا أنس طـائعـاً — وإن أشقـذتني الحرب إلا على ذكـر
عيوف التي قالت : تعـز ، وقد رأت — عصاالبين شقت ، واختلافاً على النحر
عليك السلام ، فـارتحل غيـر باعـد — وما البعد إلا في التنـائي وفي الهجر
وعفت لجفن العين جـائـل عبــرة — كما أرفض نظم من جمان ومن شذر
تـهـلل مـنـهــا واكـف مــطرت بــه — جموم بملء الشـأن مانحـة القطر (١)

إن موقف الوداع المتخيل هو الإطار الذي تضمن شوق الشاعر إلى الأهل والأحبة ، وفرض هذا الإطار نفسه على الشاعر فرضـاً ، واستتبع ذلـك فـرض الجـزئيات المتصلة بـه : زجر الـطير ـ عصـا البين ـ الدمـوع كالجمـان والشذر والسحـاب ـ الهجر . وعلى الشـاعر أن يفـرغ دفقته الانفعـاليـة في القالـب ، فيوضعها القالب في جزئياته ، كما هو مصمم لها مسبقاً ، وعلى هذه الجزئيات أن تشع بما في الأعماق المستسرة .

إن المعاناة الحقة وحدها تعطي هذه الأبيات قيمتها أما الاختراع والابتكار فلا سبيل إليه . وعلينا أن نجد المتعة في القطع التبديلية الجاهزة .

ونوهنا من قبـل أن القسم الثاني من الحبسيـة ـ الحادثـة القبلية ـ يتصـل بالتشوق وثيق اتصال . وبذلك تظفر القصيدة بوحدة متجانسة عفوية . ويعرض الشاعر في عشرين بيتاً المأساة القبلية عرضاً فيه الكثير من التجرد الذي يدعو إلى التقدير والاحترام . فقد وصف الفتنة والشغب والخصام بين بطون قبيلته بدافع من جهالة وطيش . وإذ لم ينتفعوا بما نصح لهم من التعقل والحلم أخذ معهم في الطيش إلى آخر الشوط لا يشذ عنهم ولا يخذلهم . ومما يحبب إلينا تصديقه في دعوى التعقل أنه لم يحتفظ بجهالة العصبية ، ولم يحرص على الفخار بما

---

(١) الأبيات : ١٩ ـ ٢٠ و٢٣ ـ ٢٧ .

ارتكب ـ كما فعل جعفر بن علبة الحارثي ـ ولكن دعا إلى إصلاح ذات البين بالمال وغيره ، وإلى استخراجه من السجن الذي دخله في أحداثهم وقضيتهم .

إن هذا القسم متحد ، لا فجوات فيه ، ولا أجزاء غريبة . والدعوة إلى الإصلاح والسلام تعطي الأبيات وزناً إنسانياً خاصاً ، وتشير إلى رجل ـ على خفته وطيشه إذا هيجته الحرب ـ لا تنقصه الحكمة لو سئل عنها وأطيع فيها .

ولكن ما حصيلة هذه الحبسية القبلية ؟ أهي الوحدة النفسية التي طبعت القصيدة بطابع الوحدة الفنية والاتساق على تعدد الأقسام وتنوعها بتوجيهها نحو هدف واحد مقصود ؟

إن الميزة العليا أننا نظفر منها بالأثر الصادق . فالصدق المنبثق عن الدافع الذاتي لوصف أحوال النفس وبيان مقاصدها وأهدافها ووجهة نظرها في الأحداث هو عماد القصيدة وصباغها . ومظاهر الصدق هو الانسياب الشعري شبه العفوي بين أقطار الأطر وثنايا الصور المصكوكة المتداولة كأنها تعوم على سطح الشعور . وهو ـ أيضاً ـ تصوير المعنويات بالمحسوس في أنماط الاستعارة والتشبيه والكناية . وهو أيضاً التشاكل بين النظم والبيئة : فالطبيعة البدوية هي صباغ الشعر في شكله ومضمونه . فنجد في الشكل قساوة البادية وجزالتها وخشونتها في الألفاظ والتراكيب والصور ، وأسماء الأماكن والقبائل ، ومشاهد الصحراء والراحلة ، وأساليب التعبير الخطابي صدى الانفعال الداخلي. ونجد في المضمون قيم الفخار والعزة والرجولة والكرم ، والاعتزاز بالانتماء القبلي والتعويل عليه في حل مشكلات الشاعر .

وبذلك تسجل هذه الحبسية تفوقاً فنياً من جراء العفوية والصدق والبراءة من الغرض النفعي التكسبي ، وتحرز مزايا لها قيمتها الأدبية والإنسانية .

وخلاصة القول إن الحبسيات القبلية ذات بناء ثنائي طالت أم لم تطل ، غارقة في إطار المحيط والبيئة والتقاليد الفنية ، وتعكس مزاج صاحبها وتركيبه العاطفي والفكري ، وتترجم عن مشاعر وتأملات من وحي المحنة والمأساة ومن بواعثها .

الحبسيات الوجدانيـة

يـراد بالحبسيـة الوجـدانية تلك الصـادرة عن الذات تعبيـراً عن المعاناة والضواغط النفسية التي لابست السجين . ولم تتناول موضوعاً آخر خارجاً عن الذات كالمـدح والهجاء . أمـا الفخر ، إن وجـد ، فهو صـورة من صور الألم الداخلي رداً على الهوان المضروب .

والموضوع الأساس في هذه القصائد هـو الهموم والآلام . ويشغـل هذا الموضوع عدداً كبيراً من القصائد القصيرة والمقطعـات . ولكن بين أيدينـا غير قليل من القصائد غير القصيرة في الغرض نفسه . ومن خلال هذه يمكن أن نتتبع الحركة النفسية الداخلية للشاعر وهو في غمرة انطوائه على ذاته وتطور انفعالـه صعوداً أو هبوطاً رقة أو قسوة حين كان في محرق المحنة .

ووردت هذه الحبسيات من بيئات وعصور مختلفة : من العصر الأمـوي والعباسي ومن البوادي والحواضر . ومع ذلك تشترك جميعاً في المنشأ النفسي والانفعال الوجداني واتجاهاته وتطوره .

ومن الممكن التمييز فنياً نوعين من الحبسيات والوجدانيـة : نوع يتـدفق حـراً في التعبير عن الهمـوم والآلام لا يحجبه من التقـاليد الشعـرية المـوروثة حجاب ، ونوع يستحضـر الإطار الفني بمـا فيه من رواسم النسيب أو الـوقوف على الديار ومشاهد الارتحـال فيستكثر من الـرواسم أو يقتصد فيهـا وفق اتجاه الشاعر الفني .

ومن النوع الأول قصيدة شهيرة عند الأدباء لجحدر بن معاوية العكلي(١) ،

---

(١) منتهى الطلب : ٢/٢١٦ ، ومطلعها :

تـأويـني فـبـت لـهـا كـنـيـفـاً   هـمـوم لا تـفـارقـني حـوانـي

وحبسيات أخرى ليزيد بن مفرغ الحميري[1] وابن المعتز[2] وأبي الحسن التهامي[3] ، ولإبراهيم بن المدبر[4] .

ولا شك أن هذه القصائد تتمايز فيما بينها تبعاًللعصر والبيئة وبنية الشاعر النفسية وإمكاناته الفنية . ولكن بينها اشتراكاً عاطفياً ناجماً عن حركة نفسية واحدة في أصالتها .

ولا بد من العرض الوجيز لمخططات بعض هذه القصائد في اتجاهاتها الفكرية والعاطفية لبيان مواضع الالتقاء أو الافتراق فيما بينها من خلال صور التعبير ومن ثم لتقويم كل منها .

وكان جحدر بن معاوية العكلي يتخوف في حبسه من عقوبة الموت . وتعد قصيدته (٢١ بيتاً) على الأقل[5] . ومن الممكن تمييز ثلاثة خطوط ظاهرة في تركيبها العاطفي :

١ ـ فهي تبدأ بانطوائية جد حزينة تبدو في استحضار همومه وتجسيدها وتراوحها عليه (١ ـ ٤) .

٢ ـ ثم تأخذ بالتوجه إلى العالم الخارجي : إلى الطبيعة (البرق والنيران والحمام) وإلى الأصدقاء والأهل فيستدني زوجه أم عمرو منه لأنهما على البعد يطلع عليهما قمر واحد ونهار واحد، ويرسل مع الركبان تحية إلى الرفاق الذين

---

(١) الأغاني : ٥٨/١٧ ومطلعها :

اين لا أين جنتي وسلاحي ومطايا سيرتها لارتحالي

(٢) ديوان ابن المعتز : ٧٠/٢ ، ومطلعها :

من يذود الهموم عن مكروب مستكين لحادثات الخطوب

(٣) ديوان أبي الحسن التهامي : ١١٨ ، ومطلعها :

أيا من نعاه لسان القريض وكالند ينشر من عرفه

(٤) انظر الأغاني : ١١٥/٩ .

(٥) منتهى الطلب : ٢١٦/٢ .

ينتظرون عودة الفارس الحبيس على خوف من أن تبطش به يد السلطان (٥ ـ ١٨) .

٣ ـ ثم يرتد الشاعر إلى الذات في انتفاضة فخار وسمو ينشر فيها مخاوف نفس تبكي من غير جزع إذ لم تستوف بعد رسالة البطولة التي خلقت لها (١٩ ـ ٢١) .

وتمتاز هذه الحبسية بالوجدانية الخالصة وتنوع المشاعر وغناها وعلوها ، وتصدر عن منبع واحد هو الهم والشوق والخوف والكبرياء . ففيها رقة الإنسان وخشونة البداوة معاً . ولا تحجب عناصر البادية ما فيها من شجى صادق عفوي يضفي عليها ذكر البرق والناقة والنار وأسماء الأمكنة والقبائل ظلال واقعية تزيد في رصيدها من صدق الشعور . فتلتف عليها ذكريات الشاعر فتكون له معالم على طريق الماضي الذي يستجليه . قال :(١)

فيا أخوي من جشم بن سعد ... أقلا اللوم إن لم تنفعاني
إذا جاوزتما سعفات حجر ... وأودية اليمامة فانعياني
إلى قوم إذا سمعوا بنعيي ... بكى شبانهم وبكى الغواني
وقولا جحدر أمسى رهيناً ... يحاذر وقع مصقول يماني

والتوجه إلى الطبيعة ساذج غير أنه مستطرف لما فيه من استشفاف روحي فتتلاقى نفوس المحبين ، على تنائي الأمكنة ، في الزمان الواحد :

أليس الله يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني

وتلتف السذاجة العاطفية بالفكرية التي هي طابع البداوة في مشهد الطير المغرد على البان :

وهيجني بلحن أعجمي ... غناء حمامتين تجاوبان

---

(١) المصدر نفسه ، الأبيات : ١٤ ـ ١٧ .

تجاوبتا بلحن أعجمي على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى وفي الغرب اغتراب غير دان

فالسذاجة تلتقي بالانفعال العاطفي وتمنح القصيدة طابعاً بعيداً عن العمق ولكنه زاخر بالشعور الحي القادر على الإيحاء وبعث المشاعر في الآخرين .

ويمازج الحزن القلق . وليس هو قلقاً مصيرياً بين يدي مجهول خفي . وإنما هو قلق محدود بين يدي السلطة التي تأتي كلمتها فيصلا بين الموت والحياة . ويعلو القلق في ختام القصيدة إلى سمو خلقي ممتاز إذ كانت حياته عنده من أجل مثل بطولي لما يتأت له إنجازه :

ألم ترني غذيت أخا حروب إذا لم أجن كنت مجن جاني
فإن أهلك قرب فتى سيبكي على مخضب رخص البنان
ولم أك قد قضيت ديون نفسي ولاحق المهند والسنان

ومزية هذه القصيدة أنها أدنى إلى الهجس العفوي الذي تصوغه القدرة الأدبية من غير احتشاد للعمل الفني بل استجابة للانفعال الداخلي . فترك ذلك في القصيدة طابع الارتجال الذي لاتعوزه متانة الصحراء . وهو ظاهر في طريقة الاستهلال وسماحة الألفاظ ويسر التراكيب وتنوع أساليب الكلام تنوعاً يواكب الحركة النفسية الداخلية واتجاهاتها .

وتمتاز قصيدة يزيد بن مفرغ الحميري بأنها مغموسة في عذاب النفس والجسد معاً وبأن صاحبها من ذوي النفوس الشماء التي تتحدى العذاب حتى الموت من غير أن تستسلم أو تصمت على الأقل لتدرأ بالصمت الأذى . ولم تزل نفسه متمنعة متحفزة للهجوم إذ قل من الرجال من يقول للجبار المتغطرس مع النكال والتعذيب المستفظع :

يغسل الماء ما صنعت وقولي راسخ منك في العظام البوالي[1]

---

(١) انظر يزيد بن مفرغ الحميري : حياته وشعره : ص ١٧٠ .

وتلتقي هذه القصيدة بسابقتها في الاتجاهات النفسية : في الحوافز والعمل الداخلي ثم في التوجه إلى خارج النفس . فالآلام والأحزان الغامرة عبأت المطلع (١) بنتاجٍ حزين ورضوخ قدري يجعل الألم مرضياً أو مقبولاً ولكن في إطار زاخر بالصبر البطولي (١ ـ ٤) .

واتخذ التحول إلى خارج النفس مظهرين : الأول موقفه من السلطان ويبدأ بتبرئة النفس من ذنب يستوجب العقاب ثم بتجريم السلطان في عدوانه على البريء وبتهديده بحساب الله في الآخرة (٥ ـ ١٣) وتعد صور التعذيب الجسدي والتشهير تجريماً للسلطان من جانب وتقوية لنفس الشاعر من جانب آخر إذ يرفض أن يسترحم أو يستغيث على العذاب القاتل (١٤ ـ ١٨) .

والمظهر الثاني موقفه من أنصاره وحلفائه الذين كان يرجو منهم قوة وعوناً . فيعاتبهم على التغافل عنه وهم شموس الأرض وجبالها وحماتها وهم الذين حرضوه على هجاء الأمير عباد (٢) (١٩ ـ ٣١) .

ويبدو في البيت الأخير من القصيدة (٣٢) تهيؤ للعودة إلى النجوى الوجدانية إذ يطلق صيحة تحسر على ما لقي من صحبة ذاك الأمير وقد كان نصح بالابتعاد عنه .

وهذه الحبسية استجابة للانفعالات الداخلية مثل حبسية جحدر فالشعر ينبثق من الألم الحارق انبثاقاً صرف الشاعر عن التقاليد والرواسم الموروثة . فلم يحفل بتصريع المطلع ولا بالصور المبتكرة أو التقليدية (٣) . وطبع التعبير الواقعي القصيدة بطابع متميز في الأساليب (الإنكار ـ القسم ـ النداء ـ التحذير

---

(١) وهو أربعة أبيات (المصدر نفسه) يستهلها بقوله :

أين ، لا أين جنتي وسلامي ومطايا سيرتها لارتحالي
هدم الدهر عرشنا فتداعى فبلينا إذ كل شيء بالي

(٢) انظر البحث ص (١٧٢ ـ ١٨٢) .

(٣) غير أبيات أخذ فيها ببعض الألفاظ والصور المتداولة (٢٣ ـ ٢٥) .

ـ التمني ـ التحسر) وفي الألفاظ والتراكيب التي لم تبتعد بها الجزالة عن الحيوية واليسر . فجاءت القصيدة ـ كالسابقة ـ قادرة على الإثارة العاطفية والتشاجي بما فيها من عمق إنساني أصيل هو بؤس الإنسان الأعزل البريء وهو يرفض الهزيمة أمام السلطة الطاغية . ويتعمق الشاعر معنى دينياً وصورة قرآنية تعمقاً شعورياً يقذفه سهماً في وجه الظلم :

أيها المالك المرهب بالقتـ ـل بلغت النكال كل النكال
فاخش ناراً تشوي الوجوه ويوما يقذف الناس بالدواهي الثقال

والقصيدة ترتبط روحياً بالصحراء ببدوية عريقة هي هذه الأنفة والكبرياء والتحدي ولكنها لا ترتبط بها أسلوباً فعناصر الصحراء التي برزت كالأعلام في قصيدة جحدر مفقودة فيها . وطابع الأسلوب العراقي الآخذ بالرقة والجزالة معاً ، مبتعداً عن خشونة البداوة ، جلي الأثر فيها .

وتعد حبسية ابن المعتز أربعة وأربعين بيتاً أعطاها الشاعر من التعمل الفني الكثير .ولمعت فيها صور من الماضي ومن غير البيئة الحضرية . ولكن الوجدانية المتقدة السارية في أوصال القصيدة صهرتها في وحدةمتناسقة متكاملة(١) .

وتتفق مع القصيدتين السابقتين في المنطلقات النفسية التي تتضح في ثلاثة خطوط كبرى :

فالشاعر يستهلها بالبوح المهموم من الأحداث والناس (١ ـ ٧) وينحو في التعبير عنه نحواً واقعياً ينم عن مكابدة جاهدة في موقف مأساوي هو الإخفاق في الوصول إلى الملك ، ومن هذا الموقف تنبع الأحزان :

فهو في جفوة المقادير لا يأ خذ يوما من دولة بنصيب
خادم للمنى قد استعبدته بمطال وخلق وعد كذوب

(١) انظر القصيدة في ديوان ابن المعتز : ٢/ ٧٠ .

وهذا التعليل قوة للشعر يعطي المكابدة معنى معقولاً وينأى بها عن السذاجة التي طالعتنا في آلام جحدر . ولكن الشاعر لا يتعمق في مضمونها الوسيع تعمقاً يصل مأساة سقوطه بناموس كوني شمولي ـ كالذي كاد يزيد بن مفرغ الحميري يحققه في مطلع حبسيته ـ بل ينغلق ابن المعتز على ذاته ، بدافع من الخوف ، انغلافاً يحجب الرؤ يا البعيدة .

ثم يتحسر الشاعر تحسراً حزيناً على أسلافه ، آبائه وأجداده ، الذين مضوا نماذج مفقودة للوفاء والبطولة والسلطان (٨ ـ ٢٢) . ويقف يواجه الدنيا بصروفها ويتحداها بما لديه من مقاساة وصبر . ويعدد فضائله وهي صفات الفتى الكامل في القرن الثالث الهجري : رجل لهو وأنس ، وفارس وصاحب صيد ، وراكب ناقة ، وقائد جيش يبيد العدو ، وذو رأي ومكيدة ، ورجل كرم (٢٣ ـ ٤٢) .

وتنساح وجدانية حرى على العرض البطولي لذكريات الآباء والأجداد ، فتتوالى مشفوعة بالأسى والحسرات . ويستشف منها الظلال السياسية المعاصرة للشاعر وتدهور القوة الرأس في عالم الخلافة ورزوحها تحت أيدي المتسلطين والانتهازيين . فتنبعث شكاة الشاعر من معطيات ذاك الواقع الذي خذله . فقد كان رجلاً كبيراً من سلالة كبار ولكن عصره أمسى غير موات لمطامحه .

ويتحسّس ابن المعتز قهراً أو انسحاقاً مصيرياً محتوماً . فالاستعراض البطولي للماضي لا يبعث فيه أملاً بالمستقبل والنصر ولا حمية دافعة بل هو الإذعان والتسليم . والصبر الذي يعتد به هو الصبر المفروض إذ ليس وراءه تخطيط لدرء الكارثة أو للانتقام :

قد لدنياي قد تمكنت مني ... فافعلي ما أردت أن تفعلي بي
واخرقي كيف شئت خرق جهول ... إن عندي لك اصطبار لبيب
رب أعجوبة من الدهر بكر ... وعوان قد راضها تجريبي

ولذلك لا تجاوز الصفات المثالية التي ادعاها لنفسه ـ من اللهو والشرب والصيد والفروسية والقيادة والحكمة والسخاء ـ دعاوى دونكيشوتية ورؤ ى مكذوبة نابعة من الإحساس بالهوان يعوض بها المقهور عن الذل المضروب قد أوردها في ألفاظ غريبة مقصودة لتصوير الفخار المكبوت في رنين وادعاء .

ولذلك تنتهي القصيدة بالاستسلام البائس الذي هو الحقيقة اليقينية في ضمير الشاعر (٤٣ ـ ٤٤) ، وبذا خاطب نفسه :

ولقد صرت ما ترين فإن كا ... ن حماما ياشر هذا الذي بي
فإذا ما ابتلاك شيء فميلي ... أو فدومي على البكا والنحيب

فالقصيدة بدأت وانتهت بالبوح الحزين الذي هو قوام عناصرها كلها .

ولعل الحركة النفسية في هذه القصيدة أثبت لها طابعاً توحيدياً داخلياً صميمياً هو الوجدانية الباكية اليائسة . ولا يجحف بها ما استحضره الشاعر من صور الحرب والفروسية والصحراء التي هي من التقاليد الفنية البدوية . فإن كل ما يتراءى لفظياً أو سنناً موروثاً أو صوراً مكرورة مستعارة يكمن وراءه مشاعر ذاتية تشحن كل ما ينبجس من الألفاظ والصور والمعاني بطاقة حيوية .

أما حبسية أبي الحسن التهامي فذات مزية وجدانية نادرة هي أنه نظمها وقد تيقن أنه مقتول لا محالة . فكانت صرخة من أعماق الذعر تحترق تفجعاً ذاتياً مريراً في مواجهة النهاية(١) .

وتنقاد القصيدة لعفوية النظم بتأثير الانفعال الفائر . وتتجاوز الحواجز والرواسم التقليدية وطلاء الصنعة الذي ادهنت به حبسياته الأخرى(٢) . وانطلق

---

(١) انظر ديوان أبي الحسن التهامي : ص ١١٨ ، ومطلعها :
أيا من نعاه لسان القريض ... وكالند ينشر من عرفه
(٢) أخصها قصائد المدح التي نظمها في الحبس ، انظر الديوان (ص ٥٢) .

في نجوى ذاتية راثياً نفسه يستشعر سقوطاً مصيرياً لايقاوم (١ ـ ٣) . فوضع نفسه أمام قدرية الدهر في مواجهة مهزومة . ولكنه استطاع أن يحقق انفلاتاً شعورياً منها باللجوء إلى الله لجوءاً حاراً يقينياً باعثاً لأمل دافىء . فإن القوة الإلهية تمحو ما تشاء (٤ ـ ١٢) وبذلك تبدو الكارثة في يقين الإيمان عرضاً زائلاً :

وبارى العباد لطيف بهم فلا تؤيس النفس من لطفه
توسل إليه إذا الليل جن فيما دهاك وفي كشفه
يريحك من سجن دار البنود ويكفيك ما أنت مستكفه

وهذه المعاني القرآنية التي ملأت وجدان الشاعر جعلت الموت نفسه نعمة مسعدة مع رضا الله واختياره :

وإما بشرب حياض المنون فقد سلم العيش من خسفه

فأعطت هذه الحقيقة الإيمانية الشاعر ذخراً نفسياً مشجعاً هو الثقة . فانطلق في سائر القصيدة بتأثيرها من غير هبوط أو انتكاس وصار الموت ، على ما فيه من الرهبة ، عاجزاً عن أن يحدث في الشاعر تصاغراً ذاتياً إذ يعاني هذا التوتر النفسي المتوهج بالإيمان . ولذلك ألفى نفسه في موقف قادر فيه على الدفاع عن نفسه وعلى دحض الاتهام او الافتراء . وهذا الموقف هو منطلق الإثارة الوجدانية في القصيدة كلها . فقد اتهمه أحد رجال الدولة بالخيانة العظمى واستخلاص الملك لنفسه . وهو اتهام حاد قطع على التهامي ما كان يرجو قبل من النجاة . وبدافع من الألم الممض انبرى يعرض ما وجه إليه من اتهام بصراحة وتفصيل دقيق (١٣ ـ ٢٤) هو في الحقيقة رأي الحكم في جريرة الشاعر وفي شخصه ونواياه وفي صناعته . ثم مثل للوم من اتهمه وللدفاع عن نفسه (٢٥ ـ ٣٦) ، قال :

أرقت دما بعدما صنته وأشعلت جمرا ولم تطفه
لعمرك إن لبيب الرجا ل من كف أو غض من طرفه

وكم قائل سجنوه على تطلبه الملك من كهفه
أيطلب الملك من ليس منه ولا من بنيه ولا ضيفه
وليس سوى نكبات الزمان ورأي يضلك في ضعفه

وإذا أبدى الشاعر قوة في عرض الاتهام واللوم فلم يأت عنه دفاع قوي . وليس في نفيه عن نفسه الجدارة بالحكم مقنع على ما اعتمد عليه من البراهين الفنية .والحق ليس لديه قناعة ذاتية بضعف الجدارة بل هي قناعة لفظية . ولذلك جاء الدفاع قاصراً . وغلب عليه الإحساس بالإشراف على النهاية من غير انهيار أو تذلل ، فختم القصيدة ببيتين في وداع أهله وأحبابه في مكة وطنه البعيد . وكان الوداع الأخير .

وتسجل هذه الحبسية تقدماً في التحرر من كل ما هو تقليد أو سطحية وابتذال عرف به شعر التهامي . وتشهد له بمهارة متفوقة في توظيف الألفاظ توظيفاً يبلغ أقصى الدقة في التعبير عن الآلام والمخاوف ، وفي عرض الاتهام والدفاع ، وفي تصوير السخط والظلم في موقف إنساني بالغ التأثير والإيلام .

وأمثال هذه القصائد هي المؤشر الحقيقي لما كان متوقعاً للشعر العربي الوجداني وغير الوجداني من التطور لو أنه استوحى عفويته وصدقه الذاتي واستلهم واقع التجربة ، واستجاب للمشاعر الحرةوالإحساس المتفتح . إذن لتابع مسيرة حسنة متطورة غنية تواكب الاستحداث الفكري والحضاري .

والحق أن قيمة شعر السجن والأسر ينبع من هذه القصائد والمقطعات التي تستوعب التجارب المتحررة فنياً منحازة عن تلك التي خنقتها الرواسم واللفظية .

نماذج إضافية :

إذا صنفنا القصائد الوجدانية بالنظر إلى الشكل والتصميم الخارجي ميزنا منها نوعين أو ثلاثة .

وعرضنا للنوع الأول فعرفنا فيه العفوية والصدق والواقعية والتحرر من

اللفاظية تحرراً كان يستطيع أن يشق طريقاً للابتكار والتجديد الفني في اللغة والأطر لو لم تفرض الاتباعية القديمة ونظرة النقد المتزمتة قواعدها ذات الطابع الارتدادي .

أما النوع الثاني فأظهر سماته التعبير عن الوجدانية المضطرمة من خلال الإطار الموروث للقصيدة العمودية . فنلتقي في هذه الحبسيات بمطالع غزلية وبمشاهد الارتحال والصحراء إلى جانب الإفضاء الذاتي ورسم المواقف الخاصة بالشاعر الحبيس .

ومن الجدير التنبه إلى قدرة الشاعر أحياناً على تطويع الإطار التقليدي للتعبير الذاتي فيتسع لانفعالاته من غير أن تخفي وراء الغريب أو الصور التي جمدها التداول . وأحياناً إلى غلبة الشكل الإطاري والتعابير الجمودية على الانفعالية . ولا بد عند ذاك من جهد مضاعف لرصد الحركات الداخلية النفسية واستشفافها من وراء اللبوس اللفظي ذي القيم التعبيرية الثابتة .

فمن النمط الأول حبسية للقتال الكلابي هي في الحق تصوير حي لتجربة السجين الهارب الذي قتل سجانه وولى يتخفى في الصحراء(١) .

وقد نظمها في ثورة نفسية تتميز عراماً وغضباً أساسها الاختناق الروحي بين جدران السجن والتوق إلى الفلاة والحرية والناس . فانساحت في القصيدة كلها الانفعالية الغاضبة ووحدت بين أقسامها . وجعلت الأقسام ذات الشكل القديم عاجزة عن أن تحس العمل الداخلي بضعف وفتور .

ويتسم المطلع الغزلي (١ ـ ٣) بالألم . وليس صادراً عن عذاب الحب وإن استحضر الحبيب ، على عادة القدماء ، بالنداء الهامس القريب . فالألم ينم عن نزق وضيق وعذاب مستقر كان الغزل رمزاً له :

أميم أثيبي قبل جد التزيل   أثيبي بوصل أو بصرم معجل
أميم وقد حملت ما حمل امرؤ   وفي الصرم إحسان وإن لم ينول

---

(١) انظر القصيدة في ديوان القتال الكلابي : ص ٣١ .

وإني وذكــرى أم حيـان كـــالفتى　　　متى ما يذق طعم المدامة يجهـل

فالشاعر لا ينفث همومه تواً بل يختار إطاراً مسبق التصميم والصنع ـ إطار الغزل ـ معبأ بذاتية الانفعال الساخط والقلق المتفجر ، وكان أكثر حيوية في ملء الإطار بالمشاعر والأحاسيس الواقعية إذ تقدم خطوة أبعد في عمود الشعر فوصف الظعائن والأماكن والمحبوبة فاحتوى الإطار تفرجاً نفسياً متسعاً على ضيق مجال الشعر المحدود بالمسيرة الصحراوية وبالأمكنة . وأترع بالمشاعر الفيـاضة التي خامرت السجين الهارب وهو يتحسس الأرض الحرة والجواء الطليقة ، ويلتقي بالناس في الفلوات والفجاج في كل وجه ، ويعلو اليفاع يملأ عينيه من السهول والجبال ويرى الدنيا في هناء وسعادة كل قد أمن في سربه : الإنسان والوحش والطير . فيستشعر ما في الحرية والعودة إلى الأهل والديار والوطن من نعمة[1] . ولذلك لا ترد أسماء الأمكنة تعداداً جغرافياً جافاً بل هي مواقع في مجال التجربة المتوترة . وتبرز هذه الأسماء في بعض الأبيات حولها هالة من التوهج النفسي :

ألا حبــذا تلك الـديــار وأهلهــا　　　لـو أن عذابي بـالمدينـة ـ ينجلي

فالقتال في هذه القصيدة قد سخر عناصر الصحـراء والبداوة على فقـرها وجفـافها للتعبيـر عن أعمق المشاعـر ألمـاً . واستـطاع أن يؤلف مـا بين تلك العناصر لتصوير ما كان يحتاج إليه من دمـوع ليتخفف من آلامه وهـو تأليف لم يحل فيه الفقـر الثقافي بين الخيــال وبـين الإبداع . ولا بـأس في عرض هـذه الصورة الموسعة التي تفيد أن الشاعر بكى بكـاء حاراً لمـا أشرف على الأرض الفضاء :

بكيت بخلصي شنـة شـد فـوقهـا　　　على عجــل مستخلف لـم تبـلل
على شارف تعدو إذا مال ضفرهـا　　　عسيـر القيـاد صعبـة لم تـذلــل
جـديد كـلاهـا منهـج حجـراتهـا　　　فللمـاء سـح من طبـاب مشلشـل

---

(١) الأبيات : ٤ ـ ١٢ .

ولا بد من التنبه إلى الصلة النفسية الوثيقة ما بين الدموع وتهتان الماء من القربة على الناقة المندفعة في مسيرها .

والحق أنه مهارة فنية تستحق كثيراً من الإعجاب ذاك الإخضاع القادر للإطار المرسوم والألفاظ الصحراوية ليتسع للغضب الجياش والحنين .

واستطاع بالتوغل في مكامن المشاعر إلى ما وراء المؤرثات العاطفية أن يستجلي و جه محبوبته الفاتن ذات الشباب البكر وأن يراه على البعد قريباً منه يسطع في الظلام على ضوء النار . وقرب الرؤيا دلالة على خطور الذكرى خطوراً متواتراً وقد مس المشهد بلمسات فنية غاية في الدقة والتصوير الحي ، على سذاجة وسائل الفن ، فجاءت صورة فتاته تشع حياة ودفئاً وحنواً . وكنا فصلنا الحديث في هذا الجانب الغزلي وقيمته الرمزية والشعورية في غير هذاالمكان[1] (الأبيات : ١٣ ـ ١٨) .

ولا غضاضة على الشاعر في ألفاظ البداوة وعمودها التقليدي الذي اختاره للتعبير عن تجربته . ففي هذا واقعية أصيلة بين أسلوب النظم والشاعر الذي هو بدوي بحت لم يتأثر بطلاوة المدن . وفي هذا التوافق بين الطريقة وطبيعة الشاعر يكمن سر التفوق في التعبير عن عميق الانفعالات   فليس للتراكيب ولا للصور ولا للإطار ظلال كثيفة تحجب ما تحتها من حرارة التجربة بل هو الصياغة المنساقة لتيار الشعور فلم يكن ثمة انفصام بين تصوير المشاهد الصحراوية والحال الوجدانية . فجاءت القصيدة كلاً متكاملاً . ولهذا ختمها الشاعر بالقسم الذي تحدث فيه عن مأساته مع السجان في حبس المدينة إذ حمله اضطهاده له على قتله . وكان حديثاً مؤثراً ينضح ألماً (٢١ ـ ٢٨) . وهذا الألم الصريح هو الألم نفسه الذي استهل به القصيدة وسرى في كل بيت من أبياتها ولكن بأسلوب رامز .

---

(١) انظر البحث : ص ٤٩٣ .

ومن الواضح الآن أن الحركة النفسية في هذه القصيدة شبيهة بما لمسناه في قصائد النوع الأول : بوح ذاتي وتوجه نحو العالم الخارجي والذكريات والشكوى وتبرير الجريمة ثم الاعتداد بالنفس .

وهذا التوافق النفسي ناتج عن تماثل المواقف ذات التأثير الواحد فيصدر عنها ردود نفسية متشابهة لا تكاد تختلف في غير صور التعبير وأطره .

ومن النمط الثاني حبسية لأعشى همدان (٣٥ بيتاً) التزم فيها عمود الشعر التزاماً صارماً . ولم يكن أقل من القتال الكلابي معاناة لما في الأسر والحبس من محنة غير أنه تزمت في تطبيق الرواسم تزمتا جعله في وعي فني طغى على عفوية الشعور وما كان يمكن أن تحدثه من الإشعاع العاطفي في مشاهد الرحيل والنسيب والفخر التي تتابعت في ألفاظ مرصوفة رصفاً[1] .

واستهل أعشى همدان قصيدته باستدعاء صور الظعائن تجزع البوادي بين أمكنة سميت بأسمائها (١ ـ٤) ثم أخذ في الغزل موسعاً بعض التوسيع . ولم يفارق فيه تعداد مفاتن المرأة الظاعنة (٥ ـ ١٤) . وانكفأ فجأة يتصبر متأسياً ويشكو شكوى تنطوي على رجولة غير مدعاة (١٥ ـ ٢٢) ووصل ذلك بالفخار بمكارمه ومآثره ومواقفه التي عرفت له قبل الأسر (٢٣ ـ ٣٥) ويعد اتصال هذا القسم الأخير بما قبله منطقياً من الجانب النفسي .

ولا تعليل لالتزام الشاعر هذه النمطية المعروفة غير رغبته هو في الأخذ بهذا المنحى . ولعله كان يفكر بمن يسمعونه وراء الجبال والصحارى . وكان الأعشى يعرف أذواق الجماهير التي تعد أمثال المعلقات نماذج لا تدانى . فشغله الاهتمام بالشكل المرسوم عن الانسياق الطليق مع مشاعره . وفد حجّر واسعاً في النظام النمطي ولا سيما مطلع القصيدة (١ـ ١٤) على ما كان لأعشى همدان من تجربة غنية في معترك زاخر بالاضطراب السياسي والقبلي تفوق

---

(١) انظر القصيدة في ديوان أعشى همدان ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

تجارب شاعر كالقتال الكلابي[1]، وعلى ما أظهر من مهارة في الاستجابة لدواعي الموقف والأداء الواقعي في كثير من شعره[2] .

والذي أدرج هذه القصيدة في الوجدانيات ، على ما فيها من تصنع نمطي تختفي تحته نزعات النفس ، أنها وليدة إحساس بالصغار والهوان في تجربة ذاتية من تجارب الأسر . ولم يكن أعشى همدان رجلاً من الطغام بل كان شاعر قبيلة لها ميزانها في الأحداث[3] . وكان إبعاده عن العراق تخطيطا من السلطة[4] . وكان أسره سروراً للراغبين في الخلاص منه ، ومعرة عنده إذ نجح خصومه في تغييبه عن مسرح الأحداث . ولذلك جاء الفخر موسعاً تملؤه الادعاءات البطولية الأسطورية التي تجاوز فيها فرسان الغزو كعنترة وربيعة بن مكدم ـ حامي الظعينة ـ ولعل مواقف هؤلاء الأسطوريين كانت تحوم في خياله عندما قال :

فلئن أصابتني الحروب فربما ... أدعى إذا منع الرداف فأردف
وأغير غارات وأشهد مشهداً ... قلب الجبان به يطير ويرجف[5]

فكان الفخر معادلة نفسية لتكافىء الهوان والذل . فالمعاني البطولية في هذا القسم من القصيدة ـ على ما فيها من مبالغة ـ تصدر عن شعور يريد أن يتعالى حقاً على واقع الصغار . وإن التعالي الذاتي يحمي الأسرى والسجناء من

---

(١) إن هذا التعليل ـ إن كان مقبولاً ـ يضع أمامنا حقيقة كان لها أثر بارز في الاتجاهات الشعرية قرناً ونصف القرن ـ على الأقل ـ هو خضوع كبار الشعراء للرواسم والأنماط التي قدرها وقررها الجاهليون ورأى فيها النقاد والجمهور المعبر الوحيد لمن أراد أن يكون شاعراً مجيداً .

(٢) انظر البحث ص ٢٢١ وقصائده في ٢٢٤ .

(٣) كانت همدان مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته . انظر البحث ص ٢٢٣ .

(٤) فرض على أعشى همدان الذهاب الى مكرمان ، انظر البحث ص ٦٢ .

(٥) ديوان أعشى همدان : ٣٣٤ .

الانسحاق تحت وطأة النكبة . وهو موقف إنساني لا غضاضة فيه يلائم الروح القبلية المتمردة روح الصحراء .

ويمس الألفاظ في هذا القسم شيء من التسهل وإن احتفظت بضخامتها . ويكاد يهم الشاعر بالتعبير الواقعي لولا أشكال التعبير اللغوي التي فرضها الشاعر على نفسه . قال :

أصبحت رهنا للعداة مكبلا   أمسي وأصبح في الأداهم أرسف
بين القليسم فالقيول فحامن   فاللهزمين فمضجعي متكنف
فجبال ويمة لا تزال منيعة   يا ليت أن جبال ويمة تنسف

فهذه الأبيات وما قبلها تصف أزمة نفسية حقة يجهد الشاعر في التعبير عنها ، وتكاد تنفلت تحت تأثير الانفعال الداخلي : « يا ليت أن جبال ويمة تنسف » لولا رقابة نمطية يقظة ترد الشاعر إلى التعبير الاتباعي .

ويظهر بادىء بدء أن ليس في القسم الأول ما يشجع على اكتشاف شيء ذاتي سوى التشوق الذي طمسه منظر الارتحال التقليدي بلفظية جامدة لا تبض بشيء . وأما الغزل فلا يعدو تعداداً لمفاتن المرأة الجسدية وجمالها الخارجي يتوالى في صور سريعة مسبقة الصنع استطاع الشاعر أن يؤلف منها تمثالاً غير واقعي لفينوس البداة . ولا شك أن وراء هذا التفصيل والتجميع في الجمال الجسدي المادي شهوية غريزية تعمل عملها الخفي في شعر هذا الأسير ، فيكون دلالة على كبت جنسي لا تنكره أحوال الأسرى والمحبسين .

ولكن يجب ألا تحول نمطية التعبير والقوالب المحتذاة بيننا وبين تجربة الشاعر الأسير . فهو قد اختارها لتسع مشاعره ونظراته وأبعاد تجربته . وعلينا أن نتلمحها فيما يبدو لنا أطراً وألفاظاً جوامد ، وأن نكتشف ما وراءها من دلالات نفسيه .

فنشيد الارتحال مشهد تقليدي ولكن دلالته العاطفية كبيرة فهو تعبير عن الشوق إلى الأرض والقوم أي عن الحس الاجتماعي الغافي في أعماق الأسير

الذي يستقيظ في أزمات الاغتراب صوراً للأوطان والأحبة متواصلة الورود . ولياذ الشاعر بالذكريات يمنحه قوة معنوية لهـا شأنهـا في تماسـك الأسير . فـالإطار التقليدي ، في الحق ، وسع ما بين حدوده انفعالات الشوق ورعشات النفس التي يعين النظر الدقيق على تمييزها . ولنقرأ البيت الأول :

لمن الـظعـائن سيـرهن تـرجف عـوم السفين إذا تقعس مجـدف

ولندع البراعة في الجمع ما بين الصحراء والبحر في مشهد واحـد . فهو مما عرفته أشعار الأقدمين ، ولنمعن النظر في الحركة التي اختارها للنوق وهي حركة أقرب إلى التوقف قارنها بحركة السفينة التي ضعف مجدفهـا عن الدفـع بها . هذه الحركة البـطيئة هي الـظل النفسي للشاعـر الأسير . فهـو عائم على سطح الأيام لا يتحرك يستشعر الزمن يمر به بطيئاً . فألقى هذا الشعور على منظر الظعائن .

ومن ثم يجب أن ننظر الى مكنونات الألفاظ في إطار البيئة والعصر ، فإن كثيراً من إشعاعاتها الفكرية والعاطفية قـد لا تبقى على المدى الـطويل . وقـد يصبح بعضها جمودياً . ولا نكران أن كثيراً من الألفـاظ التي لا تحرك فينـا اليوم شيئاً كثيراً كانت رمزاً فيه الكثير من الإشعاع والإيحاء لأولئك البداة . فالظعائن والحمـول والهوادج والنخـل وأسماء الأمكنـة وأنواع الثيـاب كلهـا كـانت ذات محتوى عاطفي يفوق محتواها المعجمي . وعلى الناقد أن يستلهم عصر هؤلاء الشعراء ويستوحي ألفاظهم هذه حتى لا يقف البعـد والتقليد بينـه وبين تجربـة الشاعر . فـالحقيقة المؤكـدة أن هؤلاء الشعراء عبـروا بالألفـاظ التقليديـة عن مشاعر حية . وكانت قادرة على تصوير أحاسيسهم ونقلها للآخرين . ولكنها لم تستطع أن تحتفظ بالقيم العاطفية والفكريةعلى مدى العصور للانفصـال الزمني والحضاري . وكل ما بقي منها هو المعنى الأصلي الموضوعي أما ما يلتف حول جذم المعنى من المشاعر ـ وهو ما لا تستطيع المعاجم أن تضبـطه ـ فقد يغيب عن القراءة والمطالعة العابرة .

ومع ذلك فالقصيدة تحتفظ بقيمتها الذاتية فإن عناصرها تتوالى في اتساق نفسي وفني معاً وهي ترسم خطاً بيانياً لحركة نفسية تأخذ في تصاعد منتظم عند شاعر أسير نظر من محبسه إلى الآفاق فانهالت عليه ذكريات الوطن ، وأحس بحاجة نفسه إلى المرأة ، وانتابه شعور بالحرمان والذل ، فصدرت عنه ردود فعل نفسية متعالية .

ولو شاء الشاعر أن يتجافى عن « النمطية » لاستطاع ولكنه ـ كما ذكرنا أول ـ كان راغباً في إخراج شكل أدبي له طابع رسمي هو الإطار العمودي[1] .

أما النوع الثالث من الحبسيات الوجدانية فهو نمط غزلي خالص . ونستطيع أن نعرض حبسيتين من العصر الأموي : الأولى لطهمان بن عمرو الكلابي والأخرى للسمهري بن بشر العكلي ، وكلاهما من اللصوص .

وليس بين الغزل في هاتين القصيدتين وغزل شعراء الحجاز مثل عمر بن ابي ربيعة وجميل بثينة توافق جوهري نفسياً وفنياً . وإنما هو بوح ذاتي محض .

ولا يمكن الاطمئنان كلياً إلى قصيدة طهمان بن عمرو والكلابي في النسق والعدد الذي ودت فيهما في (منتهى الطلب)[2] . فهي بحاجة إلى عملية توثيق وإعادة بناء ورد العناصر المستعارة إلى أصحابها . فالقصيدة تبدو ملفقة من عدة قصائد عذرية الغزل شعراؤ ها عشاق من شهداء الحب والتقاليد (كالأبيات ٧ ـ

---

(١) نستطيع أن نرى محاولات قريبة من النمطية التقليدية في حبسيات ظهرت في القرنين الثالث والرابع . فقد استهلت كثير من حبسيات إبراهيم بن المدبر الذاتية (الأغاني ١١٥/١٩) وروميات أبي فراس الحمداني بالغزل . وإنا إذ نفقد فيها الإطار البدوي وألفاظ الصحراء لانزال أمام جزء من هذا الإطار هو النسيب والغزل وبين يدي لفظية مستحدثة هي ألفاظ الغزل الحضري وصوره القديمة والمحدثة ، استعيض بها عن ألفاظ الصحراء .

(٢) منتهى الطلب : ٢٦٤/٢ . ومطلعها :

سقى دار ليلى بالرقاشين مسبل ... مهيب بأعناق الغمام دفوق

١١) . والبيت (١٦) في مقطوعة ليزيد بن مفرغ الحميري . وصباغ هذه الأبيات النفسي يقضي بإخراجها من القصيدة . ففيها تعلق مرضي بالمعشوق وانهزامية لا توافق القسم الأخير من القصيدة إذ يكشف عن فارس ذي مراس وتجربة ، له في الحياة موقف ورأي ومذهب ، يأبى الخضوع والاستسلام .

وتنشأ القصيدة من انبثاق ذاتي يجري على نمط تقليدي في أسلوب الدعاء وفي الألفاظ والصور . فالدعاء بالسقيا لديار المحبوبة ، وهو عنصر ذاتي ، يستدعي مشاهد السحاب والبرق والمطر . فهي تتلاحق للتعبير عن حال نفسية معينة . ويقاس الكم الشعوري من خلال هذه المعطيات الحسية .

وينم الغزل عن تعلق روحي متين بالمحبوب . ولذلك يهجر كلياً الأوصاف الخارجية والمادية . وما هو إلا البوح بذات النفس والتوق للتواصل من وراء الأسوار (البيت ١٨) وهو توق ملح يبرهن على صدقه في الحفاظ على المحبوب وصيانة كرامته (الأبيات ١٢ و ١٤ و ١٧) . أما الشكوى من واقع السجن فتتصل بالعذاب النفسي المتفجر من الحرمان والبعد . قال :

ألا طرقت ليلى على نأي دارها وليلى على شحط المزار طروق
أسيراً يعض القيد ساقيه فيهما من الحلق السمر اللطاف وثيق

وتتمازج في هذين البيتين ألوان الواقع بالحالة النفسية ويعبر عنهما بالمألوف من أساليب الشعر التقليدي . وتشبث الشاعر بهذه الأساليب يعلل انسياب الشاعر في وصف البعاد إلى الصحراء وطيرها وسرابها والناقة (الأبيات ٢٠ ـ ٢٥) . ولعل الشاعر كان يجد هذه الأساليب أسهل مأخذاً أو كان يعتمد النمطية دلالة على القدرة الفنية . وفي كلا الاحتمالين شيء من الحقيقة وأيا كانت الأسباب فالشاعر كان يخزن مشاعره في تلك الأنماط التعبيرية .

ولعل الغزل الروحي المحض وبعده عن أي حس جنسي أو شهوي يضعنا أمام تفسير راجح الاحتمال : هو أن الغزل بالمرأة « ليلى » هو رمز إذ كانت هي الكيان الذي لاذ به الشاعر لياذاً تاماً . فلعل ليلى هي قبيلته التي فصلته وهجرته

وتركته لقدره . فالشعراء اعتادوا أن يـرمزوا إلى مشـاعرهم وأفكـارهم بالتعـابير والصور التقليدية . ولهذا يتصدى الشاعر للدفاع عن مذهبه ولصوصيته وصعلكته بعض الدفاع .

ومن هذا الجانب تعد القصيدة ذات وحدة نفسية وفنية على تنوع المشاهد البدوية . وهي صدى لضغط التقاليد الاجتماعية والأوضاع المعيشية على بعض الأقوياء الذين ينتهجون منهجاً خاصاً يدافعون عنه في قنـاعة وجـدانية اتخـذت أسلوب الغزل . في أولها ـ رمزاً لها .

وتستـوضـح هـذه الـرمـزيـة في حبسيـة السمهـري بن بشـر العكلي أتم استيضاح . فالإحساس بالمواقع والفواصل ـ وهي الحبس ـ وبعداء القبيلة التي خلعت شاعرها يرمز إليه المطلع رمزاً جلياً :

ألا حي ليلى قـد ألم لمـامهـا　　　وكيف مع القوم الأعادي كلامها
تعلل بليلى إنمـا أنت هـامــة　　　من الهام يدنو كل يوم حمامها
وبادر بليلى أوبة الـركب إنهم　　　متى يرجعوا يحرم عليك لمامها
وكيف أحييها وقد نـذروا دمي　　　وأقسم أقوام مخوف قسـامها [1]
لأجتنبنهـــــا أو ليـبتـــدرنـنـي　　　ببيض عليها الأثر فقم كـلامها

ويملأ نفس الشاعر شعور بالخوف من الضياع والانقطاع . فكان في حياته قطب جاذب لكيانه النفسي هو « ليلى » اتصاله بها هو الحياة وانفصامه عنها هو الموت. ولعل « ليلى » هذه أكثر من امرأة وأعظم . والأرجح أنها هي قومه الذين يريد حمايتهم له واعتِرافهم به ورد الاعتبار إليه كيلا يبقى سجيناً مضاعاً . وكان للنفوذ القبلي شأنه في تخليص السجين . ولا يخفى الخوف من السلطة في مثل قوله :

وكيف أحييها وقد نـذروا دمي　　　وأقسم أقـوام مخوف قسـامهـا

---

(١) منتهى الطلب : ٢/ ٢٦٠ .

ولا تخفى الزيارات المستورة التي كان يلم بها بذويه في غفلة عن أعين عرفاء القبلية :

وبادر بليلى أوبة الركب إنهم ... متى يرجعوا يحرم عليك لمامها

وتقدم هذه القصيدة المفاتيح لدراسة نفسية السجين الذي يستبطن الهواجس والمخاوف والرغبات في اللاشعور ، فتتجسد في الرؤ ى أو أحلام اليقظة صوراً متكاملة يرمز كل عنصر فيها إلى نوع من المكابدة الداخلية ويشع قبساً كشافاً لمكنونات النفس المتداخلة من الآلام والتطلعات . وسهل في اللوحة التالية تمييز التوق إلى التواصل مرموزاً إليه بالطيف ، والخوف مرموزاً إليه بوحشة الصحراء وظلامها وأشباحها المفزعة :

لقد طرقت ليلى ورجلي رهينة ... فماراعني في السجن الإ سلامها
فلما ارتفقت للخيال الذي سرى ... إذا الأرض قفر قد علاها قتامها
فقلت نساء الجن هولنها لنا ... ليحزن عينا ما يجف سجامها[1]

وتشف القصيدة كلها عن توق حار صادر عن حرمان حارق ، ويرهف به إحساس الشاعر إرهافاً يخترق حجاب الفناء إلى سرمدية البقاء في تعبير ساذج فطري ولكنه نابض بعنفوان الألم والأمل في معايشة مصيرية لمن أحبهم :

ألا ليتنا نحيا جميعاً بغبطة ... وتبلى عظامي حين تبلى عظامها
كذلك ما كان المحبون قبلنا ... إذا مات موتاها تزاور هامها

ونستشف بعض الرغبات المكنونة في الانسراح الخيالي على ظهر المطية في ظلام الصحراء . وهو تعبير عن خروج لا شعوري من السجن إلى الميدان الطليق الذي أخذ منه الشاعر .

وبذلك يتبين أن القصيدة ذات وحدة فنية نفسية تنتظمها حركة ذاتية داخلية واحدة ، فينشأ الشعور وينمو نمواً طبيعياً منطقياً . ونجح أسلوب الغزل العفوي

---

(١) الأبيات : ٦ - ٨ .

في إيصال المشاعر إلى الآخرين على ما بدا فيه من سذاجة بدوية . وحملت الألفاظ والصور والأخيلة طاقات إشعاعية رامزة لخفي الأحاسيس والمرامي النفسية .

المقطوعات وقصار القصائد

نوجز الحديث عن هذا النوع من شعر الحبس إذ تقدم في أغراض الشعر وموضوعاته نماذج أو إشارات إلى العديد منه ، وعرف الكثير من خصائصه في تلك المواضع .

المقـطوعـــات :

ولعل المقطوعات أكثر ما نظم في الأسر والحبوس وهي موافقة للخواطر والمشاعر التي تلم بالسجين فيصوغها في أبيات موجزة معبرة واضحة الغرض . وقد نظم منها المغمورون والمشهورون من الشعراء[1] .

وبين أيدينا من العصر الجاهلي وحده عدد يربو على العشرين . ولا شك أن ما طواه النسيان وما أهمله التدوين منها لا حصر له . فهذا الضرب من الشعر تهتف به النفوس المتألمة في المواقف الحرجة أو اليائسة عفو البديهة بدافع الخوف والرهبة أو الرغبة والرجاء أو الأسى الممض . وما أكثر ما يصدر من الشعر في مثل هذه المواقف قديماً وحديثاً وما أقل ما يبقى منه . أما في العصور الإسلامية فالمقطوعات أكثر نتاج شعر السجن والأسر . ولو جمعت لكانت ديواناً غير يسير

---

(١) انظر المقطوعات لجويرية بن بدر (النقائض : ٣٠٨/١) ولأسير من بني يربوع ، (ابن الأثير : ٣٦٦/١) وللبراء بن قيس (معجم البلدان : مجدل) ولحجر بن خالد بن محمود بن مرثد (حماسة أبي تمام - التبريزي - : ١٨٣/١ - ١٨٤) وقيس بن مسعود (الأغاني : ١٣٣/٢٠) وقيس بن العيزارة الهزلي (معجم البلدان : راية) ولقيسبة بن كلثوم (الأغاني : ١٢٥/١١) ولقيس بن الحدادية (الأغاني : ٥/١٣) ولمتمم بن نويرة (كتاب الاختيارين - الأخفش الأصغر : ص ٤٥١ ، دمشق ١٩٧٤) .

ومن البحث الصفحات ٢٨ و٥٣ و٨٠ و٦٥٦ .

الحجم . وحسبنا أن نجدها عند كبار الشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية وابن المعتز والمتنبي والمعتمد بن عباد وغيرهم كإبراهيم بن المهدي والوزير المصحفي والشاعر الأندلسي محمد بن مسعود [1] . ناهيك عمن لا يعدون في المشهورين من الشعراء .

وجاءت هذه المقطوعات في الأغراض المعتبرة التي عرضت لها قصار القصائد وكبارها من العتاب والاستعطاف والتوسل والتضرع والتحذير والتحدي ، ووصف الأشواق ، والأحزان ونكد الحبس ومساوئه وتصرف الأقدار وتغير الأحوال .

وأظهر ما يميز المقطوعات أنها تنبثق انبثاقاً حراً بتأثير المعاناة والضغوط المرهقة على النفس ، فهي كدفقة المطر من السحاب تهل إذا أثقل وتحتبس إذا خف . فتبدأ إذ بلغ التأزم الشعوري أقصاه وتتوقف فجأة إذا أفرخ . وفي الأبيات الأربعة التالية صورة نفسية لهذا التأزم عندما بلغ أبو نواس أقصى الحنق من سوء معاملة سجانه له فقال :

وقيت بي الردى زدني قيوداً وثن علي سوطاً أو عموداً
ووكل بي وبالأبواب دوني من الرقباء شيطاناً مريداً
وأعف مسامعي من صوت رجسر ثقيل شخصه يدعى سعيداً
فقد ترك الحديد علي ريشا وأوقر بغضه قلبي حديدا [2] .

ومن مزاياها أنها على أيجازها تصل إلى غرضها توا في منحى من القول يجمع الأفكار في تركيز وتوجيه مباشر نحو الهدف فإذا بضعة الأبيات تحوي من مضمون الفكر والشعور ما لا تقل عن جملة قصيدة في موضوعها . وهل تبلغ قصيدة كبيرة في التظلم من الأثر فوق ما تحققه الأبيات التالية التي رفعها محمد بن مسعود إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر :

---

(١) انظر البحث : أغراض الشعر : ص ٤٥١ .
(٢) ديوان أبي نواس : ٤٥٤ .

دعوت لما عيل صبري فهل يسمع شكواي المليك الحليم
مولاي مولاي ألا عطفة تذهب عني بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذي زخرفوا عني فدعني للقدير الرحيم
فعنده نزاعة للشوى وعنده الفردوس ذات النعيم(1)

والحق أن هذه المقطوعات ذات قيمة فنية ممتازة فهي لباب التجربة النفسية ذات غنى ظاهر ، تبرأ من التصنع الفني ، فينطلق فيها التعبير رسلاً سهلاً شفافاً موحياً :

كل لفظة فيها جوهر مشع لا يعتاض عنها بغيرها . وهذه الخاصة حظ مشترك بينها جميعاً واضحاً فيما أوردنا وتزداد وضوحاً في هذه المقطوعة التي تشوق فيها أبو فراس وهو أسير إلى أهله وبلاده .

يا ليل ما أغفل عما بي حبائبي فيك وأحبابي
يا ليل نام الناس عن موجع ناء على مضجعه نابي
هبت له ريح شآمية متت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات حبيب لنا فهمتها من بين أحباب(2)

ولما كانت هذه المقطوعات صادرة عن المعاناة الحق والتجربة الشعورية الخالصة فقد استوى التفوق فيها بين صغار الشعراء ـ أو الذين لم ينظموا إلا في موقف الأسر والسجن ـ وبين كبارهم وحققوا في التآلف بين المشاعر والرغبات براعة محمودة . وظفر بعضهم ، بحريتهم من جراء هذه البراعة(3) ويحسن أن تذكر أبياتاً وردت في غير هذا الموضع(4) لأعرابي جاهلي ، هي :

---

(1) نفح الطيب : ٤/ ٣٥٩ .
(2) ديوان أبي فراس : ١/ ٥٢ .
(3) انظر البحث ص ٥٥ .
(4) انظر البحث : الموضع نفسه .

فـدى بـوالـدة عـلي شفيقـة　　فكـأنها حـرض عـلى الأسقـام
لـو أنها علمت فيسكن جأشهـا　　أني سقطت على الفتى المنعـام
إن الـذي تـرجـين ثم إيـابـه　　سقط العشـاء بـه عـلى بسـطام
سقط العشـاء بـه عـلى متنعم　　سمح اليدين معـاود الإقدام[(١)]

ويحق لرواة الأدب تناقل هذه الأبيات إذ أعجبوا بما فيها من عاطفة إنسانية عفوية تنساب في الألفاظ الرخية ذات الإشعاع الحنون (والدة شفيقة ـ مريضة) وبالمهارة الفائقة التي عقـدت بين مخـاوف أمه وسجـايا الآسـر الكريم كـما أعجبوا بتحويل التركيب الذي يوحي بالخوف والشر[(٢)] (سقط العشاء به على بسطام) إلى تركيب يملؤه الرجاء والخير . فكانت قطعة غنائية مشحونة بالمشاعر النبيلة والأمل الطيب والتوسم الجميل مع إبـاء نفس وثقة ، ففـاضت حيويـة وصدقـاً في تعبير شريف .

قصار القصائـــــد :

ويراد بها القصائد التي لا تقل عن سبعة أبيات ولا تزيـد على العشـرين . ومعظم ماحوته الكتب والدواوين منها . فهي تفوق المقطوعـات وطوال القصـائد عداً . ومن هذا الضرب أكثر ما نظمه في الحبس أبو نواس وأبو العتاهية وكذلك علي بن الجهم وإبراهيم بن المدبر باستثناء بعض قصائدهما . ويدخل فيه كـل ما قاله المعتمد بن عباد في أسره إلى شعراء كـثر آخرين وفيـما مضى من حديث عن أغراض الشعر ما يشهد بحجمه الضخم[(٣)] .

وهنـاك يجد القـاريء كثيراً من خصـائص هذا الشعـر قد أشـرنا إليهـا في

---

(١) ابن الأثير : ١/٣٦٦ .

(٢) من أمثال العرب : سقط العشاء به على سرحان ، إذا ذهب في طلب أمر فسقط في داهية .

(٣) البحث ص ٤٥١ وما بعدها .

مـواضع متفـرقة . وفي هـذا الحيّز نـوضح أظهـر مزايـاه مقتصرين على بعض القصائد من بيئات زمانية ومكانية مختلفة وذات مواقف متنوعة .

وأول سيمـات القصائـد القصيرة في أدب السجن أنها تجمـع بين فضـائل المقطوعة والقصيدة الطويلة : تركيز للغرض وإشباع له معاً . ولكنه تركيز في غير اقتصاد وإشباع من غير إسراف فالقصيدة تسع تجربـة الشاعـر من جميع أطـرافها منسقة في إطار تنسيقاً يوائم تماوج الانفعال صعوداً وهبوطاً من غير تشعبات جانبية في أطر تقليدية من شأنها أن تشتت الحركة النفسية وتنشرها في رقعة واسعة متعا دة المشاهدوالصور.ولنوضح هذه الحقيقة ، بقصيدة بدوية تقارن بواحدة في موضوعها من المطولات . وهي قصيدة من أربعة عشر بيتـاً من بوادي الجـزيرة العـربية في العصر الأموي قالها أعرابي شديد المراس ضالع في الفتن القبليـة ، قبض عليه وحمل إلى الشام سجيناً فلما علم أنه مقتول بجرائره قال(١) :

ألا يا غراب البين أسمعت فـاربع	وطر بالذي قد حم ويحك ، أو قعْ
فـطار بتحقيـق وجـدت بعـبـرة	أتاها رشاش العين من كل مـدفع
فليس ليـالينـا بـطخفـة والحمى	بمـرتجعات فـابـك شجـوك أودع
إذا أم سـرياح غـدت في ظعـائن	جوالس نجداً فاضت العين تدمع
فبلغ بني عمـرو سـلامـاً ورحمـة	بـآيات شـداتي إذا الخيـل تقـدع
بـآيـة أني لم أكـن قـد علمتم	أهلل عن ضـرب الكمي المقنـع
فقد كنت أعطيكم طريفي وتالدي	وأدفـع عن أحسابكم كـل مـدفـع
فلا تخشعوا للقوم من خشية الردى	لكـل امرىء يـوماً حمـام ومصرع
وإني لأخشى من رجـال تـركتهم	ورائي أن يعطوا الذي كنت أمنـع
فإن يك ظني بالحجازي صـادقي	يـقـاتـلهـم فـرداً ولا يـتـخـشـع
ويسقيهم كـأسـاً من المـوت مـرة	كمـا قـد سـقـوه مثلهـا فتضلع
ولمـا دخلت السجن أيقنت أنـه	هـو البين لا بين النوى ثم يجمـع

(١) هو دراج بن زرعة . انظر خبره في ص ١٦٥ والنقائض : ٢/٩٣١ .

وما السوط أبكاني ولا السجن شفني ولكنني من رهبة المـوت أجــزع

وتدفقت هذه الأبيات من شعور موّار لم ينحرف عن مجراه في مسارب فرعية تذهب بوحدته وحدته . وهذا الشعور هو استرهاب الموت والتسليم له تسليماً بائساً لا ينفذ إليه شعاع من رجاء . وكان « غراب البين » رمزاً لهذه الحقيقة السوداء التي استثارت دموعه رشاشاً وهو يتعمق موقف الزوال القريب :

فـطار بتحقيق وجـدت بعبـرة أتاها رشاش العين من كل مدفع
فليس ليـالينا بـطخفـة والحمى بمرتجعات فـابك شجـوك أودع

وبـذلك بـدأت القصيدة بـالدمـوع الغزار وبهـا انتهت لصدورهـا من نبع حزين . وما بين طرفيها كانت الذكريات والفخار الذاتي والوصايا البطولية لصيانة الشرف القبلي صادرة كلها من النبع نفسه . فالرجل ـ وقد غمرته روح العشيرية ـ عاش لقضية كبـرى وهي عزة العشيـرة ومن أجلها لقي المـوت . ولذلـك يتطور الشعور البائس الحزين إلى قسوة مرة وصبر عنيد لا ينفصل عن الطبيعة البدوية ولا يعارض العواطف الإنسانية الآسية لفراق الحياة .

وأدى الشاعر كل ما أراد أن يبوح ويوصي ويتعلل بـه في انتفاضــة نفسية بالغة أقصى درجات التوتر . وتوالت الأفكار والصور والمشاعر يلد بعضها بعضاً فجاءت كل منها في مستقرها لو زعزعت أو انتزعت تشـوهت وحدة الأبيـات . والحق أن قوة الاتجاه نحو الهدف منح الأبيات الوحدة والاتساق وباعدها عمـا كان ممكناً أن يعوق حركتها من الصور الإضافية والتفرعات .

ويدعم هذا التقويم مقارنة هذه الأبيات بحبسية قبلية للخطيم المحـرزي في مثل موضوعها وأغـراضها ، لم يكن صـاحبها أحـدّ شعوراً ولا أعـظم ولاء للقبيلة ولا أشد اندفـاعاً في خصـوماتهـا ، ولكنه نشـر مشاعـره في (٦٤) بيتاً فذهبت في مسارب الغزل وإطراء الصديق ووصف الناقة والصحراء فعامت هذه

الأغراض الجانبية على وحدة الهدف وأورثته بطئاً أشبه بالشتات [1] .

وكان للشعور الحاد المتحد أثره في الأسلوب فالقصيدة على ما فيها من صباغ البادية في الصور (غراب البين ـ الظعائن) والأماكن (طخفة الحمى ـ نجد) والقيم (الشدات ـ ضرب الكمي ـ الأحساب) وعلى جزالتها وضخامة جرسها فإن الشعور المتدفق شحن الألفاظ والتراكيب بطاقة تعبيرية قادرة على نقل انفعالات الشاعر وتجربته عبر العصور لا تظلم منه شيئاً .

وبذلك تؤدي القصيدة القصيرة من قصائد الحبس الغرض الذي تؤديه المطولة في تصميم واتساق موجه قد لا نظفر بمثله في القصائد الطوال .

ولم يأخذ هذا الضرب من القصائد بتطور مذكور على توالي عصور الأدب إلا ما كان من تلونه بألوان المواقف والبيئة والذوق الفني . أما الإطار والهدف ـ وهما التعبير في غير إيجاز ولا إسراف عن التجربة ـ النفسية تعبيراً مباشراً ـ فكانا ، الطابع المشترك بينها جميعاً .

ومن المفيد أن نزيد هذه الخاصة وضوحاً بمثال آخر خرج من بيئة حضارية مغرقة في الترف ومن القرن الرابع الهجري أزهى العصور ثقافة وتأنقاً وقائله خليفة [2] عاش في قمةأحداث عصره من ثورات وانقلابات سياسية واجتماعية وخاض ضروب الدسائس والمؤمرات بين القوى المتنازعة على النفوذ والسلطة ثم غلبته فهوى إلى الحبس ـ كما هوى قبله أبوه وغيرهما من الخلفاء ـ وانقطع عن العز والسلطان ، فلا ناصر له . وهان على أعدائه هوانا يستحق الرثاء فترك في حبوسهم لا يؤبه به كرجل من السوقة . فذاق العيش في طعميه : حلوه الهني ومره الشنيع . والقصيدة التي لم تزد على اثني عشر بيتاً وليدة الأقطاب النفسية المتنافرة من العزة والذل والهناء والشقاء ، والقوة

---

(١) انظر دراسة الحبسية القبلية ص ٦٠٤ .

(٢) هو الخليفة الراضي بالله (× ٣٢٩) ، انظر المسعودي في التنبيه والإشراف : ٣٣٦ .

والضعف ، والملك والحبس . قال[1] :

فقدت الهوى وعدمت الودودا وأبلى الجديدان مني الجديدا
وقد كنت دهراً أطيع الهوى وأجري مع اللهو شأوا بعيدا
فحرّمت كاسي على لذّتي وأزمعت كل وصال صدودا
أَبَعْدَ إمام الهدى أبتغي سُلوّا وأملأ طرفي هجودا[2]
وقد قتلته العدىٰ غرّة وما صادفت منه عبداً عتيدا
كأن لم يكن قطُّ في جحفل تُحير الردىٰ وتجُدُّ الجنودا
يعز عليه وأنّى به يَراني لفضلي أسيراً فريدا
تُباشرني ضَيّقات الحبوس وأُحْسَبُ من غير فقد فقيدا
وكنت به مالكا للزمان أَسر الصديق وأشجي الحسودا
فأفرشت خدّي لوَطْءِ العدى وأفرش أهلي لأجلي خدودا
وعرّفني فقدُه النائباتِ وذلّل مني صَعْبا جليدا
فياليت ركباً الينا نعَوْه نعَوْنا إليه ونال الخلودا

ومن البين أن الشاعر عانى تجربة على جانب من الخطورة إن لم تكن أعظمَ التجارب في وجود الإنسان : وهي تجربة سقوط الإنسان السقوط الأخير وانسحاقُه تحت وطأة الأحداث : إنها قصة هوان الانسان وتفاهته عندما يغدوفريسة سهلة المأخذ بمخالب الآخرين ، ويغدو من حوله وحوشاً مُمْعنة في الفتك لا ترى غيرَ ذاتِها ، ولا تلتفت لغير نزواتها وغرائزها ، فتستهين بالقيم جميعاً : وأَوّلها وآخرها إنسانية الإنسان . فلا يَبْقى هو في حسابِها شَيْئاً مذكوراً ، ويُداس ويُطوى وجودُه في ظُلماتِ القوة الغاشمة . ودليل هذا السقوط والانسحاق ذاك الاستسلام الطيّع الوادع للقوى الغالبة . ولئن مازجه الأسى والأسف والألم لقد كان بعيداً عن أدنى درجات الرَّفضْ ، وهو الاعتراض ،

---

(١) انظر الصولي : أشعار أولاد الخلفاء . أخبار الراضي بالله : (ص ١٦٦ ـ ١٦٧) .

(٢) امام الهدى : يريد اباه .

فكيف النقمةُ والثورة . إن الشـاعر أسيـر قَدرِه لا ينقم ولا يسخط ولا يتـوعد . وكان قدره هـو عصره الـذي لا ينفع فيـه الوعيـد ولا يجدى فيـه الاسترحـام . فالغالب قاهر والمغلوب ضائع مأكول . فـاعتادت النفـوس أن تخنع وأن تخنق صوت الرفض والاعتـراض . وإن كان في الأبيـات احتجاج في آهـات الحزن فهو احتجاج في آهـات الحزن والـدموع والتضـرع ، خال من الأنفـة والحمية والسخط الغضوب .

وبذلك تكشف هذه القصيدة القصيرة عن فائدة كبرى من خلال التجربة النفسية الضخمة ، وهي نضوب النفوس من معين القوة والرجولة . وقد رأينا من قبل شاعر العصر الأموي يبكي رهبة من الموت ولكنه لم يسقط ولم يتعفـر في التراب . ولقد انتفض انتفـاضة النسر وهو يذكر مواقفه واعداءه والواجب القبلي .

ومن ثم تعد مثل هذه القصيدة من الجانبين الفني والتاريخي على حظ من القيمة . فهي ، في أبيات قليلة ، صورة بليغة للإنسان والأحداث . ولقد تومض ألفاظها المحدودة إيماضاً خاطفاً ينير ، معاً ، أغوراً نفسية وظروفاً تاريخيـة في جلاءٍ ودقة :

تُبـاشـرُني ضيقـات الحبـوس ... وأُحْسَبُ من غيـر فقـد فقيـدا
فـأَفْرشت خـدّي لـوطْءِ العـدا ... وأَفـرش أهلي لأجلي خـدودا

وقد بلغ الشاعر هدفه في الأبيات وهو الإدلاء المباشر السريـع بالآلام . فـاطلعنا على حقيقـة نفسه وأحـوال عصره . وهـذا هـو الـطابـع الأهم لقصـارِ القصائد .

وقد نوهنا من قبل أنها تضع القارىء أمام الهدف المباشر . فإذا قارناهـا بحبسية لابن المعتز ـ في الظروف النفسية والسياسية نفسها وفي الموقف ذاته ـ عرفنا فضل هذه القصائد الصغيرة . ففي حبسية ابن المعتز ـ لا شك ـ رحابة ، وغزارة افكار ، وصـور ، وغنى لفظي واسلوبي ، ولكن الحـركة النفسيـة تكاد تتبدد في وصف الناقة والفرس والبيد والجيوش الجرارة[1] .

---

(١) بلغت (٤٤) بيتاً درسناها في الحبسيات الوجدانية انظر ص ٦٢١ .

أما ما امتازت به الأبيات من ألفاظ رقيقة مأنوسة ، وتراكيب ثرية وأساليب متنوعة انسابت مع حركات الشعور فهو من أثر العصر الذي بعد عهده بالبداوة ، ومن جراء صدق التجربة التي تخلت عن تعمد البديع الذي كان سمة العصر إلا ما جاء منه عفواً هيّناً في ركاب الأفكار والوصف .

خصائص الاسلوب

لم نغفل في الحديث عن أغراض الشعر وأنواعه الإشارة الى سمات الأسلوب البارزة للمقطوعات والقصائد التي تناولناها بالتحليل . ونوجز في هذا الحيّز أظهر خصائص الأسلوب في شعر السجن ملمومة منسقة .وهي ،وان لم تكن مختصة به وحده دون سائر الشعر العربي ، تعد ـ عند التقويم ـ أولى مزاياه وأشهرها .

الصـــدق :

إذا استثنينا قصائد المدح التي فصلنا القول في الظروف والملابسات النفسية العديدة التي رافقت نظمها[1] . فإن الصدق هو الطابع الأول لشعر السجن . وحسب هذا الشعر ان يمتاز بالصدق ليحتل مكاناً علياً في الأدب العربي والإنساني .

وتتبعناه ـ فيما سبق ـ في طوال القصائد وقصارها والمقطوعات فوجدناه ، وليد التجربة الشعورية المحضة التي انطلقت في لبوسها اللفظي في عفوية غالباً أو وعي فني لا يعوق الحركة النفسية وتدفق المشاعر .ولن نعيد ما أسلفنا ذكره إلا أن نقرر أن هذا الصدق هو الذي منح شعر الحبوس قدرته الدائمة على إطلاق شحنات من الانفعال ونقلها الى النفوس ، تنبعث فيها بألوانها وظلالها وأبعادها

---

(١) انظر في اغراض الشعر : الموقف من السلطان ص ٥٢٣ ، وحبسيات المدح ص ٥٨٢ .

الشعورية والفكرية ، سواء في ذلك كثير الشعر وقليله أو طـويله وقصيره . وإنّ عنف التجربة وصدقها ليسعه أحياناً البيتان من اللفظ العاري القريب ، فيحتبس التعبيرُ قدرةً على الإشعاع نافذة واقدة لا تخبو . إننا لا نَقْرأ مرة البيتين التـاليين اللذين هتف بهما المعتمد ، عندما ارتاعت زوجه الرميكية من موضعها معه في الحبس المهين ، حتى نغرق في الآلام التي طمت على المعتمد :

قـالت : لقـد هُنَّـا هُنَـا   مـولايَ ، أيْنَ جاهنـا ؟
قلتُ لهـا : الـى هنـا   صَـيَّـرَنـا إلـهـنـا[1]

فليس ، ثمة لفظ أَوْجَزُ منه يخطف ذلة الحاضر وعز الماضي في ومضات ساطعة كشافة عن صور لا تتناهى ، تنطلق من التعبيرين : « لقد هنا هنـا ـ اين جاهنا » في ظلال ساكنة سكون الـظلام ، هادئـة هدوء اليقين ، مهيمنـة هينمة القدر : « الى هنا صيرنا الهنا »

ذلك ان التجربـة الشعوريـة متى اتحدت بعـديلها من اللفظ ، وتخلّقت عبارات متناسقة ، تخلّق الكائن الحيّ ، ينشـأ بعضها من بعض نشـوء القسم والنداء والاستفهام والتقرير في بيتي المعتمد ـ متى تم ذلك لم يكن ـ بعد ـ لفظ ولا نسق أقدر منهما على استيعاب التجربة وإيصالها .

مظاهر الصدق الادبي :

وللصدق مظاهر عديدة تدل عليها طريقة الأداء وأساليب التعبير نشير إليها إشارات موجزة سريعة .

أوّلها البوح والنجوى : والبوح خاصة من خصائص الشعر الغنائي ـ النوع الوحيد في شعر العرب . وللبوح والنجوى اتجاهات متنوعة . فقد يكون مجرد إفضاء بما في النفس ، فيحدث الشـاعر عن نفسه أو يتحدث اليها ـ والتحدث الى النفس أسلوب شهيـر في مـطالـع القصـائـد ، وهـو مـا سمـاه البـلاغيـون

(١) ديوان المعتمد : ١١٤ .

بالتجريد[1] أو يفضي بذات نفسه بين يدي محبوبته ، وقد يجمع بينهما في مطلع واحد[2] . ولكن النجوى تعظم انفعالاً وتتسع أفقاً إذا اتجهت إلى الطبيعة . وكان لشعراء السجن سُبُحات في نجوى البرق والحمام والديار والراحلة[3] . ويعد من باب البوح أيضاً إفضاء الصديق الى صديقه في الإخوانيات التي صدرت من الحبوس[4] .

والبوح أَوْجُ التجربة النفسية المشحونة هموماً وآلاماً . ويتخذ الشعراء منه متفرجاً يخففون به عن ذواتهم المُثْقلة . ولهذا كان أفضل الشعر مثالاً للصدق الشعوري والفني معاً بما فيه من انطلاق عفوي يتحد فيه اللفظ بالشعور اتّحاد الروح بالجسد في بساطةٍ ويُسْرٍ ، ومن طريقه ندخل على عالم الشاعر الداخلي ونسمع حسيس عواطفه الخفية ، ونتعرف على شواغله الحقيقية ، وأبعاد مأساته وأعماقها .

ولعلّ مناجاة الولد والبوح اليه أصدق الحديث وأخلصه في هذا الجانب[5] ، فالشاعر يركن فيه الى ألصق الناس به ، وأحبهم اليه ، والى من

---

(١) الأمثلة كثيرة وقد يجرد الشاعر من نفسه شخصين يتوجه إليهما بالخطاب كما فعل عبد يغوث بن صلاءة الحارثي في مطلع قصيدته التي نظمها في أسره قبل موته :

ألا لا تلوماني كفا اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم خير ولاليا
ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل وما لومي أخي من شماليا

(النقائض : ١/١٣٩ ـ ١٥٤) والبحث ص ٧٥ .

(٢) مثل قصيدة هدبة بن خشرم التي بدأها بنجوى نفسه ثم التفت الى زوجه :

طربت وأنت أحياناً طروب ... وكيف وقد تغشّاك المشيب
يُجِدّ النأي ذكرك في فؤادي ... إذا ذهلت على النأي القلوب

(الحماسة البصرية : ١/٤٤) .

(٣) انظر حديثنا عنها في أغراض الشعر (ص ٤٥١ وما بعدها) .

(٤) انظر البحث ص ٤٩١ .

(٥) انظر ص ٥٥٦ .

يصدقه تلقائياً من غير مراء . وأول دلائل الصدق هذا اللصوق النفسي ؛ فالشاعر نصيب الأصغر (١) يستدني ابنته منه حتى يكاد يضع فمه في أذنها ، فناداها باسمها خمس مرات في ثمانية أبيات حين رأت قيوده في الحبس وبكت . قال (٢) :

لقد أصبحت حجناء تبكي لوالد	بدرة عين قلّ عنه غناؤها
أحجناءُ صبراً كل نفس رهينة	بموت ومكتوبٌ عليها بلاؤها
أحجناءُ أسباب المنايا بمرصد	فإلّا يعاجل غَدْوها فمساؤها
أحجناءُ إن أفلت من السجن تلقني	حتوف منايا لا يرد قضاؤها
أحجناء إن أضحى أبوك ودلوه	تعرّت عراً منها ورث رشاؤها
لقد كان يدلي في رجال كثيرة	يمتّح ملأى وهي صفر دلاؤها
أحجناء إن يصبح أبوك ونفسه	قليل تمنيها قصير عزاؤها
لقد كان في دنيا تَفيّأ ظلها	عليه ومجلوب اليه بهاؤها

وفي هذا البوح عالم الشاعر الداخلي المتفتح : أساه ، واستسلامه الصامت لقدره ، وتطرية البؤس الراهن بذكرى النعيم الزائل . وأطلق ما لديه من المحتوى العاطفي على موجات النداء المتواتر ، وفي بوح مديد يبسط الخاطرة الحزينة في الابيات الثلاثة أو الاربعة. ويوافق تواترُ النداء حاجة الشاعر الى التفرج النفسي كما يوافق ترادفُ الأبيات على الخاطرة الواحدة جوَّ السجن المديد الرتيب . واذا لم يرتفع بنا الشاعر الى توتر عاطفي شديد والى آفاق إنسانية فسيحة مثيرة فقد وفّى الكشف ـ من خلال البوح ـ عن ذات نفسه وهو يعاني مكابدة قاسية ما بين حاضره وماضيه ومستقبله الغامض .

ولكن من البوح ما ينفذ بأبصارنا وأحاسيسنا إلى جحيم المأساةِ ، ويضعنا

---

(١) انظر ص ٢٢٨ .

(٢) الأغاني : ٢٠/٢٧ .

في محرقها ، نعيش مأساة الإنسان المقهور بين يدي الإنسان القاهر : نعيش المأساة في كل موجة من أمواج الألم التي تتبدد في صمت اليأس الباكي ، فيبلغ الشعر ذروة الصدق المؤثر . وبلغ هذا المدى المعتمد بن عباد(١) في بعض شعره وبخاصة في نجوى قيده ، وانبعثت هذه النجوى من المؤثرات التي انبعثت منها نجوى نصيب الأصغر ، حين دخل على المعتمد في قيوده أصغر أولاده فقال (٢) :

قيدي أما تَعْلَمُني مسلماً ... أَبيْتَ أن تُشْفِقَ أو ترحما
دمي شرابٌ لك واللّحم قد ... أكلته، لا تهشم الأعظما
يُبْصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هُشّما(٣)
إرْحَمْ طفيلا طائشاً لبُّه ... لم يَخْشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيّاتٍ له مثلَه ... جرّعتهن السمّ والعَلْقما
منهن من يفهم شيئاً فقد ... خفنا عليه للبكاء العمىٰ
والغير لا يفهم شيئاً فما ... يفتح إلّا لرضاع فما

وأبلغ الصدق في هذه النجوى ، « الاعتراف » اعتراف الشاعر الملك أنه بلغ من الضعف والعجز أقصاهما . فلم تبق لديه بقية للمقاومة أو التماسك والتحدي . وهو الموقف النفسي الصريح الذي يصدق فيه ملك مأسور مقيد استقبل ولده الذي كان يعهد أباه في التاج والعزة. إن في هذا الاعتراف بلحظات الضعف سراً من أسرار القول المؤثر . فهو يواجه بالحقيقة التي يتخفى عليها بعض الناس فيما يشبه الخوف خشية المعرة . فصرح الشاعر تصريحاً لاخفاء فيه انه في هذا الوقف قد تحطمت قواه :

يبصرني فيك ابو هشام ... فينثني القلب وقد حطما

---

(١) انظر خبر أسر المعتمد في الفصل الاول ص ٨١ .
(٢) انظر ديوان المعتمد ص : ١١٢ .
(٣) ابو هاشم كنية أصغر أولاده .

وينبعث من مصراعي البيت أصداء التـداعي والتهشيم « ابو هـاشم . . . هشم » فنسمـع ونـرى سقـوط قلبـه وتهشمـه كمـا تسقط الآنيــة من الـزجــاج المحطمة .

وفي هذا الاعتراف الذي هو عنـوان الصدق تتـركز حقيقـة المأسـاة التي أشرنا اليها : مأساة الإنسان المقهـور بين يدي الإنسـان القاهـر . وهي ، على بساطة البوح والإدلاء بها ، حقيقة كبرى في الوجود الإنساني : بين قطبيها تختبر القيم الإنسانيةُ وما لها من الرصيد الحقيقي في سلوك البشر . فإذا شرب الآسر الدم وأكل اللحم وهمّ بالعظم فانظر أيّ وحشيـة ـ في هذا التصـريح ـ اقتـرفها الآسر . وبذلك يأتي الاعتراف ضرباً من الهجاء والتنديد بالقسوة والظلم ، وفي كلمةٍ« مُسْلم » مضمون ضخم تشع به هذه الكلمة في موضعها من البيت :

قيـدي امـا تعلمني مسلمـا أبيتَ أن تُشْفِقَ أو تَـرْحمـا

فليس « القيد » الذي هـو موضـوع النجوى إلا رمـزاً وكنايـةً عن صاحب القيد ، وكل من الآسر والمأسور مسلم ، فالاستفهام الموجع الذي تجـول فيه الدموع سؤال عن الحرمات التي استحلّها المسلم من أخيه المسلم ، وعن القيم والمبادىء المهدورة في موقف القوة .

ولذلك لم يكن الاعتراف نوعاً من الضعف النفسي ـ كما نوهنا من قبل ـ بل هو مواجهة بالحقيقة ومـا فيها من لـوم وعار يلحقـان الظالم ، ومـا فيها من مسؤوليـة إنسانيـة مخيفة حين يجلب الشقـاء على الأبريـاء من النساء والأولاد والبنيات . فلم يكن في الطلب العطوف « ارحم » معنى أكثر من تحذير رقيق من التمادي في الظلم والاضطهاد ، وتبديد سعادة الذين لم يسيئوا لآسرهم .

لقد باح المعتمد الى قيده بذات نفسه وصارحه في صور تستدر الدمع ، وتنبه من غشّى عينيه حب التسلط والقهر ، بما جره عليه وعلى أسرته من شقاء ودمار . فكان من أصدق ما باح به الأسير الإنسان .

الوصف :

ومن مظاهر الصدق في شعر السجن الوصف . وكان كثير منه يتحرّى نقل الحقيقة من خلال الشعور والمعاناة نقلاً واقعياً في تصوير معبر . وتناول الوصف مجالات عدة . فصور من أحوال السجون والعذاب وأحوال النفس والمشاعر الكثير . والحق أن « أغراض الشعر » قدمت من هذه النماذج الكثير[1] . ولا بد من أن نعرض لجوانب منها في هذا الموضع للدلالة على خصائص الوصف الصادق .

وأول سمة في هذا الوصف هي الواقعية . فالشعر قَبسَ لنا صوراً من حياة السجون والسجناء كانت ، بما فيها من عناصر الواقع الفادح ، تغني عن أي إضافة خيالية . فجاء الوصف مباشرة صريحة في مشاهده وألفاظه وصياغةتراكيبه . ولعل الأبيات التالية لأحد الأندلسيين التي لم تحتج إلى شيء من الخيال والصور استطاعت أن تجعل من معطيات الحبس العارية وصفاً قادراً على الإيحاء بأجواء السجن الموحشة :

ليت شعري كيف البلاد وكيف الإ ... نس والوحش والسما والماء
طال عهدي عن كل ذاك ، وليلي ... ونهاري في مقلتي سواء
ليس حظي من البسيطة إلا ... قيد قبر صبيحة أو مساء
وإذا ما جنحت فيه لأنسٍ ... أوحشتني بأنسها الأغبياء[2]

فالكلمات المجرّدة تنشر في سياقها الذي وردت فيه كثيراً من الأحاسيس وأطياف المعاني المبهمة « كيف الانس والوحش والسماء والماء » . ولا شك أن صياغتها في هذا التساؤ ل الحزين ملأها مخزوناً شعورياً ما كانت لتحتويه لولا هذا التيار من الأسى القانت ، فاستغنى التعبير المباشر بنفسه عن الأداء بالصور . وقوة الشعور والإحساس بالواقع هي التي تجعل من صريح اللغة طاقة

---

(١) أنظر أغراض شعر السجن : ٥٠٨ وما بعدها .

(٢) المغرب في حلى المغرب : ٢٠٦/١ دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

مشعة تكشف عن عوالم عـديدة وأحـوال نفسية ثـرة في مثل هـذه الأبيات التي تصف أيضاً عالم السجناء الغريب [١] .

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلهـا فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا دخـل السجانُ يـومـاً لحـاجـةٍ عَجِبْنا وقلنا : جاء هذا من الـدنيا
ونفـرح بـالـرؤ يـا فجـلُّ حـديثنـا إذانحن أصبحناالحديث عن الرؤ يا
فـإن حسنت كانت بـطيئـاً مجيئُهـا وإن قبحت لم تنتـظر وأتت سعيـا

إن الأبيات تدخلنا إلى أجواء السجن الغريبة ، وإلى دنياه المبهمة ، وإلى أوهام ساكنيه ، وإلى مشاعرهم الذاهلة . وتفتح لنا منافذ من الرؤ ى لنستشف ما وراء هذا العالم الغامض المنزوي . فإذا العبارات تقفنا على شفا تلك المشاهد الغريبة . « عجبنا وقلنا : جاء هذا من الـدنيا » وتقـربنا من تلك النفـوس التي اتخذت لنفسها منحى خاصاً من المنطق والتفكير :

ونفـرح بـالـرؤ يـا فجـل حـديثنـا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤ يا

ومن هذا الوصف الواقعي ما هو أوضح تحـديداً للمشـاهد وأكثـر تنويعـاً فيهـا ، يجمـع مـا بين الـوصف الخـارجي والـداخلي : مـا بين آلام الجسـد والنفس : ما بين واقع الحبس وارتدادات الشعور كالأبيات التالية التي صور بها أحد الشعراء اللصوص مشهداً ثابتاً من مشاهد الحبس[٢] .

لقـد جمـع الحـداد بينَ عصـابـةٍ تَسـاءلُ في الأقياد : مـاذا ذُنوبُهـا
مقرّنةُ الأقـدام في السجن تشتكي ظَنـابيبَ قـد أَمْسَتْ مَتينـاً عُلوبُهـا
إذا حـرسي قعقـع الباب أرعشت فـرائص أقـوامٍ وطـارت قلوبهـا
بمنـزلـةٍ أمّـا اللئيـمُ فشـامـت بهـا وكِرامُ النـاسِ بادٍ شُحـوبُهـا

(١) المحاسن والأضداد : ص ٣٥ وقد نسبها الجاحظ لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .
(٢) هو السمهري . أنظر الأشباه والنظائر للخالديين : ١٣٢/٢ .

فهذه قطعة من الوصف الفني الرائع تعكس ما شاعت من معاني النقمة الضجرة والألم الممض والخوف الطائر والحقد الشامت والهوان المخزي . وما من معنى من هذه المعاني إلا قد تنطق به صورة محددة الخطوط ملأى بالحركة والأصوات التي تلقي ظلالاً من المشاعر والأحاسيس الذاتية . ويكفي أن نسمع جرس اللفظ « قعقع » في البيت التالي :

إذا حرسي قعقع الباب أرعشت فرائص أقوام وطارت قلوبها

وأن نحس حركة الإرعاش لنعي المعنى العميق للهلع الذي تزيد في أبعاده الصورة البسيطة « طارت قلوبها » ذلك أن الإنفعال العارم تعبأ في هذه الألفاظ « قعقع - أرعشت - طارت » فكانت صورته اللفظية الموحية . ومن جرسها ينتشر شريط من الصور المفزعة إذ تكشف عن المشاعر المرتبطة بالقعقعة وما يتوقع السجين وراءها من أشياء رهيبة كالدعوة إلى التعذيب أو القتل . فالربط الرائع بين الألفاظ جعلت من البيت لوحة فنية قادرة على الإيحاء الحيّ بأدقّ الهواجس الرعيبة . وكذلك البيت الأخير الذي رمز بتعابير الوجوه وألوانها إلى خبايا النفوس وما ترسب فيها من المضاعفات الاجتماعية والفوارق الطبقية .

ولا نريد كثرة الشواهد والأدلة . وهي متوفرة بكثرة فيما مثلنا به في أغراض الشعر على اختلافها ، وبخاصة ما جاء في وصف السجون والعذاب . وما سقناه يشهد بالقدرة الفنية الفائقة على الوصف والتصوير باللفظ المجرد الذي استطاع بجرسه وظلاله وألوانه أن يرسم المشهد والمشاهد الجزئية المتتابعة في لوحة لها حظ حسن من التكامل الفني . وكانت بعض الصور الخيالية ترفد الشاعر أيضاً بظلال تزيد في وضوح المشهد وعمق الإحساس . فكان التشبيه أو الاستعارة المختطفة من عناصر البيئة القريبة أدوات تعبيرية عفوية الورود معينة على الإيجاز والإشعاع كما نرى في وصف العرجي لقيده :(١)

---

(١) ديوان العرجي : ١٥٥ من قصيدة (٢٣) بيتاً .

وفي الرجل مني كبل قينٍ يؤودها وثيق إذا ما جاءه الخطو يهتف
كأنّ شبا مسماره وهو ناجم شبا ناب قَرْمٍ يضرب الشول يصرف

فتشبيه مسمار القيد بناب الفحل الهائج من الإبل صورة ـ على قربها ـ فيها من الإيحاء المرعب الكثير مثل ما في الألفاظ « يؤودها ـ شبا ـ يهتف ـ يصرف » من الظلال الشعورية النابعة من جرس الألفاظ .

وتستقل الصورة أحياناً في رسم المشهد أو تجلية أبعاد الفكرة . من ذلك ما قاله عدي بن زيد عندما أراد أن يقسم على براءته للنعمان ، فتوضعت الفكرة في الصورة التالية(١) :

أبلغِ النعمان عني مألكا قول من خاف اضطغانا فاعتذر
انني ، والله فاقبل حَلَفي لأبيل كلّما صلّى جأر
مرعد أحشاؤه في هيكل حسن لِمّتُه وافي الشَّعَر
مؤمن الصدر يُرجيّ عتقه يوم لا يكفر عبد ما ادخر
ما حملنا الغل من أعدائكم ولدى الله من العُذْرِ المُسَرّ

والتعبير بالصور من أشهر أساليب العربية إيجازاً وإيحاءً . ولكن في مثل هذا الشعر يبلغ التلاؤم ما بين الفكرة والصورة غاية التوفيق إذ هو تلاؤم عفوي ـ كالألفاظ والتراكيب ـ تمخض عنه الانفعال الحار في تجربة الألم الخالص . فالحاسّة الفنية الواعية لا دخل لها ـ ههنا ـ والصورة ترد كما يرد الطيف في الحلم ، ولذلك تحتفظ بطاقة إيحائية دائمة . ومن العفوية أن يسقط الشاعر السجين ظلال نفسه الكئيبة على المشهد فتأتي الصورة رمزاً لما تجيش به نفسه من المخاوف والخواطر السود . وفي شعر عدي نجد مثالاً له ـ أيضاً ـ عندما رأى البرق من كوة محبسه ، فبدا له أن السحب تقيم مأتمها بموته

---

(١) ديوان عدي بن زيد : ص ٥٩ ق ٨ . والأبيل : الراهب .

المرتقب قال[1] :

أرِقْـتُ لـمُـكْـفَـهَرٍّ بـات فـيـه ... بـوارقُ يـرتـقـيـنَ رؤُوسَ شيـبِ
كـأَنَّ مـآتـمـاً بـاتـت عـلـيـه ... خَـضبْنَ مـآليـا بـدمٍ صبيـب
يُـلألِئْـنَ الأكُـفَّ عـلـى عـدي ... ويُعْـطَفُ رَجْعُهُن إلى الجيـوبِ

فقد غطّت ذاتية الشاعر المشهد الوَسيعَ بعناصرهِ كلّهـا : السماءُ والبَـرْقُ والرعد والماء . فإذا البرق والماء قد صارا إلى دم ، والرعد هو النوح وصدى ما تلطم الأيدي الصدور ، وإذا الكون العالي كله يبكي البريء المظلوم .

وخلاصة القول أن الصدق طبع الوصف في ألفاظه وتراكيبه وأساليب أدائه وصوره بطابع أصيل من العفوية والتركيز والإيحاء .

الحـــوار :

ومن مـظاهر الصـدق الفني الإفصاح عن الخـواطر والمشـاعـر في إطـار حواري ، في بعض ما نظمه السجناء على اختلاف في اقتضابه أو الاستـرسال فيه . وأياً كان حجم الحوار فالشاعر يعرض موقفاً حياً يترجم فيه التخاطب عن مكنون الضمائر فتتوارد الأفكار في معرض تمثيلي يتيح متعة الاستمتاع بالحديث الرسل الهادف ، وتمثل العواطف في أطول موجاتها وأقصرها وفي أشد توترهـا وأخفضه . وبذلك نستطيع أن نتمثل القلق المتبادل بين الأسير وذويه في الحوار التالي تمثلاً أفضل من الإفضاء المباشر :

وقال نسـاء لـو قتلت لسـاءنـا ... سواكن ذو الشجو الذي أنا فـاجع
رجـال ونسـوان بـأكنـاف رايـة ... إلى حثن تلك العيون الـدوامـع[2]

---

(١) ديوان عدي بن زيد : ص ٣٧ ق ٣ والمكفهر السحاب المتراكب والشيب السحاب الأبيض والأسـود . والمآلي جمـع مئلاة خـرقة تمسكهـا المرأة عنـد النوح . ويلالئـن : يحركن .

(٢) البيان في معجم البلدان (راية) لقيس بن العيزارة الهذلي ـ جاهلي ـ وهو في الأسر .

وهـذا مثال للحـوار القصيـر الـذي يتـوخى عـرض الفكـرة أو الخـاطـرة الواحدة . ولكنه يمتد في بعض القصائد حتى يكاد يتطـور إلى مشهـد تمثيلي كامل غني الأفكار عديدها مـرن طيع . وخيـر أمثلته مقـدمة غـزلية في إحـدى روميات أبي فراس أشرنا إليها في غير هذا الوضع[1] .

ليس امتداد الحوار بالضرورة سر جماله : فقد يكون فيه تكلف شيء من الهذر كما في الحوار الغزلي الآنف عند أبي فراس . ولكن أجمل الحوار ما جاء صورة لفظية مطابقة للموقـف يفيض بتصوير الحركة النفسيـة من خلال السؤال والجواب وذكر الذرائع والأسباب والمصاعب والمعوقات . فالشوق ـ مثلاً ـ في الحوار التالي أبعد وأعمق مدى من أي بوح مباشر[2] :

أقـول لبـوابـي والسـجـن مـغـلق ... وطـال عليّ الليـل : مـا تـريـان
فقـالا : نرى بـرقـا يلوح ومـا الـذي ... يشـوقـك من بـرق يلوح يمـانـي
فقلت: افتحا لي الباب أجلس إليكما ... لعلي أرى البـرق الـذي تـريـان
فقـالا : أمـرنـا بـالـوثـاق ومـا لنـا ... بـمعصيـة السلطان فيـك يـدان
ألا ليت شعـري وهـو ممـا يهمني ، ... متـى أنا والـصهـال مـلـتقـيـان

والسؤال الأخير بعد الحوار هو ذروة الشوق يقع بعده موقعاً بليغاً لا يتأتى له من الإيحاء والإيقاع كما لو جاء في ثنايا بوح مباشر .

المطالع :

تميزت القصيدة العربية وهي ذات بناء غنائي ، بمقدمتها التي تعد منطلقاً ذاتياً للشاعر . ورسخ هذا الرسم على مـدى العصور ، وتنـوع من وقوف على الديار إلى النسيب والغزل والحكمة أحياناً . وقد بينا في الحديث عن الحبسيات أن المقدمة كانت تقليداً متبعاً في معظمها[3] .

---

(١) انظر ديوان أبي فراس : ١ / ٢٠٩ والبحث ص ٥٦٨ .
(٢) نسبها ابن داود لأحد الأعراب في الزهرة : ص ٢٢٧ .
(٣) انظر ص ٥٨٢ وما بعدها .

ونريد أن نستوضح ما امتازت به مطالع المقدمات لقصائد السجن بما طرأ عليها من تعديل أو تجديد وأثر الموضوع على المطلع . واستقراء مطالع قصائد الحبس يضع بين أيدينا أنواعاً منها لم تختص بعصر دون عصر ولا بشاعر دون شاعر بل نجد الشاعر الواحد يختلف طراز المطلع عنده بين حبسية وأخرى . ويرجع تاريخ التنوع إلى العصر الجاهلي نفسه ، تشتهر به حبسيات عدي بن زيد التي تنوعت مطالعها بين الغزل والوصف والحكمة والنجوى الوجدانية(١) . ولا شك أن التنوع يتأثر بطبيعة الموقف النفسي ودرجة الانفعال أكثر مما يتأثر بالعصر وبمناهجه في النظم .

فأحياناً يفرض الإطار المرسوم نفسه على عملية النظم فيأتي المطلع قطعة من الغزل ضعيفة الصلة بغرض القصيدة حتى أنه ليصلح مطلعاً لغيرها في غير غرضها وأمثلة كثيرة منها هذا المطلع لإحدى قصائد عدي(٢) .

طال ليلي أراقب التنويرا أرقب الصبح بالصباح بصيرا
إثر ليلى تحولت ثم بانت لم تعرج ولم تواجر أميرا

ومثل هذه المطالع لا تلقي شيئاً من ظلال السجن وتشير إلى أن الشاعر يستطيع أن يصهر الإطار الغزلي وأن يصوغه صياغة جديدة ينضح بذاتيته . ولكن هذه الذاتية تملأ إطار النسيب والغزل في مطالع أخرى ، بانفعال حار ناجم عن موقف الأسر أو السجن . وهذا جلي في هذا المطلع من قصيدة للقطامي في أسره يأسى للعداء بين تغلب قبيلته وقبائل قيس(٣) :

---

(١) انظر في ديوانه قصائده ذات الأرقام : ٣ - ٤ - ٥ - ٦

(٢) ديوان عدي بن زيد : ص ٩٣ ، ق ٤ المطلع الغزلي (٧) أبيات وانظر أيضاً - على سبيل المثال - قصيدة إبراهيم بن المدبر في الأغاني (١٩/ ١١٥ - ١١٦) ومطلعها :

أدموعها أم لؤلؤ متناثر يندى به ورد جني ناضر

(٣) الأغاني : ٢٠/ ١٢٨ . وضباع ابنة زفر بن الحارث أمير قرقيسيا وكان القطامي في أسره .

قفي قبل التفرق يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداعا
قفي فادي أسيرك إن قومي وقومك لا أرى لهما اجتماعا
ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعا

والحق أن الشاعر نفح في المطلع من حزنه وأضفى[1] عليه ظلاً من الخلافات والانقسامات السياسية في عصره ولم يحتفظ من الإطار إلا بأطرافه (الوقوف ـ التفرق ـ الوداع) أما المضمون فهو من مخزون قلبه ومشاعره ورأيه السياسي .

وتطور المطلع الغزلي في قصائد السجن عند المتأخرين إلى أن يكون بوحاً شاكياً يبث الهموم والعذاب الدفين . فغلبت الذات على الإطار واتخذت ألفاظ الغزل العاطفية للتعبير عن آلام الحبس فاحتملت طاقة إضافية واكتسبت قيمة رمزية في سياقها الجديد . نستبين ذلك في هذا المطلع في قصيدة للشاعر الرمادي يوسف بن هارون[2] :

نسائلها هلا كفاك نحوله ونصبته أو دمعه وهموله
تكنفه همان شجو وصبوة فبلغ واشيه المنى وعذوله
فإن يستبن في وجهه هم سجنه فقد غاب في الأحشاء عنك دخيله
معنى بكتمان الحبيب وحبه فإن يقتل الكتمان فهو قتيله

فهذه الألفاظ : النحول ـ الدمع ـ الشجو ـ الصبوة ـ المنى ـ العذول ـ الكتمان لا تنشر في أجواء السجن أطياف الصبابة بل ظلال الهموم والآلام وكأنها تلقي عليها شفافة رقيقة حتى لاتنساح بعنفها وغليانها . فالإطار يعدل هنا من الحدة العاطفية والعاطفة تجعل جزئيات هذا الإطار رموزاً مشعة بمعان خبيئة شفافة .

نحس كأنما الشعراء في هذه المواقف الوجدانية يضيقون بالإطار القديم

---

(١) انظر البحث : ص ٧١ .

(٢) المطمح : ٧٣ .

ولا سيما ذكر الديار ، فيتصرف الشاعر فيه تصرفاً لا هو بالمنفلت منه ولا هوبالخانع لقيوده بل هو يتحرك حركة حرة في حدوده أحياناً كما نجد ذلك في هذا المطلع للفرزدق(١) :

أهاج لك الشوق القديم خياله   منازل بين المنتضى ومنيم
وقد حال دوني السجن حتى نسيتها   وأذهلني عن ذكر كل حميم
على أنني من ذكرها كل ليلة   كذي حمة يعتاد داء سليم

فحركته إن كانت مقيدة في البيت الأول فهي طليقة في الثاني وبين الطليقة والمقيدة في الثالث . وكان الشاعر يحتاج إلى خطوة أوسع ليحقق دمجاً بين الاطار والذاتية . ولعل هذه الخطوة تمت في عمل يزيد بن مفرغ الحميري حين قال(٢) :

دار سلمي بالخبت ذي الأطلال   كيف نوم الأسير في الأغلال
أين مني السلام من بعد نأي   فارجعي لي تحيتي وسؤالي
أين مني نجائبي وجيادي   وغزالي سقى الإلّه غزالي

فالأسى الباكي في النداء والتسآل والدعاء يغمر الإطار التقليدي ويجعل منه مطلعاً معدلاً ، إلى حد ما ، ملائم لقصيدة الحبس .

والتعديل في الإطار والسيطرة على حدوده وجزئياته لا يتم إلا في مناخ التجربة الشعورية الغامرة . عندها يحدث التفاعل ما بين المراسم واللغة والشعور ويلد الشعر كياناً جديداً وإن تشكل من عناصر قديمة وهذه مرحلة عليا في ولادة المطالع نجدها في قول عدي بن زيد في الإطار الذي ألف فيه بين الطيف وسجنه وحراسه :

أنىَّ طرقت ذوي شجن تعودهم   وكنت عهدي قطوف المشي محيارا
أم كيف جزت فيوجا حولهم حرس   ومترصا بابه بالشك صرارا(٢)

---

(١) ديوان الفرزدق : ٢/٢٨٥ .
(٢) ديوان عدي : ص ٥٠ ق ٦ الأغاني : ١٧/٥٧ .

وفي مثل ذلك من الإجادة والابتكار قول يزيد بن مفرغ الحميري :

حيِّ ذا الزور وانهه أن يعودا إن بالباب حارسين قعودا
من أساوير لا ينون قياماً وخلاخيل تسهر المولودا(١)

فالمطلع ـ لولا عنصر الطيف القديم ـ يكاد يكون مستجداً مستوحى من واقع السجن ومناخه الذي أطبق على وجود الشاعر وثمة تجارب كثيرة من هذا النوع لا ترتفع إلى هذا السمت(٢). وأصاب المطالع تطور محمود في بعض القصائد إذ انطلقت من واقع الحبس وشكوى آلامه قال إبراهيم بن المدبر :

كم ترى يبقى على ذا بدني قد بلي من طول هم وضني
أنا في أسر وأسباب ردى وحديد فادح يكلمني(٣)

وفي هذا المطلع تم التحرر من الأطر والأداء المباشر ، وليست قلة القصائد التي تحررت من المطلع التقليدي ولكنها قليل تلك التي ابتكرت مطلعاً من معطيات السجن(٤) .

---

(١) الأغاني : ١٧/٥١ .

(٢) انظر قول السمهري (الأغاني : ٢١/٥٣) :

ألا طرقت ليلى وساقي رهينة بأشهب مشدود علي مسامره
فإن أنج يا ليلى فرب فتى نجا وإن تكن الأخرى فشيء أحاذره

وانظر نظائره في الأغاني (٢١/٥٥) ومنتهى الطلب (١/٢٦٠) .

ومن هذا الضرب الذي أصابه شيء من التكلف والهمود مطلع قصيدة لإبراهيم بن المدبر :

ألا طرقت سلمى لدى وقعة الساري فريدا وحيدا موثقاً نازح الدار

الأغاني ١٥/١١٩ .

(٣) الأغاني : ١٥/١٢٠ .

(٤) للحاجري قصيدة مطلعها :

شوق أكابده وسجن ضيق يا رب شاب من الهموم المفرق

ديوان الحاجري : ٧١ .

اللفاظية والبديع :

رأينا أن الصدق الفني هو سمة الشعر الذي نظمه الأسرى والسجناء وهم يعانون تجربة نفسية خالصة . وجاء التعبير صورا لهذه التجارب يوحي به جرس الألفاظ والتراكيب وما تلقي من ظلال وألوان . ومرد ذلك إلى استجابة الشاعر للنظم في ظل التجربة استجابة عفوية تنأى به عن التعمل والانتخاب المقصود لأدوات التعبير وأساليبه .

ولكن السجناء ، في أحوال أخرى كثيرة كانوا يخضعون تجاربهم الذاتية لهدف فني مقصود هو السمو بالنظم مضموناً وشكلاً سمواً ينال الرضا والإعجاب . وذلك عندما يجعلون الشعر وسيلتهم للصفح عنهم واسترداد حريتهم . فما نظموه من قصائد الاستعطاف والمدح والعتاب كانوا يولونهم عناية فنية تجعل منظومهم في مستوى فني يلائم مكان القوة والسلطة من شعر تتوفر فيه القيم الأدبية العليا في عصرها .

ولا شك أن مثل هذا القصد جدير أن يخرج بالشعر من دائرة التجربة الذاتية إلى إطار المناسبات ولكن في شعر الأسر والسجن أصولاً ذاتية لاتنفصل أبداً ولو كان الشعر مديحاً مغالياً مجافياً للحقيقة في قرارة نفس الشاعر . فالشاعر إن كذب في مدح خصمه أو عدوه فلن يكذب نفسه في مطلبها الحار ورجائها الحثيث في الخروج من السجن . وهذا الحديث وفيناه حقه في غير هذا الموضع(١) . وعرفنا أن احتشاد الشاعر للتجويد الفني ظهر في العصر الجاهلي في قصائد بشر بن أبي خازم(٢) . وفي العصر الأموي أوحى عبد الملك بن مروان إلى الشاعر عبد الله بن الحجاج أن العفو لا يكون بغير مديح من طراز مرموق(٣) . فانصرف هم الشاعر إلى الألفاظ الضخمةذات الطنين المرتفع يرسم

---

(١) انظر البحث : الموقف من السلطان (ص ٥٢٣) وحبسيات المدح ص ٥٨٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه ٦٣ ـ ٦٥ .

(٣) انظر البحث ؛ ص ٢٢٥ .

بها صوراً وأجواءً توحي بالقوة والمنعة والقدرة وكانت الجزالة والفخامة في الألفاظ التراكيب ومعاني البداوة وصورها في العصرين الجاهلي والأموي مطالب الصياغة الأدبية الرفيعة فجعلها المحبوسون من الشعراء في المدح مطلباً مقصوداً فغلبت العناية اللفظية على هذا الشعر وتميز بمعارض من الألفاظ قل أن نحظى وراءها برصيد نفسي . ولم تكن سمات اللفظية واحدة في العصور كلها فقد تنوعت عناصرها ولا شك أن الرقة والعذوبة في اللفظ والصياغة صارتا المطلب في العصر العباسي بعد الفخامة والغرابة في العصر الأموي . ولكن المهارة اللفظية أخذت لبوساً آخر . وبدأت بأشكال عديدة منذ العصر العباسي الأول . ونجد في مقطوعة لأبي نواس عملاً لغوياً خالصاً هو تقليب كلمة « الفضل » على وجوه معانيها المتعددة صنع واضع المعجم . وكانت مهارة علمية لفظية رجا بها أن يظفر بعون من جعفر بن الربيع للإفراج عنه . وهي مهارة تعجب ، بلا شك ، عالم اللغة من غير أن يضيف إلى شعر السجن قيمة إنسانية . قال (١) :

أأسلمتني يا جعفر بن أبي الفضل ... فمن لي إذا أسلمتني يا أبا الفضل
وأي فتى في الناس أرجو مقامه ... إذا أنت لم تفعل وأنت أخو الفضل
فقل لأبي العباس إن كنت مذنبا ... فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل
ولا تجحدوا بي ود عشرين حجة ... ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل (٢)

وأكبر العوامل تأثيراً في أنماط اللفاظية البلاط الخلافي فقد كان يطلب الشعر الرقيق الأنيق المنمق في العصر العباسي لما غمر المدن من الترف ولين العيش والتأنق الحضاري والرفاه في مرافق الحياة كلها ولما استحدثوا في

---

(١) ديوان أبي نواس : ٤٦١ .

(٢) أبو الفضل : الربيع والد الفضل بن الربيع . والفضل في قافية البيت الأول : الكرم وفي قافية الثاني الفضل هو الفضل بن الربيع أخو جعفر . وفي الثالث الفضل : السماحة وفي الرابع : الفضل ضدالنقص .

المباهج والمجون وما طلبوا من فنون الملاذ . فكان الشاعر السجين إذا أتيح له أن ينظم في الخليفة شعرا سعى في تحبيره فيما يوافق ذوق القصر . فيجتهد في تلوين صنعته بالألوان المطلوبة من الصور الميسورة والمعاني القريبة والألفاظ المأنوسة وزخارف البديع . وكان الإعجاب الفني بالشعر ينفع صاحبه وربما أطلقه من حبسه[١] . ولذلك كانت العناية بالإبداع اللفظي غير قليلة . ومن الشعر الذي يمثل هذا الضرب بكثير من الاعتدال قصيدة نظمها محمد بن صالح العلوي في سجنه لتغنى في مجلس المتوكل ، ذات مقدمة غزلية ، ونستشهد ببعضها على نمط اللفاظية في القرن الثالث الهجري[٢] :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه ... وتشعبت شعبا به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعانه
فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظرا إليه ورده سجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سحت به أجفانه
وبدا له أن الذي قد ناله ... ما كان قدره له ديانه
حتى اطمأن ضميره وكأنما ... هتك العلائق عامل وسنانه
يا قلب لا يذهب بحلمك باخل ... بالنيل باذل تافه منانه
يعد القضاء وليس ينجز موعدا ... ويكون قبل قضائه ليانه
خدل الشوى، حسن القيام مخصر ... عذب لثاه، طيب أردانه
واقنع بما قسم إلا له فأمره ... ما لا يزال عن الفتى إتيانه

ومن البين أن الأبيات تصف تجربة الشوق عند السجين . ولكنها ليست حرة طليقة في الأداء بل تتعمد مستحدثات من الصناعة اللفظية التي هي غرضه

(١) من ذلك ما كان يداعب به السجناء أحياناً السلاطين من ملح مستطرفة ومعان فكهة يصوغونها في البيتين والأبيات . وكانت الوسيلة في تخلية سبيلهم . والأمثلة كثيرة : أنظر واحدة منها للعماد الأصفهاني في وفيات الأعيان (٤/٧ ـ ٢٣) وأخرى لأبي عامر بن عقيل في المغرب في حلى المغرب (٢/٢٥٣) .

(٢) الأغاني : ١٥/٨٩ .

الأول في قصيدة المدح لتحقق سمواً فنياً مرضياً يبلغ ذرته في التقسيم المتناسق في هذا البيت :

خدل الشوى ، حسن القيام ، مخصر عذب لشاه ، طيب أردانه

فالشاعر يقف بين الالتزام بطرائق الشعراء وأساليبهم وبين الحديث الوجداني الخالص .

أما الحديث الوجداني ففي البوح بآلامه وأشواقه وضيقه بسجنه ، واعتصامه بالله ويقينه بالفرج . وهي مشاعر سجين وأفكاره .

وأما الصناعة اللفظية ففي العناصر التقليدية من الغزل والبرق والوصف الجسدي ، وفي الألفاظ المستعذبة والتراكيب ذات الإيقاع المتناغم ، وتوازن الأشطار ، وفي بعض المحسنات البديعية التي كان يستطرفها ذوق العصر .

وكانت هذه اللفاظية مقصودة لذاتها لأغراض فنية استهلكت إمكانية التعبير الطليق الذي هم بالانسراح في قوله :

ودنا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه ورده سجانه

ثم ارتد إلى الإطار التقليدي في معانيه وألفاظه .

ويعد هذا الضرب من الشعر اللفظي مرحلة وسطاً بين ما نظم من شعر السجن في العصر الأموي وما انتهى اليه من لفاظية معقدة في العصور العباسية المتأخرة والأندلسية ، فالصنعة فيه كانت خفيفة وللطبع نصيب واضح ثم تعاظم خطب البديع وأصبح مطلوباً لذاته ومظهراً للبراعة والإحسان ، فضرب فيه شعراء السجن بنصيب ليوافقوا أذواق الممدوحين ولينزل المدح في نفوسهم المنزلة المرجوة لنجاح القصد وليتبوأ الشعر مكاناً حسناً في الوسط الأدبي ، فقد كان ذوو السلطان على دراية بفنون الأدب ولبعضهم مشاركة فيها وكان الشاعر يراعي هذه الملابسات كلها عند النظم ، ولعلنا نوهنا بهذه الحقيقة وما أنزلت في شعر السجن من حيف ، وما ساقت إليه الشاعر من تناقضات لفظية معنوية في حديثنا

عن الحبسيات ولا سيما قصائد ابن زيدون [1] وزيادة في إيضاح هذه الخاصة التي كانت كثيراً ما تقضي على معالم التجربة الذاتية في شعر السجن نورد نموذجاً من شعر القرن السادس الهجري من قصيدة كانت في عرف نقاد زمانها من نفائس النظم الذي يصوغه سجين في مدح السلطان ، وتوج فيها المديح مقدمة غزلية غير قصيرة وكلا الغرضين من الغزل والمديح خاضع لمبادىء أدبية وحدة . والمهارة الأدبية هي الغاية الأولى والأخيرة وليست هي الا صناعة لفظية بحتة تزخرف السطح وتتجاهل الأعماق ، ولنجتزىء من القصيدة بما يكفي منها دليلاً [2] :

إذا أحرقت في القلب موضع سكناها ... فمن ذا الذي من بعد يكرم مثواها
وإن نزفت ماء العيون لحرها ... فمن أي عين تأمل العيش سقياها
وما الدمع يوم البين إلا لآلىء ... على الرسم في رسم الديار نثرناها
ولما وقفنا للوداع وترجمت ... لعيني عما في الضمائر عيناها
بدت صورة في هيكل فلو اننا ... ندين بأديان النصارى عبدناها
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها ... سياسة من قاس الأمور وقاساها
ومن كلف الأيام ضد طباعها ... فعاين أهوال الخطوب فعاناها
عسى نظرة تجلو بقلبي وناظري ... صداه فإني دائماً أتصداها

فالقصيدة خليط من معطيات بدوية وحضرية ومن صور من الطبيعة والانسان والطقوس الدينية ، والقدرة الإبداعية للشاعر فرغت للملائمة بين هذه العناصر المتنافرة المتضادة وسبكها في صياغة معجبة ، ولا شك أنه كان مقوداً بداعي الجناس في أكثر الأبيات (العيون وعين ـ الرسم ورسم ـ قاس وقاسى ـ

---

(١) انظر : حبسيات المدح ص ٥٨٩ .

(٢) هي للقاضي المهذب الأسواني الحسن بن علي بن ابراهيم بن الزبير ، مات سنة ٥٦١ بمصر وكان شاعراً جيد العبارة وكاتباً محسناً اختص بالوزراء والأمراء وسجن غير مرة وله في السجن شعر كثير أكثره في المدح (انظر معجم الأدباء : ٣/١٥٧ ـ ١٦٤) .

عاين وعانى ـ صدى واتصدى) ويغالي بالتزيين إذ يحقق أحياناً نوعاً من التناظر في موضع الجناس بين البيت والبيت ، فهو في الأخيرين في الشطر الثاني بين أول كلمة منه والقافية .

والعنصر المشترك بين هذه العناصر المختلطة هو اللفظ الرقيق المأنوس وما له من مضمون عاطفي مستحب (القلب ـ ماء العيون ـ سقياها ـ الوداع) ، ولن نعثر في الأبيات على إيحاءات شعورية أو إيماءات فكرية تفتح آماداً للحس والخيال ولا ينكر صدق الإحساس في حسن التوسل وهو ما في نفس الشاعر من الرغبة الدافعة لإرضاء ممدوحه والخروج من سجنه ، ولكن هذا الإحساس أمسى ظلاً باهتاً محجوباً بالمعارض اللفظية والتزيينية ، وربما استطاع الشاعر السجين في المواقف العاطفية ـ وهو آخذ بأطراف الصناعة البديعية ـ أن يرسل دفقات من صادق أحاسيسه تفيض على الأبيات انفعالاً تلين له الصنعة [1] .

وقد ترسخت هذه اللفظية الزخرفية في أساليب الشعراء ومازجت ملكاتهم حتى صارت أصلاً في العمل الفني يلتزم الشاعر ألوانها ورسومها في مواقف البوح الذاتي والإفصاح عن تجربة نفسية كبيرة ، وفي مقطوعة من القرن الثامن الهجري بكى فيها لسان الدين بن الخطيب نفسه ومجده ، وهو ينتظر في السجن القتل، ما يؤيد عجز الشاعر الذي درج على طرائق البديع أن يتحرر منها في الشعر الذاتي الصرف قال[2] :

---

(١) مثال ذلك أبيات للمؤيد أبي سعيد الألوسي في التشوق الى أحبابه وكان سجن عشرين سنة (ولد سنة ٤٩٤ هـ) :

رحلوا فأفنيت الدموع لبعدهم	من بعدهم وعجبت إذ أنا باق
وعلمت أن العود يقطر ماؤه	عند الوقود لفرقة الأوراق
وأبيت مأسورا وفرحة ذكركم	عندي تعادل فرحة الإطلاق
لا تنكر البلوى سواد مفارقي	فالحرق يحكم صنعة الحراق

(معجم الأدباء : ١٩٩/٧) .

(٢) انظر البحث ص: ٥٠٤ .

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا غربنا فناحت علينا السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبا وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا : ذهب ابن الخطيب وفات ، ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح يوماً له فقل : يفرح اليوم من لا يموت

وآخر القصيدة يشهد للشاعر أنه يريد حرية البوح والتعبير ولكنه لم يتأت له ذلك في أولها ولم يستطع انفلاتاً من الجناس والطباق ومراعاة النظير إلا في البيتين الأخيرين حين غلبت عليه العفوية المطلقة فجاء التعبير عارياً منبسطاً بأحاسيس الشاعر ورضاه بقدره وبمصيره .

إن اللفاظية في شعر السجن على تفاوت سماتها ودرجاتها كانت لها الوجه الأسلوبي الآخر ، أما الوجه الأول فهو أسلوب الأداء الصادق الحر .

رسالة الشعر :

كانت الرسالة من الشعر مألوفة في العصر الجاهلي ، فالشعر أرقى مناحي القول عندهم ، وهو أيسر حفظاً ونقلاً ، والتراسل في المجتمع الجاهلي حاجة لازمة ، كما هو الشأن في كل تجمع إنساني وكان يسخرها في أغراضه الذاتية والقبلية والسياسية والفكرية ، فكان الشوق أو التحدي والوعيد والتهديد أو النصح والحكمة يوجز في أبيات معدودة موجهة إلى المرسل إليه ، وكانت كلمة « رسالة » تعني أحياناً الحب او الرأي او النصيحة [1] وكانت لها أسماء عدة تفيد

---

(١) قال زهير بن أبي سلمى في معلقته (ديوانه : ص ١٨) :
فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

كلها الإرسال والانتشار فالرسالة تسمى مغلغلة ومألك او مألكة [1] .

وكانت للرسالة الشعرية رسوم ميسورة معروفة ولكن من الخير أن نتعرف على خصائصها من رسائل الأسرى والسجناء التي كانت من الكثرة بمكان [2] ويمتاز أغلبها بالقصر وإيجاز الغرض ووضوحه وذكر اسم المرسل إليه أو المرسل اليهم في مقدمة أبياتها ، كما تمتاز بخلوها من المقدمات الإضافية التي تصدرت القصيدة العربية .

وغالباً ما تبدأ بالطلب « أبلغ أو بلّغ » والأمثلة وافرة ، نجدها في أول الأبيات التي أرسل بها قيسرة بن كلثوم السكوني الى قومه في الأسر [3] .

بلغا كندة الملوك جميعا   حيث سارت بالأكرمين الجمال

وقال طرفة[4] :

أبلغ سراة بني بكر مغلغلة   فجدع الله من آذانها اليمنا

وهي إن لم تبدأ بها وردت في أثنائها بعد نداء أو غيره ، قال عدي بن

---

(١) قال طرفة من مقطوعة في حبسه (ديوانه ـ شرح الشنقيطي ـ ص ٤٢) :

أبلغ سراة بني بكر مغلغلة   فجدع الله من آذانها اليمنا

وقال عدي بن زيد من قصيدة في سجنه (ديوانه ص ٦٠) :

أبلغ النعمان عني مألكا   قول من خاف اضطغانا فاعتذر

(٢) انظر البحث (ص ١٤٢) وكان السجناء أكثر الناس حاجة الى التراسل ، ويكشف عن هذا الشعور أبيات من قصيدة لهدبة بن خشرم قال فيها :

ألا ليت الرياح مسخرات   لحاجتنا تراوح أو تؤوب

فتخبرنا الشمال إذا أتتنا   وتخبر أهلنا عنا الجنوب

بأنا قد نزلنا دار بلوى   فتخطئنا المنية أو تصيب

الحماسة البصرية : ٤٤/١ .

(٣) انظر البحث (ص / ١١) والأبيات في الأغاني : ١٢٥/١١ .

(٤) انظر القصيدة في حديث حبسه ص ١٥٤ .

زيـــــد [1] :

يــا أبــا مسهــر فــأبـلغ رســولا إخــوتي إن أتيت صحن العــراق
أبــلغــا عــامــرا وأبــلغ أخــاه أنـني مـوثـق شـديـد وثـاقـي

وكلها تعنى ـ كما ذكرنا ـ بتعيين المخاطبين وسرد أسمائهم ، ففي التعيين عرض محدد هو إناطة الطلب او المسؤولية بهم ، وهو واضح في الأمثلة السابقة وفي قصيدة أرسلها سعيد بن العاص الى قريش لما حبس عنـد الغساسنـة في الشام [2] .

يــا راكبــا إمــا عــرضـت فـبـلغــن قـومـي : يــزيــدا
عــثــمــان أو عــفــان او أبــلـغ مـغـلـفـلـة أسـيـدا
فــلأمـــدحـن الـمــادحـيــن بـمــدحــة تــأتــي شــرودا

وحافظت رسالة الشعـر على هذا الـطابع في الإسـلام ولم يعترهـا تغيير جوهري شكلاً ومضموناً عند الشعراء الذين لم يزاولوا مهنة الكتابة [3] .

وقد يستعاض عن كلمـة « بلغ » بعبارة الإرسـال «الى فلان»، الـواردة في رسائل النثر ؛كتب الفرزدق الى سعيد بن الوليد الأبرش بأبيات ليكلم له هشام بن عبد الملك في إطلاقه [4] :

---

(١) ديوان عدي بن زيد : ص ١٥١ تخريج ٩٢ .
(٢) الإصابة : ٣٧٦٤ .
(٣) من هـذه الرسـائل قصيـدة أرسلها إسمـاعيـل بن يسـار من السجن الى أبنـاء أخيـه يستحثهم لمعونته يقول فيها :
أبـلغ معـانـا عـني وإخـوتـه قـولا ومـا عـالم كمن جهـلا
الأغاني : ١٠/١٣٣ .
(٤) الأغاني : ١٩/٢٤ .
وقال الفرزدق في السجن :
أبـلغ أميـر الـمـؤمـنيـن رسـالـة فعجـل هـداك الله نـزعـك خـالـدا

الى الأبرش الكلبي أسندت حاجة | تـواكـلهـا حيـا تـميـم ووائـل
على حين ان زلت بي النعـل زلة | فـأخلف ظني كل حـاف ونـاعـل
فـدونكم يـا بن الـوليـد فـإنهـا | مفضلة أصحـابهـا في المحـافـل
ودونكهـا يـا بن الـوليـد فقم بهـا | قيـام امرىء في قـومه غيـر غافـل

ففي هذه الرسالة التي لم تزد على أربعة أبيات نجد اسم المرسل إليه ولقبه ، وإيجاز وصف الحال ، والتحضيض على العون والإطماع في المدح في رغبة صادقة ، ووضوح ، وأسلوب واقعي مباشر قريب من أسلوب النثر .

ولكن الرسالة الشعرية اكتسبت عند الشعراء الكتّاب خصائص كثيرة من خصائص رسالة النثر ، وكان ذلك أيضاً منذ الجاهلية ، فالشاعر عدي بن زيد الـذي نجد في ديـوانه ثـلاث قصائـد على الأقل ، وجـه بها رسـائل الى ابنـه واخوته [1] وبعض أصدقائه كان كاتباً عند كسرى ، وتدل قصيدتـه التي أرسلها الى صديق له اسمه عبد هند ، من أسرة النعمان بن المنذر كانت بينهما مداخلة ومودة ، تدل على ما نقل عدي الى الشعر من أساليب الكتابة : وإذا كان بدأها باللفظ التقليدي « ابلغ » :

أبلغ صـــديقي عبـــد هنـــد فـــلا | زلت قريبا من سواد الخصوص [2]

فإنه شفع ذلك بالدعاء الطويل في ستة أبيات كالمقدمة في رسـالة النثـر (الأبيات : ١ ـ ٦) ثم سأل صديقه ألا ينساه ، وأثنى عليه ، وعرض ذكريـات الأيام الخوالي وما كان لهما فيها من اللهو والقنص بالمقارنة بما هو فيه من سوء وحبس في ستة أبيات (٧ ـ ١١) ثم أطلق ما في نفسه من الأماني وأحلام العودة الى نعيم الماضي في ستة أبيات (١٣ ـ ١٨) وختم الرسالة بما يلقى في سجنه من العذاب وبما يتوجس من خوف القتل في أربعة أبيات (١٩ ـ ٢٢) .

---

(١) انظر ديوانه : ص ٣٣ ق ١ ، وص : ١٥٠ تخريج ٩٢ .
(٢) ديوان عدي بن زيد ص ٦٨ ـ ٦٩ ق ١١ ، ٢٢ بيتاً .

وخصائص الكتابة او الرسالة النثرية بيّنة في طول القصيدة ووضوح أقسامها وتعادل هذه الأقسام ، وفي المقدمة والخاتمة وبيان الغرض تعريضاً لا تصريحاً وهو بذل المساعي عند الملك من أجله وفاء بحق الصداقة .

وتعد هذه القصيدة في الحق على قدمها من خير النماذج في بيان أثر الكتابة في أشعار السجناء ، وليس من جديد في العصور الإسلامية في هذا الجانب سوى الكثرة وتنوع الموضوعات وتعقيدها أو تعميقها بألوان الثقافة وأساليب الكتابة ، وإذا كان بعض الكتاب كعدي بن زيد وأبي إسحاق الصابي على شاعرية حسنة حفظوا لرسالة الشعر رونقها وطلاوتها ، فالكثير من الكتّاب الذين نظموا جعلوا رسائلهم الشعرية كالنثر صياغة ومعنى لا تتميز بغير الوزن فظهرت الألفاظ الكتابية في أشعارهم ، ففي قصيدة قصيرة (٧ أبيات) أرسلها الوزير العباسي سليمان بن وهب الى أخيه قال في ختامها[١] :

هذه جملة أراك غنياً　　　معها عن أداك بالتفصيل
ولعل الإله يأتي بصنع　　　وخلاص وفرجة عن قليل

والبيت الأول ألفاظه ديوانية ، وتنوعت موضوعات الرسائل من شكوى وعتاب وإخوانيات ومداعبات [٢] ، وملح أدبية [٣] ومن أظهر آثار النثر في أشعار السجناء حسن العرض والتعليل وعمق التحليل الذي يبدو واضحاً في هذه الأبيات لأبي إسحاق الصابي التي كتب بها وهو محبوس إلى صديق له [٤] :

نفسي فداؤك غير معتد بها　　　إذ قد مللت حياتها وبقاءها

(١) الفرج بعد الشدة : ١٧٤ .

(٢) من أطراف المداعبات رسالة من عشرة أبيات داعب فيها أبو إسحق الصابي الأديب أبا الفرج الببغاء ، انظر يتيمة الدهر (٢٥١/١) .

(٣) انظر طائفة من هذه الملح في المغرب في حلى المغرب (٢٥٣/٢) لأبي عامر بن عقيد .

(٤) يتيمة الدهر : ٢٦٨/٢ .

ولـو ان لي ما لا سـواهـا لم أكن   أرضى لنفسـك أن تكـون إزاءهـا
لكن صفـرت فلم أجـد الا التي   قـد آن لي أن أستـطيـل ذمـاءهـا
فـإذا شكـرت لمن فـداك فـإنني   لـك شاكـر أن قد قبلت فـداءهـا
وكـأنني المفـدي حين أرحتني   من نـائبـات مـا أطيق بقـاءهـا

أما الذي وسع رسالـة الشعر وأعـطاها مضـامين النثر وحملهـا ما تحمـل المقامة من الاقتباس والتضمين والإشارات الأدبيـة والتاريخيـة والدينيـة ، ومن أنواع البديع في مهارة الكاتب ووصفه وليس في طَبع الشاعر وبراعته فهو أبو بكر الخوارزمي [1] ، وقد استهل قصيدة له بعبارة الكتاب وأساليبهم :

كتـابي أبـا نصـر إليـك وحـالتي   كحـال فريس في مخـالب ضيغم
أرق من الشكوى وأدجى من النوى   وأضعف من قلب المحب المتيّم

سقاط السجن الى الأدب :

أوحت أحـوال الأسر والسجن ببعض الصـور للشعـراء ، ولعـل أقـدمهـا وأشهرها في الخيال العربي صورة المحب الأسير ، قال أعشى قيس :

صحا القلب من ذكرى قتيلة بعدها   يكون لها مثل الأسير المكبـل [2]

ولا يكاد شاعر يصف تعلقه بمحبوبته حتى تخـطر له هـذه الصورة [3] ، ونجدها على اتساع وتفصيل ترسم مشهداً واضح الحدود والملامحصادقالإيحاء في بعض شعر طرفة قال [4] :

---

(١) انظر في يتيمة الدهر (٤/٢٠٥) قصيدة كتبها في سجنه في سجستان إلى الأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي (٢٤) بيتاً .
(٢) ديوان أعشى قيس : ٢٢٧ .
(٣) انظر مطلع بردة كعب بن زهير :
بـانت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول   مـتيم إثـرهـا لم يـفـد مكبـول
ديوان كعب بن زهير : ص ٦ .
(٤) ديوان طرفة بن العبد : ص ١٤٤ ، الطبعة الأوروبية ـ ١٩٠ .

وبت أراعي النجم لا أطعم الكرى كـأني أسير طـائـر القلب خـافقـه
يعـالـج أغـلال الحـديـد مكبـلا وقـد عدن بيضـا كالثغـام مفارقـه

ولاحت لهم صورة الأسير في بعض مشاهد الطبيعة والحيوان ، قال عنترة في وصف نجم :

كـأن الجـدي في مـثنـاة ربـق أسيـر أو بمـنـزلـة الأسيـر [1]

وقال امرؤ القيس يصف ثوراً مضطجعاً :

فبـات على خـد أحـم ومنـكب وضجعته مثل الأسير المكردس [2]

ويبدو ان الذين عانوا تجربة السجن حقاً كانوا أقدر على تقـديم الصورة ملأى بالذخر والإشعاع العاطفي كبيتي طرفة السابقين وكهذه الأبيات ليزيـد بن الطثرية ، وكان سجن غير مرة قال [3] :

وكنت كـأني حين كـان كـلامهـا وداعـا وخلى موثق العهـد حـامله
رهينـا بنفس لم تفـك كبـولـه عن الساق حتى جرد السيف قاتله
فقال : دعوني سجدتين وأرعدت حـذار الـردى أحشـاؤه ومفـاصله

فنقـل الموقف الـواقعي الذي بـدأه الصحـابي الشهيـد خبيب بن عـدي ـ رضي الله عنه ـ الى الغزل وأوحى من خلاله بما في موقف الوداع والفراق من الآلام والعذاب في عرض مركز صادق .

ودخلت ثياب السجين خيال الشعراء بما كانت عليه من الاتساخ والإيذاء وقاسى منها الخطيم المحرزي ، فقال حين وصف هربـه وما أصـابه من وعثـاء الضرب في الصحارى :

---

(١) الحماسة البصرية : ٢٣/١ .
(٢) ديوان امرىء القيس : ص ١٠٢ .
(٣) الأغاني : ١٠٨/٧ .

طريد مطا حتى كأن ثيابه على جلد محزون وإن لم يكبل [1]

وصارت السجون مضرب الأمثال في الضيق ، فكان الشعراء يشبهون السجون بالقبور [2] ثم شبهوا ما ضاق عليهم من المحال بالسجون ، قال أحدهم في هجاء حمام [3] :

حرج بابه كطاقة سجن شهد الله من يجر فيه يندم

وهذا الميراث الجزئي من السجن لا يوازي ما قدمه من وصف واف مفصل لواقع السجون والسجناء وأحوالهم النفسية مما وفيناه حديثاً في « أغراض شعر الأسر والسجن » .

خاتمة :

قاد البحث في أدب السجن الى تقرير كثير من حقائق السياسة والمجتمع والفكر والفن الأدبي ، وفي ختمام الكتاب نوجز بعض الحقائق من خصائص هذا الأدب العامة والموضوعية والاسلوبية :

ـ ذاق « الأسر والسجن » عدد غير ضئيل من كبار الشعراء والمشهورين من الرجال والمغمورين ، الذين ترجمت أشعارهم عن تجربة السجن .

ـ كان السجناء شريحة من شرائح المجتمع العربي انعكست عليهم تقاليده واتجاهاته وقيمه ، ولم تنقطع صلتهم بمجتمعهم وهم محبوسون ، فكانوا ظاهرة متميزة ، وكان أدبهم كأصحابه ، أيضاً ظاهرة متميزة أتاحت دراسته النفاذ الى أغوار ذاك المجتمع والى الكشف عن التيارات الفعالة التي كانت لا تزال

---

(١) منتهى الطلب ١/٢٥٦ او ٢٥٩ .

(٢) قال محمد بن مسعود (أندلسي) من قصيدة :

في منزل مثل ضيق القبر أوسعه دخلته فحسبت الأرض تهوي بي

الذخيرة لابن بسام ٢/١٠ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣) هو كمال الدين بن الأعمى علي بن محمد الأديب ، فوات الوفيات : ٢/١٦٧ .

مستورة ، وهيأت فهماً موضوعياً متعمقاً لمواقف الشعراء .

ـ كشف شعر «الأسر والسجن»عن أثر العصر في تكوين النفوس ، وفي توجيهها ، وفي ردود فعلها ، وأوضح كيف تتغير المواقف والاستجابات والمثل في ظل نظم الحكم وتطور المجتمع وتعقده .

ـ وأظهر ، أيضاً دور العامل الفردي في بيان مزايا النفوس الكبار التي تمردت على روح عصرها واحتفظت بعنفوانها وأهدافها البعيدة ـ على ما لقيت من المثبطات ، وعاشت مأساة الألم ومحنة الانهيار .

ـ ولذلك كان أدب الحبوس على صلة مباشرة عميقة بأحداث العصور وما وراءها من الدوافع الكبرى : العامة والفردية .

ـ ادب السجن أدب انساني ترجم عن الانسان المعذب في بلواه وشقائه وصوّر هوان الانسان وانسحاقه تصويراً واضح المعالم صريحاً مؤثراً ، ولكن المدى الإنساني ظل محصوراً في أقطار الآلام والمعاناة الفردية ولم يرتفع إلى المستوى الكوني الذي يلمح الإنسانية كلها ومصيرها من خلال المأساة الخاصة .

ـ ومن ثم يدخل بنا شعر الحبس الى أعماق الشعراء فنتعرف على ذواتهم معرّاة قد أطرحت التزييف والإدعاء ، ولا تغيب عنا فيها حقيقة الانسان وخفاياه حتى في المواقف التي اصطنع فيها التمويه او الكذب .

ـ رصد شعر « الأسر والسجن » تفاعل الانسان الثائر والقانع ، والفقير والمنحرف والمخالف ، والسيد والعبد ، والملك والسوقي ، مع المجتمع والدولة ، فرصد ردود الفعل والمواقف وصوّر ذلك تصويراً دقيقاً في بيئات ذات مستويات مختلفة ما بين البداوة والحضارة .

ـ وصف « الشعر » السجون والمعتقلات من خلال الانطباعات الخاصة ، وقدم لوحات فنية واقعية مركّزة لحياة السجناء وأحاسيسهم وآلامهم ، وما كان يجري عليهم من العذاب والهوان ، وألمّ بأدق المشاعر والتطلعات الى خارج

الحبس . فكان منه حديث الحنين والشوق والأمل واليأس .

ـ دخل كثير من أغراض الشعر التقليدية في صميم التجربة الذاتية والانفعال ، فاختزنت طاقة من أحاسيس الشعراء ومكنونات وجدانية ، فالنيران والرياح والأمطار والبرق والطير والطيف كلها مرت في مضمار تجربة السجن والتفت عليها قيم عاطفية إنسانية ، كذلك اتخذت بعض الفنون التقليدية الخالصة ـ كالغزل ـ مضموناً واتجاهاً جديدين ، فخرج الغزل أحياناً عن معناه الذاتي الى ان يكون وسيلة سياسية ، وكذلك المدح والاستعطاف ينبعان من محرق المأساة ، ومن ثم كان الصدق صفة عامة في أدب السجن ، وإن جاءت مختلفة الأبعاد .

ـ لم يخرج السجناء عن طرائق النظم المحدد ولم يستحدثوا أساليب جديدة ، ومنهم من ترسم العمود الشعري ، ولكننا نلمح في « الحبسيات » تصميماً فنياً خاصاً يتجلى في وحدة العمل الفني ، وفي اخضاع عناصر النظم الجاهزة لتجربة السجن وإدخالها في صميم العملية الفنية الصادقة .

ـ شعر « الأسر والسجن » مثال متكامل للشعر العربي يمثل تقاليده ومثله الأدبية واتجاهاته وأساليبه في مختلف عصور الأدب وبيئاته .

ـ كان من المحتمل ان يتجه شعر « الأسر والسجن » اتجاهاً متحرراً وان يشق طريقاً جديدة في ظلال تجربة السجن ، ولكن الرقابة الفنية المفروضة من الوسط الأدبي كانت أقوى من المحاولات العفوية .

ـ تعد القصيدة القصيرة نموذجاً مصغراً للحبسيات الطوال ، وهي في حد ذاتها حبسية مركزة مهذبة قد سقط عنها الفضول .

ـ اما المقطوعات فهي ذات تركيز محكم ، وطاقة تعبيرية مفعمة بالمحتوى الشعوي والنفسي ، أهم سماتها العفوية والصفاء ورشاقة الإداء والإيصال المؤثر .

ـ ومن ثم تأتي الألفاظ والتراكيب والأساليب والصور في أشعار السجناء

ذات مضمون فائض عن المضمون الأصيل ، وتـأثرت الأسـاليب بالانـطلاقات الشعورية العفوية وخضعت أحياناً لمراسم الصنعة خضوعا ارادية او قاهرة .

- ثمة لمسات تجديدية في مطالع بعض الحبسيات مستوحاة من معطيات الحبس وحراسه وقيوده .

- تلك بعض الحقائق والخصائص وليس الغـرض استيفاؤ هـا جميعاً بـل التذكير بأشهرها ، ولعل فيما قدمناه من دراسة نفع لمن أراد العناية بهذا الشعر الإنساني الذي نظم في غياهب السجون .

بعون الله وبحمده تم الكتاب

المصادر والمراجع

الإحاطة بأخبار غرناطة :
ــ لسان الدين محمد بن الخطيب
ــ دار المعارف ، مصر

الأحكام السلطانية :
ــ الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد
ــ مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٠٩

أخبار أبي نواس :
ــ أبو هفان
ــ ت : عبد الستار فراج ، مصر ، ١٣٧٣

أخبار أبي نواس :
ــ ابن منظور
ــ مطبعة الاعتماد ، مصر ، ١٣٤٣

أخبار الحلاّج :
ــ نشر ماسينيون
ــ باريس ١٩٣٦ .

أخبار شعراء الشيعة :
ــ المرزباني : محمد بن عمران
ــ النجف ، ١٩٦٠

الاختيارين :
ــ الأخفش الأصغر
ــ ت : محمد السيد قباوة
ــ مكتبة محمد هاشم الكتبي ، دمشق ، ١٩٧٤

الأدب العربي في العصر الأيوبي :
ــ د/ محمد زغلول سلام
ــ مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٨

أدب الغرباء :
ــ أبو الفرج الأصفهاني
ــ ت : صلاح الدين المنجد
ــ دار الكتب ، بيروت ، ١٩٧٢

أسماء المغتالين :
ــ نوادر المخطوطات ـ المجموعة

السادسة
ـ ت : عبد السلام هرون ، مصر ١٩٥٤

الأشباه والنظائر :
ـ الخالديان
ـ ت : السيد محمد يوسف ، القاهرة ، ١٩٥٨

أشعار أولاد الخلفاء :
ـ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي
ـ نشر هيورث دن ، ١٩٣٥

الإصابة :
ـ ابن حجر
ـ مطبعة السعادة ، ١٣٢٣

الأصمعيات :
ـ الأصمعي : عبد الملك بن قريب .
ـ ت : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣

إعتاب الكتاب :
ـ ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد
ـ ت : صالح الأشتر ، دمشق ، ١٩٦٠

الأعلام :
ـ الزركلي ، خير الدين

أعمال الأعلام (القسم الثالث) :
ـ لسان الدين محمد بن الخطيب
ـ ت : العبادي والكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

الأغاني :
ـ أبو الفرج الأصفهاني
ـ ساسي
ـ دار الكتب المصرية

أمالي الزجاجي :
ـ الزجاجي
ـ ت : عبد السلام محمد هرون
ـ القاهرة ، ١٣٨٢

أمالي القالي :
ـ القالي
ـ دار الكاتب ، ١٣٤٤ .
ـ مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٤

أمثال الميداني (مجمع الأمثال) :
ـ الميداني
ـ بولاق ، ١٢٨٤

أنساب الأشراف (الجزء الرابع والخامس) :
ـ البلاذري أحمد بن يحيى
ـ القدس ، ١٩٣٨

أنساب الأشراف (الجزء الأول) :
ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى
ـ دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩

أنساب الخيل :
ـ ابن الكلبي ، مصر

الأوراق :
ـ الصولي أبو بكر بن يحيى

ـ نشر ، هيورث دن ، دمشق ، ١٩٣٥

البداية والنهاية :

ـ ابن كثير الدمشقي ، عماد الدين

ـ المجلدات : ٢ ، ٩ ، ١١

بغية الملتمس :

ـ احمد بن يحيى الضبي

ـ دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .

بغية الأرب في معرفة أحوال العرب :

ـ محمود شكري الألوسي

ـ ت : محمد بهجة الأثري

ـ دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٣٤٢

البيان والتبيين :

ـ الجاحظ

ـ ت : عبد السلام محمد هرون

ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٤٩

البيان المغرب :

ـ ابن عذاري

ـ دار صادر ، بيروت

تاريخ ابن خلدون (الجزء السابع) :

ـ ابن خلدون

ـ بولاق ، ١٢٨٤

تاريخ الأدب العربي :

ـ كارل بروكلمان

ـ ترجمة عبد الحليم النجار

ـ دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢

تاريخ اسبانيا الاسلامية (أعمال الأعلام) :

ـ لسان الدين محمد بن الخطيب

ـ نشر : ١ ، ليفي بروفنسال

ـ بيروت ، ١٩٥٦

تاريخ بغداد (المجلدان : ٩ ، ١٣) :

ـ البغدادي أحمد علي

ـ ١٩٣١

تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك ، الجزء ٩) :

ـ الطبري ، محمد بن جرير

ـ دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦

تاريخ الفكر الأندلسي :

ـ آغل بالنثيا

ـ ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥

تاريخ مدينة دمشق (المجلدة الأولى) :

ـ ابن عساكر

ـ ت : صلاح الدين المنجد

ـ المجمع العلمي العربي ، دمشق .

تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء :

ـ الصابي الهلال بن المحسن

ـ ت : عبد الستار أحمد فرج ، مصر ١٩٥٨

التراتيب الإدارية :

ـ عبد الحي كتاني ، المغرب

التنبيه والإشراف :
ـ المسعودي
ـ دار التراث ، بيروت ١٩٦٨

تهذيب التهذيب (الجزء ٢) :
ـ دائرة المعارف النظامية
ـ الهند ١٣٢٥

ثمار القلوب :
ـ الثعالبي أبو منصور
ـ ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٥

جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) :
ـ التنوخي أبو علي المحسن
ـ المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٦٣

جذوة المقتبس :
ـ الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح
ـ ت : محمد بن تاويت الطنجي ، ١٣٧٢

حسن الإصابة في أسماء شعراء الصحابة :
ـ جابي زادة علي فهمي
ـ الأستانة ، ١٣٢٤

حل العقال (مطبوع مع كتاب الأرج في أدعية الفرج) :
ـ عبد الرحمن السيوطي .

حماسة ابن الشجري :
ـ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٤٥

حماسة أبي تمام :
ـ شرح البلاذري
ـ بولاق

حماسة البحتري :
ـ البحتري
ـ ليدن ١٩٠٩ ، والرحمانية ١٩٢٩

الحماسة البصرية :
ـ صدر الدين أبو الفرج بن الحسين البصري
ـ ت : مختار الدين أحمدام
ـ حيدر آباد ، الهند ١٩٦٤

الحيوان :
ـ الجاحظ
ـ ت : عبد السلام محمد هرون ، القاهرة ١٣٦٦

خزانة الأدب :
ـ البغدادي عبد القادر بن عمر
ـ بولاق ١٢٩٩

ديوان ابن شهيد الأندلسي :
ـ جمعة شارل بيلا
ـ بيروت ، ١٩٦٣

ديوان ابن الدمينة :
ـ صنعة ثعلب
ـ ت : أحمد راتب النفاخ ، دار العروبة ١٩٧١ .

ديوان ابن زيدون :
ــ ت : علي عبد العظيم
ــ مصر ١٩٥٧

ديــوان إبـراهيم الصــولي (ضمن كتـاب الطرائف الأدبية) :
ــ ت : عبد العزيز الميمني
ــ لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٣٧

ديوان أبي الحسن التهامي :
ــ مـطبعـة الأهـرام ، الاسكنـدريـة ، ١٨٩٣

ديوان أبي فراس الحمداني :
ــ ت : سامي الدهان
ــ المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٥

ديوان أبي العتاهية (أشعاره وأخباره) :
ــ ت : د/ شكــري فيصــل ، دمشق ١٩٦٥ .

ديوان أبي نواس :
ت : أحمد عبد المجيـد الغزالي مصـر ١٩٥٣

ديوان الأعشى :
ــ محمد محمد حسين
ــ مصر الاسكندرية ١٩٥٠

ديوان بشر بن أبي خازم :
ــ ت : عزة حسن
ــ المجمــع العلمي العــربي ، دمشق ١٣٧٢

ديوان الحاجري :
ــ عيسى بن سنجر الحاجري الاربلي
ــ جمعـة عمـر خـوجـا علي الفـارسي الدمشقي ، مصر ١٢٨٠

ديوان الحطيئة :
ــ ابن السكيت
ــ البابي الحلبي مصر ١٩٥٨

ديوان الحلاج :
ــ نشر ماسينيون
ــ باريس المطبعة الوطنية ١٩٣١

ديوان حميد بن ثور :
ــ ت : عبـد العـزيـز الميمني ، مصـر ١٩٦٥

ديوان السبط بن التعاويذي :
ــ نشر مارجليوث
ــ مطبعة المقتطف ، مصر ١٩٠٣

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس :
ــ ت : عبد العزيز الميمني
ــ القاهرة ، ١٩٦٥

ديوان طرفة بن العبد :
ــ رواية الشنتمري
ــ ط . شارون ، فرنسا ١٩٠٠

ديوان طرفة بن العبد :
ــ أحمد الشنقيطي بن أمين
ــ مصر ، ١٩٠٩

ديوان الطغرائي :
ـ الجوائب ، القسطنطينية ١٢٩٩

ديوان عبد الله بن المعتز :
ـ عزيز أفندي (اعتنى به)
ـ مطبعة مصر المحروسة ، مصر ١٨٩١

ديوان عبيد بن الأبرص :
ـ ت : حسين نصار
ـ مصر ١٩٥٧

ديوان عدي بن زيد :
ـ ت : عبد الجبار المعيبيد
ـ بغداد ١٩٦٥

ديوان العرجي :
ـ جمع الطائي والعبيدي
ـ بغداد ١٩٦٥

ديوان علي بن الجهم :
ـ ت : خليل مردم بك
ـ دمشق ١٩٤٩

ديوان عنترة ؛
ـ ت : سعيد المولوي
ـ المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٧٠

ديوان الفرزدق :
ـ الصاوي ١٣٥٤
ـ مطبوعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، إعداد شاكر الفحام

ديوان القتال الكلابي :
ـ ت : إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦١

ديوان المتنبي :
ـ شرح العكبري أبي البقاء
ـ ت : مصطفى السقا ، مصر ١٩٣٦

ديوان المعاني :
ـ أبو هلال العسكري
ـ القدسي ، القاهرة ١٣٥٢

ديوان المعتمد بن عباد :
ـ ت : أحمد أحمد بدوي
ـ القاهرة ١٩٥١

ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات :
ـ نشرة د/ جميل سعد .
ـ مصر ١٩٤٩

ديوان يزيد بن مفرغ الحميري (حياته وشعره) :
ـ عبد القدوس أبو صالح
ـ رسالة ماجستير لكلية الآداب بالقاهرة ١٩٦٤
ـ نشرته مؤسسة الرسالة ، دمشق .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :
ـ ابن بسام ، القاهرة ١٩٣٩ .

ذيل الروضتين (تراجم القرنين السادس والسابع) :

ـ أبو شامة ، القاهرة ، ١٩٤٧

الروض الأنف :
ـ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي
ـ مصر ١٩١٤

الروضتين في تاريخ الدولتين :
ـ أبو شامة علي

زهر الآداب :
ـ الحصري القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن محمد
ـ ت : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ١٩٥٣ .

الزهرة :
ـ ابن داود أبو بكر محمد بن سليمان
ـ طبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٣٢

سير أعلام النبلاء (المجلدات الخمسة) :
ـ الذهبي
ـ القاهرة ١٩٥٧
ـ مصورة المجمع العلمي العربي بدمشق .

السيرة النبوية :
ـ ابن هشام
ـ ت : مصطفى السقا ، البابي الحلبي مصر ١٩٥٥

شذرات الذهب في أخبار من ذهب :
ـ ابن العماد
ـ مكتبة القدسي ١٣٥٠

شرح أبيات مغني اللبيب :
ـ ابن هشام النحوي
ـ ت : عبد العزيز رباح ، دار المأمون للتراث ، دمشق ١٩٧٤

شرح نهج البلاغة :
ـ ابن أبي الحديد
ـ دار الحياة ، بيروت ١٩٦٣

الشعراء الصعاليك في العصر الأموي :
ـ حسين عطوان
ـ القاهرة ، ١٩٧٠

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :
ـ د/ يوسف خليف
ـ القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩

شعر أعشى همدان (من كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير والأعشيين الآخرين) :
ـ مطبعة أولف هلز هوشن ١٩٢٧

الشعر والشعراء :
ـ ابن قتيبة الدينوري
ـ ت : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦٩
ـ وطبعة دار الثقافة ، بيروت

الصعلكة في العصور الإسلامية :
ـ أحمد أمين ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٢

الصلة :
ـ ابن بشكوال
ـ القاهرة ١٩٥٥

صلة الصلة :
ـ أبو جعفر بن الزبير
ـ نشر ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٧

طبقات فحول الشعراء :
ـ ابن سلام
ـ ت : محمود محمد شاكر ، دار المعارف ١٩٥٢

طبقات ابن المعتز :
ـ ابن المعتز
ـ ت : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ١٩٥٦

الطرائف الأدبية :
ـ تحقيق عبد العزيز الميمني
ـ مصر ١٩٣٧

العقد الفريد (الجزء ٥) :
ـ ابن عبد ربه
ـ ت : أحمد أمين ، مصر ١٩٦٥

العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي :
ـ د/ إحسان النص
ـ بيروت ١٩٦٣

العمدة :
ـ ابن رشيق القيرواني
ـ ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤

الغصون اليانعة في شعراء المئة السابعة :
ـ أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي
ـ ت : إبراهيم الأبياري ، دار المعارف ١٩٤٥

فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان :
ـ الواقدي محمد أبو عبد الله ، مصر ١٨٩١

فتوح البلدان :
ـ البلاذري
ـ ت : عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ١٩٥٧

فتوح الشام :
ـ الواقدي
ـ طبعة وليم ناسو ١٨٦٠

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية :
ـ ابن الطقطقي محمد بن طباطبا
ـ ت : محمد عوض إبراهيم ، دار المعارف ١٩٣٨

الفرج بعد الشدة :
ـ القاضي التنوخي أبو علي المحسن ابن أبي القاسم
ـ مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٥٥

الفرج بعد الشدة :
ـ الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا القرشي .
ـ مصر

الفهرست :
ـ ابن النديم
ـ التجارية الكبرى عن طبعة ليبسك ١٨٧٢

فوات الوفيات :
ـ ابن شاكر الكتبي
ـ بولاق ١٢٨٣

قلائد العقيان في محاسن الزمان :
ـ الفتح بن خاقان
ـ ت : محمد العناني ، تونس ١٩٦١

الكامل :
ـ المبرد محمد بن يزيد
ـ ت : أحمد محمد شاكر ، مصر ١٩٣٧

الكامل في التاريخ (الجزء ٥) :
ـ ابن الأثير
ـ طبع منيو ١٣٤٨

الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة :
ـ لسان الدين محمد بن الخطيب
ـ ت : إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٣

المحاسن والأضداد :
ـ الجاحظ (منسوب إليه)
ـ الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ١٩٦٩

المحاسن والمساوىء :
ـ البيهقي
ـ ت : أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦١

محاضرات الأدباء :
ـ الراغب الأصفهاني
ـ الشرقية والسعادة ١٣٣٠

المخصّص :
ـ ابن سيده
ـ بولاق ١٣١٨

مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية :
ـ ناصر الدين الأسد
ـ القاهرة ١٩٦٥

مطمح الأنفس ومسرح التأنس :
ـ ابن خاقان

المعاني الكبير :
ـ ابن قتبة
ـ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ١٣٦٨

المعجب في تلخيص أخبار المغرب
ـ عبد الواحد المراكش

معجم الأدباء :
ـ ياقوت الحموي
ـ طبع مارجليوث ، لندن ١٩٢٣

معجم البلدان :
ـ ياقوت الحموي
ـ السعادة ، مصر ، ١٣٢٣

معجم ما استعجم :
ـ البكري
ـ ت : مصطفى السقا
ـ لجنة التأليف والنشر ١٣٧١

المعمّرين :
ـ السجستاني ، السعادة ١٣٢٣

المغرب في حلى المغرب :
ـ أبناء سعيد
ـ ت : شوقي ضيف ، دار المعارف ١٩٥٣

المفضليات :
ـ شرح ابن الأنباري
ـ طبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٣٠

مقاتل الطالبيين :
ـ أبو الفرج الأصفهاني
ـ ت : أحمد صقر ، القاهرة ١٩٦٥

المقتبس في تاريخ رجال الأندلس :
ـ ابن حيان (المؤرخ الأندلسي)
ـ نشره ملتور أنطونية ، باريس ١٩٣٧

منتهى الطلب في أشعار العرب :
ـ محمد المبارك بن ميمون البغدادي
ـ نسخة مصورة في المكتبة الظاهرية بدمشق عن معهد إحياء المخطوطات العربية .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار :
ـ القزويني محمد بن علي
ـ القاهرة ١٢٧٠

النجوم الزاهرة :
ـ ابن تغري بردي
ـ دار الكتب ١٣٤٨

نسب قريش :
ـ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري
ـ ت : ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٣

نفح الطيب :
ـ المقري
ـ ليدن ١٨٥٥

النقائض :
ـ أبو عبيدة
ـ دار الكتاب اللبناني عن طبعة ليدن .

نهاية الأرب :
ـ النويري
ـ دار الكتب ١٣٤١

نوادر المخطوطات :
ـ ت : عبد السلام محمد هرون
ـ لجنة التأليف ١٣٧٠ ـ ١٣٧٤

هـدية العـارفين في أسماء المؤلفين وآثـار المصنفين :
ـ إسماعيل باشا البغدادي
ـ استنبول ١٩٥١

الوحشيات :
ـ أبو تمام
ـ طبعة دار المعارف

الورقة :
ـ محمد بن داود بن الجراح
ـ دار المعارف

الوزراء والكتاب
ـ الجهشياري
ـ ت : مصطفى السقا ١٩٣٨

وفيات الأعيان
ـ ابن خلكان
ـ الميمنية ١٣١٠

وقعة صفين :
ـ نصر بن مزاحم المنقري
ـ ت : عبـد السلام محمـد هـرون ١٣٦٥

يتيمة الدهر :
ـ الثعالبي أبو منصور
ـ الصاوي ١٩٣٤

« ومراجع أخرى عربية وانجليزيـة ذكرت في الحواشي »

الفهارس

فهرس الأعلام

ـ أبو ـ

ـ أ ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

— غ —

— ف —

— ق —

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس البلدان والأماكن

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

فهرس الأيّام والمعارك

فهرس الموضوعات

الفصل الأول
الأسر في الجاهلية والإسلام ١٣ - ٩٣

الفصل الثاني

السجن في الجاهلية والاسلام ٩٥ ـ ٣٧١ .

الفصل الثالث
شعر الاسر والسجن : مصادره وحجمه
وصف ونقد وتقويم ٣٧٣ ـ ٤٤٩ .

التصنيف في شعر الاسر والسجن .
تصنيف أوّلي للمصادر : مصادر الشعر قبل عصر التدوين ـ مجموعات المصادر : داووين الشعراء ـ كتب الوقائع والحروب ـ التاريخ ـ النقائض ـ السيرة وكتب الصحابة ـ العقد ونهاية الارب ـ كتب الشعر ـ كتب الادب ـ التراجم ـ كتب البلدان ـ القصص ـ كتب اللصوص ـ كتب الشواهد والشروح ـ الكتب المتنوعة ـ فصول وكتب خاصة بالسجن ـ تكامل المصادر .

الفصل الرابع

اغراض شعر الاسر والسجن وخصائصه ٤٥٠ ـ ٦٧٥